فلسطين

تموز (يولية)

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٢٣ — تموز (يوليو) ١٩٧٣

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

هيئة التحرير : المقدم الهيثم الايوبي ، بلال الحسن ، د. سعيد حمود ، احمد خليفة ، الحكم دروزة ، د. يوسف شبل ، د. نبيل شعث ، منير شفيق ، د. صادق العظم ، ناجي علوش ، حبيب قهوجي ، د. محمد المجذوب ، عبد الحفيظ محارب ، د. حنا ميخائيل .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين.

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢١/٢ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٣١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا وآسيا ، ٨ ل.ل. في سائر دول العالم .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٤٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا وآسيا ، ٩٠ ل.ل. في سائر دول العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٤٥ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف : نقشة فولكلورية فلسطينية

المحتويـــات

صفحة ٤ **الثورة الفلسطينية والتسوية السياسية** ، الدكتور نبيل علي شعث .

١٢ **عن العلاقات اللبنانية الفلسطينية** ، كريم مروة .

١٧ **القمر لم يسقط في البئر** ، محمود درويش .

٢٧ **جيش الانقاذ (١٩٤٧ ــ ١٩٤٩)** ، هاني الهندي .

٥٩ **سياسة الملك حسين الفلسطينية عبر بياناته** ، عصام الصالح .

٨٥ **شاؤول تشرنحوفسكي : بين التمـــرد والاستسلام** ، الدكتور عبد الوهاب م. المسيري .

٩٦ **ان كان لحزنك ان يهوي** ، احمد دحبور .

١٠١ **نجيب نصار في جريدته الكرمل (١٩٠١ ــ ١٩١٤) أحـــد رواد مناهضة الصهيونية** ، الدكتورة خيرية قاسمية .

١٢٤ **أضواء حول بعض قضايا المواجهة المسلحة مع اسرائيل** ، محمود عزمي ،

١٤١ **اتجاهات التجارة الخارجية لاسرائيل بعد ١٩٦٧** ، محمد ابو الحديد .

١٥٤ **المياه في اسرائيل : الوضع الراهن والتوقعات** ، خليل ابو رجيلي .

١٦٦ **ندى البشرطي : وحدها في الليلة الراجفة ... كانت الشهيدة** ، بيـــان نويهض .

١٦٩ **مراجعات** : سياسة اسرائيل الخارجية في افريقيا ، سعيد جواد . التعويضات الالمانية الغربية لاسرائيل ، أ. ن. سعد . محمود درويش شاعر الارض المحتلة ، الياس خوري . أوري أفنيري او الصهيونية المستحدثة ، الياس سحاب .

١٨٩ **تقارير** : السكان في الاراضي المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ : تحليل احصائي وتقديرات ، الدكتور محمد فريد البستاني . مذكرة مقدمة الى مؤتمر الزراعيين لدول البحر الابيض المتوسط : اوضاع العمال الزراعيين الفلسطينيين . حقيقة القدرة الاسرائيلية على ضرب أهداف عربية بعيدة ، هشام عبدالله . اشتباكات أيار الدامية في لبنان وردود الفعل في الضفة الغربية ، عيسى الشعيبي .

٢٢١ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، ع. ص. (٢) القضية الفلسطينية عربيا ، ناجي علوش . (٣) القضية الفلسطينية دوليا ، داود تلحمي . (٤) المناطق المحتلة ، عبد الحفيظ محارب . (٥) اسرائيليات ، عماد شقور . (٦) ثقافة ، أ. خ. (٧) القضية الفلسطينية عسكريا ، المقدم الهيثم الايوبي . مع ملحق عن الجديد في التسليح الاسرائيلي . هـ. ع. جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٥/١٤ — ١٩٧٣/٦/١٣ ، غازي خورشيد .

الثورة الفلسطينية والتسوية السياسية

الدكتور نبيل علي شعث

بعد ستة أعوام من حرب حزيران ، واحتلال العدو الصهيوني لكامل التراب الوطني الفلسطيني بالاضافة الى سيناء المصرية والجولان السورية ظلت الثورة الفلسطينية الطليعة الثورية المقاتلة في المنطقة العربية . فبينما استمر العدو الاسرائيلي في تعميق احتلاله للارض العربية باستيطانها ومحاولة نزع صبغتها العربية وتهويدهـــا ، وفي تحقيق هزيمة نفسية ساحقة بمعظم الانظمة العربية اقنعتها بالانسحاب من المعركة ، وفك ارتباطها بالقوى العربية المقاتلة او التي يمكن لها القتال ، وحولتها الى قوى قمع ضد القوى الثورية وعلى رأسها الثورة الفلسطينية ، استمرت الثورة الفلسطينية في نضالها الطليعي المسلح داخل الارض المحتلة وخارجها بالرغم من كل الصعاب التـــي تواجهها من العدو الاسرائيلي والامبريالية الامريكية واعوانهما من العملاء العرب . وأمام تنازلات وتراجعات استراتيجية قدمتها بعض الانظمة العربيـــة نتيجـــة الهجمة الصهيونية ـــ الامبريالية ، ظلت الثورة الفلسطينية تمثل الرفض الثوري للاستسلام ، الرفض السياسي والعسكري الذي تدعمه التضحيات وآلاف الشهداء ، وتجاه التشرذم العربي في مواجهة اسرائيل استمرت الثورة في محاولتها لتحقيق عمل وحدوي داخلها ، وبينها وبين القوى المشاركة والداعمة للثورة في الوطن العربي وخارجه ، فحققـــت نجاحا ملموسا زاد من فعاليتها .

وبالرغم من هزيمة الثورة وتراجعها في الاردن ، وبالرغم من برودة الحدود العربيـــة المحيطة باسرائيل ، وبعد سنة كاملة من الانحسار وتعذيب النفس مرت بها الثـــورة بعد سقوط جرش في صيف ١٩٧١ ، تصاعدت عمليات الثـــورة في الارض المحتلـــة فاشتعلت مدن الضفة والقطاع بالنضال السياسي الحاد ، واشتدت ضرباتها على العدو الاسرائيلي في الداخل والخارج ، وصمدت بصلابة امام هجمة ايار في لبنـــان ، وزاد التحامها بجماهيرها في كل مكان . صحيح ان الثورة لم تحرر مواقع في فلسطين ولا هي الحقت هزيمة عسكرية ساحقة بالعدو الاسرائيلي ، وهي اعمال غير ممكنة ولا متوقعة في هذه المرحلة ، ولكنها بقيت دوما بؤرة النضال الثوري العربي الاولى ، وطليعـــة الرفض الحقيقية للاستسلام العربي امام العدو . ولهذا توجـــه اليهـــا الامبرياليـــة والصهيونية وعملاؤها الضربات والهجمات والمؤامرات . ومن أجل هذا يقول باراليف : « حربنا مع الفلسطينيين طويلة وقذرة » ، وتخصص لها امريكا فرقا خاصة بقيادة سفير امريكا السابق في لبنان لقتالها والتصدي لها .

ولكن الحرب ضد الثورة الفلسطينية لم تكن ابدا حربا عسكرية تستهدف التصفيـــة الجسدية فقط وانما كانت وبنفس الدرجة حربا بالسياسة تستهدف استدراج الثورة الى

مواقع التنازل والتراجع فتفقد قيمتها الطليعية فتنشق عنها جماهيرها وتتزعزع ثقة كوادرها وتفقد مصداقيتها ، وهي نفس أساليب الحرب التي شنتها امريكا واسرائيل على الانظمة العربية الوطنية خلال السنوات الست التي مرت بعد هزيمة حزيران بواسطة ما سمي «بالتسوية السياسية لازمة الشرق الاوسط»، وتشهد منطقتنا في حزيران ١٩٧٣ آخر وأخطر فصول هذه الحرب السياسية ، وهو ما سنوجه الاهتمام اليه فيما يلي .

الاستراتيجية الامريكية في الشرق الاوسط

لكي نستطيع فهم دوافع التحرك السياسي الاخيرة ومظاهره لا بد لنا من النظر بايجاز شديد الى الاستراتيجية الامريكية في منطقتنا . فتطور أزمة النفط العالمية يزيد من اهمية مصالح امريكا في المنطقة ومن ضرورة استمرار سيطرتها عليها ، وهو ما يعتقد المخطط الاستراتيجي الامريكي انه لا يمكن تحقيقه الا باعادة ترتيب الاوضاع في المنطقة العربية لصالحه، وتخفيض الاعتماد على القوى العربية العميلة او المتحالفة معه في حماية هذه المصالح بتنمية الاعتماد على القوتين غير العربيتين المحيطتين بالشرق الاوسط العربي : اسرائيل وايران . ان العداء العربي لاسرائيل واحتمالات تغير أنظمة الحكم العربية بثورات وانقلابات داخلية امران يؤرقان المخطط الامريكي، وقد أديا تدريجيا الى نمو اعتماد الاستراتيجية الامريكية على هذين المخفرين الاماميين : اسرائيل بالدرجة الاولى ، واخيرا ايران .

وقد ركزت السياسة الامريكية جهدها في البداية على تقوية اسرائيل ودفعها لتحقيق انتصار على الانظمة الوطنية الرئيسية واهمها مصر ثم تحولت الى استدراج مصر بالعمل السياسي لاحداث تغييرات داخلية جذرية فيها ، وللقضاء على تحالفها مع الاتحاد السوفياتي وبذلك انهاء الوجود السوفياتي في المنطقة وتقليص مساعدته لدولها وقواها الثورية . وعمدت هذه الاستراتيجية ايضا الى دعم بعض الانظمة العربية الرجعية واستخدامها كقوى قمع رئيسية ضد الانظمة الوطنية والقوى الثورية . ولقي النظام الاردني اهتماما خاصا في هذا المجال مكنه من تحقيق انتصار على الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية الاردنية ، تحول بعدها النظام الاردني الى قوة قمع متحركة وداعمة للوجود الامبريالي في الخليج العربي منطقة النفط الحساسة والاستراتيجية ، والى قوة ضغط وتهديد للانظمة الوطنية في سوريا والعراق . ولكن خوف امريكا المستمر من حدوث انقلابات في الدول ذات الصلة الوثيقة بها أدى الى تحول الاستراتيجية الامريكية عن الاستعانة بالانظمة العربية بشكل رئيسي لحماية مصالحها في المنطقة . كما أن تنامي قدرة نظام الشاه القمعية ونمو الاقتصاد الايراني ساهما في بلورة الاستراتيجية الامريكية الجديدة وهي الان تتلخص بما يلي :

١ ــ استخدام القوى القمعية العربية الموالية لامريكا كخط دفاع أول عن المصالح الامريكية مع اعادة ترتيب الاوضاع في الانظمة العربية لاستعمالها في اداء هذا الدور .

٢ ــ الاعتماد على اسرائيل في تحقيق السيطرة على الاردن وسوريا ولبنان والبحر الاحمر والتصدي لمصر والثورة الفلسطينية .

٣ ــ الاعتماد على ايران في تحقيق السيطرة على منطقة الخليج والتصدي للعراق .

٤ ــ الاعتماد على الوجود السياسي والاقتصادي الكثيف لامريكا لاحداث التغييرات السياسية المطلوبة في المنطقة ، وابقاء التدخل العسكري الامريكي كخط دفاع أخير وكاحتمال قائم دائما لتأمين النفط ومصالح امريكا الاخرى في المنطقة .

دور العمل السياسي في الاستراتيجية الامريكية

استخدمت أمريكا العمل السياسي لحل ما يسمى « بأزمة الشرق الاوسط » كأداة رئيسية لدفع الانظمة الوطنية والعميلة نحو تقديم مجموعة من التنازلات والتراجعات تؤدي بالضرورة الى اعادة ترتيب الاوضاع الداخلية فيها بما يضمن تحقيق اهداف الاستراتيجية الامريكية . وقد وقع معظم الانظمة العربية في فخ هذه الاستراتيجية فدار تحركها السياسي حول قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ وتفسيراته المختلفة ، معتبرة ان تحقيقه يعيد لها الارض التي احتلتها اسرائيل في يونيو ١٩٦٧ لقاء تنازلات قانونية وشرعية اعتبرتها هذه الانظمة — في البداية على الاقل — شكلية ويمكن التراجع عنها . وكان على رأس الانظمة العاملة بهذه السياسة جمهورية مصر العربية التي وجهت جزءا هاما من مواردها وجماهيرها لبناء جيش قوي قاتل على القناة وفي سيناء ببسالة ، وانما وجه أساسا للضغط من أجل اعطاء فرصة اكبر للعمل السياسي وقوة مساومة اكبر في التحركات الدبلوماسية .

وعملت الاستراتيجية الامريكية بمهارة في هذا المجال . فهي تدعم اسرائيل لتقف موقفا صلبا امام الانظمة العربية ولتعمق احتلالها للاراضي العربية ولترفض أي تراجع عنها، ثم تضغط على الانظمة العربية لتقديم تنازلات يمكن على أساسها الادعاء باحداث الضغط على اسرائيل لتحريك العمل السياسي ، وبعد تقديم كل مجموعة من التنازلات تتصلب اسرائيل وترفض وتمر فترة من الركود ، تنتكس فيها الامال العربية في الحلول السلمية ويبدأ الاعداد للقتال ، فتدخل امريكا مرة اخرى — بشكل مباشر او غير مباشر — لتنعش الامال في انفراج سياسي جديد تتقاضى ثمنا له تنازلات جديدة ، تتصلب بعدها اسرائيل وهكذا .

ان هذا الشرح للاستراتيجية الامريكية يبالغ في تبسيطه للامور فهناك لا شك أدوار اخرى مستقلة تلعب في المنطقة ولا تتحرك رهن اشارة متخذ القرار الامريكي . وحتى الدور الاسرائيلي له في كثير من الاحيان درجة من الاستقلال والحرية في التحرك ، وهناك الادوار الاوروبية ، وهناك بالطبع العمل المضاد الذي تقوم به قوى وطنية داخل هذه الانظمة ، وهناك دور الاتحاد السوفياتي والصين ، وهناك الدور الضاغط الرافض للثورة الفلسطينية ، بل وهناك العوامل الذاتية داخل الانظمة العربية وتعقيداتها . وهناك فجوات بين ما يريده المخطط الامريكي وما يستطيع الحصول عليه من خلال محصلة القوى وفي اطار تحركه في المناطق الاخرى الهامة من العالم ، وتحت تأثير العوامل الداخلية في امريكا ذاتها ، ولكن يبقى أن خط التحرك الامريكي الرئيسي — من خلال كل هذه العوامل او بالرغم من بعضها — نجح حتى الان في تحقيق الكثير من أهدافه ان لم يكن جميعها بطبيعة الحال .

التنازلات السياسية العربية ونتائجها

ان التنازل الاساسي والرئيسي الذي عملت امريكا والعدو الاسرائيلي على انتزاعه من معظم الانظمة العربية هو الاعتراف باسرائيل والقبول بها كدولة قائمة ذات سيادة كاملة وذات حقوق في الوجود والسلامة الارضية والاستقلال السياسي والامن على جزء — على الاقل — من التراب الفلسطيني . والكثير من التنازلات الاخرى يترتب على هذا التنازل الاساسي .

ويشكل هذا التنازل صلب القرار رقم ٢٤٢ الذي أصدره مجلس الامن في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، والذي وافقت عليه مصر والاردن فورا وعلنا ثم اعتمدته دول عربية اخرى بشكل مباشر أو غير مباشر أو بتصويتها على قرارات الجمعية العامة التي تعتمد قرار

مجلس الامن أساسا لحل أزمة الشرق الاوسط . ان هذا الاعتراف بشرعية اغتصاب اسرائيل للتراب الفلسطيني هو سحب للاعتراف بحقوق الشعب العربي الفلسطيني على كامل هذا التراب وهو ينطوي على تنازل العرب عن كافة مطالبهم السابقة تجاه اسرائيل بما فيها المطالب التي كانت قد تبنتها هيئة الامم نفسها . كما أنه اجهاض لكل النضالات السابقة التي قدمها الشعب العربي بشكل عام والشعب العربي الفلسطيني بشكل خاص من أجل عروبة فلسطين وحريتها .

وقد ظل هذا التنازل الاول والاساسي يحاط بقيود وتحفظات فهو يربط اساسا في القرار بانسحاب اسرائيل من الارض التي احتلتها بعد ١٩٦٧ . وظل تنفيذ القرار يصطدم بعقبات تم تذليل معظمها وبقيت عقبتان رئيسيتان (سنناقشهما فيما بعد) هما :

أ ـــ المفاوضات المباشرة بين العرب واسرائيل .

ب ـــ حقوق الشعب الفلسطيني .

وقد قدمت تنازلات فرعية عديدة ترتبط بحرية الملاحة في العقبة والقناة الخ ... كما قدمت تنازلات اخرى هامة ترتبط بالسيادة على الارض العربية التي احتلت سنة ١٩٦٧ اهمها الخاص بالتنازل عن القدس ومناطق اخرى في الضفة الغربية وكذلك غزة ضمنا ، ثم « باعطاء » شرم الشيخ للمجتمع الدولي ، وبابقاء قوات دولية في سيناء وفي نزع سلاح المناطق العربية المحيطة باسرائيل وفي حمايتها مستقبلا من الاعمال العسكرية النظامية وغير النظامية . كما قدمت تنازلات هامة تتعلق باعادة ترتيب الاوضاع الداخلية للانظمة، وكذلك بتحالفاتها الخارجية وبوجود قوات أجنبية صديقة على أرضها لحمايتها ، وبالتصدي لقوات الثورة الفلسطينية على ارضها ايضا .

وقد حدث تراجع كبير بالنسبة للربط بين تحقيق هذه التنازلات والانسحاب الاسرائيلي من الارض المحتلة في حزيران ١٩٦٧ .

أما عن نتائج هذه التنازلات فهي صفر من الناحية الايجابية للدول العربية ، اذ لم تنسحب اسرائيل شبرا واحدا بل تعمق احتلالها وتضاعفت قوتها وازداد عدوانها الاجرامي واستمرت في خلق « الحقائق » على الارض التي احتلتها في العام ١٩٦٧ .

ولكن النتائج السلبية على الدول العربية كانت مروعة . فلقد أدت مسيرة العمل في التسوية السياسية الى اضعاف الانظمة الوطنية العربية والقضاء على وحدة القوى الجماهيرية داخلها . فقد فقدت مصداقيتها تجاه جماهيرها وتجاه الاصدقاء والاعداء ، وترتب على ذلك تردي الاوضاع الداخلية ووهن العزائم وتدهور ارادة النضال والتصميم عليه ، وبروز قوى طائفية ورجعية وانهزامية عملت احيانا بشكل مكشوف وخطر ووصلت في بعض الاحيان الى مراكز خطيرة داخل الانظمة عملت من خلالها على احباط الكثير من الانجازات الجماهيرية السابقة وقد تم ذلك كله بتكلفة اقتصادية عالية جدا بالاضافة الى الكلفة السياسية والاجتماعية .

كما أن هذه المسيرة تسببت في الكثير من التناقضات بين الانظمة الوطنية والقوى الثورية وهي تناقضات استغلتها القوى المعادية كمظلة لضرب الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية الاخرى . واستخدمتها الانظمة العميلة كالنظام الاردني كمبرر للانسحاب من المعركة مع اسرائيل ولضرب القوى الثورية . بل أن الانظمة الوطنية اضطرت من اجل استمرار العمل على التسوية السياسية الى مهادنة الانظمة الرجعية والعميلة بل والى السماح لها بتحقيق مكاسب وانجازات داخلية على حسابها .

جولة الربيع وحقوق الشعب الفلسطيني

ظل مسلسل التسوية السياسية يحوم حول الشعب الفلسطيني وتمثيله ودوره دون أن يقترب كثيرا نتيجة لاستمرار الثورة الفلسطينية في نضالها المسلح . وقد حدثت محاولات عديدة معروفة للاقتراب من هذا الموضوع فطرحت قضية تمثيل الشعب الفلسطيني وسربت مشروعات عديدة لاقامة دولة فلسطينية على جزء من التراب الفلسطيني ، واعلن مشروع المملكة العربية المتحدة ، وطرح اقتراح تشكيل حكومة المنفى واثيرت احتمالات دخولها في مداولات التسوية السياسية وقد تصاعدت هذه المحاولات بعد انحسار وجود الثورة في الاردن وتصور القوى المعادية ان الثورة في وضع ضعيف يمكن ان يضعها في اطار الهزيمة النفسية التي مني بها الكثير من الانظمة العربية بعد حزيران ١٩٦٧ وترتب عنها تيار التنازلات والتراجعات .

وقد عملت قوى عربية عديدة على محاولة اشراك الفلسطينيين في سياسة التسوية السياسية بهدف حل العقبة الكؤود الرئيسية الباقية في مسلسل التنازلات الا وهي حقوق شعب فلسطين ، فترجمة هذه الحقوق الى صيغة مقبولة من الفلسطينيين ومن الاسرائيليين والامريكيين في نفس الوقت اصبح مهمة ضرورية للانظمة العربية التي تريد التنصل من مسئولياتها امام جماهيرها والتي تريد التقدم نحو العقبة الاخرى وهي « المفاوضات المباشرة » دون خوف من جبهة الرفض الاساسية وتأثيراتها الجماهيرية العربية .

ولقد توجهت جولة الربيع السياسية لسنة ١٩٧٣ مباشرة نحو التنازلين الرئيسيين الباقيين (حقوق الفلسطينيين والمفاوضات المباشرة) وشهدت مناقشات مجلس الامن في حزيران ١٩٧٣ توجها عربيا رئيسيا نحو هاتين القضيتين ، واكبها تصريحات الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ثم اخيرا شروح وزير خارجية مصر السيد محمد حسن الزيات .

والواقع ان اهتمامنا بهذا الموضوع لا ينبع من وجود أدنى شك في احتمالات تحقيق الحل السلمي نتيجة للتنازلين الاخيرين لان اسرائيل لا تقبل بأي وجود فلسطيني مستقل على اي جزء من التراب الفلسطيني كما انها لن تسلم شبرا واحدا من الارض بعد مائة عام من المفاوضات المباشرة ، فليس هناك اي تغيير في محصلة القوى ولا في الظروف السياسية العربية والدولية مما ينبىء عن احتمال تغير الاستراتيجية السياسية الامريكية ــ الاسرائيلية بعد نجاحها مدة ستة أعوام . وليس هناك ما ينبىء عن احتمال قيام اسرائيل تبرعا وانسانية بالتراجع عن الارض المحتلة او اي شبر منها وهي في وضع القوة الذي يطمئنها الى احتمالات الحصول على كل التنازلات العربية مجانا ومع احتفاظها بكل الارض . ولكن الخطورة تكمن في أن هذه التنازلات الجديدة ستؤدي الى مزيد من الاضعاف لشرعية النضال العربي والى اجهاض روح النضال كما انها تهدد بتشكيك الجماهير الفلسطينية وشرذمتها واضعاف وحدتها والتحامها بالثورة الفلسطينية .

ولكي نستطيع رؤية وتتبع التحرك الجديد لا بد لنا من العودة لقرار مجلس الامن ٢٤٢، الذي لا يشير الى الفلسطينيين الا بجملة «ايجاد حل عادل لمشكلة اللاجئين» . ولذلك فالقرار بشكله الحالي يصمت كلية عن الشعب الفلسطيني ومصيره وحقوقه ويتجاهل وجوده تجاهلا كاملا ، وهو بذلك لا يتجاهل فقط الحقوق القومية والانسانية الثابتة التي يتمتع بها الشعب الفلسطيني ، بل أنه تجاهل أيضا الشروط التي نص عليها كل من وعد بلفور ومشروع التقسيم وقرارات الجمعية العامة المتكررة منذ ١٩٤٨ والتي

كانت ترتب التزامات على اسرائيل امام الاسرة الدولية تجاه الشعب الفلسطيني(١) . لذلك فان القرار لا يعترف للشعب الفلسطيني بحقوقه الطبيعية الثابتة كما انه لا يطالب الشعب الفلسطيني بالتنازل عن هذه الحقوق او جزء منها ، بالاعتراف باسرائيل ووجودها على التراب الفلسطيني او اجزاء منه .

ان جزءا من الجهود التي بذلها السيد محمد حسن الزيات وزير خارجية مصر العربية وغيره من السياسيين العرب والافارقة والاوروبيين في جولة الربيع كانت موجهة لهذه النقطة بالذات ، اي محاولة ادخال الفلسطينيين في صلب القرار بالاعتراف بهم كشعب (تحدث عنهم مرارا مستخدما تعبير الامة الفلسطينية) وبالتالي اشراكهم في المحادثات والمحاولات السياسية والدبلوماسية على نفس الاسس التي تشارك فيها الدول العربية . ينسحب الاسرائيليون من جزء من التراب الفلسطيني لتقيم عليه « الامة الفلسطينية » دولة مقابل اعتراف الفلسطينيين بشرعية اسرائيل وامنها وسلامتها الاقليمية على بقية التراب الفلسطيني .

يطالب السيد الزيات « بحق الفلسطينيين في ان يعيشوا بسلام داخل حدود آمنة معترف بها ، وهي نفس الحقوق التي كانت تنشدها الدولة اليهودية ومنحت لها » ويقول « ان على الدول التي اعترفت باسرائيل بعد تصويت الجمعية العامة عام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين الى دولتين يهودية وعربية ان تشعر بالتزام ايضا لاجراء اعتراف مماثل بدولة فلسطين » ويطالب « باعتراف دولي بالامة الفلسطينية التي يجب ان تقتسم الارض مع اسرائيل » ويقترح بأن تكون حدود هذه الدولة هي التي تضمنها قرار التقسيم . والزيات بذلك يربط بين قرار مجلس الامن ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ وبين مشروع تقسيم فلسطين لعام ١٩٤٧ . وهذا الربط لا يشكل اعترافا رسميا باسرائيل وموافقة من دولة عربية على تقسيم فلسطين فحسب ، ولكنه يستهدف ان يقر الفلسطينيون انفسهم تلك الحقيقة .

يشرح السيد الزيات موقفه في حديث لجريدة النهار البيروتية في ١٩٧٣/٦/١٦ فيبين انه ليس لاسرائيل الحق في الارض العربية خارج فلسطين لانها لا تخضع لقرار التقسيم ، ولا في الارض الفلسطينية التي خصصت للفلسطينيين في القرار ، « اما الارض الفلسطينية التي أعطيت الى اسرائيل بموجب قرار التقسيم وبموافقة عدد من الدول التي اعترفت باسرائيل ... فهي الوحيدة التي يمكن ان يقال ان لاسرائيل شبه الحق في الوجود داخلها » ولكنه يقرر ان هذا الحق هو تجاه الدول التي اعترفت باسرائيل كالولايات المتحدة ! ثم يضيف « ان وجود اسرائيل في جزء من فلسطين لا يمكن ان يكون شرعيا بالنسبة للفلسطينيين الا اذا اعترفوا هم لاسرائيل بهذا الوجود ». «وفي ما يخص العالم والقانون الدولي فقد تكون لاسرائيل شرعية الوجود داخل فلسطين في حدود التقسيم . اما كيف تحدد هذه الحدود ومن يحددها لتصبح بعد ذلك آمنة ومعترفا بها ومتفقا عليها فهذا امر يخص الفلسطينيين **وهم وحدهم يستطيعون اذا أرادوا ان يعترفوا لاسرائيل بهذه الحدود ، شرط ان تكون لهم هم ايضا حدود آمنة ومعترف بها ومتفق عليها** » .

ويصر الزيات في حديثه على ان المهم في الموضوع هو رفض معاملة الفلسطينيين كارهابيين او كلاجئين وقال انه اكد في مجلس الامن « على ان اي حدود لاسرائيل لن تكون آمنة بمعنى الكلمة ولن تكون معترفا بها بمعنى الكلمة الا اذا منحها الفلسطينيون

---

١ ــ انظر مقالة الدكتور غايز صايغ «ملاحظات على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢» في مجلة **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٥ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ .

انفسهم هذا الامن وهذا الاعتراف وهذا الاتفاق » اي انه اذا اعترف للفلسطينيين بأنهم « شعب وشعب عريق لا يمكن تناسيه » وله حق تقرير المصير كغيره من الشعوب فهم عندئذ يستطيعون تقرير الامن والاعتراف لاسرائيل بدورهم .

وقد أيد سكالي مندوب اميركا ذلك بقوله « ان أية تسوية دائمة وعادلة يجب ان تأخذ في الاعتبار الآمال الشرعية للفلسطينيين » ، وان « الولايات المتحدة تعتبر ان على الفرقاء ان يحددوا تماما ماذا يعني ذلك » ، والمشكلة التي يشير اليها سكالي في تحديد معنى آمال الفلسطينيين لا تخص اسرائيل فقط ، بل الاردن ايضا الذي اشار تكواع مندوب اسرائيل الى أن تحقيق آمال الفلسطينيين كما يريد الزيـــات تعني شرذمته . وهي النقطة التي نفاها الزيات ثم أوضحها لمندوب النهار بما يعني امكانية قيام اتحاد فدرالي على نسق المملكة العربية المتحدة بين فلسطين والاردن .

ان هذا التطور الجديد يمثل أخطر تنازل عربي منذ القبول بقرار مجلس الامن . فهو يشكل دعوة صريحة للفلسطينيين للاعتراف باغتصـــاب اسرائيل لوطنهم وبطردهـــم ونشتيتهم لقاء وعد لا يمكن تحقيقه باعطائهم السيادة على جزء من ارض وطنهم . كما انها دعوة لتحميلهم وحدهم المسؤولية الكاملة عن كل التنازلات العربية .

الثورة الفلسطينية والحل السياسي

لقد أدركت الثورة الفلسطينية منذ انطلاقتها في اول يناير ١٩٦٥ ان النضال المسلح بأسلوب حرب الشعب حتى تحرير كامل التراب الفلسطيني هو الطريق والاستراتيجية الوحيدة البديلة للاستسلام وضياع الاوطان . وقد عبرت الثورة عـــن ذلك في كل مواثيقها وبرامجها السياسية ومواقفها وأدبياتها . ولذلك فقد رفضت الثورة المشاركة في مسيرة التسوية السياسية دون تردد وفي كل المراحل . وأدركت ان الدخول في هذه المسيرة يجهض الاسس الاستراتيجية التي بنيت عليها الثورة بالاضافة الى انه لا يحقق للشعب والوطن شيئا ولو ضئيلا .

والثورة بذلك لا ترفض رفضا طفوليا ، عاطفيا ، انتحاريا بل ان تجارب السنوات الست قد أثبتت صحة رؤيتها وأكدت عقلانية موقفها الثوري النضالي . فقيادة الثورة ظلت تمارس العمل السياسي المرتبط باستراتيجية التحرير الاساسية ، فقد طرحت الثورة شعار وبرنامج الدولة الديمقراطية اللاطائفية الفلسطينية كنتيجة للتحرير واستخدمته كدليل لعملها السياسي كما عملت منظمة التحرير من خلال ممثليها في هيئة الامم المتحدة وفي الدول والمنظمات الاخرى على طرح القضية الفلسطينية وابراز حق شعب فلسطين في تقرير مصيره على أرضه وحقه في انشاء دولته الوطنية على ترابه . ونجحت في اقناع العديد من الدول الصديقة بتبني قرارات تدعم حقوق شعب فلسطين وتتصدى تكتيكيا لانتهاكات اسرائيل لهذه الحقوق . ولكن هذا التحرك السياسي كان ينطلق دائما من استراتيجية واضحة ترفض الاعتراف بالاغتصاب والهزيمة وتصر على حق الثورة الفلسطينية في قيادة نضال الشعب الفلسطيني لتحرير كامل تراب الوطن .

وقد واصلت منظمة التحرير الفلسطينية عملها السياسي المنبثق من هذا الاطار باعتماد مندوبها لدى هيئة الامم المتحدة لتقديم وجهة نظر المنظمة في المحادثات الدائرة حـــول حقوق الشعب الفلسطيني وهي وجهة النظر التي تعتبر الميثاق الوطني الفلسطيني والبرنامج السياسي لمنظمة التحرير والقاضية برفض التسوية السياسية المبنية على قرار مجلس الامن والاصرار على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على كامل ترابه الوطني وحقه المشروع في النضال من اجل تحقيق الدولة الديمقراطية الفلسطينية

بعد التحرير . ان العمل السياسي في كل مجال لتأكيد وجود الشعب الفلسطيني وحقوقه وللتصدي لاعدائه ومغتصبيه ولتحقيق مكاسب تكتيكية في هـذا المجال تتراكم لتخدم استراتيجية التحرير هو عمل مطلوب وضروري ولكن هذا يختلف تماما عما يطرح في مجلس الامن وخارجه ويشرح على صفحات الجرائد ويطلب تورط الثورة فيه .

والواضح ان قيادة منظمة التحرير مستفيدة من تجارب السنوات الست ، وخصوصا تجربة مشروع روجرز ، قد تجنبت الدخول في صراعات تخلق تناقضات جديدة مع الانظمة العربية التي تتبنى المواقف المشار اليها وهو موقف حكيم وواع . لقد بدأت تباشير نهاية جولة الربيع بالفشل المعتاد بتصريحات دايان عن الاستيطان في الضفة الغربية والجولان وشرم الشيخ وبايقاف محادثات مجلس الامن دون قرارات انتظارا لقمة بريجنيف ـ نكسون التي لن ينتج عنها شيء بالنسبة للشرق الاوسط. ولذلك فان قيادة الثورة الفلسطينية مطالبة بأن تستفيد من هذا الفشل الجديد بالتوجه للانظمة العربية وخصوصا النظام الوطني في مصر تطالبها بالعودة للنضال المسلح ، ولاستنهاض همم الجماهير من أجل تحرير الوطن ، ولادارة ظهرها نهائيا لامريكا ومحاولاتها وللتصدي لمصالحها في وطننا . ويبقى على الثورة الفلسطينية ـ طليعة الرفض الثوري المسلح ـ ان تستمر في عملها الاساسي فتعمق من التحامها بجماهيرها وتقدم لهؤلاء الجماهير أمثولة العنف الثوري الناجح الذي يلهب حماسها ، وفكر الثورة الواضح الذي يعبئها وينظمها ويدفع بها لتحرير الوطن .

عن العلاقات اللبنانية الفلسطينية

كريم مروة

طرحت الاحداث الاخيرة التي جرت في لبنان بين المقاومة الفلسطينية والسلطة اللبنانية ، مجموعة من القضايا الاساسية في مقدمتها قضية العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية . وأهمية هذه القضية انها مرتبطة بالقضية الفلسطينية التي تلتقي حول الاهتمام بها ، ولو بالشكل ، ولو بالظاهر ، كل القوى العربية ، على اختلاف مواقعها ومواقفها . ويعود هذا الاهتمام الى عمق ارتباط القضية الفلسطينية بالوجود العربي وبالخطر الذي يشكله وجود اسرائيل العدواني في قلب الوطن العربي وعلى حدود أكثر من دولة عربية ، على هذه الدول جميعها ، وعلى شعوبها ، فضلا عن العلاقة القومية التي تربط شعوب البلدان العربية بهذه القضية ، وهي القضية القومية الوحيدة التي لا يثير الالتفاء حولها اي حاجز من أي نوع .

وقد كان من النتائج المباشرة لقوة وجود القضية الفلسطينية بالنسبة للشعوب والبلدان العربية ، أن ثلاث حروب حتى الان ـ هي الحروب الوحيدة التي خاضتها البلدان العربية ، في ربع قرن ـ كانت حروبا عربية جماعية ضد اسرائيل ، بصرف النظر عن شكل المشاركة ومستواها من قبل هذا البلد العربي او ذاك .

وكان من نتائج الوجود القوي لهذه القضية ، أيضا ، ان كل البلدان العربية ، بدون أستثناء ، يتواجد الان على أرضها قسم من الشعب الفلسطيني المشرد خارج وطنه . وبالطبع فان حصة البلدان الاكثر قربا من الارض الفلسطينية ، من هذا التواجد ومستلزماته ، هي ، بالضرورة ، اكبر من حصة البلدان الاخرى .

القضية الكبرى والواقع الراهن الذي فرضه بقاؤها بدون حل ، أمران متلازمان . وليس بمقدور أحد ، لا في السلطة ، ولا خارجها ، ان يتجاهل الامرين ، او ان يتجاهل أحدهما .

وقد كان يمكن لهذا الوضع الا يكون ، تماما كما هو عليه الان ، موضع نزاع وصراع ، بين أصحاب القضية . الا ان ظروفا ذاتية وموضوعية تضافرت لجعل هذا الوضع واقعا صعبا ومعقدا يزداد عمق ارتباطه بالحياة اليومية في البلدان العربية وفي لبنان بشكل خاص ، مع مرور الايام .

ويظن البعض ، في لبنان ، ان مجرد الرغبة في رفض امر واقع يكفي لازالته من الوجود . الا أن الواقع المادي أقوى من الرغبات .

وفي الحقيقة ، فان وجود الفلسطينيين ، اولا ، ثم المقاومة ، بالتالي ، على أرض لبنان بهذه الكثافة كان مسألة طبيعية . فقبل قيام دولة اسرائيل كانت العلاقات بين أبناء جنوب لبنان ومدن وقرى فلسطين ، أقوى مما كانت عليه بينهم وبين المناطق اللبنانية الاخرى ، بما في ذلك العاصمة . وخلال الحرب التي نشأت في أعقاب قيام اسرائيل تعرضت قرى بكاملها في الجنوب ليس فقط للاحتلال وللتدمير ، بل للقتل الجماعي ، بشكل يذكر بفظائع النازية أيام الحرب .

لم يكن أمرا مستغربا ، اذن ، ان يلجأ المواطن الفلسطيني الهارب او المطرود من جحيم النازية الصهيونية الى لبنان . ومع الايام ، ومع النكبات التي تعاقبت على هذا الشعب، كان لبنان يستقبل ، بسهولة ، اعدادا جديدة ، وكان يكبر هذا العدد ، بفعل التكاثر الطبيعي ، حتى أصبح ، في هذه الايام ، موازيا لرقم (٤٠٠ الف) أذهل الذين بـــاتوا يضيقون « بالضيف » الشقيق . ولكن هذا الواقع الذي لا تريد الاعتراف بوجوده الفئة الرجعية الانعزالية من البرجوازية اللبنانية ، تغير ، أيضا ، باتجاه التفاقم ، بمعنـــى التزايد عددا والاتساع تأثيرا ، بفعل النتائج التي أسفرت عنها حرب حزيران .

فماذا خلفت هذه الحرب ؟ لقد خلفت أمورا عديدة :

الامر الاول ، آثار العدوان وأهمها احتلال كامل الارض الفلسطينية واجزاء من اراضي ثلاثة بلدان عربية . **الامر الثاني** ، ممارسة يومية للعدوان ولانتهاك السيادة الوطنيـــة بالنسبة للبنان ، على وجه الخصوص . **الامر الثالث** ، حالة حرب ، هي ليست حربا، وحالة سلم، هي ليست سلما، اي حالة عجز، حتى الان، على مستوى الدول العربية كلها ، عن ازالة آثار العدوان، فضلا عن العجز عن ايجاد حل للقضية الفلسطينية . **الامر الرابع**، ثورة فلسطينية على غير ارض الشعب الفلسطيني بشكل أساسي ، لم يكن ممكنا، حتى الان، تواجدها في غير الاماكن التي تمارس نشاطها فيها، ومن هذه الاماكن أرض لبنان .

هذه الامور الاربعة هي التي ينبغي الانطلاق منها ، الان ، للبحث في جوهر العلاقـــات اللبنانية ــ الفلسطينية . والمنطق الاساسي الذي يحكم هذه العلاقات هو : اولا ، كون القضية ، بالنسبة للشعب اللبناني ، قضية مصيرية ، وثانيا ، كـــون تواجد الثـــورة الفلسطينية ، جزئيا ، على ارض لبنان ، لا يعود لاختيار سهل ، بقدر ما يعود لظروف موضوعية ، مفروض على شعب لبنان ، وعلى الدولة اللبنانية ، ان يتعاملا معهـــا بمسؤولية . فكيف تعاملت السلطة اللبنانية مع هذا الواقع ؟

لقد حاولت ، منذ البدء ، ان تفرض بقوة القمع المسلح الحيلولة دون اتساع وجـــود المقاومة الفلسطينية في لبنان، وفي مقدمة اهدافها ، اولا ، أن تمنع تحرر سكان المخيمات، بالاستناد الى المقاومة ، من الاضطهاد الذي كانوا يتعرضون له ، ثانيا ، ان تمنع تطور عملية تحول الفلسطينيين في لبنان الى شعب له قضية ، ثالثا ، ان تمنع قيام تضـــامن وطني لبناني مع هذا الشعب ومع حركته الوطنية المسلحة .

ولكن الذي حصل هو أن عملية القمع هذه اصطدمت بجدار من عدة طبقات : قوة القضية وصمود ابطالها وتضامن الفلسطينيين مع حركتهم الوطنية والتفـــاف القـــوى الوطنية اللبنانية حول المقاومة والنزول الى الشارع للدفاع عنها ووقوف العالم العربي ضد عملية القمع وعدم السماح باستمراره .

وهكذا تم توقيع اتفاقية القاهرة . ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد . وتكررت المعارك والصدامات . وسقط العشرات من شهداء المقاومة . وظلوا يسقطون ، تارة على يد القوة الاسرائيلية المعتدية واحيانا ، على يد السلطة اللبنانية .

وكان واضحا بالنسبة للقوى التقدمية اللبنانية ، ولقيادة المقاومة ، ان معركة اكثـــر شمولا ، لا بد واقعة ، من اجل تصفية المقاومة الفلسطينية .

وكان ذلك يعني ، بالنسبة للقوى التقدمية اللبنانية ، ليس فقط موقفا لبنانيا من قضية عربية ، بل ، كذلك ، موقفا رسميا لبنانيا من قضية داخلية ذات طابع مصيري . ولذلك اعطت القوى التقدمية لمؤامـــرة تصفيـــة المقاومة اهتماما اساسيـــا ، في تكتيكهـــا واستراتيجيتها ، تكتيك واستراتيجية النضال الثوري من اجل احداث تغيير أساسي في

سياسة لبنان الداخلية والعربية والدولية ومن اجل اقامة الحكم الوطني الديمقرطي البديـــل .

فهي تعتبر ان الموقف من المقاومة الفلسطينية ، يعبر في ظـــروف التركيب الطبقـــي والسياسي للسلطة في لبنان ، عن امور ذات اهمية أساسية :

الامر الاول ، الاعتراف أو عدم الاعتراف بأهمية القضية الفلسطينية ودور لبنان فيها .

الامر الثاني ، الاقرار او عدم الاقرار بوجود حركة المقاومة ، كتعبير عن الشخصيـــة المستقلة للشعب الفلسطيني وعن تصميمه على النضال ، بمختلف الوسائل ، من اجل حقه في وطنه وأرضه .

الامر الثالث ، الاقدام او الاحجام عن المشاركة في المعركة لتصفية آثـــــار العدوان والتصدي للاعتداءات الاسرائيلية المتكررة ، مع ما يستوجب ذلك من وضع خطة دفاعية ومن تعاون وتنسيق مع البلدان العربية ومن موقف حازم من الدول الامبريالية ، ومن توطيد للعلاقات مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية .

الامر الرابع ، الرضوخ او الصمود ازاء الضغوط التي تمارسها اسرائيل والامبريالية الاميركية والرجعية العربية ،لضرب المقاومة ولضرب القوى التقدمية معها .

ولكل موقف من هذه المواقف سياسة متكاملة بالنسبة للسلطة القائمة تتحدد ، فـــي ضوئها ، الخطة العامة لنضال الحركة التقدمية . وعندما نطرح قضية الموقف مـــن المقاومة نأخذ بعين الاعتبار الوضع الذي نشأت فيه هذه الحركة والمؤامرات التـــي تعرضت لمنعها من التطور .

وقد كان طبيعيا أن تتجند ليس فقط للدفاع عن المقاومة ، بل للاسهام في عملية تطويرها، كل القوى التقدمية في البلدان العربية . لان ذلك يشكل مهمة من مهماتها الراهنة . ومع التطور الذي حصل في سياسة المقاومة وفي اتجاهاتها وتحالفاتها ، اشتدت المؤامرة الاستعمارية الصهيونية الرجعية لتصفيتها . فقد كانت كل القوى المعادية تريد لها أن تظل في نفس الاطار الذي نشأت فيه ، ولا تتجاوز حدود المفاهيم التي كانت في أساس نشوئهـــا . الا أن ذلك كـــان ضد منطق الاشياء . ولو أن حركة المقاومة ظلت تراوح مكانها من حيث العلاقات بين فصائلها ، ومن حيث المفـــاهيم ، ومـــن حيث المواقف السياسية والتحالفات ، لكانت لعبت دورا سلبيا ، ليس ضد نفسها وقضيتها وحسب ، بل ضد كل حركة التحرر الوطني العربية . وقد لعبت دورا مؤثرا في هذا التطور ، عوامل عديدة ، داخلية وخارجية . ومن بين هذه العوامل :

اولا ، تردي الوضع العربي وبروز دور الاجنحة اليمينية في حـــركة التحرر الوطني العربية . **ثانيا** ، تعقد أزمة العدوان وتعمق المأزق أمام ضرورة الحل . **ثالثا** ، تزايد دور الاحزاب الشيوعية ، ولا سيما الحزب الشيوعي اللبناني ، في مساندة حركـــة المقاومة بكل الوسائل وتعميق صلاته السياسية معها ، وتقديم الشهداء في الدفاع عنها وفي خوض المعارك معها . **رابعا** ، تطور مواقف اليسار الفلسطيني داخل الحركـــة وتعاظم الدور الذي لعبه داخلها . **خامسا** ، انكفاء الرجعية العربية عنها ومشاركتها في التآمر الصهيوني الامبريالي لتصفيتها . **سادسا** ، تعمق واتساع تحالفاتها الدولية، مع الاتحاد السوفياتي وبلدان المعسكر الاشتراكي وكل الحركة الشيوعيـــة والثورية العـــالمية .

وانطلاقا من التحديد الذي تعطيه القوى التقدمية للسلطة السياسية في لبنان كانت هذه القوى على قناعة ، زادتها الاعمال الملموسة قوة ، بأن هذه السلطة تحضر، بالاتفاق مع

اعداء المقاومة في البلدان العربية وخارجها ، مؤامرة لتصفيتها . وقد ساعدت اسرائيل باعتداءاتها المتكررة ، في اعطاء المبررات من أجل القيام بهذه الحملة .

وهكذا كان عدوان العاشر من نيسان المبرر والذريعة للبدء بالمعركة . وقد عجل بهـا رعب السلطة ازاء تظاهرة ربع المليون استنكارا للعدوان وتضامنا مع ابطال المقاومة الذين اغتالتهم مخابرات اسرائيل في قلب شوارع بيروت .

وهكذا كانت الاحداث الدامية التي خلقت معها وضعا خطيرا لم تكن تظاهرة ربع المليون الا تعبيرا عن امكانية وقوعه في حال تعرض المقاومة للضرب .

وكان يمكن للمبررات المباشرة الا تكون مبررات للبدء في عمليات الثاني من ايار لو أن السلطة لم تكن تخطط للضرب . اذ ان حالات عديدة من النوع الذي حصل ، ـــ وهو أمر لا نقره ولا نوافق عليه ولا يتفق مع خطة القيادة السياسية للمقاومة ـــ كان يجري تلافيها بمخابرة تليفونية او باجتماع لا يستغرق وقتا طويلا .

ولكن السلطة جربت الضرب ولم تنجح . ولعبت في عدم النجاح عوامل عديدة :

أولا ، صمود المقاومة في الدفاع عن النفس . **ثانيا** ، تضامن الحركة الوطنية معها . **ثالثا** ، وقوف معظم الدول العربية ضد تصفيتها ، ولا سيما سوريا التي استخدمت اقفال الحدود كشكل من أشكال الضغط المؤثرة . **رابعا** ، وقوف الاتحاد السوفياتي معها ، ضد ضربها ، ونشاطه في سبيل حل سلمي للازمة الناشئة بينها وبين السلطة، ووقوف كل الدول الاشتراكية ، موقفا متضامنا معها ، وكذلك وقوف العديد من الاحزاب الشيوعية والثورية في البلدان الرأسمالية ، معها . **خامسا** ، عدم انجرار عدد مـن الدول الاوروبية الغربية ، كفرنسا ، في تأييد مخطط التصفية ، بالنظر للمخاطر التي يشكلها مثل هذا الامر على الوضع في كل المنطقة . **سادسا** ، عدم اجماع البرجوازية اللبنانية ، باطرافها المختلفة ، على موقف التأييد للسلطة في عملية التصفية ، واتخاذ بعض اطرافها مواقف تهدئة . **سابعا** ، ردة الفعل التي أحدثها ضرب الاحياء الاسلامية بالمدفعية والطائرات واتخاذ التحرك الذي قامت به الهيئات الاسلامية طابعا طائفيـا خطير النتائج . **ثامنا** ، تحرك القطاعات الاقتصادية بتأثير النتائج التي تركتها الاحداث على الوضع الاقتصادي .

جميع هذه العوامل لعبت دورا في ايقاف القتال وفي الخروج الحالي التدريجي من الازمة. ولكن الازمة لم تنته والقضية لا تزال قائمة ، والسؤال لا يزال مطروحا :

هل هناك جولة ثانية ؟وهل ستتكرر نفس الاسباب لتقود الى نفس النتائج ؟

ذلك ان اسرائيل تحضر الان لعدوان على لبنان . وبات الجميع يتحدثون عن هـذا العدوان . واميركا تنشط ، بشكل محموم ، عبر سفارتها ومبعوثيها السريين والعلنيين، ولا سيما عبر عملاء مخابراتها المبثوثين في لبنان ، والبعثة العسكرية ذات الخبرة في حرب الشوارع ، التي تزور لبنان ، من أجل الضغط للقيام بجولة ثانية .

ولكن المقاومة ، ومعها القوى الوطنية والتقدمية وقوى اخرى كبيرة التأثير ، ستقف بوجه هذه المحاولة من أجل احباطها ، وستسهم في منع الصدام جميع العوامل التـي اسهمت في وقف اطلاق النار . وسواء وقع اتفاق محدد ام لم يوقع ، فالقضيـة تبقى قضية ادراك جميع الاطراف المعنية بضرورة العمل لايجاد صيغة للتعايش لا مفر من البحث عنها وتحديد بنودها . وليس مهما شكل الاتفاق ، بل المهم هو مضمونه والالتزام بتنفيذه ، أي بالامتناع عن كل ما من شأنه ان يعيد الاقتتال . وقد يكون صعبا بالنسبة للسلطة اللبنانية ان تعترف بواقع ظلت ترفضه ، برغم وجوده وتطوره ، خلال السنوات

الماضية . الا أن التعامل مع الواقع ، في مثل هذه القضية ، هو ضرورة وطنية ، فضلا عن كونه ضمانة لمنع حدوث ما هو اكثر ايلاما . وقد أثبتت الاحداث الاخيرة ان الوضع اللبناني في حال تكرر الصدام ، قابل للتفجر بشكل تصبح معه الامور اكثر صعوبة وتكون النتائج المدمرة صعبة التقدير . فليس لبنان مثل الاردن ، ولا هو في وضع أي بلد عربي آخر من نواح عديدة . ولذلك، ولكي لا تتكرر الاحداث الدامية ، ولكي تتكون الضمانات الكافية ، في المرحلة الراهنة ، من أجل تعايش مقبول ، يصبح من الضروري الاخذ بما اقترحته الاحزاب التقدمية في المؤتمر الصحفي الذي عقده كمال جنبلاط . وهذه الاقتراحات هي : « **اولا** : اجراء تبديل جوهري اساسي في العلاقة بين السلطة اللبنانية وبين المقاومة ، يعود بنا تلقائيا ونهائيا الى تنفيذ سياسة التعاون والمشاركة لاجل تحقيق الانضباط العام في اطار الاتفاقيات المعقودة. « **ثانيا** : وضع وتنفيذ سياسة خطة دفاعية تهدف الى صيانة الاجواء والشواطىء اللبنانية ، والتخلي عن سياسة تنمية القوى المسلحة لغاية القمع الداخلي والتصدي للحركة الشعبية الديمقراطية النامية . « **ثالثا** : تحطيم دوامة الحلقة المفرغة ، التي ادخلت نفسها فيها الحكومات المتعاقبة ، الامر الذي ادى عمليا الى تنفيذ المخطط الاسرائيلي في مواجهة المقاومة الفلسطينية . وكان الاعتداء الاسرائيلي ، عوض ان يلقى صدا ودفاعا عن الارض وعن الاجواء ، اية كانت الخسائر والضحايا، يصبح محرضا للسلطة على التضييق على المقاومة او الاقتصاص منها أحيانا في منطق عجيب يتناسى فيه الحكم بأنه الشريك الطبيعي للمقاومة في النضال العربي لأجل التحرير . « **رابعا** : العودة بالبلاد الى تنفيذ الدستور ومضامينه واعرافه البرلمانية ، في سعي جدي لتحقيق المشاركة الحقيقية في سياق ما اقترحناه بصدد تنظيم الممارسة الدستورية . « **خامسا** : تنفيذ علاقة لبنان الرسمي بالعالم العربي ، والابتعاد عن سياسة المحاور ، وعن الانحياز الدولي ، في خطة تعبر ، ضمن الظروف الجديدة ، عن المبادىء الاساسية التي ارتكز اليها الميثاق الوطني والعهد الاستقلالي الاول . « **سادسا** : تحقيق التوازن الوطني في القوى المسلحة لضمان خطة الاعتدال في التقرير، وهو المقوم الرئيسي الذي يقوم عليه الكيان اللبناني ويرتكز اليه التفاهم الشعبي في هذه المرحلة من التاريخ التي لم يتوصل بعد فيها اللبنانيون الى مستوى التوحد والانصهار ، وهم لا يزالون يعانون من نظام الكونفدرالية السياسية الطائفية مما يعيق هذا التوحد الاخير المنشود في نظام ديمقراطي علماني حقيقي تتحقق فيه واقعا وفعلا المساواة الدستورية . علما اننا ، كأحزاب وقوى تقدمية ، طالما ناضلنا من اجل الغاء الطائفية ووضع حد لمحاولات افتعال الفتن الطائفية ، هذه المحاولات التي طالما استخدمت لامتصاص النقمة الشعبية ، ولتمويه حقيقة التناقض الاجتماعي الاساسي في لبنان ، ومؤكدين على الدوام ان الصراع الاساسي في لبنان ليس صراعا طائفيا ، بل صراعا سياسيا اقتصاديا اجتماعيا ... ونحن نؤكد من جديد دعوتنا الى ازالة الطائفية السياسية في كافة مجالات الادارة والتمثيل السياسي كي تتأمن المساواة الحقيقية بين المواطنين حيث تحل الكفاءة والامكانيات مكان جميع انواع التمييز الطائفي . »

القمر لم يسقط في البئر

محمود درويش

[فصل آخر من كتاب عن تجربة محمود درويش الاسرائيلية]

ـــ ماذا تفعل يا أبي ؟

● أبحث عن قلبي الذي وقع في تلك الليلة .

ـــ وهل تجده هنا ؟

● أين أجده اذن !. أنحني على الارض والتقطه حبات حبات كما تجمع الفلاحات ، في تشرين ، حبات الزيتون .

ـــ ولكنك تلتقط حصى !

● شيء كهذا يمرن الذاكرة والبصيرة . وما أدراك ، قد يكون هذا الحصى تكلس قلبي. واذا لم يكن ـــ أكون قد تعودت على محاولة البحث وحدي عن شيء حين ضاع ضيعني . وان مجرد البحث عنه دليل على أنني أرفض الاندماج بضياعي . وعلى الطرف الثاني من المحاولة دليل على أنني ضائع طالما لم أجد الشيء الذي أضعته .

ـــ وما تفعل أيضا يا أبي ؟

● أعثر على الحصى الذي يشبه قلبي وأحوله بأصابعي الملتهبة الى كلمات تجعلني في حوار مع البلد البعيد . نصير لغة قابلة للتجسيد .

ـــ ألا تقول كلاما آخر ؟

● أقول ولكنني لا أفهمه ، وتصير المرأة التي أخاطبها غربة ثانية .

ـــ حين كنت صغيرا .. كنت تخاف القمر ؟

● يقولون ذلك . ولكن ليس صحيحا ان الاطفال يخافون القمر دائما ..

.. لولاه لكنت يتيما قبل أواني . لم يكن قد سقط في البئر . كان أعلى من جبيني وأقرب من شجرة التوت التي توسطت دار جدي . وكان الكلب ينبح عندما يقترب . وحين دوت أول رصاصة دهشت لحفلة زفاف تحدث في المساء . وحين ساقوني الى القافلة الطويلة

رافقنا القمر الى طريق عرفت فيما بعد انها طريـــق المنفى . ولولاه ـــ كما قلت لك ـــ لضعت عن والديّ .

ـــ ماذا تذكر ايضا ؟

● أذكر أني تعلمت السفر وحدي في سن مبكرة . سافرت أمي الى عكا فغضبت لانها تركتني .وكم كنت أحب عكا !. كانت أبعد نقطة في العالم قبل سنين . وصارت الآن ـــ ويا للمفارقة ـــ أبعد نقطة في العالم مرة أخرى . كنت أحمل خمس سنين وأمشي على الشارع الاسود في اتجاه عكا .

ـــ وكيف عرفت الاتجاه ؟

● كان الشارع المعبد السائر نحو الغرب لا يعني الا السفر الى عكا . كان الحر شديدا فبكيت من الشمس والعطش . وجلست مرارا لاستريح . فكرت بالعودة فخجلت من الهزيمة .

ـــ ماذا كانت تعني الهزيمة لك ؟

● أن أطلب شيئا ولا يتحقق . أن أبدأ ولا أكمل . واكملت طريقي الى عكا . ووقفت عند مدخلها أمام مفترق طرق . كان استخدام الاتجاه الذي جئت منه ساقطا من حسابي . جربت الاتجاه الجنوبي فأوصلني الى هضبة رملية تطل على البحر . ليست أمي هنا . فعدت الى المفترق . جربت الاتجاه الشمالي فكان يقود الى بيروت. وليست أمي هناك. فعدت الى المفترق . جربت الاتجاه الغربي فأوصلني الـــى قلب المدينة . دخلت مكانا وطلبت ماء فأسقوني وسألوني عمن أبحث فقلت : أبحث عن أمي .

ـــ كيف يبحث طفل قروي عن أمه في مدينة مزدحمة ؟

● كما فعلت أنا . كنت واثقا من أنني سأجدها بين آلاف الوجوه ، ولولا خوفي من المساء الذي صار يقترب لما عدت الى القرية وحدي . ولكن طفلا في الخامسة لا بد وان يهزم . عدت الى مفترق الطرق واستعملت الاتجاه الذي جئت منه خائبا . خشيت من الليل القادم من السهل فوقفت على حافة الشارع . وقفت سيارة شحن وسألتني الى أين أنا ذاهب ، فقلت الى البروة . كانت أمي في البيت ، وكان أهل البيت والجيران يبحثون عني في كل آبار القرية . حين يضيع الطفل فلا بد أن يكون قد سقط في بئر . بكت أمي وبكيت معها ، وحين أكملت فرحتها ضربتني فأخذني جدي واعطاني حلوى .. وانتهى سفري الاول .

هذا هو طعم عكا الاول . دائما أبحث فيها عن شيء لا أجده . فتشت فيها عن أمي فكانت قد عادت الى القرية . وبعد سنين فتشت فيها عن حبيبتي فكانت تزف الى رجل آخر . وفتشت فيها عن عمل فكان الفقر يلاحقني . وفتشت فيها عن شعبي فوجدت الزنزانة والضابط الوقح . كانت آخر حدود العالم ، وأولى المحاولات والخيبة . وكان سورها يتآكل في الزمن .

ـــ تذكر شيئا آخر عن بداية العالم ؟

● أذكر شكلا غامضا ساعدني على الاستعانة بالخيال والحلم . كان الواقع يتعرض لعملية انقطاع قبل أن يأخذ شكله النامي في وعيي . وفي ظروف لاحقة كان لزاما عليّ

ان أعود اليه لاحتفظ بوجودي ، فكان الحلم هو المكمل . وهذا ما يجعلني في حالة حلم دائم محدودا بمبررات الضرورة ، لا منطلقا بأجنحة الوهم المترف . تصير الارض صخرة وعصفورا في آن واحد . فالواقع على حالته الراهنة — حتى وان لم يكن قانونيا — لا يعود جزءا منك بدون رباط الحلم الذي يصير أكثر واقعية من شجرة ثابتة . والحلم على حالته العامة — وان لم يكن مترفا — لا يعود حافزا لك بدون ارتباط بصخرة مهما تغيرت أشكالها . صحيح ان الاشياء لا تكون مقدسة الى هذا الحد الا اذا كانت حالتها محكا لانتمائك الى الوجود ، الا اذا كانت موضع صراع . ولكن كونك محروما منها ليس هو الحيوية الوحيدة لثمنها العزيز الى هذا الحد . والا ، فكيف نفهم اقدام فقراء البلدان المستقلة على الموت في سبيل العودة الى فقر قديم ؟ ثمة شيء ننساه في زحمة التسابق على حفظ الجمل الثورية الجميلة . هذا الشيء هو الكرامة البشرية . ليس وطني دائما على حق . ولكنني لا أستطيع أن أمارس حقا حقيقيا الا في وطني .

— لماذا تتحاشاني .. هل تبتعد عن الايام القديمة ؟

● لأفسر لك اني لا أدافع عن سعادة قديمة ، ولا أتغنى بتعاسة ماضية . ليس للعمال وطن ؟. ولكن للمحرومين من الوطن وطنا . ومن حسن حظنا — ربما — ان وطننا حق وجمال . انه لم يأخذ هذا الشكل اللاذع في جماله من اسقاطات حرماننا عليه . انه حلم في واقعه وواقع في حلمه . نحن لا نشتاق الى قفر . ولكننا نشتاق الى جنة . نشتاق الى ممارسة انسانيتنا في مكان لنا .

— قف عند هذه النقطة !

● لقد وقفت حياة آلاف الضحايا والشهداء عند هذه النقطة . لم يكونوا مخدوعين . بعضهم ما رآه ، فمات من عدوى الحب . ولكن الخارطة ليست على خطأ دائما ، وليس التاريخ على خطأ دائما . لماذا اجتمع الانبياء والفقراء والغزاة على حبه حتى درجة القتل ؟. ان الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الابيض المتوسط مع خاصرة الكرمل تنتهي بولادة بحيرة طبريا . وهناك بحر ، سموه البحر الميت لانه ينبغي أن يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملة . ومن شدة ما ازدحم الجليل الاعلى بالغابات ، كان لا بد أن تبرهن القدس على أن الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة. هذا هو وطني. ولم يكن والد صديقي المقيم في بيروت يبالغ حين شم تفتح أزهار الليمون في بيارات يافا في موعدها .. ومات .

— هو الفردوس المفقود ؟

● احذر هذا المصطلح. لان القناعة به تسليم بحالة قانونية ووجودية بلغت حد النهاية. الفرق بين الفردوس المفقود بالمعنى المطلق وبين الفردوس المفقود بالمعنى الفلسطيني هو خلو حالة الحنين والانتماء النفسي والشرعي من منطقة الصراع . ما دام الصراع قائما فان الفردوس لا يكون مفقودا بل يكون محتلا وقابلا للاستعادة . لا أعني الارتكاز الى مفهوم خسارة المعركة وعدم خسارة الحرب الذي ينطوي على دفاع عن النفس امام خسارة المعركة . ولكني أعني أنه ليس بوسع الفلسطيني أن يعامل وطنه بهذا المفهوم كما يعامل العرب الاندلس وكما ينتظر المؤمنون الجائزة . ان بين فلسطين والاندلس فرقا يشبه الموت . وان بعض السياح الثوريين ممن ينظرون الى المسألة من زاوية التشابه حسن النية وسيىء النتيجة ينطلقون من موقع الجمالية الشكلية وضبط التضامن . انهم سيكون أكثر منك لو سلمت بهذا التشابه وحاصرت حقوقك ووجودك بسياج الحنين الملهم . ولكن حين يلجأ الحنين الى البندقية تعبيرا عن بعد المسافة بين

فلسطين والاندلس ، فستجد هؤلاء السياح المغرمين ببكائيات الشعوب القديمة يحتجون على انتهاك جمال الانسجام التاريخي . ان فكرة الفردوس المفقود تغري الشعراء المفتقرين الى موضوع مؤثر ولكنها تصيب الحالة الفلسطينية بتراكم الدموع وفقر الدم. وهذا هو تفوق وطني على الجنة ، لانه يشبهها ولانه ممكن .

ـــ ألم تقف ، يوما ، على هذه الحافة حين وجدت نفسك خارج ملكية الطفولة ؟

● قبل هذا ، لا تملك الطفولة دعوى في المكان . ليس المكان الذي ولدت فيه هو دائما وطنك ، الا اذا كانت ولادتك جماعية وطبيعية . اذا كانت الولادة فردية واصطناعية فان المكان يكون صدفة . وذلك ما يشكل الفرق التاريخي بين ولادة محمود ويسرائيل في مكان واحد الآن . ان يتناسل غزاة في أرض الاخرين لا يؤلف حقا وطنيا لهم . ولكن ان يتناسل شعب في وطنه هو ديمومة الوطنية وشرعيتها . والحيلولة القسرية دون تكامل هذا الوضع ، الآن ، بسبب النفي لا تغير شيئا حاسما في تركيب الاشياء . أي أن تكامل معادلة الولادة لا يتم الا اذا كان نتيجة زواج الشعب والارض والحق . الولادة المعادية تتم الآن نتيجة علاقة بين غزاة وسيف وتوراة . ومن هنا ، لا نخشى تحول مفاهيم الحق في هذه الحالة .

معنى ذلك كله أنني لم أجد نفسي خارج ملكية الطفولة . وقد ساعدني على عدم الاقتراب من الاحساس بهذه الخسارة المعادل الآخر للوضع الذي توقف فجأة ولكنه لم يتغير في وجداني ، لان رحيلي لم يكن اختياريا . لم يكن سفرا . كان نفيا وطردا . ذلك المعادل كان مجابهة مع ظروف قاسية في المنفى لا ينحصر الحل في رفضها وينضج في مقاومتها من داخلها بل في العودة الى جذوري .. التي تبدأ من التساؤل عما أوصلني اليها . نحن الآن في سن أكبر ، وبوسعنا أن نعترض على ظاهرة رد البؤس الفلسطيني الى ظروف المنفى الداخلية وحدها ، فذلك يشكل انتصارا لاسباب المنفى ومسببي النفي حيث استطاع المجرم ان يوقع بين الجرحى وادارة المستشفى . لا أقول هذا لأشيد بحسن الادارة وصحتها، بل للتذكير بأن الغزاة لا يجب أن يغيبوا عن البال حين ننشغل بجزئيات العمل الداخلي بيننا .

لم تكن قادرا على لجم الغضب حين كان أترابك في المنفى ينبهونك الى أنك فلسطيني وليس من حقك أن تتفوق في الدروس . كانت تلك الاهانات أول مفاتيح وعيك بحالة ستسيطر على كيانك بعد بضع سنوات ، تفهم عندها ان قضيتك لا تنحصر في المطالبة بمساواة في الحقوق والحصول على مزيد من الخبز في ظروف طارئة . ولكنك في السن المبكرة اياها تلمست،بشكل غريزي، أن خلاصك من الاهانة يتم في تخلصك من الظروف التي سببت لك الاهانة . وكانت تلك بداية ارتباطك الضروري ـــ لا الصدفي ـــ بعالمك الاول . فتحولت قريتك الغامضة ذات الازقة الضيقة الواقعة على مرتفع صغير في سهل عكا الى حل لمشكلة لا تفهمها . ومن هنا ، صارت أشياء الطفولة المتروكة هناك والعودة للاحتفاظ بها أسلحة تبرهن بها على تشابهك العادي مع الآخرين ، وأدلة على امتلاكك لشروط انسانية لا تشكل سببا لتعرضك الى الاهانة . وكان احساسك بهذا البرهان يلتهب ، بشكل خاص ، في أيام الاعياد . كان الاطفال الآخرون يرتدون الثياب الجديدة ويتحدثون عن طعام العيد . وكنت تقف مع ابيك وجدك في طابور الشحاذين لتحصل على حصتك من طعام ولباس لا تعرف مصدره .

ـــ متى حدث ذلك ؟

● في عام ١٩٤٩ . بعد عام على الرحيل .

ـــ ولماذا لم يحدث في عام ١٩٤٨ .. في عام الرحيل ؟

● آه . كنا سياحا يومها . كان جدي يحمل كيسا كبيرا من النقود ، وينزهنا في لبنان . يأخذنا الى كروم التفاح لنختار الفاكهة المعلقة على الشجر . ويأخذنا ، كل اسبوع ، الى بيروت التي كانت اول مدينة أراها بعد عكا . لم تكن هجرة .. كانت سفرا ونزهة . كنا ننتظر انتصار الجيوش العربية على الغزاة خلال اسابيع ونعود بعدها الى البروة . لم نسكن مخيما . مررنا في رميش ، ثم بتنا ليلة في بنت جبيل التي ازدحمت بصراخ المنفيين وكانت حظيرة بشرية . كانت الليلة الثانية التي نبيتها خارج البيت . الليلة الاولى كانت في احد مضارب البدو في الجليل حيث أكل عشرات من « الضيوف » بيضا مقليا من اناء واحد . وفي جزين ـــ حيث أقمنا ـــ رأيت السواقي التي تسكن البيوت ، ورأيت الشلال . وحين اشتد البرد هناك انتقلنا الى الدامور وعبرنا كروم الموز ، ولعبنا على الشاطىء ، وسبحنا في البحر . عبرت الشارع الواسع يوما قبل أخي الذي لحق بي فضربته سيارة لم تصبه بجروح ولكنها أصابته بذهول لم ينج منه الا بعد سنين . وكان جدي قارئا جيدا للصحف التي وعدته بالعودة القريبة . وكنا نتحلق حوله وهو يقرأ الاخبار بنبرة عالية ونظارة نازلة . وكانت الجريدة تنقله من حزم الامتعة الى التريث قليلا ومـــن ثم الى الانتظار ، حتى لاحظنا وهنا بطيئا يزحف الى نبرته التي أخذت بالانخفاض ونظارته التي اخذت بالارتفاع الى مكانها الطبيعي . وفي ليالي الشتاء كان اخـــوان الغربة والسمر يتبادلون الرأي حول المعارك الدائرة على أرض فلسطين ، وقرأوا عن سقوط البروة .

ـــ ألم تسقط من قبل ؟

● سقطت ليلة واحدة ، ثم حررها اصحابها الفلاحون بأسلحتهم البدائية وبمساعدة من القرى المجاورة . وفور تحريرها استعدوا لجمع الحصـــاد الذي كان ينتظرهم على البيادر . ولكن جيش الانقاذ استولى على القرية ، بعد تحريرهـــا ، ولا نعرف كيف استلمها اليهود بعد ذلك .

بعد عشرين سنة ، وبعد سقوط مدن عربية كثيرة لم تعجب آرائي التي عبرت عنها بلغة عبرية لصديقي رجلا كان يجلس في المطعم ، فانبرى للدفاع عن الظلم الاسرائيلي بذريعة ظنها مفحمة . قال لي انك لا تعرف العرب ولو كنت تعرفهم لما تكلمت عن العدل بهذه اللهجة . طلبت منه أن يزيدني علما ، فقطب حاجبيه وسألني ان كنت قد سمعت بقرية اسمها البروة . قلت : لا ، فأين هي ؟ قال : لن تجدها على سطح الارض ، فقد نسفناها ومشطنا ارضها من الحجارة ثم حرثناها وأخفيناها تحت الاشجار . قلت : لاخفـــاء الجريمة ؟ احتج مصححا : بل لاخفاء جريمتها تلك الملعونة . قلت : وما جريمتها ؟ فقال : لقد قاومتنا .. حاربتنا . كلفتنا خسائر كثيرة واضطررنا الى احتلالها مرتين . في المرة الاولى ، كنا نتناول طعام العشاء ، وكان الشاي ساخنا ففاجأنا الفلاحون واستردوها منا . كيف نقبل هذه الاهانة ؟ أنت لا تعرف العرب وها أنذا اقول لك .

حين اخبرته انها قريتي حاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدثني عن السلام . ثم دعاني لزيارة دكانه الذي يعـــرض فيه للمزاد العلني الامتعـــة والادوات المنزليـــة المسروقة من مدينة القنيطرة .

بعد أيام ، كانت مستوطنتان يهوديتان تحتفلان باليوبيل الفضي لنشوئهما على اراضي البروة . وكنت اتحدث في مؤتمر صحفي عن الظلم اللاحق بالعرب ، فتصدى لي مراسل صحيفة الاستيطان . لوحت له بنبأ الاحتفال فحاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدثني عن السلام .

هكذا هم .. يرتكبون الجريمة وينفونها وحين تواجههم الضحية ينحرفون بالكلام الى السلام .

« وأعطيتكم أرضا لم تتعبوا فيها . ومدنا لم تبنوها فأقمتم بها ، وكروما وزيتونا لم تغرسوها وأنتم تأكلونها » .

— وهل حدث أن زرتها بعد ذلك ؟

● حين أدرك جدي أن وجودنا في لبنان ليس سفرا ولا نزهة ، وانما هو منفى ، وان الحرب انتهت بسقوط كل شيء . وأدرك أن الكروم التي غرسها يأكلها اليهود ، وهي تتحول في يده الى بطاقة الاغاثة ، بدأ يشعر ان الخروج خطأ . صار يعي الغربة والنفي. فلجأ الى استرداد الآمال المعلقة على الجيوش بضرورة استرداد انتمائه الواقعي الى أرضه بحضور عملي . هذه الصدمة التي خلقتها خيبة الاعتماد على سلاح يحمله آخرون — وأنت أعزل الا من الحق ، خلقت « وعي التسلل » الى الارض المحتلة مهما كان الثمن والنتيجة ، من اجل تحقيق الحضور والتخلص من الاهانة . تسللنا في الليل الوعر تحت خطر الموت . لم نذهب سوية خوفا من تفكك العائلة في حالة تعرض قافلة المتسللين الى الخطر . التقينا بعد ليلتين من الزحف المضني في قرية هناك . ها نحن مرة أخرى في فلسطين . هذه هي العودة . لم نعرف أننا نستبدل اللجوء في لبنان باللجوء في الوطن . ولم نعرف ان حضورنا الجسدي في الوطن هو غياب في القانون الذي وضعه الغزاة بسرعة بالغة . سمونا «الحاضرين الغائبين» كي لا يكون لنا حق في شيء . ولكننا عرفنا أن آلافا من العائدين كانوا يوضعون — فور القاء القبض عليهم — في شاحنات عسكرية ويقذف بهم الى الحدود كما تقذف البضائع الفاسدة . وكنا نعرف ان مئات منهم قتلوا بالرصاص كي يكفوا عن محاولة التفكير بالعودة . وعرفنا ان زوج خالتي — مثلا — تسلل من لبنان منذ ذلك الحين ولم يصل حتى الآن . أيهما أكثر ايلاما : أن تكون لاجئا في ارض سواك ام أن تكون لاجئا في أرضك ؟ هذا سؤال يطرحه على الدوام القهر النفسي الذي يخلقه الواقع الاسرائيلي حين يرى المواطن العربي المحراث الاسرائيلي وهو يغوص في ترابه وجسده لاستخراج الحنطة والعنب من أجل القادمين من كل انحاء العالم ، وهو يمنع من مجرد الحج الى أرضه . هل يكون التراب قدسيا الى هذا الحد ؟ بالنسبة للفلسطيني نعم . تحاط القرى بسياج من الانظمة العسكرية يكلف اختراقها سجنا وغرامة . والقرى التي عوقبت بالهدم — وهي عشرات — اما بسبب خصوبة أرضها واما بسبب مقاومتها السيف الطالع من التوراة — يمنع أصحابها من الاقتراب منها مهما طرأت تغييرات على سياج الامن الاسرائيلي . من هنا ، كان الوصول الى القرية مستحيلا . اكتشفنا ان العودة لم تكن حلا لمسألة معيشية ولا حلا لاغتراب نفسي. ولكنها كانت تعميقا للحضور الذاتي وبديلا للنفي الاختياري ومجازفة في الاقتراب من اصول الحق والهوية . هذه هويتي وما أشد اغترابي . ولكن اغترابي هنا ايجابي لان مصدره خارج عن ارادتي ولانني حاضر . والحرقة التي تشحن علاقتي بالتربة المقدسة الممنوعة تتحول الى طاقة للرفض . وعلى الطريق من دير الاسد الى عكا تقف البروة على الهضبة اياها . لم تدلني عليها اللائحة التي تحمل اسما آخر . دلتني عليها شجرة الخروب الضخمة التي بدأت منها البحث عن أمي قبل سنين . ودلتني عليها حبات قلبي التي اكتنزت بالمطر والحنين . ليس المكان مساحة فحسب . انه حالة نفسية ايضا . ولا الشجر شجرا انه اضلاع الطفولة . كان البكاء ينهمر من اطراف اصابعي ايضا . ومرت سيارة الباص بسرعة . وعند العودة تجددت أحزان طفولتي . هذا الحلم الواقف أمامي، لماذا لا أرتديه مرة لاقول وصلت الى اللذة القاتلة؟ ان الجنود يحرسون الحلم، وسأدخله حين ينامون ؟

ـــ وهل ناموا .. ودخلت ؟

● حدث ذلك في وقت لاحق . لم يعد البكاء لائقا بمن هم في مثل سني . كنت اختبر قدرتي على مواجهة الطفل الذي تركته هنا في السابعة من العمر . صار الشوك اطول مني ومنه فضعنا معا . لم نعد نعرف اينا سيعثر على الآخر . ولكنني لم أر، من قبل، عصافير بمثل هذه الالوان الخضراء والزرقاء . جرحتني شوكة حادة ففرحت لانها نقطة الوصول . كنت غارقا في الاحساس بالحج ، ولكن لم أجد الكعبة . من اعطى الارض هذه الوحشية الا الهجر ؟ . كبرت اشجار الصبار التي رمى الانجليز أبي فيها وقطعوها عليه بالفؤوس، فأخرج الطبيب من جلده مائة شوكة غير التي اختفت في اللحم . من اكثر حظا يا ابي ؟ ذاك الذي أكل الشوك وواصل تربية الارض ، ام ذاك الذي جاء الى الارض فلم يجد الا الشوك ؟ . وهذا الراعي الصغير الذي ادهشته تحيتي : من اين أنت ؟ من اليمن ؟ أخبرته انني من هذه القرية ، فظنني رومانيا لانه يعتقد أن هذه الاطلال آثار قرية رومانية . « واذا رحلنا الى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعودين عليه ، مثل الافاعي الكبيرة ، سأستخدم اهل البلاد ـــ قبل أن اعطيهم اعمالا في البلدان المجاورة ـــ ليقضوا على مثل هذه الحيوانات وسأعطي جوائز كبيرة لمن يأتي بجلد الافاعي وبيضها » هكذا قال هرتسل .. ولعل هذا الراعي القادم من اليمن يحسبني ابحث عن أفعى .

واصلت طريق الشوك والحجارة القديمة بحثا عن الطفل الذي تركتـــه هنا . لم أجد شجرة التوت التي كان يتسلقها ولا الساحة التي كان يضيع فيها . لا شيء .. لا شيء الا هيكل كنيسة ضاع منها الجرس . دخلت الكنيسة فكانت الابقار تجترني بكسل . بعد ربع قرن ستدق اجراس الكنائس اعلانا عن موت العدالة في فلسطين بعدما انفجرت مأساة كفربرعم . تأخرت .. تأخرت كثيرا . وليس لهذه الكنيسة جرس يعلن شيئا . ما عاد بوسعي ان ارضى بالاطلال تجسيدا للحلم ، لان انتمائي لم يعد غريزيا .. صار أكثر وعيا ، وصار مضمون الحلم ـــ لا انفجاره ـــ هو قضيتي .

ـــ لم تقل لي لماذا خرجتم . لماذا لم تصلوا الى هذه القناعات الا بعد هذه الخسارة ؟

● ابي يقول انهم لم يفهموا ماذا يحدث . كـــانت معركة عابرة مضمونة النتيجة كمـــا تصوروا . كان الخروج من القرى تخليصا للجسد من الموت دون أن يقابله معنى التنازل عن الارض . لم تكن فكرة الوطن تحتاج ـــ على ما يبدو ـــ الى الاجتهاد الفكري والتعبئة الجماعية والتخطيط . لم يكن المنزل والكرم والمحراث مسلحين ، ولم تكن الـــدعوة الى البقاء ـــ على ما يبدو ـــ جزءا من المعركة لانها لم تكن محددة القوى والابعاد . هل يعني ذلك أن الحس الوطني كان رديئا ؟ . كلا . بدليل ان الفلاحين كانوا يتطوعون للجهاد من تلقاء انفسهم وبدوافع وطنية خالصة . ولكن التنظيم كان هو الرديء . وكان الانطباع الشائع ـــ أو الخديعة اذا شئت ـــ يقول ان الخروج مؤقت ، لايام معدودة . فلمـــاذا بموت الاطفال والشيوخ والنساء بهذا الشكل المجاني اذا كـــان الخروج المؤقت يضمن سلامتهم ويضمن النصر معا ؟ . ان الاسرائيليين يأخذون من خروج العرب ذريعة للادعاء بغياب حس الانتماء الى الوطن والافتقار الى الجـــدارة بوطن تخلـــوا عنه بسهولة . والاسرائيليون لا يخدعون الا أنفسهـــم حين يصدقون ادعاءهـــم ، فقد قابلوا الانطباع الشائع بأن الخروج مؤقت ببنادقهم وخناجرهم التـــي أضافت سببا قويا لدفع العرب الى الخروج . ووضعوا أمامهم الاختيار التالي : اما الموت ، واما النزوح لعدة أيـــام . وان تفريغ فلسطين من العرب لم يكن اجراء طارئا استدعته ظروف الحرب ، بل كـــان خطة ثابتة في استراتيجية العمـــل الصهيوني قبل انشاء اسرائيـــل ، وخلال الحرب ، وبعدها . وقد نفذوها بالعنف المسلح ، ووجدوا فتوى دينية لها في مثال يهوشع بن نون وفي ان « يوم الرب هو يوم ارهاب » . ووجدوا فتوى سياسية لها في أمثلة تطبيقاتهم ،

ومناحيم بيغن هو الذي قال: «لولا النصر في دير ياسين، لما كانت هناك دولة اسرائيل». ولم يخفوا الغاية من مذبحة دير ياسين ، وقتها ، حين طافت سياراتهم تعلن في مكبرات الصوت الاختيار التالي : اما ان تخرجوا ، واما ان يحدث لكم ما حدث في دير ياسين . وفي كل القرى التي احتلوها ، فيما بعد ، كانوا يجمعون السكان في الساحة ويبقونهم ساعات تحت الشمس ، ثم يختارون أجمل الشباب ويقتلونهم على مرأى من أهل القرية، لكي يضعوهم امام الاختيار ولكي تصل انباء المجزرة الى القرى التي لم تحتل بعد ولكي يفرغوا احقادهم التاريخية المكبوتة . ووجد الاسرائيليون ايضا فتوى قانونية تقول ان العرب باعوا أراضيهم . ومن المؤسف ان تلتقي قناعات عربية معينة مع هذه القناعة الاسرائيلية ، دون ان يحاول اصحاب هذه القناعات معرفة ان اليهود لم يملكوا حتى عام ١٩٤٨ اكثر من ٦ بالمائة من مجموع اراضي فلسطين .

— وانتم .. ماذا فعلتم بأرضكم ؟

● اسأل عم فعلت بنا الارض ؟ قتلت جدي من القهر والانتظار . وشيبت أبي من الكدح والبؤس . وأخذتني الى الوعي المبكر بالظلم . كان جدي ملاكا موفور الحال . وحين حدث ما حدث ، وصار هو « حاضرا غائبا » كان يقضي ايامه امام مكتب الحاكم العسكري في انتظار تصريح سفر الى مدينة عكا لا لشيء الا ليرى ارضه من خلال نافذة سيارة الباص . يقضي يومه في قراءة الجرائد ويقضي ليله في التأمل واستعادة الذكريات .. وينتظر . هو الذي رباني وكنت احبه أكثر من أبي الذي كان مشغولا بالضنى واستخراج الخبز من مقالع الصخر . علمني جدي القراءة ومساحة الارض وأعمار الزيتون . وكان يشتري لي كتبا من عكا ويأخذني الى اصدقائه ليفاخر بالطفل الذي يقرأ الجريدة والكتب ويحفظ الشعر القديم ، ولا يخطىء الا في قراءة سورة يس. يقرأ لهم من سيرة عنترة والزير وروايات جرجي زيدان التاريخية الى ان ينام . وفي الصباح اذهب الى المدرسة التي لا تسجل اسمي لان أبي غير مسجل في ملفات الحكومة . من ذهب الى لبنان وعاد بعد عام او عامين لا يعود موأطنا . ومن جاء من وارسو بعد ألغي سنة يملك الحق والوطن .

وفي ساعة متأخرة من الليل يدق ضابط الشرطة باب البيت الطيني بعصاه ، ويوقظ الاسرة المؤلفة من الجد والجدة والوالدين والابناء الاربعة — وكلهم مكدس في غرفة واحدة هي الصالون وغرفة النوم والمطبخ. يتوجه الضابط الى الجد ليسأله : هل عاد أبناؤك من لبنان ؟ يعترف الجد « بالجريمة » ، ويسوق الضابط الاب والعم الى الاعتقال بتهمة التسلل الى بلادهم !.

ولم يتوقف جدي عن ممارسة الامل ، فانتقل الى قرية أخرى قريبة من أرضه . وذات صيف احتال على القانون ، فاستأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه . وهكذا أتيحت الفرصة لصاحب الارض ان يشتري ما تنتجه ارضه . وكان جدي قليل الدراية بالتجارة فخسر الصفقة ولكنه ربح فرصة للتمدد ساعات طويلة في حقله القديم وشرح لي ، تحت الشمس ، تاريخ هذا التراب الذي لا تجد فرقا بسيطا بينه وبين جلده. كان تعلق جدي بشكل الانتماء الوطني المتجسد في ملكية التراب وحنينه الى اعادة الصلة المقطوعة ، قانونيا ، والتلاحمة ، تاريخيا ووجدانيا ، أقوى من البؤس المفاجيء الذي تعرض له نتيجة حرمانه من مصدر رزقه . فلو كان انتماؤه معيشيا لحل المشكلة بفك هذا الانتماء المعيشي الذي سيضمن له الرخاء . ولكنه آثر الحرمان على بيع الارض ، لم تعد الارض تعني بالنسبة له مصدر العيش كما كانت قبل ان تتحول الى شرط الكرامة. صارت تعني له الان ، بعد مصادرتها ، مصدر البؤس المعيشي من ناحية وصيانة الكرامة الشخصية والوطنية من ناحية أخرى . وقد فضل المعنى الثاني ومات على مرأى من

ساحة الجريمة والعذاب « لن أبيعهم أرضي حتى لو مت جوعا » . وقد أورث هذا المعنى لابي الذي كان امتحانه أقسى وأعنف . انه يعيل أسرة من ثمانية افراد تسكن بيتا من الطين لا يصلح حظيرة لحيوان مدلل . ولا مصدر رزق للاسرة الكبيرة التي تطالب بالاكل والثياب والدواء والكتب غير انتحاره البطيء على مقالع الحجارة ، يصحو في الخامسة صباحا ويعود في الخامسة مساء الى النوم ليصحو قادرا على مواصلة العذاب اليومي . كان المقلع بعيدا في منطقة مصادرة سموها منطقة مناورات عسكرية ، وكان الوصول اليها يقتضي التوقيع على وثيقة الموت التي تحمل تنازل حاملها عن حياته واهدائها الى دولة اسرائيل في حالة تعرضه الى الموت .

نصحوه ببيع أرضه ليخفف من عبء لا يحتمله « لن أبيع ولو مت بين الصخور » . كان يقول دائما : ليس العمل الاسود عيبا ولكن الضمير الاسود هو العيب . كنت في السنة الاخيرة من المدرسة الابتدائية حين القيت قصيدتي الاولى على جمهور كبير جمعه اعوان الحكم العسكري للاحتفال بذكرى قيام اسرائيل . قلت كلاما ضد الحكومة والانتصار وضد الظلم والاستعمار ، فجن جنون مختار القرية المسؤول عن الاحتفال وقال : هذا الصبي جاء ليخرب بيتنا بعدما خرب بيته وبيت أهله . لماذا لا يراعون أصول الضيافة . . وغيره من الكلام الذي نسمعه الان . وفي اليوم التالي استدعاني الحاكم العسكري واسمه دوف ، فوبخني وضربني فما بكيت . وحين قال لي : سأمنع اباك من العمل في مقلع الحجارة واقطع عنه تصريح الموت ، بكيت في طريق العودة الى البيت ، لان هذا معناه ان ازداد جوعا وبردا ، والا انتقل الى المدرسة الثانوية ذات التكاليف الباهظة ، فليس التعليم مجانيا كما يظن البعض . وفي البيت شجعني أبي وقال الله يرزقنا. كان أبي بطل الصبر والامل ولم يزل .

وكانت عين الماء شحيحة في القرية وما عندنا مال لاستئجار بئر . واللاجئون ملعونون في بلادهم وخارج بلادهم . لا يعطينا أحد ماء بالمجان الا السماء ايام الشتاء . فكانت أمي تقضي نصف نهارها في انتظار امتلاء الجرة من عين الماء التي تعطي قطرات بخيلة . كانت جميلة وقاسية تنشر الرعب في البيت . وحين تكون وحدها تبكي بلا مناسبة وبلا انقطاع وتهدهد أختي الصغيرة بأغان شجية تذكر فيها سوء الطالع والحنين الى اشياء ضائعة كأنها مزامير بدائية . لم تذهب يوما الى أعراس القرية ولكنها أول من يذهب الى جنازة في القرية والقرى المجاورة . عاجزة عن الفرح قادرة على البكاء . وبارعة في السخرية .

وكان عمي ينفذ وعد هرتسل ، فيعمل أجيرا عند سكان المستوطنة التي قامت على أرضه وأرض أبيه ، في أعمال البناء والترميم والفلاحة وغيرها من الاعمال السوداء « التي لم يتعود عليها اليهود» ولا يحصل على جائزة لانه لم يحمل لهم جلد الافاعي وبيضها، ولكنه كان يسرق عنقودا من العنب من الدالية التي غرسها وصارت ملك اليهود . وفي المساء يجمع أهل البيت ليوزع العنقود حبة .. حبة .

هكذا ، آثروا جميعا ، بالفطرة والكرامة ، أن يبقوا في وضع خانق طال توقيته ، لانه يحفظ لهم الحق في سعة العالم والغد ، على أن يستريحوا قليلا مقابل التنازل عن قطعة أرض تفقدهم عالمهم الذي ليس لهم .. وليس لاعدائهم ، ولكنه لابنائهم .

ـــ وماذا أخذتَ عنهم ؟

● المعاني ذاتها ولكن في اطار مختلف . كان انتظارهم سلبيا ، وكانت الارض تعني لهم تفاصيل من التراب والكروم وملكية تصون الكرامة والعيش . أما بالنسبة لابناء جيلي فانها تعني ـــ بالاضافة الى ذلك ـــ ساحة صراع ومستقبل . فالحنين طاقة انسانية غير متحركة . انه سلاح سلبي . وقد أخذ الصراع أشكالا متدرجة أولها الرفض والايمان

بالقدرة على التغيير ، ثم الصراع ضد القوى والظروف التي جعلت مواطنا بلا وطن ، في اطار عمل جماعي لا يحاصر نفسه بالذكريات ، بل يطلقها باستشراف حياة أخرى عن طريق الممارسة اليومية . الانتماء الى الارض — الوطن لا يحقق فعالية الا اذا ارتبط بانتماء الى قوة من قوى الصراع . هكذا ادركنا في جيل مبكر .

— كان هذا ممكنا ؟

● في اطار الاختيارات المحدودة .

— من أين كان يأتي الامل ؟

● من الخارج .. من الخارج دائما . ان الاسرى يصارعون ضمن امكانياتهم . ولكن تحطيم السجن كليا لا يأتي الا من النافذة . وكانت النافذة اوسع في البداية لان الاخوة كانوا أقرب .

— من أين يأتيك الحزن ؟

● من مسام جلدي .

— ومن أين يأتيك الفرح ؟

● من بكاء الاطفال القادمين الى الجحيم ، ومن أحذية المقاتلين الذاهبين الى الجنة .

— تذكر متى افترقنا ؟

● حين مات جدنا ولم يدفن في قبر اختاره ، ولم تخجل الاذاعة .

— ولماذا تذهب الى العالم دائما ؟

● أنا لا أذهب الى العالم . ولكن العالم هو الذي يأتي الي دائما .. ويحاصرني .

— متى نلتقي ثانية ؟

— حين تدق جدار صدري وتقفز منه لتجلس في مواجهتي كعادتك . ولكن لا تكثر من زياراتك .. ارجوك . لا ينقصني حزن وبراءة .

— تقتلني ؟

— حين يقتل الانسان طفولته ينتحر . وأنا بحاجة اليك كشهادة على جيل . لا تأت كثيرا لان البشاعة تملأ المدن . وأصدقائي يموتون كثيرا في هذه الايام .

— لا تنسني .

وعاد الى صدري ليتسلق جذع شجرة التوت في ساحة البيت القديم ، ويقطف القمر الذي لم يسقط في البئر .

جيش الانقاذ
(١٩٤٧ ــ ١٩٤٩)

هاني الهندي

هذا هو الجزء الاول من دراسة الاستاذ هاني الهندي عن جيش الانقاذ ، بمناسبة مرور ربع قرن على عملياته في فلسطين . وسوف ننشر الجزء الثاني والاخير في العدد القادم .

ملاحظات تمهيدية

في بداية هذه الدراسة لا بد من تسجيل بعض الملاحظات التمهيدية . أول هذه الملاحظات أني تعمدت التركيز على الجوانب والوقائع والعلاقات السياسية اكثر من الجانب العسكري رغم ان الدراسة تتعلق بمؤسسة عسكرية وتجربة عسكرية عربية أريد لها بومذاك « ان تكون طليعية قومية رائدة » ، وذلك لان العمل العسكري هو في صميمه سياسي ويسعى لتحقيق أهداف سياسية ، ولاعتقادي ان فشلنا في مواجهة الصهيونية في الجولات الثلاث في اعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ لا ترجع أسبابه في الاصل الى افتقادنا للسلاح والخبرات فقط بل لان وراء هذه النكبات اسبابا اعمق وأهم ، هي أسباب اجتماعية وسياسية لمسها عارف العارف أحد أبرز المؤرخين الكلاسيكيين العرب المعاصرين ــ لمسا خفيفا عابرا حين تحدث عن مشاهدات الوفد الشعبي الفلسطيني الذي زار العواصم العربية في اواخر نيسان ٤٨ فقال في تفسير خيبة أمل أعضاء الوفد انهم رأوا « الفرقة والخلاف بين أعضاء الجامعة العربية ... وان الامور في البلاد العربية فوضى لا سائس لها ولا زاجر ... وان رجال الحكم تنقصهم الكفاءة والقدرة على التنظيم ... » ويحدد سبب هذا الوضع متابعا « وذلك لان معظمهم من الاقطاعيين الذين لا يرغبون أن تتبدل الاوضاع والامور »(١) .

والملاحظة الثانية ان في هذه الدراسة معلومات ووقائع حصلت عليها من بعض من اتيح لهم أن يشاركوا في تجربة جيش الانقاذ وكان لبعض من قدم هذه المعلومات رغبة في كتمان اسمه لاسباب ارتآها ولا مجال لشرحها ، وطبيعي أن أنزل عند رغبته .

وثالثة الملاحظات ــ وقد تكون في نظر الكثيرين شكلية ــ تتعلق برتب العسكريين الذين ورد ذكرهم في هذه الدراسة اذ أوردت رتبهم ، كما كانت أيام تجربة الانقاذ وليس بالرتب الاعلى فيما اذا كان أصحابها قد تقدموا في السلم العسكري ، كما ان تسميات تلك الرتب اعتمدت التسمية الموحدة المعمول بها حاليا في معظم الاقطار العربية لا كما كانت في تلك الايام .

ويبقى علي ان اسجل شكري وامتناني العميقين للاستاذ وليد الخالدي والمقدم الهيثم الايوبي لما قدماه من اراء وافكار وملاحظات نافعة وبناءة افادتني في وضع مشروع هذه الدراسة .

مقدمة

تعرضت تجربة جيش الانقاذ لتقييمات ونظرات متباينة تراوحت بين المغالاة في الاطراء والمديح من ناحية ، وبين النقد والنقد الظالم بل حتى التجني احيانا من ناحية ثانية .

تواجه دراسة هذه التجربة صعوبات وتعقيدات عديدة في مقدمتهـا ان الامانة العامـة لجامعة الدول العربية ، وهي التي اشرفت على تأسيس هذا الجيش وتمويله وتسليحه، احتفظت بوثائق الانقاذ وقيوده وسجلاته وكافة اوراقه الرسمية وأودعتها في خزائنهـا ومستودعاتها ، واعتذرت عن نشر هذه المواد الهامة كما لم تسمح لاحد بالاطلاع عليها رغم ما تعرضت له الجامعة العربية من نقد واتهام حول مسؤولياتها القومية أبان تلك النكبة . ونتيجة لحجب هذه الوثائق تعددت التفسيرات وطرحت الاراء المتباينة وضاعت الحقيقة ، أو معظمها ، حين تكاثر متهمو جامعة الدول العربية في حين ان مسؤوليتها في احداث تلك الفترة نسبية لا تقاس بمسؤولية تلك الحكومات والانظمة العربية التي كانت الامانة العامة صلة الوصل والتنسيق بينها .

وصعوبة ثانية تواجه أية محاولة دراسية موضوعية ان تجربة الانقاذ كانت في الواقـع أول مشروع « رسمي » عربي استهدف المشاركة في تحرير فلسطين ، وقد انتهى هـذا المشروع ، باعتباره جزءا من المواجهة العربية العامة ، لا بهزيمة عسكرية فحسب بـل بكارثة قومية وانسانية لا مثيل لها في التاريخ المعاصر .

لقد كان طموح العرب آنذاك عظيما يمكن ان تلخصه كلمات فوزي القاوقجي ـــ قـائد الانقاذ ـــ يوم وصل الى جبع ـــ في منطقة المثلث ـــ مخاطبا عرب فلسطين حيث قـال : « أتيناكم بقلب واحد ولهدف واحد هو : الغاء قرار هيئة الامم المتحدة في التقسيم ودك معالم الصهيونية وتصفيتهـا نهائيا وتنفيذ قرارات الجـامعة العربية وتثبيت عروبـة فلسطين »(٢). ولكن تطور الاحداث ونتائجها خلال الشهور القليلة التالية جاء اقسى من أسوأ التوقعات والاحتمالات . اذ لم تكن المنجزات دون مستوى المطامح فحسب ، ولم تكن الهزيمة عسكرية للقوات الشعبية والنظامية فقط بل ان شهور تلك السنة شهدت نقيض بيانات القادة والزعماء ، اذ شرد شعب فلسطين من وطنه وقامت دولة اسرائيل ونجحت هذه الدولة في اغتصاب مساحات زادت كثيرا على ما «خصصته» لها هيئة الامم المتحدة من وطننا . فكانت الهزيمة لانظمتنا الاجتماعية القائمة يومذاك وليس لقواتنـا الشعبية والرسمية فقط .

وازاء هذا الانهيار الاليم والسقوط المذل كان طبيعيا ان يحاول كل مسؤول عن احداث تلك السنة ، سياسيا كان ام عسكريا ، أن يفسر الوقائع بما تنطبق عليه خلاصة تجربة نابليون المريرة حين قال : « الهزيمة يتيمة بينما للنصر الف أب » ، وخاصة حين يعـود اولئك المسؤولون الى تذكر ما قالوه للجماهير العربية في بداية عام ١٩٤٨ ليواجهوا واقع الحال في نهاية تلك السنة ذاتها وما انتهى اليه الوضع العربي بشكـل عام . ومن هنا كانت الصعوبة بالغة جدا في ان نجد الحقائق والوقائع الموضوعية في أجواء تلك الهزيمة حين نعود لدراسة ما تركه القادة عن تلك الفترة من مذكرات وبيانات لانها ، في جوهرها، تمثل دفاعا عن مواقف اصحابها وتبريرا لما قاموا به من اعمال وتصرفات ، ايجابية كانت أم سلبية ، ولذلك بقيت صورة الانقـاذ ، من خـلال ما نشر ، ذاتية ومجزأة وليست موضوعية وشاملة .

والصعوبة الثالثة هي ان جيش الانقاذ ، خلافا للجيوش النظامية العربية ، لم يكن يعمل وحده في الميدان ، كذلك لم يكن له قطاع خاص محـدد تولى مسؤوليته وحده معظـم الوقت ، بل كانت تقف معه قوات شعبية فلسطينية (الجهاد المقدس والوحدات المحلية المستقلة) قبل ١٥ ايار ١٩٤٨ خاصة ، بالاضافة الى قوات نظامية عربية (الجيوش

العربية) بعد ١٥ أيار خاصة . وعلى هذا فليس يسيرا او سهلا ان تدرس تجربة الانقاذ بشكل مستقل منفرد ولا بد لكل دارس جاد من أن يحاول ان يفرد أو يباعد ، قدر الامكان ، بين مسؤوليات الانقاذ وواجباته وبين مسؤوليات وواجبات القوى الاخرى التي شاركته القتال في ساحة معينة او في زمن محدد ، وعليه ، في الوقت نفسه ، أن يأخذ ، عند التقييم الخاص او العام ، كون الانقاذ جزءا من صورة عامة شاملة عسكريا ، فكانت مهماته ومسؤولياته ، بكلمة اخرى ، متداخلة ومترابطة ، في معظم الاحيان ، مع مسؤوليات هذه القوى الشعبية والنظامية في حالتي التنسيق والتعاون الطوعيين أو عند افتقادهما . والى هذه الصعوبات يجب ان يضاف الوضع النضالي المتميز لفوزي القاوقجي ودوره الذاتي في الكفاح العربي . فقد كان له منذ عام ١٩٢٦ دور نضالي متميز في تاريخ الثورات العربية . ففي تلك السنة ، وبعد اتصالات سرية أجراها مع قادة الثورة السورية ٢٥ ــ ١٩٢٧ من موقعه في حماه حيث كان احد ضباط الحامية الفرنسية ، حاول اشعال الثورة في منطقة حماه لتخفيف الضغط الفرنسي عن قوات الثورة في غوطة دمشق وجبل العرب ، وكاد فوزي ان يقضي على معظم العسكريين الفرنسيين هناك لولا تآمر بعض الاسر الاقطاعية وتخاذل بعض الوجهاء في حماه . ومع ذلك بقي يقاتل في صفوف الثورة حتى اضطر اخر الامر الى مغادرة سورية الى الاردن فالسعودية والعراق ، كما غادرها معظم قادتها . وفي عام ١٩٣٦ برز القاوقجي من جديد كقائد للثورة الفلسطينية حين تسلل من العراق مع عدد من المتطوعين العرب ليقاتل البريطانيين والصهاينة بشكل فعال ومؤثر . ثم لعب دورا في القتال الذي نشب بين الحكومة الوطنية العراقية وبين القوات البريطانية في احداث مايس ١٩٤١ في معارك الصحراء حيث اصيب بجراح بليغة نقل على اثرها الى المانيا للمعالجة وبقي فيها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

هذا السجل النضالي القومي تضاف له صفحة اخرى كان يذكرها مصطفى كمال ــ اتاتورك ــ بشكل احترام شخصي ومحبة خاصة لفوزي ، منذ ان كان هذا ملازما في الجيش العثماني يقاتل ضمن الفيالق التركية المتراجعة في صيف ١٩١٨ أمام القوات البريطانية في منطقة الاغوار بفلسطين ، ويومها أتيح لفوزي ان ينقذ ذلك القائد التركي الكبير مع اركانه من خطر الوقوع في الاسر البريطاني ، فبقي اتاتورك يحفظ له ذلك الجميل حتى اخر سنواته . وطبيعي وهذه صورة القاوقجي السياسية ان يتعرض لموقفين متضادين . الاول جعل منه « غاريبالدي العرب » ، ذلك « البطل المنتصر أبدا »، وتلك « الاسطورة القومية الخالدة ... » الى اخر هذه الاوصاف والنعوت التي كانت تطلق عليه حتى اواخر عام ١٩٤٧ وكان يطرب لها ويرتاح كثيرا . والموقف الثاني كان يوجه له أقسى الاتهامات التي تتراوح بين التشكيك في نزاهته واتهامه « بالطمع وحب المال ... وحب الظهور والمغالاة في التقارير التي كان يرفعها الى اللجنة العسكرية ... وعدم صلاحه للقيادة »(٣) ــ حسب اقوال اللواء الركن اسماعيل صفوت ــ وتصل الى حد الطعن بوطنيته واخلاصه القومي حسب ما سجلته منشورات المكتب العربي في برلين ١٩٤٣ الذي كان يعمل تحت اشراف الحاج امين الحسيني ، ويبلغ الامر أقصاه حين « يعتبره مفتي فلسطين رجلا يعمل في خدمة المخابرات البريطانية منذ ان اشترك في الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٨ ... »(٤). فكانت هذه الاحكام المتناقضة مدعاة لتعقيد امكانية الدراسة الموضوعية لجيش الانقاذ الذي قاده القاوقجي منذ كانون الاول ١٩٤٧ حتى منتصف تشرين الثاني ١٩٤٨ ، نظرا لاختلاط الاراء وتضاربها خاصة وان وثائق الانقاذ الاساسية محجوبة وغير متداولة .

هذا ويقول أحد الذين شاركوا في مسؤوليات الانقاذ ان التجربة ولدت في ظروف عسيرة معقدة وعاشت أياما على قصرها كانت صعبة تعيسة ، وحين ذبلت وماتت ، كانت أيام النهاية أقسى وأشد هولا منها حين بدأت . والى هذه الظروف المتأزمة يمكن ان تعزى

بعض اسباب صعوبة هذه الدراسة بعيدا عن روح التعصب لها من ناحية ، او بعيدا عن روح التعصب ضدها بحيث تصل المواقف حد الحقد والعداء للتجربة ومن تولى قيادتها من ناحية ثانية . وان فهم تلك الظروف التي احاطت بتشكيل الانقاذ وادراك حقيقتهـا ومعرفة معالمها الاساسية من شأنه ان يساعد كثيرا في تتبع تلك التجربة وفهم دقائقهـا والتوصل الى موقف موضوعي منها . فكيف كانت أوضاع المنطقة العربية في تلك الفترة؟

(١)

الاوضاع السياسية

كانت الحركة القومية قد تعرضت في المشرق العربي الى سلسلة من النكسات والهزائم قبيل الحرب العالمية الثانية واثناءها خلال معاركها النضالية ضد الاستعمارين البريطاني والفرنسي . ففي عـام ١٩٣٨ طردت فرنسا رجـال الكتلة الوطنية (الاتاسي ومردم والجابري والقوتلي) من الحكم بعد ان كانت قد وقعت معهم ايام حكم الجبهة الشعبية على معاهدة تمنح سورية بموجبها « استقلالا » شبيها « باستقلال » العراق ومصر ، وتراجعت فرنسا عن ذلك لامتناع برلمانها عن تصديق المعاهدة واعادت فرض أعوانهـا على حكم البلاد وطاردت العناصر والقوى الوطنية وشردتها من البلاد .

وفي اواخر صيف ١٩٣٩ كان الكفاح المسلح الفلسطيني يتعرض لضغوط كبيرة أدت الى توقفه وانتهائه مع بداية نشوب الحرب العالمية الثانية بين المانيا النازية والحلفاء .

وفي اخر ايار ١٩٤١ سحق الحكم القومي في العـراق حين نجحت القوات البريطانية في احتلال بغداد واعادة الامير عبد الاله ونوري السعيد الى الحكم حيث اضطهدت القوى القومية وتعرضت للبطش والتنكيل فيما لوحق القادة الوطنيون القادمون من فلسطين وسورية والذين كانوا قد التجأوا الى العراق فرارا من بطش بريطـانيا وفرنسا . وفي ايار ١٩٤٥ انطفأت نيران الحـرب العالمية في اوربا باستسلام المانيا النازية والقائهـا السلاح دون قيد أو شرط . وخرجت من هذه الحرب قوتان عالميتان جديدتان أخذ دورهما العالمي ينمو ويتعاظم همـا الاتحاد السوفيتي والولايات المتحـدة ، فيما بـدأت دول الاستعمار القديم مرحلة الهبوط والانحدار رغم انتصارها في تلك الحرب .

كانت الحرب العالمية الثانية احدى أهم نقاط التحول الكبرى في تاريخ الانسانية في هذا القرن خاصة . كانت من نتائجها البارزة وآثارها على المنطقة العربية ان عادت فرنسا الى احتلال اقطار المغرب العربي وحاولت اخضاعها من جديد الى عسفها واستغلالها فنظمت من اجل ذلك حملات الارهاب والمذابح الوحشية (مذبحة سطيف في ايار ١٩٤٥) لقطع الطريق على الحركات الثورية هناك وارهاب الجماهير العربية في المغرب .

وعمدت بريطانيا في المشرق العربي الى احكام سيطرتها على اقطاره من خلال قواتهـا العسكرية المنتشرة من حدود ايران شرقا حتى اواسط ليبيا غربا ، ومن خلال معاهداتها التي عقدتها مـع الانظمة الحاكمة ـ ممثلة تحـالف الاقطاع وزعماء العشائـر وكبار التجار ـ في العراق ومصر وشرق الاردن . وهذه المعاهدات مكنت بريطانيا من التدخل في أدق الشؤون الداخلية لهذه البلاد . وكانت سيطرة بريطانيا ملموسة وبارزة كذلك من خلال الامتيازات والاحتكارات الاقتصادية التي حصلت عليها في هذه الاقطار لاستغـلال خيراتها وثرواتها مثل نفط العراق ومنتجاته الزراعية وقطن وادي النيل وقناة السويس. وأخضعت بريطانيا منطقة الخليـج العربي والشواطىء الشرقية والجنوبية للجزيـرة العربية لنفوذها المباشر . وكانت السعوديـة وامامة اليمن المتوكلية تمالئـان بريطانيا وتسايرانها ، وفيما كانت الاسرتان الحاكمتان تمارسان حكـم الاقطاع الديني المستبد وتعيشان في اجواء القرون الوسطى ومفاهيمها انفردت الاسرة السعودية الحـاكمة بان سبقت الحكام العرب الاخرين بفتح الباب عريضا ، منذ الثلاثينات ، امام شركات النفط

الاميركية ومنحها امتيازات سخية لاستثمار هذه الكنوز الدفينة واستغلالها . واما فلسطين فقد كانت نتائج الحرب العالمية الثانية عليها اكثر سوءا وضررا اذ استطاعت بريطانيا والحركة الصهيونية خلالها ان تسددا ضربات عنيفة للحركة الوطنية فيها فشردت قياداتها واضطهدت اطاراتها وأبعدت ، فيما فتحت السلطة المنتدبة ابواب فلسطين امام سيل الهجرة اليهودية القادمة من اوربا ، وسهلت للصهاينة ايضا سبل الاستقرار والسيطرة الاقتصادية فازدهرت الصناعة وازدادت مساحة الاراضي التي استولت عليها المشاريع والمؤسسات الصهيونية كما تم تدريب الاف الصهاينة في معسكرات بريطانيا وقواعدها ، فساعدت بذلك كله على ارساء اسس « الدولة اليهودية » التي اصبح اعلان قيامها مطلب الحركة الصهيونية وشعارها منذ مؤتمر بيلتمور في ايار ١٩٤٢ .

كانت سورية ولبنان هما البلدان العربيان الوحيدان اللذان نجحا في الحصول على « استقلالهما غير المشروط » في عام ١٩٤٦ ، ولكنهما بقيا يتعرضان ، وخاصة سورية ، للمؤامرات البريطانية — مثل مشروع سورية الكبرى ونشاطات الملك عبدالله ضد الحكم الوطني — واستهدفت هذه المشاريع تقييد استقلالهما واخضاعهما للنفوذ البريطاني ومحاولته الحلول مكان النفوذ الفرنسي فيهما ، هذا كما رفض الحكم الوطني في سورية ولبنان كل محاولات التغيير الاجتماعي فبقي الاقطاع والبورجوازية التجارية الكبيرة — التي نمت خلال الحرب — القوة الاساسية التي تسيطر على الحكم وتوجهه . وكانت المنطقة ضمن هذا النفوذ البريطاني الطاغي تعيش حالة من التناقضات من أبرز ملامحها ذلك الجو من التنافس والتزاحم بين الاسر المالكة وخاصة بين الاسرة الهاشمية (العراق والاردن) والاسرة السعودية المتحالفة انذاك مع الاسرة العلوية (مصر) . وكان هذا التناقض ، في جوهره ، غطاء لبدايات التناقض والصراع بين النفوذين الاستعماريين الانكليزي والاميركي على استغلال ثروات المنطقة ونهبها .

●

وفي هذه الفترة كانت الحركة الوطنية العربية تحاول ان تدرس اوضاع المنطقة على ضوء التطورات والتغيرات الجارية فيها فكانت القوى الوطنية في تونس والمغرب والجزائر تعيد النظر في اوضاعها السياسية والتنظيمية وتضع الخطط لاشعال نيران الثورة المسلحة للخلاص من الاستعمار الفرنسي . وكانت الاحزاب والمنظمات الوطنية في مصر (الوفد والاخوان المسلمون والشيوعيون والمجموعات اليسارية) وفي العراق (الشيوعيون وحزب الاستقلال والحزب الديمقراطي) تناضل لالغاء المعاهدات التي فرضتها بريطانيا ، والتي تسعى لتجديدها بعد الحرب وتمديد مفعولها . وكانت القوى التقدمية في سورية تسعى لحماية الاستقلال وتطوير الاوضاع الاجتماعية فيها بتحرير الفلاحين من نير العبودية والاقطاع وحماية حقوق العمال وتنظيمهم .

أما الحركة الوطنية في فلسطين فلم تكن قد استعادت قدرتها على النهوض من وطأة الضربات التي لحقتها خلال السنوات القليلة الماضية وكانت قياداتها مضطهدة محاصرة من قبل البريطانيين والصهيونيين والرجعيين العرب ، ولكن هذه القيادة ، وخاصة مفتي فلسطين ، تميزت برفضها للتسويات وكانت تسعى وتعد للكفاح المسلح ضد البريطانيين والاستيطان الصهيوني منذ اواخر ١٩٤٦ عن طريق ارسال مجموعات من الشباب الفلسطيني كانوا يصلون سرا الى سورية ليتدربوا في احد المعسكرات القريبة من دمشق ، من ناحية ، وعن طريق شراء الاسلحة وتخزينها في مستودعات سرية في فلسطين ولبنان وسورية ، من ناحية ثانية . هذا رغم افتقار هذه القيادة للوضوح النظري والقدرة على التنظيم الجماهيري وحذرها المفرط من المنظمات التقدمية والنقابية وذلك بحكم تكوينها الاجتماعي المحافظ ، والماثل لغالبية القيادات الوطنية في المشرق العربي يومذاك .

وباختصار شديد ففيما كانت الحركة الوطنية العربية في المشرق خاصة تعيش أسوأ الظروف وأقساها كانت القوى السياسية في الغرب ، وخاصة في الولايات المتحدة وبريطانيا ، تتزاحم وتتنافس على اكتساب ود الحركة الصهيونية التي نقلت مقراتها القيادية ومراكز ثقلها من لندن الى نيويورك ، وكان الاتحاد السوفيتي منهمكا في اعادة تعمير ما خربته الحرب في بلاده وتركيز الاوضاع الجديدة في بلدان اوربا الشرقية ، وكانت الصين تعيش المرحلة الحاسمة من تلك الحرب الاهلية الطويلة الدائرة على امتداد قرابة ربع قرن بين الحزب الشيوعي والكومنتانغ ، في حين كانت البلدان المستعمرة في آسيا خاصة تكافح لنيل استقلالها وحريتها .

وفي ١٩٤٧/٤/٢ عمدت بريطانيا ، تحت ضغط اميركا والحركة الصهيونية ، الى احالة قضية فلسطين الى الامم المتحدة للبت فيها على ضوء التطورات الجديدة وتقرير مصيرها. وسرعان ما شكلت المنظمة الدولية لجنة تحقيق من (١١) مندوبا لدراسة هذه المسألة وتقديم المقترحات لايجاد الحلول لها .

ازاء هذه التطورات الدولية وخاصة بعد صدور تقريري اللجنة الدولية اجتمع مجلس جامعة الدول العربية في عاليه (لبنان) في ١٩٤٧/١٠/٧ خصيصا لدراسة ما يجب اتخاذه من اجراءات للوقوف في وجه المؤامرة على عروبة فلسطين والتي تبلورت ملامحها بشكل جلي واضح في توصيات اللجنة الدولية . والغريب في أمر هذا المؤتمر ان المندوبين العرب اجتمعوا في غياب ممثلي فلسطين ومن وراء ظهر حركتها الوطنية ، الا ان مفتي فلسطين فاجأ المؤتمرين بان جاء من القاهرة سرا الى بيروت واحدث ازمة حين دخل على المجتمعين ليؤكد اصراره على تمثيل عرب فلسطين في هذا المؤتمر . واستطاعت الدبلوماسية اللبنانية المشهورة بمرونتها منذ تلك الايام ، ان تلعب دور التهدئة فكان ان اقنع رياض الصلح مندوبي العراق والاردن (صالح جبر وتوفيق ابي الهدى) بعدم الانسحاب والقبول بمشاركة الحسيني . ولكن مجلس الجامعة رفض معظم مقترحاته وفي طليعتها اعلان قيام حكومة عربية تتكلم باسم عرب فلسطين .

وكانت أهم قرارات مجلس الجامعة « تأليف لجنة عسكرية من ممثلي الدول العربية لدرس القضية الفلسطينية من الناحية العسكرية ومعاونة أهل فلسطين في الدفاع عن أنفسهم وكيانهم وذلك بالاشراف على ادارة العمل وتنظيمه وصرف الاموال التي تخصصها الدول العربية لمعاونة أهل فلسطين »(٥). وتشكلت هذه اللجنة برئاسة اللواء الركن اسماعيل صفوت — العراق — وعضوية العقيد محمود الهندي — سورية — والمقدم الركن شوكت شقير — لبنان — وصبحي الخضرا — فلسطين — « ولم ترسل مصر والاردن واليمن والسعودية احدا من رجالها العسكريين ليمثلوها في اللجنة »(٦) ورأت وزارة الدفاع العراقية في غياب هؤلاء ما « يدل على عدم اهتمام الحكومات المذكورة بالناحية العسكرية ، وان شئت فقل على حذرها من أن تتقيد بالتزامات عسكرية لا ترغب فيها »(٧).

وفي ٤٧/١٠/٩ قدمت اللجنة العسكرية تقريرها الاول الى مجلس الجامعة وقد تضمن تأكيدا في قسمه الاول « الصهيونيون » على ان للعدو في فلسطين « منظمات وتشكيلات سياسية وعسكرية وادارية على درجة قصوى من النظام والاحكام وفي وسعها ان تنقلب فورا الى حكومة صهيونية لها كل ما تحتاج اليه من الوسائل والوسائط اللازمة للحكم » وان لديهم « قوة كبيرة من الرجال والسلاح والعتاد في الوقت الحاضر » وقدرها التقرير بـ ٦٥ — ٧٥ الف مقاتل (من الهاغانا والارغون وشتيرن) كذلك فان لديهم امكانية تجنيد قوى احتياطية كبيرة « فيما اذا اعلنوا النفير العام » . وشدد التقرير على خطورة مصير عرب فلسطين وخاصة منهم اولئك الذين كانوا يقطنون المناطق التي يشكل اليهود فيها

اكثرية طاغية واكد احتمال لجوء العدو الى « القتل الجماعي » وهم بالتالي مهددون « بالفناء » نظرا لخشية الصهاينة من « بقاء عرب فلسطين وراء ظهرهم خاصة وان لهم تجارب وخبرات قتالية ضد بريطانيا والصهاينة طيلة سنوات الاحتلال والانتداب » . ولهذا طالبت اللجنة بوجوب المباشرة فورا بتسليح الفلسطينيين وتدريبهم وتنظيمهم وطلبت امدادهم بعشرة الاف بندقية وبالرشاشات وانواع الذخائر والعتاد ، كدفعة أولى ، مع المواد الهندسية اللازمة والاسمنت خاصة ليستطيعوا بناء وسائل الدفاع عن الاحياء في المدن والقرى العربية ، بالاضافة الى تخصيص الاموال اللازمة لتنفيذ مثل هذه المشاريع لحماية عروبة فلسطين . وكانت التوصية الثانية البدء بفتح ابواب التطوع امام العرب للمشاركة في الكفاح في فلسطين وذلك باعداد المعسكرات والمدربين وتوفير الاسلحة اللازمة لقوى المتطوعين العرب . وكانت التوصية الثالثة هي حشد الجيوش العربية على حدود فلسطين لتكون جاهزة للتدخل اذا ما انسحب البريطانيون من فلسطين وكان ميزان القوى لصالح العدو . وقد وافق مجلس الجامعة على هذه التوصيات .

لقد كان الرأي يومذاك انه « يجب ان يترك للفلسطينيين انفسهم عبء الدفاع عن بلادهم على ان تزودهم الحكومات العربية بالمال والسلاح والخبراء العسكريين »(٨). ولكن هذه الاقتراحات لقيت اعتراضا حادا من البريطانيين الذين راحوا يضغطون من خلال اعوانهم لتغيير مضمون هذه السياسة ، أي عدم تسليح عرب فلسطين وعدم السماح لهم بتحمل عبء المعركة لا حبا بهم وبقصد تجنيبهم مآسي القتال وآلامه ولكن لتحقيق اغراض سياسية محددة . وكانت بريطانيا تقاوم هذا الاتجاه بالضغط على الحكومات العربية من خلال سفاراتها في العواصم العربية ومن خلال الاتصالات والنشاطات التي كان يقوم بها الجنرال كلايتون — مسؤول المخابرات البريطانية في المنطقة العربية وكان مقيما في القاهرة — ومن خلال غلوب باشا الذي كان يوجه سياسة الحكم في الاردن ، ومن خلال الكولونيل فوكس — الخبير بوزارة الدفاع السورية — والكولونيل ستيرلنغ الذي « أحب » دمشق وأقام فيها ..! وغيرهم من انكليز وعرب .

●

كانت بريطانيا تسعى لتقسيم فلسطين ، باعتباره الوسيلة الفعالة لحماية مصالحها في المنطقة ، وذلك منذ ان أصدرت لجنة بيل الملكية البريطانية توصياتها عام ١٩٣٧ . وقد رفض العرب هذه السياسة واستأنف الفلسطينيون القتال ثانية في عام ١٩٣٧ واستمروا فيه حتى اواخر صيف ١٩٣٩ ، ويومها اضطرت بريطانيا الى تجميد هذه السياسة بسبب تطورات الوضع الدولي وتزايد النشاط النازي والفاشي في اوروبا وافريقيا والشرق الاقصى ، فعمدت الى التظاهر بشيء من التراجع فاعلنت الكتاب الابيض ١٩٣٩ الذي استهدفت من ورائه تهدئة العرب ريثما تجتاز الفترة الصعبة التي كانت تواجهها من تصاعد الروح العدوانية لدى دول المحور الثلاث ، في حين انها بقيت عمليا تساند مشاريع الصهيونيين في الهجرة واكمال استعداداتهم لتأسيس الدولة اليهودية . وقد تزايد هذا الدعم البريطاني باتساع النفوذ الاميركي خلال الحرب العالمية وبعدها وبتزايد نشاط الحركة الصهيونية في فلسطين وخارجها .

في أوائل الاربعينات كانت مواقف القيادات السياسية العربية ، في فلسطين والمنطقة ، تتبلور ازاء المشاريع الصهيونية والامبريالية في تيارين اساسيين يمكن تلخيص أبرز ملامحهما كما يلي :

الاول كان يرى ان يقبل العرب بتسوية سياسية يتفق عليها مع بريطانيا ، وتقضي أساسا بقبول تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية ، وذلك انطلاقا من « عدم قدرة العرب على مواجهة الانكليز والقبول بالحلول الواقعية ... الخ » ولان العرب لا يستطيعون الوقوف امام مشاريع بريطانيا والصهيونية ، ولهذا فعلى العرب ان يعملوا

وفق سياسة « خذ وطالب » ، وهي السياسة الاستسلامية التي درج اعوان بريطانيا على اتباعها في المنطقة العربية . وبكلمة اخرى فان هذا الفريق يتبنى سياسة بريطانيا ومشاريعها ويرفض فكرة المقاومة ومبدأ الكفاح المسلح . وعلى رأس هؤلاء كان يقف اصدقاء الانكليز وفي مقدمتهم الملك عبد الله الذي كان يطمع بضم « المنطقة العربية في فلسطين من مشروع التقسيم » وكذلك نوري السعيد وبعض الرجعيين الفلسطينيين .

والثاني كان يرفض الاتجاه الاول بقسوة ويرى فيه انحرافا وتنازلا عن حقوق شعب فلسطين في وطنه ويؤكد على وجوب اعلان استقلال فلسطين وان « النظام الوحيد الذي يقبله العرب لفلسطين هو انشاء دولة عربية سيدة ومستقلة ... وان عرب فلسطين يؤكدون قطعا بانهم لا يعترفون بحق دولة أو دول أجنبية بحرمانهم من حقهم الطبيعي في الاستقلال أو بأن تخضع بلادهم لتدخل الاجانب وافتئاتهم ... »(٩) وان الطريق الوحيد لتحقيق ذلك هو المقاومة المسلحة والقتال . وكان اصحاب هذا الموقف يصرون على ضرورة اتاحة الفرصة لعرب فلسطين ليناضلوا من أجل حقهم في الحرية والاستقلال ، وعليه فان عبء الكفاح يقع ، بالدرجة الاولى ، على عاتق عرب فلسطين .

كان هذا الموقف امتدادا للكفاح البطولي الذي خاضه شعب فلسطين ضد بريطانيا والصهيونية خلال فترة الانتداب وخاصة في فترة النصف الثاني من الثلاثينات ، اذ كان الكفاح الفلسطيني المسلح أحد ابرز الثورات القومية في العالم كله خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية وكانت أخباره تحتل مكانة هامة جدا بين اخبار النضال في البلدان الخاضعة للاستعمار والانتداب .

وعلى رأس هذا الفريق كانت تقف القيادات الوطنية في فلسطين وعلى رأسها الحاج امين الحسيني ، والحركة الوطنية العربية . وكان هؤلاء يطالبون باتاحة الفرصة لعرب فلسطين ليتدربوا ويتسلحوا ويخوضوا القتال بمعونة العرب ودعمهم . وكان الاقتناع راسخا انه اذا تم تنظيم ذلك فان استقلال فلسطين وتحريرها يمكن الوصول اليهما .

وصدر قرار تشكيل جيش الانقاذ عن اللجنة العسكرية بموافقة عبد الرحمن عزام — الامين العام لجامعة الدول العربية وباعتباره رئيسا للجنة فلسطين التي كانت تضم مندوبين عن الدول العربية ، وهذه اللجنة مسؤولة عن متابعة تنفيذ القرارات السياسية والعسكرية الصادرة عن مجلس الجامعة — . ولقد صدر قرار اللجنة العسكرية في تشرين الاول ١٩٤٧ ، وكان أهم قراراتها ، في ظل تلك الظروف الدولية التي أعقبت الحرب العالمية ، وفي ظل تلك الاوضاع العربية المعقدة التي اتسمت بضعف الحركة الوطنية العربية وطبيعة تكوينها ونوعية قياداتها ، وتحت وطأة الخلافات الدائرة بين تلك القوى والتيارات المتصارعة في فلسطين والمنطقة العربية ، وتحت تأثير الموقفين العربيين المتناقضين في فهم مسألة فلسطين وكيفية التصدي للمشاريع والمؤامرات الرامية الى تهويدها وابتلاعها .

(٢)

تشكيل جيش الانقاذ

جاء قرار تأسيس جيش الانقاذ ليعكس موقفا وسطا ذا طابع توفيقي بين الاتجاهين العربيين بالنسبة للكفاح المسلح ودور عرب فلسطين الاساسي في هذا الكفاح . فقد كانت اولى توصيات اللجنة العسكرية في تقريرها الاول في ١٩٤٧/١٠/٩ تؤكد على ضرورة المباشرة بتسليح عرب فلسطين فورا واعتبارهم القوة الاساسية في مقاومة التقسيم في المراحل الاولى على الاقل . وكانت التوصية الثانية تقترح تشكيل قوات متحركة من المتطوعين العرب لتتسلل الى فلسطين لتقاتل مع شعبها وبالتعاون مع قوى الداخل . وكان موقف الانكليز وأعوانهم من تسليح عرب فلسطين جليا واضحا وهو رفض هذا الاتجاه ومقاومته . ولما كانت الجماهير العربية في حالة غليان وحماسة لنصرة عرب

فلسطين وتأييدهم في رفض قرار التقسيم فقد ادركت بريطانيا واعوانها صعوبة تحدي هذا الموقف الجماهيري فكان أن لجأت الى مجموعة اجراءات ماكرة منها فرض حظر على بيع السلاح للعرب في اسواق أوربا ، ومنها أن أعوانها من الحكام العرب راحوا يحجبون السلاح المقرر تسليمه الى عرب فلسطين من خلال اللجنة العسكرية ، أو يقدمون السلاح القديم الفاسد (بعضه استعمل في النصف الاول من القرن الماضي في معارك ابراهيم باشا والوهابيين في نجد) بعد المواعيد المفروضة، ومنها تأخير تسديد الالتزامات المالية المطلوبة من الحكومات العربية . وكان القصد من ذلك كله اضعاف قدرات المقاومة المسلحة لشعب فلسطين او تقليص حجمها .

وكان الوجه الآخر لمقاومة دعاة محاربة التقسيم هو القبول الشكلي بانشاء القوة العربية المتحركة ولكن بعد تقييدها من ناحية الحجم والتسليح وبمحاولة التحكم بقيادتها وكان القصد من القبول بهذه القوة هو أن تلعب دورا سياسيا ، بالدرجة الاولى ، يستهدف تخدير الجماهير العربية وتغطية مسألة عدم تسليح عرب فلسطين واظهار « تأكيد المشاركة العربية في حماية عروبة فلسطين » .. الخ . وبالاضافة فان هذه القوة تشكل نوعا من البديل للمقاومة الشعبية الفلسطينية . وكان وراء هذا القبول الشكلي لانشاء جيش الانقاذ ذي الطابع العربي هدف سياسي آخر أكثر خبثا ولؤما ويرمي الى زيادة تعقيد مسألة الوحدة الوطنية في ساحة فلسطين خاصة ، مما يتيح لاعوان الانكليز أن يلعبوا دورهم ويمارسوا سياستهم الحقيقية (التقسيم) حين يحين الوقت المناسب لفرض قرار التقسيم او على الاقل لتولي ما سيبقى من فلسطين خارج حدود الدولة اليهودية — وهذا ما طرحه توفيق أبو الهدى — رئيس حكومة الاردن — على ارنست بيفن — وزير خارجية بريطانيا — في آذار ١٩٤٨(١٠).

لقد اعتبر الانكليز واعوانهم جيش الانقاذ وسيلة ، أو بالاحرى ، شرا لا بد منه لتقليص حجم الكفاح الفلسطيني ، بعد أن تبين لهؤلاء استحالة الوقوف في وجه الجماهير الغاضبة وصعوبة اعلان تأييدهم قرار التقسيم ومعارضة الدعوة للكفاح المسلح بسبب تلك الحماسة الشعبية الجارفة لمقاومة قيام دولة يهودية في فلسطين .

ولكن هذا جانب واحد من الصورة . انما من الواجب التذكر بل ومن الضروري جدا أن لا تغيب عن الذهن اطلاقا انه كانت هناك نظرة أخرى وجانب ثان مغاير تماما. كانت النظرة الثانية تعتبر التطوع في جيش الانقاذ عملا وطنيا ومقدسا وترى في الالتحاق به تجسيدا لاغلى أماني العرب القومية ، وان هذا الجيش هو رمز لموقف نضالي عربي جاد وممارسة كفاحية شعبية حقيقية تساهم جديا مع عرب فلسطين في تحرير الوطن والقضاء على المشاريع الاستعمارية والصهيونية . بهذه الروحية جاء آلاف المتطوعين العرب الى مكاتب « لجنة انقاذ فلسطين » في بغداد مطالبين بتسهيل سفرهم الى سوريه للالتحاق بأفواج الانقاذ ، وكذلك فعل آلاف من الشباب السوريين واللبنانيين الذين جاءوا الى مكاتب اللجنة العسكرية و« لجان تحرير فلسطين » في دمشق وحلب للتطوع والى « مكتب فلسطين الدائم » في بيروت للقتال والنضال . وجاء كذلك الى ساحات فلسطين أكثر من (١٥٠٠) مقاتل من قبائل الاردن — الحويطات وبني صخر وبني خالد خاصة — ليشاركوا الفلسطينيين ، في صفوف الانقاذ ، في معارك القدس وباب الواد والجليل . وأراد مثل هذا العدد من ابناء المغرب وخاصة من تونس وليبيا أن يلتحقوا بجيش الانقاذ ، بعد أن اجتازوا الصحارى والمسافات الطويلة ، ولكن حكومة محمود فهمي النقراشي رأت الحاقهم بقوات المتطوعين العاملين في جنوب فلسطين ... هذا الحماس الشعبي لم يكن كله عفويا عاطفيا بل شاركت فيه واندفعت القيادات الوطنية والعناصر الواعية اذ التحقت بعض قيادات الاحزاب العربية وقواعدها ، فقد انتظم في صفوف الانقاذ وشارك في معاركه في الجليل والمنطقة الوسطى مئات من أعضاء

احزاب البعث العربي والعربي الاشتراكي (اكرم الحوراني) والحزب الاشتراكي المصري (أحمد حسين) والاخوان المسلمين من مصر (سريسة النقيب محمود عبده) والاخوان المسلمين من سوريه (مصطفى السباعي) وبعض عناصر الحزب السوري القومي (صلاح الشيشكلي وغسان جديد) ، وكذلك ترك عشرات الضباط السوريين قطعاتهم والتحقوا بقوات الانقاذ وحاولت هيئة الضباط الاحرار بقيادة جمال عبدالناصر الاشتراك في الكفاح المسلح اذ اتصلت هذه المجموعة السرية يومذاك بمفتي فلسطين وقيادة الانقاذ عارضة امكانية مشاركة ضباطها في النضال بعد صدور قرار التقسيم مباشرة ، ولكن حكومة النقراشي وقفت في طريقها ، وكان أن اشترك عدد من الضباط الاحرار (أبرزهم كمال الدين حسين) مع قوات احمد عبد العزيز ومتطوعي الاخوان المسلمين المصريين في المنطقة الجنوبية .

●

اتخذت اللجنة العسكرية قرية (قدّسية) ـــ قرب دمشق ـــ مقرا لها . ثم انضم الى عضويتها طه الهاشمي بصفة خبير في البداية ، ثم كمفتش عام لقوات المتطوعين . ويعتبر الهاشمي أقدم الضباط الوطنيين العرب وأكثرهم كفاءة وثقافة ، وقد عين في هذا المنصب بناء عى اقتراح قدمه شكري القوتلي ـــ رئيس الجمهورية السورية ـــ الى عبد الرحمن عزام ، المشرف على اللجنة العسكرية . وأحدث تعيين الهاشمي استياء ظاهرا لدى أعوان الانكليز في عمان وبغداد .

وبدأت اللجنة ، بالاتفاق مع وزارة الدفاع السورية ، بفتح أبواب معسكرات قطنا ـــ قرب دمشق ـــ لاستقبال المتطوعين وتدريبهم من قبل ضباط ورتباء سوريين أفرزتهم قيادة جيشهم خصيصا لهذا الغرض .

وكان تعيين قائد الانقاذ احدى المشاكل الصعبة التي واجهت اللجنة في بداية عملها . فالقوتلي كان يضغط لتعيين فوزي القاوقجي « لاعتبارات وحسابات محلية وعربية وعسكرية أيضا ، منها أنه أراد أن يوازن به نفوذ مفتي فلسطين وشعبيته العربية بقائد له سمعة نضالية واسعة ، ومنها أنه أراد قطع الطريق على المفتي الذي كان يلح على تسمية عبدالقادر الحسيني أو غيره لقيادة القوات العاملة في فلسطين ولكنه كان يعترض بشدة على تعيين القاوقجي ، ومنها أنه أراد بهذا التعيين اشعار المفتي بعدم ارتياحه لما يعتبره القوتلي « أساليب المفتي غير السليمة » وخاصة انه كان قانعا أن للحسيني دورا في تكتيل المنظمات والهيئات الدينية التي تحدث قوائم الحزب الوطني في الانتخابات النيابية التي جرت في حزيران ١٩٤٧ وفي منطقة دمشق خاصة . وبالاضافة لذلك فقد اعتقد الرئيس السوري أن تسمية القاوقجي يمكن أن تخفف من حدة الملك عبدالله الذي أغضبه تعيين الهاشمي »(١١)، في حين ان الملك كان يرتاح للقاوقجي ويطمئن له بعض الشيء... هذا كما ان القوتلي كان حريصا على أن لا يكون التفاهم عميقا بين العسكريين اذ كان يخشى تكتلهم لانه كان يحمل انطباعات سلبية عن تجربة الضباط القوميين في العراق ... وكانت اللجنة تفكر في تسمية احد الضباط العرب الاكفاء . « وأخيرا وبعد نشوب القتال بين الفلسطينيين والصهاينة على اثر صدور قرار التقسيم وتطور الحوادث بسرعة اضطرت اللجنة العسكرية أن تبت بالامر »(١٢)فكان أن نزل أعضاء اللجنة ، أو بالاحرى معظمهم ، عند اقتراح تسمية القاوقجي قائدا للجيش في أوائل كانون الاول اي « بعد مرور شهرين من تأليف اللجنة بينما كان الامر يتطلب الاستعجال وعدم ضياع الوقت الثمين »(١٣).

ولكن قد يكون من الانسب أن ندرس الاهداف التي كانت وراء تشكيل الجيش ولماذا جاء تكوينه بالطريقة التي تم فيها قبل دراسة قيادة الانقاذ ، من حيث تشكيل هذه القيادة وكيفية عملها والاسلوب المتبع .

(٣)

لماذا تشكل جيش الانقاذ ؟

كان الغرض من قرار مجلس جامعة الدول العربية في تشرين الاول ١٩٤٧ تأليف لجنة عسكرية عربية دائمة تضع الخطط والمقترحات العسكرية الرامية الى « الحيلولة دون تشكيل حكومة يهودية في فلسطين وارغام اليهود على الرضوخ للمطاليب العربية » . وقد تعرضت الاقتراحات الاولى التي قدمتها اللجنة الى الضغوط السياسية بأشكال مختلفة . ورافق ذلك انفجار القتال بين العرب والصهاينة اثر صدور قرار تقسيم فلسطين مباشرة بحيث أدى ذلك كله الى تبلور دور أهم للقوة العربية المتحركة ، وكان أن تشكل جيش الانقاذ وعلقت عليه آمال ومطامح أكبر وأشمل من الطاقات والقدرات المتوفرة وكان مطلوبا منه أن يكون طليعة الصدام الحاسم بين الجيوش النظامية والعدو .

ولكن هذا الغرض العام — أي منع قيام حكومة صهيونية — لم يكن واضحا ، كذلك لم يكن الدور المطلوب من الانقاذ محددا ومبلورا . يؤكد الرائد الركن عامر حسك — أحد كبار ضباط جيش الانقاذ — على أن « التحديد الدقيق الواضح للغرض أساسي جدا » ويتساءل قائلا : « فهل تبنى العسكريون العرب غرضا محددا في خوض المعركة ؟ هل كان الغرض طرد اليهود ورميهم في البحر ؟ أم الاحتفاظ بالقسم العربي الذي وهبته الامم المتحدة الى العرب من ارض الآباء والاجداد ؟ . . . هل درست العوامل المؤثرة على بلوغ الغرض واهمها معرفة عدد قوات اليهود وتسليحها ونوعية السلاح وتدريبها وأسلوب تموينها ومصادر هذا التموين ومعنوياتها ؟ . . »(١٤) .

فاذا تركنا الغرض العام للخطة العربية الشاملة (قوات المقاومة الشعبية الفلسطينية وقوات المتطوعين العرب وقوات الجيوش النظامية) وحاولنا حصر الغرض الخاص بتشكيل جيش الانقاذ . . . فهل كان هذا الامر واضحا ومحددا ؟ وهل كان للانقاذ غرض محدد هو ضرب خطوط المواصلات الصهيونية وتقطيع شرايين العدو بعد أن لعب الضغط السياسي دوره في تقليص دور المقاومة الشعبية الفلسطينية ؟ وهل استطاعت الجهات العسكرية (اللجنة العسكرية وقيادة الانقاذ) توفير مثل هذه القوة الضاربة ؟ وهل كانت مدربة مجهزة لمثل هذه المهمة ؟ ولماذا فشل العسكريون العرب في تحقيق ذلك ؟

هذه الاسئلة تتداخل في الجواب عليها العوامل السياسية والاجتماعية مع العوامل العسكرية والتي يمكن تلخيصها بأن جوهر المسألة هو أن الانظمة القائمة لم تكن جادة كما لم تكن طبيعتها الاجتماعية وتكوينها وارادتها ، مع ارتباطاتها الخارجية ، تجعلها قادرة على أن توفر الشروط الضرورية لاعداد مثل هذه القوة المقترحة والمكلفة بتحقيق ذلك الغرض العام .

ولكن اذا تركنا هذه الاسئلة جانبا وحاولنا حصر المسألة في الجانب العسكري وضمن المعطيات القائمة آنذاك ، وتساءلنا : هل كان العسكريون أنفسهم متفقين على هذا الغرض الذي يصر الرائد حسك على ان « التحديد الدقيق الواضح أمر أساسي جدا ؟ » ماذا يقول قادة الانقاذ وضباط الميدان فيه عن الغرض وكيف فهموه ؟

يقول فوزي القاوقجي في تحديد مهمة جيش الانقاذ عند عودته الى المثلث بعد أن غادره قبل (١٢) سنة تقريبا : « أتيناكم بقلب واحد ولهدف واحد هو : الغاء قرار هيئة الامم المتحدة في التقسيم ودك معالم الصهيونية وتصفيتها نهائيا وتنفيذ قرارات الجامعة العربية وتثبيت عروبة فلسطين »(١٥) .

فهل كان هذا غرض جيش الانقاذ ؟ وهل كان قادرا على تحقيقه ؟ والاهم من ذلك كله هل كان كبار ضباط الانقاذ ، من اعوانه ، يشاركونه هذا الرأي يومذاك ؟

يقول عامر حسك في شرحه « الغرض من تشكيل جيش الانقاذ » انه « حينما التحقت بقوات الانقاذ العاملة في القسم الشمالي من فلسطين واطلعت على تشكيلاتها وتنظيماتها وتسليحها سألت المقدم أديب الشيشكلي — وكان يومها قائدا للانقاذ في شمال فلسطين حتى أوائل حزيران ١٩٤٨ — عن الغرض من تشكيل هذه القوة وهي على هذا النمط فلخصها لي في نقاط ثلاث : ١ — تقوية معنويات الاهلين في فلسطين ، ٢ — معرفة قوات اليهود ونوعية أسلحتها مع الوقوف على أساليب قتالها ودرجة تدريبها ، ٣ — معرفة مدى تدخل الانكليز اثناء الاعمال العسكرية التي تحدث ما بين العرب واليهود »(١٦). ولا شك ان الفارق كبير جدا بين ما كان يريده القاوقجي وبين مـــا حدده الشيشكلي — القائد الثاني في قيادة الانقاذ — . واذا كان « الغرض » الذي حدده القاوقجي اكبر بكثير من قدرات جيش الانقاذ وطاقاته فان « الغرض » المتواضع الذي حدده الشيشكلي لا يصمد أبدا أمام المناقشة التي يطرحها حسك ، ذلك لان « تقوية معنويات الاهلين ... ومعرفة قوات اليهود ونوعية أسلحتها ... » تتطلبان التعرض والهجوم ، ومتطلبات التعرض كثيرة وعديدة لا تتوفر في قوات الانقاذ من حيث « تنظيمها وتشكيلاتها وتسليحها حيث نجدها أبعد ما تكون عن تحقيق هذا الغرض » ... لان مـــن خصائص القوة التعرضية « ان تكون مزودة بالاسلحة الثقيلة كالمدفعية والدبابات والمصفحات والطائرات وغيرها من الاسلحة الهجومية الاخرى وان يكون لديها من العتاد مـــا يكفي لعمليات تعرضية من هذا النوع . يضاف الى ذلك أن تكون على جانب كبير من التدريب ولديها العدد الكافي من السيارات للتنقلات السريعة والمناورات اللازمة مع كمية كافية من مواد التخريب والمتفجرات لنسف مواقع اليهود وتحصيناتهم . فضلا عن وجوب توفر العدد الكافي من الضباط وضباط الصف للاشراف على الادارة والقيادة والسيطرة والضبط»(١٧). اما النقطة الثالثة وهي معرفة تدخل الانكليـــز فيرد المؤلف بأن هؤلاء « أعلنوا انهم لا يسمحون بأية اجراءات عسكرية قبل انتهاء أمد انتدابهم في يوم ٤٨/٥/١٥ ولا سيما في المناطق التي تحتلها قواتهم وفي المناطق التي تؤثر على استراتيجية اليهود . ولقد أقرنوا القول بالفعل عندما هاجمت الطائرات المصرية مطارا يهوديا بالقرب من حيفا، اذ تصدت لها الطائرات الانكليزية وأسقطت خمسا منها مقابل ثلاث طائرات انكليزية ، وغيرها من الحوادث التي تدخلت القوات الانكليزية فيها لصالح اليهود كلما شعرت برجحان كفة العرب »(١٨). ويضيف المؤلف مفندا امكانية تكليف الانقاذ بمهمات دفاعية نظرا لافتقاد هذه القوات « الاسلحة الدفاعية كالمدافع الخاصة والاسلحة المضادة للدروع واقامة تحكيمات فنية محاطة بالاسلاك الشائكة وتزرع أمامها الالغام وغير ذلك مما يتطلبه أمر الدفاع ... » (ص ١٠٩) .

هذا هو رأي عامر حسك ، الذي كان معاونا للشيشكلي، ثم اصبح ضابط ركن القاوقجي حين نقلت قوات الانقاذ من المنطقة الوسطى الى الجليل في أوائل حزيران ، ثم تولى عامر حسك قيادة لواء اليرموك الاول في ٤٨/٨/١٩ حتى سقوط الجليل في نهاية تشرين الاول من العام نفسه .

ولكن ضابطا آخر من ضباط الانقاذ يطرح الامر من زاويـــة أوسع وأشمل اذ يقول في مناقشته الغاية من تشكيل الانقاذ : « شعرت الجامعة العربية حينما أعلنت هيئة الامم المتحدة التقسيم انها عاجزة عن العمل بالوسائل الدبلوماسيـــة وان قوة الصهيونيـــة الخارجية كبيرة وتستطيع أن تضغط على الرأي العالمي ، ولهذا أرادت أن تتظاهر بالقوة، ومن جهة أخرى وجدت قوة الفلسطينيين غير كافية لمقاومة اليهـــود والانكليز معا ، وخصوصا ان الهيئة العربية العليا كانت تشرف على القتـــال والنضال ، وهذه كانت مكروهة لدرجة كبيرة من بريطانيا ومن أتباع الاستعمار الفلسطينيين والعرب ، لذلك قررت أن تمد هؤلاء بالسلاح وان تحضر جيشا تشرف عليه الجامعة العربية ، ولا تمانع

بريطانيا في تشكيله ، بعد أن يئست من قيادات الجيوش العربية . وهذه جميعا كانت تنصح بعدم التدخل بالجيوش النظامية . والحقيقة كان موقف الجامعة العربية حرجا ، لم تجد أمامها على حد رأيها في ذلك الوقت الا طريقين هما تسليح الفلسطينيين نسبيا وتحضير جيش الانقاذ وادخاله فلسطين ليدافع عن البلاد ريثما تعتمد الجيوش العربية على دخول الحرب . ومن جهة اخرى ايهام هيئة الامم المتحدة ، ومنها بريطانيا والولايات المتحدة لتعدل عن قرار التقسيم وتؤجل تطبيقه لوقت آخر . غير ان مجرى الامـــور ومحاولات اقناع الحكومات العربية لتتدخل بقواتها العسكرية أدت الى تعديل الخطط وابعاد أهل البلاد الفلسطينيين عن أمور الدفاع عن مدنهم وقراهم ارضاء للملك عبدالله أو لغلوب باشا قائد جيشه . ورغم كل ذلك فان هذا لم يدخل الحرب وانما كان يطبق حدود التقسيم »(١٩) .

فالقصري يبرز أهمية العامل السياسي ويركز عليه اذ يرى ان الجامعة العربية استخدمت جيش الانقاذ كوسيلة « تظاهر بالقوة » . ولم تستخدمه كقوة فعلية ، واذا اسقطنا الفقرة المتعلقة « بقيادات الجيوش العربية ... التي كانت تنصح بعدم التدخل » ، لان هناك وقائع تشير الى غير ذلك(٢٠) فان الغرض من تشكيل الانقاذ كان مائعا وبعيدا عن أن يحقق ما انشىء من أجله ليس لعجز في الجيش نفسه بل لان الجامعة العربية نفسها لم تكن تنوي تحقيق الغرض جديا بل كانت تناور وتتظاهر ، اما لقناعة بعدم القدرة أو لتناقضات بين دولها أو لضغوط عديدة .

هذا ما يقوله قائد جيش الانقاذ وبعض ضباطه العاملين في الميدان . أما ما يقوله المقدم الركن شوكت شقير ـــ أحد اعضاء اللجنة العسكرية المشرفة على الجيش ـــ عن الغرض من تشكيله فيلخصه بما يلي : « ان المهمة الاساسية كانت مواجهة تحركات القوات اليهودية في المدن والقرى الفلسطينية والحيلولة دون تمكينها مـــن احتلال هذه المدن والقرى او السيطرة عليها ، والاستيلاء على المناطق التي تجلو عنها القوات الانكليزية وكذلك تأمين السلاح والمتطوعين العرب لمؤازرة الفلسطينيين في كفاحهم للحفاظ على عروبة فلسطين وذلك قبل أن تتدخل الجيوش العربية اثنـــاء فترة الانتداب . أما بعد ١٥/٥ فان الانقاذ مكلف بمشاركة القوات النظامية في مهماتها القتالية التي يكلف بهـــا ويصبح جزءا من القوات التي كان مفروضا فيها أن تحرر فلسطين »(٢١) .

هذا وقد يكون من المفيد أن نناقش بعض الآراء التي أصدرت أحكاما متجنية ظالمة على جيش الانقاذ وبعيدة عن الواقع وقد صورته على غير حقيقته ، وكانت لا ترى الا جانبا واحدا من الاحداث الجارية في فلسطين وفي المنطقة العربية . من هذه الاحكام ما يقوله كامل الشريف ـــ أحد قادة الاخوان المسلمين المصريين ـــ في وصف الانقاذ ، اذ يقول : « وحتى هذه السرايا التي أتعب القواد أنفسهم في اعدادها والانفاق عليها لم تأت بالنتائج المطلوبة ، اذ كانت ضعيفة الى أبعد الحدود في التدريب ، فوق ان افرادها كانت تنقصهم الروح المعنوية العالية ، اذ كانت غالبيتهم من العمال المتعطلين الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم ووجدوا الجهاد فرصة سانحة للكسب ، فما كادوا يدخلون البلاد حتى تعددت حوادث السلب والنهب والتهجم على الاعراض والمتاجر ... »(٢٢) .

وواضح ان في هذا الكلام ما هو أكثر من المبالغة وتحريف الحقائق ، ذلك ان الغالبية العظمى من أفراد الجيش لم تكن « تنقصهم الروح المعنوية العالية » ـــ بشهادة المصادر والمراجع الاجنبية والصهيونية ـــ ولا « كانوا في غالبيتهم من العاطلين ... » ان اقوال الشريف هذه تبقى على تجنيها وقسوتها مائعة وغير مبلورة وهي لا تحدد بوضوح الغرض من تشكيل الانقاذ ، ولكن مصطفى السباعي ـــ المراقب العـــام للاخوان المسلمين في سوريه ـــ يطرح اتهاماته بوضوح وجلاء شديدين فهو يقول :

« ١ ــ ان جيش الانقاذ الذي ألفته الجامعة العربية ... لم يكن الا تسكينا لشعور العرب الهائج في كل بلد ، وانه لم يكن يقصد منه ان يقاتل ويمنع سقوط المدن والقرى العربية بأيدي اليهود ، ٢ ــ ان قيادة جيش الانقاذ لم تخض معركة جدية واحدة في فلسطين ... » ثم يتابع الاتهام ليصل الى الذروة في التجني والظلم حين يقول: « ٣ ــ ان جيش الانقاذ كانت مهمته تحطيم منظمة الجهاد المقدس التي انخرط فيها شباب الفلسطينيين ... »(٢٣).

وكل ما يمكن قوله تعليقا على هذه الآراء والاحكام ، انه اذا كانت النقطة الثالثة خاصة هي مهمة جيش الانقاذ فماذا ترك الشريف والسباعي لغلوب وكلايتون واصدقائهما من الساسة العرب المعروفين من أدوار قاموا بها في المأساة خلال تلك الايام ؟

والخلاصة فان الغرض من تشكيل الانقاذ لم يكن « دقيقا واضحا » وهو ما يعتبر العسكريون توفره « أمرا أساسيا جدا »،بل كانت وراء تشكيله أغراض متعددة تراوحت بين تصور القدرة على استخدام مناورات عرض القوة العسكرية لتحقيق أهداف سياسية دون دفع ثمن جدي ، وبين الاندفاع المعنوي والحماسة العاطفية التي تصور أصحابها أنهم بمثل تلك الاوضاع السياسية والاجتماعية ، وبمثل هذه الامكانيات الضئيلة كانوا قادرين على تحرير فلسطين وتصفية مشاريع الاستعمار والصهيونية في بلادنا .

كان كل شيء يشير الى التشتت في الاتجاه وعدم وضوح الرؤية السياسية وغياب الاستراتيجية والبرنامج السياسي ، وقد أدى هذا الى عدم تحديد العدو من الصديق ، ومن يمكن تحييده ، وكان هناك غموض في تحديد الغرض الاساسي لتلك المرحلة وتداخل بينه وبين الاغراض الثانوية ، بالاضافة الى فقدان الدراسة الموضوعية الشاملة للامكانيات الفعلية ، وحجم هذه الامكانيات والقدرات وحدودها ، كما تعذر ادراك حقيقة طاقات الخصم وعدم الالمام بامكانياته ، وما ولده ذلك من « خلافات بين السياسيين والعسكريين »(٢٤) من حيث نظرتهم وتقديراتهم للموقف السياسي والعسكري .

وفي الحقيقة ، فان هذه العوامل الهامة كانت كلها من النتائج الطبيعية والمنطقية لضعف حركة التحرر الوطني العربية ولطبيعة انظمة الحكم وتكوينها الاجتماعي القائم يومذاك.

(٤)

قيادة الانقاذ

يمكن القول نظريا ان الامانة العامة لجامعة الدول العربية كانت تشرف من خلال اللجنة العسكرية على القوات غير النظامية العاملة في كافة ميادين فلسطين قبل انتهاء الانتداب في ١٥ أيار . وكانت هذه القوات تتألف من : ١ ــ قوات الانقاذ ، وكانت غالبية متطوعيها من سوريه والعراق ولبنان والاردن ، وكان القاوقجي قائدها ، ٢ ــ قوات الجهاد المقدس ، وكانت الغالبية المطلقة لمنتسبيها من فلسطين وتولى قيادتها عبد القادر الحسيني ، ٣ ــ حاميات محلية فلسطينية كان لها نوع من الاستقلال ولم تكن مرتبطة بالهيئة العربية العليا كما هو شأن الجهاد المقدس ، ٤ ــ القوات العاملة في جنوب فلسطين وكانت غالبية المتطوعين فيها من مصر (من الاخوان المسلمين خاصة ومجموعة من الجيش المصري) ثم من بعض اقطار المغرب العربي والسودان وكان قائدها المقدم احمد عبدالعزيز . والتحقت مع هذه القوات أيضا كتيبتان كان على رأس الاولى المقدم عبد الجواد طبالة وقاد الثانية النقيب محمود عبده . ولم تكن هذه المجموعات الاربع في الواقع تخضع للجامعة العربية ، اذ كانت قوات جنوب فلسطين (أحمد عبد العزيز) مستقلة كليا عن اللجنة العسكرية ، وكانت تتلقى التوجيه والدعم من الحكومة المصرية . وفي حين ان المفروض ان تكون المجموعات الثلاث الاولى (الانقاذ والجهاد والحاميات)

خاضعة للجامعة ومرتبطة بها سياسيا وعسكريا واداريا وماليا ، لكن الواقع كان غير ذلك ، اذ كانت نسبة ارتباط كل مجموعة مختلفة ومتباينة جدا عن نسبة ارتباط المجموعات الاخرى .

لقد كانت قوات الجهاد المقدس تخضع عمليا لتوجيهات الهيئة العربية رغم اعتمادها المالي والتسليحي — الى حد ما — على الجامعة في حين كان الانقاذ اكثرها اعتمادا واستنادا الى الجامعة ولجنتها العسكرية . وعلى هذا الاساس يمكن القول ان هذه المجموعات المسلحة العديدة كانت تفتقد الرأس السياسي الموحد أو حتى الرأس المنسق فيما بينها . ولا شك ان افتقاد القيادة السياسية المشرفة قد أضعف القدرات العسكرية لهذه القوات التي كانت تمولها الجامعة العربية وقد « وصل عدد افرادها الى أكثر من عشرة آلاف مقاتل »(٢٥) .

ولكن اذا تركنا جانبا قيادات « قوات الجنوب والجهاد المقدس والحاميات » وحاولنا تفحص أوضاع قيادة الانقاذ فاننا نجد أن الجهاز القيادي العسكري كان يتألف على الشكل التالي : على رأس الهرم العسكري كان المفتش العام لقوات المتطوعين (طه الهاشمي) . وتليه اللجنة العسكرية وكانت برئاسة اللواء اسماعيل صفوت ، والعضوية العاملة فيها لمندوبي العراق وسوريه ولبنان وفلسطين فقط ، ولم ترسل بقية الدول العربية مندوبيها الى اللجنة . وكان النسق الثالث هو قيادة الميدان ، اي قائد الجيش — القاوقجي — . ويليه مباشرة قادة الافواج . وبعد اعادة التنظيم للجيش ، اصبح قادة الالوية وقائد الفوج العلوي حيث كان لهذا الفوج شيء من الوضع المتميز ، يشكلون النسق الرابع في السلم القيادي .

في دمشق وفي قرية (قدسية) — القريبة من دمشق — كانت تقيم مكاتب المفتشية واللجنة العسكرية ومراكز عمل المسؤولين فيها ، وكانت هذه المجموعة تشكل (القيادة العامة) ، في حين كانت قيادة الجيش والافواج تشكل (قيادة الميدان) . ولكن قيادة الميدان كانت لها عمليا منطقتان مستقلتان تعبويا (تكتيكيا) . كانت هناك المنطقة الوسطى حيث عملت غالبية قطعات الانقاذ بقيادة القاوقجي نفسه ، وقد اتخذ (جبع) مقرا لقيادته . وكانت هناك المنطقة الشمالية حيث عملت مجموعة وحدات بقيادة المقدم الشيشكلي الذي اتخذ قرية الصفصاف في الجليل مقرا له . وقد بقي هذا الاستقلال قائما حتى وصول القاوقجي في أوائل حزيران الى الجليل حيث الحقت به كل وحدات الشيشكلي واتخذ قرية عيترون — جنوب لبنان — مقرا لقيادة الانقاذ . أما قيادات الافواج فكان لكل فوج مركز لقيادته في منطقة انتشار سراياه .

●

كانت المسألة التنظيمية الهامة التي واجهت قيادة الانقاذ هي افتقادها لهيئة أركان عامة . فالمعروف ان للجيوش النظامية ، أو شبه النظامية ، هيئات أركان تتشكل عادة من دوائر وشعب تقوم بمسؤوليات شؤون الافراد ، والاستخبارات ، والعمليات وما يتبعها من تدريب وتوجيه معنوي ، والشؤون الادارية أي الامداد والتموين والنقل . ويلتقي رؤساء هذه الشعب دوريا برئاسة رئيس الاركان أو قائد الجيش لوضع الخطط وترتيب المسؤوليات وتوزيع المهمات ومتابعتها .

كانت هذه الهيئة مفقودة تماما في قيادة الميدان . ولكن هذا لا يعني انه لم يكن مع القاوقجي عدد من الضباط والاداريين الذين كانوا يرافقونه في تنقلاته وتحركاته أكثر من كونهم يشكلون هيئة أركان أو مقرا عاما(٢٦) . فلقد كان معه النقيب محمود الرفاعي حيث اشغل واجبا هو أقرب ما يكون الى أمانة السر لقائد الجيش . وكان معه النقيب سليم الاصيل الذي تولى مسؤولية الاستخبارات وحين أعيد الى الجيش السوري شغل مكانه الملازم مصطفى رام الحمداني . وكان معه علي الدندشي — مسؤول الشؤون الادارية في

مقر القيادة ـــ . وبعد انتقال الانقاذ الى الجليل حاول المقدم شقـــير والرائد حسك ـــ كلاهما ضابط ركن ـــ تنظيم شؤون المقر العام ولكن يبدو أنهما لم يستطيعا ذلك .

وفي دمشق كانت أوضاع اللجنة العسكرية التنظيمية أفضل نسبيا اذ اعتمدت على بعض الضباط والرتباء الذين تطوعوا من الجيش ودوائر الحكومة السورية ومن بعض الهيئات الشعبية . فلقد كان في دمشق نوع من المقر أو المركز ، ولكن لم يكن هناك ما هو أكثر من ذلك .

وعلى أي حال فانه يمكن القول ان قيادة الانقاذ (الخلفية والامامية) افتقدت ذلك النوع من هيئات الاركان العاملة في الجيوش النظامية ، كما انها لم تكـــن تملك ، في الوقت نفسه ، ذلك النوع من هيئات الاركان لقوات الانصار التي أقامتها القيادة السوفييتية أو القيادة اليوغوسلافية برئاسة المارشال تيتو أثناء حرب التحرير الوطنية . ولا مجال طبعا للاشارة والمقارنة مع هيئة أركان ماوتسي تونغ والمارشال تشوته خلال الحروب الثورية الطويلة التي خاضها الشيوعيون الصينيون .

لم تكن العلاقات بين قيادة الانقاذ والمفتشية العامة بدمشق تسير طيلة التجربة على نمط واحد اذ يبدو ان الامور كانت « في الفترة الاولى من تشكيل الجيش وبدء عملـــه تسير بشكل معقول وسليم نسبيا . وكانت تحكم هذه العلاقة الرغبة المشتركة في تحقيق نصر سريع ، وعلى ذلك ساد الحد الادنى من الانضباط وتقيدت قيادة الميدان بتعليمات القيادة العامة . ولكن هذه الفترة لم تطل كثيرا اذ أعقبها استقلال وانفراد تزايدا لمدة من الزمن لا من قيادة الميدان وحدها فحسب بل ومن قادة الافواج والوحدات ، وحدثت تصرفات لم ترض عنها القيادة ، بل بالاصح كانت تعترض عليها . وهذا الامر هو الذي حدا بالقيادة العامة للمطالبة بحل بعض الافواج واعادة تنظيم بعضها الآخر ، وذلك بأمل ان يسود القطعات شيء من الانضباط والتنظيم العسكريين »(٢٧) .

ولكن كانت هناك وقائع عديدة تشير الى وجود انقطاع شبه كامل بين القيادة العامة وبين قيادة الميدان . كانت هناك دائرتان منقطعتان وشبه مستقلتين . اذ لم تكن هناك اجتماعات رسمية دورية يلتقي فيها هذا الجهاز القيادي ليناقش الخطط ويتابع التنفيذ ويدرس المعارك والاحداث ويستخلص النتائج والدروس المستفادة .

هذا ولقد كانت هنـــاك خلافات شكلية بسيطة تبدأ ، مثلا ، باصرار كـــل طرف بتسمية الانقاذ باسم معين ، فالقاوقجي كان يطلق على الانقاذ اسم « جيش الانقاذ » ، في حين كانت اللجنة العسكريـــة تسميه « قوات الانقاذ »(٢٨) . كما كانت هنـــاك خلافات على قضايا اساسية وهامة وقد اشار القاوقجي الى حادثة درعا ليلة ٤٨/١/٢٢ ، عند مرور فوج اليرموك الاول بقيادة المقدم محمد صفا بها الى فلسطين عبر الاردن ، وكيف انه رفض تنفيذ أوامر الهاشمي الـــذي طلب ان تدخـــل القوات عبر الاردن دون استئذان حكومة عمان(٢٩) . وكما كان القاوقجي ينفرد ويمارس استقلالا كذلك كان الهاشمي وبعض اعضاء اللجنة ـــ احيانا ـــ يلجأون الى تجاوز القاوقجي واصدار الاوامر والتوجيهات الى بعض قادة الافواج او الحاميات خلافا لاصول التسلسل والضبط المعمول بها عـــادة في الجيوش النظامية . بل يبدو ان الهاشمي وضع خطة عمليات لبعض قطعات الانقـــاذ ، ومن حق المرء ان يشك بان القاوقجي لم يطلع عليها ، وهذا ما يفهم من أمر المفتشية رقم (٣٩١٠) تاريخ ٤٨/٦/٣ والذي تضمن تحديد القوة والمهمة الخ ... الخاصة بمعركة المالكية الثانية التي استردت بها بعض قطعات الانقاذ والجيشين السوري واللبنـــاني مواقع المالكية وقدس والمناطق المحيطة بها ...(٣٠) .

اما عن علاقة قيادة الميدان بقـــادة الافواج فلم تكن أفضل مما هي عليه في المستويـــات الاعلى . فهناك دلائل كثيرة تشير الى انعدام ذلك النوع من التنظيم العسكري التقليدي،

وقد يكون ذلك طبيعيا نتيجة عدم سير الامور على المستويات الاعلى بشكل سليم وصحيح . كذلك يمكن القول بان القاوقجي لم يكن يعقد اجتماعات دورية منتظمة مع قادة الافواج لتدارس الموقف وتبادل الاراء في الخطط الواجب اتباعها لمواجهة العدو وتحركاته . وفي الواقع فقد مارس قادة الافواج نوعا من الاستقلال كان قريبا من استقلال الحاميات المحلية الفلسطينية . يقول أحد ضباط المدفعية الذين رافقوا الانقاذ طيلة تجربته في الجليل ما يلي : « ويمكن ان نقول بصورة أصح كان قادة الافواج لوحدهم يشتبكون مع العدو بدون تحضير ، وحينما يتغلبون على العدو يدعون القائد العام ، وهذا يحضر ومعه وفد من الصحفيين والسياسيين ، يرون المعركة من المرصد ويكتبون عن وصفها ما يريدون ، ويعودون في اليوم الثاني الى الخلف »(٣١) .

هذا ويعتقد احد الاداريين العاملين في الانقاذ انه « كثيرا ما شعر وكأن ما كان يربط معظم ضباط الميدان بالقيادة العامة واستمرار اتصالهم بها انما يرجع بشكل اساسي الى حاجة هؤلاء لتأمين ما تحتاجه الوحدات في الخط الامامي ، اي التموين والتمويل والاسلحة والذخيرة ، ولولا ذلك لانقطع كل رابط لهذه القطعات بقيادتها العامة كما كان حاصلا بالنسبة للحاميات المحلية المستقلة »(٣٢) . ومع المبالغة التي قد يلمسها المرء في هذا القول فان تقديري ان عجز القيادة العامة عن السيطرة على الامور يرجع الى اسباب عديدة منها عدم قدرتها على تلبية طلبات الوحدات ، ومنها انخفاض مستوى التدريب ، وعدم تجمع الوحدات بل انتشارها ، بالاضافة الى تواجدها مع قوات شعبية ، وعدم قيام تعاون وتنسيق جديين بين قوات عربية تقاتل عدوا واحدا ، وهناك أيضا سبب هام جدا هو غياب التوجيه السياسي والتوعية ، والذي لو توفر لامكن خلق القناعة بسلامة الموقف وتعميقها وتعزيز الايمان بالاهداف والمثل التي يقاتل افراد الجيش من أجلها . فقد كان معظم قادته يفكرون ببناء الانقاذ على أساس ان يكون جيشا نظاميا عربيا تقليديا يقوم على الطاعة التامة والضبط الحديدي لا على اساس الطاعة الواعية والالتزام الطوعي القائم على الايمان باتجاه سياسي معين . وكان هذا التفكير هو حصيلة تجاربهم النضالية وبحكم تكوينهم السياسي ، اذ شارك معظمهم في النضالات القومية السابقة من خلال المؤسسة العسكرية القائمة يومذاك، ولعبوا ادوارا وطنية بناءة وهامة دون ان يكونوا منتمين لكتل سياسية أو أحزاب ولم تكن لهم ارتباطات بهيئات معينة قائمة يومذاك .

●

اما عن الناحية المالية ، فقد كانت قوات الانقاذ تمول من قبل جامعة الدول العربية بمعرفة لجنة سمت اعضاءها الدائرة المالية في الامانة العامة وكانت تعرف باسم « لجنة الخبراء الماليين » وكان يرأسها احمد عبد الغفار باشا — من مصر — . والغريب في الامر انه لم تكن هنالك ميزانية محددة ، كما انه يصعب تحديد ميزانية الجيش الشهرية أو السنوية اذ لم تكن تستقر على رقم معين ، وكان هناك تفاوت واضح بين نفقات كل شهر بالنسبة للشهر الاخر . هذا وقد قدمت الامانة العامة مبلغ مليون جنيه مصري للجنة العسكرية عند تشكيلها في تشرين الاول ١٩٤٧ ثم دفعت مليونا ثانيا بعد اجتماع مجلس الجامعة في القاهرة في أوائل كانون الاول ١٩٤٧ . وكان المفروض ان تمول هذه «الميزانية الفلسطينية» من قبل الدول الاعضاء السبع فتدفع كل منها حصة تماثل النسبة المئوية التي تدفعها كالتزام سنوي لتمويل ميزانية الجامعة ، فكانت مصر تتحمل النسبة الاعلى وهي ٤٢٪ في حين كانت المملكة اليمنية تقدم ٣٪ وهي النسبة الادنى . كانت المفتشية العامة — عن طريق دائرة المحاسبة فيها — تتولى أمور الانفاق وتقوم بتدقيق حسابات قوات الانقاذ وترسل في اول كل شهر محاسبين وامناء صندوق للافواج المختلفة حيثكانوا يقومون بدفع المخصصاتوالرواتب والسلف لافراد الوحداتفيأماكنتواجدهم .

(٥)

تشكيلات الانقاذ وتنظيمه

ليست دراسة تشكيلات الانقاذ بأمر يسير نظرا لافتقاد الوثائق من ناحية ، ولان قوات الانقاذ اعيد تنظيمها اكثر من مرة كما جرى ابدال اسماء الافواج ، فبعد اسابيع قليلة من وصول فوج الحسين من بغداد الى سورية فغلسطين جرى حله ووزعت سراياه . كذلك فان المقدم مهدي صالح العاني كان يقود فوج القادسية بينما كان النقيب ميشال العيسى يقود فوج اجنادين . وبعد سقوط يافا اعيد تنظيم الفوجين ليتولى العاني قيادة فوج اجنادين . وهناك صعوبة اخرى هي ان كثيرا من الافواج لم يتح لها ان تقاتل كوحدات لمدة طويلة بل كانت تفرز منها سرية او اكثر لتنقل الى مواقع اخرى تقاتل فيها بعيدا عن قيادة فوجها واحيانا خارج مسؤوليات جيش الانقاذ (سرية النقيب فاضل عبد الله في القدس وضعت بأمرة الجهاد المقدس ، وغير هذه السرية نجد عددا آخر عانى من مثل هذا النقل الذي كان ضروريا اثناء القتال) . كذلك كانت هناك حاميات تتشارك قيادة الانقاذ في مسؤوليتها دون ان تمارس عليها اشرافا حقيقيا ، من ذلك حامية يافا بقيادة المقدم عادل نجم الدين ، وحامية عكا بقيادة الملازم عدنان مراد ثم خليل كلاس ، وفي غزة كان للانقاذ مائة مقاتل من اصل (٤٧١) وتولى قيادة هذه المنطقة المقدم عبد الحق عزاوي ثم اوفد العقيد عاهد السخن(٣٣) .

اذا تركت هذه المصاعب في دراسة التشكيلات جانبا فاننا نجد ظاهرة هامة هي ان الاقبال كان كبيرا على التطوع حين اعلن قبول المتطوعين للقتال في فلسطين . ففي العراق « لبى الدعوة زهاء (١٥) الف شخص سجلوا أسماءهم في سجل المتطوعين من اجل انقاذ فلسطين ، جلهم — ان لم نقل كلهم — ممن سبق لهم ان انخرطوا في سلك الجندية (في الجيش أو الشرطة) جنودا وضباطا »(٣٤) . ولم تكن الحماسة قاصرة على قطر واحد بل كانت تشمل اقطارا عربية عديدة . ويقول العارف ان « عدد المتطوعين الذين تم تدريبهم في معسكر الجيش السوري بقطنا في ٤٨/٢/٨ بلغ (٤٩٧٦) ، كان منهم (٢٩٨٧) سوريا و (٨٠٠) فلسطيني و (٨٠٠) عراقي ... »(٣٥) وهو يستند في هذا الرقم على تقرير رفعته اللجنة العسكرية الى الجامعة العربية . أما القصري فانه يشير الى « ان عدد المتطوعين في هذا الجيش قد بلغ عشرة الاف في البداية الا ان قسما منه استنكف ، ولم يبق منه سوى خمسة الاف الا انه سار فعلا منهم حتى شباط ١٩٤٨ بالدقة (٤٦٣٠) متطوعا من سائر البلاد العربية »(٣٦) .

وفي مصر « أبرق حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين ، الى مجلس الجامعة عند اجتماعه في عاليه في ٤٧/١٠/٩ يقول انه على استعداد لان يبعث كدفعة أولى بعشرة الاف مجاهد من الاخوان »(٣٧) . ولكن حكومة النقراشي لم تكن راغبة في الاشتراك في الحرب الفلسطينية .

ويبدو ان هذه الحماسة الشعبية الجارفة هي التي كانت تدفع بالصحافة العربية الى تضخيم ارقام المقاتلين في جيش الانقاذ والمبالغة في قوته . فقد ذكرت « النهار » البيروتية انه جاءها « من مصدر ثقة ان القوات الاولى من جيش التحرير العربي (المقصود الانقاذ) البالغ عددها (١٥) الف جندي قد بدأت هجومها على فلسطين فجر اليوم بقيادة الزعيم القاوقجي وان الاهالي العرب استقبلوا طليعة الانقاذ بفرح وسهلوا العمليات الحربية »(٣٨) وهناك غير النهار من وضع ارقاما اكبر وضخم الامور بشكل ملفت جدا .

هذه المبالغة لم تقتصر على الصحافة وحدها بل ان المسؤولين العرب شاركوا في حملة التضخيم وتضليل الجماهير ، بعضهم عن حسن نية وبعضهم الاخر عن سوء نية ،

فوزير الدفاع السوري ، مثلا ، صرح « ان العرب قد ألفوا جيشا يزيد على (٧٠) الف مقاتل لتحرير فلسطين من الصهيونيين »(٣٩) أما حقيقة حجم الانقاذ فقد كانت دون ذلك. يقول احد كبار الاداريين المدنيين وقد اشرف على مسؤوليات ادارية يومذاك « ان حجم الجيش في الفترة الاولى من تشكيله بلغ ثلاثة الاف متطوع واخذ يتسع تدريجيا ولكن قدرات الاستيعاب وقلة الكوادر وضآلة الامكانيات المالية والتسليحية اضطرت اللجنة العسكرية الى ايقاف التوسع في قبول المتطوعين »(٤٠). أما القاوقجي فانه يسجل ان عدد مقاتلي الجيش « بلغ حوالي اربعة الاف ضمنهم قرابة (١٥٠٠) فلسطيني »(٤١). وفي تقديري فان أية ارقام عن الانقاذ تحتاج الى ربطها بتاريخ محدد حتى تكون دقيقة ومعتمدة ، ذلك ان ارقام المتطوعين لم تكن ثابتة طيلة قيام الانقاذ بواجباته .

وكانت هذه الالاف العديدة من المتطوعين موزعة على أفواج عديدة وسرايا مستقلة انتشرت في المنطقة الوسطى والشمالية حتى اوائل حزيران ٤٨ حيث عادت فتجمعت كلها في الشمال :

١ ــ مجموعة المنطقة الوسطى وكان يقودها فوزي القاوقجي وتألفت من :

ــ فوج اليرموك الاول قاده المقدم محمد صفا . وقد غادر سورية الى فلسطين في ٤٨/١/٢٢ واتخذ مراكز له في منطقة جنين ــ بيسان ثم انتقل الى الجليل في اوائل حزيران . وخاض عدة معارك كانت أهمها معركة الزراعة في شباط ٤٨ .

ــ فوج القادسية قاده المقدم مهدي صالح العاني ودخل فلسطين في شباط ٤٨ وكان بتصرف القيادة في جبع . وقام بالجهد الاساسي في معركة مشمار هاعيمك ، واشترك في معارك باب الواد والقدس ، وانتقل الى الشمال بعد اعادة تنظيمه وتسميته بفوج اجنادين ، وقد اشتركت وحدات هذا الفوج بقيادة العاني في الدفاع عن منطقة ترشيحا خلال الهجوم الصهيوني على الجليل في تشرين الاول ٤٨ .

ــ فوج الحسين قاده الرائد الطيار محمود هندي . وقد دخل الى منطقة المثلث ثم ما لبث ان اعفيت قيادته ووزعت سراياه على الافواج الاخرى .

ــ فوج حطين قاده النقيب مدلول عباس . وقد دخل الى منطقة طوباس في اذار ٤٨ وشاركت سراياه في معارك مشمار هاعيمك والقدس . وانتقل الى الشمال في اوائل حزيران حيث تحمل عبء القتال في الشجرة والناصرة ونزلت به خسائر كبيرة واصابات كثيرة شملت كل ضباطه تقريبا . فقد استشهد النقيب هرمز شابو والشاعر الفلسطيني الملازم عبد الرحيم محمود وجرح قائده مدلول عباس جراحا بليغة وكذلك الملازم اكرم ديري .

ــ فوج اليرموك الثالث قاده الرائد عبد الحميد الراوي . دخل منطقة القدس ورام الله في نيسان واشترك في معارك باب الواد والمدينة المقدسة .

ــ فوج اجنادين قاده النقيب ميشال العيسى واشترك في معركة يافا في اواخرها وشارك في القتال في باب الواد ثم انتقل الى الشمال .

ــ فوج العراق قاده المقدم عادل نجم الدين وقد دخلت معظم مراتب هذا الفوج الى يافا وتولى نجم الدين قيادة حاميتها المحلية مع وحداته في ٤٨/٢/١٦ وبقي فيها حتى ٤٨/٤/٣٠ حيث ترك المدينة دون اذن قيادته ودون ان يسلم مسؤولياته فيها الى خلفه النقيب ميشال العيسى .

وكانت في المنطقة الوسطى عدة سرايا لها وضع خاص منها السرية اللبنانية التي كان يقودها النقيب حكمت علي وقد جرى توسيع هذه السرية عند الانتقال الى الجليل حيث قاد النقيب حكمت الفوج اللبناني الذي اشترك في معارك محلية صغيرة اهمها كفرمندا

واشترك في الدفاع عن السموعي وكفرعنان اثناء الهجوم الصهيوني على الجليل في تشرين الاول. وكانت هناك سرية الفراتيين التي قادها النقيب خالد مطرجي وقد وصلت هذه السرية الى المنطقة الوسطى في ٤٨/٢/٣ وبقيت فيها حتى ٤٨/٥/٢٤ . وكانت زرعين اولى معارك هذه السرية مع العدو في منطقة السامرة التي وقعت في ٤٨/٢/٢٣ . ثم نقلت هذه السرية الى الجبهة السورية وفي اول تموز ارسلت الى الجليل وبقيت فيه حتى اواخر تشرين الاول وقد اشتركت في معارك ترشيحا والمغار وسعسع والمنارة في المنطقة الشمالية(٤٢). وكانت هناك « سرية منكو » الاردنية التي اشتركت في معركة باب الواد. وسرية اسود الشهباء التي قاتلت في القدس . هذا وقد « التحقت بهذه الافواج بطارية ونصف بطارية من المدفعية بقيادة النقيب مأمون البيطار ومعه الملازم الاول عفيف البزري وسليمان الحلو ... وكان تعداد بطارية المدفعية بين ٨١ — ١٢٠ جنديا ومعهم اربعة مدافع في الترتيب الافرنسي (سورية) ... »(٤٣).

ان القصري يذكر ان قوات المنطقة الوسطى « كانت تتألف من أربعة افواج مشاة هي : فوج اليرموك الاول وفوج القادسية وفوج حطين وفوج اجنادين .. »(٤٤) ولكن الواقع هو ان ما ذكره القصري ليس دقيقا ، اذ بالاضافة للافواج الاخرى المذكورة كانت هناك مجموعة من العناصر المسلحة المحلية التي تعاونت مع الانقاذ ايضا .

٢ — مجموعة المنطقة الشمالية وكان يقودها المقدم اديب الشيشكلي وتألفت من :

— فوج اليرموك الثاني بقيادة الشيشكلي . وقد دخلت هذه القوة المنطقة الشمالية عبر لبنان بتاريخ ٤٨/١/٢٣ . « وفي شهر شباط توزعت قواته على مناطق : صفد بقيادة الملازم الاول احسان كمالماز ، عكا بقيادة الملازم عدنان مراد ، والمالكية بقيادة الملازم الاول فتحي الاتاسي ، والصفصاف بقيادة الملازم الاول محمد جديد غريب . وفي شهر نيسان افرزت قيادة الجيش السوري بطارية مدفعية مع الملازم الاول فائز القصري والملازم وديع نعمة »(٤٥). هذا ويقول القصري ان « قوات اديب الشيشكلي كانت في ذلك الوقت (لم يحدده المؤلف) لا تتجاوز (٨٠٠) مجاهد ومتطوع ومسلح ، ومع كل فرد ما يقرب من (٢٠٠) خرطوشة »(٤٦).

والى جانب قوات الشيشكلي كان هناك فوج جبل العرب الذي قاده الرائد شكيب وهاب واتخذ مواقعه في منطقة شفا عمرو ، قرب الناصرة . ولكن هذا الفوج لم يكن مرتبطا بالشيشكلي اذ كان له شيء من الاستقلال . هذا ويقول عامر حسك ان المجموعة الشمالية بقيادة المقدم الشيشكلي كانت تتشكل — عدا فوج جبل العرب — من المفارز التالية : المفرزة العراقية بقيادة الملازم حسين عبد اللطيف ، المفرزة الحموية بقيادة الملازم صلاح الشيشكلي ، المفرزة الشركسية بقيادة الملازم جلال برقوق ، المفرزة الادلبية بقيادة الرئيس عبد الغفار ، المفرزة الاردنية بقيادة الرئيس ساري غنيش ، السرية السورية النظامية بقيادة الملازم عثمان حاجو ، المفرزة اللبنانية بقيادة الملازم الاول محمد زغيب ، حامية عكا بقيادة خليل كلاس ، المفرزة البدوية بقيادة الملازم محسن يعيش ، مفرزة مجدل شمس الدرزية ، واخيرا التحقت المفرزة اليوغوسلافية بقيادة الرئيس الاول شوقي اليوغسلافي ، وفصيل مدفعية من مدفعين بقيادة الملازم فائز .. »(٤٧) والغريب ان المؤلف يضيف قائلا بعد ان يعدد هذه المفارز والوحدات « ان عدد هذه القوة يتراوح بين ٣٥٠ و ٤٠٠ جندي »(٤٨). وكانت في الجليل قوات من المتطوعين المحليين كان يقودهم ابو ابراهيم الصغير وابو محمود الصفوري وأبو اسعاف وقد تعاونوا مع الانقاذ . وحين سحبت قوات الانقاذ من المنطقة الوسطى الى معسكر قطنا للراحة واعادة التدريب والتنظيم جرت اعادة تشكيل قوات الانقاذ كلها على اساس الوية هي : لواء اليرموك الاول بقيادة المقدم محمد صفا ، ولواء اليرموك الثاني بقيادة

المقدم اديب الشيشكلي ، ولواء اليرموك الثالث بقيادة المقدم مهدي صالح العاني ـــ فيه نواقص كثيرة ـــ والفوج العلوي بقيادة غسان جديد .

الكوادر : المقصود هنا الضباط والرتباء (ضباط الصف) . كانت قلة عدد الضباط هي احدى اصعب المشاكل التي واجهت قيادة الانقاذ . « اذ لم يتطوع عدد كاف من الضباط وضباط الصف للقيادة والادارة ، واكثر من تطوع من هؤلاء كـــان من الجيش السوري النظـــامي »(٤٩). هذا ويقول العميد الركـــن عبد الله عطفه ـــ رئيس اركـــان الجيش السوري يومذاك ـــ « ان القيادة قد افرزت (٤٦) ضابطا سوريا و (٤٠٠) ضابـــط صف وجندي والحقتهم بقوات الانقاذ للقتال والتـــدريب »(٥٠). وفي رأي المقـــدم الركن شوكت شقير ان هذا الرقم قد لا يكون دقيقا اذا كان المقصود به أنه كان في الانقاذ مثل هذا العدد من الكوادر النظامية السورية في فترة محددة ، ولكنه يعتقد أن هـــذا الرقم يمثل مجموع من تطوع في الانقاذ من الجيش السوري طيلة فترة عمل الانقاذ »(٥١). وفي كل الاحوال فان عدد الضباط السوريين هبط كثيرا بعد ١٥ ايار اذ عاد عدد كبير منهم الى جيشهم ليشتركوا في معارك الجبهة السورية .

وكان الى جانب الضباط السوريين عدد من الضباط العراقيين وكان معظمهم من العناصر الوطنية التي اخرجها عبد الاله ونوري السعيد من الجيش في اعقاب الاحتلال البريطاني بعد حركة مايس ١٩٤١ . وكان هناك عدد اقل من الضباط الاردنيين واللبنانيين ، ولكن لم يتجاوز « عدد ضباط الانقاذ مائة »(٥٢) في أية فترة من الفترات . هذا ويشير مصدر اخر الى « انضمام (٦٧) مرشح ضابط الى الانقاذ بعد انسحابه من الجليل هم افراد دورة خاصة من الشباب الفلسطيني أشرف على تدريبها في قطنا النقيب حازم الخالدي والملازم الاول وجيه المدني »(٥٣).

لقد أدى هذا النقص في الكوادر الى نتائج خطيرة وبعيدة الاثر ، « فكثيرا ما كنا نجد بعض السرايا يقودها ضابط اعاشة برتبة مـــلازم وبعضها يقودها ضابط صف ، امـــا اكثرية الفصائل فقد كان يقودها متطوعون لم تسبق لهم خدمة عسكرية من قبـــل »(٥٤). وكان من نتائج هذا النقص في الكوادر ، برأي الرائد عامر حسك ان « جرد قوات الانقاذ من الادارة الحسنة والقيادة الصحيحة والضبط العسكري الحازم ، وهي أهم مميزات مـــا يرتكز عليه أمر قيادة الاشخاص فأدى ذلك في النهاية الى ان تعمد بعـــض الوحدات الى ترك مواضعها من تلقاء نفسها ولو من دون ان تجـــابه ضغطا يضطرها على ذلـــك من القوات اليهودية كما امتنع بعضها عن اطاعة الاوامر الصادرة اليها لاحتلال مواضـــع جديدة ورفض بعضها الاخر ان يخف الى نجدة قوات كانت بحـــاجة ماسة الى النجدة والاغاثة »(٥٥).

ويرى القصري في شرح أهمية نقص الكوادر وخطورة المسألة فيقول : « كانت فكـــرة انشاء جيش الانقاذ خاطئة من مبدئها ، فالجيش لا يشكـــل من المدنيين قبـــل العمليات مباشرة ... وتدل فكرة جمع هذا الجيش على ان الاشخاص الذين طلبوا الشروع بـــه نظريون ومدنيون يجهلون مبادىء الحشد وقيمة العمليـــات الحربية وانهم سياسيون لا يقصدون سوى الدعاية ...»(٥٦). ويضيف قائلا « ان الانقاذ لم يعتمد على الضباط للنقص الكبير فيهم ولا على ضباط الصف لقلتهم ايضا ... وان هـــذا النقص يؤدي الى ضياع النواحي الاساسية المطلوبة من القيادة ... واذا مـــا ضاعت هذه فان القائـــد يصبح فردا عاديا ويفقد قيمته العسكرية وبالتالي لا يستطيع ان يسيطر ويثبت ويستمر في تحقيق هدفه ... وبصورة عامة لم يكن في الفوج الواحد اكثر من أربعة الى خمسة ضباط بينما يلزمه (١٥) ضابطا على الاقل »(٥٧).

واضح كم هو هام واساسي وجود العدد الكافي من الضباط في الجيش وخطورة الدور الذي يلعبونه في قيادته وادارته ، مع ملاحظة أن حسك والقصري يهملان تماما عـــامل

التوعية والتوجيه السياسي الذي يمكن ان يخفف الى حد ما من نقص الضباط . وهذا العامل كان مفقودا في الانقاذ .

●

كان عدد الرتباء دون المطلوب بكثير . ويقول احد الاداريين « ان ظروف تكوين الافواج كانت تتحكم في عددهم ، بالاضافة الى ان معظمهم لم يكونوا من محترفي الجندية سابقا ، اي كان ينقصهم التدريب والخبرة ، اذ جاءوا الى الانقاذ متطوعين عاديين ثم تدرجوا ليكتسبوا رتبهم خلال الفترة التي قضوها في الخدمة في جيش الانقاذ »(٥٨) .

كان نقص الكوادر في الانقاذ كبيرا جدا . في حين ان العدو نظر الى مسألة الضباط والرتباء نظرة مختلفة تماما عن نظرتنا لها . لقد ركز العدو اهتمامه على هذه الناحية تركيزا يرجع الى سنوات كثيرة قبل معارك ١٩٤٨ . وكتاب آلون عن « بناء الجيش الاسرائيلي » يفيض بتفاصيل البرامج بساعاتها الطويلة ، النظرية والتطبيقية ، التي كانت تهدف الى بناء كوادر ذات كفاءات عالية . ولقد لخص آلون رأي القادة الاسرائيليين في هذه المسألة حيث قال : « ان احراز النصر في معاركنا الكبرى قد تم سلفا وذلك في برامج تدريب الرتباء (ضباط الصف) التي وضعتها الهاغانا والبالماخ »(٥٩) .

هذا عن الضباط والرتباء . أما المتطوعون فقد كان تدريبهم ومستواه ونوعيته موضع نقاش وجدل مستمرين بين الاطراف التي تابعت تجربة الانقاذ .

التدريب : كانت تعليمات قيادة الانقاذ تقضي « بقبول انضمام المتطوعين الى قوات الانقاذ بصرف النظر عن جنسيتهم او بلادهم عندما تتوفر في المتطوع حسن النية والاخلاص والغرض الذي تطوع من اجله . وعلى هذا الاساس تطوع في هذه القوة اناس من جميع الجنسيات والاقطار ممن هزتهم المشاعر الانسانية وسيطر عليهم عامل الجهاد المقدس »(٦٠) . وعلى الرغم من ان غالبية المتطوعين كانت من ابناء العراق وسورية بشكل خاص الا ان التباين الفكري والاجتماعي والسياسي كان كبيرا وهذا حتم ان يكون هناك « مستودع خاص للتدريب تنصهر في بوتقته هذه النواحي المتباعدة حتى يكون من الممكن لتلك المجموعة ان تتبع اسلوبا واحدا في التدريب وفي كيفية تلقي الاوامر وتنفيذها وبما يقتضيه الضبط والطاعة »(٦١) . ولم يكن التباين وحده السبب الذي يحتم التركيز على التدريب ولكن طبيعة العدو الذي نقاتله بالاضافة الى اهتمامه الخاص بمسألة التدريب ، كلها عوامل كانت تستدعي ان يكون امر التدريب موضع اهتمام وعناية ومتابعة خاصة من قبل القيادة المسؤولة عن هذه الناحية . لذلك كان المفروض ان يمر المتطوعون في دورات تدريب راقية ليستطيعوا اداء واجباتهم ويحملوا مسؤولياتهم القتالية بالشكل المناسب والمطلوب .

كان المتوقع من جيش كالانقاذ ، وضعت له اهداف وتصورات كبيرة ، ان يؤمن له عدد كاف من المدربين المؤهلين ليوفروا للمتطوعين تدريبا راقيا في مستواه وخلال مدة معقولة . وان يتاح لهؤلاء المتطوعين اجراء الرمايات على مختلف الاسلحة في الليل والنهار ، وان تكون في برامجهم مسيرات وتدريبات ليلية وان تكون لمعظمهم ان لم يتوفر لهم جميعا برامج تدريب صاعقة ، وتدريبات على العبور ومجابهة المدرعات والرمي ضد الطائرات واستخدام اسلحة الدعم المتوسطة والثقيلة . وان يتضمن برنامج التدريب اهتماما خاصا بالنواحي الهندسية وخاصة الالغام والمتفجرات والتمويه وفتح الثغرات في حقول الالغام .. الخ . ولكن لم يتوفر شيء من ذلك .

يقول خالد المطرجي — قائد سرية الفراتيين — ان مقاتلي دير الزور الذين قادهم « لم يمكثوا في معسكرات قطنا الا ثلاثة ايام ... وقد وصلوا فلسطين في ٤٨/٢/٣ ... وقد تام مع معاونيه بتدريبهم خلال (١٥) يوما وجعل « منهم جنودا يلمون بعض الشيء بفن

التسديد واحكام الرماية ... » وفي ٢٣ شباط (أي بعد (٢٠) يوما من وصولهم) خاضوا معركة ناجحة حين دافعوا عن قرية زرعين واستطاعوا رد هجوم العدو المركز ... »(٦٢).

وواضح ان مثل هذا التدريب لا يمكنه ان يحقق الاهداف المرجوة من قوة مقاتلة لها اهداف بحجم اهداف الانقاذ .

واما القصري فانه يقول لقد « اهتمت الجامعة العربية بتشكيل جيش التحرير (المقصود الانقاذ) من المتطوعين العرب ، وكان معظمهم من المدنيين الذين لم يتلقوا تدريبا عسكريا ، وخصصت (٢٠٠) الف جنيه للانفاق عليهم ... »(٦٣) ويتابع مضيفا في وصف اسلوب الجامعة « بانها جمعت بعض المتطوعين وباشرت بتدريبهم وتسليحهم على عجل وشكلت منهم وحدات عسكرية شبه نظامية . وبمدة شهر ارسلت قسما منهم الى ميادين القتال . والحقيقة لم يكن لدى هؤلاء المتطوعين الاستعداد الكافي ليقاتلوا كوحدات نظامية أو كوحدات غير نظامية لان العدو كان مدربا ومسلحا يجب ان يقابل بقوة أشد منه .. »(٦٤).

اما عامر حسك فيقول « ان المتطوع كان يدخل معسكر التدريب وبدلا من ان يتلقى فيه قدرا كافيا من التدريب والضبط العسكري كان يخرج وهو على حالة من الفوضى بالاضافة الى قصر مدة التدريب »(٦٥).

هذا ما يقوله بعض ضباط الوحدات في الميدان . أما المسؤولون في اللجنة العسكرية والمفتشية العامة فان اقوالهم لا تختلف في جوهرها عن ملاحظات ضباط الميدان .

ان المقدم الركن شوكت شقير يقر « باهمية التدريب وضرورته لمواجهة التنظيم العسكري الصهيوني ، وهو يعتقد ان مستوى التدريب في الانقاذ كان اقل من الوسط . ومن رأيه ان اسباب ذلك ان الجيش تشكل على عجل ، في فترة قصيرة جدا ، وفي فترة انفجر القتال فيها بعد قرار التقسيم مباشرة ، بالاضافة الى قلة عدد المدربين المطلوبين لاعداد الاف المتطوعين وتأهيلهم ... »(٦٦). هذا ويقول الاداري المدني « انه عندما بدأ تشكيل قوات انقاذ فلسطين وضع مخطط لتدريب وتأهيل المتطوعين للقتال . وذلك باخضاعهم لدورات تدريبية كانت تتم في معسكرات الجيش السوري في قطنا . وقد تم فعلا تدريب عدد من المتطوعين تراوح بين ٧٠٠ — ٨٠٠ في المراحل الاولى ... وعندما توسعت اعمال التطويع ، بعد اسابيع قليلة ، لم يعد هناك مجال لاخضاع المتطوعين لدورات تدريبية ، بل كانت المعسكرات تتخذ كمراكز تجمع وتسفير المتطوعين لالحاقهم بالقطعات التي نسبوا اليها . وكانت هذه العمليات لا تستغرق اكثر من اسبوع كحد أقصى لكل مجموعة من المتطوعين ... والملاحظ ان هذا الاجراء — التجميع والتسفير — بدأ تنفيذه بعد قرار اتخذ يقضي بانتقاء المتطوعين من الذين لديهم خبرات سابقة في استعمال الاسلحة ، وليس بالضرورة ان تكون لهم خبرة بالقتال ... »(٦٧). ويتابع هذا الاداري ملاحظاته ليضيف مؤكدا انه « ليست صحيحة أبدا الاشاعات التي روجت في بعض الاحيان من أن بعض المتطوعين لم يتقنوا استعمال السلاح الذي كان بين أيديهم ، بل بالعكس فان جميع المتطوعين كانوا يحسنون استعمال الاسلحة التي كانت بحوزتهم ، على انه يستثنى من هذا بعض المتطوعين العاملين في مجالات التنظيم والادارة وغير ذلك من العمليات غير الميدانية ، حيث من الجائز ان يكون بين هؤلاء من كان غير ملم باستعمال الاسلحة ... أما عن التدريب على القتال الليلي والنهاري فان قوات الانقاذ بحكم تكوينها من عناصر غير مدربة عسكريا بشكل نظامي فانها كثيرا ما كانت تنفذ العمليات التي تكلف بها وفق التخطيط الموضوع لها وكان يشرف على هذه العمليات ضباط أو ضباط صف ممن لهم الخبرة في هذه المجالات »(٦٨). هذا ويضيف معلقا ان البعض يحلو له ان يعطي مسألة ضعف مستوى التدريب حجما أكبر من الحقيقة بكثير وهم

يعتمدون على حوادث معينة منتقاة ويتناسون الوجه الآخر من المسألة . وهو ان اكثر من نصف جنود الانقاذ كانوا مدربين سابقا في سلك الجندية او الشرطة ، في العراق وسوريه ، كما ان فريقا من المهتمين بتجربة الانقاذ قد يجهلون وجود مجموعات من المتطوعين كان تدريبهم جيدا بالفعل . ولكن لم تجر الاستفادة منهم بالشكل المناسب . من هؤلاء قرابة مائتي متطوع فلسطيني كانوا جنودا في « قوات حدود شرقي الاردن » ـ أصحاب الزنار الاحمر ـ شكلوا سرية عقربا ، قرية قرب نابلس ، ذلك ان معظم أفرادها كانوا من تلك المنطقة ، كذلك هناك أفراد الفوج العلوي ـ وهو أكبر أفواج الانقاذ ، وصل تعداده الى (٦٠٠) مقاتل وكان أفراده من منطقة اللاذقية وغالبيتهم ممن تدربوا في الجيش الفرنسي اثناء الانتداب وكانت خبرتهم جيدة ، ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن مجموعتي الشراكسة ـ ومعظمهم من سوريه ـ والارمن ـ ومعظمهم من لبنان ـ وكان تعداد هاتين المجموعتين يزيد على (٣٥٠) مقاتلا وقد تدربوا كالعلويين في صفوف الجيش الفرنسي . بالاضافة الى المجموعة اليوغوسلافية التي كان يقودها الرائد شوقي والتي قاتلت في صفوف الجيش الالماني خلال الحرب العالمية الثانية ... وواضح أن هذه نظرة مخالفة كثيرا لنظرة المقاتلين والعاملين في الوحدات .

كان ضعف التدريب يعني الشيء الكثير في القتال بالنسبة لجيش الانقاذ . يقول القصري « لم يكن تدريب جنود الانقاذ في مستوى لائق فكانوا يعملون كعصابات أو كأفراد يدخلون ويخرجون من المعركة متى شاءوا وبدون أمر ... وكان الجميع يخشون الليل ويتركون أماكنهم بمجرد الهجوم عليهم ليلا . ولم يكن لديهم انضباط نار أي كانوا يطلقون النار بكميات كبيرة ثم ينسحبون بعد أن تنفد ذخيرتهم ، وربما لاستلام ذخيرة جديدة . ولم تستخدم المعدات الحديثة كأجهزة اللاسلكي والمخابرات اللازمة وأدوات الهندسة الضرورية وما يتبعها من الغام وأفخاخ (مصائد) . ولم تستخدم المدفعية رغم وجودها في المهمات المناسبة : لقد استخدم المدفع لاحتلال الاهداف والقضاء على المقاومات الصغيرة عوضا عن المشاة والمغاوير . وأحيانا كان المدفع يقف في الصفوف الاولى قبل المشاة لرفع المعنويات والمحافظة على الخطوط الامامية ... »(٦٩).

ان مستوى التدريب المتدني لم يكن يمثل ، على ما يبدو ، مشكلة جيش الانقاذ وحده اذ لم يكن قاصرا عليه ويبدو أن ضعف التدريب كان ظاهرة عسكرية عربية اذ أن جيوشا نظامية عربية كانت تشكو مثل هذا النقص الخطير . ان احد قادة الاخوان المسلمين المصريين ، وهو من الذين قاتلوا في غزة والنقب مع القوات المصرية الخفيفة وخاض مع المتطوعين معارك مشتركة مع الجيش المصري ضد الصهاينة ، كتب يقول : « ان الجنود المصريين ـ على الرغم من هذه الروح العالية وما أظهروه في بداية الحرب من شجاعة وثبات ـ كان واضحا ما عليه من نقص في التدريب والمقدرة خاصة فيما يتعلق « بالاعمال الليلية » حين كانت هذه الناحية متوفرة تماما في قوات العدو ، ولا أظن الا أن الضباط ممن اشتركوا في الحملة يوافقونني على هذه الملاحظة ، اذ كان العدو يقوم بأغلب معاركه في الليالي المظلمة وبصورة تنبيء عن مقدرة فائقة ومستوى عال في التدريب »(٧٠). ويعيد الكاتب تأكيده على أهمية مسألة التدريب حين يلخص الخبرات ونتائج القتال بقوله : « رابعا ـ كان واضحا ما عليه جنودنا من قصور وعجزهم في التدريب خاصة فيما يتعلق بالاعمال الليلية . ولو كانوا يحسنون هذا النوع من العمليات لهاجموا المستعمرات ليلا واستفادوا من ميزة المفاجأة ولما تعرضوا للخسائر الكثيرة من جراء الهجمات النهارية »(٧١).

كان تقييم العدو لمستوى تدريب الانقاذ مختلفا بعض الشيء . يقول كورزمان في كتابه الضخم عن « الحرب العربية الاسرائيلية الاولى » انه « كان للقاوقجي جيش قوي يقف وراءه : حوالي أربعة آلاف رجل موزعين على اربعة افواج . كان معظمهم من الجنود

السابقين في الجيوش النظامية والشرطة العربية ، وعديدون منهم قاتلوا تحت قيادته في الثورات العربية العديدة ضد السيطرة الغربية منذ الحرب العالمية الاولى . وكان عدد من الضباط الكبار والرتباء لا يزالون على لوائح الخدمة الفعلية في الجيش السوري ، ولكنهم ، نظريا ، غائبون باجازات غير محددة . كان بعض رجاله ، بالطبع، غير مدربين، ولكنهم تلقوا تدريبا أساسيا لعدة أسابيع في معسكر للجيش السوري »(٧٢).

ولكن هل يعني هذا أن العدو لم يكن يشكو من مشاكل التدريب وان جنوده كافة كانوا على مستوى راق من التدريب والخبرات القتالية ؟ وهل كانوا في المستوى الذي تتطلبه المقاييس العسكرية الصرفة لجيش تقليدي ؟ على هذين السؤالين يجيب ضابطان صهيونيان خدما في صفوف الجيش البريطاني وتوليا مراكز قيادية هامة في « اللواء اليهودي » الذي شكله البريطانيون واشترك في معارك الحرب العالمية الثانية : « من ناحية ثانية فان الجيش الاسرائيلي تشكل على عجل وفي اقسى فترات الحرب حين كان العدو يمسك بخناقنا. ولم يكن لدينا وقت. وكثيرا ما كنا ندمج بعض الوحدات « اداريا » ونرسلها الى المعركة من دون تدريب عملي ، وفي احيان كثيرة لم يكن التجهيز كافيا او مناسبا ، وفي أحيان أخرى كان الضباط غير مدربين بشكل كاف ... وهذه الفوارق تطلبت من الجنود المدربين في الجيش البريطاني تكيفا سريعا ومرنا مع الظروف التي كان جيش الدفاع الاسرائيلي يتشكل فيها . وبالتالي لم يكن من الممكن دائما أن تتم الافادة الكاملة من معارفهم في بناء وتدريب وحدات القتال ... »(٧٣).

وبالاضافة الى ما ذكره الضابطان الصهيونيان فان هناك وقائع عديدة تشير الى أن المتطوعين العرب كانوا يواجهون بعض جنود العدو الذين لا يدل اداؤهم في القتال على مستوى راق في التدريب كما كانت هناك وحدات معادية اشتبكت في معارك اظهرت تدريبها المتدني . هذا ويقول عامر حسك ان وحدات الانقاذ قاتلت في معارك الشجرة جنودا غير مدربين من العدو ، من هؤلاء « الاسير ابراهام الذي التجأ الى الانقاذ ليلة ٤٨/٧/١٣ فارا من صفوف الصهاينة بسبب كثرة القتلى والجرحى الذين سقطوا حوله...وقد افاد الاسير ان اليهود اخذوه قسرا الى معسكر التدريب لمدة اربعة اسابيع الهدنة فقط وجيء به تلك الليلة الى الشجرة مع خمسين من أمثاله فظهر انه لم يتعلم في التدريب حتى كيف يطلق البندقية ... »(٧٤).

●

كان تدني مستوى التدريب العسكري في الانقاذ ظاهرا ، وهو عندنا دون العدو بكثير ولا تجوز المقارنة ، ولكن مع ذلك كان من الممكن التقليل من آثاره السلبية الى حد كبير ، لو اهتمت قيادة الانقاذ بالجانب الآخر من التدريب والاعداد، اي بالتوجيه السياسي والتعبئة المعنوية والشحن الروحي . ففي الوقت الذي كان فيه متطوعو الانقاذ يفتقدون التدريب العسكري المطلوب نجد أن قيادتهم لم تهتم أبدا بالجانب الايديولوجي الذي يلعب دورا هاما جدا في تصليب المقاتل وتعميق ايمانه ليستطيع التغلب على ما يعانيه من مشاق ومن هبوط مستوى وعيه السياسي وتخلفه الفكري والاجتماعي . لقد كانت قيادة الانقاذ لا تعطي العامل الايديولوجي الاهمية التي يستحقها ، شأنها في ذلك شأن كل الجيوش النظامية العربية يومذاك . بينما نجد ان العدو كان ، منذ عام ١٩٣٨ « يعطي اهمية خاصة للدافع الايديولوجي »(٧٥)وذلك بناء على توصيات الكابتن البريطاني اورد وينغيت الذي درب الكوادر الاساسية للهاغانا وانشأ « الوحدات الليلية الخاصة » . وبقي اهتمام القيادة الصهيونية واعيا جدا ومنصبا على هذه الناحية اذ « كان واجبها الاول هو التحسين النوعي للمادة البشرية . ولما كانت نسبة عالية من المهاجرين الجدد قد جاءت من اقطار شرقية حيث تسود الامية معظم سكانها فكان من الواضح وجوب البدء في اعطائهم مبادىء التعليم الاوربي . واضطلع الجيش باكمال التعليم العادي الذي تلقاه

هؤلاء في المدارس بتزويدهم بتعليم أساسي عام وفني مع التركيز الخاص على الثقافة الايديولوجية بقصد مساعدتهم على فهم الاهداف الوطنية والاجتماعية للدولة وللقضية التي طلب منهم الدفاع عنها ... »(٧٦).

ومن الطبيعي أن لا تكون قيادة الانقاذ وحدها المسؤولة عن التقصير في مجال التوعية والاهتمام بالعامل الايديولوجي . ان مسؤوليتها ، في هذا المجال ، كانت نسبية بالتأكيد ، لان ما كان يعانيه الانقاذ من ضعف وتخلف في هذا المجـــال انما يرجع الى الاوضاع الاجتماعية العامة التي كان الانقاذ جزءا منها ، بالاضافة الى الاعلام المضلل الذي لعب دورا في التوجيه السياسي السيىء ، ولعل مقارنة بين ما كان ينشر عندنا ـــ كنموذج ـــ وبين ما كان العدو يركز عليه يوضح الفارق النوعي بين المفهومين السائدين عندنا وعند الخصم حول اثر التوجيه السياسي والتعبئة الروحية والمعنوية ... ففي تلك الفترة كتبت احدى أقوى الصحف العربية يومذاك تقول : « ان الدوائر المصرية العالية تلقت أنباء رسمية تفيد أن تحول أميركا في مسألة فلسطين أصبح مائة في المائة . وان مصدرا عربيا مسؤولا قال أن عدول أميركا عن فكرة التقسيم الى وصاية موقتة ان هو الا حل انتقالي ، وان هذه الفترة ستنقضي حتما بفلسطين الى دولة عربية موحدة »(٧٧). وهكذا فيما تحتاج الجماهير العربية الى التعبئة النفسية والتوجيه السياسي السليم لتعيش حالة الحرب والقتال نجد الاعلام العربي يلجأ الى التخدير والتضليل وتعليق الآمال الكاذبة على تحول السياسة الاميركية . أما كيف تصرف العدو ، وهو في أسوأ أوضاعه حين كانت الجيوش العربية تمتلك زمام المبادرة وتتقدم في كل الاتجاهات قبيل الهدنة الاولى فهذا نموذج مقابل :

« كانت القوات الاسرائيلية ، بوجه عام ، لا تزال دون العرب في العدد والتجهيزات والوضع الجغرافي السياسي ، ولكنها متفوقة في التنظيم والانضباط والروح القتاليـــة والوحدة مع الاحساس بأن « **لا بديل** » . فاما أن تربحوا الحرب أو أو تقذفوا في البحر المتوسط ، أنتم كأفراد ومع الامة ككل . كان هذا معنى « اللابديل » ، وهو شعـــار استخدم على نطاق واسع في هذه الفترة من قبل الجنود والمدنيين بقصد التعبير عن وعي الامة بأنها كانت تقاتل من أجل بقائها ... »(٧٨).

فهل تتحمل قيادة الانقاذ وحدها مسؤولية التقصير في مجال الاعداد والتدريب العسكري الايديولوجي ـــ وهما متداخلان ومترابطان في القتال ـــ ؟ وهل تلام اذا ما قصرت وكل شيء حولها ما كنا نراه يومذاك ؟

التسليح : كان العرب يعانون في فترة ١٩٤٨ من مشكلة النقص الخطير في السلاح . وكانت ـــ برأي العارف ـــ « من أعوص المشاكل التي اعتورت سبيل الجهاد العربي في فلسطين ، لا بل كانت أعوصها طرا ، وابعدها أثرا في مصير هذا الجهاد »(٧٩). ولقد واجهت جيش الانقاذ والجهاد المقدس والجيوش النظامية ، كما انها كانت تواجه كل الحركات الوطنية في المنطقة العربية ، فقد كانت مسألة التسلح هي احدى نقاط الخلاف الكبيرة بين الحكم الوطني في العراق وبين بريطانيا في بداية الثلاثينات وكانت من اسباب تأزم العلاقات بينهما ونشوب معارك مايس ١٩٤١ . وكانت مسألة التسلح من متاعب الحكم الوطني في سوريه في ١٩٤٨ وبعد هذه السنة ، وهذه المشكلة نفسها كانت من الاسباب الرئيسية التـــي دفعت بالرئيس عبدالناصر في ١٩٥٥ الى التوجه الى الكتلة الاشتراكية بعد أن أيقن أن الدول الغربية لا تريد حل هذه المشكلة .

كان المفروض أن تقدم الحكومات العربية عشرة آلاف بندقية لعرب فلسطين ، حسب قرارات الجامعة في عاليه بتشرين الاول ١٩٤٧ ، ولكن ذلك لم يتم عمليا كما كان مقررا ، وبعد صدور قرار التقسيم اجتمعت اللجنة السياسية للجامعة في القاهرة في ٤٧/١٢/٧ وأقرت طلب اللجنة العسكرية بتقديم عشرة آلاف بندقية أخرى ... وفي الوقت نفسه

تعاقدت سوريه ، لحساب الجامعة العربية ، مع مصانع سكودا التشيكية على شراء عشرة آلاف بندقية والفي رشيش و(١٢٠٥) مليون طلقة . ولكن مواد هذه الصفقة لم تصل الى مستودعات اللجنة العسكرية اذ يقال ان هذه الاسلحـــة تحولت الى العدو بفضل نشاط استخباراته ويقال أيضا أن الباخرة التي كانت تحملها جرى اغراقها في مياه اليونان بعد أن غادرت البحر الادرياتيكي .

كانت مشكلة قلة السلاح سببا مستمرا لتذمر قيادة الانقاذ والجهاد المقدس من اللجنة العسكرية ، وسببا لتذمر اللجنة من الامانة العامة للجامعة العربية التي لم تكن تستطيع أن تفرض على الحكومات العربية الوفاء بما التزمت به . وكانت الهيئة العربية العليا المشرفة على الجهاد المقدس تتهم ، من ناحية أخرى ، اللجنة العسكرية « بايثار جيش الانقاذ على المجاهدين الفلسطينيين »(٨٠). ولقد نجم عن قلة السلاح ان ازدهرت تجارته وارتفعت أسعاره اذ بلغ « ثمن البندقية الواحدة مائة وخمسون جنيها ، بـــل ومئتا جنيه ... »(٨١).

كانت الاسلحة المستعملة في الانقاذ « خليطا من انواع مختلفة من البنادق الانكليزيـــة والفرنسية والبلجيكية ومن نزر قليل من مدافع الهاون المختلفة الانواع والعيارات وقليل من الرشاشات المختلفة بأنواعها مـــع بعض المصفحات التي كان أغلبها مـــن المغانم اليهودية ... وكانت الاسلحة على قلتها غير متناسقة في انواعها ، ولم تكن مصنفة بحيث يسلح كل فوج بأكمله بنوع واحد من السلاح ... ولا شـــك ان هذا يؤدي الى خلق الصعوبات والمشاكل في تموين العتاد . وقد بذلت محاولات كثيرة لتوحيد أنواع هذه الاسلحة ضمن الافواج فذهبت تلك المحاولات سدى نظرا لان الجنود كانوا يحتفظون بما يغنمونه من الاسلحة اليهودية عندهم »(٨٢).

وكان العتاد قليلا لدى الانقاذ وعانى الكثير من جراء ذلك . ويعتقد عامر حسك « ان الحكومات العربية لو كانت قد اهتمت بتسليح قوات الانقاذ تسليحا وافيا بالمرام لامكنها أن تفعل ذلك مما كان مخزونا لديها من فائض الاسلحة القديمة ، ولا سيما من المدفعية الجبلية التي كانت تلك الحكومات قد عزفت عن استعمالها في جيوشها فبعثت بها لتحفظ في المستودعات »(٨٣). والمؤلف يشير هنا الى أنواع معينة من المدافع كانت مخزونة في مستودعات الجيش العراقي .

هذا وكان الانقاذ يشكو فقرا في مختلف التجهيزات والذخائـــر كالمتفجرات والادوات الهندسية وأجهزة الاتصال اللاسلكي ووسائط النقل نظرا لعدم قيام الحكومات العربية بتقديم ما وافقت على الالتزام به للانقاذ والجهاد المقدس عبر اللجنة العسكرية . الا ان هناك من يرى ان مسألة قلة السلاح والذخيرة خضعت في بعض الاحيان للمبالغة ، وفي أحيان أخرى للضغط والتهويش، وذلك لان الفقر في هذا الميدان لم يكن قاصرا على الانقاذ بل ان الجيوش العربية نفسها كانت تشكو في معارك ٤٨ من قلة السلاح والذخيرة وليس أدل على ذلك مما يقوله القصري « واذا علمنا ان الجيش السوري ، وبعد شهر من القتال ، كان يشتري الذخيرة من البدو ومن المهربين الاتراك بشتى الوسائل لتبين لنا مقدار النقص الذي وقع به العرب في ذلك الوقت ، مع التحفظ في ذكر ان بعض الذخيرة كان يصرف بدون فائدة أو يسرق »(٨٤).

لقد كان احتياط الانقاذ من العتاد سيئا من دون أدنى شك ولكنه ، رغم قلته لم يكن أسوأ من حالة احتياط بعض الجيوش العربية التي عرض قادتها ما لديهم بالتفصيل في مؤتمر القاهرة العسكري، ١٠—١٣ تشرين الثاني ١٩٤٨ . فاذا كانت الجيوش النظامية تشكو من هذا العجز فطبيعي ان يكون حال الانقاذ في منتهى السوء وذلك لانه لم يكن يملك موارد ذاتية ولا مستودعات خاصة بل كان يعتمد — بشكل أساسي على ما في مستودعات

تلك الجيوش من سلاح وعتاد ، اذ لم يكن لقادة الانقاذ (اللجنة العسكرية وقيادة الميدان) اية «سلطة على مستودعات أي جيش عربي ولا على أية حكومة مستقلة»(٨٥) .

وقد يكون من المفيد ان نشير هنا الى ان الانقاذ كان متفوقا على العدو بالمدفعية في المرحلة الاولى ، أي حتى بداية الهدنة الاولى ، اذ لم يكن لدى الصهاينة آنذاك مدافع ميدان بل كانوا يعتمدون على استخدام مدافع الهاون ، كما ان العدو لم تكن في حوزته أسلحة وفيرة . ولن نعتمد هنا على ما ترددد المصادر الصهيونية بعد انتهاء معارك ٤٨ لتضخم حجم انتصاراتها ، بل يمكن الرجوع بهذا الشأن الى « نشرة استخبارات القيادة العامة لقوات فلسطين» المؤرخة في ٤٨/٥/٥ والتي أوردت تحت بند « التسلح » ما يلي: « الملاحظ في العمليات التي تدور الان ان سلاح اليهود ليس موحدا . وقد يعني هذا انهم يعانون نقصا في الاسلحة ، أو أنهم يوفرون سلاحهم الموحد للعمليات المقبلة ... ولم يظهر حتى الان ما يدل على ان لديهم مدفعية ميدان او مدفعية ثقيلة ... » .

الادارة والتموين : أشرف على الشؤون الادارية والتموين والمالية جهاز من العناصر غير العسكرية وكان معظمهم من الشباب العاملين فيالميدان الوطني في سورية وبعضهم ممن ناضل ضد الاستعمار الفرنسي خاصة . وكان أبرزهم علي عبد الكريم الدندشي — أحد أبرز قادة الحركة الكشفية في سوريه — وقد عين مسؤولا للشؤون الادارية في قيادة الميدان، وعزت الشربجي — من أعضاء النادي العربي في دمشق — وقد نظم كافة شؤون التموين ، وخالد القنواتي — من اعضاء النادي العربي في دمشق وممن رافقوا القاوقجي في نضاله في فلسطين ١٩٣٦ وفي العراق ١٩٤١ ، وحسين جابر ، الذي كان مقررا للجنة العسكرية والمحاسب المالي فيها ، وعزالدين الحفار ، المحامي الذي عمل في شؤون القضاء العسكري للانقاذ ، وموفق الحوراني وسعيد الزين وآخرون عديدون . وكان هؤلاء موزعين بين اللجنة العسكرية وقيادة الميدان والافواج .

كانت قيادة الجيش السوري قد وفرت للجنة العسكرية وقيادة الانقاذ مستودعات خاصة لخزن اللوازم والاسلحة والذخائر والتجهيزات ، ومكاتب خاصة لتصريف شؤون الانقاذ وأفرزت عددا من الرتباء والجنود المدربين للاشراف على هذه المستودعات وتسيير أعمالها وخاصة ما تعلق منها بشؤون السلاح والذخيرة .

كانت هناك مراكز أمامية ومستودعات متقدمة ، ففي « بنت جبيل — بجنوب لبنان — أسس مستودع عام لتموين القطعات بالارزاق الجافة وبحالة جيدة على الدوام ، غير ان الارزاق الطرية كاللحوم والخضروات كانت تؤمن محليا باعطاء سلف لآمري الوحدات والمفارز »(٨٦). وكذلك أسس في سعسع — بشمال فلسطين — مركز تخزين أمامي . وكان في منطقة نابلس مستودع عام لقوات الانقاذ العاملة في لواء السامرة . ومع ذلك فقد كانت القطعات تشكو من نقص بعض الادوات اللازمة لشؤون الاعاشة كما كانت « تفتقد الخيام والاغطية الكافية والمشمعات المطرية وجل ما كان الجنود يجهزون به العباءات الصوفية ، ولذلك كانت الوحدات تضطر لايواء جنودها داخل القرى ...»(٨٧) فكان لهذا محاذير اجتماعية وسياسية وعسكرية .

الشؤون الصحية : انشأت اللجنة العسكرية دائرة صحية خاصة وعينت لها طبيبا ذا كفاءة وله ماض سياسي عريق في النضال القومي . وقد التحق الدكتور امين رويحة — مسؤول هذا القسم — بقوات الانقاذ التي دخلت الى لواء السامرة . وفي نابلس أسس مستشفى كبيرا يضم (٢٠٠) سرير وبقي يستقبل جرحى الانقاذ والجهاد المقدس والمتطوعين المحليين ومرضاهم حتى انسحاب الانقاذ من هذه المنطقة اذ تم تسليمه يومذاك الى القوات العراقية التي وصلت الى نابلس .

وفي أوائل ١٩٤٨ التحق الدكتور فيصل الركبي — حماه — بالقوات التي قادها الشيشكلي

في الجليل . ولقد طرأ تحسن واضح ، نسبيا ، على الخدمات الطبية في الانقاذ اثر انتقال قواته وتجمعها في الجليل . فقد أسس الدكتور رويحة مستشفى في الناصرة تولى مسؤوليته الدكتور أحمد السواح — دمشق — وكان مع المشرفين على هذا المستشفى آخر من انسحب من الناصرة حين سقطت بيد العدو في ١٦ تموز ١٩٤٨ ، بعد أن نقلوا الجرحى وكافة التجهيزات والمواد الطبية(٨٨) . ثم أنشأ رويحة مستشفى ميدان في الرامة، ثم نقله الى ترشيحا في أيلول ١٩٤٨ ، وبقي يعمل في هذا المستشفى حتى احتل الصهاينة الجليل في أواخر تشرين الاول .

كان يعاون رويحة في ادارة الخدمات الطبية عدد من الاطباء هم : احمد السواح وسعيد سيد درويش — حلب — ووهيب الغانم — اللاذقية — .

هذا في داخل فلسطين ، أما خارجها فقد كانت هناك مجموعة من الاطباء اللبنانيين الذين قاموا بدور هام في تقديم الخدمات للجرحى والمرضى من متطوعي الانقاذ في مستشفيات بنت جبيل وصور ، ثم في بيروت حيث أقام الدكتور بشارة الدهان مستشفى كبيرا في مبنى الدرك السيار ، بعد أن غادر عكا اثر سقوطها ، وكان يستقبل جرحى الانقاذ ومرضاه مما كانوا بحاجة لعلاج متقدم لا تستطيع تقديمه المستشفيات الامامية . ولقد تأسست هذه المراكز الطبية بتبرعات المواطنين العرب .

وفي قرية (قدسية) قرب دمشق أقام الدكتور رويحة مستشفى آخر ، كما كان هناك تعاون مع الخدمات الطبية في الجيش السوري اذ كان الانقاذ يحيل بعضا من جرحاه الى مستشفى المزة العسكري ، قرب دمشق .

والواقع ان مسألة العناية الطبية كانت موضع اهتمام من قبل هيئات شعبية ورسمية ولقد تشكلت لجان لتجنيد الاطباء فأعلنت ، مثلا ، لجنة الاغاثة في بيروت ، التي كان يرئسها الدكتور جورج حنا وتولى أمانة سرها الدكتور سليم ادريس ، أكثر من نداء واعلان تؤكد الحاجة الى « أطباء جراحين وممرضات للعمل في مستشفيات فلسطين لقاء راتب شهري قدره الف ليرة لبنانية للطبيب ومائتي ليرة لبنانية للممرضة ... »(٨٩) ولكن لم يلب هذا النداء الا قلة قليلة جدا . ولذلك « لم يتيسر للالوية او الافواج والمفارز أي طبيب ولم تلحق بها اية مفرزة صحية للاسعافات الاولية ولذلك كان الجريح او المريض كثيرا ما يبقى مدة غير قصيرة من دون اسعافات أولية أو ينال اية رعاية صحية تذكر ... »(٩٠) ويرجع السبب لعدم توفر الكوادر الطبية ولقلة المواد والتجهيزات اللازمة .

هذا ويؤكد أحد الاداريين المدنيين العاملين في الانقاذ بأن « الخدمات الصحية كانت مثالية قياسا على الامكانات المادية المتوفرة »(٩١) .

القضاء العسكري : كانت هناك محكمة عسكرية خاصة بقوات الانقاذ يرئسها ، معظم الوقت ، ضابط حقوقي متطوع ، وكانت هذه الهيئة تنظر بالقضايا التي تحال اليها من قبل قيادات الجيش والمتعلقة بالتهم المنسوبة الى أفراد تلك القوات ، أو المواطنين المقيمين في المناطق التي تعسكر بها وحدات الانقاذ .

كانت الاجراءات والاصول المتبعة في هذه المحكمة تسير وفق ما هو متبع في المحاكم العسكرية السورية ، وكانت أحكامها تخضع لتصديق قائد الجيش لتصبح نافذة المفعول . وجدير بالذكر « ان هذه المحكمة كانت تتمتع باحترام وتقدير الجميع لعدالة الاحكام الصادرة عنها »(٩٢) . ولقد كانت احدى أهم القضايا التي عالجتها قضية ضابطين — برتبة ملازم اول — عراقي وفلسطيني ، أحيلا اليها بتهمة ارتكاب تجاوزات وجرائم ضد مواطنين فلسطينيين في الجليل ، وقد أصدرت حكما باعدامهما رميا بالرصاص ، كما أصدرت أحكاما عديدة ضد عسكريين من الانقاذ ومواطنين اتهموا بارتكاب الجرائم والتجسس وغير ذلك من المخالفات .

الحواشي

١ ــ عارف العارف : **النكبة** ــ نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧ ــ ١٩٥٢ ــ منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر : صيدا ــ بيروت . الجزء الاول ــ ص ١٧٨ .

٢ ــ جريدة « **النهار** » ــ بيروت ــ عدد (٣٨٢٩) تاريخ ١٩٤٨/٣/٩ .

٣ ــ العارف : **النكبة** ــ الجزء الثاني ــ ص (٤٦١) .

٤ ــ محمود الدرة : الحرب العراقية ــ البريطانية ١٩٤١ ــ ص (٣٢٦) ــ دار الطليعة ــ بيروت.

٥ ــ صالح صائب الجبوري : **محنة فلسطين واسرارها السياسية والعسكرية** ــ ص (١١١).

٦ ــ عارف العارف ــ **النكبة** : الجزء الاول ــ ص (١٦) .

٧ ــ العارف : **النكبة** : الجزء الاول ــ حاشية في ص (١٦) مقتبسة من تقرير لوزارة الدفاع العراقية بتاريخ ٤٩/٧/٢٥ .

٨ ــ العارف : **النكبة** ــ الجزء الاول ــ ص ١٤ ــ ١٥ .

٩ ــ من برقية مفتي فلسطين الى الامم المتحدة : جريدة **النهار** رقم (٣٨٤٨) تاريخ ١٩٤٨/٤/١.

١٠ ــ Jon and David Kimche : *Both Sides of the Hill*, p. 105-106. London 1960.

١١ ــ في مؤتمر درعا الذي عقده كبار المسؤولين السياسيين والعسكريين في سورية ولبنان والاردن بالاضافة الى عبد الرحمن عزام والعميد سعد الدين صبور ــ مندوب الجيش المصري ــ يقول احد الذين حضروا المؤتمر ان المجتمعين لمسوا كم كان حقد اعوان الانكليز على الهاشمي شرسا وعميقا من خلال شتائم الملك عبدالله واهانته المباشرة للهاشمي بسبب وجوده في منصب مسؤول وحضوره المؤتمر .

١٢ ــ الجبوري : « **محنة فلسطين** » ص (١١٤).

١٣ ــ الجبوري **المصدر ذاته** ص (١١٤) .

١٤ ــ عامر حسك : **من مأساة فلسطين** ــ ص ١٥٥ ــ ١٥٦ ــ مطبعة المعارف ــ بغداد ــ ١٩٦٠ .

١٥ ــ جريدة **النهار** : عدد (٣٨٢٩) تاريخ ١٩٤٨/٣/٩ .

١٦ ــ حسك : **المصدر ذاته** ــ ص (١٠٧) .

١٧ ــ حسك : **المصدر ذاته** ــ ص ١٠٧ ــ ١٠٨.

١٨ ــ حسك : **المصدر ذاته** ــ ص ١٠٨ .

١٩ ــ العميد المتقاعد محمد فائز القصري : **حرب فلسطين** عام ١٩٤٨ ــ الجزء الثاني ــ ص (٢٥١) ــ دمشق ــ ١٩٦٢ .

٢٠ ــ وثائق اللجنة العسكرية وتقاريرها تشير الى ان التدخل العسكري النظامي كان مطلب اللجنة وخاصة بعد صدور قرار التقسيم . وان احد اهم أسباب استقالة اللواء اسماعيل صفوت من رئاسة اللجنة هو عدم طلبه بوجوب التدخل النظامي قبل ١٥ ايار لا بعده . كذلك يؤكد المقدم شوكت شقير ــ مندوب لبنان العسكري ــ في مقابلة اجراها الكاتب في ٧٣/٣/٢٠ ان اللجنة العسكرية كانت قد وضعت خطة عسكرية شاملة لدخول القوات النظامية العربية كانت تهدف الى تحرير الشواطىء الفلسطينية من الشمال والجنوب ، كأحد المحاور الاساسية، ولكن الملك عبدالله أصر على تعديل الخطة في ١٤ ايار وكان أن سحب الجيش السوري من جنوب لبنان ليكلف بواجب في منطقة سمخ والبحيرة ...

٢١ ــ مقابلة في بيروت في ٧٣/٣/٢٠ .

٢٢ ــ كامل الشريف : **الاخوان المسلمون في حرب فلسطين** ــ ص (٣٨) ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية .

٢٣ ــ السباعي : مجلة **حضارة الاسلام** ــ مقتبسة من كتاب **القصري** ــ ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨.

٢٤ ــ من المفيد قراءة ما كتبه « الجبوري » في « **محنة فلسطين** » ص ١٣١ ــ ١٣٣ و«العارف» في **النكبة** الجزء الاول ص ٢٨٣ ــ ٢٨٩ عن مؤتمر عمان العسكري بتاريخ ٤٨/٤/٣٠وخلافات العسكريين السياسيين حول تقديراتهم لحجم القوات العربية المطلوبة لمنع قيام الدولة اليهودية ، وكذلك عن ملاحظات العسكريين عن السياسيين الذين اجتمعوا في مؤتمر القاهرة العسكري في ١٠ ــ ١٣ تشرين الثاني ١٩٤٨ ــ راجع « الجبوري » : ص ٣٣٠ ــ ٣٣٤ ، « العارف » : الجزء الثالث ص ٧٥٤ ــ ٧٦٢ ــ هذا ويمكن ان يضاف هنا أن احد العسكريين الذين حضروا هذين المؤتمرين يقول عن بعض وقائع مؤتمر عمان ان عبد الرحمن عزام اجتمع الى العسكريين وناقشهم في تقديراتهم ، واخيرا،

ازاء اصرارهم « أسر اليهم أن المطلوب منهم هو القيام بعمليات عسكرية وقتال لـ ٥ — ٧ أيام فقط ، وبعدها ستحل المشكلة دوليا ... وبعد أن لمس عدم ارتياح المؤتمرين عاد ليؤكد لهم ان لديه معلومات قاطعة بأن بريطانيا ستتدخل عن طريق الامم المتحدة لحل المشكلة لصالحنا وذلك بتجميد قرار التقسيم موقتا ... الخ . » هذا ويبدو ان عزام كان قانعا « بحسن نوايا الانكليز » بدليل ما ينقله ايضا « محمد نمر الخطيب » في كتابه « **احداث فلسطين** » من أنه سمع من « عزام باشا امين الجامعة العربية منه ذاته عينه نفسه ... تأكيدات جازمة بأن حيفا لن يتركها الانكليز لتسقط بيد اليهود » . ص ٢٥٨ .

٢٥ — مقتبسة من مذكرة خطية اعدها احد الاداريين المدنيين الذين عملوا في القيادة العامة وقد آثر كتمان اسمه ومؤرخة في ١٥ شباط ١٩٧٣ .

٢٦ — يقول عامر حسك في كتابه « **من ماساة فلسطين** » عن عدم وجود « مقررات بالمعنى المفهوم بحيث تضم اشخاصا يستطيعون القيام بواجب القيادة والادارة ... حتى انه حدث في مرة من المرات ان رحل القاوقجي فرحل معه الجميع ، وما كان مني الا ان ابرقت اليه البرقية التالية بواسطة جهاز الجيش اللبناني: (لم يبق يوم رحيلكم في المقر غيري أنا والخيمة ...) . » — ص ١٠٠ .

٢٧ — من مذكرة احد الاداريين المدنيين مؤرخة في ١٥/٢/٧٣ .

٢٨ — مقابلة مع شوكت شقير في ٢٠/٣/١٩٧٣ .

٢٩ — Al-Qawuqji, *Memoirs*, 1948, Part I, *Journal of Palestine Studies:* Vol. 1, No 4, Summer 1972, p. 27-29

٣٠ — حسك : **المصدر ذاته** — ص ٢٩ — ٣٢ .

٣١ — محمد فايز القصري : **حرب فلسطين ١٩٤٨** — الجزء الثاني — ص (٢٥٤) .

٣٢ — مقتبسة من مذكرة خطية اعدها أحد الاداريين المدنيين بتاريخ ١٥/٢/٧٣ .

٣٣ — العارف : **النكبة** — الجزء الثاني — ص (٣٩٢ — ٣٩٣) .

٣٤ — العارف : **النكبة** — الجزء الاول — ص (٤٩) .

٣٥ — العارف : الجزء الاول — ص (١٠٢) .

٣٦ — القصري : الجزء الثاني — ص (٢٤٤) .

٣٧ — العارف : الجزء الثاني — ص (٣٩٨) .

٣٨ — **النهار** عدد (٣٨٠٨) في ١٣/٢/١٩٤٨ .

٣٩ — **النهار** : عدد (٣٨٣٠) تاريخ ١٠/٣/٤٨ .

٤٠ — مذكرة احد الاداريين مؤرخة في ١٥/٢/٧٣ .

٤١ — **مذكرات القاوقجي**
Al-Qawuqji, *Memoirs*, JPS, Vol. 1, No. 4, Summer 1972, p. 27.

٤٢ — محمد خالد مطرجي : « **مع ابطالنا في فلسطين** » — طبع في ٢٥—٣—١٩٥٤ — لا ذكر لدار النشر — ص (٥٧ — ٥٨) .

٤٣ — القصري : الجزء الثاني — ص (٢٥٠) .

٤٤ — القصري : **المصدر ذاته** — ص (٢٤٩ — ٢٥٠) .

٤٥ — القصري : **المصدر ذاته** — ص (٢٤٩) .

٤٦ — القصري : **المصدر ذاته** — ص (٢٧٣) .

٤٧ — عامر حسك : من **ماساة فلسطين** — ص (٩٨ — ٩٩) .

٤٨ — عامر حسك : **المصدر ذاته** — ص (٩٩) .

٤٩ — عامر حسك : ص (٩٧) .

٥٠ — العارف : الجزء الاول — ص (٤٠) .

٥١ — شوكت شقير — مقابلة في ٢٠/٣/٧٣ .

٥٢ — القصري : الجزء الثاني — ص (٢٤٠) .

٥٣ — اداري مدني : مذكرة خطية تاريخ ١٥/٢/٧٣ .

٥٤ — عامر حسك : ص (٩٧) .

٥٥ — حسك : **المصدر ذاته** — ص (٩٧ — ٩٨) .

٥٦ — القصري : الجزء الثاني — ص (٢٥٠ — ٢٥١) .

٥٧ — القصري : الجزء الثاني — ص (٢٥٣ — ٢٥٤) .

٥٨ — من المذكرة الخطية لاحد الاداريين — مؤرخة في ١٥/٢/٧٣ .

٥٩ — Yigal Allon: *The Making of Israel's Army*, p. 127; Vallentine, Mitchell - London, 1970.

٦٠ — عامر حسك : ص (٩٦) .

٦١ — عامر حسك : ص (٩٦) .

٦٢ — خالد المطرجي : « **مع ابطالنا في فلسطين** » — ص (٤٩ — ٥١) .

٦٣ — القصري : الجزء الثاني — ص (٢٤٣) .

٦٤ — القصري : ذات المصدر — ص (٢٤٤) .

٦٥ — حسك : ص (٩٧) .

٦٦ — مقابلة في ٢٠/٣/٧٣ .

٦٧ ــ مذكرة خطية اعدها احد الاداريين المدنيين مؤرخة في ٧٣/٢/١٥ .

٦٨ ــ المذكرة الخطية المؤرخة في ٧٣/٢/١٥ .

٦٩ ــ القصري : الجزء الثاني ــ ص (٢٥٢).

٧٠ ــ كامل الشريف : الاخوان المسلمون في حرب فلسطين ــ ص (١٥٢) .

٧١ ــ كامل الشريف : ذات المصدر ــ ص (١٧١)

٧٢ ــ Dan Kurzman : Genesis 1948, *The First Arab-Israeli War*, p. 62, The World Publishing Co., New York and Cleveland, 1970.

٧٣ ــ Tamir and Karmon : The Legacy of the Jewish Brigade, quoted in Allon's book, *The Making of Israel's Army*, p. 230-231.

٧٤ ــ عامر حسك : **من مأساة فلسطين** ــ ص (٥٧) .

٧٥ ــ Y. Allon : *The Making of Israel's Army*, p. 11.

٧٦ ــ Y. Allon : *The Making of Israel's Army*, p. 47-48.

٧٧ ــ جريدة **اخبار اليوم** ــ القاهرية ــ عدد (١٧٨) تاريخ ١٩٤٨/٤/٣ .

٧٨ ــ Y. Allon : *The Making of Israel's Army*, p. 36-37.

٧٩ ــ العارف : **النكبة** ــ الجزء الاول ــ ص (٥٤) .

٨٠ ــ العارف : **النكبة** ــ الجزء الاول ــ ص (٢٧٨) .

٨١ ــ محمد نمر الخطيب : **احداث النكبة** ــ ص (٣١٠) .

٨٢ ــ عامر حسك : **من مأساة فلسطين** ــ ص (١٠٢ ــ ١٠٣) .

٨٣ ــ حسك : **المصدر ذاته** ــ ص (١٠٣) .

٨٤ ــ القصري : الجزء الثاني ــ ص (٢٥٥ ــ ٢٥٦) .

٨٥ ــ القصري : **المصدر ذاته** ــ ص (٢٤٠) .

٨٦ ــ حسك : **المصدر ذاته** ــ ص (١٠٤) .

٨٧ ــ حسك : **المصدر ذاته** ــ ص (١٠٤ ــ ١٠٥) .

٨٨ ــ مقابلة مع الدكتور امين رويحة ــ في حمانا بلبنان ــ بتاريخ ٧٣/٢/٢ .

٨٩ ــ جريدة **النهار** : عدد (٢٧٩٢) تاريخ ٢٥/ ٤٨/١ .

٩٠ ــ عامر حسك : ص (١٠٥) .

٩١ ــ مذكرة خطية بتاريخ ١٩٧٣/٢/١٥ .

٩٢ ــ مذكرة خطية اعدها احد الاداريين مؤرخة في ١٩٧٣/٢/١٥ .

سياسة الملك حسين الفلسطينية عبر بياناته

عصام الصالح

في اليوم الثاني من شهر أيار الماضي مرت الذكرى السنوية العشرون لتسلم حسين بن طلال سلطاته الدستورية ملكا على المملكة الاردنية الهاشمية . وخلال هذه السنوات العشرين التي خضع فيها جزء كبير من الشعب الفلسطيني لحكم مفروض عليه فرضا لم يختره بمشيئته الحرة ، لم يترك حاكم عربي او نظام بصماته على تاريخ هذا الشعب بمثل ما صنع حسين الذي حفر في وجدان الفلسطينيين أخاديد غائرة ستظل والى مدى غير منظور من ابرز العوامل وأشدها تأثيرا في تشكيل سلوكية الانسان الفلسطيني وفي تكوين عقله وصنع وعيه الجمعي على حد سواء . فمن بين جميع اشكال السلوك المضاد التي تعرض لها الفلسطينيون سواء أفي مهاجرهم أم في ظـل الاحتلال كان النمط الهاشمي متفردا بينها جميعا : فبالاضافة الى تآمره على القضية الفلسطينية من حيث هي قضية اتخذ حسين محورا متميزا اختص به ، بعد أن ورثه عن جده الملك عبدالله ، يتجه نحو انهاء الوجود الفلسطيني من حيث هو وجود ، وكان ابرز ملامح هذا المحور طمس معالم الشخصية الفلسطينية وانساءها ذاتها ومحو آثارها لدى الفلسطينيين الذين وقعوا تحت حكمه ، ثم يتطور هذا المحور في شكل تصاعدي ليصل الى درجة ابادة الجنس التي بلغت حدها الاقصى في خريف ١٩٧٠ وصيف ١٩٧١ ، ثم ليدفع الفلسطينيين مـن حيث هم مواطنون في دولة مزدوجة الاصول السكانيـة الى الصف الادنى في المواطنة فيصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية وهم اغلبية السكان . هذا النمط من السلوك المضاد ان كان يتحمل مسؤوليته مجمل النظـام في الاردن بكل تركيباته الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسية ، فان حسين باعتباره محصلة لجميع تلك التركيبات من جهة ولكونه يفعل فيها ويؤثر بحكم كونه حاكما مطلقا من جهة ثانية يتحمـل النصيب الاوفى مـن هذه المسؤولية ، فهو من جانب « بنية فوقية » تلتقي فيها ومن حولها جميع اشكال السلوك المضاد وهو من جانب آخر « اساس تحتي » يفرز انماطا من السلوك المضاد يستقطب حولها قوى معادية ويمنحها الحماية والدعم والتغذيـة . وهذا البحث سيلقي بعض الاضواء على شخصية الملك الظاهرة وسياسته الفلسطينية ، ليس من خلال ما كتب عن حسين وانما **من خلال ما قاله حسين نفسه في تصريحاته وخطبه التي تشكـل المصادر الاساسية والوحيدة تقريبا لهذا البحث** ، في محاولة للتعرف عـن كثب على هذا الذي انتصب في نظر شعبنا رمزا لجميع المثل الهابطة .

عن التصريحات

يكاد الباحث لا يجد مسؤولا عربيا او غير عربي يتحدث ويخطب ويدلي بتصريحات ويوجه رسائل اكثر من حسين . فخلال العام ١٩٦٩ استطاع الباحث ان يحصي اكثر من خمسة وخمسين حديثا للملك حسين بين مقابلة اذاعية او تلفزيونية او حديث صحافي او خطاب أمام مجموعات مختلفة ، وفي شهر واحد من العام نفسه هو شهر نيسان تمكن الباحث من احصاء عشرة احاديث أذاعية وصحافية . وبالتأكيد فهناك غيرها لم يكن بالامكان

الاحاطة بها . ان ظاهرة كثرة الكلام هذه والملفتة للنظـــر يمكن ان تفسر ضمن الاطار التالي : لقد استقطب الاردن بعد العام ١٩٦٧ اهتمام أجهزة الاعلام العربية والاجنبية بعد أن أصبح الاردن ساحة رئيسية للوجود المقاوم من جهة وميدانا للصراع بين هذا الوجود والنظام من جهة أخرى ، وكانت معرفة الآراء والاتجاهات التي تصطرع على هذه الساحة أحد الاهتمامات الكبيرة التي حظيت بانتباه هذه الاجهزة التي وجهت همها بشكل كثيف لاكتشاف حقائقها . ومثالا على ذلك نذكر انه في العام ١٩٦٩ وهو العام الذي شهر ارتقاء المقاومة الى أقصى ذراها حصلت اجهزة الاعلام الاجنبية (اذاعة وتلفزيون وصحافة) على أكثر من ١٣ حديثا من الملك حسين ، وحصلت هذه الاجهزة العربية على أكثر من ١٢ حديثا . بجانب هذا فقد كان الملك حسين حريصا في أوقات الازمات التي كانت تتعرض لها المقاومة في الاردن على توضيح سياسته وتعبئة القوى المضادة تعبئة يقوم بها شخصيا . ونذكر مثالا على ذلك ان حسين قام في شهر أيار ١٩٧٠ وهو الشهر الذي سبق أزمة حزيران ١٩٧٠ بجولات « تفقدية » على قطعات الجيش الاردني والقى فيها خطبا وقد تمكنا من احصاء ثماني زيارات من هذا النوع خلال شهر واحد هو الشهر المذكور بالاضافة الى خطبه وتصريحاته العامة الاخرى. اذا أضفنا الى ذلك ان المراسلين والصحافيين وجدوا في حسين هدفا سهلا لتوطيد سمعتهم المهنية في اجراء مقابلات مع رجل في قمة المسؤولية في بلده توضحت لنا أسباب كثرة الكلام الذي يصدر عن الملك . فمن خلال استعراضنا لأسماء الصحف التي « حظيت » بأحاديث حسين لاحظنا ان كثيرا منها صحف مغمورة غير واسعة الانتشار ، كما بدا واضحا ان كثيرا من الصحافيين الذين أجروا أحاديث مع الملك كانوا يسعـــون الى تدريب أنفسهم مهنيا أو تحســـين أوضاعهم . ونذكر مثالا على هذا الامر المقتطف التالي من مقابلة اجرتها احدى الصحف العربية : « في غرفة مكتب أنيقة بقصر بسمان .. مد الي الملك الشاب يده مصافحا .. جذب يدي الى يده في حرارة تعكس حيوية فائرة تمتلىء بها ملامح وجهه العريض .. كان الملك يرتدي ثيابا بسيطة مجرد قميص وبنطلون .. وأمامه كوب شاي لم يفرغ منه بعد . وفي المكان نفسه صافحت عيناي بهجت التلهوني رئيس الديوان الملكي او ابو عدنان كما تعارف الجميع على تسميته ... الخ »(١). وينبغي أن نبرز هنا ان الملك حسين في اغرائه اجهزة الاعلام على محادثته قد فتح ابوابه في أواخر العام ١٩٦٨ امام **صحافيين اسرائيليين ليجروا مقابلات مع الملك** . فقد كتبت صحيفة « التايمز » اللندنية(٢) ان حسين استقبل في قصره بسمان في ١٩٦٨/١١/٢٣ سولومون ستيكول الذي يحمل الجنسية الاسرائيلية وأخذ هذا معه الى اسرائيل شريطا مسجلا اذاعه راديو اسرائيل في ١٢/١/ ١٩٦٨ . وقالت الصحيفة ان ستيكول طار من اسرائيل الى باريس حيث حصل على تأشيرة دخول أردنية ثم الى بيروت فعمان . وقد ولد ستيكول في جنوب افريقيه واحتفظ بجواز سفره جنوب الافريقي الذي سهل له دخول لبنان والاردن علـــى الرغم من أنه يعيش في اسرائيل منذ عشرين سنة وقالت الصحيفة انه لم يخف حقيقة مكان سكناه في اسرائيل أمام الذين قابلهم في عمان . وقد نشرت الصحيفة نفسها في عدد لاحق(٣) رسالة من ستيكول قال فيها انه لم يكن هناك شك قط لدى جميع السلطات الاردنية بالنسبة لهويته الحقيقية واضاف « ان اذاعة مقابلة الملك حسين من راديو اسرائيل كانت بموافقة تامة من جلالته وان هذه الموافقة مسجلة على شريط المقابـــلة ... لقد سألته بشكل محدد اذا كان يوافق على أن تذاع هذه المقابلة المسجلة الى شعب اسرائيل في اسرائيل فوافق الملك » . كما أدلى الملك حسين بحديث صحافي آخر الى ادا لوتشياني التي تعمل مراسلة لمجلة « اسبرسو » الايطالية وفي الوقت نفسه مراسلة لصحيفة « معاريف » الاسرائيلية . وقد نشرت المقابلة في الصحيفتين الايطالية والاسرائيلية في ١٩٧٢/١/٢٨ في وقت واحد(٤)، كما ذكرت « رويتر » ان الملك واعضاء حاشيتـــه كانوا يعلمون ان لوتشياني يهودية ومراسلة لصحيفة « معاريف » الاسرائيلية(٥).

يلاحظ في خطب الملك وتصريحاته مستويان متباينان من حيث الشكل : المستوى الاول ذلك المكتوب والذي يتميز بكفاءة لغوية وانشائية مرتفعة يعززها صوت حسين نفسه الاذاعي ، والمستوى الثاني ذلك الذي يلقيه ارتجالا والذي يتصف بالابتذال الشكلي بالاضافة الى فراغ المضمون . وسنذكر هنا بعض الامثلة التي توضح ما نريد . مقابل الانشائية وفحولة اللفظ التي ترد في هذا النص : « اذا هوى احدنا هوى واحدى يديه على الجرح وأخرى تحتضن التراب الغالي المغسول بمسفوح النجيع ، شعارنا المنية ولا الدنية ، الصبر أو القبر ، وهتافنا لبيك اللهم لبيك نحن الخلف لذلك السلف ... يذهب غيرنا بالخزي ونذهب نحن بالشرف ، ويهوي غيرنا الى الحضيض ونعلو نحن للذرى ، يلبس غيرنا العار ونلبس نحن المروءة والفخار ... »(٦)، ومقابل هذا النص التالي الذي ألقاه في أحد مؤتمرات القمة : « ان التغني بالمجد لا يصنع المجد وغناء السائر في الظلام لا يطرد عن نفسه الفزع ، فالمجد منذ أن كان طريقه واحد وما لم يكن القلب شجاعا باسلا عجزت كل الدنيا عن طرد الخوف الذي يقيم فيه »(٧)، مقابل هذا الاسلوب المثقل بصنوف البيان والبديع نقرأ هذا الاسلوب من الصنف الآخر : « كل انسان في هذا البلد هو عضو في هذه الاسرة اللي بننتمي اليها ولو أراد هذا الشعب انه يثور وانه يغير وانه يبدل لو كان فيه وعي عنا كان يعتقد بأنه كانت العملية سهلة جدا وكان ثم اي تغيير يريده هذا الشعب كثير من الجهات حاولت ان تقسم وتفرق لكن بطبيعة الحال لا هذا صحيح ولا هو واقع وشعبنا عنده من الوعي عنده من التصميم عنده من القدرة على انه يدرس الامور ويوصل الى النتائج الشيء الكثير ... »(٨). هذا التفاوت في الاسلوبين المكتوب والمرتجل يعزز الاعتقاد بأن خطب حسين من انشاء غيره ، وقد رجح لدينا من خلال مراجعة هذه الخطب ان كاتبها (او كاتبيها) ذو ثقافة شكليـــة يهتم بالمحسنات اللفظية وبالكلام المنمق الذي يصل الى حد استعارة الاساليب العربية القديمة في التعبير، وهي أساليب يعجب بها خريجو الازهر مثلا في عهده القديم .

صورة شخصية

يحاول حسين في خطبه بشكل خاص ان يرسم لنفسه صورة شخصية نستطيع ان نتلمس ملامحها كما يلي : يطرح حسين نفسه ليس كملك على بلد معروف الامكانات المحدودة وانما كزعيم ينطق باسم الامة العربية جمعاء . ففي أواسط العام ١٩٦٤ قام بزيارة عدد من الدول الاجنبية وحال عودته القى خطابا قال فيه(٩): « لقد ذهبت الى مجموعة كبيرة من الدول والاقطار لاتحدث هناك باسم الملايين من العرب في كل مكان » . ويصف تأثير زيارته تلك على الرأي العام العالمي بأن « ذلك الرأي قد تزحزح عن مواقفه وان أساسا متينا قد أرسي في صفوف الملايين من العالم الغربي ... واكثر من ذلك فان قلوب هذه الملايين قد أصبحت مفتوحة ومستعدة لاستقبال دعوة الحق العربي » . هذا « الانجاز » الذي حققه حسين في زيارة واحدة يخفي خلفه شخصية دون كيشوتية طريفة لا تعرف حقيقة قدرها وهي في الوقت نفسه تكيل لنفسها المديح بلا حساب وبأسلوب مبتذل قل له نظير : « لقد عدت بالامس الى بلدي الحبيب ومعي آلامي التي ترتحل معي وتعايشني الليل والنهار . وعاد معي الى جانبها قدر غير يسير من التعب والارهاق والاجهاد اراد الله ان يصبح من زمان جزءا من حياتي . وأقبلت على صحف اليـــوم أقرأها بشوق وأتفحصها بدقة **فوجدت فيها سطورا تشيد بالجهد الذي ابذله لخدمة قضيتنا المقدسة** وما سيكون لذلك الجهد في سائر ابعاده من نتائج على المعركة »(١٠). وهو اذ يكيل المديح لنفسه لا يبخل بالقيم ينثرها جزافا على هذه النفس فـ « لقد من الله علينا سبحانه فمكن لنا من العزم والمضاء ما يرفعنا الى مستوى آمالنا الكبار نستخف بالموت لوعيد الله ، ونستهين بالحتوف ابتغاء لقاء وجهه ، يستهوينا في المعامع السقوط على الثرى المقدس وأرواح انفاس الجنة . اذا اختار غيرنا الراحة مع الذل عشقنا نحن ازيز الرصاص

ولعلعة السلاح وهدير المدافع »(١١). و « انا قبل كل شيء وبعد كل شيء وريث رسالة وهبت لخدمتها عمري وحامل أمانة افتديتها بدمي وروحي »(١٢). غير ان هذه الملامح التي تصلح لقائد عظيم تقابلها جوانب اخرى هي بالتأكيد جوانب حقيقية من شخصيته : شخصية المترف المدلل الذي يمارس هوايـاته الشخصية المتـرفة ويتعمد أن يسرب للصحافة العالمية اخبار هذه الهوايات . فتكتب مجلة « التايم » الاميركية(١٣) انه يتزلج في مياه العقبة وينجول في قصره على دراجة بخارية ويرسل زوجته الاميرة منى كل بضعة أشهر لتجدد ملابسها في باريس او لندن ، وتنشر له المجلة صورة وهو راكب دراجة بخارية في قصره . كما تنشر له « الجارديان » صورة أخرى وهو يطفىء شموع عيد ميلاده السادس والثلاثين(١٤). حتى والدم يلطخه كله في ايلول الاسود لا يجد حرجا في أن يمارس هوايتـه في الاتصال بالراديو مع هواة هـذه اللعبة في بريطانيه والولايات المتحدة(١٥).

بجانب ذلك يحرص الملك حسين على اعطاء الانطباع في كل مناسبة وبدون مناسبة بأنه هو الحاكم الوحيد المطلق في الاردن . فكتب التكليف التي يوجهها لرؤساء وزرائه تكون عادة تفصيلية مطولة ترسم سياسة الحكومة للفترة القادمة(١٦). كما يحرص الملك على ان يوجه الى رؤساء وزرائه رسائل تنشرها وسائط الاعلام في المناسبات التي يرى ان تدخله العلني ضروري لتنفيذ أمر معين ، كتلك الرسالة التي وجهها الى وصفي التل في تشرين الثاني ١٩٦٦ والتي طلب فيها اتخـاذ الاجراءات لسوق المواطنين للخدمـة الاجبارية(١٧). وقد جاء ذلك الاجـراء في اعقاب التظاهرات الصاخبة التي قام بهـا المواطنون في الاردن في اعقاب معركة السموع الشهيرة . كذلك تلك الرسالة التي وجهها الى التل نفسه في حزيـران ١٩٧١ والتي يدعوه فيهـا الى الوقوف بحزم ضد حركة المقاومة(١٨). وهو في مثل تلك الرسائل يحاول أن يؤكد صورته بأنه الحاكم المطلق الذي يصف رئيس وزرائه بـ « وزيري ومستشاري الاول »(١٩). وحسين يهمه جدا ان يظهر بهذه الصورة . فعندما نشرت صحيفة « صنداي تيليجراف » في العام ١٩٦٨ ان حسين عرض الوزارة على وصفي التل الذي اشترط شروطا معينة لقبـول هذا المنصب(٢٠)، سارع حسين الى ارسال رسالة الى الصحيفة نفسها نشرتها في عددها التالي قال فيها « انني شخصيا لا أزال مهندس السياسة الاردنية »(٢١).

ان خطب حسين من ناحية سيكولوجية تبرز جانبا مرضيا من شخصيته ، جانب عشق الذات الذي تظهر اعراضه ، بالاضافة الى ما ذكرناه من مدح نفسه ، في ذكر اسمه شخصيا في كثير من الخطب والاحاديث : « تحية لابناء الضفة الغربية ، تحية لهم جميعا من **الحسين** »(٢٢) ، «أكرّم باسم كل **اخوة الحسين** على هذه الارض العربية الطهور... سلاحنا المدرع ... »(٢٣). وعندما يخاطب مؤتمر اتحاد اذاعات الدول العربية الذي عقد في عمان في ١٩٧٠/٢/٢٨ يطلب من المؤتمرين ان « قولوا للانسان العربي كل ما يجعل منه انسانا افضل واقوى وانبل، قولوا له كل لحظة ودقيقة ... **ان في الاردن ... حسينا** عاهد الله والوطن أن يعيش للامة والقضية ... »(٢٤). هذه الظاهرة المرضية غذاها أولئك المستفيدون من حكمه فصوروه لنفسه بأنه القائد الملهم الذي لا يخطىء . سنذكر هنا مثلا على ذلك . لقد وجه حسين في العام ١٩٦٧ رسالة الى رئيس وزرائه سعد جمعة يتحدث فيها عن الادب والفن ويطـرح آراء ليس هذا البحث مجالها(٢٥). ويكتب جمعة الرسالة التالية الى حسين جوابا على رسالته : « تلقيت بالاجلال والتعظيم رسالة جلالتكم السامية التي تفضلتم فحملتموها **قبسا من نور حكمتكم الهادية** وطرفا من شعلة الضياء التي تنير أعمق الاعماق من قلبكم الكبير الممتلـىء أبدا بالمحبة الصافية والوفاء الاصيل ... ولقد قمت على الفور يا مولاي بتحويل الرسالة الى معالي وزير الاعلام ليتولى بدوره حسب أمركم الكريم نشرها في صحفنا حتى يستطيع كل مواطن في بلدكم الغالي بضفتيه أن يعيش مع ما احتوته من **رفيع الفكر وعميق الوطنية وأصيل**

الراي ... انني واثق من ان **رائعة جلالتكم** الاخيرة هذه ستعلمنا جميعا كيف نملأ كل لحظة من لحظات حياتنا بالجليل الرفيع من الفكر والعمل . الخادم الامين سعد جمعة »(٢٦).

هذه الصورة التي يرسمها حسين لنفسه تكتمل مع مواقفه السياسية وهي الموضوع الرئيسي في هذا البحث . وسنعرض لهذه المواقف تحت عناوين فرعية نتيح بها لحسين أن يلقي هو نفسه الضوء على أفكاره وآرائه وسياساته خلال فترة امتدت من أواسط العام ١٩٦٤ عندما أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية حتى الآن .

اسرائيل

ان فهم موقف الملك حسين من اسرائيل يوضح كثيرا من مواقفه السياسية تجاه القضية الفلسطينية والمقاومة معا . وقد أوجز حسين هذا الموقف من اسرائيل في مؤتمر صحافي عقده في عمان في ١٩٦٩/٤/٢٩ قال فيه : « ان العالم معنا وعلى استعداد لمساعدتنا ودعمنا فيما يتعلق بحقنا واسترجاع ما فقدناه من أرضنا في حزيران عام ١٩٦٧ ولكن هذا العالم أيضا مع بقاء اسرائيل في هذه المنطقة »(٢٧). أي بكلمات أخرى ان « حقنا » يتوقف عند خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧ فقط ، كما ان الارض التي قامت عليها اسرائيل حتى ذلك التاريخ ليست من « ارضنا » . وهذا الاعتراف بالوجود الاسرائيلي لم يكن طارئا بسبب حرب حزيران وانما يعود الى ما قبل هذه الحرب . ففي مطلع العام ١٩٦٧ دعا حسين في مقابلة اجرتها معه صحيفة « الصانداي اكسبرس » البريطانية(٢٨)، دعا الاسرائيليين الى التعاون من اجل قهر الطبيعة القاسية والصحراء . غير ان هذا الاعتراف الواقعي باسرائيل والذي وصفه حسين في شهر تشرين الثاني ١٩٦٧ بأنه «أمر قائم»(٢٩) كان يصطدم ، من اجل ان يتحول الى «اعتراف قانوني»، بتمسك اسرائيل وتمسكها بما احتلته من أرض في العام ١٩٦٧ . فحسين على استعداد لمثل هذا الاعتراف كما أخبر صحيفة « الاوبزرفر » البريطانية في شباط ١٩٧١(٣٠) كما انه على استعداد لتوقيع معاهدة صلح معها اذا ما انسحبت من الاراضي العربية المحتلة . كذلك فقد ابلغ حسين مجلة « لوي » الفرنسية في العام ١٩٧١ انه سيكون على استعداد للبحث في امكان الوصول الى **اتفاق ثنائي مع اسرائيل** اذا ما قدمت اسرائيل اقتراحا واضحا لذلك، وأكد انه ليس خائفا من معالجة القضية وحده مع الاسرائيليين(٣١). ويصل به الامر في مطلع العام ١٩٧٢ الى التفكير بالاتحاد مع اسرائيل « ولكن لم يحن بعد الاوان للتحدث عن فكرة الاتحاد مع اسرائيل » كما أبلغ صحيفة « الاكسبرس » الفرنسية(٣٢). ويكشف لصحيفة « السياسة » الكويتية انه في مؤتمر الخرطوم كان رأيه « عدم التقيد بالشعار الذي قال لا صلح ولا مفاوضات ولا أعتراف باسرائيل ، ما دامت خطتنا هي البحث عن وسيلة سلمية لاستعادة أرضنا »(٣٣). بيد ان اسرائيل لم تعطه « شرف » تحقيق ذلك ، فسياستها تجاه الاراضي المحتلة كانت ولا تزال التشبث بها لاطول فترة ممكنة وخلق « حقائق » جديدة فيها لابتزاز اكثر ما يمكن من تنازلات من الجانب العربي . وقد تمثلت تنازلات حسين بالاضافة الى تآمره على المقاومة الفلسطينية ومساومته على حق الشعب الفلسطيني ، باعلانه انه على استعداد لقبول تغييرات في « الحدود » الاردنية الاسرائيلية . فقد ابلغ صحيفة « نيويورك تايمز » اواخر العام ١٩٧٠ « اننا لن نقول لا لبعض التصحيح الذي يجعل الخط معقولا اكثر ومنطقيا اكثر في سياق حل المشكلة»(٣٤). وهو يوضح حجم هذا التصحيح في مقابلة أجرتها معه صحيفة « دي فيلت » الالمانية الغربية(٣٥) بقوله « ان المرء يستطيع **ان يتفاوض في شأن شوارع وقرى وخطوط** غير مقبولة » .

وقد حاول حسين ان يعطي هذا الاتجاه في موقفه من اسرائيل تبريرات نظرية، فبالاضافة الى ما ورد في الفقرة السابقة عن « ان العالم مع بقاء اسرائيل » ، يجد حسين ان

لاسرائيل ثلاثة وجوه (كما ذكر ذلك في رسالة بعث بها الى بهجت التلهوني رئيس وزرائه في العام ١٩٦٨)(٣٦) « يطغى أحدها على الوجهين الآخرين بين آونة وأخرى : وجه متطرف ... تتعدى اطماعه حب السيطرة على كل المناطق التي تحتلها اسرائيل اليوم الى مناطق أخرى في وطننا العربي ... الوجه الثاني يحاول أن يقول لابناء فلسطين وللعالم ان المشكلة هي فلسطينية اسرائيلية ... محاولا الوصول الى اقامة دويلة هزيلة ... والوجه الثالث هو **وجه معتدل يريد دولة يهودية بغالبية سكانها وحلا لمشاكله مع جيرانه** ... » . بمثل هذه النظرة التي تزور الواقع ينظر حسين الى اسرائيل ويطلب من حكومته ان تتخذ هذه النظرة سياسة رسمية . وهو في الوقت نفسه ينظر الى مستقبل اسرائيل في المنطقة ليس من خلال الواقع العربي وامكاناته وانما من خلال ما يقرره القادة الاسرائيليون لها ، فلدى سؤاله في مقابلة مع صحيفة « الصانداي تايمز » عن مشاعره الخاصة تجاه مستقبل اسرائيل كدولة ، اجاب « ان ذلك يعتمد على القادة الاسرائيليين وعما اذا كانوا قادرين على اغتنام الفرصة لارساء سلام دائم في المنطقة وعلى تقريرهم ما اذا أرادوا ان تقبل كدولة في المنطقة او تبقى عنصرا غريبا محاطا بالعداء »(٣٧). وقد عبر حسين عن رأيه في هؤلاء القادة بوضوح ففي مقابلة تلفزيونية في نيويورك(٣٨) قال عن موشيه ديان « اني معجب به كثيرا كرجل عسكري قدير ومخلص لعمله » ، وفي مقابلة تلفزيونية أخرى في باريس(٣٩) أبلغ حسين ان ديان مدحه مؤخرا فقال « ان ذلك لطف منه وهو رجل كفؤ » ، كما وصفه في مناسبة اخرى(٤٠) بأنه « جندي قدير جدا ولانني جندي فاني أكن له احتراما كبيرا » . كما قال عن جولدا مئير « ان المسز مئير تحتل دون شك مركزا مرموقا جدا بكفاءة »(٤١).

الولايات المتحدة الاميركية

ليس افضل من كلام صلاح ابو زيد ، الوزير الاردني المقرب من ملكه ، وصفا للعلاقة التي تربط حسين بالولايات المتحدة الاميركية . ففي مقابلة مع « النيويورك تايمز »(٤٢) قال ابو زيد الذي كان آنذاك وزيرا للاعلام: « أليس من الملاحظ ان هذا الملك بعد هزيمته في السنة الفائتة قد ثابر على صداقته للولايات المتحدة ؟ في هذا الوقت وفي قلب العالم العربي حيث يحذر كل انسان من الولايات المتحدة ، يقف هذا الملك ويقول في مجالس القادة العرب (لقد كنا ولا نزال وسوف نظل اصدقاء للولايات المتحدة . اننا نؤمن بالولايات المتحدة) » . وحسين نفسه يصرح بهذه الصداقة ، ففي تصريح له لوكالة « الاسوشيتدبرس » يقول(٤٣): « كنت دائما اعتبر نفسي صديقا للولايات المتحدة ، وكنت فخورا بعلاقاتنا » . وهو من اجل هذه « الصداقة » يمارس اكبر عملية غش سياسي عندما يزيف مواقف أميركه أمام الرأي العام ويظهرها على غير حقيقتها . ففي مقابلة مع تلفزيون الجمهورية العربية المتحدة في العام ١٩٦٨(٤٤) يؤكد ان هناك « تحسنا » في موقف الولايات المتحدة بالنسبة لازمة الشرق الاوسط . وعن شكل هذا التحسن يقول انه « مزيد من الشعور بأن عليهم واجبا يجب ان يؤدوه وما في شك مشكلتنا هي في الولايات المتحدة بالنسبة لنفوذ الصهيونية هناك . على سبيل المثال اعتقد بأنه فيه انزعاج الى حد كبير من قضية الازدواج في الولاء ... وفيه فهم للقضية » . وعن موقف الرئيس نيكسون قال في أثناء زيارة قام بها الى الولايات المتحدة في شهر نيسان ١٩٦٩ « ان نيكسون يريد أن يمارس ضغطا على الاسرائيليين أكثر مما كان في عهد الادارة السابقة وانه يريد سلاما في الشرق الاوسط عادلا بالنسبة لجميع الاطراف »(٤٥). وتلخيصا لزيارته المذكورة ألقى خطابا في الراديو والتلفزيون الاردنيين قال فيه: « غادرتها [الولايات المتحدة] وانا اشعر بتحول ملموس وحسن في الموقف على المستوى الرسمي بشكل خاص والمستوى الشعبي بشكل عام »(٤٦). كما عقد مؤتمرا صحفيا اكد فيه ان أميركه « غير حريصة على الظهور بمظهر الانحياز الى جانب دون الآخر »(٤٧). هذا

الاصرار على تبرئة الولايات المتحدة من الانحياز كان يصفع احيانا بخيبة أمل حسين في قيمة صداقته مع اميركه . فاذا كانت الولايات المتحدة تريده فعلا أكثر من صديق فان مراهنتها الاساسية في المنطقة العربية هي على جوادها الرابح دائما وغير القابل للتبدل، نعني اسرائيل . وتظل مراهنتها على أصدقائها الآخرين في المنطقة من أمثال حسين مرهونة بظروف المنطقة من جهة وبقدرة هذا الصديق على تنفيذ سياستها بكفاءة وفعالية من جهة أخرى . لذلك فمع كل التزوير الذي مارسه حسين بالنسبة لحياد اميركه وعدم انحيازها فان الولايات المتحدة لم تكن حريصة على تبييض وجه حسين على حساب استراتيجيتها في المنطقة الرامية الى تعزيز قدرة اسرائيل العدوانية . ويدرك حسين هذه الحقيقة فيقول في مقابلة على التلفزيون الاميركي : « ان السؤال الذي يوجه الي باستمرار من عدد كبير من الزعماء في العالم العربي بصفتي صديقا للولايات المتحدة هو ماذا عملت الولايات المتحدة لك وللاردن في أزمتكم الحالية ، ومع الاسف فانني اجد من الصعوبة جدا الاجابة على هذا السؤال »(٤٨) . ربما كان اكثر ما يؤلم حسين أن اميركه عاملته صديقا من الدرجة الثانية . ففي مقابلة له مع وكالة الاسوشيتدبرس(٤٩) يعلن انه كان دائما يعتبر نفسه صديقا للولايات المتحدة وانه كان دائما يسعى الى اقامة علاقات اوثق واكثر ودا معها « لكن هذا لم يقابل بالمثل لسوء الحظ » . بيد ان صداقة الولايات المتحدة تأكدت بشكل حاسم عندما اثبت حسين في أيلول ١٩٧٠ انه صديق كفؤ يعتمد عليه . وكان برهان الثقة الاميركية في الملك الذي أرتفع بالتأكيد الى رتبة صديق من الدرجة الاولى قد جاء مباشرة بعد مجزرة ايلول . ففي الزيارة التي قام بها حسين الى واشنطن في نهاية العام ١٩٧٠ حصل على وعود تشمل تزويده بـ ١٨ مطاردة اضافية من طراز ستارفايتر ف ـ ١٠٤ ، ٤٥ دبابة من طراز باتون م ٤٨ ، ٩٠ مدرعة خفيفة لنقل الجنود ، اعتمادات عسكرية مجموعها يبلغ ٣٠ مليون دولار بالاضافة الى المساعدات التي وافق عليها مجلس النواب الاميركي وهي بالقيمة نفسها(٥٠) . كما كشف حسين نفسه في اثناء هذه الزيارة في مقابلة تلفزيونية أذيعت في نيويورك انه طلب من الرئيس الاميركي خلال اجتماعه به مبلغ ٢٠٠ مليون دولار مساعدات عسكرية موزعة على خمس سنوات او عشر سنوات(٥١) . ومقابل هذا البرهان الذي تلقاه حسين من الولايات المتحدة نشط شخصيا في ترويج الدعوة الى السياسة الاميركية . ففي اعقاب زيارة أخرى قام بها الى الولايات المتحدة في العام ١٩٧٢ خطب في اجتماع للقادة العسكريين في الاردن قائلا « لقد أعطينا في تلك الزيارة الى الولايات المتحدة صورة واضحة عن بلدنا ... انهم هناك يحترمون واقعنا ويقدرونه ويقدرون شجاعة هذا الشعب وهذه الاسرة التي ننتمي اليها »(٥٢) .

المقاومة وموضوعة تمثيل الشعب الفلسطيني

ان موقف حسين من اسرائيل ، الذي توضح في الفقرات السابقة ، يعكس بالضرورة موقفه من المقاومة الفلسطينية وموضوعة تمثيل الشعب الفلسطيني . ذلك ان ثمة تناقضا اساسيا بين المقاومة والملك حسين في مسألة الوجود الاسرائيلي على الارض الفلسطينية . فبينما تستهدف المقاومة في نضالها هذا الوجود نفسه ينظر حسين الى اسرائيل باعتبارها أمرا واقعا يقر ويقبل ببقائه . ومن هذا المنطلق ، من واقع الاعتراف بالوجود الاسرائيلي واستمراريته ، كان تعامل حسين مع المقاومة منذ ان كانت المقاومة حتى الآن . واذا كانت هناك فترات جهر فيها حسين بتأييده للمقاومة في خطبه وتصريحاته فاننا سنرى في فقرات لاحقة ان ذلك الموقف الذي أعلنه حسين لم يكن أصيلا ، وانما كان رضوخا لارادة تغلبت على ارادته ، ولاهداف أبعد ما تكون عن تلك التي قاتلت المقاومة من اجل انجازها . اما الموقف الثابت الذي وقفه حسين فهو معاداة المقاومة من جهة وانكارها حقها وحق منظمة التحرير الفلسطينية في تمثيل الشعب الفلسطيني من جهة

ثانية . وهذا الموقف لم يتبدل قيد شعرة في جوهره على الرغم من موجة **التأييد اللفظي** التي امتدت خلال الفترة التي اعقبت الكرامة في آذار ١٩٦٨ وحتى أزمة حزيران ١٩٧٠ . وسنتعرض هنا لاقوال حسين في هذه الفترة بالاضافة الى فترة سبقتهـا ابتدأت منـذ أواسط العام ١٩٦٤ حتى معركة الكرامة ؛ وفترة لحقتها تبتدىء مع أزمة حزيران ١٩٧٠ حتى الآن .

المرحلة الاولى ــ اواسط العام ١٩٦٤ حتى معركة الكرامة : شهدت هذه المرحلة احداثا كبيرة كان لها تأثيرها الحاسم في مجرى القضية الفلسطينية : قيـام منظمة التحريـر الفلسطينية (م ت ف) في أيار ١٩٦٤ ، بدء الثورة الفلسطينية في مطلع العام ١٩٦٥ ، حرب حزيران ١٩٦٧ ، استئناف العمـل الفلسطيني المسلح في آب ١٩٦٧ ، واختتمت بمعركة الكرامة التي اعتبرت بنتائجها انعطافا حادا في مسيرة الثورة الفلسطينية نحـو الاتساع والتصاعد . وخلال هذه المرحلة كلها كان النظام الاردني وعلى رأسه حسين يجاهر بموقفه المضاد للثورة الفلسطينية المثلة بالعمل المسلح داخل الارض المحتلـة وبالنشاط السياسي الذي كانت تقوم به (م ت ف) بهدف ارساء قضية تمثيلها للشعب الفلسطيني . وكانت أقوال حسين المتعددة في هذه المرحلة لا تخفي هذا الموقف المضاد .

كان فهم حسين لدواعي انشاء المنظمة هو ما عبر عنه بقوله : « اما المنظمة فقد فهمنا ان تشكيلها ما هو الا لملء الفراغ في المجتمعات الدولية وابقاء القضية الفلسطينية حية فـي الاذهان **والقيام بتنظيم وتعبئة طاقات الفلسطينيين خارج الاردن** »(٥٢) . غير أن (م ت ف) ارادت غير ذلك،وعندما وجهت همها للعمل داخل الاردن ــ حيث اكثرية الفلسطينيين ــ اصطدمت بمواقف حسين منها الذي ابتدأ بشن حملة على المنظمة نفسها وبعملية تشكيك بالاغراض التي تسعى الى انجازها.وقد اتخذت هذه الحملة عدة محاور نجملها كما يلي:

بدأ حسين بالتأكيد على وحدة الضفتين : « امتزجت الضفتان في مشاركة حقيقية في كل شيء ... وكل ما سمعناه ونسمعه اخيرا من نزوات مريبة ونغمات نشاز لا يقصد بها الا تفتيت البناء الواحد وتمزيق الكيان الواحد وهـو مـا لا نسمح به بحـال مـن الاحوال »(٥٤) . وحسين من هذا المنطلق يسعى الى ان يوحي بأن أهداف المنظمة هي فصل الضفة الغربية عن الضفة الشرقية ، واكثر من ذلك ، العمل على شق وحدة الشعب في الاردن ، فهو يقول « ان الاردن يعتبرها قضية حياة او موت منذ أن اندمجت الضفتان وانصهر الشعبان واصبحت فلسطين هي الاردن والاردن فلسطين ... ان تشجيع الانقسام هو خيانة وطنية وان كـل فرد يقدم في مثل هذه الظروف ... على الاخلال بالامن هو خائن او منحرف أو عميل»(٥٥) . هذه الايحاءات اخذت لها شكلا واضحا صريحا عندما تأزم الموقف بين حسين و (م ت ف) في العام ١٩٦٦ . في مطلع ذلك العام دعا حسين الى « مؤتمر شعبي كبير »(٥٦) خطب فيه قائلا « الحملة الغريبة المريبة التي وجهها الينا رئيس منظمة التحرير واجهزته لا يمكن ان تفسر بغير كونها تستهدف ضعضعة الاوضاع في الاردن وتمزيق شمل الاسرة الواحدة » . ثم في مناسبة اخرى اوضح حسين ما ذهب اليه بقوله : « ان الشقيري اخذ يشن حملة متجنية على الاردن ... تستهدف بجلاء ووضوح سلخ المواطن الاردني الفلسطيني في غرب نهر الاردن عن اخيه المواطن الاردني الفلسطيني في شرق النهر »(٥٧) .

ومحور آخر سار عليه حسين في حملته على المنظمة وتشكيكه بتوجهاتها هـو ان هدف (م ت ف) هو « الخروج عن نطاق القيادة العربية الموحدة التي هي الامل الاخـير في معركة التحرير »(٥٨)، كما انها « تستهدف نسف مؤتمرات القمة ومقرراتها وتمزيـق وحدة العرب وكشف المقررات السرية ذات الطابع العسكري والتنكر لميثاق التضامن العربي »(٥٩) . وحسين يعتبر « ان الخطة الشيوعية تقضي بتدمير مؤتمرات القمـة العربية ، وهذه الخطة مسؤولة عن جميع المتاعب وانواع الضغط التي يتعرض لهـا

الاردن »(٦٠). لذلك ففي الخطاب الذائع الصيت الذي القاه في عجلون في ١٤ حزيران ١٩٦٦ والذي أعلن فيه زوال « امكان التعامل مع هذه المنظمة بمضمونها الحالي جملة وتفصيلا » في هذا الخطاب « وحد » حسين بين الشيوعية و (م ت ف) وشن هجوما عنيفا على « المخربين الذين كفروا بعروبتهم يوم اعتنقوا كل مبدأ هدام وفكر دخيل ووحدوا صفوفهم اليوم في العمالة للشيوعية الدولية ، ليطلوا اليوم جميعا بوجوههم الكالحة وحقدهم الاسود ونواياهم الخبيثة من خلف اقنعة البطولة والحرص على القضية التي ارتدوها في غفلة من الزمن فأوصلتهم فيما اوصلتهم حتى الى منظمة التحرير »(٦١). واستطرادا علينا أن نذكر هنا أن جميع الحملات التي قام بها النظام الاردني ضد الحركة الوطنية في الاردن كانت تتستر بقناع مقاومة الشيوعية في البلد . وفي هذا الخطاب الاخير اعتبر حسين أن الشيوعية أشد خطرا من اسرائيل فـ « الشيوعية بقواها الهائلة ومخططاتها لبلشفة العالم يتضاءل بالمقارنة بها الخطر الصهيوني ذاته على أبواب وطننا العربي » . وواضح من مثل هذا الطرح ان حسين كان جادا في صرف انظار شعبه عن الخطر الحقيقي الماثل في قلب الدار نفسها . وفي اكثر من مناسبة ربط حسين بين الشيوعية و(م ت ف) . فقد أعتبر ان الهجوم الذي شنته القوات الاسرائيلية على قرية السموع في ١٩٦٦/١١/١٣ « كان تدبيرا مدروسا وفق مخطط مدروس يرمي الى جر قواتنا الى معركة مفتعلة مصطنعة تسند العدو فيها قوى اخرى [هي] قوى الاستعمار وقوى الماركسية ... وقوى الطابور الخامس من بني قومنا وفي طليعته منظمة التحرير الفلسطينية »(٦٢)، كما اعتبر أن التظاهرات التي عمت الضفة الغربية في أعقاب الهجوم على السموع « نجمت عن ثلاثة اسباب مجتمعة : الهجوم الاسرائيلي وأعمال الشيوعيين والماركسيين واعمال منظمة التحرير الفلسطينية »(٦٣).

على هذه المحاور مجتمعة سار حسين في حملته ضد المنظمة وعمل على مجابهتها في الاردن . وكان للمنظمة في هذه المرحلة مطلبان رئيسيان في الاردن : تشكيل وحدات عسكرية وحق تنظيم الشعب الفلسطيني . وكان موقف حسين من المطلب الاول هو كما يلي : « بما أن هذا الشعب في هذا البلد هو شعب فلسطين فلا مجال ولا مكان لاية تشكيلة عسكرية اخرى مهما صغرت لا تخضع لقيادته [الجيش الاردني] ولا تحمل شعاره ولا تنضوي تحت راياته الخفاقة بالشرف »(٦٤). ولم يكتف حسين بذلك بل اعتبر ان جيشه هو « جيش التحرير الفلسطيني » الذي كانت المنظمة قد انشأت تشكيلاته في غزة وسوريا والعراق . ففي خطاب له يقول : « ان قواتنا المسلحة ... هي جيش فلسطين ... وان جيشنا ... هو جيش التحرير »(٦٥)، ولذلك فـ « اذا كان هذا الجيش هو جيش فلسطين وجيش التحرير فلا لزوم ولا ضرورة لخلق تشكيلات جديدة تابعة لجهات تعيش في غير هذا البلد »(٦٦). لقد رفض حسين تشكيل قوات فلسطينية في الاردن ، وكمحاولة منه لتطويق هذا المطلب الشعبي الذي اشتد بشكل خاص بعد الهجوم على السموع طلب الملك من وصفي التل ، رئيس وزرائه ، في رسالة وجهها اليه في ١٩٦٦/١١/١٩(٦٧) ان يتخذ مع المسؤولين الاخرين جميع الترتيبات لاقتياد كل انسان يصلح للخدمة العسكرية فورا الى التجنيد . وقال حسين انه ليس على من ينشد خدمة بلده الا أن يقدم نفسه للجهات المسؤولة ليجند « اما اذا ظهر فينا بعد ذلك من تسول له نفسه الانصراف عن هذا الشرف الى الفوضى والتخريب واتباع المضللين فليعاقب بلا هوادة ... » وقد أقر مجلس الوزراء بعد أقل من اسبوع مشروع قانون للخدمة الاجبارية(٦٨) التي ادخلت الشباب في قفص معسكرات الاعتقال .

أما بالنسبة للمطلب الثاني الذي رفعته المنظمة وهو حقها بتنظيم الشعب الفلسطيني في الاردن فقد قال حسين : « اذا كان أبناء فلسطين من العائدين قد بدأوا منذ زمن غير بعيد في تنظيم صفوفهم في غير الاردن فقد بدأنا ذلك نحن قبل سنوات وسنوات »(٦٩).

كذلك اشرنا الى ان حسين فهم (أو اراد ان يفهم) ان تشكيل المنظمة هو للقيام بتنظيم وتهيئة طاقات الفلسطينيين خارج الاردن « اذ أن الاردن مستمر في ذلك التنظيم منذ زمن طويل »(٧٠). وحسين لا يوضح ماهية هذا « التنظيم » ولكنه يعلن انه « لا تنظيم في هذا البلد لا ينبثق عن حاجته للتنظيم من خلال اجهزته ولا تجنيد لاحد في غير صفوف قواته المسلحة »(٧١). وبذلك الغى حسين مبرر وجود المنظمة في الاردن التي اتهمها بأنها « تعمل لقلب الحكم في الاردن ولذلك فهو لا يستطيع ان يسلم عنقه للجلاد »(٧٢). وهذا الامر دفعه الى سحب اعترافه بالمنظمة في رسالة بعثت بها الحكومة الاردنية الى جامعة الدول العربية في كانون الثاني ١٩٦٧(٧٣). وكانت هذه خاتمة مطاف مرحلة من العلاقة ابتدأت بمؤتمر صحافي عقده حسين في الاسكندرية في ١٩٦٤/٩/١٥ زعم فيه « بالنسبة للكيان [الفلسطيني] انا الحقيقة مسرور للغاية لانه تحقق هدف من أهداف اخواننا ابناء فلسطين ، وواثق من أنه راح يكون بينا وبين اخوانا في الوطن العربي التعاون حتى نتمكن فعلا من افساح المجال بكل معنى الكلمة لابناء فلسطين ليكونوا في الطليعة في سبيل استرداد الحقوق العربية في فلسطين »(٧٤).

كان يوازي موقف حسين من (م ت ف) موقف مماثل من العمل الفدائي الذي لم يكن الملك في هذه المرحلة ليخفي عداءه له ووقوفه في وجهه ، فقد كان هذا العمل لا يزال غضا غير قادر على فرض ارادته . في العام ١٩٦٥ ، أي عام انطلاق الثورة الفلسطينية ، كان حسين يصف نشاط المنظمات بأنه « نشاط غريب مريب » وهي « تعمل على ما قد يسلب العرب زمام المبادرة ويهيء لاعداء العرب الحجة والفرصة التي يتوقون اليها لضرب أمتنا قبل ان تكمل استعدادها وتتهيأ للمعركة الفاصلة »(٧٥). وفي العام ١٩٦٦ كرر هذا المعنى واعتبر العمل الفدائي « نزوة ضارة » تخالف تعليمات القيادة الموحدة »(٧٦). وهو كذلك يشكك في هذا العمل ويقول عنه انه « يساعد الاسرائيليين في تحقيق اغراضهم بتزويدهم بحجة يتمكنون من استعمالها للوصول الى غاياتهم »(٧٧)، وبأن « الفدائيين يرتكبون اعمال تخريب بسبب شعورهم بالغضب او اليأس او لمنح الاسرائيليين ذريعة للهجوم » كما ذكر في مؤتمر صحافي عقده في عمان(٧٨). وعندما يسأل في المؤتمر نفسه عن مطالبة المتظاهرين في الضفة الغربية بعدم التعرض للفدائيين الذين يهاجمون اسرائيل يقول أنه لن يغير سياسته « ولا مكان لهم هنا » . وحسين في هذه الفترة أيضا يدعو اسرائيل الى الوقوف في وجه الفدائيين تماما كما يقف هو . ففي حديث خاص ادلى به لوكالة « الاسوشيتدبرس » في ١٩٦٦/١١/٢٩ قال : « اذا كان الارهابيون يتسللون عبر الحدود رغم جميع التدابير التي نتخذها فان اسرائيل تتحمل مسؤولية مساوية تقضي عليها باغلاق الجانب الخاص بها من الخط . واذا كانت لا تفعل ذلك فانها تتحمل لوما مماثلا عما قد يتبع ذلك »(٧٩).

وقد استمر هذا الموقف من العمل الفدائي في الاشهر التالية التي أعقبت حرب حزيران حتى معركة الكرامة . ففي مقابلة مع « وكالة الانباء الاردنية » في شهر ايلول ١٩٦٧ (وكان قد مضى نحو شهر على استئناف العمل الفدائي) قال حسين « انني اعتبرها جريمة لا مثيل لها ان تعمد اي جهة الى ارسال من يسمون بالفدائيين للقيام بأعمال تعطي العدو حجة في أن يتمكن من اعناق اخواننا وابنائنا هناك [في الضفة الغربية] ... واذا كنت اقف ضد هذا الاسلوب فان من واجبي وواجب كل مواطن وكل عربي ان يقاومه بكل قوة »(٨٠)، كما انه يصر في مقابلة اخرى تلفزيونية في لندن لدى سؤاله عن موقفه عن « ازدياد اعمال التخريب في الاراضي التي تحتلها اسرائيل » على « أن تشجيع مثل هذه الاعمال لم تكن من سياستنا أبدا سواء في الماضي او الحاضر » وقال انه ضد هذه الاعمال و« اننا نعمل كل ما في وسعنا لوقفها »(٨١).

مع هذا الموقف من العمل المسلح حاول حسين ان يجير لمصلحته الخاصة اعمال المقاومة

السلبية مثل التظاهرات التي خرجت في بعض مدن الضفة الغربية في اعقاب الاحتلال ، ففي حديث له لصحيفة « دير شبيجل » الالمانية قال « يوجد هناك مقاومة حقيقية في الضفة الغربية من الاردن ويقوم بها الناس الذين يعتبرون انفسهم اردنيين وقعوا تحت الاحتلال الاجنبي والذين هم ليسوا على استعداد للتعاون مع القوة المحتلة اكثر من الضرورة القصوى ... اننا فخورون جدا بأن لنا اتصالات مع شعبنا في الضفة الغربية وان الغالبية الكبرى منهم يواجهون الحوادث المؤسفة كأردنيين »(٨٢). غير انه مع اشتداد اعمال المقاومة في الارض المحتلة وابتداء توجهها نحو اتخاذ الاردن مرتكزات انطلاق لها ، ادرك حسين أن الامر يكاد يفلت من يده ، فانتهز فرصة قيام القوات الاسرائيلية بغارة على منطقة الاغوار في شباط ١٩٦٨ ليوجه من الراديو حملة عنيفة على المقاومة في لهجة تهديد واضحة : « انني وانا اتحمل مسؤولية قيادة بلدي وشعبي ... لن اقبل بأن يقدم احد لاعداء بلدي وامتي ذريعة يتذرعون بها ... او حجة يطلع بها اولئك الاعداء على العالم ليدفعوه الى المزيد مما اوقعوه به من وهم وتضليل ... ان احدا فوق هذه الارض لا يستطيع ان يبيعنا وطنية او يتنايه علينا وفاء لاهداف او سعيا لآمال . ولن يقوى امرؤ على المزايدة علينا قيادة وشعبا وجيشا لا من قريب ولا من بعيد ... ان كل عمل مخلص هادف ينبغي ان ينطلق من ارضنا هذه ومن خلالنا نحن وفي اطار ما نرسم ونخطط ونعد ... ان اية فئة تتجاهل هذا الموقف منا بعد اليوم وتتخذ لنفسها نهجا غير نهجنا وتتعامى عن بابنا الذي كان وسيظل مفتوحا لكل متطلع الى المعركة بشوق واخلاص هي ليست منا ولسنا منها ، وهي ليست من القضية في شيء قليل ولا كثير ، ونحن لذلك عليها وضدها بكل قوة وتصميم »(٨٣). هل فكر حسين في ذلك الوقت المبكر بخوض معركة مع العمل الفدائي؟ ان ذلك الخطاب كان يفوح بذلك التوجه، غير ان تهديده بضرب المقاومة لم يكتب له الوقت الكافي ليتخذ مداه ومفعوله ، فبعد شهر وبضعة أيام كانت معركة الكرامة التي غيرت في موازين القوى والتي كانت مطلع مرحلة جديدة في موقف النظام الاردني والملك حسين من المقاومة .

المرحلة الثانية ــ من معركة الكرامة الى أزمة حزيران ١٩٧٠ : ادخل النصر الذي حققته المقاومة في هذه المعركة والنشاط التعبوي الواسع الذي قامت به في اعقابها ، ادخلا المقاومة مرحلة جديدة كان ابرز سماتها اندفاع الجماهير العربية اندفاعا حماسيا كثيفا نحو دعمها ، مما وطد ثقة المقاومة بصحة منطلقاتها فصعدت من عملها المسلح ونشاطها السياسي على حد سواء ، الامر الذي اكسبها مرة اخرى مؤيدين ومنتظمين بعرض العالم العربي كله ، مما جعل اي محاولة تستهدف الانتقاص من قدر المقاومة او التشكيك بمنطلقاتها محكومة بنقمة الجماهير وغضبها ، خاصة اذا صدرت مثل هذه المحاولة عن نظام مهزوم كنظام الملك حسين الذي كان همه الاساسي الدفاع عن وجوده الذي كانت الدلائل تشير الى احتمال انهياره ، والذي كانت مصلحته تحتم عليه عدم الدخول في معارك مواجهة مع هذا المد الجماهيري المتصاعد الذي كان يهدد ــ في حالة استعدائه ــ رأس النظام نفسه . من هنا كان من الطبيعي ان تتغير لهجة حسين لدى حديثه عن المقاومة ، ويصل به القول الى انه « الفدائي الاول »(٨٤). غير أن تغير اللهجة لم يكن يعني بالتالي تغيرا في الموقف . فحتى في حمى استعار هذا « التأييد » اللفظي الذي وجد حسين نفسه منساقا اليه بضغوط غير نابعة من قناعاته بالتأكيد ، كان الملك يجد مبررات وفرصا لكشف موقفه الثابت من المقاومة : وجودها نفسه واهدافها ومنطلقاتها .

وقبل التطرق الى تبين موقف حسين في هذه الفترة سنلقي نظرة على كيفية تناوله لمعركة الكرامة . كان رد الفعل الاول الذي سببه الهجوم الاسرائيلي الكبير على الكرامة ذعرا تجلى في برقية حسين الى الرؤساء والملوك العرب في يوم المعركة نفسه قال فيها : «لئن **أخذتم تسمعون عنا وليس منا بعد هذا اليوم** فلأننا والله قد طالت نداءاتنا...»(٨٥).

غير ان النصر الفدائي في المعركة وما احيط به هذا النصر من هالات مجد دفع حسين الى محاولة سرقته . ففي مؤتمر صحافي عقده بعد يومين من المعركة قال : « كانت العمليات عمليات اردنية »(٨٦)، وعندما سئل في المؤتمر ان كان بين القتلى المدنيين في الكرامة فدائيون لم يجزم بذلك وقال « ربما كان ذلك ، ولكن الحقيقة هو ان سكان الكرامة قاوموا ببسالة ومن الصعب ان نميز بين الفدائي وغيره » . ومنذ ذلك الحين دخل المصطلح الملكي تعبير جديد هو « الجيش الاردني جيش الكرامة »(٨٧)، واذا كانت المقاومة قد فاخرت بأن عناصر من الجيش الاردني قد شاركت في صنع النصر في معركة الكرامة فان حسين في المقابل يطوب هذا النصر لجيشه دون اشارة من قريب او بعيد الى « الدور » الذي قامت به المقاومة في تلك المعركة . ففي خطاب له يقول :« لقد كانت القوات الاردنية المسلحة عنوان ذلك الصمود ودرعه المتين، **على يديها ذاق البلد وذاقت الامة العربية طعم النصر يوم الكرامة لاول مرة** »(٨٨)، ويخص حسين بعض جيشه بهذا النصر ، نعني لواء المدرعات . ففي رسالة وجهها حسين الى زيد بن شاكر قائد هذا اللواء بمناسبة منحه احد الاوسمة في ايار ١٩٧٠ كتب : « وخرج من اللواء من خرج من معركة حزيران ليخوض معركة الكرامة ويسجل لنا نحن العرب في اعقاب هزيمة لحقت بكل العرب لحظة ونقطة تحول . . . »(٨٩).

كان حسين يدرك حقيقة ان الكرامة كانت نقطة تحول حتى في اسلوب تعامله مع حركة المقاومة . وقد بدأ هذا التحول في الاسلوب منذ الايام القليلة التي اعقبت الكرامة وافتتح هذا الاسلوب في المؤتمر الصحافي المشار اليه في الفقرة السابقة عندما تحدث عن المقاومة فوصفها بأنها « أمر طبيعي مارسه كثير من الشعوب التي ترزح تحت احتلال اجنبي في ظروف مشابهة لظروفنا الحاضرة » ، وعن العمل الفدائي قال « قد نصل الى مرحلة معينة نصبح فيها جميعا من الفدائيين وربما يتم هذا في المستقبل القريب »(٩٠). لقد كان حسين سريعا في اكتشاف آفاق المرحلة المقدم عليها ، وكان وقوفه صريحا ضد معطياتها كفيلا بأن يجعله يخسر كثيرا وربما كانت هي الخسارة الاخيرة بالنسبة له . ولادراكه ذلك كان تحركه سريعا وواسعا في اتجاه اعلان «تأييده» للمقاومة ، فلم يترك مناسبة تفوت دون التذكير بهذا الموقف : اعلاميا كان يؤكد ان « مقاومة الاحتلال حق مشروع وحق كل انسان واضح في ان يقدم حياته في سبيل الدفاع عن ارضه »(٩١) و« في الحقيقة الاردن ككل وبكل انسان فيه هو بلد الفداء والفدائيين . . . والفدائيون ثوارنا من اخواننا العرب هم بلا شك محل التقدير والمحبة »(٩٢)، كما حاول حسين ان يوحي ان هذا الموقف اصيل داخل في صلب سياسة حكومته . ففي رسالة بعث بها الى بهجت التلهوني ، رئيس وزرائه ، في ١٣/٩/١٩٦٨ كتب : « اننا من أشد أنصار المقاومة المشروعة للاحتلال بشكليها السلبي والايجابي »(٩٣). كما اكد هذا الايحاء في خطاب العرش الذي القاه في مجلس الامة في ١/١١/١٩٦٩ بقوله : « ان الكفاح المسلح والمقاومة المشروعة اللذين فجرهما العدوان الاسرائيلي في صفوفنا وفي صفوف الشعب العربي الفلسطيني من اجل التحرير واسترداد الحق المغتصب هما كفاح مقدس خالص لله والوطن . . . واذا كان من واجب غيرنا ان يتخذ من ذلك الكفاح موقف الدعم والتأييد فان من حقنا في هذا البلد ان نؤكد بأن ذلك الكفاح هو نحن ، هو جزء من صمودنا وقطعة من وجودنا »(٩٤). وكان حسين في اثناء ذلك كله حريصا على ادعاء ان وجود المقاومة في الاردن كان منسجما مع ارادته وبرخصة منه . يقول : « نمت المقاومة في هذا البلد واستمرت لاننا آمنا بهذا الحق المشروع . . . **ونمت لاننا أردنا ان تنمو** »(٩٥). وفي محاولة لدفع التهمة عن نفسه بتصفية المقاومة في أزمة تشرين الثاني ١٩٦٨ قال : « لو اردنا فعلا تصفية العمل الفدائي لما سمحنا به منذ البداية »(٩٦).

غير ان حقيقة هذا الزعم تكشفها الرسالة التي بعث بها حسين الى صحيفة « الصانداي تيليجراف » حول مقال كانت الصحيفة قد كتبته عن الوضع في الاردن . وقد جاء في مقال

الصحيفة(٩٧) «ان الملك حسين يصوغ مخططات طوارىء عنيفة موجهة ضد اسرائيل . . . وتشمل هذه المخططات تحويل الاردن الى دولة فدائيين Guerrilla State . . . ومن المقرر كذلك ان تعطى منظمات الفدائيين الفلسطينيين حرية العمل ضد اسرائيل بدعم كامل من الجيش الاردني » . وقد وجه الملك رده على هذا المقال في عـدد لاحق مستغلا ابشع استغلال تشابه لفظين في اللغة الانجليزية : الاول Guerrilla — حرب العصابات او المشارك في حرب العصابات ، والثاني Gorrilla — القرد المعروف بهذا الاسم (غوريلا)، لينفث حقده على المقاومة . يقول حسين في رسالته : « ليس لدي النية لان أحول الاردن الى Guerrilla State او دولة شمبانزي ، كما انه ليس لدي ادنى اهتمام بأي شكل من اعمال القرود »(٩٨).

مدخل آخر يقود الى فهم موقف الملك حسين من المقاومة في هذه الفترة هو اتجاهه نحو استغلال وجود المقاومة في الاردن وعملها العسكري ضد القوات الاسرائيلية لاتخاذها أداة ضغط على اسرائيل في الجهود الرامية الى حل « أزمـة الشرق الاوسط » حلا سياسيا . فمن الواضح ان حسين ليس متشبثا بهذا الوضع غير الطبيعي الذي يسود المنطقة العربية والذي ينذر دائما بالتفجر الذي قد يكون حسين نفسـه احد ضحاياه الاوائل . كما ان حسين ليس غير راض عن عودة اجزاء من الضفـة الغربية لنهـر الاردن الى مملكته لكي ينهي بعودتها بعض معضلاته السياسية والاجتماعية التي خلفتها حرب حزيران . لذلك فان حسين لا يريد من العمل الفدائي أكثر من ان يقوم بهذا الدور : دور الاداة الضاغطة على اسرائيل المؤدية الى الحل السياسي . ففي مقابلـة له مع صحيفة « النهار » البيروتية(٩٩) يقول : « الحل العادل والمشرف الذي نسعى اليه مبني على قرار مجلس الامن . . . [و] اذا كنا سنفشل في الوصول الى النتيجة التي نتوخاها في ايجاد حل عادل لقضيتنا فكل واحد منا فدائي ». وقد أكد حسين هذا التوجه في خطاب له من الاذاعة الاردنية وتلفزيون عمان(١٠٠) بقوله انه وجد في العمـل الفدائي حركة مشروعة « لانها تستهدف مقاومة غازية غاصبة غير مشروعة ولانها تعمل عن طريق النضال والكفاح المسلح ما نعمل نحن لبلوغه عن طريق السياسة » . وفي الحقيقة بدأ هذا التوجه من جانب الملك منذ أواخر العام ١٩٦٨ ومطلع العام ١٩٦٩ عندما ابتدأت المقاومة تثبت كفاءتها العسكرية ومقدرتها على توجيه ضربات قاسية لاسرائيل . وكان حسين يستغل هذه الضربات التي توجهها المقاومة ليعلن : « طالما ان اسرائيل ماضية في عدم قبولها لقرار مجلس الامن وتطبيقه . . . وطالما ان اسرائيل ماضية في احتلالهـا للضفة الغربية والمناطق الاخرى فانها مسؤولة عن تردي الاوضاع . ولذلك **فاننا غير مسؤولين عن حماية قوات الاحتلال في تلك المناطق** . اننا نكن كل الاحترام لاولئك الذين هم على استعداد لتقديـم ارواحهم في سبيل القضية دفاعـا عن ديارهم ووطنهـم وحقهم »(١٠١). وحسين حريص على أن يظهر في توجهه هذا موضوعين أكد عليهما في كثير من أقواله : الاول ان ظهور المقاومة كان بسبب الاحتلال الاسرائيلي الذي حدث في العام ١٩٦٧ ، والثاني ان انتهاء المقاومة مرتهن بالوصول الى حل سياسي . ففي مقابلة تلفزيونية اذيعت في الولايات المتحدة(١٠٢) قال : « انني اعتقد ان العمل الفدائي تطور طبيعي حقا ونتيجة لاستمرار احتلال المناطق العربية من قبل اسرائيل . . . وهذه المقاومة تزداد كلما تلاشى الامل في الوصول الى تسوية عادلة ومشرفة ودائمة » . كما زعم في مقابلة مع صحيفة « توربيو » الايطالية الاسبوعية(١٠٣) « ان الفدائيين الفلسطينيين سيوقفون هجماتهم على اسرائيل اذا قبل الاسرائيليون قرار مجلس الامن الدولي حول الشرق الاوسط » واضاف « ان عناد الاسرائيليـين هو الذي يحـرض على وجود الفدائيين » . وعندما سئل حسين في احدى مقابلاته الصحافية(١٠٤) « اذا نجح الحل السلمي ألا تزداد امكانات الصدام [مع المقاومة] » اجاب : « لن يكون هناك صدام ابدا لاننا واثقون من ان الغالبية العظمى من اخواننا على درجة كبيرة من الوعي بحيث

اذا تحقق لهم الحل السياسي او السلمي سيدركون واقعيته وسيعمدون الى تنفيذه انهاء للمشكلة » . غير ان حسين لم يكن بالتأكيد معتمدا على هذا « الوعي » بل كان يراهن على قدرته على كسب أي صدام محتمل مع المقاومة في حال تنفيذ الحل السياسي . ومنذ وقت مبكر ظهرت مراهنته تلك في اثناء زيارته الى الولايات المتحـــدة في شهر نيسان ١٩٦٩ . لقد طرح حسين في نادي الصحافة في واشنطـــن في ١٠/٤/١٩٦٩ مشروعا « للسلام » من ست نقاط تتضمن « ١ ــ انهاء حالة الحرب . ٢ ــ احترام سيادة دول المنطقة ووحدة أراضيها واستقلالها السياسي والاعتراف بها . ٣ ــ الاعتراف بحق جميع هذه الدول في العيش بسلام داخل حدود آمنة ومعترف بها . ٤ ــ ضمانات لجميع هذه الدول بحرية الملاحة في خليج العقبة وقناة السويس . ٥ ــ ضمانات لاراضي جميع الدول في المنطقة باتخاذ اية اجراءات مناسبة بما في ذلك اقامة مناطق مجردة من السلاح . ٦ ــ القبول بتسوية عادلة لمشكلة اللاجئين »(١٠٥). وهذا المشروع الذي حمله معـــه حسين الى الولايات المتحدة كان يعني ، في حال تنفيذه ، تصفية نهائية ليس للمقاومة فحسب وانما للقضية الفلسطينية بمجملها ، الامر الذي لا بد من ان يجعل الصدام محتما بين نظامه والمقاومة . وقد ذكرت صحيفة « نيويورك تايمز »(١٠٦) ان الملك حسين أكد لحكومة نيكسون انه قادر على « ضبط » منظمات الفدائيين الفلسطينيين في حالة ايجاد « تسوية معقولة » في الشرق الاوسط ، وقد جاءت هذه التأكيدات في اثناء اجتماع تم بين حسين والرئيس نيكسون وكبار مساعديه . وباجمال كان « الحل السياسي لازمة الشرق الاوسط » قد بدأ منذ هذه الفترة ينعكس على موقف حسين من المقاومة الفلسطينية وهو موقف تطور في المرحلة التالية ، التي سترد حقا ، ليتخذ له شكلا آخر منسجما مـــع معطيات المرحلة نفسها . ونختتم هذه الفقرة بتصريح أدلى به حسين لمجلة « التايم » الاميركية يلخص فيه نظرته الى العلاقة بين المقاومة والحل السياسي . لقد سأل مراسل الصحيفة الملك « هل هو قول صحيح انك القيت بقدرك الى جانب المقاتلين مـــن أجل الحرية ؟ » فأجاب « حتى الان لا ، فما دام ثمة لا يزال أخفت بصيص من أمل في التسوية السلمية فسوف أبقي الاختيارات أمامي مفتوحة »(١٠٧) .

ومع هذا ، وعلى الرغم من هذا التأييد اللفظي الذي ألزمت معطيات المرحلة الملك حسين على اتباعه حتى ليصل به القول « لا نستطيع ان نوقفهم [الفدائيين] وليست لدي اي سلطة ولا أرغب في أن تكون لي سلطة على حقوقهم في القتال من أجل بلادهم »(١٠٨)، مع هذا فقد كان الملك يستغل كل مناسبة ، وأحيانا بدون مناسبة، للتشكيك في جدوى العمل الفدائي وفي كفاءته وفاعليته . ففي رسالة بعث بها الى بهجت التلهوني ، رئيس وزرائه، يقول « ان تناثر العمل في مجال المقاومة المشروعة وتعدد التنظيمات وتفرقها وانعدام التنسيق بينها وعدم ارتباطها بتخطيط موحد هادف ، من شأنه أن يلحق الضرر بدلا من تحقيق النفع ويحدث أثرا عكسيا على الدوافع النبيلة التي ينطلق من أجلها ويتيح للعدوان ان يستهين بها ويستغلها لتوجيه الضربات »(١٠٩). وعندمـــا يتحدث حسين عن الكفاح المسلح يؤكد هذا الاتجاه الرامي الى التشكيك في العمل الفدائي بشكل موارب غير قادر على المواجهة الصريحة . ففي خطاب العرش الذي القاه في أثناء أحداث تشرين ١٩٦٩ في لبنان يجري حسين مقارنة بين الكفاح المسلح الفلسطيني وبين قواته المسلحة فيؤكد « اننا . . . حريصون على ان يتوفر لذلك الكفاح ما ينبغي أن يتوفر لصمودنا كله وللقوات المسلحة من نظام وانتظام ، حريصون على أن تخلو صفوفه ، خلو صفوف تلك القوات ، من أية عناصر مشبوهة بعيدة عن حقيقة الكفاح ومعانيه ، حريصون علـــى ان يبتعد الكفاح بعد تلك القوات عن أي مظهر او مسلك يؤذيه او يشوه روعتـــه وقدسيته ، حريصون أيضا على الا تراق نقطة دم عربية واحدة ، هنا او في اي بلد عربي وان لا تطلق رصاصة عربية واحدة هنا او في اي بلد عربي في غـــير ساح الشرف والبطولة والاستشهاد »(١١٠) .

غير ان هذا الاسلوب غير المباشر في التشكيك في المقاومة الفلسطينية رافقه في هذه الفترة هجومان مسلحان شنهما النظام الاردني على المقاومة : الاول في تشرين الثاني ١٩٦٨ والثاني في شباط ١٩٧٠ ، وقد رافق هاتين الهجمتين تصعيد في الحملة الملكية على المقاومة ، ففي أعقاب ازمة تشرين الثاني ١٩٦٩ « وجه خسين رسالة الى الاسرة الاردنية »(١١١) جاء فيها : « في هذه المرحلة التي يقف فيها شباب هذه المملكة في قواتنا العربية المسلحة على خط الدماء والفداء ، في هذا الوقت الذي يذود فيه الجيش الاردني، جيش الكرامة العربية وفخر الامة ودرعها القوي المكين عن حرية البلد واستقلاله ويحمي شرف الامة وكرامتها ... اندست بين الصفوف الامينة المتراصة فئة عميلة حاقدة ، وجماعة مأجورة مجرمة ، ترتدي رداء الرجولة والرجولة منها براء ، وتنتحل خدمة القضية وهي عدو القضية وسلاح أعدائها عليها ، وراحت تعمل ضمن خطة مدبرة ومرسومة تستهدف صمود هذا البلد ... لقد تسترت تلك الفئة وراء رداء ترتديه وتقنعت من خلال سلاح تحمله وشعارات ترفعها ، وراحت تنفث سمومها وتنشر دسائسها وتروج لاكاذيبها ... لم تكن الارض المحتلة ميدان عمل تلك الفئة وانما كانت الضفة الشرقية هي بالذات ... عرفهم المواطنون في عمان وسواها يبتزون الاموال ويسيئون للنضال وشرفه ويستغلون الابرياء من بناتنا وأبنائنا ... وحين امهلتهم السلطات وأخذتهم بالصبر والاناة ... حسبوا الامهال تخاذلا والصبر ضعفا ... واصبح من واجب الدولة أن تضع للشر حدا والاستهتار نهاية ... ولسوف تعيد للمواطنين طمأنينتهم وتحمي للوطن مقوماته وأسباب صموده وتصون للمواطن أسباب امنه وسلامته ، وتطهر النفوس من كل ما يعتورها من زيف وشائبة لتقف متراصة قوية وراء جيش الكرامة والفداء ، جيش الحرية والاستقلال ، جيش الاردن والعرب أجمعين » . هل كانت منظمة كتائب النصر (جماعة طاهر دبلان) التي قيل انها افتعلت الازمة هي المخاطبة بهذه الرسالة الملكية ام مجمل العمل الفدائي ؟ ان الهجمة التي تعرضت لها فصائل المقاومة جميعا في تلك الازمة تشير الى ان جماعة دبلان ليست هي المخاطبة بهذه الاوصاف التي أطلقها حسين وانما المقاومة الفلسطينية جميعا . ونلاحظ هنا ان الملك قد أعطى اشارة البدء في هذه الرسالة لحملة استهدفت تعبئة القوات المسلحة الاردنية تعبئة مضادة لحركة المقاومة (وقد ظهرت نتائج هذه الحملة في وقت لاحق) وقد تأكدت هذه الحملة في ذلك الوقت المبكر في الاجتماع الذي ترأسه حسين وحضره كبار رجال الدولة في ١٩٦٨/١١/٦(١١٢). وقد قال حسين في هذا الاجتماع : « توجد أمور يجب أن نضعها في نصابها ، يوجد قانون ، ويوجد نظام وأيضا مفهوم دولة. فاذا زالت هذه الاعمدة والاسس انتهينا . وفي سلامة مواطنين، وفي حق هؤلاء المواطنين في أن ينتظروا من السلطة أن تحافظ عليهم وعلى أمنهم وسلامتهم . يوجد جيش خاض المعركة ويخوضها كل يوم ... ووقف يتحمل ويؤدي الواجب برجولة . لقد سمعتها من كل ضباطي ومن كل أبنائي واخواني في القوات المسلحة الذين هم أبناؤكم أيضا . لهم طلب واحد ، ان نحمي مؤخرتهم وان نساندهم حتى ينصرفوا لاداء الواجب . هذا الجيش هو جيش الكرامة العربية ، وهذا الجيش هو أمل هذه الامة ، هنا دولة وهنا جيش وهنا نظام وهنا قانون ، وسيحافظ على هذه الدولة وعلى سيادتها ومن يخرج على القانون سيعاقب بشدة » . وفي هذه المناسبة نفسها هدد حسين : « اذا تكرر من جديد ما كاد ان يقع في عمان وفي سواها ... فأسحق نهائيا الوضع ومسببيه بكل شراسة وبكل قوة »(١١٣). وعندما حاول حسين ان ينفذ تهديده في شباط ١٩٧٠ كانت المقاومة قد اشتد ساعدها ونمت نموا جعلها قادرة على الدفاع عن نفسها وافشال الهجمة التي تعرضت لها آنذاك. وقد انعكس هذا الفشل في المؤتمر الصحافي الذي عقده الملك حسين بعد انتهاء الازمة والذي توضحت فيه طبيعة المناورة التي اتبعها حسين : تراجع عن أهداف الهجمة التي كان ابرزها تجريد المقاومة من اسلحتها كما جاء في بيان الحكومة

الاردنية في ١٠/٢/١٩٧٠ وتصوير ابعادها بأنها ليست سوى «التذكير ببعض القوانين»، تأكيد التأييد اللفظي للمقاومة ، تملق الجيش والتلميح الى أن المقاومة تسيء له ، هجوم مبطن على المقاومة . ونذكر هنا فقرات توضح هذه المناورة كما جاءت في هذا المؤتمر الصحافي المشار اليه(١١٤): « فيما يتعلق بالموقف وتطوراته في المرحلة الاخيرة قامت الحكومة من جانبها بالتذكير ببعض القوانين والانظمة المرعية في هذا البلد ... وهي لا تستطيع ان تتخلى عن واجباتها من جهة ولا تستطيع من جهة اخرى ان تبطل مفعول القوانين والانظمة القائمة في هذا البلد... مع الاسف وقع ما وقع نتيجة لسوء الفهم... نمت المقاومة في هذا البلد واستمرت لاننا آمنا بهذا الحق المشروع، حقنا في مقاومة الظلم والعدوان ومقاومة الاحتلال ... ونمت لاننا أردناها أن تنمو . لم يستهدف أحد ولن يستهدف أحد في يوم من الايام المقاومة ، هي منا ونحن منها واليها ... ويبقى هذا البلد وهذا الشعب يدا واحدة وقلبا واحدا خلف قواته المسلحة المصممة القادرة على أن تؤدي واجبها ودورها على اكمل وجه والتي هي مفخرة كل انسان في هذا البلد ومفخرة كل انسان في الوطن العربي الكبير ، ومن حق هذه القوات المسلحة ان تنال الاحترام والتقدير والمحبة ، ان تعيش في قلب كل انسان ، ومن حقها ايضا ان تطمئن الى ان الصفوف خلف الصفوف متراصة حتى تؤدي دورها على اكمل وجه ... وجدنا في عملية احصاء انه نتيجة الحوادث على الطرق وربما بسبب عدم استخدام السلاح بالشكل الصحيح في أماكن عامة وغيرها ان خسارتنا في السنة الماضية عدد كبير جدا من الابرياء من الرجال والنساء والاطفال ، وكان ان وجدنا النسبة بلغت حدا عاليا جدا . هذه من ضمن العوامل جعلت من الضروري بالفعل ان يكون هناك تنظيم وتنسيق يحول الى حد ما دون وقوع مثل هذه الحوادث المؤسفة ... نحن لسنا ضد حمل او خزن السلاح في مدن الاردن ... ونحن لسنا ضد تسلح الشعب ولا توجد لدينا اية نية لاخذ السلاح من أيدي أبناء الشعب » . وقال عن الاجراءات التي اتخذتها الحكومة (اجتمعت في ١٠/٢/١٩٧٠ واتخذت اجراءات من ١٢ نقطة تستهدف تقييد حركة المقاومة)(١١٥)، قال انه « تقرر في ضوء الظروف ، وكان من بينها سوء الظن باجراءاتنا، ان تجمد هذه القرارات. وكان السبب الرئيسي في ذلك هو ما لمسناه من الشعور المخلص الصادق من جميع المعنيين بالامر الذين أرتفعوا الى مستوى المسؤولية وتقدير المصلحة العامة وبذلك بدأت الامور تعود الى حالتها الطبيعية في الوقت الذي يجري فيه حوار حتى يكون هناك وضع سليم مئة بالمئة وبحيث يتم حشد الطاقات من أجل المعركة »(١١٦).

باجمال ، كان موقف حسين في هذه المرحلة محكوما بالمعطيات التي افرزتها والتي كان عنوانها العريض ان هذه المرحلة تمثل عهد تصاعد حركة المقاومة ومدها الجماهيري الواسع وقوتها الفاعلة المؤثرة ، ومن هنا كان نهج حسين في تعامله مع المقاومة نهجا مراوغا : ● اعلان الدعم اللفظي للمقاومة. ● محاولة ضربها بهدف تقليصها وتقزيمها لتخدم أغراضه المساومة. ● التراجع في حال الفشل. ● الالتزام بالتشكيك في المقاومة. ● محاولة تأليب الجيش عليها . غير أن هذه المرحلة انتهت بالصدام الكبير الذي حدث في حزيران ١٩٧٠ والذي كان مقدمة لمرحلة اختلفت فيها المعطيات وبالتالي موقف حسين نفسه .

المرحلة الثالثة ــ عود على بدء : بدأت توجهات النظام الاردني بصورة كثيفة نحو تصفية المقاومة في الساحة الاردنية في اعقاب أزمة شهر شباط مباشرة ، وقد تأكدت هذه التوجهات في حملات التعبئة التي قادها النظام في صفوف الجيش والعشائر وتشكيل القوات الخاصة ، ثم في المواجهة المسلحة التي فرضت على المقاومة في حزيران ١٩٧٠ . وكانت جميع الدلائل تشير الى أن هذا التوجه سيأخذ مداه الكامل : فالتحرك الاميركي في نيسان ١٩٧٠ من خلال زيارات جوزيف سيسكو ، مساعد وزير الخارجية الاميركية ، الى المنطقة كانت توحي بأن تحريك « أزمة الشرق الاوسط » عن مواقعها الجامدة

القديمة بات في وارد الاحتمال . وقد تعزز هذا الايحاء عندما أعلنت الحكومة الاسرائيلية في بيان سياسي القته جولدا مئير في الكنيست في ١٩٧٠/٥/٢٦ عن تأكيد قبول اسرائيل لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢(١١٧). في مقابل ذلك كانت سلطة المقاومة الشعبية في الساحة الاردنية تشتد وتنمو ، الامر الذي يجعل تمرير اية تسوية ، مع وجود هذه السلطة الشعبية ، أمرا محكوما بالفشل . وقد ظهرت نتائج تأثيرات هذه السلطة في الساحة الاردنية في التظاهرات الشعبية التي اندلعت في عمان في ١٩٧٠/٤/١٥ والتي أدت الى الغاء الزيارة التي كان من المقرر ان يقوم بها سيسكو في اليوم التالي . وقد أعلنت وزارة الخارجية الاميركية ان الغاء الزيارة كان بسبب التظاهرات العنيفة التي شهدتها عمان(١١٨). كان لا بد اذن من الحسم تجاه المقاومة كي يكون النظام حرا في تحركه نحو التسوية . وكانت أحداث حزيران ١٩٧٠ خطوة نحو هذا الحسم الذي أصبح أكثر الحاحا بعد مواجهة حزيران عندما أعلن وليام روجرز ، وزير الخارجية الاميركية ، مبادرته الخاصة بأزمة الشرق الاوسط . وقد جاء هذا الاعلان رسميا في مؤتمر صحافي عقده روجرز في ١٩٧٠/٦/٢٥ ، وفي ١٩٧٠/٧/٢٣ اعلنت مصر قبولها بالمقترحات الاميركية ولحقها الاردن فأعلنت حكومته موافقتها على المقترحات في ١٩٧٠/٧/٢٦ . وكان أيلول ١٩٧٠ نتيجة طبيعية لهذه المقدمات كما كانت معارك الاحراج في تموز ١٩٧١ وتصفية الوجود العلني للمقاومة الفلسطينية في الساحة الاردنية حصادا لها. وسنعرض فيما يلي أقوال حسين التي تلخص دوره في صنع الاحداث من جهة ، وانعكاس الاحداث في سياسته من جهة أخرى .

لقد فشلت هجمة حزيران ١٩٧٠ في تحقيق اهدافها وابتلع حسين هذا الفشل ورضي بالهزيمة وبالتنازل عن اثنين من أقرب معاونيه : ناصر بن جميل ، القائد العام للقوات المسلحة ، وزيد بن شاكر ، قائد سلاح المدرعات . ولم يكن أمام حسين ازاء هذا الفشل الا سبيلين ينهجهما : الاول تبرئة نفسه من محاولة تصفية المقاومة ، والثاني الالتجاء الى قوى القمع لديه وتعبئتها لمعركة ثأرية قادمة أرادها فاصلة . وفي مؤتمر صحافي عقده حسين اثر انتهاء المعارك تحدث عن الازمة الماضية قائلا : « الحقيقة الاولى ان أحداث الاردن الدامية خلال الاسبوع الماضي لم تكن عفوية ولا طبيعية ، وانما هي مؤامرة مخططة وفتنة مدبرة أعدت في الظلام . والحقيقة الثانية ان تلك المؤامرة كانت تستهدف البلد بمجموعه : الجيش والشعب والفدائيين على حد سواء. والحقيقة الثالثة ان تفادي القتال بين الجيش والفدائيين كان همي الاكبر منذ نشوب الازمة . والحقيقة الرابعة انني أصدرت الاوامر على الفور بعدم دخول الجيش الى عمان وكان هدفي الاول الحفاظ على أرواح المواطنين بقدر ما كان أيضا الحفاظ على المقاومة وعلى أرواح الفدائيين . وقد استطعنا نتيجة تعاون السلطة واللجنة المركزية ان ننقذ البلد من الفتنة »(١١٩). غير ان تنفيذ مطلب المقاومة بابعاد ناصر بن جميل وزيد بن شاكر كان ورقة استغلها حسين في تعبئة قواته المسلحة ففي رسالة وجهها الى جميع الرتب في الجيش اثر انتهاء الازمة تتعلق « باستقالة » ناصر وزيد كتب حسين : « تعرفون ايها الاخوة حقيقة التطورات الاخيرة التي أعقبت كل الحلم منا في وجه اساءة فهمه ومعناه وكل التحديات لقواتنا المسلحة قادة وضباطا وأفرادا . أما عمان فقد آثرنا حتى الساعة ان يبقى الجيش خارجها يدافع عن نفسه والاماكن المتواجد فيها فقط . وقد اعتدي عليها وعليه مرات ومرات وكان اجتماع وكان بحث وكانت مقررات . اما التنفيذ فقد تعذر مع الاسف واشترط الجانب المتواجد دون الجيش في عمان عاصمتنا ، اشترط علينا اليوم شروطا قاسية استهدفت خالي قائد القوات المسلحة وأخي قائد السلاح المدرع الملكي وبأن في تخليهم عن مناصبهم الآن ما يؤمن فورا من جانبهم تنفيذ الاتفاق وعودة جميع الامور الى حالتها الطبيعية في عمان وسواها . اما الحالة في عمان فهي كما يلي : تتواجد فيها بعض العصابات المسلحة تباشر السلب والنهب والقتل وهي تتعرض لاقسى ما عاشت ...

لقد رفضت قبول الشرط القاسي الذي يحمل هؤلاء [ناصر وزيـــد] ما لا يجـــوز ان يتحملوه ... ولكني عدت عن ذلك نتيجة التماس اللواء الشريف ناصر بن جميل القائد العام للقوات المسلحة والاخ الزعيم الركن زيد بن شاكر قائد اللواء المدرع الملكي اللذين أصرا على ان يقدما دليلا جديدا على التضحية في سبيل المصلحة العامة التي عرفت عن آل البيت »(١٢٠). وفي المؤتمر الصحافي المشار اليه اعلاه قال حسين « نحن نواجه أزمة، الجيش غاضب لانه شعر انه مس عندما أبعدنا القائدين » .

جاء مشروع روجرز ليسارع في هذه التعبئة ويكثفها وصولا الى جولة حاسمة . وكان تفسير الملك لهذا المشروع كما يلي : « رأينا بكل اقتناع ان المبادرة الاميركية الاخيرة التي عرضت علينا للموافقة لم تخرج عن كونها صيغة من الصيغ الداعية لتنفيذ قرار مجلس الامن وانها هذه المرة اكتسبت تقبل الاتحاد السوفياتي »(١٢١). وقد وجد في قبول مصر لهذه المبادرة فرصة لاخلاء مسؤوليته تجاهها : « قابلنا المقترح الاميركي الاخير للدخول في مباحثات مع المبعوث الدولي من أجل تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ مقابلة ايجابية وذلك لعدة اسباب أهمها اننا نعمل وشقيقتنا الكبرى ج ع م يدا بيد ... نقبل ما نقبله معا ونرفض ما نرفضه معا كذلك »(١٢٢). غير انه كان من الواضح ان هذا المشروع الذي ينهي في مراميه البعيدة قضية الشعب الفلسطيني اعطى اشارة البدء للملك حسين ونظامه للانطلاق الجاد في تصفية المقاومة الفلسطينية وصولا الى خلق حالة صالحة لتنفيذ المشروع. وفي الفترة التي أعقبت اعلان مشروع روجرز اتبع حسين تكتيكا ذكيا في الاعداد للمواجهة الحاسمة : التعبئة المكثفة في صفوف الجيش والعشائـــر ، تطمين المقاومة اللفظي واعطاؤها ضمانات بالابقاء على حكومة عبد المنعم الرفاعـــي التي جاءت بعد احداث حزيران والتي كانت تضم في صفوفها بعض العناصر المحسوبة على الحركة الوطنية ، استنزاف قوى المقاومة تدريجيا في افتعال معارك متفرقة بدأت في ١٩٧٠/٨/٢٨، التركيز على محاولة شق حركة المقاومة برفع شعار المقاومة الشريفة ، « فالمقاومة الشريفة والجيش هما هدف المؤامرة الحقيقي ... ومن العناصر الشريفة في المقاومة بالذات منظمة التحرير الفلسطينية وفتح اللتان لمسنا منهما حرصا علـــى المصلحة الواحـــدة والتخوف على المصير »(١٢٣). ويلخص خطاب القاه حسين في ١٩٧٠/٧/٢٩ الخطوط الاعلامية ـــ التعبوية التي ارساها لحملته : « المقاومة الشريفة تمثل حقيقة الارادة الوطنية الكامنة في شعبنا...وشهد الله ان هذه المقاومة التي ترعرعت ونمت وازدهرت في رحابنا وبذلنا معها ومن أجلها كل غال ورخيص قد تجسدت في نفوسنا وضمائرنا ... واننا لنأسف ونأسى حين نقرأ في صحائفها ونشاهد من بعض مظاهرها ما يشير الى ان هذه الحركة تتوهم الصدام مع سلطة الدولة ... فاذا تحركت قواتنا المسلحة لاي سبب حول العاصمة او عند المدينة او القرية صورت المقاومة لنفسها وللناس ان هذا التحرك يستهدفها ، كأنه ليس من حق الجيش ان يتحرك عند بلدته وفي جوار اهله وهو جيش الشعب ودرع الوطن وأمل الامة المكين وصاحب الحق في التحرك على كل ارضنا ... نؤثر ان لا نرد عليها ايمانا منا بأن سهمنا ان صابها فانما يصيب قوة نريدها نضالية نامية ومنا ولنا. ولو لم نكن موقنين بهذا الاعتبار لما رضينا للدولة أن تمس وللحكومة ان تجرح وللجيش ان يعاب وللشعب أن يرهب »(١٢٤). وعندما كانت قوات الجيش والاجهزة الخاصة ترتكب جرائمها بحق الشعب في اثناء معارك الاستنزاف التـــي ابتدأت اواخر شهر آب كان حسين يعلن « ان المقاومة ... موجودة على الساحة بملء ارادتنا وهي موضع تقديرنا ورعايتنا ... ولان المقاومة تنبثق من هذا الشعب وتنتمي اليه فلا مجال اذن للتفكير مطلقا في تصفية المقاومة ولن نفكر في ذلك ابدا »(١٢٥). وفي سياق «التطمين» كان حسين قد اعلن في خطاب سابق ثقته بحكومته برئاسة الرفاعي وبرئيس اركـــان الجيش ، مشهور حديثه ، الذي كان يعتبر ايضا صديقا للمقاومة : « انني وقد حملت الحكومة مسؤولياتها فان لي كامل الثقة والتقدير بمجلس الوزراء ، رئيسه واعضائه ،

كما ان لي كامل الاعتماد على رئيس اركان قواتنا المسلحة وقدرته مع اعوانه على حمل المسؤوليات الموكولة اليه ، وكذلك طلبت من الوزارة ان تتصل باللجنة المركزية لقيادة حركة المقاومة لتقوم من جانبها بضبط الامور بين فصائلها بحيث تستطيع الحكومة بالجهد المشترك مع قيادة المقاومة ان تمنع اية حركة استفزازية وان تسيطر على الفتنة وتضمن الامن والسلامة العامة »(١٢٦).

نضجت حملة التعبئة في منتصف أيلول واستكمل الملك ادوات المواجهة ، وهو نفسه يكشف هذا الامر لصحيفة « الفيجارو » الفرنسية قبل يوم واحد من تشكيل الحكومة العسكرية التي وضعها حسين واجهة للصدام في مجازر أيلول . فقد ذكر الملك لهذه الصحيفة بعد تفقده لوحدات من الفرقة المدرعة الاولى التي تحيط بعمان انه « تبين لي ان صبرها قد نفد . ان الجيش الاردني صبر كثيرا وهو غير معتاد على تلقي الاهانة ، كما انه لم يعتد ان يمس به احد او ان يستنفر من دون انقطاع . على الفدائيين احترام الاتفاقات التي يعقدونها مع الحكومة والا فعليهم تحمل النتائج »(١٢٧). وقال حسين في هذه المقابلة الصحافية انه في اثناء تفقده احدى الوحدات رأى ضابطا يعلق ضفيرة على هوائي دبابته ، وعندما سأله عن ذلك اجاب الضابط لاننا نساء ، واضاف حسين ان السكان المحليين في عدد من الاماكن قد اخذوا امر مطاردة الفلسطينيين على عاتقهم لاعادتهم الى مخيماتهم(١٢٨). وكان ذلك ايذانا ببدء المواجهة الشاملة التي كان موقفه فيها هو ما صرح به لاريك رولو مراسل صحيفة « لوموند » في قصر الحمر اثناء المعارك نفسها : « لا اريد ان اسمع شيئا اكثر عن اللجنة المركزية ولا عن منظمات الفدائيين »(١٢٩).

بعد ايلول لم يعد حسين حريصا على اخفاء معاداته لحركة المقاومة ، وفي رسالة وجهها الى وصفي التل ، رئيس وزرائه ، قبل معارك الاحراج وتمهيدا لها قال : « اننا نحب ان تكون وقفتنا في وجههم [الفدائيين] حازمة حاسمة باسلة ، لا مكان للتردد ولا للتسامح والتسويات »(١٣٠). وقد مهد حسين لمجزرة الاحراج بحملة اعلامية شارك هو شخصيا فيها . ففي رسالة وجهها الى الدكتور محمد الفحام ، شيخ الازهر ورئيس مؤتمر البحوث الاسلامية الذي انعقد في القاهرة في اذار ١٩٧١ ، كتب يقول : « ان جماعة ممن حجب الله عنهم هداه فضلوا السبيل قد انتحلوا عمل الفداء فأساؤوا الى سمعة العمل الفدائي الشريف وعاثوا في هذا البلد يروعون الاطفال والنساء وينتهكون حرمة المساكن ويقلقون راحة المواطنين الآمنين ويهدمون اقتصاد البلد . ولم يكتفوا بذلك بل راحوا يعتدون على جنود الجيش العربي ومخافر الامن وهم الذين نذروا انفسهم لله والوطن »(١٣١). وقد استمرت الحملة التعبوية بعد مجزرة الاحراج التي كان حسين يصفها بأنها « عملية امنية »(١٣٢)، وتلقي الرسالة التي وجهها حسين الى جلال السيد ، السياسي السوري المنفي في لبنان ، جوابا على رسالة مفتوحة وجهها السيد الى حسين في صحيفة « النهار » ، تلقي هذه الرسالة اضواء على مرتكزات هذه الحملة التي قادها الملك ضد المقاومة . كتب حسين : « واخذت موجات التذمر والشكوى تتدافع علي موجة بعد اخرى ، ولعله لا يخطر ببالك ان يكون منها مثلا عجز الجندي عن الوصول الى بيته لشهر او شهرين ، او اضطرار الضابط الى مغادرة معسكره متنكرا بملابس مدنية ، او توقف مصنع بكامله عن العمل لاستحالة وصول عماله وفنييه اليه ، او انقطاع الدراسة في عشرات المدارس ومئاتها ... او تحلل الاجهزة الحكومية وانعدام نشاطها ... او شلل الحركة التجارية والاقتصادية ... توالت موجات الانحراف على المسيرة الفدائية التي ضلت الكثرة الكاثرة عن الطريق واصبح الزمام كل الزمام في يد فئة مدسوسة على الفداء وانتقلت السلطة كل السلطة الى يد مجموعة من المنحرفين العملاء . وايقنت ان الجيش قد فقد ثقته بي او يكاد واحسست ان الشعب قد هجر وطنه وتشرد في المشارق والمغارب »(١٣٣). وقد نشط حسين في حملته التعبوية بالزيارات

التي كان يقوم بها الى قطعات الجيش الاردني بهدف تثبيت « الانتصار » الذي حققه جنده . ففي زيارة له للفرقة الرابعة خطب قائلا « الجميع مدين لقواتنا المسلحة حيث اصبح المواطن امينا على نفسه وبيته ورزقه واولاده ... اما ان تكون المقاومة في عمان في المدن والقرى تتعرض لكرامات المواطنين ، للمزارعين ، للجنود ، مقاومة تحرق المحاصيل ، هذه ليست مقاومة ويجب ان نتصدى لها جميعا لانها تعمل على تنفيذ مخطط العدو ... ولن نسمح باعادتها على ارضنا »(١٣٤) . حتى في اثناء محادثات جدة كان حسين يؤكد هذا المعنى ، ففي كلمة القاها في احدى الوحدات العسكرية قال « ان الارض مفتوحة لاي قوة عربية تتواجد عليها اذا كانت بامرنا وكانت جزءا من قواتنا ... هناك استحالة مطلقة في ان نسمح ولو بجزء بسيط من الصورة البشعة التي كانت هنا ان تعود »(١٣٥) ويعطي لقواته العسكرية (في تخريج دفعة من الكلية العسكرية) عهدا بـ « ان الذي انتهى في بلدنا ايها الاخوة لن يرجع ولن يعود ، ذلك عهدي لكم ، وللقوات الباسلة »(١٣٦) ويعتبر ان الذي « حققه » جيشه معجزة ، فيقول في مواقع الفرقة الاولى: « بفضل الوعي والتصميم تحققت معجزة ... وبتصور بأنه كل مواطن في هذا البلد الصامد بالتالي يدين الى كل واحد منكم لما قدمتم وبذلتم ... اكبر من معجزة تحققت في هذا البلد ، كوننا على حق من جهة وقبل كل شيء توفيق الباري عز وجل ومن جهة ثانية ما قدمتموه جميعا ، رجولة واخلاص ووعي وايمان . عاد الهدوء والاستقرار الان ... والكل مدين لكم جميعا »(١٣٧) . وحسين يحرص في اثناء ذلك كله على نقل هذه الصورة ، صورة « ان كل شيء قد انتهى وان هذه هي النهاية »(١٣٨) الى الرأي العام في الخارج لاقناعه بأنه مسيطر على الوضع وقادر على التصرف . ففي حديث ادلى به لمجلة « لوي » الفرنسية اكد حسين أنه « لا يوجد مكان لهم في مدننا بين نسائنا واطفالنا وفي مصانعنا وقرانا وغاباتنا ولم تعد توجد مواقع للفدائيين هنا في الضفة الشرقية او ايه قواعد »(١٣٩) .

ان هذا التطمين الذي يصر عليه حسين تفصيلا من خلال نفي الوجود الفدائي في كل مكان واي مكان في الاردن يدرك مغزاه ومراميه بالاقتران مع موضوعة تمثيل الشعب الفلسطيني التي برزت في هذه المرحلة بروزا واضحا وملحا . وقد كان بروز هذه الموضوعة مترافقا مع التلويح بامكان التسوية التي تفترض وجود طرف مفاوض ومساوم قادر على تقديم التنازلات . لذلك رفض حسين ان تكون المقاومة الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني « ووصف قول الفدائيين الفلسطينيين بانهم المتحدثون الشرعيون باسم الشعب الفلسطيني بأنه سخيف »(١٤٠)، وعلى الرغم من ان اتفاق عمان في ١٣/١٠/١٩٧٠ يؤكد ان الثورة الفلسطينية تمثل الشعب الفلسطيني الا ان الملك ينقض ذلك فيما بعد ويقول « نحن اعترفنا للقيادات الفدائية بحقها في السلطة على افراد المقاومة لا على الناس كلهم في عمان »(١٤١) . وهو كبديل لذلك يطرح نفسه ونظامه ممثلين للشعب الفلسطيني ، وقد اخذ هذا الموقف بالتبلور بشكل حاسم في الايام التي اعقبت مشروع روجرز وسبقت مجزرة ايلول ، وهو في طرح نفسه ممثلا للشعب الفلسطيني يقرن ذلك بموضوع التسوية . ففي مقابلة اجرتها معه صحيفة « لوموند » قال جوابا على سؤال حول قرار اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني (اواخر اب ١٩٧٠) يدين اي شخص يدعي حق التكلم باسم الفلسطينيين : « ان حكومتي في الوقت الحاضر هي وحدها التي يحق لها التكلم بالنيابة عن الفلسطينيين . والشعب الفلسطيني ينتمي الى الاسرة الكبيرة التي احكمها » وعندما سئل عن الموقف الذي سيتخذه من المنظمات الفلسطينية التي تعارض الحل السلمي اجاب « ان من المؤكد ان عدد المتطرفين سيقل تدريجيا كلما اقتربنا من حل وسنعمل ضد جميع الذين سيعرضون وحدة أمتنا او وجودنا للخطر »(١٤٢) . وقد استعرت دعوى الملك بتمثيل الفلسطينيين ورفضه ان تكون المقاومة ممثلة للشعب الفلسطيني بعد معارك الاحراج وبعد ان استفرد حسين بالوضع في

الساحة الاردنية . ففي رسالة وجهها الى العقيد معمر القذافي في تموز ١٩٧١ اثر دعوة الزعيم الليبي الى عقد مؤتمر قمة عربي كتب حسين: «كل خطوة تتم بتكريس اي جهة من الجهات كصاحبة الحق في تقرير ذلك المصير نيابة عن الشعب الفلسطيني هي خطوة خاطئة لا يرضى بها الشعب الفلسطيني نفسه . فالشعب الفلسطيني في حاجة لمن يعينه على تحرير ارضه وليس بحاجة لمن يتكلم باسمه رغما عنه . وان اكثرية ذلك الشعب تعيش في الاردن . فهناك الاهل في الارض المحتلة ولهم قبل غيرهم ان يختاروا ويقرروا بعيدا عن اية غوغائية او تسلط او ارهاب »(١٤٣) .

ويلاحظ انه بدأت في هذه الفترة بالذات حملة لتأكيد « حق » سكان الضفة الغربية بتمثيل الفلسطينيين . وهذا التأكيد يمكن فهمه من منطلقين : الاول تجريد المقاومة الفلسطينية من حقها بتمثيل الشعب الفلسطيني وتجيير هذا الحق الى جهة لا تؤهلها ظروفها تحت الاحتلال على ادعاء هذا الحق وبالتالي فان الوضع القانوني للضفة الغربية باعتبارها جزءا من المملكة الاردنية يجعل السلطة السياسية في عمان وهي المعترف بها دوليا هي صاحبة الحق في الادلاء برأيها في اية تسوية ممكنة . والمنطلق الثاني ان وجهاء الضفة الغربية وكبار تجارها ورؤساء بلدياتها الذين ترعرعوا في احضان النظام الهاشمي قبل الاحتلال وارتبطت مصالحهم الاقتصادية بهذا النظام عبر الجسور المفتوحة بعد الاحتلال كانوا مخاطبين بهذا الاتجاه الملكي الرامي الى ابراز « حق » سكان الضفة الغربية في تمثيل الشعب الفلسطيني . وهذه الفئة ، بحكم ارتباط مصالحها مع النظام الحاكم في عمان ، لن تكون من الجهة الاولى بقادرة على الخروج على ارادة النظام ، كما انها بحكم مواقعها الطبقية سوف تكون ، من الجهة الاخرى ، مجرورة الى مواقع مساومة مع سلطات الاحتلال في أية تسوية تصفوية وهو ما يتماشى مع اتجاه حسين وينسجم مع سياسته . من هنا كان تأكيد حسين : « ان سكان الضفة الغربية هم احق في التحدث باسم الشعب الفلسطيني من السادة الذين يجتمعون في دمشق وبيروت والقاهرة»(١٤٤) . وعندما سئل حسين في مقابلة صحافية عن حق (م ت ف) في تمثيل الشعب الفلسطيني اجاب « ان خلف اسوار الاحتلال شعبنا واهلنا واخواننا . قد يكون عندهم اكثر من مدرسة فكرية وقد يرضون بأن يمثلهم فلسطينيو الخارج او لا يرضون »(١٤٥) . وبالتأكيد فان هذه « المدرسة الفكرية » التي يشير اليها حسين ليست معنية ابدا بالتعبير عن ارادة الشعب الفلسطيني في تحرير وطنه ، وانما هي تلك المرشحة لتمرير اية تسوية . يقول حسين في مقابلة صحافية اخرى : « في جدة اختلفنا حول من يمثل فلسطين . نحن عندما نقول بأن الذي يمثل فلسطين هو ياسر عرفات او جورج حبش ، النتيجة ان اخواننا في الضفة الغربية والتي هي جزء من تسوية سلمية قد لا يعجبهم ذلك . اخواننا هناك ربما شكلوا تنظيما اخر وربما قالوا باننا احق بتمثيل فلسطين من غيرنا »(١٤٦) .

ان دعوى الملك بحقه في تمثيل الشعب الفلسطيني وضعه على عتبة التسوية الشاملة وجعلته في وضع الاستعداد لتنفيذها في حال موافقة اسرائيل عليها . وتبرز اقوال حسين ابعاد توجهه نحو هذه التسوية التصفوية وفهمه لها ولآفاقها . وهذا التوجه يقوم على الاسس التالية : ● التسليم بالوجود الاسرائيلي على الارض الفلسطينية . ● اقامة علاقات « حسن جوار » كمرحلة اولى وتمهيدية مع اسرائيل في ظل « الامر الواقع » . ● الدخول في محادثات ثنائية ومباشرة مع اسرائيل تنهي حالة الحرب وتؤدي الى عقد صلح معها . ● تصفية قضية الشعب الفلسطيني عن طريق اغرائه ورشوته باقليم فلسطيني في « المملكة العربية المتحدة » . والنماذج التالية من اقوال حسين تسند هذا التصور . في مقابلة نشرت في مجلة « اسبرسو » الايطالية وصحيفة « معاريف » الاسرائيلية في وقت واحد يوم ١٩٧٢/١/٢٨ قال حسين « انه يقر بأن اسرائيل عامل دائم في حقائق الشرق الاوسط وقد قبلنا ذلك عندما قبلنا قرار مجلس الامن الدولي في ١٩٦٧/١١/٢٢ »(١٤٧) . وفي مقابلة صحافية اخرى سئل حسين : في قرار مجلس الامن

اعتراف بوجود اسرائيل فهل يجدي من الناحية القومية اجراء مفاوضات مباشرة معها ؟ وقد اجاب : « هذا هو رأي الدول الكبرى . في الخرطوم كان رأيي ورأي المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر عدم التقيد بذلك الشعار الذي قال لا صلح ولا مفاوضات ولا اعتراف باسرائيل . كنا نقول اتركوا الامر معلقا طالما ان خططنا البحث عن وسيلة سلمية لاستعادة ارضنا ، طالما اننا غير مستعدين عسكريا ، ولكن الاكثرية رفضت ذلك وصدر قرار لا صلح ولا مفاوضات ولا اعتراف ... ولم يكن معروفا بالنسبة لقرار مجلس الامن ولا للمبادرة [مبادرة روجرز] كيفية الانسحاب . أما أسلوب تطبيق الاتفاق فليس مهما ان يكون بمحادثات غير مباشرة او مباشرة »(١٤٨). وكان حسين قد اعلن « انه سيكون على استعداد للبحث في امكان التوصل الى اتفاق ثنائي مع اسرائيل اذا ما قدمت اسرائيل اقتراحا واضحا لذلك كما انه ليس خائفا من معالجة القضية وحده مع الاسرائيليين »(١٤٩). وفي مقابلة اخرى اجرتها معه « لوموند »(١٥٠) قال « اننا مستعدون لعقد سلام شامل مع كل ما يترتب على ذلك من مضاعفات من خلال مفاوضات مباشرة مع الحكومة الاسرائيلية » . وقال انه مستعد لان يدرس برنامجا زمنيا للانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية للاردن اذا وافقت اسرائيل على مبدأ الانسحاب كما انه مستعد لاجراء تعديلات طفيفة في الحدود . وذكر الملك « ان افضل ضمان لامن دولة من الدول هو اقامة علاقات حسن جوار مع الدول الاخرى»، وأوضح « كنت منذ البداية من انصار السلام ولم أومن يوما بالحرب كوسيلة لحل المشاكل الدولية » . وقال انه هو صاحب سياسة الجسور المفتوحة بين ضفتي الاردن . وقد أكد حسين سياسة « حسن الجوار » بينه وبين اسرائيل في اكثر من مناسبة ، ففي مقابلة صحافية(١٥١) دافع عن هذه السياسة التي قامت منذ حرب حزيران بين الاردن واسرائيل والتي كانت قبل الان « عدوها اللدود » واشار الى التجارة الكبيرة المتبادلة بين السكان العرب على جانبي « الحدود » وقال ان ما فعله في هذا الصدد « مجرد شيء طبيعي وعادي » . وفي مقابلة صحافية أخرى(١٥٢) « اعترف بوجود مشاريع في طور التنفيذ للسماح بالسياح بالمرور بحرية بين الاردن واسرائيل . كما يبدو ان ثمة تجارة نامية بينهما . وعندما سئل عما اذا كانت هذه التجارة تعتبر سيئة في ظل غياب معاهدة سلام ، اعطى حسين جوابا براجماتيا ، فقد تساءل ببساطة « هل هو امر سيء ان نبيع منتوجاتنا ؟ » وعندما سئل اذا كانت اسرائيل والاردن تنحوان نحو سلام بالامر الواقع ، اجاب حسين ان الزمن سيخبر بذلك » .

استتبعت هذه التوجهات نحو الاعتراف باسرائيل وعلاقات حسن الجوار معها استبعاد فكرة الحرب نهائيا . وقد انهالت تصريحات الملك الداعية الى رفض الحرب بعد تصفية الوجود الفدائي في الاردن اثر معارك الاحراج في تموز ١٩٧١ . ففي مقابلة اذاعية اذيعت في نيويورك قال الملك : « انه ليس له ان يجر العالم العربي الى حرب كما ان ليس لاي دولة عربية ان تفعل ذلك . وقال مذيع وهو يقدم جزءا من المقابلة ان الملك قال للمراسل انه اذا ذهبت مصر الى ما هو ابعد من الحديث عن الحرب فان حسين لن يساعد»(١٥٣). وبهذه المقابلة دخل المصطلح الملكي تعبير جديد هو « ان يجر الى الحرب » فقد كرر هذا التعبير في أكثر من مناسبة ، ففي مقابلة مع صحيفة « نيويورك تايمز » قال : « ان الدول العربية غير مستعدة لحرب مع اسرائيل وان الاردن بوجه خاص ليس مستعدا لان يجر الى مثل هذه الحرب »(١٥٤). كما اعلن لصحيفة واشنطن بوست « انه لن يدع احدا يجره الى حرب جديدة ضد اسرائيل لان كارثة كتلك التي وقعت في حزيران ١٩٦٧ تعني دمار العالم العربي »(١٥٥). كذلك استبعد حسين في تصريح له لصحيفة « دي فيلت » بصورة عملية امكانية اشتراك الاردن في حرب مع اسرائيل وقال لن انسى درس العام ١٩٦٧ حتى نهاية حياتي »(١٥٦).

اما بالنسبة لمشروع « المملكة العربية المتحدة » الذي يعتبر الحلقة الاخيرة في استراتيجية

التصفية الهاشمية فان حسين يريده بديلا عن تحرير كامل التراب الفلسطيني وهو الهدف الاستراتيجي لحركة المقاومة ، وبالاضافة الى ذلك فقد جاء المشروع لمواجهة التطلعات الفلسطينية لتأكيد الشخصية الفلسطينية وحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وامتصاص هذه التطلعات وشقها وتحويلها عن مجراها الطبيعي . وقد جاء في خطاب العرش الذي القاه حسين في ١٩٧٢/١١/١ اي بعد اعلان المشروع بعدة اشهر (اعلن المشروع في ١٩٧٢/٣/١٥) ما يلي : « بوحي من مصلحة القضية التي يجيش بها ضميرنا وحفاظا على المعطيات الاساسية لوحدة شعبنا وبلدنا وحرصا على الشخصية الفلسطينية التي تعاورتها الانواء وتقاذفتها التيارات المتصارعة ووفاء لطموحات الانسان الفلسطيني وتطلعاته، وتلبية للحاجات التي يمليها بناء الدولة على اسس راسخة وحديثة ... فقد اعلنا في اذار المنصرم مشروعنا لاقامة المملكة العربية المتحدة »(١٥٧). وحسين عندما طرح المشروع كان يراهن على ان يجد صدى لدى وجهاء الضفة الغربية وقطاع غزة من خلال ارتباط مصالحهم بالنظام الهاشمي عبر الجسور المفتوحة . ففي مقابلة مع تلفزيون هيئة الاذاعة البريطانية عرضت في لندن قال حسين انه متأكد من ان الفلسطينيين سيؤيدون مشروعه لاقامة مملكة عربية متحدة تضم ضفتي الاردن وعندما سئل عن السبب الذي يجعله يعتقد ان اغلبية الفلسطينيين ستؤيد المشروع قال ان ايمانه هذا ناجم عن ان الغالبية العظمى من الفلسطينيين موجودة في الارض المحتلة والحكومة الاردنية على اتصال وثيق بهم طول الوقت(١٥٨). ومن الواضح ان اتصالات الحكومة الاردنية تتم في حالة حدوث ذلك مع تلك الرموز التي ارتبطت مصالحها بمصالح النظام . ومن استعراض اقوال حسين نلمح ان مشروعه (الذي جاء نسخة منقحة عن مشروع ايجال الون) سيضم بالاضافة الى الضفة الشرقية اجزاء من الضفة الغربية في حال انسحاب اسرائيل من بعضها بموجب مفاوضات مباشرة وثنائية وهو ما عبر حسين عنه « باجراء تعديلات على الحدود تشمل شوارع وقرى وخطوطا غير مقبولة يستطيع المرء ان يتفاوض بشأنها »(١٥٩). كما ان قطاع غزة يقع ضمن اطماع المشروع : « فوضع غزة كوضع الضفة الغربية ... ونحن لا نميز بين غزة والضفة الغربية وبين الضفة الغربية والضفة الشرقية ... وقطاع غزة وشعبه منا ولنا »(١٦٠). كما اعلن حسين « ان مشروع المملكة المتحدة لقي قبولا في الضفة الغربية وفي قطاع غزة لانه يعكس اماني الشعب حيث يمنحهم حق تقرير المصير »(١٦١). وقد استعان حسين بانصاره في القطاع المستفيدين بتجارتهم من وجوده لتأكيد تطلعه نحو قطاع غزة . ففي زيارة قام بها رشاد الشوا ، رئيس بلدية غزة السابق ، الى عمان على رأس وفد للتعزية بوفاة الملك طلال ، ادلى بتصريح قال فيه « ان اهالي القطاع يعتبرون جلالة الحسين رمزا للاخوة العربية وان الحاق قطاع غزة بالضفة الغربية المحتلة وضمه الى مشروع المملكة العربية المتحدة الذي اقترحه جلالة الحسين افضل من استيلاء اسرائيل عليه »(١٦٢).

●

ان سياسة حسين الفلسطينية ان اختلفت في مظاهرها ، فهي في جوهرها ودوافعها ومراميها ظلت منسجمة مع الدور التاريخي الذي مثلته « الهاشمية » على مسرح المنطقة العربية : اجهاض اي ارادة تحررية والمساومة عليها ، وهو دور جسدته مسيرة حسين كلها بتعرجاتها المختلفة لكن التي ينتظمها شامل واحد هو معاداة الارادة الفلسطينية وتصفية قضيتها وانهاء وجود الشعب نفسه .

---

١ ــ مجلة « **اخر ساعة** » القاهرية ١٣/٨/٦٩.
٢ ــ صحيفة « **التايمز** » اللندنية ٢/١٢/١٩٦٨.
٣ ــ **المصدر نفسه** ١٦/١٢/١٩٦٨ .
٤ ــ انظر صحيفة « **النهار** » اللبنانية ٢٩/١/٧٢.
٥ ــ انظر صحيفة « **الاهرام** » القاهرية ٢٩/١/١٩٧٢ .

٦ ــ خطاب في تخريج دورة من ضباط الاركان ، نشرته صحيفة « **فلسطين** » الاردنية ١٢/٢٨/ ١٩٦٦ .

٧ ــ صحيفة « **الدستور** » الاردنية ١٩٦٧/٩/١ .

٨ ــ خطاب في القدس ، « **فلسطين** » ١/٢٦/ ١٩٦٧ .

٩ ــ صحيفة « **المنار** » الاردنية ١٩٦٤/٥/٢٦ .

١٠ ــ من خطاب وجهه الى سعد جمعة ، رئيس وزرائه ، عن الادب والفن ، نشرته «**الدستور**» ١٩٦٧/٩/١٤ .

١١ ــ المصدر المذكور في حاشية (٦) .

١٢ ــ رسالة الى وصفي التل ، رئيس وزرائه ، نشرتها صحيفة « **النهار** » ١٩٧١/٦/٣ .

١٣ ــ مجلة « **التايم** » الاميركية ١٩٧١/٧/٥ .

١٤ ــ صحيفة « **الجارديان** » البريطانية ١١/٢٢/ ١٩٧١ .

١٥ ــ صحيفة « **نيويورك تايمز** » الاميركية ١٩٧٠/٩/١٨ .

١٦ ــ انظر كمثال رسالة تكليف عبد المنعم الرفاعي ، نشرتها « **الدستور** » ١٩٧٠/٦/٢٨ .

١٧ ــ نشرتها « **النهار** » ١٩٦٦/١١/٢٠ .

١٨ ــ نشرتها « **النهار** » ١٩٧١/٦/٣ .

١٩ ــ في رسالة بعث بها الى بهجت التلهوني ، نشرتها « **الدستور** » ١٩٦٨/٩/١٤ .

٢٠ ــ صحيفة « **صنداي تليجراف** » البريطانية ١٩٦٨/١٠/٦ .

٢١ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٦٨/١٠/١٣ .

٢٢ ــ من خطاب القاه من الراديو ، نشرته « **الدستور** » ١٩٦٧/١٠/١٧ .

٢٣ ــ من رسالة وجهها الى زيد بن شاكر ، قائد سلاح المدرعات الاردني ، نشرتها «**الدستور**» ١٩٧٠/٥/٥ .

٢٤ ــ « **الدستور** » ١٩٧٠/٣/١ .

٢٥ ــ المصدر المذكور في حاشية (١٠) .

٢٦ ــ **المصدر نفسه** .

٢٧ ــ « **الدستور** » ١٩٦٩/٤/٣٠ .

٢٨ ــ اعادت نشر فقرات منها صحيفة « **اخبار فلسطين** » ١٩٦٧/٢/٦ .

٢٩ ــ انظر « **النهار** » ١٩٦٧/١١/٩ .

٣٠ ــ صحيفة « **الاوبزرفر** » البريطانية ٢/٢٨/ ١٩٧١ .

٣١ ــ مقابلة اجرتها صحيفة « **لوي** » الفرنسية في ١٩٧١/١١/٢٥ واعادت نشر فقرات منها صحيفة « **المحرر** » اللبنانية ١٩٧١/١١/٢٦ .

٣٢ ــ صحيفة « **الاكسبرس** » الفرنسية ٢/١٨/ ١٩٧٢ .

٣٣ ــ صحيفة « **السياسة** » الكويتية ٧٢/٢/٥ .

٣٤ ــ « **نيويورك تايمز** » ١٩٧٠/١٢/١٣ .

٣٥ ــ نقلا عن « **النهار** » ١٩٧١/٤/٢٨ .

٣٦ ــ نشرتها « **الدستور** » ١٩٦٨/٩/١٤ .

٣٧ ــ « **الصانداي تايمز** » ١٩٦٩/١/١٩ .

٣٨ ــ انظر « **النهار** » ١٩٧٠/١٢/١٢ .

٣٩ ــ انظر صحيفة « **انترناشينال هيرالد تريبون** » الاميركية ١٩٧٠/١٢/١٥ .

٤٠ ــ المصدر المذكور في حاشية (٣١) .

٤١ ــ **المصدر نفسه** .

٤٢ ــ « **نيويورك تايمز** » ١٩٦٨/٩/٢٤ .

٤٣ ــ انظر « **النهار** » ١٩٧٠/٣/٣ .

٤٤ ــ نقلت المقابلة « **الدستور** » ١٩٦٨/٧/١٠ .

٤٥ ــ مجلة « **التايم** » ١٩٦٩/٤/١٨ .

٤٦ ــ انظر « **النهار** » ١٩٦٩/٤/٢٩ .

٤٧ ــ « **الدستور** » ١٩٦٩/٤/٣٠ .

٤٨ ــ انظر « **الدستور** » ١٩٧٠/٥/٤ .

٤٩ ــ اوردتها « **النهار** » ١٩٧٠/٣/٣ .

٥٠ ــ وكالات الانباء العالمية ، انظر « **النهار** » ١٩٧٠/١٢/١١ .

٥١ ــ « **النهار** » ١٩٧٠/١٢/١٢ .

٥٢ ــ « **الدستور** » ١٩٧٢/٤/٣٠ .

٥٣ ــ من رسالة وجهها حسين الى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في ١٩٦٦/٧/١٤ ، نشرتها صحيفة « **الحياة** » اللبنانية ١١/١٦/ ١٩٦٦ .

٥٤ ــ من خطاب في الديوان الملكي بمناسبة عودته من مؤتمر القمة العربية الثالث في الدار البيضاء ، نشرته صحيفة « **الجهاد** » الاردنية ١٩٦٥/١٠/٥ .

٥٥ ــ خطاب بمناسبة ١٥ ايار ، نشرته «**الحياة**» ١٩٦٥/٥/١٤ .

٥٦ ــ صحيفة « **المنار** » الاردنية ١٩٦٦/١/٦ .

٥٧ ــ المصدر المصدر المذكور في حاشية (٥٣) .

٥٨ ــ **المصدر نفسه** .

٥٩ ــ المصدر المذكور في حاشيته (٥٦) .

٦٠ ــ مؤتمر صحافي في ١٩٦٦/١١/٢٩ ، « **الحياة** » ١٩٦٦/١١/٣٠ .

٦١ ــ الصحف الاردنية ١٩٦٦/٦/١٥ .

٦٢ ــ من خطاب القاه في احتفال جرى في ١٢/

١٩٦٦/١٢ لتخريج دورة من مرشحي الضباط ، الصحف الاردنية ١٩٦٦/١٢/١٣ .

٦٣ ــ مقابلة مع مجلة « **يو أس نيوز اند وورلد ريبورت** » الاميركية ١٩٦٦/١٢/١٩ .

٦٤ ــ المصدر المذكور في حاشية (٥٦) .

٦٥ ــ خطاب في خريجي الجامعة الاردنية ، نشرته « **الجهاد** » ١٩٦٦/٦/٣٠ .

٦٦ ــ خطاب في « وفود امت الديوان الملكي » ، صحيفة « **الدفاع** » الاردنية ١٩٦٦/٦/٢٢ .

٦٧ ــ نشرتها « **النهار** » ١٩٦٦/١١/٢٠ .

٦٨ ــ « **الحياة** » ١٩٦٦/١١/٢٤ .

٦٩ ــ المصدر المذكور في حاشية (٥٤) .

٧٠ ــ « **الحياة** » ١٩٦٦/١١/٢٦ .

٧١ ــ المصدر المذكور في حاشية (٥٤) .

٧٢ ــ مقابلة مع صحيفة « **لو موند** » الفرنسية ١٩٦٦/١١/٢٥ .

٧٣ ــ « **الاهرام** » ١٩٦٧/١/٢٧ .

٧٤ ــ « **الجهاد** » ١٩٦٤/٩/٣ .

٧٥ ــ خطاب في الديوان الملكي ، « **الجهاد** » ١٩٦٥/١٠/٥ .

٧٦ ــ خطاب عجلون ١٩٦٦/٦/١٤ .

٧٧ ــ المصدر المذكور في حاشية (٦٣) .

٧٨ ــ « **الحياة** » ١٩٦٦/١١/٣٠ .

٧٩ ــ نشرته « **الحياة** » ١٩٦٦/١١/٣٠ .

٨٠ ــ « **الدستور** » ١٩٦٧/٩/٥ .

٨١ ــ « **الدستور** » ١٩٦٧/١٠/٣ .

٨٢ ــ نقلته صحيفة « **الانوار** » اللبنانية ١٩٦٧/٩/١٧ .

٨٣ ــ « **الدستور** » ١٩٦٨/٢/١٨ .

٨٤ ــ في مؤتمر صحافي عقده ناصر بن جميل ، خال الملك ، في عمان قال انه « بعد قول جلالة الملك المعظم انه هو الفدائي الاول فان كل فرد في هذا البلد هو فدائي منتظم » ، « **الدستور** » ١٩٦٩/٧/١ .

٨٥ ــ « **الاهرام** » ١٩٦٨/٣/٢٢ .

٨٦ ــ « **الدستور** » ١٩٦٨/٣/٢٤ .

٨٧ ــ انظر كمثال رسالة وجهها حسين من الراديو ونشرتها « **الدستور** » ١٩٦٨/١١/٥ ، كذلك خطاب في اجتماع ترأسه حسين وحضره كبار رجال الدولة ، اوردته « الدستور » ١٩٦٨/١١/٧ .

٨٨ ــ « **الدستور** » ١٩٦٨/١٢/٢٠ .

٨٩ ــ « **الدستور** » ١٩٧٠/٥/٥ .

٩٠ ــ المصدر المذكور في حاشية (٨٦) .

٩١ ــ مقابلة مع التلفزيون الاردني ، نشرتها « **الحياة** » ١٩٦٨/١١/١ .

٩٢ ــ مقابلة مع التلفزيون اللبناني ، نشرتها « **الدستور** » ١٩٦٩/٣/١٤ .

٩٣ ــ « **الدستور** » ١٩٦٨/٩/١٤ .

٩٤ ــ « **الدستور** » ١٩٦٩/١١/٢ .

٩٥ ــ مؤتمر صحافي اثر ازمة شباط ١٩٧٠ ، « **الدستور** » ١٩٧٠/٢/١٥ .

٩٦ ــ في خطاب في القصر ، « **الدستور** » ١٩٦٨/١١/٧ .

٩٧ ــ « **الصنداي تليجراف** » ١٩٦٨/١٠/٦ .

٩٨ ــ **المصدر نفسه** ١٩٦٨/١٠/١٣ .

٩٩ ــ « **النهار** » ١٩٦٩/٣/١ .

١٠٠ ــ « **النهار** » ١٩٦٩/٤/٢٩ .

١٠١ ــ مؤتمر صحافي في عمان ، « **الدستور** » ١٩٦٨/١١/٧ .

١٠٢ ــ نقلتها « **الدستور** » ١٩٦٩/١٠/١٢ .

١٠٣ ــ نقلتها « **النهار** » ١٩٧٠/٤/٣ عن صحيفة « **توربيو** » الايطالية ١٩٧٠/٤/٢ .

١٠٤ ــ « **النهار** » ١٩٦٩/٣/١ .

١٠٥ ــ « **المحرر** » ١٩٦٩/٤/١٢ .

١٠٦ ــ « **نيويورك تايمز** » ١٩٦٩/٤/١٨ .

١٠٧ ــ « **التايم** » ١٩٦٩/٤/١٨ .

١٠٨ ــ مقابلة مع تلفزيون هيئة الاذاعة البريطانية في ١٩٦٩/١/١٣ ، نشرت اجزاء منها « **النهار** » ١٩٦٩/١/١٤ .

١٠٩ ــ « **الدستور** » ١٩٦٨/٩/١٤ .

١١٠ ــ خطاب العرش في مجلس الامة في ١٩٦٩/١١/١ ، نشرته « **الدستور** » ١٩٦٩/١١/٢ .

١١١ ــ نشرتها « **الدستور** » ١٩٦٨/١١/٥ .

١١٢ ــ انظر « **الدستور** » ١٩٦٨/١١/٧ .

١١٣ ــ **المصدر نفسه** .

١١٤ ــ اوردته « **الدستور** » ١٩٧٠/٢/١٥ .

١١٥ ــ انظر : خليل هندي واخرون ، **المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني** (مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧١) ، ص ٥٥ .

١١٦ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٦٠ .

١١٧ ــ مركز الابحاث ، **اليوميات الفلسطينية** ، المجلد الحادي عشر ، ص ٤٤٣ .

١١٨ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣١٨ .

١١٩ ــ « **النهار** » ١٩٧٠/٦/١٨ .

١٢٠ ــ نشرتها « **الحياة** » ١٩٧٠/٦/١٢ .

١٢١ ــ من رسالة وجهها حسين الى الرئيس العراقي احمد حسن البكر ، نشرتها صحيفة « **الانوار** » اللبنانية ١٩٧٠/٨/٥ .

١٢٢ ــ خطاب القاه من الاذاعة والتلفزيون في ١٩٧٠/٧/٢٩ ، نشرته صحيفة « **الدفاع** » الاردنية ١٩٧٠/٨/٣٠ .

١٢٣ ــ المصدر المذكور في حاشية (١١٩) .

١٢٤ ــ « **الدفاع** » ١٩٧٠/٨/٣٠ .

١٢٥ ــ خطاب اذيع من راديو عمان في ٩/٦/ ١٩٧٠ ، انظر « **النهار** » ١٩٧٠/٩/٧ .

١٢٦ ــ خطاب من الاذاعة ، « **الدفاع** » ٩/٤/ ١٩٧٠ .

١٢٧ ــ نقلا عن « **النهار** » ١٩٧٠/٩/١٦ .

١٢٨ ــ نقلا عن صحيفة « **دايلي ستار** » اللبنانية، ١٩٧٠/٩/١٦ .

١٢٩ ــ صحيفة « **لوموند ويكلي** » ١٩٧٠/٩/٣٠ .

١٣٠ ــ « **النهار** » ١٩٧٠/٦/٣ .

١٣١ ــ « **الحياة** » ١٩٧١/٣/٣١ .

١٣٢ ــ في رسالة وجهها حسين الى الملوك والرؤساء العرب اثر مجازر الاحراج نشرتها « **الدستور** » ١٩٧١/٧/٢٣ .

١٣٣ ــ « **النهار** » ١٩٧١/١٠/٢٦ .

١٣٤ ــ « **الدستور** » ١٩٧١/٨/٢٩ .

١٣٥ ــ « **الحياة** » ١٩٧١/٩/١٦ .

١٣٦ ــ « **النهار** » ١٩٧١/٩/٢٢ .

١٣٧ ــ « **الدستور** » ١٩٧١/٩/٢٦ .

١٣٨ ــ في مؤتمر صحافي عقده في وادي ابو الصوان في ١٩٧١/٧/١٧ ، « **الدستور** » ١٩٧١/٧/١٨ .

١٣٩ ــ نقلا عن « **المحرر** » ١٩٧١/١١/٢٦ .

١٤٠ ــ حديث لصحيفة « **ديرشتيرن** » الالمانية نقلته « **الحياة** » ١٩٧١/١٢/٢١ .

١٤١ ــ مقابلة مع مجلة « **الحوادث** » اللبنانية ١٩٧١/١١/٢٦ .

١٤٢ ــ نقلا عن « **النهار** » ١٩٧٠/٩/٩ .

١٤٣ ــ « **النهار** » ١٩٧١/٧/٣٠ .

١٤٤ ــ تصريح « **للوموند** » ١٩٧١/٨/١٠ ، نقلته « **النهار** » ١٩٧١/٨/١١ .

١٤٥ ــ « **الحوادث** » ١٩٧١/١١/٢٦ .

١٤٦ ــ مقابلة مع صحيفة « **السياسة** » الكويتية ١٩٧٠/٢/٥ .

١٤٧ ــ نقلا عن « **النهار** » ١٩٧٢/١/٢٩ .

١٤٨ ــ المصدر المذكور في حاشية (١٤٦) .

١٤٩ ــ مقابلة مع « **لوي** » نقلا عن « **المحرر** » ١٩٧١/١١/٢٦ .

١٥٠ ــ نقلا عن « **النهار** » و « **دايلي ستار** » ١٩٧٢/١١/٤ .

١٥١ ــ صحيفة « **دي فيلت** » نقلا عن « **المحرر** » ١٩٧٢/٦/٧ .

١٥٢ ــ « **انترناشينال هيرالد تريبيون** » ٤/١٧/ ١٩٧٢ .

١٥٣ ــ « **النهار** » ١٩٧١/١١/٢١ .

١٥٤ ــ انظر « **النهار** » ١٩٧١/١٢/١٣ .

١٥٥ ــ نقلا عن « **النهار** » ١٩٧٢/٤/١٨ .

١٥٦ ــ انظر « **المحرر** » ١٩٧٢/٦/٧ .

١٥٧ ــ « **الدستور** » ١٩٧٢/١١/٢ .

١٥٨ ــ « **الدستور** » ١٩٧٢/١١/١ .

١٥٩ ــ المصدر المذكور في حاشية (٣٥) .

١٦٠ ــ مقابلة مع « **النهار** » ١٩٧٢/٨/٢٤ .

٦١ ــ حديث لصحيفة « **اليفيتروس كوزموس** » اليونانية ، نقلا عن صحيفة « **بيروت** » اللبنانية ١٩٧٢/٧/٢ .

١٦٢ ــ تصريح لوكالة الانباء العراقية نشرته « **الدستور** » ١٩٧٢/٨/١٦ .

شاؤول تشرنحوفسكي : بين التمرد والاستسلام

د. عبد الوهاب م. المسيري

تتضح كل تناقضات الفكر الصهيوني في أشعار وكتابات الشاعر شاؤول تشرنحوفسكي الذي ولد في روسيا في ٢٠ أغسطس ١٨٧٥ ، وتعلم العبرية والروسية في طفولته ، وقرأ عديدا من الكتب الادبية العالمية،فمن بين قراءاته نجد قصص جول فيرن واسكندر دوماس والاليـاذة والاوديسة واشعار شللي ، جنبا الى جنب مع التلمود والكتب اليهودية القديمة . ودرس تشرنحوفسكي الطب في هايدلبرج في المانيـا ، حيث تزوج من سيدة روسية مسيحية من أصل ارستقراطي ، تقية ورعة متمسكة بأهداب دينها وتعاليمه . وبعد ذلك رحل تشرنحوفسكي الى سويسرا حيث مارس مهنته ، ومنها هاجر عام ١٩٣١ الى فلسطين ، واستقر فيها حتى حانت منيته عام ١٩٤٣ .

تشرنحوفسكي العلماني المتمرد

تتسم قراءات تشرنحوفسكي ، بل وحياته ، بضرب من الازدواجية العميقة التي تعبر عن نفسها في أدبه ، سواء من ناحية الشكل ام المضمون ، فأدبه أدب يهودي متمرد عـلى اليهودية في الوقت ذاته . فعلى سبيل المثال نجده ينصرف عن الاشكال الادبية العبرية ليقلد الاشكال الادبية الغربية من سوناتـا الى ملحمة الى خمريات انكارونية أغريقية ، بل انه ترجم كثيرا من الاشعـار الغربية الى العبريـة ، وهو مشهور كمترجم شهرته كشاعر . هذا من ناحية الشكـل ، أما من نـاحية المضمون فتمرده يظهر بشكل اجلى وأوضح ، فتشرنحوفسكي من أتبـاع الفيلسوف الصهيوني بريديشفسكي الذي نـادى بتخليص اليهودية من روحانيتها المتطرفة ، ومن تركيزها الزائد على البؤس والشقـاء والاستشهاد ، كما أنه نادى باعلاء قيم اخلاقية نيتشوية ، كـان يعدها البعض غـير يهودية ، مثل الفرح والقوة الجسدية والعدوانية ، وقد حاول تشرنحوفسكي ان يطـرح جانبا القيم اليهودية التقليدية التي تثقل كاهله . ففي قصيدة « اني أعتقد » ، على سبيل المثال ، يتغنى ببعث الانسان اليهودي الجديد ، وبالشعب اليهودي الـذي لا ينوء تحت نير الغيبيات الدينية .

شعبي هو الاخر سيزدهر ، وفوق الارض سيظهر نشء جديد .
سيلقى بالسلاسل التي تغل يديه ، وسيرى النور امام عينيه .
شعب يعيش ويحب ويعمل ويفعل ، يقينا انهم احياء على الارض .
وليس في العالم الاخر — لا يعيشون على الامل في السماء ولا يقرون عينا بالعقيدة الخاوية .

ويلقي تشرنحوفسكي بنفسه في أحضان الطبيعة لينسى يهوديته . والهرب الى الطبيعة له دلالة خاصة بالنسبة لليهود، اذ ان الديانة اليهودية من أكثر الديانات معاداة للطبيعة، فبؤرة الوجدان اليهودي عبر التاريخ كانت دائما وابدا القبيلة والجماعة ، واذا كـانت الشعوب الوثنية تعبد العناصر الطبيعية مثل الشمس والقمر والاشجار ، فقد كان على اليهود ان يؤكدوا استقلالهم عن طريق ابتعادهم كلية عن اي عبادة لتلك العناصر ، وبهذا

يكون من المنطقي لليهودي المتمرد على يهوديته ان يعود للطبيعة والوثنية القديمة ، وهذا هو ما فعله تشرنحوفسكي في كثير من تراجمه وقصائده . فهو قد ترجم الى العبرية عديدا من القصائد « الوثنية » مثل الالياذه والاوديسة ، كما انه عادة ما يشير في شعره الى آلهة وثنية مثل ابولو وادونيس . كما ان الشاعر يتخذ موقفا وثنيا اغريقيا في بعض قصائده مثل السونت رقم ١١ من سلسلة السونتات المعنونة « الى الشمس » :

أن قلبي ليحثني على ان أتغنى بالكواكب والشمس
هل ستنصبون من أنفسكم قضاة وتمرغونني في التراب
لانني لا أصب خمري لاله الجماهير
لا ولا أضع على رأسه الاكاليل ، راقصا مع الناس
لانه في معبده السماوي ، لا يتجسد في صورة ولا يظهر في كتاب
وهو يسري في جمال كل الاشياء التي تصدر عن الكل الكامل ، وملاكه السماوي لا يجيب على سؤال .
كما انه لم يأت قط ليظلم نور عيوني بكتاب الاسلاف المتغطرس
كتاب أمهرته بتوقيعي حسب شريعة القانون كميثاق غبي
ولكن ان مرت عليك موجات من الوحي المقدس
وسرت فيك رجفة الفرح اثناء الخلق النبوي
وان شعرت بغزارة حياة القلب تسري كل الاشياء الخفية

ان شعرت بكل هذا ، يقول الشاعر ، فلتعرف اذن أن اله الطبيعة قد تقبلك . وهو اله ، كما نرى ، يقف في مقابل الاله اليهودي القديم الذي يسن القوانين ويرسل بالكتب المتغطرسة التي ينوء اليهودي بحملها . ان هذه القصيدة تذكرنا بقول موسى هس ، الفيلسوف اليهودي ، ان الدين اليهودي مثل المصيبة التي لا يملك اليهودي الا ان يحملها . ولكن تشرنحوفسكي يفضل ان يهرب بكل جوارحه الى اله الطبيعة والى عالم الاغريق الوثني ، يقول في سوناتا رقم ١٣ :

يا آلهة العالم الذي اختفى امسكي بي ، انا لا املك الفرار
يا آلهة الامة التي تضفي الجمال على كل ما لمسته يداها .
أضحى الجمال حكمتها ، وحكمتها الجمال .
ان روعتك لتسقط مثل المطر على العالم السفلي وعلى المحيط .

وهو يتساءل في اخر هذه القصيدة :

أي السبل سأختار ، وأي الدروب سأسلك ؟
هل أصب زيتي للرب ، ام سأختار زيوس ؟

والتساؤل هنا خطابي ، فلقد اختار الشاعر طريق الجمال والفرح ، طريق اليونان والوثنية ، مخلفا وراءه تاريخ اليهود الطويل بكل مآسيه وآهاته ، فلقد قال الشاعر في السوناتا الاولى مخاطبا الشمس :

انني أنحني لك في صمت ، انني انحني في بهجة لاصلي لك
مثلي مثل سنبلة ذهبية في حقل قمح مترع بالحبوب .

ان كيانه وذاتيته اليهودية يذوبان تماما في هذا الكل الرائع ، او كما يقول في السوناتا الثامنة :

سأشدو في جوقة اللانهاية ، ولن أكف عن الشدو .
ففي قلبي يقطن الندى الذي لا يزال يتساقط فوق التلال .

والنماذج السابقة التي اقتبسناها يسري فيها تيار قوي للغاية من وحدة الوجود ، فالشاعر تبتلعه موجات الوحي المقدس التي تجري « في كل الاشياء الخفية » ، والشاعر

نفسه يصبح شيئا : « سنبلة ذهبية » في حقل كوني مترع بالحبوب ، وهو سيشدو في « جوقة اللانهايـــة » لان قلبه امتزج بالطبيعة ويتساقط عليه الندى . ان الهروب الى الطبيعة ، الى جانب انه هروب من الذات التاريخية المحددة ، هو أيضا هروب من العقل ومن التاريخ بل ومن الوعي سواء كان يهوديا ام انسانيا . يقول الشاعر في سلسلـــة أخرى من السوناتات تسمى « عن الدم » :

من الفخ الى الهاوية ، ومن الظلال الى الظلام نسقط ، مثل بقايا نيران خامدة .
نبارك بدنس لنستمد الوحي وبخفة نقني على العقل ... ذلك الضوء الزائف .
الذي ينيم ارواحنا حتى تنسى آلامها ينيمها بالفرح المترع ، وبموسيقى القيثار ،
وبالحدود والقواعد والقوانين نصل الى نظريات متحضرة ، معقدة ولا حياة فيها .
فلنكن مثل الاطفال الصغار مرة اخرى
مثل قطرة في الفيضان ، أو تنهدات المروج ،
لا بحث ، ولا هدف ، ولا قاعدة ، ولا طغيان ،
مثلما كنا في الايام القديمة ، قبل ان نتحكم
في الارض والضياء ، قبل ان نصيب الحكمة ،
وقبل ان يرهقنا الانبياء .

ان العودة للطبيعة هي عودة للبراءة المطلقة ، براءة تجعل من الانسان طفلا ، بل قطرة في اللانهاية السائلة ، لا تمارس اي احساس بالذنب او بالتاريخ ولا تشعر بأي حدود .

تشرنحوفسكي اليهودي القبلي

ولكن ثمة نبرة يهوديـــة متميزة في شعر تشرنحوفسكي تختلف اختلافـــا بينا عن النبرة المتمردة « العلمانية » الوثنية ، ففي قصيدة « في احلامي » نجد انه يستخدم الاشكـــال الشعرية العبرية القديمة ، فالقصيدة هي اساسا نواح من أجل العودة الى صهيون ، وهذا موضوع تقليدي كتب عنه الشعراء العبريون منذ العصور الوسطى حتى منتصف القرن العشرين . في هذه القصيدة يسمع الشاعر في احد أحلامه بلبلا يصدح في سكون الليل في فلسطين . أن الطائر يتغنى بالشعب الذي كان يقطن يوما ما هذه الارض ولكنه الان يجوب في أطراف الارض ومسالكها ، ويغمر الحزن قلب الشاعر ، بل ان البراعم والازهار والنخيل واشجار الزيتون تحزن هي الاخرى لشدو الطائر الحزين .

واحساس اليهودي بأنه منفصل عن الجوييم ، عدو لهم ، يتضح في قصيدة « فليكن هذا هو ثأرنا » : يقول الشاعر في القصيدة ان اضطهاد الجوييم لليهود سيملؤهم بالدنس ، وسيفقدهم طهارتهم ، اذ « أن دم اليهود سيتخلل كيانهم حتى يسمم أساس وجـــودهم ذاته» ، والقصيدة تجسيد لحقد مسموم لا يمكن لاي انسان سوي فهمه او معرفة كنهه . وهي تعبير عن احساس بالالم لا يزيد صاحبه انسانية ، بـــل يعمق من كرهه وحقده ، ولعل هذه الابيات توضح للقارىء بشكل ملموس تعميماتنا النقدية :

سيأتي اليوم (الذي تفقد فيه ايها المضطهد طهارتك) وتغرس حد سكينك في عنق أخيك ، ابن امك ،
كأنك تذبح خنزيرك المفضل
في عيد القيام ، في الفناء او في ميدان القرية ،
وستكون رنين انات موته مثل الموسيقى
أو المهرجان في اذنيك المتلهفتين .
يـــا يوم الثأر !
يوم ينتف ابنك شعر ذقنك التي علاها الشيب ،
ويرفع في وجهك قبضته الصلبة مهددا ،
وسيناديك من حنجرته الحيوانية :

« أيها الشرير ! » وأنت تذرف الدمع
أمام كل الناس !
يا يوم الثأر والعقاب !
حين تعرض ابنتك الحبيبة نفسها ، عاهرة صغيرة ،
ملكتها الرغبة العارمة ، وسكرت من الخمر ،
وأخذت تهمهم لك بكل قصص الزنا
الذي ارتكبت ...
هذا هو ثأرنا !
فليعش ثأرنا
نرثه جيلا بعد جيل !

واذا كان من الصعب أن نسمي مثل هذا السباب شعرا ، الا انه في الوقت ذاته يبين لنا بوضوح وجلاء الجانب اليهودي القبلي من شعر تشرنحوفسكي .

ومن أشهر قصائده اليهودية ، قصيدة « باروخ المغنتسي » ، وهي عبارة عن مونولوج طويل يناجي فيه بطل القصيدة قبر زوجته ، محدثا اياها عن اتراحه واوجاعه واحقاده ، وتدور حوادث القصيدة في العصور الوسطى حينما تمر الحملة الصليبية الاولى على بلدة مغنتسيا على نهر الراين ، ويقوم الجنود بقتل بعض اليهود ويحملون البعض الاخر على اعتناق المسيحية ، وكان من بين الفريق الاخير يهودي يسمى اوري ، وحسب الوقائع التاريخية نعرف ان الندم قد تملك اوري بعد فعلته هذه ، فقتل ابنتيه ، ثم انتحر بـأن أحرق نفسه ، ولكن تشرنحوفسكي غير هذا الجـزء من القصة جاعلا منها قصة ثـأر واستشهاد (البطل والشهيد بدلا من الضحية) ، فغير اسم اوري الى باروخ (المبارك)، ثم حوله الى بطل يقوم باضرام النار في الدير والمدينة ، وتهلـك ابنتاه اثناء الحريـق . والقصيـدة طويلة للغاية ، لذا فسنكتفي بترجمة بعض المقتطفـات منها ، عارضين لها بالتحليل : تبدأ القصيدة بالحديث عن هذا الموضوع الشائع المتكرر في كل الادب العبري، اضطهاد اليهود واستشهادهم :

في الشوارع تجري جموع الفلاحين والحرفيين ، رجال على الخيول ،
أنات الموتى ، وبكاء الاطفال ، أصوات النساء يلتمسن الرحمة ،
الاواني المحطمة ، والملابس المهلهلة والدماء تجري فوق الطين كالماء ،
وصيحات تملأ الروح بالرعشة : فلنضربهم حتى الموت .

في وسط هذا الهرج والمرج ، ينقذ باروخ جسده بأن يعتنق المسيحية . ولكن مأساته كما يراها هو ليست مأساة فرد وقـع ضحية اضطهاد الاغلبية ، بـل هي مأساة الشعب اليهودي ككل ، ولذا تفقد المأساة حدتها بل عمقها الانساني ، وتتحول الى صراع بـين كتل مجردة : اليهود والجوييم :

حينئذ لعنت شعبي ، اسرائيل ، ضرع امي ، مربيتي ،
الهي ... وكل مقدسات أبي بصقت عليها لاعنا !

بعد بؤسه الجماعي يتذكر باروخ بؤسه الفردي ، ولكنه حتى في هذه اللحظة ، كل مـا يوجعه انه يسجد لآلهة غريبة ، وليس لاله قبيلته المألوف لديه :

حينئذ لعنت كل آمالي ، وخنقت كل كياني ،
أقول « أبي » للغريب ، وأقول « أمي » للغريبة ،
وأخذت عهودا على نفسي لاله غريب لا اعرفه ، ولا اشعر نحوه بأي ولاء .
ثم انحنيت له ولكل قديسيه .

ان ما يؤلمه ليس مأساته كانسان وكفرد ، بـل كيهودي اضطر للانسلاخ عن جماعته ،

ولذا فاعتراضه على الاله المسيحي ليس اعتراضا عقلانيـــا او حتى عاطفيا ، بـــل هو اعتراض قبلي من العسير علينا كبشر وكأفراد التعاطف معه او تقبله ، ولان احساسه بمأساته قبلي ، فانه يتذكر على التو طفولته بكل سماتها وطقوسها اليهودية :

آلهتي الجديدة ! تجري أمام عيوني
صور من أيام طفولتي : رجل لم يبلغ الثالثة عشر بعد ،
ذخور في البداية بالبارمتسفا ، وبيد مبتدىء مرتجفة ،
آلف حولي التفيليم ، (الشال) ، خشية ان يسقط ...
وتحت نير التوراة انحني ، توراة آبائي .

وحينما يرسم لنا الشاعر صورة حياته اليهودية السابقة ، نكتشف انها « لم تجلب لـــه سوى السعادة » ، فالريح الرقيقة تمر على منزله الصغير تداعبه ، والنحل ينتقل بـــين الازهار ، واوراق الاشجار خضراء ، اما الثمار فذهبية ، والطيور تشدو وتغرد وتطير فرحة من غصن الى غصن ومن غنن الى غنن .

بعد هذه الصورة المفرطة في الرومانسية ، ينفجر ينبوع الحقد في داخل باروخ ، ويستمطر لعنات الهه على اعدائه من الجوييم :

فليسرع الرب بهلاككم ، وليصيبكم بالاوبئة ،
حتى تدخلوا الرعب على قلوبكم وتلوذوا بالفرار من أنفسكم .

ثم يطلب بعد ذلك من الله ان يبتليهم بالاحزان ، وان تحتقرهم الاشياء الزاحفة السامة التي يمقتها التراب ، وان يبلغوا من القبح درجة يخافون معها من النظر الى وجوههم ذاتها ، ويصل هذا الدعاء الكريه الى ذروته القبلية في هذه الابيات التي تذكرنا بدعوات بعض انبياء العهد القديم :

فلترسل يا الهي — اني اضرع اليك ان ترسل سيفك لتثأر منهم ،
ولتتركهم في بؤس شديد ، دون ذرية .
فلتصب حنقك على الامم التي لا تعرفك ،
ولتصب غضبك على الممالك التي لا تنادي اسمك ،
لانهم قد دمروا مساكن شعبك وأكلوا نصيب يعقوب .

وهو في مناجاته لحبيبته يتحول الى ما يشبه الفامبير ، مصاص الدماء :

في كل ليلة نصعد ، نصعد من قبورنا حيث دفنا ،
لنشرب دماء هؤلاء الجزارين حتى تسكر ارواحنا .
نرضع من أنهار الدم ، رشفة رشفة ، قطرة قطرة ،
نسكر من الحزن ونسكر من الآهات حتى تراهم عيناي يرتجفون .
لا يبل لي صدى ، واشعر بالشماتة من نظراتهم وقد تجمدت اثناء الليل من العاصفة ،
ومن شعرهم الذي يقف من الرعب .

ان عقدة شمشون تسيطر على العقـــل اليهودي ، فشمشون لم تعلمـــه هزيمته حب الانسان ، ولم تطهره آلامه من الدنس ، بل كان كل همه ان يحل الخراب على اعدائـــه حتى ولو أدى هذا الى فنائه هو شخصيا ، وقد استمد العون من ربه في عبارته الشهيرة « علي وعلى اعدائي يا رب » ، وهذا هو حال باروخ ، فهو الاخر شمشون لم يطهره الالم ، بل زاد من ضراوته وانعزاله ، ولذا فهو يشعل النار التي ستأتي على الدير وعلى المدينة ، والتي ستحرق بناته وتؤدي الى هلاكه في نهاية الامر :

أنظر هناك ! ان السنة اللهب المتألقة تقفز الى أعلى ،
يداي هاتان هما اللتان قامتا بهذا الفعل ،

بدي هي التي أوقدت هذه النار الجنائزية ،
حتى تلتهم السنتها عظمة وذنوب أمة فاسدة ـــ
تتحول الى خراب أبد الدهر ـــ ينعق اليوم فوق قلاعها في الليل .

وفي جزء آخر من القصيدة يصف باروخ مشاعره اثناء التهام السنة النار للمدينة :

وفي أثناء الضوضاء والفوضى جريت في شوارع المدينة ،
لارى أعدائي بأرواحهم المحطمة ولاشهد هزيمتهم ،
ولاراقب الدموع تسيل من عيون الاب حينما يسمع
صوت ابنه يئن وهو يحترق في الفرن ، وأشعر بالشماتة .
لقد ضحكت وضحكت في شوارع المدينة على الامهات الباكيات .

وباروخ لا يقوم بفعله هذا كنتيجة لاستجابة عاطفية مباشرة لموقفه ، او بناء على تدبر عقلاني ، بل اننا نكتشف انه مثل شمشون ، لا يتصرف الا بناء على وحي رباني (أو وحي قبلي بمعنى أصح) :

تتملكني روح عملاقة تستيقظ في صدري
تهمس ، وتتحدث ، وتنصح ، ممسكة بأوتار قلبي .
تخبرني ماذا ينبغي ان أفعل ، تشعل داخلي شرارة ،
ولكنها تهمس لي برفق . الان يحل السكون والظلمة ،
وتخيم سحابة رمادية ، سيدة الظلام .

وبحلول الظلام يحاول البطل أن يعرف ماذا يطلب منه هذا الصوت الرباني ، وفي نهاية الامر يعرف ان عليه أن يفعل شيئا ولكنه لا يعرف طبيعته على وجه التحديد . وسريعا ما تنقشع الغيمة ، وينبعث صوت الرب مثل هدير الانهار مرتفعا ، يغطي على صوت الدنيا ، الى ان يرى باروخ :

فوق صورة قديس شمعة وحيدة تشير الي ، واقفة برتعش لهيبها .
وهكذا احضرها ربي الى يدي مثل نور الخلاص .
وبغتة أضاءت حجرات روحي المظلمة .

ويبدأ الحريق وتبدأ السنة النيران في التهام كل شيء ، ولكنها نيران ولا شك ربانية :

آلاف الالسنة الصغيرة والشرارات تمطر فوق كل شيء ،
كما لو كان نور الله قد تساقط متناثرا من السماء نفسها فوق الارض .

ومن الغريب ان الشاعر يربط بين نور الخلاص ونور الله من جهة ، والنار المهلكة الحارقة من جهة اخرى ، ولكن الاله القبلي لا يكترث الا بأبناء قبيلته . والشاعر في القصيدة نفسها ، عن وعي او عن غير وعي ، يصف النار وصفا اقرب الى الصدق من وصفه اياها في الابيات السابقة :

ان النار مثل آلاف الالسنة العملاقة جاءت تلعق الحوائط .

وهو بهذا يربط بين النار والاشياء الكريهة داخله ، ثم يضيف قائلا :

ارتفعت ألسنة النار واحرقت ، ولعقت السقف .
مثل الثعابين الصغيرة التي تلتف في صمت وتضحك في خبث .

ان نار باروخ أبعد ما تكون عن الطهر والبراءة ، واستخدام الشاعر لصورة الثعبان ، وهي صورة الشيطان التقليدية ، ليدل أكبر دلالة على انها ليست بنار ربانية ، أو ان باروخ من عبدة اله من نوع خاص لا تدخل الرحمة او الشفقة على قلبه ، ولعل هذا يفسر لماذا تعصف نيران هذا الاله بكل مظاهر البراءة في القصيدة ، فهي تحرق بيت

الشاعر نفسه ، وتأتي على اشجار حديقته ، وهي كما رأينا من قبل تهلك الاطفـــال ، بل ان باروخ ليجد لذة خاصة في مشاهدة هلاك الابرياء :

حينما أمسكت النيران بالحائط ،
أمسى قلب العصفورة الخائف مثل قطعة ثلج ،
وحومت دون جدوى حول العش .
ثم اسرعت عائدة مرة اخرى ،
اجنحتها المرتجفة تغطي العش ،
تسرخ من اجل اولادها عند صدرها ،
مرتجفة ، مرتعشة ، باكية من الخوف .
ونحوم مرة اخرى فالسنة اللهب تقترب
مرة تلو الاخرى تدور حول العش ،
ولكن ليس هناك من ينقذها او يحميها .
لو انني اردت ، لانقذت العش
والمخلوقات التي فيه بكل يسر .
ولكن لم استطع ان أفعل شيئا ... كما لو كانت قواي
كلها ولت ... لبرهة وجيزة .
الم تكوني انت مثل
العصفورة واولادها ؟
من تملكته الشفقة عليك ؟ الم يكن مصيرك
انت واولادك ، مثل مصير العصفورة القاسي الفظ ؟

ووصف الشاعر لهذه الحادثة غني عن التعليق ، فهي تجسد وبشكل حاد عنصريته ولا انسانيته .

ويبدو أن تشرنحوفسكي كان ينجذب دائما الى الشخصيات المتطرفة العتيقة الانتحارية في التاريخ اليهودي ، وبركوخبـــا هو احدى هذه الشخصيـــات الشمشونية (ان صح التعبير) التي اتخذ منها الشاعر اليهودي مثلا أعلى ، ففي قصيدة كتبها في شبابه ، يشكو الشاعر من الظلم الذي لحق بابن الكوكب (بركوخبا) (والكوكب هو رمز المسيح المخلص) الذي سماه شعبه الجحود ابن الكذب (بركوذيبا) (وكوذيبا هي القرية التي ولد فيهـــا بركوخبا ، وكان يسمى بركوذيبا قبل تقمصه شخصية المسيح المنتظر) ، ويعبر عن أمله في أن اجيال المستقبل ستزيل هذا العار ، وأن شعبا قد تطهـــر من ادران النفي سيعيد الى البطل اعتباره وما يستحق من تبجيل . وقد كتب تشرنحوفسكي مسرحيته الشعرية الوحيدة عن ثورة بركوخبا وعن انتحاره هو واتباعه .

من كل ما تقدم يمكن ان نخلص الى ان التيـــار اليهودي القبلي في شعر تشرنحوفسكي قوي وواضح ايما قوة ووضوح ، وان رؤيته ، في كثير من الوجوه ، قد شكلتها نشأتـــه وقيمه اليهودية .

الغيبيات العلمانيـــة

ولكن لكل من القطبين ، العلماني والديني ، رغم تعارضهما بـــل وتناقضهما ، وجـــود حقيقي في شعر تشرنحوفسكي ، ولذا كان على الشاعر ان يحسم هذا التناقض بطريقة ما ، وقد لجأ تشرنحوفسكي الى الحـــل الصهيوني الا وهو الابقاء على الجوهر الغيبي الاسطوري للفكر القبلي اليهودي ، واضفاء غلالة رقيقة من العلمانية المعاصرة عليه . يقترح الشاعر ، على سبيل المثال ، ان يعاد بناء اليهودية في أرض فلسطين ، واليهودية التي ينادي بها تشرنحوفسكي ليست هي اليهودية التقليدية « المتحجرة والمبنية عـــلى

الدراسة والتفقه » ، بل هي يهودية جديدة عفوية ، تؤمن بالروح ، وتعادي الفكر ، وهو يرحب بظهور الصهيونية ، لانها — في تصوره — هي نتاج هذا الضرب من اليهودية : « ان اليهودية الجهولة (المعادية للفكر) قد اعطتنا هرتزل واتباعه ... وجابوتنسكي ورجال جماعة البيلو ، ومعظم الحالوتسيم (الرواد) ، وهذا النوع من اليهودية ، وليست اليهودية التقليدية ، هي التي ستبني الوطن القومي » . ان اليهودية الجديدة لا علاقة لها بالتراث اللاهوتي اليهودي ، او بكتب المفسرين والشراح والمعلقين التي لا حصر لها ولا عدد ، بل ان هذه اليهودية الجديدة لا علاقة لها بالقديم من الناحية الوجدانية . يقول تشرنحوفسكي : « ان العالم يتكسون من المنتصرين والمنهزمين ... والمنهزمون اكثر عددا من المنتصرين ... وأنا حامل لواء انشودة النصر ، واريد ان اشق طريقي في العالم كأحد المنتصرين . وحظي كيهودي ان أكون شاعر الهزيمة ... ولكني حتى كيهودي سأظل أحمل أنشودة الغزو » . انه يرفض تاريخ الاستشهاد والخنوع والهزيمة ، بمعنى انه يرفض التاريخ اليهودي كله ، والشخصية اليهودية برمتها ، وينادي بيهودية جديدة لا وجود لها .

ولكن تشرنحوفسكي ، على طريقة الصهاينة ، يعود الى التاريخ اليهودي القديم ، لا ليدرسه ككل ، بل ليركز على بعض النقط الناصعة فيه التي تساند وجهة نظره . فهو مثلا يعود الى فجر التاريخ اليهودي ليكتشف ان الشعب اليهودي كان يعيش على صلة وثيقة بالطبيعة ، وهذا ما يقوله في السوناتا التاسعة ، من مجموعة السوناتات المعنونة « الى الشمس » :

ان اجنحة الليل البدائية تنشر الظلمة فوق العالم ،
ويلتحم سر الصحراء بالظلمة ،
ثم تخرج القبائل المجتمعة من خيامها فوق كل تل ،
لتنحني لاله الشمس مرتجفة ، في مرائها وضرائها .

واذا كان اليهود قد حل بهم الشتات ، وتركوا تلك الحياة الطبيعية الاولى ، الا ان طقوسهم — حسبما يرى الشاعر — تدل على قوة الوشائج التي تربطهم بالطبيعة :

ورغم أن الامة غيرت سماواتها ، سماواتها الزرقاء ،
ورغم أن نجومها اظلمت ، ورغم أنها تنزح تحت نير سماء الغربة ،
ولا تزال تتقدم طورا للامام وطورا للخلف ،
الا انها تخرج مرة كل شهر في ليل الاسرار
لتبارك القمر ، تماما كما كانت تباركه
حينما كانت فوق قمة جبل الجبال ، حيث يقطن الاله الخالد .

ويبدو أن تشرنحوفسكي وجد يهوديته المنشودة في العصور الضبابية الغامضة ، التي سبقت غزو القبائل اليهودية أرض كنعان ، فانشودته — كما يدعي هو نفسه — تستمد حياتها من الايام القديمة ، والدم الذي يجري في عروقه هو دم غزاة ارض كنعان ، الذين تركوا لاولاد اولادهم رؤية لوطن يهودي يمتد من نهر الفرات الى الجزيرة العربية ، وفي قصيدة « اني أسمع ايقاعا » يؤكد الشاعر أن أسلافه جيل من الرعاة غزا وفتح أرض كنعان لشعب لا أرض له ، وقد سمى الشاعر هذه القصيدة « وعد بلفور الذي ظهر قبل وعد بلفور » ، وهي تسمية طريفة ولا شك ، تعطينا مفتاحا لفهم غيبيات تشرنحوفسكي العلمانية ، فهو يؤمن ببعض الاساطير اليهودية القديمة مثل الشعب المختار والعودة الى أرض الميعاد والرب الذي يقود شعبه الى هذه الارض ، ولكنه يحول كل هذه الاساطير الى برنامج سياسي « قومي » يأخذه بمنتهى الجدية ، وبينمازعم كاتبو وعد بلفور انهم أخذوا بعين الاعتبار الحقائق التاريخية والسياسية مثل وجود شعب « غريب » في أرض الميعاد (ولذا فقد صاغوا تلك الوثيقة السياسية في لغة

غامضة مراوغة)، نجد ان تشرنحوفسكي أسير رؤياه الاسطورية ، لا يرى سواها ، واذا كان الواقع مغايرا للرؤيا ، فهذا لا يهم على الاطلاق ، فالانسان اليهودي الجديد الغازي ، الفاتح ، المؤمن بالعنف يمكنه ان يعالج الموقف ، وهذا هو في الواقع ما تريد أن تنقله لنا قصيدة تشرنحوفسكي « وقت الحراسة » ، التي كتبها في تل ابيب في عام ١٩٣٦ :

هذه الليلة أيضا سنضطر للسهر ،
ممسكين بالسلاح مبقين اياه في أيدينا
ممسكين بالمذراة ، او العصا ، او المنجل .

وهو يقف مدججا بالسلاح ، لانه في حرب مع « رجال الصحراء .. المتوحشين » ، ناسيا او متناسيا انه هو الغازي وانه هو السارق ، ولكن رؤية الصهيونية تعميه عن رؤية انسانية الاخرين ، واحيانا عن وجودهم .

ومن أشهر قصائد تشرنحوفسكي على الاطلاق قصيدة « امام امثال ابوللو » التي يمزج فيها بين التيارين المتناقضين مبينا ان « وثنيته » اليونانية لا تختلف كثيرا عن عبادة الذات القومية اليهودية القديمة التي أحياها الصهاينة في عصرنا الحديث :

أتيت اليك ، يا رب العصور المنسي ، رب الازمنة القديمة والايام الاخر ،
يا من تسير عواصف الرجال الاشداء ، تحطم قواهم وهم بعد في ريعان الشباب !
يا رب اجيال من الجبابرة الاشداء والعمالقة ، تهزم بجبروتهم حدود اوليمبس ،
موطن أبطالهم ، ثم تزين جباههم الابية بأكاليل الغار .

ان الشاعر يأتي لأبولو اله القوة لانه ينتمي الى « شعب مريض » ويقبل على اله الفرح لانه عضو في « قبيلة من البؤساء » :

لقد أتيت اليك — ألا زلت تعرفني ؟ أنا اليهودي : غريمك منذ القدم !
ان مياه كل محيطات العالم بكل هديرها المتعدد ،
لم يمكنها ان تملأ الهوة الفاغرة فاهها ، والتي تفصل بيني وبينك .
انسماء نفسها ، والسهول الفسيحة الممتدة ، لا يمكنها ان تسد الهوة التي تفصل
بين توراة أسلافي وديانة عابديك .

ولكن هذا اليهودي قد سأم يهوديته ، وضاق بها ذرعا ، ولذا فهو « يعود » للاله اليوناني ، ولكنه في الوقت ذاته يعود للحقول والارض ولذات يهودية جديدة صاغها الشاعر في مخيلته .

انني أول من يعود اليك في لحظة امقت فيها مخالب الموت ،
روحي الحية ملتصقة بالارض تحطم السلاسل التي تغلها .

وليس اليهودي وحده هو الذي يبعث من جديد ، بل أن اله أيضا يمارس نفس التجربة :

لقد هرم الشعب — والهه هو الاخر نالت منه الشيخوخة ،
والعواطف التي كبح جماحها ، داخلا خارت قواهم ،
تثبت الى الحياة مرة اخرى من سجن السنين .
وتصبح كل عظامي : نور الاله هو نوري
ويهتف كل عضو في : الحياة آه الحياة .
نور الاله والحياة .

وفي المقطع الاخير من القصيدة ، يتضح لنا بجلاء أن الشاعر لا يهرب من يهوديته ولا من اله ، وانما يعيد صياغتهما وبشكل سطحي ، فاليهودي العائد لابولو ، ان هو الا

اليهودي القديم الذي كان يعيش على صلة بالطبيعة دون وعي تاريخي او اخلاقي ، بل وما أبوللو سوى اله اليهود الذي قاد شعبه الى أرض كنعان :

وأتيت اليك ، أتيت اليك لاسجد امام تمثالك وصورتك — يا رمز تألق الحياة ،
أسجد وأنحني أمام الخير والسمو ، ولكل ما هو مجيد في هذا العالم ، لكل ما هو رائع بين المخلوقات .
ولكل ما هو متسام في ديانات الكون البدائية ، انني أنحني للحياة ، وللبسالة والجمال ،
انني انحني لكل الاشياء الثمينة — التي سرقتها الان الجثث الحية والذرية العفنة ،
الذين يثورون على الحياة التي منحنا اياها الله القادر ، رب البرية المليئة بالاسرار ،
رب الرجال الذين غزوا أرض كنعان كالعاصفة ، ثم قيدوه بأغلال تعاويذهم .

ان تصور تشرنحوفسكي لليهودي الجديد مبني على أسطورة لا تختلف في غيبيتها ولا في انسانيتها عن الاساطير اليهودية القبلية القديمة التي يدعي الشاعر انه يرفضها . كما أن الهه القومي العلماني ، اله الافراح والحياة اليهودية الجديدة ، لا يختلف في تعطشه لدم الجوييم عن اله باروخ الذي يتلذذ برؤية هلاك الابرياء .

الغربة في أرض الميعاد

هاجر تشرنحوفسكي مع من هاجر من الصهاينة الى فلسطين ، واستقر فيها ، وكتب قصائد تؤيد الغزو الصهيوني لارض كنعان . كما أسهم في الدعاية الصهيونية بشكل واضح ، ولكنه على الرغم من ذلك كانت تمر لحظات يخامره فيها الشك من كل هذه الضوضاء . وقد عبر عن هذا الشك في قصيدة تسمى « ليس لي شيء يخصني » ، ولعل من المفيد ان نذكر ان القصيدة كتبت في القدس عام ١٩٣٩ ، وهي تعبر عن احساس غامر بالغربة .

ليس لي شيء يخصني — ولا حتى مائدة ، واحيانا حينما تنسج اللحظة الواهنة الشاحبة
خيوط العنكبوت حول روحي المثقلة ، في الليالي الرهيبة ، او في منتصف الليل الساكن ،
حينئذ يبدأ قلبي — الذي سأم أكاذيب الغوغاء — في الصلاة من اجل لمسة يد رقيقة .

وفي حجرته في القدس يستمر الشاعر في التأمل :

داخل اربعة حيطان غرفة ليست لك ، حيطان احتكت بها اجساد الغرباء ،
مخربين ألوانها بنظراتهم ولمساتهم ، أيديهم صقلت المزلاج ، وجعلت مقبض الباب لامعا ،
نسج العنكبوت بيته فوق المدخل الحزين ، فوق التراب الذي خلفه الغرباء ، والذي يحكي عن رغبات الاخرين واذواقهم ،
خيوط العنكبوت غظة وقبيحة ، والغرفة ليس فيها اي شيء تبحث عنه عيونك بوله ... لا ولا يوجد فيها أي تذكار سعيد ،
يؤنسك برموزه ، ويلمح لك بالنور والصوت . كما اعرف هذا أيضا : أنني لن ابتني أبدا
بيتا ، لا ولن امتع ناظري برؤية المعول الذي يضرب الصخر ، او بالارض التي تظهر عريها لكي ترسي الدعائم.
لا ولن ابارك كل طوبة كلما ارتفع الحائط ، لا ولن يشدو قلبي حينما يشيد السقف القوى .

ويستمر الشاعر في سرد الاشياء التي لن ينالها في حياته : فهو لن يمكنه أن يغرس شجرة او يرويها ، كما لن يمكنه ان يجني ثمرها :

لقد تجولت طيلة حياتي ، وربما سأستمر في التجوال ،
وملكية الارض ليست من نصيب المتجول ، انها ليست من نصيبي .

وحينما يتعرف الشاعر على لا جذريته وعلى هويته كجوال ابدي يقول :

حيث ان هذه المائدة ليست لي ، فلنضع عليها شيئا امتلكه كلية ، شيئا يظل معي أينما ذهبت .

هذا الشيء هو تمثال من حجر : رمز لرغبته العارمة في شيء من الثبات والديمومة ،

(وان كان في الوقت ذاته رمزا لرفضه اليهودية التي تثقل كاهله والتي تفرض عليه تراث لا يمت بصلة لوضعه كانسان في العصر الحديث . ففي سفر الخروج (٢٠ ، ٥) يطلب من اليهود الا يصنعوا تمثالا منحوتا ولا صورة ما — مما في السماء من فـوق وما في الارض من تحت ، ومـا في الماء من تحت الارض) . ولان القصيدة تعالج لحظة ضعف فردي غير قبلي ، فهي تتسم بعمق انساني يتخطى الى حد ما حدود رؤيته القبلية (رغم أن القبلية اليهودية تترك أثرها على بعض الابيات الشعرية) ، ولعل أصدق دليل على اتساع تجربة الشاعر في هذه القصيدة هو نوع التمثال الذي يريد ، فهو يريد تمثالا لموسى او هوميرس او افلاطون، او جوته، او شكسبير او اشعيا او عشتروت،والقائمة — كما نرى — غير قاصرة على ابطال اليهود وانبيائهم ، وهذا ضرب من الهرطقة ولا شك ! وكل التماثيل التي يريدها الشاعر مصنوعة من مادة صلبة ، فهو يريد تمثـالا مصنوعا من حجر البازلت او النحاس او الخشب او الحديد او العاج ، والاشارات المتعددة لتلك المواد الصلبة تدل دلالة واضحة على تعطش الشاعر لحياة ثابتة ، ولكن لنتذكر ان الشاعر يطلب تمثالا متنقلا ، اي أنه يريد حياة حقيقية فيها قسط من الثبات وقسط من الحركة ، حياة لا تسيطر عليها المطلقات اليهودية الثابتة .

ولكن يجب أن نشير الى أن لحظة التقبل هذه لحظة نادرة ، بل يمكن القول اننا لم نجد أية قصيدة أخرى في أعمال تشرنحوفسكي تماثلها ، فقصائده الاخرى تعبر اما عن تمرد كامل على اليهودية ، أو تقبل أعمى لها ، او محاولة لمزج التمرد بالتقبل عن طريق طرح تصور جديد لليهودية : علماني المظهر ، غيبي المخبر .

التلمود والصهيونية

بقلـــم

الدكتور أسعد رزوق

٣٢٠ صفحة من القطع الكبير
سعر النسخة ٨ ل.ل. ، تضاف اليها
اجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم
العربي، ٢ ١/٢ ل.ل. في الدول الاوروبية
٥ ل.ل. في سائر الدول .

منشورات مركز الابحاث ، ص.ب ١٦٩١

بيروت — لبنان .

ان كان لحزنكِ ان يهوي

أحمد دحبور

إن كان لحزنكِ أن يهوي .. فليهو الآنْ
أو كان لحزنك أن يسري ،
فدمي ليلٌ عربيٌ ممهور بتواقيع الفقراءِ ،
ودربي سالكةٌ :
من ماء الجدب الى أقصى الطوفانْ
ستحطُّ على وجهينا أسرابٌ من طيرٍ مكدودٍ ،
فنحطُّ على أرضٍ موعودٍ قاصدُها :
« بسنابلَ ناضجةٍ وكواكبَ — »
حين يحاولُ ،
أو فحمٍ وجنادبَ —
حين يخاف النار الشيطانيّهْ
وسأزعم أن لصوتك وْقعَ الماء المرّ على عطش الأرض المنسيّهْ
وأصدّق هذا المُرّ الأعمقَ بين الأصواتِ
لكنكِ واقفة مثلي ،
وأنا مطعون في سُبُلي ،
راهنتُ فعادتْ خاسرةَ خيلي من كل رهانْ
فربحتُ بها الأحزانْ
ولهذا ينكرني الفرح الكذّابُ ،
وينكركِ الأصحابُ ،
وينكرنا فرسان الثورات السنويّهْ

ويصدّقنا الوطن الآتي
ولهذا حين أحدّق فيـكِ أرى جنيّهْ
خرجتْ من آنيـة الليل الشرقيّهْ
طيراً مكدودَ الريشِ ،
يقاوم في أفق عربيّ موبوء ببخار النفط
وما تركتْه خيول بني عثمانْ
يزقو .. يتساءل : أين الأرض الحيّهْ ؟
فأمدُّ على بَصري وطني .. وأقول : أمانْ
إن كان لحزنكِ أن يهوي .. فليهوِ الآنْ

جُمِعتْ كلُّ الأيام ليوم الفرزِ ،
وهذا يوم الفرزِ ،
فجيئي بالأطرافِ معاً ،
ولنبدأ لعبتنا الدمويّه
مَنْ وزّع رعب الليل على الأطفالِ ؟
وَدَسَّ الكلب الأسود في قصص الجدّاتِ ؟
نذيرُ الويل —
أم الخوف المتفرّغُ للويلات المحْكَمة اليوميّهْ ؟
وَمَن الشرطي الواقف بين الهمسة والإصغاءْ ؟
مِنْ أي طريق جاءْ ؟
من جُحْر المؤمن ملدوغاً —
أم جارِ المؤمن مشبوهاً —
أم خبزِ المؤمن ملفوفاً بتقارير الأمن السريه ؟
والخبزُ لماذا لا يأتي من غامض عِلْمِ الله كما يأتينا الجوع أو الأمراءْ ؟
ولماذا لم تبدأ حرب الفقراءْ ؟
ستكون جراحُكِ مكتبتي ،

وأكون كتابكِ قبل الحربِ ،
ومشطَ رصاصكِ حين تكون الحرب لنـا
لكنكِ واقفةٌ مثلي ،
وأنا أدعوكِ ـ
لنمشِ معاً ، فلعلّ خطانا تترك شيئاً في الأرض الرمليه
سنخاف الموج معاً ،
ونردّ الموج معاً ،
ونتابع لعبتنا الدمويّه :
يتكشف وجه الحرب هنا
فتشدّ طبولاً من جلد الفقراءْ
ولهذا ، حين تدقّ الحرب ، أساطُ أنا
ويعوم النقد على دمع ودماءْ
لتؤرّخَ ذاكرة الوطن العربيّ بأعوامٍ هجريّه
فلتصطفّ الايدي المقطوعة بالسيف المتجددِ ،
والجوع المتفرّدِ ،
ولتمتدّ أصابعها صوب الزاني المأخوذ برجم ضحيته القُرشيّه
ولتجأرْ أطراف الايدي المقطوعة جهراً ،
والمقطوعة سرّاً :
إنّ الجوع الحاكم يقطع ايدينا !
فبماذا تُطلق حين تجنّ الحربُ ؟
ولماذا لم تبدأ حرب الفقراءْ
لتؤرخ ذاكرة الوطن العربيّ بأعوام الاسراءْ؟

سيكون لنا حلم في عِزّ الصحوِ .. نطالبه بالحرّيه
وسيعطينا
لكنكِ واقفةٌ
وبراق الثورة موقوف في المحكمة العربيّه

فتعالي ننصبْ مشنقة تختار زبائنها بالدَّوْرِ ،
وتعدلُ ـ
ولتتأهبْ ـ لاستكمال اللعبة ـ كل الاعناق المعنيّهْ
ولتحضرْ شاهدة عمّانْ

ـ هذي الممتدّةُ في الوطن العربي ـ
لتنشر كل ضفائرها علناً !
فبهذي تجمع مـا تركتْـه البلطةُ ـ
من أيدي الاطفال ـ
بهـذى تمسح ذلّ طهارتهـا المسفوحةِ ،
كرمى للصمم العربيّ الرسميّ المشغولِ ـ
ببعض مجازره اليوميّه
وبهذي تجدل مشنقةً ،
وتدليها للغرقى في بئر النسيانْ :

فلتسمع يا وطني المستلقي في بئر النسيانْ
والعصرْ
ولياليَ عمّانَ الأيلوليّـات العشرْ
لن يفرح بالمـاء الظمآنْ
ما دامت بئرك هذى البئرْ
وترانا قطرة ماء فيكَ ؟
إذنْ من قطرة ماء يبتدىء الطوفانْ
ويتمّ الفرزُ فيسقط جلدُ الحيّهْ

لكنكِ واقفة بالاسئلة المتزاحمة الدمويّه :
ما دامت واضحة ـ حتى الذبح ـ الاشياءْ

ما دام لنـا زمن يتغيّر فيه الناسُ ،
وأرض تنبض بالشهداءْ
فلماذا لم تبدأ حرب الفقراء ؟
ولماذا استُبدل عام الإسراء المتوهّج بالحِقَب الهجريّه ؟
ولمـاذا لم يبدأ حزب الفقراءْ ؟
أتراه الكلب الاسود يخرج من قصص الجدّات إلى الطرقات ويأكلنا ؟
أم أنّ رغيف الخبز الاسود يرسم خارطة لتنفُّسِنا ؟

فحمٌ وجنادبُ هذا الليلُ ،
ولكنْ ـ
في وطنٍ سنكون خليّتَهُ الأولى ..
تسري الأحزانْ
لتعودَ سنابلَ ناضجةً
وكواكب
أو ما شئتِ ـ
فدربي سالكةٌ من ماء الجدب إلى أقصى الطوفانْ

نجيب نصار في جريدته الكرمل (١٩٠٩ــ١٩١٤) أحد رواد مناهضة الصهيونية

الدكتورة خيرية قاسمية

شهدت الفترة التي تبعت زوال نظام السلطان عبدالحميد واستلام جمعية الاتحاد والترقي السلطة في الدولة العثمانية تطورا كبيرا في الحركة الصهيونيـــة التي كانت تسعى الى تحويل هذا الجزء من الوطن العربي (المعروف باسم فلسطين) الى وطن قومي يهودي حسب المخطط الذي رسمه تيودور هرتزل في المؤتمر الصهيوني الاول في بال ١٨٩٧ . ومع ان بداية العمل الصهيوني في فلسطين كانت أسبق من ١٩٠٨ ، الا أن تغير النظام السياسي قد قدم للحركة الصهيونية آمالا جديدة بعد صعوبات بالغة نتيجة لفرض قيود على الهجرة والاستيطان اليهوديين في فلسطين، اذ بوصول الاتحاديين للسلطة ومساهمة فئات من اليهود والدونمة (اليهود المتسترين) العثمانيين في احداث الانقلاب السياسي ، ثم حاجة الدولة للاموال اليهودية قد دفع العمل الصهيوني في فلسطين خطوات الى الامام .

ومع كل ما أبدته الحكومة العثمانية من عطف على النشاط الصهيوني فقد ظل موقفها مترددا لاعتبارات كثيرة . أهمها العداء العربي للتغلغل الصهيوني، فالبلاد التي تحاول الصهيونية ان تخلق بها استيطانا ، يسكنها شعب آخر ظل ينظر له طويلا على أنه كمية مهملة . ومنذ الايام الاولى للاستيطان اليهودي كان هناك تخوف كامـــن من ان يحل القادمون الجدد محل أهل البلاد . وتزايد هذا الشعور بالتخوف وكان لا يمكن لعملية التغلغل الاستيطاني أن تسير دون ان تثير ردود فعل للظواهـــر الجديدة التي حملها المهاجرون الجدد : شراء الاراضي ، طرد الاهالي ، انشاء المستعمرات ، اقامة المدارس ، احياء اللغة العبرية ، المحاكم ، الطوابع . واتخذت المعارضة مع السنين شكل معارضة واعية للمشروع الصهيوني الذي يهدف فصل جزء مهم من الامبراطورية وتحويله الى دولة ، وتوقع نجيب عزوري منذ ١٩٠٥ وقوع صراع محتمل بين الحركتين في الشرق يكتب لاحدهما الغلبة(١) .

ومع ثورة ١٩٠٨ دخلت عوامل جديدة لتزيد حدة الاصوات المنذرة بالخطر . فالى جانب ازدياد النشاطات الصهيونية ، والعطف الذي أبداه الحكام الجدد ، كانت اليقظة العربية الحديثة دعامتها النخبة العربية من المثقفين ، تسعى جاهدة ، بعـــد فترة احياء فكري للحصول على حقوق العرب القومية داخـــل اطار الامبراطوريـــة العثمانية ، وبدت الصهيونية عدوا سوف يغتصب منهم في المستقبل أرضا عربية ويشكـــل تهديدا خطيرا للفكرة العربية الناشئة .

ومع ان وجهة النظر العربية كانت متفقة على ان ادخال الصهيونية الى فلسطين خطر كبير ، الا أنها اختلفت في تقديرها لمدى هذا الخطر تبعا للفئات الاجتماعية والمناطق . فالفلاحون في القرى ، رغم أنهم لم يصلوا الى درجة الوعي الكافية لادراك أبعاد الخطر ،

لمسوا بشكل محسوس المساوىء الاقتصادية التي رافقت عملية الاستيطان نفسها . فعملية شراء الاراضي غالبا ما كان يتم على اثرها طرد الفلاحين العاملين على تلك الاراضي . ومن هنا كانت ردود فعلتهم عنيفة . ولم يكن في الامكان ان تخفف مشاعر العداء تلك المنافع التي يدعي الصهيونيون انهم حملوها معهم . ولا شك ان كبار الملاك كانوا يدركون ما تحمله عملية شراء الاراضي من أخطار بعيدة ، تبغي اقتلاعهم من الارض ، ولكن هذا لم يكن مانعا من ان يتم بيع اراض على أيديهم ، خاصة وان معظمهم يقيم في المدن وفي خارج فلسطين غالبا .

أغلب من وعى الخطر هم المثقفون الذين تابعوا نمو الحركة الصهيونية ، وعرفوا أهدافها البعيدة ومخططاتها الى جانب ما لمسوه من أعمالها مباشرة ، فباتوا يخشون على الوجود العربي نفسه في فلسطين . ولا شك أن عدد المثقفين في المدن كان قليلا ، ولكن لو عرفنا ان قيادة الرأي العام في ذلك الوقت كانت من بين المثقفين من أهل المدن ، تبين لنا مدى التأثير الذي مارسه هؤلاء . ولكن وان كان الاطلاع على الحركة الصهيونية قد اقتصر على فئة المثقفين الا أنه لا يمكن انكار أهمية الرأي العام ، ودليل ذلك ان قاعات المحاكم في حيفا ويافا التي حاكمت مرارا أصحاب الصحف المعارضة للصهيونية كانت تغص بجمهور الحاضرين وكانت تعقب كل تبرئة شبه مظاهرة وطنية .

أمر آخر كان يدل على أهمية الرأي العام هو أن الصهيونيين أنفسهم لم يستهينوا به ومن هنا كانت محاولتهم المستمرة للتقليل من أهمية العداء العربي للصهيونية فعزوه أحيانا الى جهل لغة وعادات وطبائع العرب وأحيانا الى عداء المسيحيين المتأثر بفكرة المعاداة للسامية — برأيهم — أو الناتج عن التنافس الاقتصادي والثقافي(٢) . ولكن العداء كان يقلقهم وبذلوا جهودا لابطال مفعوله : تجلى في عدد الكتاب الذين جندوهم للدفاع عن الصهيونية والتأكيد على منافعها المادية ، أو في شراء عدد من الصحف العربية أو في مساعيهم المتواصلة لدى الدولة العثمانية كي تتخذ من الصهيونية سلاحا مضادا لفكرة القومية العربية . وكان آخر محاولاتهم مساعيهم الدبلوماسية في أوساط بعض الزعماء العرب في فلسطين من أجل التقارب بحجة المنفعة المتبادلة وتقارب الشعبين والعمل معا لاحياء الشرق ، وما يمكن ان تقدمه الصهيونية من منافع مادية للبلاد العربية كلها . وأثبتت هذه المحاولات عن فشلها في التوصل الى اتفاق مع حركة تهدد الوجود العربي في المنطقة .

لعبت الصحافة العربية التي واكبت ثورة ١٩٠٨ دورا هاما في تنبيه الاذهان نحو الخطر الصهيوني . اذ مع الحرية الممنوحة للصحافة بدأت الصحف اليومية والاسبوعية بالظهور في الاجزاء العثمانية من البلاد العربية . وفي حين شغل موضوع الصهيونية عددا معينا من الصحف خارج فلسطين ، كانت المسألة الصهيونية الشاغل الاول للصحافة الفلسطينية(٣) . ولم تعمل فقط على التنبيه للخطر الصهيوني وطرق مواجهته بل الى نقل القضية الى خارج حدود فلسطين . وقد لعب المسيحيون دورا هاما في الصحافة المحلية في فلسطين بسبب الفرص التعليمية المتوفرة لديهم ، ولكن دور المسلمين لم يكن أقل من ذلك ، بل ان الشعور بالخطر الصهيوني كان من جملة العوامل التي قربت بين الفئتين(٤) .

وتبرز بين الصحف الفلسطينية جريدة (الكرمل)(٥) لصاحبها نجيب نصار التي حملت لواء المعارضة دون توقف خلال الفترة السابقة للحرب (١٩٠٩ — ١٩١٤) وشغلت هي وصاحبها اهتمام الدوائر الصهيونية لانها كانت أول من كشفت أسرار الصهيونية ونبهت الى أخطارها ببعد نظر واستباق للاحداث نادرين . ولم تكن فلسطين في تلك الفترة وحدة ادارية ، بل كانت أجزاؤها الشمالية تتبع ولاية بيروت بينما شكلت القدس وما حولها متصرفية مستقلة تتبع الآستانة ، الا أن (الكرمل) لم تكن جريدة محلية ، بل كانت

مباحثها تتناول فلسطين بحدودها التاريخية المعروفة والتي يهددها ككل شبح الصهيونية. ويكفي متابعة أعداد الجريدة لاعطاء صورة حية لما كان يجري في تلك الفترة التي تندر فيها المصادر الاولية المحلية .

نجيب الخوري نصار (١٨٦٢ — ١٩٤٨) كما روت لي أرملته في مقابلة شخصية منذ عامين ، من أصل لبناني — عين عنوب قرب الشويفات — درس في سوق الغرب حتى الشهادة الثانوية ثم ذهب الى صفد للتدرب في صيدلية أخيه ، عمل بعدها في المستشفى الاسكتلندي في طبريا كمساعد صيدلي ، ثم اشترى عدة أمدنة هناك وعمل بالزراعة وخبر احوال الاستيطان اليهودي في المنطقة . وتلقى عام ١٩٠٥ من صديق انكليزي نسخة عن مقال الصهيونية في الانسكلوبيديا اليهودية وانهمك في دراستها وعرف حقيقة الصهيونية، وبدأ يرسل مقالاته الى المقطم ولسان الحال ، وبعد اعلان الدستور ١٩٠٨(٦) قام ببيع كل ما يملك ، واشترى مطبعة من بيروت حيث بدأ باصدار الكرمل في حيفا مرتين في الاسبوع . وتحاول المصادر الصهيونية أن تشوه صورة نجيب نصار فتروي(٧) انه كان يعمل مع شركة الاستيطان اليهودية المسماة (ايكا) كوكيل للاراضي وبعد خلافه معها هدد بأنه سيكتب ضد المستوطنين اليهود حتى يتوقف العرب عن البيع لهم . لو قبلنا بصحة هذا القول ، فان نصار نظرا لخبرته الطويلة لدى ايكا ، قد استنتج أن البيع المستمر للاراضي يقوض مركز العرب في فلسطين ويوقع البلاد يوما ما في يد الصهيونيين. كانت الكرمل لا تزال وريقة هزيلة في اعدادها الاولى يتولى ادارتها (ايليا زكا)(٨). وابتداء من العدد الخامس عشر (٢٧ آذار ١٩٠٩) أصبح نجيب نصار هو المسؤول الاول فيها ، وتغيرت خطتها كما يقول نصار في افتتاحية العدد(٩) « لتكرس لخدمة الشعب الذي ذللته الحكومة الظالمة ، وستنقل شكاويه من اعوان الاستبداد الى مراجعها الرئيسية » . ومن الغريب أن هذه الجريدة التي قادت الحملة الصحفية ضد الصهيونية ، لم تشر في افتتاحيتها الى هذا الموضوع . وقد يعود هذا الى أنها كانت لا تزال تتفاعل بالحكم الجديد ، واثارة المسألة بشكل مفتوح قد يحمل على غير معناه ويسيء الى العلاقات العربية التركية .

ولكن الكرمل ما لبثت ان نشرت في عدد ٦ يونيو ١٩٠٩ تكذيبا ورد من السلطة المحلية في طبريا لشكوى كان قد تقدم بها وكيل الاستعمار الاسرائيلي في حيفا الى السلطات العليا على اثر الاحداث التي وقعت في المنطقة بين المستوطنين اليهود والفلاحين ، متهما السلطات المحلية بالعمل ضد الدستور . التكذيب يؤكد تمسك أهالي القضاء بالدستور وان « الاشاعات انما يقصد بها المرجفون تخديش أذهان أولياء الامور لان لهم في ذلك مآرب أخرى » . لم يكن في الخبر تعريض صريح بالصهيونيين ، ولكنهم وجدوا فيه شارة خطر ، فسعوا لدى المتصرفية لتعطيل الجريدة ، ولم يصدر الامر بالافراج بعد شهرين الا بعد مراجعة مركز المتصرفية(١٠).

هذا الاجراء لم يمنع الكرمل من التنبيه الى خطر امتلاك الصهيونيين للاراضي وما يتبع ذلك من قيام حكومة يهودية ، ودعت الرأي العام الى تشكيل جمعيات لشراء الارض والا فانه « ... لا بد أن يأتي يوم يكون لهم في الارض القول الفاصل ... » أشارت الى ذلك جريدة هزلية بدأت تصدر في حيفا باسم (جراب الكردي)(١١). ودافعت تلك الجريدة عن التهم التي توجه للصهيونيين بحجة انهم ما جاءوا لرفع راية حكومة يهودية وان قدومهم فيه فائدة للبلاد « خير لنا أن يأتي أصحاب الاموال من اي بلاد كانت واي جنس كان ليستخرجوا كنوز أرضنا ... وهو خير لنا في أن تبقى هذه الجواهر ضائعة ونحن نتبجح بكلمة الوطن والوطنية وجيوبنا أفلس من طنبورة او رباب ... » . ولم تكن جراب الكردي آخر جريدة ساهمت في الحملة الصحفية المضادة للكرمل .

ولكن يبدو أن لهجة الكرمل قد اعتدلت وتركت مناقشة موضوع الصهيونية الى الصحف

التي يمتلكها سوريون في مصر ، في وقت لم تكن المسألة قـد طرحت بعد بصراحة في الصحافة داخل الممتلكات العثمانية . كان ذلك لنشاط اليهود في مصر من جهة ولوجود مصر خارج نطاق الدولة العثمانية من جهة أخرى . وفتحت جريدة (المقطم) بوجه خاص صفحاتها لدعاة الصهيونية كي ينفوا أن لليهود هدفـا سياسيا ، ويؤكدوا ما يحملـه الاستيطان اليهودي من فائدة لاهل البلاد وللدولة . ويبرز بين دعاة هذه الحملة (نسيم ملول) وهو يهودي من أصل تونسي كان يعيش في مصر ، بصفته رئيس لجنة الاصلاح التنفيذية للنهضة الاسرائيلية وذلك قبل أن ينتقل الى يافا في مطلع ١٩١٢ ليصبح مراسل المقطم فيها،ويوكل اليه مهمة سرية بالاشراف على المكتب الصحفي الملحق بمكتب فلسطين الصهيوني ، وذلك لمتابعة الصحافة العربية وتهيئة الردود المناسبة عليها(١٢) .

بعد فترة هدوء نسبي بدأت الكرمل في تنشيط حملة عنيفة للتنبيه الى النتائج الخطيرة التي تعقب الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، ووجهت اللوم الى الامة والحكومة لوقوفهما موقف المتفرج تجاه هذا التيار ، وذلك في مقال عنيف في فبراير ١٩١٠ بعنوان « استعمار أم استدرار »(١٣) . وأثار المقال موجة انتقاد عنيفة من صحيفة « النفير العثماني »(١٤) فاتهمته بتفرقة العناصر وتهييج الافكار ، واستجابت السلطات الى هذه التهم فأمرت وزارة العدلية بمحاكمة نجيب نصار الذي دافع عن نفسه على صفحات المقتبس(١٥) ، بأن كلامه « قد حرّف على النظارة وكتب بصورة مشوشة » ، وأملت المقتبس من المحكمة أن تنصف نجيب نصار ، اذ « أن أصحاب الجرائد لا يقصدون فيما يكتبون سوى مصلحة البلاد » . وأشار مراسل (جويش كرونكل)(١٦) في الاستانة الى هذا الحادث متهما مقالات (الكرمل) بأنها تثير العرب ضد اليهود وانها سبب ما يحدث فيها من الاضطرابات، وان صاحب الجريدة لم يرتدع بالعقاب الاول حين عطلت جريدته ، بل استمر في هجومه (البغيض) مما اضطر الطائفة اليهودية الى رفع دعوى ضد محررها . ويضيف المراسل ان « محاكمة نصار حضرها جمهور غفير من العرب حملوه بعـد تبرئته منتصرين في مظاهرات عدائية ضد اليهود ... وخشية من الهجوم أبرق اليهود الى الحاخام الذي قابل وزير الداخلية فأرسل تعليماته في الحال الى حاكم حيفا لمنع الاضطراب » . ان ما أوردته (جويش كرونكل) ، رغم المبالغة والتشويه ، يعطي فكرة عن مدى التأثير الذي لعبته الكرمل . وقد أشارت (جويش كرونكل) في عدد آخر الى وجود منظمة في حيفا هدفها وضع حد للاستيطان اليهودي تدعمها جريدتا الكرمل والمقتبس(١٧) .

ووجه كاتب فلسطيني (عبدالله مخلص) على صفحات المقتبس(١٨) كتابا مفتوحا الى مجلس المبعوثان حول خطر استعمار الصهيونيين على فلسطين كي ينبه الاعضاء الى « ... ان البلاد الفلسطينية أصبحت على شفا جرف من الخطر وقد لا يمضي عليها عشرات من السنين الا ويعمل بها ناموس تنازع البقاء عمله الطبيعـي ... وتصبح البلاد كليـا للاجئين ... » . ما يخشاه الكاتب في المستقبل « ... ان ينبذ الدخيل الاصيل ونخرج من بلادنا ... ، ثم نميل بوجوهنا الى بقعتنا النضرة نبكيها ... ويصيبنا مـا اصاب الاندلسيين في أواخر أيام ادبارهم ... » . ومع موافقة محمد كردعلي، صاحب المقتبس، على ما قاله (مخلص) ، الا أنه يرى ان مقاومة الخطر لا يكون بالاتكال على الحكومة أو مجلس النواب ، بل يشير الى خط آخر لرد هجمات الصهيونيين ـــ كان قد لمح له رشيد رضا في ١٨٩٩ في المنار ـــ وهو عدم الاكتفاء بالشكوى والاحتجاج ، بل نفض الكسل والعمل والاجتهاد والتعليم ، وان يصبح الصهيونيون مثلا للاقتداء . وعاتبت (الكرمل) محمد كرد علي بشكل رقيق فهي تتفق معه على لوم « الامة المتقاعدة اللاهية عن المصالح العمومية الا ان الظلم والجهل اوصلاها الى ما هي عليه فهي بحاجة الى وصاية الحكومة حتى ينهض بها رجال الاصلاح مثل كرد علي ... » . لقد كانت دعوة الكرمل منذ البداية بناءة ، فلم تكتف بالوقوف ضد اطماع « المستعمرين اليهود الاجانب » بـل كانت تشجع كل من يحيي الارض ويعمرها ، فثارت يوم هاجمت بعض عشائر البدو من حوران قرية

العدسية في اراضي بيسان ، وحثت حكومة طبريا كي تصون المشاريع الحيوية(١٩) . وقد تشدد نصار دعوته هذه مع تزايد الخطر .

وفي اواخر عام (١٩١٠) شغلت الكرمل بقضية الاملاك الاميرية الخاصة بالسلطان عبد الحميد المسماة « الجفالك السلطانية » او « الاراضي المدورة » ، والتي نقلت او (دورت) بعد خلعه الى الخزانة العامة ، وكان الفلاحون المقيمون فيها هم مالكوها الحقيقيون . ولكنهم تنازلوا عن ملكيتها فسجلت باسم السلطان كي تعفى من الضرائب وتنال الحماية . وتتوزع هذه الاراضي في ولايات سوريا والعراق والجزيرة . وكان نجيب ابراهيم الاصفر ، أحد اعضاء مجلس ادارة بيروت سابقا ، قد طلب امتيازا من وزارة المالية بان تؤجره هذه الاراضي لمدة ٩٩ سنة يقرضها مقابل هذا مائة مليون فرنك ، بشرط ان يتكفل باصلاح الاراضي . وابدت الكرمل قلقها بأن تكون الصهيونية والاموال اليهودية وراء هذا المشروع الواسع . وخاصة تلك الاملاك الاميرية الواقعة في فلسطين (غور بيسان واريحا) ، وبينت ان الدافع لطلب الاصفر هو شركة بلجيكية تعضدها الجمعية الصهيونية (وهي نفسها التي استثمرت الكنغو البلجيكي)(٢٠)، وان نجيب الاصفر او الشركة المحتجبة وراءه قصدت من تكبير المشروع ابعاد الشكوك عن الجمعية الصهيونية ومقاصدها في فلسطين .

ويبدو ان حملة الكرمل ، مع المقالات التي حررها الكتاب والصحفيون على صفحات الجرائد الاخرى ، والتي كانت اول عمل موحد ضد تزايد النشاط الصهيوني قد دفنت المشروع الى حين(٢١) .

رافق تلك الضجة التي اثيرت حول بيع الاراضي المدورة، ازمة اخرى اثيرت في قائمقامية الناصرة ، كانت عاملا اخر في توسيع الاهتمام العربي بقضية الخطر الصهيوني . وكان شكري العسلي قد عين قائمقاما على الناصرة في خريف ١٩١٠ ، حيث كانت تقع اخصب الاراضي الزراعية (سهل مرج ابن عامر) ، وكانت هذه الاراضي قد وقعت منذ ٤٠ عاما كصفقة واحدة بيد بعض الاسر الغنية التي تقيم في المدن خارج فلسطين وهي (سرسق وتويني وبسترس) ، وقد باع بعض ابناء اولئك الاغنياء ، ما ورثوه عن آبائهم فانتقلت معظم الاراضي الى أيدي الجمعية الصهيونية(٢٢) . وكان آخر الصفقات هي التي تمت في اكتوبر ١٩١٠ بين الياس سرسق ووكيل عن الجمعية الصهيونية(٢٣)لبيع اراضي قرية الفولة التي تقع بالقرب من الخط الحجازي بين حيفا ودمشق ، وبها قلعة تاريخية من ايام فتوحات صلاح الدين .

كان نصار قد زار شكري العسلي بعد ان ايقن ان نور الدين والي بيروت كان عازما على اجراء الفراغ للصهيونيين . ويروي نصار(٢٤) « ... سألت شكري في موقفه تجاه تلك الحركة المضرة فقال ما خلاصته: أنا شاب ونفسي تطلب العلى ولكن ثق بأني افضل العزل وخسران مستقبلي على التصديق على بيع وطني من اعداء امتي ودولتي .. » . فحث شكري اعيان القضاء بارسال برقيات الاحتجاج الى والي بيروت ليمتنع عن فراغ قلعة الفولة ، والابراق كذلك الى الصدارة والداخلية ورئاسة مجلس المبعوثان، وقدم حججه القانونية الى والي بيروت : فالبيع للاستعمار الاجنبي ، وقد اقرت الحكومة على منع بيع الاراضي الواقعة على جانبي الخط الحجازي ، والفولة قلعة تاريخية من فتوحات صلاح الدين تقع على ملتقى الطرق . وادعى الوالي بانه لا يوجد مانع قانوني لاتمام عملية الفراغ ، فالمشتري والبائع كلاهما عثمانيان(٢٥) . ورفض العسلي العمل بمقتضى هذا القرار فانذره الوالي بواسطة متصرفية عكا وكتب بالامر الى وزارة الداخلية على ان يطلب بعد ذلك عزله . وقبل ان يبلغ العسلي قرار العزل بلغه خبر انتخابه مبعوثا لدمشق بدلا من محمد العجلاني (المتوفى في يناير ١٩١٠) ، ولا شك ان الموقف الذي تبناه في قائمقامية الناصرة قد اضاف الى مؤهلاته ثقلا اخر ادى لفوزه باغلبية الاصوات .

دعم صاحب الكرمل ، وهو يراقب عملية الغولة ، موقف العسلي ، فشن حملة على البائعين في مقاله(٢٦) « نصب صلاح الدين بين الناصرة وطبرية » ساخرا من الاغنياء الذين لم يتورعوا عن بيع حتى نصب صلاح الدين بمال يسير ينفقونه على الملاهي ، ثم يعيشون في شقاء ويورثون ابناءهم بلاء .. » ويضيف « ... والله لو كان عندنا نصف ما كان عند اسلافنا من الحماسة والنخوة والوطنية لما حلم الصهيونيون باسترداد بلاد اجدادهم بالمال ... » دعوة الكرمل لم تثن الوالي او سرسق عن عزمهما امام مغريات الصهيونيين .

ولكن صدى حملة الكرمل في شرح ابعاد الخطر كان يصل الى الخارج حيث يتلقفه المثقفون العرب (في الاستانة او القاهرة وغيرها) ، كما ان بعضهم قد لمس النفوذ اليهودي في اوساط الاتحاديين ونتائجه البعيدة في تحقيق اطماع الصهيونية ، واتفق الجميع على خطورة المسألة الصهيونية في فلسطين ، الا انهم اختلفوا في تحديد مدى هذا الخطر ، فبينما وجد اولئك الذين في الداخل انه خطر سياسي مادي معا ، وجد الذين في الخارج ان الخطر المادي فقط هو الذي يهدد معيشة السكان . وكان من الفئة الاخيرة رفيق العظم ، احد الادباء السوريين والدعاة للنهضة العربية . وعلى صفحات جريدة (الحضارة)(٢٧) التي كان يصدرها المثقفون العرب في الاستانة كتب مقالا عن الاستعمار الصهيوني ، بعد ان غالت اكثر الجرائد السورية — على حد قوله — في ذكر الخطر الذي يتهدد البلاد من آمال الصهيونيين لاعتقاد أنهم يريدون اعادة « ملك اسرائيل في اورشليم ... » . ورفيق العظم يستبعد تحقيق الفكرة الصهيونية ولا يخشى من مهاجرة الاسرائيليين الى فلسطين الا من وجهين : بقاء اكثرهم على التابعية الاجنبية ، وهذا ما يجر مشاكل على الدولة ثم الناحية المادية التي تهدد الشعب الفلسطيني نفسه اذ « ان هؤلاء اليهود شعب مقتصد ، عامل ، نشيط ، والجمعية الصهيونية تتذرع بكل الوسائل المؤدية لراحته وترقيته ... ومن شاهد القرى التي استعمروها ... تحقق له ان خطر تنازع البقاء محيط بسكان البلاد ... » وحث الكاتب « على وجوب نهضة اهل البلاد لمجاراة اليهود ... والا كانوا طعمة لجيرانهم » .

مقال العظم لم يثر استياء الصهيونيين، بل أنهم شكروه على افكاره لانها «مهدئة للخواطر ومؤلفة للعناصر ... » ، بل لقد طلب احدهم من العظم ان يقنع المتهجمين على الجمعية الصهيونية بالاقلاع عن مهاجمتهم في الجرائد العربية « ... او اشغال الدولة بامور تافهة كالمسألة الصهيونية(٢٨) ... » . ووجدوا في قوله مناسبة لترديد حججهم بمنافع الصهيونيين . وكان ابرز المدافعين نسيم ملول(٢٩) الذي وافق العظم في نفي المقصد السياسي عن الصهيونية ، اما الامر الاخر الذي تخوف منه العظم فبرأيه ، ان ما يفيد الوطني العثماني هو « الجري في ميدان التسابق مع الاسرائيليين » . وفي كتاب له بعنوان « اسرار اليهود »(٣٠)، تعرض لمهاجمة الكتاب الذين يتولون حملة المعارضة ويصورهم بأنهم جهلة يرمون « الامة الاسرائيلية بمفتريات انتقلت الى الشرق من اوروبا بسبب ما رأوه من نجاح اعمال اليهود في فلسطين ... » واشترك نجيب نصار في الحوار(٣١)، ودون ان يشير الى مقال رفيق العظم — وربما عن تجاهل مقصود — فند اقوال المدافعين عن الصهيونيين الذين ينفون فكرة الاستقلال ، فاكد انها لا تزال تراود اخلامهم . اما عن دعوى فائدتهم للوطنيين فيأتي نصار بالادلة لما اوقعوه من ضرر بالاهالي « ... فان كانت جمعياتكم تقوم بعمل انساني بايجاد ملاجيء لليهود المظلومين في بلاد اخرى ، فلا يقضي ان تكون سببا باشقاء اهل البلاد ... » .

كل ما كان يتردد في الصحف العربية حول المسألة الصهيونية ، لم يدفع الحكومة لاثارة الموضوع على مستوى رسمي، « مع ان جماهير الاتراك عموما — كما يقول لوثر السفير البريطاني في رسالته الى وزير الخارجية —(٣٢). يلاحظون مدى النفوذ الذي يتمتع به

اليهود المتسترون (الدونمة) في سالونيك في السيطرة المالية والتجارة وعلى اجهزة الدولة ... وتطور هذا الاعتقاد الى ان هذا النفوذ يستخدم لتعزيز اهداف الصهيونية ». وكان جاويد وزير المالية (وهو من الدونمة) قد اثار الشكوك بانه هو ايضا « يعزز اهداف الصهيونية ، وذلك بسبب الصفقات المالية المشبوهة التي تولتها مجموعة اليهود الذين كانوا على صلة مباشرة به ... » . ومن هنا شنت المعارضة هجوما على الحكومة خلال مناقشات المبعوثان حول الميزانية (مارس ١٩١١)(٣٣). وتولى احد النواب — ولم يكن عربيا — وهو اسماعيل حقي ، نقد سياسة جاويد المالية ، واستنتج ان الحكومة تنفذ سياسة الصهيونية وتسمح لهم بمشترى الاراضي في فلسطين حتى يتوصلوا الى تأليف مملكة يهودية .. ودافع الصدر الاعظم عن موقف الحكومة تجاه الصهيونية محاولا التقليل من اهمية الحركة ووصفها بانها ذات طبيعة خيالية من نتاج قلة من الدجالين . ومع ان موضوع الصهيونية ، حين طرح على المناقشة العلنية ، لم يتعرض الى اهل البلاد والخطر المباشر اللاحق بهم ، الا ان الكرمل لجأت الى توضيح امور كثيرة بعد ان بينت مناقشات المبعوثان الجهل التام بخفايا الحركة . فقام نصار بنشر سلسلة مقالات في الكرمل جمعت في اكتوبر ١٩١١ في كتيب عنوانه « الصهيونية : تاريخها — غرضها — اهميتها » . وقد عمد نصار — كي يشرح هذا الخطر — الى ترجمة مقال عن الصهيونية من الانسكلوبيديا اليهودية(٣٤)، يستعرض فيه البدايات الاولى لنشأة الحركة الصهيونية حتى ظهور الصهيونية الحديثة التي تسعى الى تأسيس وطن حيث تسلطت الحركة على التاريخ اليهودي منذ ذلك الحين ، ويعلن بقوله « ان الحركة التي تتسلط على تاريخ امة او تشغله لا يمكن اعتبارها وهمية، ولا يصح وصف القائمين بها بالمتهوسين ». ويؤكد نصار ان العداء للاستعمار الاسرائيلي انما لانه يحمل غرضا سياسيا ، ويرد بذلك على المدافعين عن الصهيونية في صحف مصر وسوريا ، لان هذا القول ليس الا تضليلا . ويلوم نصار الذين يقولون بمنافع اليهود ويقرون بعجزها « ان لدينا الاستعداد الكافي ، وكل ما نحتاجه هو الامن والمساواة ونشر التعليم ... وقد جاء اليهود بهذا السلاح الاقتصادي الاجنبي ... جاءوا وهم يعرفون ان لدينا عقدة حب الاجنبي ، والخضوع له ، ولكن هذا لا يجب أن يدفعنا الى التقاعس او الشعور بالنقص ، حتى ولو كانوا اجانب وعلى رؤوسهم قبعات » . ويشير الكاتب الى المظاهر القومية للصهيونيين (طوابع ، بريد ، علم خاص) وانهم قد رفعوا علمهم في القدس منذ بضعة اشهر على النادي الصهيوني لما احتفلوا بعيد بن يهودا ، وباعوا الطوابع اليهودية علنا ، وان اسعاف النشاشيبي قد ابرق له بذلك ، ونشر البرقية في الكرمل ونقلتها سائر الصحف. غير أن الحكومة « ... لم تهتم للامر كما انها لا تهتم لمنع مهاجرة اليهود الى البلاد وتحميهم فيها ... » . ولا يخفي نصار اعجابه ببرنامج الحركة الصهيونية واساليبها ووسائلها ، ولا بأس من اخذ دروس مفيدة نتعلمها من خط سيرها . وتحت عنوان « ماذا نحتاج » كتب نصار « ... مشروع صغير يتطور الى عمل عظيم ... جامعة ... قيادة ... ثبات ... الاعتماد على النفس وليس على الحكومة ... قيادة مخلصة كهرتسل ... جمعيات وشركات وجمع اموال ... والقيام بمشاريع اقتصادية ... » ولكنه بنفس الوقت كان يخفي تخوفا كامنا « ... ونحن اذا كنا قضينا اجيالا نعاني البؤس والشقاء ... لماذا لا نصير رجالا ونمشي في طريق الحرية ونعيش لوطننا ولانفسنا ، فلا نستمطر لعنات اجدادنا وابنائنا علينا باضاعة بلاد اشتراها الاجداد بدمائهم » .

اثار قلق الدوائر الصهيونية ان تصور الصهيونية علنا انها خطر على الدولة، ورأت اتباع خط اكثر تشددا في الدعاية — بنفي الاغراض السياسية للحركة والتأكيد على المصلحة «المشتركة بين الطرفين». وساهمت المقطم في حملة التوضيح الصهيونية. كما ان المؤتمر الصهيوني العاشر في بال (اغسطس ١٩١١)(٣٥) كان مناسبة علنية للتصريح رسميا بكل

هذه الاراء. ومع ان الدعاة الصهيونيين حاولوا انكار كل علاقة لهم بالصهيونية السياسية فان الاستنتاجات التي وصل اليها نصار كان يؤكدها غيره من الغربيين انفسهم(٣٦). وجزم لوثر في رسالته الى وزير الخارجية البريطانية « ... ان الهدف الاصلي لهرزل بايجاد دولة يهودية لا تزال محفوظة في الذهن ... » واكد ذلك مراسل مجلة « الشرق الادنى »(٣٧) في فلسطين فوجد ان انشاء دولة يهودية مستقلة تتوارى مؤقتا الى حين تزال القيود على الهجرة وشراء الاراضي . وعندها يحققون مطامعهم القومية « من اجل ان يستأصلوا — او على الاقل يكتسحوا — في النفوذ ، ان لم يكن في العدد ، السكان الحاليين ، وان يقيموا دولة مستقلة ذاتيا » . ولاحظ القنصل البريطاني في بيروت(٣٨) ان الاستمرار البطيء في عملية شراء الاراضي واشادة المستعمرات يلاقي معارضة من جانب الفلاحين ، اذ يرونه « تهديدا لحقوقهم الخاصة وامتيازاتهم ... » وكانت اكثر الحوادث عنفا بنظر (جويش كرونكل)(٣٩) الهجوم على مستعمرة مرحافيا (المعروفة باسم الفولة) . واشارت الجريدة كذلك(٤٠) الى حالة الهياج التي تسود العرب في حيفا وعزت الى محرر (الكرمل) تهمة اثارة الجماهير ، وذلك بعد اجتماع شعبي تحدث فيه نصار حول المسألة الكريتية ، وقام شاب يهودي يطلب انزال نصار من على منصة الخطابة لانه « يبذر الشقاق بين فئات الشعب »، مما الهب جو الاجتماع، وانطلقت صيحات لالقاء القبض على اليهودي واتهامه انه منسدوب من قبل الصهيونيين لاحداث الشغب ، وتدخل البوليس لاعتقال اليهودي وافرج عنه بتوسط القنصل البريطاني .

وزادت قوة المعارضة في فلسطين ، بصدور جريدة اخرى في يافا في ١٤ يناير ١٩١١ هي « فلسطين » لصاحبها عيسى العيسى ، الا ان مباحثها في الصهيونية ظلت شبه معتدلة حتى صيف ١٩١٢ ، حتى ان التقارير الصهيونية لم تحكم عليها بعد « هل هي معنا او ضدنا »(٤١). وصدرت في القدس في ٨ فبراير جريدة (المنادي) لصاحبها سعيد جار الله، وصرح محررها محمد موسى المغربي بان المنادي انبعث منذ تأسيسها « مكافحة السياسة الصهيونية ... »(٤٢) . ولكن الكرمل ظلت حتى ذلك الوقت الصحيفة الفلسطينية التي تقود المواجهة ضد الخطر الصهيوني . وغالبا ما كانت صحف دمشق وبيروت تنقل عنها اخبار النشاط الصهيوني .

ومع ازدياد نشاط حزب المعارضة (الحرية والائتلاف) الذي كان ينادي بقدر كبير من الحكم اللامركزي (ويضم بين اعضائه عددا من العرب) ومع ازدياد النفور من الاتحاديين (الحزب الحاكم) الذي كان يبدي ميولا نحو السلطة المركزية والسيادة التركية ، اتخذت صحف دمشق — حيث يتركز نشاط ائتلافي كبير — خطا صريحا في الربط بين هجومها على الاتحاديين وحملتها ضد الصهيونية . ولم يكن هذا الاتجاه ملاحظا في الكرمل ، وان كانت توجه لومها الى السلطات المحلية لتهاونها . كان ذلك بدافع حرصها على كسب جانب الحكومة المركزية في صراعها مع الصهيونية ، ولا يمكن تعليل موقفها هذا بمعارضتها الاتجاه الائتلافي . فقد وجه نصار نداء على صفحات المقتبس الى اهالي دمشق يحثهم على انتخاب شكري العسلي (من كبار الائتلافيين) يعرفهم فيه بدور العسلي في الوقوف امام الصهيونية(٤٣). وكانت الحملة الانتخابية في فلسطين مناسبة لاظهار المعارضة العربية للصهيونية ، دون ان تتلون بطابع حزبي ، فقد وجهت الدعوة لانتخاب مرشحين يقفون بوجه خطر المهاجرة اليهودية بصرف النظر عن كونهم اتحاديين او غير اتحاديين . ولم يتغير اتجاه المعارضة مع فوز الاتحاديين ، ووجهت الكرمل انتقادا للسلطات المحلية بسبب المساعدة التي تقدمها لليهود في الحصول على الاراضي في مقال بعنوان (كلنا بياعون) ، ولفت هذا المقال انظار متصرف عكا فأقام الدعوى على صاحب الكرمل . وكان من المتوقع — كما يذكر مراسل مجلة (الشرق الادنى) في حيفا

ان تنتهي القضية لصالح الموظف الكبير ، ولكن الحكم اعطي للصحفي على اساس انه كتب « كعثماني مخلص نزيه »(٤٤).

وتفجرت في فلسطين حملة معارضة وانتقاد وجهت الى السلطات المحلية وافقدت ثقة الفلسطينيين باي حكومة مهما كان لونها ، وذلك مع قدوم المتصرف الجديد الى القدس (مهدي بك) الذي كان قد ارسل الى القدس من قبل الاتحاديين ، الا ان وصوله قد اتفق مصادفة مع استيلاء الائتلافيين على السلطة في يوليو ١٩١٢ وقام المتصرف بزيارة المستعمرات الاسرائيلية وخطب في ريشون لتسيون (عيون قاره) امام المستوطنين اليهود مؤكدا حسن نية الحكومة تجاه الصهيونية ومقاصدها ، وأبدى اعجابه بما حققه الصهيونيون من تقدم واعتبرهم « كمثال لبقية القرى العربية واساتذة وكتب حية لاهاليها الذين لا يعرفون القراءة والكتابة »(٤٥). كون الحادثة قد جرت في متصرفية القدس لم يمنع الكرمل من ان تشارك جريدة فلسطين في توجيه الانتقاد(٤٦). فقد أسفت لان المتصرف يجهل ، او يتجاهل ، مقاصد الصهيونية وينسب للحكومة انها ترحب بجمعية لها أغراض سياسية . وردا على قول المتصرف « ... انتم كتب واساتذة لجيرانكم الفلاحين ... » قالت الكرمل « ... يعز علينا ان يصدر هذا من ممثل حكومة تقضي ان تكون هي استاذ وكتب الفلاحين وان تنتظر من اعداء الوطن أن يكونوا اساتذة الاهالي وكتبهم ... »

هذا الموقف قد دفع الرأي العام في فلسطين نحو اليأس ، وفي الوقت الذي كان الرأي العام العربي في الخارج يقابل وصول الائتلافيين للسلطة بارتياح كبير ، على أمل تحقيق الاصلاحات اللامركزية ، كانت الكرمل تتساءل(٤٧) عن سبب بقاء مهدي بك متصرفا بعد أن كانت تعتقد انه قال خطابه بلسان حكومة الاتحاديين ، اما بقاؤه فيدل على رضا الحكومة الحالية عن اعمال الجمعية الصهيونية . لقد كانت الكرمل واثقة « ... ان بروغرامات الاحزاب لم يكن لها أقل تأثير على النفوس في هذا الموضوع، فالذي نستنتجه مهما اختلفت احزابنا وتغير شكل حكوماتنا ، اننا تجاه الصهيونية سواسية ، وآسفاه »(٤٨). وانتقدت الحزب الائتلافي الذي كان يعير حكومة الاتحاد بالصهيونية ، الا ان مساعيها (أي الصهيونية) في هذا العهد صارت اكثر نجاحا من قبل(٤٩). هذا ما دفع صاحب الكرمل الى توجيه انتقاده العنيف الى العرب من حزب الائتلاف (طلاب الاصلاح) في بيروت « ... والمضحك المبكي انه ما دامت حركة الاستعمار الصهيوني في فلسطين على هذا النجاح المستمر ، والصحافة المحلية صامتة عنها ، فعبثا يطلبون الاصلاح ... » وانتقاد الكرمل لم يكن معناه انها ضد الاصلاح بل ان الاصلاح هو مطلب أساسي لهدف واحد(٥٠) اذ انه « يحول دون آمال الصهيونيين التي لا تتحقق الا اذا كان الشعب جاهلا ومضغوطا عليه ... »

هذا اليأس من السلطة جعل لهجة الكرمل اكثر مرارة لان دعوتها لم تلق الاستجابة الكاملة وبرأي صاحبها(٥١) « لو ان جريدة اخرى فعلت ذلك صارت من اوسع الصحف انتشارا ، وصاحبها اعلى قدرا واعتبارا .. اما انا ما كسبت غير عداوة كثيرين من الزعماء والموظفين وافتراءات وتزوير ووعيد وتهديد ... » . وكانت المقتبس(٥٢) قد وجهت لصاحب الكرمل انتقادا عنيفا لانه لا يتبع خطة واحدة في الهجوم على من يبيع الاراضي ، اذ بينما ثار على (آل التويني) لرهن قريتي جيدا وتل الشمام (في مرج ابن عامر) سكت على معاملات مثلها يقوم بها زعيمان من لوائي عكا ونابلس (مصطفي الخليل وعبد الهادي عبد الهادي) لبيع قرية لهما (كركور وبيدوس في قضاء حيفا) .
اثار نصار في رده نقطة حساسة كان يشير اليها لاول مرة ، ولم يشر اليها ثانية ، وربما حنقه ويأسه قد دفعاه الى قول ذلك « ... هل يريد منتقد الكرمل ان تكون الكرمل وصاحبها (النصراني) احرص منهما (يقصد الخليل وعبد الهادي) على الوطن واحق

بالمحافظة عليه ؟ » الكرمل « ... ترى وهي (نصرانية) انه كثير عليهـا وحطة بشأن المسلمين ان تحمل على اعيانهم وامرائهم حملاتها على من يبيعون البلاد من المسيحيين ، وترغب ترك هذه المهمة للمقتبس والمفيد والراي والائتلاف والحقيقة والعلماء والمفتين » .

حرص الوطنيون على ان يهدئوا من ثورة صاحب الكرمل ، لانهم كـانوا يعلقون عـلى دعوته آمالا كبيرة ، فكتب له (عزة دروزه) من نابلس « ... ما نصرانيتك بضائرتنا ، ولا كرملك بهين علينا ، وتا الله انك بنصرانيتك ، عند عارفيك من المسلمين لاعظـم من كثيرين ينتحلون الاسلامية ولا يرقبون فيها الا ولا ذمة ويتبجحون بالوطنية ولا يرعون لها عدلا ولا حقا ... » . وينكر دروزه على منتقدي الكرمل تعريضهم به « ... أن لو كان لهذا الرجل ان يغش في مبدئه ويخدع الناس في وطنيته لكان له مرتع اخصب ونفع اغزر ... والكـل يعرف ما يدره اولئـك ... على مروجي مقاصدهـم وعلى كـم افواه المغرضين ... » ، ويدعوه الى مواصلة رسالته « ... لاننا نريد منك ان تكون ـ كما نعرفك ـ قوي العزمات ، شديد الحمـلات ، ولاننا نعـرف ان ارباب المبادىء الذين يعرفون ما هي المبادىء لا يحيدون عنها الا ان يظفروا او يقضوا ... » .

هذه الوقفة القصيرة لم تمنع الكرمل من مثابرة عملها ، وانكبت من جديد الـى الدعوة للوقوف في وجه الخطر السياسي والاقتصادي للصهيونية مع تحميل ابناء البلاد أنفسهم هذه المهمة . وكانت خطته ان يلاحق الامور التي تجري في الخفاء ، ويشتم منها رائحـة الخطر ، لينشرها على صفحات الجريدة باحثا عن الحقيقة . لم يمتنع عن سؤال قائمقام الناصرة (امين عبـد الهادي) عن اسباب تغاضيه عن اعمـال البناء التي يقوم بهـا الصهيونيين في الفولة . حاول القائمقام في رده(٥٣)، ان يبين ان عمليـات البناء ليست سوى مزاود للماشية (اواخير) . وتشككت الكرمل بصحة ما يقول ، فكل المستعمرات التي بناها الصهيونيون بنوها تحت اسم اواخير . وبسخر في تعليقه « ... فنحن لسنا اولى منه بالمحافظة على شرف القوانين وبمقاومة الصهيونيين ... ولا نحن واهلنـا نستفيد اكثر منه ومن اهله من بقاء الوطن عثمانيا ، لاننا لا نخاف من استيلاء الصهيونيين لا على زعامتنا ولا على وظائفنا ومعاشنا ، بل اننا نغار على مصلحة الشعب وزعامته على الاخص »(٥٤) .

رافق دعوة التوعية ، دعوة بناءة لانهاض احوال البلاد . فدعت الكرمل(٥٥) الفلاح الى تحسين اساليبه . ومن أجل الوقوف امام خطر القادمين الجدد لم تخف اعجابها بما حققه هؤلاء ، ودعت المواطنين(٥٦) ان يروا في تدابير الصهيونيين الذين قاموا « لاحياء قوميتهم وجمع جامعتهم في بلادكم وعلى حسابكم ... خير مثال تقتدون ... » . ورأت ان تضع خطة للعمـل بانشاء جامعة وطنية لاصلاح الاحـوال الاجتماعية ورفـع شأن الزارع والعامل والصانـع ومراقبة التعليم الابتدائي والحكومـات والموظفين وجمعيات علمية وشركات زراعية وتجارية وصناعية . وفي ردها(٥٧) على رئيس بلدية طبريا حول امتياز تعمير حمامات طبريا (التي كان في نية الحكومة اعطاؤها للصهيونيين) قالت « ... لا نكتفي بتعطيلكم مشروع الصهيونيين بالحمامات ولكن نريد ان نراكم قائمين به ... اننا مللنا الوعود وصرنا نشتاق للاعمال » .

في هذا الوقت الذي تخلى فيه الفلسطينيون عن الامل بـان تحدث السلطات المحلية او الحكومة المركزية أي تغيير ملموس تجاه عملية التسرب الصهيوني المستمر ، وبدأوا في تلمس حلول ذاتية لم تتضح بعد ، وخاصة ان الرأي العربي في الخـارج كانت تشغلـه التطورات الحزبية الداخلية ، نشبت الحرب البلقانية في سبتمبر ١٩١٢(٥٨) . ورغـم ان مسرح احداثها كان بعيدا فقد كان لها نتائج غير مباشرة على تطور المسألة الصهيونية ، بسبب استغلال الحركة الصهيونية لظروف الدولة العثمانية المالية الحرجة للحصول على مكاسب وتنازلات جديدة . وقد لاحظ القنصل البريطاني في القدس(٥٩) « ... ان الفئة

الوحيدة من السكان التي لاسباب خاصة بها ـ قد جـاهرت بمشاعر موالية متحمسة لتركيا هم اليهود الصهيونيون ... » بينمـا لاحظ ان الحرب لم تثر اي اهتمـام شعبي صحيح في فلسطين . كان اكثر ما يهـم الراي العام في فلسطين من الحـرب الدائرة في البلقان هو اثرها على صراعهم مع الصهيونيين ، اذ ما يتخوف منه سكـان فلسطين كما تذكر الكرمل(٦٠) هو « ... ان يصبح هؤلاء الاجانب اكثرية ... ويصيب هذه ما أصاب غيرها من الولايات التي انسلخت عن جسم الدولة ... » وانه اذا لم تنتبه الحكـومة ويتعاون الشعب لوقف التيار « ... فالصهيونية مالكة البلاد ولا محالة ، والعثمانيـون خارجون منها كما خرجوا من طرابلس ومكدونيا »(٦١).

لقد كانت النتيجة المباشرة لنشوب الحرب تزايد هجمة الصهيونيين عـلى عمليات شراء الاراضي ، مستغلين تغـاضي السلطـات المحلية وكذلـك اوضاع الفلاحين السيئة ، واصبحت اهم المواضيع التي تشغل الكرمل هي ملاحقـة البيوع للصهيونيين . وقـد استغرب نصار لكثرة هذه البيوع في مقال له جعل عنوانه « هجوم من كل الجهات يا هو واحدة واحدة ... »(٦٢). فقد سمع عن خبر مفاوضات بين الصهيونيين وصاحب اراضي الناصرة وبينهم وبين اصحـاب قرية سارونه وبينهم وبين بعـض أصحاب الاراضي في حيفا ، وكذلك اخبار رهن جيدا وتل الشمام وبيوع تجـري في يافا ومتصرفية القدس ، وتساءل « ... فما هذا الهجوم من كل الجهات ..؟ أيريد الصهيونيون ان يستولوا على فلسطين دفعة واحدة ، او يريد اهلها ان يبيعوهـا ؟.. اين الاوامر بمنع البيع لهـم وباسمائهم المستعارة ؟ اين حـزب الائتلاف الذي كان يشكـو من ترخيص الاتحاديين للصهيونيين بالتملك والتوطن في فلسطين ؟ » .

وكانت الكرمل تذكر دوما(٦٣) بمطامع الجمعيات الصهيونية التي تبغي الاستيـلاء على اخصب بقاع بلادنا وعلى موارد رزقنا « ... وبالنتيجة لتستأصلنا من قسم كبير منهـا وتحل فيه محلنا وتوجد لها قومية وتقيم حكومة على حسابنـا ... » وخوفا من هـذا المصير المظلم ، كان ذلك التشدد في انتقاد الزعماء والاعيان الذين تهاونوا في بيع الاراضي وتواطأوا مع السلطات المحليـة . وخاطب نصار الاعيـان قائلا « ... اليوم تقررون وتبيعون وتنقصون عديدكم وثروتكم بايديكـم وباختامكـم وتزيدون عديد الغير وثروته وملكه » . وتساءل في افتتاحية العام الخامس للجـريدة « ... ماذا يكـون شعورنا واعتقادنا بالشعب الذي ما زال زعماؤه وكثيرون منهم من طلبة الاصـلاح والمتظاهرين بالغيرة على سلامة الوطن يبيعون للصهيونيين ويشتغلون لهم كسماسرة ... ولا نسمع احتجاجا ولا نرى اهتماما ودلائل خوف من خطر داهم على حياة واستقلال وطن ؟ »(٦٤).

وظل نصار يتذمر دوما من قلة الاستجابة الكافية لدعوته وعلق على ما قالته جريدة مرآة الغرب (نيويورك)(٦٥) « ... لقد بح صوت صـاحب الكرمل وهو ينبه القوم الى هذا الغريب الذي لا يلبث ان يصير صاحب البلاد ... وليس من يسمـع » . بقوله « ... عجيب كيف ان صوتنا يسمع مـن وراء الاوقيانوسات الواسعة وتـردد صداه صحف مواطنينا الكثيرة في المهجر ... وبعض الموظفين والمواطنين هنا يصمون آذانهم ... ». وتعـرض نصار الى تواطؤ متصرف عكا وقائمقـام حيفـا لاتمام عملية بيع كركـور وبيدوس(٦٦). قدم نصار للمحاكمة من جديد ، ولكن بعد استماع مرافعاته قررت المحكمة في حيفا تبرئته بالاتفاق . وكانت هي المرة الثالثة التي يحاكم فيها نصار . وانتابت نصار موجة من اليأس خيل له ان عمله في السنين الاربع ذهبت عبثا ، وكان صديـق له من مصر (م خ) قد بعث يلومه لاضاعته الجهد والمال في الاقناع والتنبيه دون فائدة وخاصة انه لا حيلة أمام الصهيونيين ومالهم وخطرهم ، واجاب نصـار « ... صرنا نميل الى ترجيح فكرة ضرورة توسع الصهيونيين في سوريا وفلسطين حتى يضيقوا ولـو بعض الوقت على الاهالي في الاراضي والموارد الاقتصادية فيشعر حينئذ هؤلاء بحرج مركزهم

ويهبوا من نومهم ويلتفتوا الى اصلاح شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية ...(٦٧). مع كل هذا فصاحب الكرمل نفسه لا ينكر « ان عددا من المتنورين وارباب الصحف والموظفين قدر لنا هذه الخدمة وادرك الخطر وصار يتعاون معنا »(٦٨).

يكفي مثلا على قيمة الدعوة التي بثتها الصحافة الفلسطينية هو ان الصهيونيين انفسهم لم يستهينوا بها ومن هنا كانت الحملة الصهيونية المضادة لابطال مفعولها . وجهت هذه الحملة الى فلسطين والكرمل معا وخاصة بعد ان اتخذت جريدة (فلسطين) خطا صريحا في المواجهة . وشدت الكرمل ازر (فلسطين) ونبهت الحكومة الى تلك الضجة التي تثيرها ضد فلسطين جريدة « احيروت العبرانية وهي جريدة تعيش تحت سماء العثمانية وتخدم المبدأ الصهيوني ... »(٦٩). وعن طريق المقطم وجدت حملة الصهيونية المضادة بابا آخر ، وكانت الكرمل قد نبهت في أواخر ١٩١٢(٧٠) الى أمر اسكان الحكومة لمهاجري البلقان من المسلمين في فلسطين في القرى التي يبيعها اصحابها « ... فهذا اضمن لمستقبل العثمانية من الافساح للجمعيات الصهيونية بالاستعمار ... » . وهاجمت المقطم الفكرة لانها خطة خفية رتبتها الحكومة اضعافا للجنسية العربية . وعجبت الكرمل(٧١) « ... لاهتزاز احد مكاتبي المقطم لدخول مائة تركي الى سوريا هربا من ويلات الحرب ... وعهدنا بالمقطم مفتوح الصدر لمقالات الكتبة الصهيونيين الذين جاهروا بكون البلاد السورية قليلة السكان وان الصهيونيين آتون لاستعمارها واستثمارها ... » وتساءلت « ... ليس من المعقول ان يكون امثال (الدكاترة) غير مطلعين على الانسكلوبيديا اليهودية والحركة الصهيونية وتصريحات زعمائها ... فكيف لم يخف المقطم على العرب وعنصرهم من الصهيونية ... ولم يكتب كلمة تحذير منها » .

تطور جديد كان يحدث في الاستانة في مطلع ١٩١٣ ، اذ ان هزيمة القوات العثمانية امام جيوش حلف البلقان اعطى الاتحاديين فرصة اسقاط الوزارة الائتلافية ٢٣ يناير ١٩١٣ بحجة استئناف الحرب . ولم يكن للتغير الوزاري الجديد اثر كبير لدى الرأي العربي في سوريا وفلسطين ، اذ يضاف الى القلق الذي بدأ يساور العاملين بحركة الاصلاح ، نظرا لما يعرف عن الاتحاديين بالميل الى سياسة التتريك والمركزية الشديدة ، فانه فيما يتعلق بالمسألة الصهيونية لم يكن للاتحاديين سند كبير لدى الرأي المحلي لما بدا من ميل الحكومات الاتحادية لمناصرة الصهيونية . ظلت الكرمل حذرة ، واوضحت في كتاب مفتوح(٧٢) الى اعضاء الوزارة انه لم يبق للترك عنصر كبير غير العرب ليعتمدوا عليه في المحافظة على ما بقي من الملك وتقويته . واتخاذ هذا الموقف لم يكن يعني ان صاحبها من انصار الوزارة « اذ لن يكون ذلك قبلما تبين ابتعادها عن الصهيونية وعدولها عن سياسة تتريك العرب ... » أمر آخر دفعه الى التحفظ : اذ مع كون الوزارة الائتلافية كانت اقل ميلا للصهيونية من الوزارات الاتحادية ، الا ان موظفيها لم يظهروا اقل عناية في مقاومة البيوع الصهيونية ودفع خطرها عن البلاد . ومن جهة اخرى كان لا يزال يأمل « ... ان الاتحاديين بعد ان ... قاموا بعمل الانقلاب الاخير بحجة انقاذ الوطن ان لا يدعوا فلسطين تسقط عفوا في ايدي الاجانب الطامعين فيها ... » . ولكن التوقعات المتفائلة لم تدم طويلا ، فاستمرت كثير من معاملات البيع الكبرى التي بدأت في عهد الوزارة السابقة ، ووجد عرب فلسطين كما اشارت الكرمل ان الحكومات على اختلاف نزعاتها ، تتساهل مع الصهيونيين « فعبثا يحاول الوطنيون المخلصون الوقوف في وجه التيار الصهيوني » .

وفي خارج فلسطين كان بعض قادة الرأي العربي في الخارج قد فكر بحل اخر لمواجهة الصهيونية هو التوصل الى اتفاق معها لعوامل عديدة قد يكون من بينها محاولة نزع حليف ذي نفوذ مادي من يد الحكومة العثمانية . وحرصت الكرمل بادىء الامر على تجاهل الحوار الذي دار بين الكتاب السوريين والصهيونيين حول مسألة التفاهم العربي

الصهيوني في صحف مصر التي يملكها سوريون . ولا يعرف تماما سبب هذا التجاهل ... هل هو مجرد ترقب لما سيتكشف عنه من نتائج ؟ ام عدم تقدير لاهميته ؟ او قد يعود ذلك الى أن من يناقش الموضوع هم تلك الفئة السورية التي تتزعم الحركة العربية الحديثة ، وكانت تتجمع في القاهرة كنواة لجمعية سياسية (حزب اللامركزية) للمطالبة بالاصلاح . ومع تقدير هذه الفئة للخطر الصهيوني الا ان اهميته كانت تحتجب وراء الصراع لنيل الحقوق العربية داخل اطار الدولة العثمانية حين أصبح مستقبل الاجزاء العربية مهددا بعد ضياع الاجزاء الاوروبية .

بينما في داخل فلسطين ظل التخوف من الخطر الصهيوني وكيفية مواجهته هو الشاغل الاساسي ، لانه كان امرا يلحظه الجميع : عملية زحف على الاراضي يتم بمختلف الاساليب(٧٣) ثم زيادة عدد المهاجرين الجدد بشكل ملحوظ ، والاحساس بأن خطر الغزو الصهيوني لا يقتصر على انشاء دولة في فلسطين بل « تمتد الى منطقة الشرق العربي كله ، اذا لم يتدارك الخطر ... »(٧٤). بنظر الكرمل لم يعد مجديا كثرة الاحتجاج ولا لوم الزعماء ، وهي تعجب لاعضاء الاسر « الذين يدعون الامارة ولكنهم يريدونها على الحجارة ... » وتتساءل « ... كيف لا يخشى اصحاب الالقاب الضخمة وطلاب الزعامة الموهومة سوء المصير ...(٧٥)» . وتابعت حث المواطنين وخاصة الناشئة المتعلمة على انشاء الجمعيات التي تجمع كلمة اهل البلاد وترقي شؤونهم الاقتصادية والاجتماعية ، لان ذلك افضل من وضع افكارهم في مقالات يودعونها الصحف السيارة ، وهذه قلما تأتي بنتيجة ؟(٧٦). وتطلب منهم ان ينسجوا في ذلك على منوال الصهيونيين « ... فانظروا يا أبناء المدارس ... ان مؤسس الجمعية الصهيونية هو هرتسل ، رجل فرد ككل واحد منكم »(٧٧). هذه الامور كان يلمسها سكان البلد ، وكانوا أقدر على التحسس بها من الذين فتحوا الحوار السياسي مع الصهيونيين من اجل التفاهم .

وعاد مشروع استثمار الاراضي الاميرية يشغل صفحات الكرمل مع عودة الاتحاديين وحاجة الدولة الى الاموال . وشنت الكرمل حملة كبيرة على اخطار هذا المشروع الذي — وان كان يتناول الاراضي الاميرية كلها — الا ان اراضي فلسطين الاميرية في غور بيسان واريحا (٨٠٠ الف دونم) هي بيت قصيد الصهيونيين ، « فموارد فلسطين الزراعية المهمة تنحصر في ثلاث نقاط هي سهل « شارون » الذي استولى الصهيونيون على اكثره ، ومرج ابن عامر الذي وضعوا فيه قدمهم ، وغور الاردن القائمة الحركة عليه ، فمتى تم الاستيلاء على هذه اختنق الفلسطينيون ولم يبق لهم مورد اقتصادي »(٧٨). وقدمت الكرمل عدة اقتراحات اقتصادية اما بالمطالبة بتوزيع الاراضي على المزارعين واستيفاء بدل مثلها منهم اقساطا او تأليف شركة وطنية زراعية من اهل البلاد لشراء الاراضي او اخذ الامتيازات لاستثمارها .

كانت حملة الكرمل على بيع الاراضي الاميرية هي جانب فقط من دعوة عامة لمواجهة الخطر الصهيوني بكل الوسائل التي تحتاج تعاون الحكومة والحركة العربية الناشئة معا ، وهذا ما دفعها الى ان تربط بين نوايا الحكومة للتقرب الى العرب وبين تركها مشروع الاراضي الاميرية والوقوف بوجه امتداد الصهيونية(٧٩). ومن اجل هذا الهدف تطلعت الكرمل الى المؤتمر العربي الذي كان مزمعا عقده في باريس في يونيو ١٩١٣ . وقد كان يفهم ضمنا ان امر المسألة الصهيونية سيبحث مع المواضيع المطروحة على بساط البحث في المؤتمر ، اذ ان ما يهدد الاجزاء العربية من المطامع الاجنبية نظرا لسوء الادارة وعدم الاصلاح كان يبدو في فلسطين أكثر وضوحا(٨٠). وتوقعت الكرمل في « أن تنال البلاد من طريقه الحياة والنهضة »(٨١)، كل ذلك بهدف تأليف جبهة واحدة من العرب والحكومة للوقوف امام الخطر ، حتى لا يفسحوا للاجانب مجالا للاستيلاء على اوطانهم. والمسألة بالنسبة للكرمل ليست قضية احتجاج او معارضة بل دعوة الى النهوض .

وتقدم صاحبها باقتراح خاص الى اعضاء المؤتمر في باريس لتاليف جمعية اصلاحية اجتماعية تكون اهم واجباتها اصلاح المدارس وتاليف نقابات زراعية صناعية اجتماعية ، على ان يخرج المؤتمر بمادة حية وينسج فيه على منوال مؤتمر بال « ... بقي الشعب اليهودي مشتتا ٢٠٠٠ سنة حتى قام هرتزل ودعا الى عقد مؤتمر ، وتولدت فكرة تأمين جمعية صهيونية بتفرعاتها ، وتمكنت في ٥٠ سنة من نشر التعليم على قاعدة قومية ... وشراء خيرة اراضي فلسطين وجمع كلمة اليهود وفتح مصاريف لتسليف المزارعين ... فان نسجنا على هذا المنوال نجحنا ، والا فلا خير فينا ولا في مؤتمراتنا »(٨٢) .

وبدلا من تحقيق الامال الكبيرة التي عقدت على ما سيجري في باريس ، كان سكوت مطبق على مسالة فلسطين والصهيونية(٨٣) ، ثم تجاهل البرقيات التي رفعت الى المؤتمر من عشائر ومزارعي اراضي الغور مع ما فيها من مشاعر التخوف على حياتهم الاقتصادية(٨٤) . لم يتعرض نصار بادىء الامر لامر هذا التجاهل ولما وردت اخبار غامضة من الاستانة عن اتفاق عربي تركي وجه عدة تساؤلات في مقاله « على ماذا اتفقنا »(٨٥) فقال « ... هل جرى الاتفاق على الرضى بمناهضة كل حركة حياتية تظهر منا وترك ابناء الصهيونية ... يحيون قوميتهم بموت قوميتنا ؟... هل جرى الاتفاق على ان نبيعهم وطننا قطعة قطعة ليرحلونا عنه فرادى وجماعات ؟ » .

ولكنه من خلال نداء عام(٨٦) ناشد فيه كل من له اهتمام بمصير البلد تعرض بالنقد واللوم تجاهل المسالة الصهيونية في مؤتمر باريس « أيجوز يا طلاب الاصلاح ان يتمنى بعضكم في مؤتمر باريس ان يكون محط مهاجري الروملي في الاناضول لتخفيف الشقة عن السوريين ... وان لا تقولوا كلمة لمندوبي الحكومة أن تمليك الاراضي ... للجمعيات الصهيونية ... يضعف القومية العربية وبالتالي الجامعة العثمانية ... يا طلاب الاصلاح في بيروت ومصر كيف تطلبون للبيت سقفا وتغفلون عن وضع أساسه ، تطلبون الاصلاح لبلاد يسعى بتملكها الصهيونيون ... وانتم تشاهدون هذا ولا تعارضون ، كأنكم لا صلة بينكم وبين اخوانكم في العربية والعثمانية والوطنية في فلسطين ، أو كأنكم لا تعلمون ان ضياع فلسطين يقضي على آمالكم وحياتكم الاقتصادية ... » .

ووجه نصار لومه الى سكوت الصحافة العربية عموما عن الخوض في المسالة الصهيونية في حين « مخالب الصهيونية اوشكت ان تنشب في رقبة فلسطين المسكينة » ، وخص بلومه جريدة المقتبس نظرا لما لها من المكانة في العالم العربي(٨٧) . وقدرت المقتبس مشاعر نصار المتوجس خيفة على بلاده وهو خوف — كما تقول المقتبس — يتحسس به أهل فلسطين جميعا نظرا لانهم أعرف الاقاليم العثمانية بما جرّت الصهيونية على سكان البلاد الاصليين من المضار . وترى ان اهل فلسطين لا يهدأ لهم بال « ... الا اذا شاهدوك تخدم افكارهم في دفع الخطر الصهيوني عن البقية الباقية من اراضي اجدادهم ... وتمتعوا بخيراتها وأحبوا ان يتمتع بها ابناؤهم من بعدهم » .

ومع ذلك استمر التغاضي عن المسالة الصهيونية لدى الاوساط ذات الاهتمام بالحركة العربية ، حتى لقد بات نصار في مقاله « الى خبامك يا اسرائيل »(٨٨) يخشى على سكان فلسطين ان يقولوا « ... ليس لنا نصيب في طلاب الاصلاح وحزب اللامركزية ومؤتمر باريس .. نحن املنا ان يدفعوا عنا خطر الصهيونية ... لاننا فريق من العرب الذي يطلب لهم الاصلاح ، وهذا الفريق يؤلف قوة لا يستهان بها ، ووطننا جزء لا يتجزأ من الوطن العربي العثماني ... » . ويرى نصار انه اذا اهمل هؤلاء هذا الواجب فلاننا « نحن الفلسطينيين لم نبرهن عن اهليتنا لعنايتهم واهتمامهم بنا » . لذلك ، وحتى يكون لاهل فلسطين كلمة مسموعة يرى « أن تجتمع كلمتهم ... بتاليف جمعية وطنية لا صهيونية تحفظ البلاد لاهلها بترقية شؤونهم الزراعية والاقتصادية والعلمية وايجاد الالفة الاجتماعية فيما بينهم ... » . ويقترح ان يكون مركز هذه الجمعية مدينة نابلس

وان يبدأ بتأليف فروع لها في كل انحاء فلسطين ، حتى اذا قويت تمد فروعها الى جميع الانحاء العربية . ولو احسن تأليف هـذه الجمعية « لا تلبث ان تصير مرعية الجـانب ... في المجتمع العربي ... وحينئذ تضطر الاحزاب الى استمالتها وخدمة مبادئها للفوز بمساندتها الادبية ... » ويضع نصار اقتراحه امام كبار البلاد ومفكريها ليتداولوا فيما بينهم وليعلموا الحكومة برغبتهم في عقد مؤتمر لهذه الغاية في نابلس .

وزاد الحاح نصار على الدعوة الى فكرة المؤتمـر اللاصهيوني بعد رد جريدة الاصلاح البيروتية(٨٩) عن ضعف الامل بمساعيها لتلافي بيع الاراضي الاميرية . لقـد بدأ نصار يفقد ثقته بأي زعامة عربية خارج فلسطين لا تجد حدا للخطر الصهيوني . ومع ان هدفه من دعوة الفلسطينيين الى تأليف جامعة عربية فلسطينية قومية هو كي « ... لا تكون فلسطين سهلا يمر به الغزاة فلا يجدون فيه عقبة فيكتسحون البلاد كلها ... » ، الا انه دعا ان تكون هذه الجامعة قوية في نفسها ولا تكون عالة على بيروت او الشام او حلب أو العراق أو الحكومة العثمانية « فقوتها درع لهـا وحصن لجارتها ، وحكومتها » . ويضيف : «... على الفلسطينيين أن يعتمدوا على أنفسهم وخاصة ان الخطر السياسي والاجتماعي والاقتصادي يهددهم مباشرة ... علينا أن نطلب الحياة من طريقها الصحيح لا أن نقول للغير ارحمونا وادفعوا عنا البلاء ، ولا للطامعين فينا اشفقوا علينـا وكفوا عن الطمع فينا ، فهذه اقوال ليس لها وجود في قاموس تنازع البقـاء ... »(٩٠). ووجهت (المفيد) البيروتية(٩١) لوما لصاحب الكرمل لدعوته الفلسطيني قائلا « ما حك جلدك سوى ظفرك ، فقم للمدافعة عن نفسك بنفسك » ورد بقوله « ... معاذ الله أن نقصد بقولنا التفريق بين أهل بيروت وفلسطين ... ولكننا نريد ان يكون للفلسطينيين جامعة محترمة بذاتها » .

الدعوة لم تكن اقليمية ، والدليل ان الكرمل كانت ترقب باهتمام مساعي التفاهم التي كانت تبذل في باريس والاستانة للتقريب بين الحكومة ورجال الاصلاح ، ولكنهـا كانت تشترط ان أساس الاصلاح والتفاهم مع الترك هو عدم التفريط بالاراضي للصهيونية . لقد كانت تأمل(٩٢) « ان ينال الفلسطينيون من اتفاق العرب والترك نصيبا وهو بقاؤهم آمنين في أوطانهم وبقاء أوطانهم عثمانية » .

نجحت حملة الكرمل حول قضية الاراضي الاميرية وتراجعت الحكومة عن موقفها في بيع اراضي غور بيسان في اكتوبر ١٩١٣ ، لكن هذا لم يخفف مطلقا من دعوة الكرمل الـى مؤتمر نابلس اللاصهيوني . فكانت نقمة نصار عنيفة على ابناء الوطن ، زعمائه واعيانه بوجه خاص(٩٣) فدعاهم مرة « سكان القبور » لغفلتهم بعد ان مضى خمس سنـين والكرمل تنبه الى خطر الصهيونيين وهم « ... لاهون في اشباع شهواتهم وفي منازعاتهم ومشاحناتهم وغافلون عما يحدق بهم من الاخطار » حتى ان بعضهم يعمل « سماسرة صهيونيين وخدمة على ضياع وطنهم ... » . ويرى انهم لو لم يسارعوا الـى عقد المؤتمرات وتأليف الجمعيات التي تهتم باتقاء خطر الصهيونية عن البلاد صاروا « حكاية تاريخية بعد حين » . بل انه قرأ احكاما صادرة عليهم بأنهم ليسوا أهلا للحياة . ويذكرهم « ... أتنتظرون اذا في هذا الدور دور المصلحة والمنفعة ان ترحمكم الدول والحكومات والشعوب اذا بكيتم وتذللتم ... فالدنيا ما خلقت لغير القوي ، فمن العبث ان تعللوا نفوسكم بتأمين عدل القوي في الضعيف عن طريق الاستعطاف والاسترحام ، فكلما ظهر دليل على ضعف الضعيف هتف هاتف في صدر القوي ان اسحقه وامحقه فهو غير صالح للبقاء ، يشغل قسما من الارض ويعطله والارض انما خلقت للاقوياء ... »

لم يخرج المؤتمر الفلسطيني الى الواقع ، فقط سلسلة جديدة من الاجتماعات والبرقيات الى الجهات المسؤولة ، الا انه لا يمكن ان نقول ان دعوة نصار قـد فشلت ، فالجيل الجديد تجاوب معها ، ورحبت « الشبيبة الفلسطينية » في الآستانة بالمؤتمر الفلسطيني

لمقاومة الصهيونية(٩٤) . وتقدم طالب فلسطيني في القاهرة(٩٥) بمقترحات للمؤتمر وذلك بانشاء مصرف وطني يقرض الفلاح ويخلصه من السقوط بأيدي المستعمرين والمرابين .

ومع اقتراب المؤتمر الصهيوني الحادي عشر في فينا (سبتمبر ١٩١٣) استعد الصهيونيون لجولة عمل جديدة . ولم تكن اخبار الاعداد لهذا المؤتمر خافية على الرأي العام في فلسطين ، ومع الترقب والتخوف كان اعجاب وتحسر ، ودعوة للاقتداء. ولم ير نصار(٩٦) مانعا من ان يوفد السوريون من قبلهم وفدا ليحضر جلسات هذا المؤتمر ويقف ولو على بعض مقرراته العلنية . ووجد في الاعداد لهذا المؤتمر مناسبة للدعوة الى ابراز اقتراحه بعقد المؤتمر اللاصهيوني الى الوجود « ... فهلا اعتبرنا وعقدنا نحن ايضا مؤتمرا لمقاومتهم ... »(٩٧) وكان نداء حارا « ... الى المؤتمرات ، الى الجمعيات ، الى النهوض بالزراعة والمعارف ، الى ترقية حال الفلاح الاجتماعية ، الى التضامن الاقتصادي ، الى الحياة يا قوم ... الى الحياة والا فنحن بحكم التنازع منقرضون ... »(٩٨). وفي تعليقه على اخبار المؤتمر (٩٩) دعا الغيورين من العرب أن يقرأوا كيف تعقد المؤتمرات « كي يتهيأوا ويحاذروا وينتبهوا ... » ويرى انه « لو بقيت الامة العربية على تهاونها فالامة اليهودية تنال عطف الدول والعالم والكل يحكمون علينا بالموت ولها بحق الحياة ... » .

وكانت العلاقات العربية الصهيونية في الفترة التي سبقت وتلت المؤتمر قد بلغت أوجها من التوتر وتكررت حوادث الاشتباكات ، وكانت دليلا ان حياة المستوطنات لم تكن آمنة . ولم يكن أمر المعارضة العربية خافيا على الحكومة ، الا ان نفوذ القوى المالية التي تقف وراء الصهيونية قد دفع الحكومة الى ان تصدر في اكتوبر ١٩١٣ قرارا بالغاء (الورقة الحمراء) المفروضة منذ الحكم السابق على اليهود الاجانب الممنوعي الاقامة . وادعى القرار ان الالغاء انما بسبب سوء الاستعمال ، وأوكلت الى السلطات المحلية اتخاذ الوسائط لارجاع المهاجرين بعد ثلاثة شهور (١٠٠)وحصل الصهيونيون بذلك على الهجرة غير المحددة الى فلسطين . وكانت تعليقات الصحافة العربية في فلسطين على هذا القرار فاترة لعدم ثقتها بكل القوانين الصادرة عن الحكومة . ووجدت الكرمل(١٠١) في القرار ان الحكومة تعترف ضمنا بأمر عدم التعرض للمهاجرين في السابق ، لذلك كان الاولى بنظرها ان تلغي الحكومة الورقة الحمراء من دون أن تأمر باتخاذ الوسائط لارجاع المهاجرين « لان الورقة الحمراء لم تكن سوى حبر على ورق » .

وعموما فان لهجة الصحافة قد فترت في أواخر ١٩١٣ ، لان الحكومة ، رغبة باسكات المعارضة ، قد لجأت مرارا الى تعطيل الصحف الوطنية وتعريض أصحابها للمحاكمة وكان الصهيونيون وراء ذلك . بدأوا بتعطيل جريدة فلسطين(١٠٢) بحجة انها تطعن بالحكومة . وأعجبت الكرمل بموقف الرأي العام من تعطيل (فلسطين) اذ « ... يوم رؤيا الدعوى كانت القاعة مملوءة ... وهذا يدل على ان الامة تشعر شعورا حيا نحو صحافتها الراقية ... »(١٠٣). ووجهت ضد نصار تهمة ملفقة والقي القبض عليه . واشتبهت المقتبس(١٠٤) بأن الامر مدبر بدسيسة « لانه من المعلوم ان نجيب نصار هو في رأس المناهضين للصهيونية التي لم يعد أحد يجهل مقاصدها ... » وأفاض مراسل مجلة الشرق الادنى(١٠٥) في حيفا باظهار مشاعر الاهالي لدى سماعهم الخبر ، فتجمهروا خارج دار الحكومة وطلبوا الافراج عنه مما اضطر السلطات الى الرضوخ واغلاق باب التحقيق . ولم يكتف الصهيونيون بمحاولة اسكات الصحافة الوطنية المناوئة لهم ، بل تابعوا الرد عليها . فطرحت جريدة النفير العثماني في حيفا(١٠٦) (وهي من الصحف التي تمولها الصهيونية) موضوعا للمناقشة حول منافع ومضار الصهيونية . وما يلفت النظر ذلك الهجوم الذي شن على الصحف المعادية للصهيونية ، والادعاء بأن حملتها قد استلفتت انظار رجال الحكومة الى نفع الصهيونية وعرفتها بأصدقاء لها في الصحافة

العربية ، وكان نصيب نصار أكبر قدر من هذه التهم بأنه أنشأ جريدته للتشفي والانتقام من الصهيونيين بعد خلافه معهم في طبريا ، وانه يبالغ في الهجوم كي ينال مالا من الصهيونيين الخ ...

وبعد فترة التغاضي المكره عن تناول موضوع الصهيونية ، تجددت الحملة الصحفية مع قرب الانتخابات للمبعوثان . وردا على مطلب صهيوني بتعيين حاكم يهودي في احدى المدن الفلسطينية قالت جريدة فلسطين(١٠٧) (التي شددت حملتها منذ مطلع ١٩١٤) بأن « فلسطين تنتفع كل الانتفاع من تعيين حاكم اسرائيلي ، ولكن بعد أن يغادرها كل من لا ينتسب لاسرائيل ، ليكون حاكم واحد لشعب واحد ... » . ووجدت الكرمل(١٠٨) في هذا الطلب تتمة لسلسلة محاولات يقوم بها اليهود للوصول الى المناصب الحكومية ، ولذلك تقترح ان كان لا بد من تعيين حكام اسرائيليين فليكن خارج فلسطين حيث لا تخوف من الجمعيات السياسية . وظلت الكرمل على خطتها في تذكير الاهالي من مستقبل يجردون من الاراضي ويطردون من البلاد(١٠٩)، ودعوة الزعماء والشبيبة وقادة الرأي للعمل المنظم لمواجهة الخطر وتأسيس الجمعيات واحياء الزراعة(١١٠) .

ومع ازدياد الهجوم على الصهيونية كان لا بد من ايجاد حل ، وكانت الضحية جريدة فلسطين والمسبب السفير الاميركي في الآستانة (هنري مورغنثو) وهو يهودي حضر الى فلسطين أوائل ابريل ١٩١٤ في زيارة تفقدية مماثلة لتلك التي قام بها قبل أسابيع البارون روتشلد ، وكلا الشخصيتين لها وزنها في العالم المالي والدبلوماسي . وأبدت الصحافة العربية قلقها ، ووعد صاحب جريدة فلسطين قراءه في نصيحة صغيرة(١١١) « ... ها نحن سنستمر على الوقوف بازاء الصهيونيين الى يوم ترتجف فيه اعصاب الامة وترى الحفرة الهائلة التي تنتظرها فتدوي دوي السيل الجارف وتلعلع لعلعة النار الآكلة وويل لظلمة الشعب من ذلك اليوم ... » . وفي يوم ٧ ابريل أصدرت وزارة الداخلية، وبتدخل من السفير الامريكي ، أمرا يقضي باغلاق الجريدة واقامة الدعوى على مديرها المسؤول بحجة انها تفرق بين العناصر . ويعلق القنصل البريطاني في القدس على الحادث « ... ان المقال انما يعكس بصدق الاستياء المتزايد بين العرب ضد الغزو اليهودي»(١١٢) . وعللت جريدة مرآة الغرب(١١٣) اسباب الابقاء على الكرمل صاحبة الحملات الشديدة على الصهيونيين بأن الكرمل تصدر في حيفا وهي بعيدة عن مركز الحركات الصهيونية بعكس جريدة فلسطين ، ولكنها تتوقع ان يتمكن (مورغنثو) بنفوذه السياسي من حمل وزير الداخلية على تعطيل الكرمل ايضا ، « ... وتتجرد البلاد من كل سلاح ضد الصهيونيين » . واتخذت محاكمة صاحب فلسطين شكل مقاضاة بين الصهيونية وخصومها ، مما اضطر وزارة الداخلية الى الحكم بالبراءة .

كانت أكثر حملات الكرمل عنفا ، والتي شغلته حتى قرب نشوب الحرب العالمية الاولى ، قضية التفاهم العربي الصهيوني . اذ كانت الفكرة التي طرحت علنا في (الاهرام) في فبراير ١٩١٣ وما تلاها من مباحثات خفية قد عادت للظهور . والمهم في هذا التطور الاخير ان صاحب الكرمل قد عبر عن رأيه بطريقة ليست في صالح متبني الفكرة . وكان قد بلغ مسامعه منذ اكتوبر ١٩١٣ ان أحد العرب في الآستانة يسعى لبناء اساس الاتفاق بين العرب والصهيونيين فتساءل « ... على ماذا يتفقون ؟ أعلى بيع البلاد ؟ الصهيونيون يريدون ملكا في فلسطين العربية ، أترضى الشبيبة الطاهرة بذلك التوقيع بيدها على القضاء على حياة بلادها وقوتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ؟ » واستنجدت بعبد الكريم خليل ، رئيس المنتدى الادبي في الآستانة ومعتمد الشبيبة(١١٤) « ... عبد الكريم ، حاذر أن تسقط من شاهق ، أصبح مركز الشبيبة حرجا لان الثقة وضعت فيها ، اننا نعتقد بأنه لا يوجد ولا يهوذا (اسخريوطي) واحد بينكم يبيع سيده وبلاده ... » . وعلى صفحات الكرمل جاء رد احد اعمدة الشبيبة العربية في الآستانة (سيف الدين

الخطيب) القائل(١١٥) « ... اني لا أشك بشباب عربي يوافق احدا على بيع بلاده ... فليعلم الصهيونيون وغيرهم بأن في عاصمة الملك مئات عديدة روحهم مـن روح نجيب نصار ... وان كان من الممكن اقناع نجيب نصار بالاتفاق مع الصهيونيين ، فمن المحال تغرير ابناء اليوم ورجال المستقبل أن يأتوا بمثل هذه الخيانة العظيمة » .

مهما كان صدق هذا النفي فالمفاوضات كانت جارية، وطرحت عروض صهيونية في جريدة المقطم علنا ، وفتح حوار مع أقطاب حزب اللامركزية حول امكانية التفاهم . وتوجـه صاحب الكرمل في ١٧ ابريل ١٩١٤ بسؤال الى « كتبة الصهيونيين المتموهين الذين ... يقولون ان الصهيونيين قرروا ان يتفقوا مع العرب ... » . كيف يوفقون بين هـذه الاقوال وأقوال كتبتهم وأعمالهم في فلسطين . ويضيف « ... هل تريدون الاتفـاق لتسلبونا وطننا وثروتنا وتؤسسوا أمة وملكا لكم ... » ويعتب على جريدة كبيرة كالمقطم « كيف تقبل نشر التمويهات التي لا نشك بأنها لا تنطلي على العالمين الكبيرين ، والوطنيين العظيمين ، نمر وحروف » . وينتهزها فرصة للوم المواطنين(١١٦) « ... لو كان لكم رأي عام لما رضيت جريدة كالمقطم ـ ولو حياء من الرأي العام ـ ان تنشر تمويهات ... بأن الصهيونيين يريدون الامتزاج بالعرب والاختلاط بهـم ... وأنتم تعلمون ماذا يعمـل الصهيونيون في بلادكم وأصحاب المقطم اعلم منكم بذلك ... » .

وبلغت ثورة نصار أوجها في رده على اقتراح صهيوني بعقد مؤتمـر مشترك بين زعماء العرب والصهيونيين للتوصل الى اتفاق يرضي الطرفين ، ووعد رفيق العظم (رئيس اللامركزية) ببذل المساعي لدى (سراة) البلاد الفلسطينية لينتخبوا مندوبيهم . بدأ نصار بمهاجمة المقطم(١١٧) « ... على رغم كون صبيان الازقة مـا عادوا يجهلون مطامـع الصهيونية ومراميها ، فالمقطم لا يزال ينشر لمن تسميهم زعماء الصهيونية أقوالا تمويهية المقصود منها ذر الرماد في الاعين بأن الصهيونيين يريدون الاتفاق مع العرب وانهـم مخلصون للعرب والدولة ... » ثم يوجه الهجوم الى رفيق العظم متهما اياه بأنه سمع بخطر الصهيونية ولكنه لم يقرأ عنها ، ولم يتبين من أعمالها شيئا كثيرا « ... فكيف اذن يمكن الاتفاق مع قوم أجانب ... يعملون على نزع وطن العرب من أيديهم واقامة وطن وملك لهم فيه ... » اما عن السعي لدى سراة فلسطين ليعينوا مندوبهم في المؤتمر فيقول نصار « ... لو علم الزعيم ان مصائب فلسطين تأتيها من بعض سراتها أكثر مما تأتيها من الصهيونيين ، لان هؤلاء هم سماسرة الصهيونيين والبياعين لهم ، لما قال ان لجنة الحزب تسعى لدى السراة ... »(١١٨). لقد رأى نصار ان الشبيبة وحدها هي التي تدرك خطر الصهيونية وهي « التي ينبغي ان تفاوض في أمرها اذا كان يروق لها المفاوضة على وطنها ... » انه يدعو لجنة حزب اللامركزية أن تخرج الى حيز التنفيذ الوسائل الكفيلة بانقاذ الوطن فتكسب ثقة الشبيبة السورية « فالاحزاب خلقت لتعمل وتخـدم مصالح الشعب لا لتقول ... »(١١٩). ومع ان قضية الاتفاق العربي الصهيوني قد سكت عنها في الصحافة العربية ، الا أن المساعي من أجل هذا الاتفاق استمرت في الخفاء(١٢٠). وعجز الرأي العام عن ملاحقتها في حين كان الموقف العربي في فلسطين قد بدأ يتحول في غير صالح الاتفاق ، فأعمال الصهيونيين كانت تناقض دعواهم بالتقارب ، وتيارهم كان مندفعا بشدة الى الامام .

وفي أثناء دعوة نصار للبحث عن الاساليب الذاتية المنظمة لمواجهة الخطر ، دخل في جدل صحفي مع الفيلسوف شبلي شميل . فقد تقدم شميل للبحث عن حل لمواجهة الخطـر الصهيوني في مقال نشرته له المقطم تحت عنوان « عمروا واستعمروا فالارض ميراث المجتهد ... »(١٢١) ورأى أن يثبت هذه الحقيقة العمرانية : ان الانسـان وجد على الارض لتعميرها لا لتخريبها ، وان حجتنا على الصهيونيين انهم دخلاء يعتدون علينا حجة واهية كبكاء الاطفال ، وبالقيام عليهم بالقوة نجني على العمران . الحل بنظره ان نتذرع

بقوة تضاهي قوتهم ونكون واياهم أكفاء رحمة بالارض ، وان نتبارى معهم في الاعمال العمرانية « ... فلنجد ولنكد نظيرهم ... ما دام الناموس العمراني العام يقضي بأن الارض ميراث المجتهد ... ». ورغم ما في مقال شميل من حقائق جارحة فان الكرمل أيدت آراءه ، على اعتبار انه «لا يمكننا حفظ كرامتنا الا بمناهضة الصهيونيين بالعقل ومباراتهم بالاعمال العمرانية ... »(١٢٢). وكان نصار يعتقد ان شميل قد كتب المقال في ساعة حنق من تغاضي الحكومة والاهالي عن النهوض بالاحوال العمرانية ، ولم يخطر له انه سيقوم في مقال تال في الاهرام(١٢٣) يندد بخصوم الصهيونية لانه ليس في كتاباتهم غير التحذير من الصهيونيين ووجوب مقاومتهم لا بالاقتداء بهم انتكافأ القوتان ، وانه لم ينتج عنها الا تمكين العداء وتضليل الجمهور « وشحذ سلاح قابيل ضد هابيل ، لا شحذ سلاح العلم لنصرة العلم ... ». وعجب نصار في مقاله « معك حق ومعنا حق »(١٢٤) من الفيلسوف الذي ينكر على خصوم الصهيونية حقا مشروعا وهو الدفاع عن بقائهم ويتهمهم بتضليل الجمهور مع ان مقالاتهم تدعو الى الالفة وتكوين الرأي العام وكل نهضة علمية وعملية اجتماعية . ولفت نظره الى ان العرب « ليسوا كما يخيل لكم ضعفاء ، بل هم أقوياء ... واليهود الذين جمعوا كلمتهم ليسوا أرقى من مجموع العرب ، ولكن الفضل في حركتهم لزعمائهم ... » ويسأل نصار « ... فلماذا لم تقتد انت وصروف ونمر ورفيق بهرتسل ونوردو وغيرهم لتكوين رأي عام في قومكم كما فعل أولئك في قومهم ، وتؤلفوا شركات ونقابات وجمعيات تعمل للعرب افضل مما تعمله الصهيونية لليهود ... » ورد شميل(١٢٥) على انتقاد نصار له ولسائر المفكرين والزعماء بقوله « ... قل لي كم نصرك من قومك اذا دعوت الى عمل ... بل قل لي كم يكون شاتموك فيما لو قصدت زحزحتهم عن مألوف ... » . ونشرت الكرمل الرد حتى يكون حافزا امام الشبيبة الناهضة كي تتولى هي مهمة انقاذ الوطن ، وأملت من الفيلسوف ان يسير هو في طليعة الشبيبة لقد شعرت الكرمل ان اسلوب الجيل القديم قد عجز عن وقف الخطر ، وانه لا بد للشبيبة المثقفة التي تنبه شعورها الوطني ان تتولى قيادة الرأي العام في فلسطين وبالقيام بأعمال تنهض بأحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية . وكان قد بدأ بالفعل تشكيل جمعيات فلسطينية (لا صهيونية) داخل فلسطين وخارجها كأول خطوة في العمل المنظم ، ففي القاهرة الف طلبة الازهر من الفلسطينيين جمعية لا صهيونية(١٢٦) ، والف طلبة نابلس في كلية بيروت الامريكية جمعية الشبيبة النابلسية(١٢٧). وفي الآستانة قام الشبيبة الفلسطينية بايجاد جمعية تسعى لجمع كلمة الفلسطينيين خاصة والعرب عامة وذلك للعمل على ما يعود بالنفع على البلاد وخاصة مقاومة التيار الصهيوني ، على ان يجعل مركز الجمعية في القدس ويفتح لها شعب في انحساء فلسطين وشعبة دائمة في الآستانة(١٢٨). وسعت الكرمل في مقال « يا شبيبة فلسطين ثبتي وجودك »(١٢٩) الى دعوة الشبيبة المتعلمة كي تحول دون انتقال الاراضي من ايدي الوطنيين وذلك بالتأثير الادبي على اصحاب هذه الاراضي « اذا لم تستطيعوا ان تمنعوا آباءكم عن بيع اوطانكم ، فلا أقل من أن تحتجوا عليهم .. وتخرجوا من بيوتهم ، فخير لكم ان تكونوا فقراء شرفاء من أن تأكلوا خبز بيع الارض لذوي المطامع السياسية فيكم ... » ودعا نصار الشبيبة ان تعمل مستقلة عن الزعامات التقليدية وتعتمد على نفسها في مسعيها لانهاض احوال البلاد « ... ولا ينفي ذلك وجود ذوي مبادىء رفيعة في الجيل السابق ، ولكن هؤلاء يعاونون الشبيبة بمالهم وآرائهم من دون ان ينتظروا تقليدهم زعامتها ، لان الذين تقلدوا زعامتها من قبل اتخذوها سلما لنيل مآربهم » .

عدم الثقة بالزعامات التقليدية قد دفع نصار الى ثورة عنيفة حين تبين له ان حقي العظم هو رئيس جمعية تشكلت في القاهرة من الشباب العربي السوري والفلسطيني باسم جمعية مقاومة الصهيونيين(١٣٠) وتقدم القائمون بأمرها بوضع برنامج يتضمن مقاومة الصهيونيين بكل الطرق المشروعة أذاعوه في منشور خاص وزع في القدس . وفي مقال

نصار « اعملي مستقلة أيتها الشبيبة »(١٢١) يهاجم حقي ورفيق العظم بصفتهما من حزب اللامركزية الذي يرغب في عقد مؤتمر للتوفيق بين مصالح العرب والصهيونيين . ومع احترام نصار لشخصيهما الا انه اظهر عدم ارتياحه لقيامهما بتأليف جمعية باسم مقاومة الصهيونية في حين انهما يسعيان لعقد مؤتمر للاتفاق مع الصهيونية « لان المقاومة دفاعا عن الحياة لا تتفق في عرفنا مع السعي للاتفاق مع الخصم ، الامر الذي لا يمكن حصوله بدون التنازل عن الحياة الوطنية والاستسلام » . ويرجع نصار سبب تأليفهما هذه الجمعية الى « شعورهما بنهضة الشبيبة الفلسطينية ... فرغبا ان يستجلبا هذه الشبيبة ليستخدماها في مصلحة حزبهما ... بحيث يرى الصهيونيون ان لهما حول وطول فيوافقونهما على عقد مؤتمر ... فيتفقون على اطلاق يد الصهيونيين في فلسطين بمقابلة مساعدات ربما مادية لحزب اللامركزية وشروط وهمية يفرضها هذا الحزب على الصهيونية ... » . كل ما يطلبه نصار من الزعيمين ان يكونا قدوة للشبيبة الفلسطينية ، اما بالنسبة للوقت الحاضر فهو ينصح الشبيبة في فلسطين وسائر البلاد العربية ان تعمل مستقلة لتأليف رأي عام « وان لا تدع أحداً يتخذها سلما » .

لم تهدأ ثورة نصار الا بعد أن تراجعت اللامركزية عن فكرة الاتفاق ، وعلى صفحات المنار(١٢٢) أكد رشيد رضا ، أحد البارزين في اللامركزية ، خطر الصهيونيين الذي « ... يمتد الى سوريا حتى النهر الكبير أي نهر الفرات ... » وأمل بأصحاب فلسطين ان يعملوا على المحافظة على وطنهم وأملاكهم ، وهو واثق ان قوة واستعداد الشعب العربي كامنان فيه «كمون النار في حجر الصوان تحت الثلج ...» .وقام محمد المحمصاني باسم جمعية العربية الفتاة بتقريب وجهات النظر ، بعد أن كاد يصيبها التمزق ، لاتخاذ موقف موحد ازاء المسألة الصهيونية فوضع اقتراحا جامعا(١٢٣) يقف فيه العرب معا ، والسوريون بوجه خاص ، بصدد خطر يهدد سوريا كلها ، تتولاه فئة مؤمنة بالفكرة العربية لها دعامتها من الشبيبة المتعلمة ترى وجوب دفع الخطر الصهيوني بجميع الوسائل لا فرق بين انشاء الجمعيات وبين تأليف العصابات المسلحة .

هكذا بدت دعوة نصار على وشك أن تحقق ثمارها ، ولكن نشوب الحرب العالمية لم يتح الفرصة لتطبيق هذا البرنامج ، وشغل الشرق العربي بأحداث الحرب حين أصبح احد جبهاتها ، وانصرفت الحركة العربية عن ملاحقة المسألة الصهيونية اذ انتقل نشاط الحركة الصهيونية الى مجالات عالمية . كما شتت حملة ملاحقة لاقطاب الحركة العربية، فمن كان منهم في الخارج فقد نجا ، ومن كان في الداخل قدم الى أعواد المشانق او نجح في التخفي والفرار ، وكان نصار من الفئة الاخيرة . وقد روت لي أرملته (منذ عامين) قصة اختفائه حيث نزل اولا عند آل الفاهوم في الناصرة ثم عند عرب السردية حيث عمل في رعاية الغنم مدة سنتين ونصف تقريبا ، ولكن حين هدد بنفي اشقائه وأصدقائه الى الاناضول سلم نفسه الى قائمقام الناصرة (فوزي الملقي) الذي دبر له مقابلة مع جمال الصغير (المرسيني) وتأثر هذا من دفاع نصار عن نفسه ومهاجمته مظالم الدولة العثمانية فأرسله الى دمشق حيث اوعز بمماطلة الجلسات الى حين استدعاء جمال باشا (السفاح) الى الاستانة فصدر عفو عن نصار قبل انتهاء الحرب بفترة وجيزة . وقد صور نجيب نصار حوادث الحرب العالمية الاولى وملاحقته في كتابه «مفلح الغساني» وهو الاسم الذي تنكر به اثناء الحرب .

وقد تابعت أرملته حديثها عن عودة الكرمل الى الظهور ثانية في فترة الانتداب البريطاني، حيث سارت على نفس الخطة السابقة بمهاجمة الصهيونية وتصوير اخطارها مما عرّضها عدة مرات للتعطيل . وكانت زوجته تساهم معه في التحرير ، واعتقلت عام ١٩٣٨ لمدة احد عشر شهرا بتهمة امداد الثوار بالاسلحة . وأعلنت الحرب وكانت لا تزال في معتقلها في بيت لحم . وفي عام ١٩٤٤ ختمت الكرمل بالشمع الاحمر تحت نظام

الاحكام العرفية . وما يؤثر عن نصار — كما روت ارملته — انه اعتاد ، في حالة وجود سطور فارغة في الجريدة ان يملأها بشعارات معينة مثل « لا تشتروا من اليهود شيئا الا الارض ، بيعوا اليهود كل شيء الا الارض » . وتوفي نجيب نصار في ١٢ مارس ١٩٤٨ في الناصرة التي نقل اليها من حيفا اثر اشتداد المرض عليه ، واوصى زوجته وهو على فراش الموت « . . . ان الناس لم تفهم الصهيونية بعد . . . اوصي كل غيور بالذهاب الى دمشق لمتابعة النضال . . . » . وهكذا مضى احد الرواد الذين فهموا أسرار الصهيونية ونبهوا الى أخطارها .

الحواشي

١ — الصفحة الخامسة من مقدمة كتاب : Azouri, N., *Le Reveil de Nation Arabe,*

٢ — *Jewish Review,* January, 1912 pp. 383-85.

٣ — (رسالة لم تنشر بعد)
Mandel, N., *Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine,* Oxford Middle East Centre 1965, pp. 290-291.

٤ — Esco Foundation for Palestine, *Palestine, a study of Jewish, Arab and British Politics,* Vol. I. p. 449. Yale University Press, 1947.

٥ — لم تتوفر مجموعة الكرمل الا بين ١٩١٢ — ١٩١٤ في دار الكتب الوطنية في القاهرة ، وبضعة أعداد متفرقة في دار الكتب الوطنية في بيروت ، الا انه أمكن تغطية هذا النقص بالعودة الى جريدة (المقتبس) الدمشقية ومجموعتها شبه كاملة (١٩٠٨ — ١٩١٤) في دار الكتب في القاهرة . وكانت تخصص صفحات كثيرة لبحث المسألة الصهيونية وتنقل اخبارها عن الكرمل وخاصة انه كانت تربط نجيب نصار بمحمد كردعلي (صاحب المقتبس) صداقة .

٦ — روت لي ارملة نجيب نصار انه بعث بأخيه الى القاهرة بعد تغير نظام الحكم في الاستانة للاتصال بأحد محرري المقطم (خليل ثابت) ليطلب منه متابعة نشر مقالاته حول الصهيونية وكان رده . . . « اننا منعنا عشرات السنين من زيارة لبنان ، والان بعد أن سمح لنا هل تريدنا ان نمنع ثانية ؟ » .

٧ — *Mandel,* pp. 204-205.

٨ — ايليا زكا هو صاحب جريدة **النفير العثماني** في القدس ثم حيفا وكان يمولها بنك انجلو فلسطين الصهيوني في يافا وتولت فيما بعد حملة الرد على الكرمل .

٩ — رسالة شخصية بعث بها نجيب نصار ، ١٣ يونيو ١٩١٠ ، الى فيليب دي طرازي ، الذي كان يعد كتابه **تاريخ الصحافة العربية** ، بيروت، ١٩١٣ — ١٩١٤ (٣ اجزاء) .

١٠ — **الكرمل** ، ١٥ يونيو ١٩٠٩ .

١١ — **جراب الكردي** ، ٣٠ — ٣١ يونيو ١٩٠٩ .

١٢ — Roi, V., *The Zionist Attitude to the Arabs, 1908-1914,* Middle Eastern Studies, April 1968, pp. 200-201.

١٣ — اشارت له **المقتبس** ، ٢٦ ابريل ١٩١٠ .

١٤ — **النفير العثماني** ، ٢ فبراير ١٩١٠ . كان من جملة التهم ان نصار اخذ خيرات من الاسرائيليين وباعهم اراض وهو في طبريا .

١٥ — **المقتبس** ، ٢٦ ابريل ١٩١٠ .

١٦ — Jewish Chronicle, 10/6/1910.

١٧ — *Ibid,* 25/11/1910.

١٨ — **المقتبس** ، ١٥ مارس ١٩١٠ .

١٩ — نقلته **المقتبس** ، ٢٥ مارس ١٩١٠ .

٢٠ — نقلته **المقتبس** ، ١١ اكتوبر ١٩١٠ .

٢١ — **الاهرام** ، ٢٤ يناير ١٩١١ .

٢٢ — **المقتبس** ، ٦٢ ، ج ٢ ، ١٩١١ ص ١١٩ — ١٢٠ مقال (في ارض الجليل) .

٢٣ — في رسالة **ماندل** ، ص ٢٢٠، ان الوكيل هو Joshua Hankin (وفي الصحف العربية خانكي).

٢٤ — نقلته **المقتبس** ، ١٨ مارس ١٩١٢ .

٢٥ — **المقتبس** ، ٧ — ٨ يناير ١٩١٣ وكانت تفاصيل القضية قد اذيعت بعد انتهاء البيع بأشهر . وقد أقام الصهيونيون في الغولة مستعمرة (مرحافيا) اول تجربة للاستيطان التعاوني حسب مشروع اوبنهايمر .

٢٦ — نقلته **المقتبس** ١٥ يناير ١٩١١ .

٢٧ — نقلته **المقتبس** ١١ يناير ١٩١١ واشارت له **المقطم** ١٧ مارس ١٩١١ وذكر (ماندل) ص

٢١٦ ان شكري العسلي كان يكتب مقالات ضد الصهيونية حين كان لا يزال قائمقام الناصرة .

٢٨ — **المقطم** ٧ ابريل ١٩١١ .

٢٩ — **المقطم** ١٨ مارس ١٩١١ .

٣٠ — يشكر نسيم ملول في المقدمة باسم جمعية النهضة الاسرائيلية (ناشرة الكتاب) الصحافة العربية في مصر وسوريا وتونس لمساعدتها بواسطة نشر مقالاتها واخبارها ، كما يثني على الشيخ ابو نظاره (يعقوب صنوع) الذي هو في « طليعة المؤيدين » له . وكان الاخير قد بعث رسالة من باريس في مارس ١٩١١ يدعو ملول « بولدي العزيز » ويقدر له هدفه « في الدفاع عن الامة الاسرائيلية المسكينة المفرقة في مشارق الارض ومغاربها » .

٣١ — نقلته **المقتبس** ٤ فبراير ١٩١١ .

٣٢ — الرسالة في ٧ مارس ١٩١١ .
F.O. 311/1245/9103 F.

٣٣ — **الاهرام** ١١ مارس ١٩١١ ، **المقتبس** ٢٠ مارس ، **التيمس** ٣ مارس .

٣٤ — مقال :
Gottheil, R., Zionism, *Jewish Encyclopedia*, 1906, Vol. XII, pp.666-86.

٣٥ — *Jewish Chronicle*, 18/8/1911.

٣٦ — *F.O.* 424/229.

٣٧ — *The Near East*, 17/5/1912.

٣٨ — رفع التقرير الى وزارة الخارجية البريطانية ١٨ نوفمبر ١٩١١ *F.O.* 424/229

٣٩ — *Jewish Chronicle*, 16/6/1911.

٤٠ — *Ibid*, 14/7/1911.

٤١ — رسالة (**ماندل**) ص ٢٩٤ .

٤٢ — رسالة شخصية بعثها الى فيليب دي طرازي ١٧ مارس ١٩١٣ .

٤٣ — **المقتبس** ١٨ مارس ١٩١٤ .

٤٤ — *The Near East* 24/5/1912.

٤٥ — **فلسطين** ١٧ اغسطس ١٩١٢ .

٤٦ — نقلته **المقتبس** ٢٤ اغسطس ١٩١٢ .

٤٧ — **الكرمل** ١٨ اكتوبر ١٩١٢ .

٤٨ — **الكرمل** ١٠ ديسمبر ١٩١٢ .

٤٩ — **المصدر نفسه** ٣ يناير ١٩١٣ .

٥٠ — **المصدر نفسه** ٢١ يناير ١٩١٣ .

٥١ — **المصدر نفسه** ٧ سبتمبر ١٩١٢ .

٥٢ — **المقتبس** ٢٨ اغسطس ١٩١٢ .

٥٣ — **المصدر نفسه** ٤ اكتوبر ١٩١٢ .

٥٤ — **المصدر نفسه** ٢٦ اكتوبر ١٩١٢ .

٥٥ — **المصدر نفسه** ٢٤ سبتمبر ، ١٠ ديسمبر ، ٢٧ ديسمبر ١٩١٢ .

٥٦ — **المصدر نفسه** ٢٠ سبتمبر ١٩١٢ .

٥٧ — **المصدر نفسه** ١٨ اكتوبر ١٩١٢ .

٥٨ — كانت دول البلقان الاربع (بلغاريا ، اليونان ، الصرب والجبل الاسود) قد عقدت تحالفا سريا ضد الدولة العثمانية (سبتمبر ١٩١٢) ولم يستطع الجيش العثماني الصمود وتراجع حتى ادرنه وطلبت الحكومة الهدنة ١٩١٢/١٢/٣ .

٥٩ — رسالة القنصل مكريجور Mc Gregor ٢٢ يناير ١٩١٣ *F.O.* 195/2457

٦٠ — **الكرمل** ٣ يناير ١٩١٣ .

٦١ — **المصدر نفسه** ١ فبراير ١٩١٣ .

٦٢ — **المصدر نفسه** ٢٠ يناير ١٩١٣ .

٦٣ — **المصدر نفسه** ٢٧ مارس ١٩١٣ .

٦٤ — **المصدر نفسه** ٣ يناير ١٩١٣ .

٦٥ — **مرآة الغرب** ١٥ يناير ١٩١٣ .

٦٦ — **الكرمل** ٣ يناير ١٩١٣ .

٦٧ — **المصدر نفسه** ٣١ يناير ١٩١٣ .

٦٨ — العدد نفسه .

٦٩ — **الكرمل** ٢٤ ديسمبر ١٩١٢ .

٧٠ — **المصدر نفسه** ١٣ ديسمبر ١٩١٢ .

٧١ — **المصدر نفسه** ٢٠ ديسمبر ١٩١٢ .

٧٢ — **المصدر نفسه** ٨ فبراير ١٩١٣ .

٧٣ — **المصدر نفسه** ٢١ فبراير ١٩١٣ .

٧٤ — **المصدر نفسه** ١١ فبراير ١٩١٣ .

٧٥ — **المصدر نفسه** ١٥ اغسطس ١٩١٣ .

٧٦ — **المصدر نفسه** ٧ يناير ، ١٨ فبراير ، ٢١ فبراير ١٩١٣ .

٧٧ — **المصدر نفسه** ١١ فبراير ١٩١٣ .

٧٨ — **المصدر نفسه** ٢٣ مايو ١٩١٣ .

٧٩ — **المصدر نفسه** ١٣ مايو ١٩١٣ .

٨٠ — **المفيد** ٨ ابريل ١٩١٣ .

٨١ — **الكرمل** ٣٠ مايو ١٩١٣ .

٨٢ — **المصدر نفسه** ١ يوليو ١٩١٣ .

٨٣ — المصادر العبرية تذكر ان الدور الذي لعبه سامي هوخبرج S. Hochburg رئيس تحرير جريدة (**جون ترك**) التي تصدر بالفرنسية في الاستانة وتمولها الصهيونية ، وراء كواليس المؤتمر هي التي اقنعت الاعضاء بالسكوت . انظر : (رسالة هوخبرج) ملحق بالفرنسية لمقال بالعبرية (P.A. Alsberg) بعنوان

المسألة العربية في سياسة اللجنة التنفيذية الصهيونية قبل الحرب العالمية الاولى .
Shivat Zion, Vol. 4. 1956-57.

٨٤ ـ من مجموعة اوراق محب الدين الخطيب .
٨٥ ـ **الكرمل** ٨ يوليو ١٩١٣ .
٨٦ ـ **المصدر نفسه** ١٥ يوليو ١٩١٣ .
٨٧ ـ **المقتبس** ١٩ يوليو ١٩١٣ .
٨٨ ـ **الكرمل** ٢٥ يوليو ١٩١٣ .
٨٩ ـ نقلته **الكرمل** ١١ اغسطس ١٩١٣ .
٩٠ ـ **الكرمل** ٢٦ سبتمبر ١٩١٣ .
٩١ ـ العدد نفسه .
٩٢ ـ **الكرمل** ١٥ اغسطس ١٩١٣ .
٩٣ ـ **المصدر نفسه** ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٩ اغسطس ، ١٢ ، ١٩ سبتمبر ١٩١٣ .
٩٤ ـ **المصدر نفسه** ٩ سبتمبر ١٩١٣ .
٩٥ ـ **المصدر نفسه** ٢٩ اغسطس ١٩١٣ .
٩٦ ـ العدد نفسه .
٩٧ ـ **الكرمل** ٢٩ اغسطس ١٩١٣ .
٩٩ ـ **المصدر نفسه** ١٦ ، ١٩ ، ٢٦ سبتمبر ١٩١٣ .
١٠٠ ـ **فلسطين** ١٨ اكتوبر ١٩١٣ .
١٠١ ـ **الكرمل** ٢٤ اكتوبر ١٩١٣ .
١٠٢ ـ **المصدر نفسه** ٢٥ نوفمبر ١٩١٣ .
١٠٣ ـ **المصدر نفسه** ١٩ ديسمبر ١٩١٣ .
١٠٤ ـ **المقتبس** ١٣ ديسمبر ١٩١٣ .
١٠٥ ـ *The Near East*, 19/12/1913.
١٠٦ ـ **النفير العثماني** ١ يناير ١٩١٤ .
١٠٧ ـ **فلسطين** ٢١ يناير ١٩١٤ .
١٠٨ ـ **الكرمل** ٦ مارس ١٩١٣ .
١٠٩ ـ **المصدر نفسه** ١٧ مارس، ٢٧ ابريل ١٩١٤
١١٠ ـ **المصدر نفسه** ٧ ابريل ١٩١٤ .
١١١ ـ **فلسطين** ٤ ابريل ١٩١٤ .
١١٢ ـ رسالة الى الاستانة ٢٩ ابريل ١٩١٤ .
F.O. 371/2134/22036.
١١٣ ـ **مرآة الغرب** ٢ يونيو ١٩١٤ .
١١٤ ـ روت ارملة نجيب نصار ان عبد الكريم خليل كان قد زاره في حيفا وتحدث معه طويلا حول القضية الصهيونية واخطارها .
١١٥ ـ **الكرمل** ٤ نوفمبر ١٩١٣ .
١١٦ ـ **المصدر نفسه** ١٢ مايو ١٩١٤ .
١١٧ ـ **المصدر نفسه** ٢ يونيو ١٩١٤ .
١١٨ ـ **المصدر نفسه** ٥ يونيو ١٩١٤ نقلت الكرمل تعليق جراب الكردي «.. فات حضرته أن اعيان بلادنا متفقون مع الصهيونية من قديم .. فخير للبلاد ان تكون بلا وجوه لان وجوهها كالحة » .
١١٩ ـ **المصدر الكرمل** ٥ يونيو ١٩١٤ .
١٢٠ ـ تكشف عن هذه المساعي مراسلات عربية لحزب اللامركزية (من اوراق محب الدين الخطيب) وكذلك الارشيف الصهيوني في مقال (السبرج) المذكور سابقا ورسالة (ماندل) .
١٢١ ـ **المقطم** ١ مايو ١٩١٤ .
١٢٢ ـ **الكرمل** ٥ مايو ١٩١٤ .
١٢٣ ـ **الاهرام** ٣ يونيو ١٩١٤ .
١٢٤ ـ **الكرمل** ١٢ يونيو ١٩١٤ .
١٢٥ ـ **المصدر** نفسه ٧ يوليو ١٩١٤ .
١٢٦ ـ **المصدر نفسه** ١٥ مايو ١٩١٤ .
١٢٧ ـ **المصدر نفسه** ٢٩ مايو ١٩١٤ .
١٢٨ ـ **المصدر نفسه** ١٢ يونيو ١٩١٤ .
١٢٩ ـ **المصدر نفسه** ٣١ يوليو ١٩١٤ .
١٣٠ ـ **الاقدام** ١٩ يوليو ١٩١٤ .
١٣١ ـ **الكرمل** ٧ اغسطس ١٩١٤ .
١٣٢ ـ **المنار** اغسطس ١٩١٤ ص ٦٩٧ ـ ٧٠٦ .
١٣٣ ـ **الاقدام** ١ اغسطس ١٩١٤ .

أضواء حول
بعض قضايا المواجهة المسلحة مع اسرائيل

محمود عزمي

يقول الكـــاتب البريطاني « ادجار بالانس » في كتابه « الحـــرب العربية ــ الاسرائيلية الثالثة » أنه « يجب ان نسجل ان الجنود المصريين قد قاتلوا بصورة جيدة الى أقصى حد في عديد من الاماكن ، كما اعترف بذلك الاسرائيليون أنفسهم ، وكمـــا تشهد بذلك الحقيقة الصامتة المتمثلة في مقتل نحو ١٥٠٠ جندي مصري خلال المعارك التي دارت من أجل اختراق دفاعات « رفح » »(١). ويقول الكاتب نفسه في موضع اخر من كتابه « ان الفرقة الفلسطينية العشرين التي كانت عـــلى مستوى أقل من التسليـــح ، والتي كان يقودها ضباط مصريون ، قد قاتلت بشجاعة حتى أخمدت مقاومتها في النهاية بواسطة الهجمات الجوية الاسرائيلية والقصف المدفعي »(٢).

ويقول أيضا بصدد الجبهة السورية « أنه بالرغم من القصف الرهيب الذي كان يتلقـــاه السوريون ، وبالرغم من أن خطهم الدفاعي كان قد تم اختراقه في عدة نقط ، الا أنهـــم صمدوا بثبات وقاتلوا حتى قضي عليهم او تلقوا اوامر بالانسحاب »(٣). وقد أورد اقوالا مماثلة بالنسبة لصلابة وصمود الجنود الاردنيين في معارك القدس والضفة الغـــربية . وهو نفس ما اعترف به الكاتب الاسرائيلي « دافيد ديان » في كتابه « اضرب أولا » حيث يقول « ان التوعية المرتفعة الكفاية للجندي الاردني مسألة لا يمكن تجاهلها . . .لقد قاتل الاردنيون دفاعا عن بيوتهم وقراهم وأسرهم ، ولذلك قاتلوا بعناد شـديد »(٤).

كما أن العديـــد من القادة العسكريين الاسرائيليين قد صرحوا بأقوال مماثلة بدرجـــات متفاوتة من الصراحة . فقـــد صرح العميد « شارون » الـــذي قاد العمليات الهجومية الاسرائيلية في القطاع الاوسط من سيناء عند منطقة « أبو عجيلة » في مؤتمر صحفي عقد بتل ابيب يوم ١٢ يونيو ١٩٦٧ قائلا « نعم انني اقول أن المصري جندي جيد ، وهو جندي شديد الانضباط »(٥).

وهناك الكثير من مثل هذه الاقوال التي تشهد بشجاعة وصمود الجنود العرب في ميدان القتال في الحروب الثلاث التي دارت مع العدو الاسرائيلي في أعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .

ومن هنا فاننا نستبعد من دائرة بحثنا هذا المتعلق ببعض قضايا المواجهة المسلحة مـــع العدو الاسرائيلي ، قضية مدى صلاحية وصلابة المقاتل العربي لخوض غمار المواجهة المسلحة من عدمه وعلى أساس أساليب الحرب الحديثة . ويقوم استبعادنا لهذه القضية من واقع الحقائق الصلبة التي دلت عليها الممارسة العملية نفسها في جميـــع الجولات المسلحة التي جرت مع العدو الاسرائيلي بواقع شهادة العدو نفسه ومؤيديه من الكتاب.

قضية الايقاع السريع للحرب الحديثة :

لقد ادى ظهور الاسلحة التي تعتمد على الحركة الميكانيكية التي توفرها آلات الاحتراق الداخلي ، مثل الدبابات والمصفحات والطائرات والمدفعية ذاتية الحركة ، الى عودة الحركة السريعة الى الاستراتيجيات العسكرية ، بعد ان كانت قد توارت في التاريخ العسكري عقب تطور الاسلحة النارية وزيادة فاعليتها في مواجهة حركة الفرسان ، واتخذت الحركة السريعة الجديدة شكل الحرب الميكانيكية الحديثة التي وجدت طريقها الى التطبيق العملي الفعال على يدي « هتلر » وقادته العسكريين الموهوبين أمثال « جوديريان » و « روميل » خلال المراحل الاولى من الحرب العالمية الثانية .

ومنذ ذلك الحين أصبح الطابع الرئيسي للحرب في عصرنا هو الحركة السريعة والمناورة الواسعة ، واتسع نطاق امكانية توجيه الضربات غير المباشرة للجيوش نتيجة لزيادة قدرة الطيران على قصف العمق الاستراتيجي وقدرة القوات المحمولة جوا على العمل في المؤخرة البعيدة أو القريبة للقوات بفاعلية متزايدة وسواء انزلت بالمظلات او بطائرات الهليكوبتر .

هذا بالاضافة لتوفر قدرة الوحدات المدرعة والميكانيكية على الاختراق في العمق وشل مراكز المواصلات والشئون الادارية والقيادة ، في حالة استخدامها بمفاهيم الحرب الميكانيكية المتطورة وفي اطار استراتيجية عسكرية عامة قائمة على أسلوب الاقتراب غير المباشر والحرب الخاطفة .

وقد انحسر نتيجة لهذا التطور التقني أسلوب الحرب الثابتة أو ما يسمى بـ « حرب الخنادق » ذات الحركية المحدودة الذي كان سائدا خلال الحرب العالمية الاولى ، بحيث أصبح لا يستخدم الا حيث تفرضه ظروف طبيعية معينة تفرض قيودا شديدة على حركة الاسلحة والمعدات الميكانيكية مثل مناطق الجبال والغابات . وحتى بالنسبة للقتال في هذه المناطق لم تعد الحركية محدودة للغاية كما كانت في الماضي نظرا للدور الذي يلعبه القصف الجوي في القتال حاليا ولتطور الامكانات القتالية لطائرات الهليكوبتر الحديثة من حيث تزايد قدرتها على القصف والمناورة .

وليس معنى ذلك أن الجيوش الحديثة وهي تطبق تكتيكات حرب الحركة لا تلجأ في جميع الحالات الى اعداد استحكامات دفاعية ثابتة أو حفر ملاجيء حماية لدباباتها وعرباتها ومدافعها قد تستخدم احيانا لاطلاق النار ايضا بواسطة هذه الاسلحة . انها تقيم مثل هذه الانشاءات وتتبع بعض أساليب الدفاع الثابت وفقا لظروف مختلفة تفرضها موازين القوى وتطورات القتال وطبيعة مسرح العمليات ودرجة توفر المعدات الميكانيكية لكسل القوات الخ ، ولكنها تقدم على هذا الاستخدام لوسائل او بعض وسائل حرب المواقع الثابتة ضمن الاطار العام لاسلوب حرب الحركة ودون ان يؤدي ذلك بها الى تغييرها العقائد التكتيكية ذات الطابع الحركي التي تؤسس عليها تدريب وتنظيم وتسليح قواتها وتمارس بها القتال . وبطبيعة الحال فأن صلاحية وكفاءة الجيش الحديث لحرب الحركة لا تتوقف فقط على امتلاكه أسلحة ميكانيكية وطائرات ووسائل نقل سريعة ، أو على مجرد توفر كميات مناسبة منها وذات نوعية جيدة ، وانما تتوقف مدى كفاءة مثل هذا الجيش على ممارسة أساليب حرب الحركة في الاساس على مدى ادراك قادة مثل هذا الجيش للقدرات الفعلية الكامنة في معدات القتال الميكانيكي وتفهمهم لاساليب الاستخدام الملائمة لها والتي يمكنها أن توفر المردود الاقصى لهذه الاسلحة . ان ادراك هذه الامكانات والاساليب القتالية والتنظيمية المتوافقة معها من جانب القيادات العسكرية يتيح لها تفهما سليما لايقاع الحركة العامة السريعة للقتال في الحرب الحديثة سواء في الهجوم أو الدفاع . وهو الامر الذي لم تدركه مثلا قيادات الحلفاء الغربيين العسكرية والسياسية عام ١٩٤٠ قبيل اجتياح الجيوش الالمانية لاراضي هولندا وبلجيكا وشمال

فرنسا في حملة « حرب الاسابيع الستة » الخاطفة التي انتهت بسقوط هذه البلاد تحت نير الاحتلال النازي . وقد طبقت القوات الالمانية خلال هذه الحملة تكتيكات حرب الحركة في أرقى أشكالها وهي الحرب الخاطفة وضمن اطار استراتيجية عامة ملائمة تعتمد على مناورات الاقتراب غير المباشر في الاساس . وقد نشأ تصور عام وقتئذ هو أن الالمان كان لديهم تفوق هائل في عدد الدبابات ونوعيتها أتاح لهم امكانية تحقيق هذا النصر ، فضلا عن تفوقهم الضخم في الطيران . ولكن المعلومات التي كشفتها الوثائق الرسمية لكلا الطرفين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أوضحت أن القيادة الالمانية استخدمت خلال هذه الحملة نحو ٢٨٠٠ دبابة معظمها من نوعية تقل عن نوعية معظم الدبابات التي كانت لدى الحلفاء البالغ عددها نحو ٤٠٠٠ دبابة خاصة من حيث قوة النيران والدروع . وأن السلاح الجوي الالماني كان لديه لدعم هذه الحملة نحو ٣٥٠٠ طائرة من مختلف الانواع بينما كان لدى الفرنسيين والبريطانيين معا نحو ٣٤٥٠ طائرة الا أنهم لم يستخدموا منها فوق المعركة أكثر من ١٢٠٠ طائرة لاسباب مختلفة بعضها يتصل بالتردد السياسي من جانب بريطانيا والبعض يتعلق بسوء الحشد وضعف الصيانة وبطئها من جانب فرنسا .

وهكذا تقابلت قوتان عسكريتان تنتميان الى مستوى حضاري وصناعي واحد تقريبا ، أتاحت لهما صناعتهما المحلية القدر الكافي من الاسلحة الميكانيكية والطائرات المتقاربة مع بعضها في الجملة من الناحية النوعية ، الا أن أحداهما وهي المانيا استطاعت ان تستخدم هذه الاسلحة بالاسلوب الذي اعطى أقصى مردود لها في اطار استراتيجية ملائمة، فكان ذلك السبب العسكري الرئيسي للنصر الخاطف الذي حققه الجيش الالماني بصورة لم يكن يحلم بها قادته ذوو العقلية التقليدية الذين كانوا يتشككون في كفاءة التكتيكات الجديدة ، والذين كانوا متأثرين بذكريات وخبرات الحرب العالمية الاولى التي دارت معظم معاركها وعلى مدى أربع سنوات في مد وجزر لا يتعدى بضع عشرات من الكيلو مترات بين الخنادق والاسلاك الشائكة في شمال فرنسا .

هذا على حين عجزت القوة الاخرى المقابلة لها عن ادراك حقيقة الامكانات القتالية التي توفرها الاسلحة الميكانيكية ، واستخدمتها ضمن الاطار العام لتكتيكات الحرب الموقعية الثابتة والاستراتيجية المرتبطة بها . وهكذا يتضح لنا أن قضية ادراك واستيعاب الايقاع السريع للحرب الحديثة ليست مجرد قضية تفاوت حضاري وصناعي وعلمي بين مجتمعين ، وليست مجرد قضية تخلف تكنولوجي لدى دولة أو مجتمع معين في مواجهة دولة متقدمة تكنولوجيا رغم أن توفر قدر معين من المعدات الحديثة ودرجة معينة من التقدم العلمي والمناخ الاجتماعي الملائم يشكل شرطا ضروريا لاستيعاب أساليب الحرب الحديثة كما سيأتي ذكره فيما بعد .

تبني اسرائيل لحرب الحركة :

لقد أدركت القيادة السياسية والعسكرية العليا الاسرائيلية مدى أهمية حرب الحركة باعتبارها أنسب التكتيكات ملاءمة لاستراتيجيتها الشاملة القائمة على القضم السريع لاهدافها التوسعية ، والتي تنفذها على مراحل زمنية تدريجية وهي الاستراتيجية التي يطلق عليها « بوفر » اسم « استراتيجية الخرشوفة » والتي طبقها « هتلر » من قبل في الوصول الي أهدافه العدوانية التوسعية . هذا فضلا عما فرضته على استراتيجيتها العسكرية ضرورات نقل المعركة خارج اراضيها بسرعة نظرا لافتقادها لاي عمق استراتيجي يسمح بمناورات الدفاع التي يعقبها هجوم مضاد عام ، وما فرضته ضرورة أخذ المبادأة الهجومية لتوجيه ضربات سريعة لكل خصم من خصومها المحيطين بها من ثلاث جهات جغرافية مختلفة مستخدمة في ذلك ميزة الحركة السريعة على الخطوط الداخلية التي تكفل لها نقل مجهودها الرئيسي بسرعة نسبية من جبهة لاخرى

ـ مستعينة في هذا أساسا بقوة الطيران ـ مع تثبيت الجبهات الاخرى بمختلف المناورات السياسية التي تهدف الى تحييدها مؤقتا ، وبنظام الدفاع الايجابي المستند على شبكة الدفاعات الثابتة القوية للمستعمرات الواقعة على الحدود وفي عمقها أيضا .

لكل ذلك كانت حرب الحركة السريعة ضرورة استراتيجية حيوية لاسرائيل فضلا عن أهميتها وضرورتها على مستوى التقنية العسكرية الحديثة الصرفة . وقد طبقتها خلال حرب ١٩٦٧ تطبيقا كاملا .

ويلقي الكاتب الامريكي الجنسية الاسرائيلي الاصل « ناداف صافران » في كتابه « من حرب الى حرب » بعض الضوء على عوامل نجاح اسرائيل في تطبيقها لاساليب حرب الحركة خلال عدوان ١٩٦٧ فيقول « في حرب حركة يكون من المهم بشكل خاص ان تتوفر للقيادة العليا القدرة على تبديل خططها تبعا للتغير السريع الذي يطرأ على الموقف ، الامر الذي يتطلب ان تكون الصفوف الدنيا من القيادات مؤهلة هي الاخرى لاتخاذ قراراتها العملية الخاصة مستندة في ذلك الى التوجيهات العامة المعطاة لها . ولقد كان الاسرائيليون يدركون هذه الميزة المتاحة لضباطهم وجنودهم بالنسبة لاعدائهم في هذا المجال . ولذلك خططوا تحركاتهم على أساس الاستفادة من هذه الميزة الى أقصى حد وذلك من خلال استراتيجية وتكتيكات تستهدف احداث الاضطراب في الخطط المعدة سلفا من جانب قيادات خصومهم وتستفيد من افتقاد قياداتهم الدنيا للمبادرة »(٦) .

لقد قاتلت الجيوش العربية قتالا صلبا وعنيفا ، خاصة خلال الفترة الاولى للحرب قبل ان تلعب أوامر الانسحاب العام غير المنظم دورها في احداث الاضطراب الذي ساعد على زيادة سرعة العمليات الهجومية الاسرائيلية وفاعليتها . الا ان الصورة الأساسية لهذا القتال كانت هي حرب المواقع الثابتة التي افتقرت الى أي طابع ايجابي من حيث الحركية وافتقاد المبادرة السريعة والروح الهجومية ، الامر الذي أتاح ظرفا مناسبا لنجاح تكتيكات حرب الحركة التي طبقتها القوات الاسرائيلية . بيد ان علينا ان نتحفظ بعض الشيء من الناحية الموضوعية في استخلاص النتائج المستفادة من معارك ١٩٦٧ فيما يتعلق بموقف الجيوش العربية بالنسبة لقضية الحركية في القتال الحديث ومدى تفهمها لها وصلاحيتها لممارسة أساليبها . وذلك لان السيادة الجوية التي تحققت للجيش الاسرائيلي منذ الساعات الاولى لبدء القتال نتيجة الضربة المفاجئة للطيران المصري ، أتاحت للقوات المدرعة والميكانيكية الاسرائيلية شروطا انموذجية لحرية الحركة والمناورة في العمق الدفاعي للقوات المصرية اثر اختراقها للدفاعات الامامية في قطاعات ضيقة من الجبهة وبتركيز شديد من نيران الطيران والمدفعية وكثافة الحشد المدرع ، الذي اتبع تكتيك الاختراق السريع بالحركة والنيران التي لا تستهدف في الاساس تدمير نيران المدافعين بقدر ما تستهدف تشتيتها واجبارها مؤقتا على الاختفاء ريثما تمر الدبابات الى العمق مخلفة وراءها المواقع دون تصفية كاملة لها . وذلك كما حدث في قطاع «خان يونس » ـ « رفح » صباح يوم ٥ يونيو .

وشكلت هذه السيادة الجوية المطلقة وما صاحبها من قصف جوي مركز على الدفاعات لاسكات نيرانها ، ظرفا موضوعيا ايضا بالنسبة للقيادات العربية على جميع المستويات ، من حيث مدى حريتها في تحريك مدرعاتها الاحتياطية ، وخاصة تلك التي كانت محتشدة في العمق العملياتي للجبهة بدرجات متفاوتة من البعد في المؤخرة ، سواء في الجبهة المصرية او الاردنية او السورية .

الا ان ذلك التحفظ ، الذي فرضته الظروف الموضوعية المترتبة على تحقيق السيادة الجوية لطيران العدو ، بالنسبة لمدى توفر امكانيات تطبيق أساليب حرب الحركة لدى القيادات العربية ، لا يدفعنا في الوقت نفسه الى الاعتقاد بأن الجيوش العربية كانت مؤهلة بصورة ملائمة من حيث التنظيم والتدريب واعداد القادة واساليب القيادة

والاتصال والشئون الادارية (اللوجيستيكية) والتأهب النفسي بصفة عامة لممارسة تكتيكات حرب الحركة بكفاءة حتى بالنسبة لاستراتيجية دفاعية تسمح بتلقي الضربة الاولى ثم الانتقال للهجوم المضاد . ذلك لان مجرد عدم التحرز الكافي لمواجهة احتمال الضربة الجوية المفاجئة في الجبهات الثلاث يعكس عدم استيعاب القيادات لطابع الايقاع السريع للحرب الحديثة بحكم أنه يوحي على أقل تقدير بعدم تأهبها نفسيا للحرب الخاطفة . هذا فضلا عن ان اضطراب نظام الشئون الادارية وعدم قدرتها على ملاحقة تحركات القوات اثناء فترة الحشد في سيناء قبل بدء القتال وتوفير متطلبات القوات في وقت مناسب ، وكذلك عدم كفاءة وسائل نقل وتحريك القوات المدرعة والميكانيكية وبطء نظم ووسائل صيانتها مما أدى الى جعل نسبة لا تقل عن ٢٠ ٪ من الدبابات مثلا غير صالحة للحركة عند نشوب القتال فجأة . ويعكس كل هذا بالضرورة عدم أهلية القوات العربية لمتطلبات حرب الحركة السريعة من حيث التنظيم واسلوب العمل . كما أن تثبيت الدبابات والمدافع ذاتية الحركة الموزعة على فرق المشاة في الدفاعات الامامية في قطاع « رفح — الشيخ زويد — ممر خروبة » وفي « ابو عجيلة » و « القسيمة » مثلا داخل حفر حماية واطلاق نار مما أدى الى حرمانها من ميزتها الاساسية وهي الحركية وسرعة المناورة ، وعدم استخدامها في هجمات معاكسة منظمة على المستوى التكتيكي لافساد آثار خرق المدرعات الاسرائيلية لخطوط الدفاع وفقا لتكتيك السرعة والنيران الذي طبقته ، يعكس أيضا عدم تفهم القيادات لاساليب حرب الحركة في الدفاع . ان ادراك القيادات العسكرية والسياسية لطابع الحرب الحديثة الميكانيكية من حيث سرعة ايقاع حركتها وما يترتب على هذا الادراك من استيعاب عملي لها في وسائل الاعداد والتنظيم ، أصبح يمثل ضرورة حيوية من ضرورات الصراع المسلح ضد العدو الاسرائيلي ، حتى لو كان من المتعذر عمليا على الجيوش العربية أن تطبق تكتيكات حرب الحركة في صورتها المثلى الا وهي « الحرب الخاطفة » ، فان تفهم قوانين حرب الحركة يفيد في رفع الكفاية القتالية للجيوش العربية الى أقصى حد ممكن ضمن الظروف الموضوعية المتاحة لها والمفروضة عليها نتيجة عوامل مختلفة ، ويجعلها أكثر قدرة على مواجهة أسلوب العدو ، وأكثر قدرة على تطبيق الاستراتيجية الهجومية التي قد تتبعها والتي تناسب امكانياتها الفعلية وتستثمر قدرات شعوبها وطاقاتها المادية والمعنوية بما يعادل ويفوق في النهاية قوة العدو .

قضية التفوق العسكري الاسرائيلي :

قبيل حرب ١٩٦٧ كان الاعتقاد الشائع بين مختلف أوساط الرأي العام العربي ان الجيوش العربية تملك تفوقا لا شك فيه على اسرائيل من حيث القوى البشرية او كميات السلاح ونوعيتها ، وان ذلك في حد ذاته بالاضافة الى ميزة الوضع الجغرافي الذي يجعل اسرائيل محاطة من ثلاث جهات يتيح للجيوش العربية في حالة عدم تدخل القوى الامبريالية الكبرى امكانية التغلب على اسرائيل عسكريا ، نظرا لان الجيش الاسرائيلي لن يستطيع ان يقاتل على ثلاث جبهات في آن واحد ، خاصة وان ضحالة العمق الاستراتيجي للارض المحتلة لا تكفل له الوقت اللازم لذلك . اذ لم يكن يزيد عرض هذه الارض في أعرض نقطة عن ١١٥ كيلومترا وكان يصل الى ١٤ كلم فقط عند « قلقيلية » ! وقد شكل هذا الاعتقاد محورا اساسيا من محاور الاعلام العربي عشية الحرب . ولما وقعت ضربة الطيران المفاجئة صباح يوم ٥ يونيو وتبعتها الهزيمة السريعة في البر ، وأخذت مصادر دعاية العدو المباشرة وغير المباشرة تعدد مزايا القوات الاسرائيلية وكفاءتها وتبالغ فيها بنفس القدر الذي تقلل فيه من كفاءة العرب القتالية ، انتشر اعتقاد قوي في أذهان الكثيرين من أبناء أمتنا بأن العدو الاسرائيلي انتصر في الحرب ضد الجيوش بسبب امتلاكه تفوقا تكنولوجيا ساحقا . وهكذا سرت عبارة « التفوق

التكنولوجي » سريان النار في الهشيم في الفكر العسكري والسياسي العربي ، ثم غذتها ودعمتها بعد ذلك عبارة أخرى عن « الحرب الالكترونية » . وشكلت العبارتان مفهوما ميتافيزيقي الابعاد لدى الرأي العام العربي ، بحيث تجسدت قدرات الجيش والطيران الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ في صـــورة تشابه القدرات « الجيمس بوندية » ! فما هي حقيقة التفوق العسكري الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ الذي أحيط بهالة ضخمة من الدعاية؟ تلك الدعاية المسمومة التي شكلت جزءا هاما من الحرب النفسية التي تمارسها القوى المعادية لحركة التحرر الوطني العربي حتى تجعلها تسقط نهائيا في شباك اليأس القاتل لامكاناتها النضالية ضد أعدائها .

مسألة التفوق الجوي الاسرائيلي :

سنبدأ بحثنا لقضية حقيقة التفوق العسكري الاسرائيلي خلال حرب يونيو ١٩٦٧، باعتبار انها تمثل أكبر التجارب العملية في مجرى تاريخ المواجهة المسلحة مع العدو الاسرائيلي ، وان ما نشر عنها حتى الآن يوفر مادة على جانب كبير من الموضوعية الصالحة للقيام بمثل هذه الدراسة ذات الخطوط العريضة .

سنبدأ بحثنا بدراسة عناصر التفوق الجوي الاسرائيلي ، وهو التفوق الذي أثر بشدة على الرأي العام العربي وعلى مجرى العمليات البرية وقرارات القيادات العليا بشأنها. لقد كان لدى السلاح الجوي الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ عـــدة أنواع من الطائـــرات الفرنسية الطراز وهي « الميراج ٣ سي » و « السوبر ميستير ٢ ب » و« الميستير ٤ أ » و « الفوتور ٢ أ » و « الاوراجان » ، فضلا عن طائرات التدريب « فوجا ماجستر » التي يمكن استخدامها أيضا في الهجوم الارضي . و« الميراج ٣ سي » مقاتلة قاذفة تبلغ سرعتها القصوى ٢٣٠٠ كلم/ساعة وتستطيع ان تحمل ٢٠٠٠ رطل من القنابل او الصواريخ وهي مسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم ويمكن تسليحها بصواريخ جو ـــ جو ، ويصل مدى عملها وهي محملة بخزاني وقود اضافيين وتطير على ارتفاع عال الى ١٢٠٠ كلم ، و٩٠٠ كلم وهى على ارتفاع منخفض . أما في حالة قيامهـــا بدور اعتراضي ودون أن تحمل خزانات وقود اضافية فان مدى عملها لا يزيد عن٢٢٧ كلم وتكون سرعتها القتالية العادية ١٩١٢ كلم/ساعة ، وأقصى ارتفاع عملي تصل اليـــه ١٦٫٥٠٠ متر . وقد كان لدى السلاح الجوي الاسرائيلي عدد منها يتراوح بين ٧٢ـــ١٠٠ طائرة في بعض التقديرات(٧). وكان يقابل هذا النوع من الطائرات الاسرائيلية لدى الجانب العربي طائرة « الميغ ٢١ اف » وهي طائرة مقاتلة معترضة سوفييتية الطراز تبلغ أقصى سرعة لها ٢١٢٥ كلم/ ساعة وهي مسلحة بمدفعين ٣٠ مم وبصواريخ جو ـــ جو ، ويصل مدى عملها الاقصى الى ٦٠٠ كلم بدون خزانات وقود اضافية ، ويمكن تحميلها بنحو ٢٠٠٠ رطل قنابل او صواريخ في حالة استخدامها في الهجوم الارضي ، وأقصى ارتفاع تصل اليه ١٧٫٥٠٠ متر . وقد كان لدى السلاح الجوي المصري عشية حرب ١٩٦٧ نحو ١٢٠ طائرة منهـــا وفقا لتقدير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني . وكان لدى الطيران السوري أكثر من ٢٠ طائرة منها . وقد دمر الجزء الاكبر من هذه الطائرات في الضربة الجوية المفاجئة على القواعد الجوية المصرية وهي جاثمة على الارض . ويقول مؤلفا كتاب « حرب الايام الستة » (وهما راندولف وونستون تشرشل) نقلا عن لسان قيـــادة العدو الجوية ان هناك ٨ طائرات « ميج ٢١ » مصرية قد تمكنت من الصعود اثناء الضربة الجوية الاولى واسقطت طائرتين للعدو(٨) .

هذا ويروي طيار اسرائيلي كان يقود طائرة ميراج اشترك في مهاجمة المطار العراقي القريب من الحدود الاردنية المعروف بقاعدة H3 للكاتب الاسرائيلي « دافيد ديان » مؤلف كتاب « اضرب اولا » أحداث هذا الهجوم فيقول « لقد كنا ثماني طائرات ـــ أربع ميراج وأربع فوتور ـــ وقد كمنت لنا طائرات « الهنتر » العراقية بعد أن قمنا بقصف

المطار مباشرة وهاجمتنا من الخلف من ارتفاع كبير فأسقطت طائرتين من طائراتنا . وقد أسقطت خلال هذا الاشتباك الجوي طائرة « هنتر » ثم أسرعنا عائدين الى قاعدتنا . ثم عدنا مرة أخرى فور اعادة تزويد طائراتنا بالوقود والذخيرة للبحث عن طيارينا اللذين اسقطت طائرتاهما ، وفي هذه المرة كانت هناك طائرة «ميج ٢١» في انتظارنا وقد أصابت طائرتي بصاروخ جو ــ جو على ارتفاع ٣٥ ألف قدم . ونتج عن ذلك توقف محـــرك طائرتي وأخذت أنزلق تدريجيا ، بينما كانت « الميج » العراقية تحاول أن تصيب ذيل طائرتي ، ولكن وجود بعض السحب ساعدني على الفرار فواصلت الانزلاق التدريجي نحو قاعدتي »(٩).

وقد اشتركت ٤٠ طائرة « ميراج » في الموجة الاولى من الهجوم على القواعد الجوية المصرية واقتصر دورها على القيام بدور المظلة الجوية لحماية نحـــو ٤٠ طائرة اخرى معظمها « ميستير » كانت تقوم بقصف المطارات بالقنابل . ويمكن لنا تصور نتيجة مثل هذا الهجوم لو أتيح لثمانين طائرة « ميج ٢١ » مصرية فرصة اعتـــراض طريق هذه الطائرات قبل ان تصل الى اهدافها نتيجة توفر انذار مبكر لها . ولكن الهجوم الجوي الاسرائيلي نفسه ما كان سيتم في هذه الحالة ــ كما تبين من المعلومات التي نشرت بعد الحرب ــ اذ كان لدى الطيارين تعليمات تقضي بالصمت اللاسلكي طيلة الرحلة التي تمت على ارتفاع منخفض جدا وبالعودة الى قواعدهم فور اكتشاف هجومهم قبل أوانه وسماعهم الكلمة الرمزية « محكري ماكوم » أي « ليقف كل في مكانه » !

هذا وقد كان لدى السلاح الجوي الاسرائيلي نحو ٢٤ طائرة « سوبر ميستير ٢ ب » وهي مقاتلة قاذفة تبلغ أقصى سرعة لها ١١٩٥ كلم/ساعة وتستطيع أن تحمل ٢٢٠٠ رطل من القنابل وهي مسلحة بمدفعين ٣٠ مم ويمكن تسليحها بصواريخ جو ــ جو وأقصى مدى عمل لها على ارتفاع عال ٧٠٥ كلم ، ٤٥٠ كلم على ارتفاع منخفض وذلك وهي محملة بالقنابل وخزانات الوقود الاضافية ، وأقصى ارتفاع عملي تصل اليه هو ١٧٠٠٠ متر . وكان يقابل هذا النوع من الطائرات الاسرائيلية طائرات «السوخوي ٧» و« الميج ١٩ » لدى السلاح الجوي المصري . بل الواقع ان « السوخوي ٧ » كانت تفوقها كثيرا من نواحي عدة . فقد كانت سرعتها القصوى تبلغ ١٧٥٠ كلم/ساعة ، وهي مقاتلة قاذفة مخصصة للهجوم الارضي ولذلك فان هيكلها السفلي مصفح ضد الرشاشات الثقيلة الارضية ، وتستطيع ان تحمل نحو ٤٢٠٠ رطل من القنابل او الصواريخ وهي مسلحة بمدفعين ٣٠ مم ، ويصل مدى عملها التقديري الى حوالي ٤٠٠ كلم وذلك بدون حملها خزانات وقود اضافية . وتستطيع العمل ليلاً ونهارا . وقد كان لدى السلاح الجوي المصري نحو ٢٠ طائرة وفقا لتقدير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني . وقد دمرت ١٢ طائرة منها على الارض في الضربة الاولى وفقا لما ترويه مصادر طيران العدو . وقد قامت طائرتان من هذا النوع بمهاجمة الدبابات الاسرائيلية عند «العريش» صباح يوم ٦ يونيو بدون حماية من المقاتلات ولذلك أسقطتهما طائرات « الميراج » كما يروي مؤلف كتاب « دبابات تموز » الاسرائيلي(١٠). أما « الميج ١٩ » فهي مقاتلة قاذفة تبلغ سرعتها القصوى ١٤٥١ كلم/ساعة وتستطيع أن تحمل نحو ٢٠٠٠ رطل من القنابل أو الصواريخ وهي مسلحة بمدفعين ٢٣ مم ومدفع ٣٧ مم ، ومدى عملها بدون خزانات وقود اضافية ٤٥٠ كلم . وقد كان يوجد منها لدى السلاح الجوي المصري نحو ٤٠ طائرة دمر منها على الارض نحو ٢٠ طائرة . وكان لدى السلاح الجوي الاسرائيلي ايضا ما بين ٥٠ ــ ٧٠ طائرة « ميستير ٤ أ » وهي مقاتلة قاذفة تبلغ أقصى سرعة لها ١٠٣٥ كم/ساعة وذلك على ارتفاع منخفض ، ٩٢٥ كم/ساعة على ارتفاع عال . وتستطيع ان تحمل ٢٠٠٠ رطل من القنابل او الصواريخ ، ويصل أقصى مدى عمل لها بحمولاتها من القنابل والوقود الاضافي الى ٧٨٠ كلم وهي تطير على ارتفاع عال ، ٤٥٦ كلم على ارتفاع منخفض ، وهي مسلحة بمدفعين ٣٠ مم وكان يقابل هذا النوع من الطائرات

الاسرائيلية طائرات « الميج ١٧ » التي كان يوجد منها نحو ١٠٠ طائرة لدى مصر ، ٤٠ طائرة تقريبا لدى سوريا . و« الميج ١٧ » مقاتلة قاذفة معترضة مسلحة بثلاثة مدافع ٢٣ مم وتستطيع ان تحمل نحو ١٢٠٠ رطل قنابل او صواريخ واقصى سرعة لها على ارتفاع عال ١٠٢٢ كلم/ساعة ويصل مدى عملها الى ٧٥٠ كلم في حالة حملها خزانات وقود اضافية . واقصى ارتفاع عملي تستطيع أن تصل اليه ١٧٫٥٠٠ متر . وكان لدى اسرائيل ايضا نحو ٤٥ طائرة طراز « اوراجان » وهي مقاتلة قاذفة تبلغ اقصى سرعة لها على ارتفاع عال ٩٣٠ كلم وتستطيع ان تحمل ١٠٠٠ رطل من القنابل ويصل مدى عملها الاقصى الى ٤٤٨ كلم . وفضلا عن ذلك كان لديها ايضا نحو ٢٥ طائرة « فوتور ٢ أ » وهي قاذفة للهجوم الارضي ذات محركين تبلغ أقصى سرعة لها ١١٠٤ كلم/ساعة وتستطيع أن تحمل نحو ٤٠٠٠ رطل من القنابل والصواريخ وهي مسلحة بأربعة مدافع ٣٠ مم ويمكن تسليحها بصواريخ جو — جو في حالة استخدامها في الاعتراض الليلي . وأقصى مدى عمل لها ١٢١٠ كلم . وقد اشتركت هذه الطائرات في الاغارة على مطار « الاقصر » في جنوب مصر وكذلك في الاغارة على المطار العراقي H 3 وذلك لبعد مدى عملها وكبر حمولتها من القنابل نسبيا . وكان لدى الطيران المصري بالمقابل نحو ٤٠ قاذفة خفيفة طراز « اليوشين ٢٨ » ذات المحركين وتبلغ اقصى سرعة لها ٩٢٨ كلم/ساعة وهي تطير على ارتفاع منخفض ، وتستطيع ان تحمل نحو ٤٤٠٠ رطل من القنابل والصواريخ وهي مسلحة بأربعة مدافع ٢٣ مم وتستطيع ان تصل الى مدى نحو ٢٣٠٠ كلم وهي مزودة بخزانات وقود اضافية ، ومدى نحو ٩٠٠ كلم بدون خزانات وقود اضافية . وقد دمرت ٢٧ قاذفة منها على الارض في الضربة المفاجئة وقام بعضها بالاشتراك في بعض اغارات على القوات الاسرائيلية في « سيناء » اثناء ليلة ٧ — ٨ يونيو . كما كان لدى السلاح الجوي المصري ايضا نحو ٣٠ قاذفة متوسطة من طراز « ت يو ١٦ » ذات المحركين وهي مسلحة بسبعة مدافع ٢٣ مم وتستطيع ان تحمل ١٩٨٠٠ رطل من القنابل لمدى عمل يبلغ ٤٨٠٠ كلم بسرعة ٩٤٥ كلم/ساعة على ارتفاع ١٠٫٧٠٠ متر ، كما يمكنها ان تصل الى مدى ٦٤٠٠ كلم في حالة اذا ما حملت ٦٦٠٠ رطل من القنابل وطارت بسرعة ٧٧٠ كلم/ساعة . ويمكن تسليحها بصاروخين ضد السفن او الاهداف الارضية يطلقان من مسافة ١٢٠ كلم بعيدا عن الهدف المطلوب اصابته . وقد دمرت هذه القاذفات اثناء الضربة الجوية الاولى في مطار « بني سويف » .

ومن خلال هذا العرض السريع لمواصفات الطائرات التي كانت موجودة لدى اسرائيل من ناحية ومصر وسوريا من ناحية أخرى ، ولاعدادها التقريبية وفقا لارجح التقديرات ، يتبين لنا ان خصائص هذه الطائرات كانت متعادلة تقريبا ، وان « الميراج » كانت تفوق « الميج ٢١ » أساسا في بعد المدى ، وهو الامر الذي كانت اسرائيل في حاجة اليه أكثر من حاجة مصر وسوريا اليها ، لان الطائرات المصرية او السورية كانت تستطيع مهاجمة عمق اسرائيل الضحل ببساطة من قواعدها المتقدمة في « سيناء » وجنوب سوريا . بينما كانت اسرائيل لا تستطيع بلوغ العمق الاستراتيجي لمصر مثلا الا بطائرات بعيدة المدى « كالميراج » او « الفوتور » . ولم يكن لدى اسرائيل قاذفات لها القوة التدميرية التي كانت لقاذفات مصر المتوسطة « ت يو ١٦ » التي كانت تستطيع ان تلقي نحو ٢٧٠ طنا من القنابل في الطلعة الكاملة لها وفي حماية مظلة من « الميج ٢١ » تصاحبها من مطارات « سيناء » نحو قلب اسرائيل وفي هجوم يتم باقتراب على ارتفاع منخفض فوق سطح البحر ويمكنها ان تطلق مثلا صواريخها الموجهة من مسافات بعيدة صوب محطات الرادار مثلا او بطاريات الصواريخ . واذا كانت بعض الطائرات الاسرائيلية مثل « السوبر ميستير » و« الميستير ٤ » تفوق « الميج ١٧ » مثلا في حمولة القنابل ، فان « السوخوي ٧ » كانت تفوق كلا النوعين في قوة التدمير . بينما كانت « الفوتور » تعادل « اليوشين ٢٨ » في حمولة القنابل والمدى وربما كانت تفوقها بعض الشيء في القدرة على

الهجوم الارضي من ارتفاع منخفض . ولكن كل هذه فروق ليست جوهرية من الناحية الفنية الى حد يعطي الطائرات الاسرائيلية قدرة متفوقة بصورة ساحقة على الطيران العربي .

والواقع ان التفوق الجوي الاسرائيلي قد تحقق أساسا بفضل نجاح الضربة المفاجئة الاولى للطيران المصري ، التي جاءت نتيجة لتنفيذ دقيق متقن لخطة محكمة استغرق اعدادها فترة طويلة من التدريب وجمع المعلومات ، وكفلت لها ظروف عدة من الجانب المقابل مناخا مناسبا للنجاح الكبير ، منها ضعف اجراءات اليقظة والامن لدى القيادة الجوية وقيادة الدفاع الجوي ، وعدم توزيع الطائرات على عدد كبير من المطارات وتهيئة ملاجىء الحماية اللازمة لها ، وعدم استخدام الدوريات الجوية المستمرة فوق المناطق الحيوية خاصة التي تكثر فيها القواعد الجوية ، وعدم توفر وسائل وأساليب سريعة لاصلاح مدارج المطارات الخ .

ولكن تنفيذ الضربة الجوية المفاجئة انما يعكس أساسا ارتفاع مستوى تدريب طياري العدو سواء من حيث القدرة على الطيران المنخفض او القصف الارضي المنظم (وذلك نتيجة تدريب طويل مسبق في قصف نماذج لبعض المطارات المصرية أدى الى اتخاذهم زوايا الاقتراب الصحيحة في الانقضاض على الاهداف بسرعة ودقة) . كما يعكس ارتفاع كفاية أطقم الخدمات الارضية والصيانة التي استطاعت أن تختصر المدة اللازمة لاعادة تزويد الطائرة بالوقود والذخيرة والكشف على أجهزتها الى دقائق قليلة (قيل انها بلغت ٧ دقائق) واختصار المدة اللازمة لاصلاح وصيانة الطائرات بحيث أمكن لبعض طائرات « الميراج » ان تقوم بتنفيذ ١١ طلعة في اليوم الواحد ! وساعد على ذلك توفر عدد كاف من الطيارين لدى السلاح الجوي الاسرائيلي قدرته بعض التقديرات الاجنبية بنحو ١٢٠٠ طيار(١١) . ولذلك أمكن للطائرات المهاجمة أن تقوم بنحو ١٠٠٠ طلعة جوية خلال موجات الضربات الجوية الاولى الثلاث التي استغرقت الفترة من ٨،٤٥ الى ١١،١٥ من صباح يوم ٥ يونيو . وقد كانت هذه النتيجة العملية للتدريب الطويل المسبق واعداد العدد الكافي من الطيارين والفنيين الاكفاء تطبيقا لسياسة القائد السابق للسلاح الجوي الاسرائيلي « عايزر وايزمان » الذي قال قبل سنوات من نشوب القتال وتنفيذ العدوان المفاجىء « ان سلاح الجو الاسرائيلي أقل عددا من القوى الجوية المصرية ، ولا مانع ان يكون كذلك اذا كان من ناحية أخرى قادرا على مساواة العدد بعدد المهمات على الاقل »(١٢) .

هذا وقد كان لدى الاردن نحو ٢٢ طائرة « هوكر هنتر » البريطانية الطراز (مع توفر ١٦ طيارا فقط لها) وهي مقاتلة قاذفة مسلحة بأربعة مدافع عيار ٣٠ مم وتستطيع ان تحمل ٧٠٠٠ رطل من القنابل او الصواريخ وتبلغ اقصى سرعة لها ١١٥٠ كلم/ساعة ويصل مدى عملها الى ٣٩٥ كلم .

وهكذا نرى ان التفوق الجوي الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ لم يتحقق نتيجة تفوق نوعية طائراته ، حقا أنها كانت أدوات قتالية ملائمة فنيا لتطبيق استراتيجية العدو الهجومية من حيث تميزها ببعد المدى نسبيا والقدرة على الطيران المنخفض بكفاءة ، الا أن الطائرات العربية كانت قادرة من الناحية الفنية وفي ظل الظروف الجغرافية التي كانت قائمة على مواجهة هجوم الطائرات الاسرائيلية واحباط مفعوله الاساسي فيما لو توفرت لها الكفاية البشرية الملائمة من حيث القيادة ومستوى تدريب الطيارين وأطقم الخدمات الارضية ، وبطبيعة الحال فيما لو توفر لها نظام انذار مبكر سليم ودفاع جوي كفء .

كما ان التفوق الجوي الاسرائيلي لم يكن نتاج تفوق في عدد الطائرات ، كما بدا الحال في أول الامر نتيجة كثافة وتلاحق عدد الطلعات الهجومية على القواعد الجوية المصرية . أو نتاج امتلاك اسرائيل لنحو ٣٠٠ طائرة « ميراج » كما قال وزير الحربية المصري

الاسبق شمس بدران بعد ذلك اثناء محاكمته ! اذ ان اكبر التقديرات لعدد هذا النوع من الطائرات لا يزيد عن ١٠٠ طائرة ، ولم يكن من الممكن عالميا اخفاء حقيقة عدد الطائرات الثلاثمئة بعد انتهاء الحرب وخاصة وان هذه الطائرات تنتجها مصانع فرنسية ومن المحال تكتم صفقة بهذا القدر الكبير على الاقل بعد انتهاء الاحداث . لقد كمن التفوق الاسرائيلي اساسا في العنصر البشري الذي استخدم الطائرات ابتداء من القيادة والتخطيط الى الطيارين كما وكيفا ، والى باقي رجال الاجهزة الفنية الاخرى المساعدة ، وبنفس القدر كان الضعف الجوي لدى الجانب العربي نتاج عدم كفاية العنصر البشري ، ليس على مستوى الاستعداد للتضحية والاستبسال في القتال ، وانما على مستوى القيادة غير المدركة لطابع الايقاع السريع للحرب الحديثة وللحرب الخاطفة الاسرائيلية بالذات ، وعلى مستوى انخفاض مستوى التدريب وضعف نظم الانذار والدفاع الجوي وصيانة المطارات والطائرات . هذا وكان يساند القوة الجوية الاسرائيلية نظام للدفاع الجوي يضم شبكة جيدة من الرادار في مجموعة من المحطات الثابتة والمحطات ذات المواقع الموقتة والسفن الصغيرة المجهزة بأجهزة انذار مساعدة ، فضلا عن متطوعي الرصد الارضي في المستعمرات المختلفة تساعدهم شبكة اتصال سلكي ولاسلكي جيدة . وكانت هناك بطاريات صواريخ ارض — جو طراز « هوك » وهي تعمل فوق قواعد متحركة وتصلح لمواجهة الطيران المنخفض وكانت مركزة حول «تل ابيب» والمدن الهامة. هذا فضلا عن بطاريات عدة من المدافع المضادة للطائرات التي توجه بالرادار من عيارات ٣٠ مم ، ٤٠ مم الخفيفة ، ١٠٢ مم الثقيلة فضلا عن الرشاشات الثقيلة ذات الاربع فوهات عيار ٢٠ مم التي تعطي كثافة نيران ضد الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة . ويكمل هذا النظام المقاتلات المعترضة من طراز « ميراج ٣ » ، وقد تركت منها ١٢ طائرة لحماية اجواء اسرائيل اثناء تنفيذ الضربة الجوية الاولى ، كانت ثمانية منها تشكل مظلة دائمة واربع اخرى تقف على أهبة الاستعداد عند مدارج المطارات . وبالطبع فان كفاءة هذا الجهاز الحقيقية لم تختبر على نطاق واسع اثناء الحرب لان الغارات العربية الجوية على اسرائيل خلالها كانت محدودة للغاية ، وقامت بها بعض الطائرات الاردنية والعراقية والسورية ، وكانت تتصدى لها أو تطاردها بعض المقاتلات الاسرائيلية ، فيما عدا قاذفة قنابل عراقية من طراز « ت يو ١٦ » هاجمت مدينة « ناتانيا » يوم ٦ يونيو فقد أسقطتها المدافع م/ط . وقد استطاعت طائرات « الهوكر هنتر » الاردنية مهاجمة مطارات « ناتانيا » ، « كفار سيركين » ، « كفار سافا » وبعض مفارق الطرق في نحو الحادية عشرة من صباح ٥ يونيو ودمرت نحو ٤ طائرات للعدو كانت جاثمة على الارض ودون ان تخسر طائرة واحدة من قبل الدفاع الجوي الاسرائيلي ، وذلك قبل ان تهاجم طائرات العدو مطاري « عمان » و« المفرق » وتدمر ١٨ طائرة هنتر اثناء اعادة تزويدها بالوقود .

علاقات القوى في المدرعات :

لقد كان سلاح المدرعات الاسرائيلي يضم عند نشوب حرب١٩٦٧ خليطا من أنواع مختلفة من الدبابات الامريكية والبريطانية والفرنسية تؤلف في مجموعها عددا اجماليا يصل في تقديرنا الى ١٢٠٠ دبابة وربما الى ١٤٠٠ دبابة فضلا عن ٢٥٠ مدفعا ذاتي الحركة على الاقل . وفيما يلي بعض الخصائص الفنية الاساسية لانواع الدبابات الاسرائيلية المستخدمة :

« سنتوريون مارك ٧،٥ » : وهي دبابة متوسطة بريطانية الطراز تزن نحو ٥٠ طنا كانت أنواعها الاولى مجهزة بمدفع عيار ٨٣،٤ مم ذي القذيفة ٢٠ رطلا ثم اصبحت انواعها الاحدث مجهزة بمدفع أقوى من عيار ١٠٥ مم ، وقد وحد الاسرائيليون تسليح جميع دباباتهم من هذا الطراز بمدافع عيار ١٠٥ مم . وهي مزودة ايضا بجهاز يؤمن استقرار

المدفع اثناء الرمي مهما كانت وعورة الارض . وتبلغ اقصى سرعة لها على الطرق نحو ٣٤ كلم/ساعة ، ويصل مدى عملها الى ١٨٥ كلم تقريبا(١٢) .

« باتون م ٤٨ أ ٢ » ، « م ٤٨ أ ٣ » : وهي دبابة متوسطة امريكية الطراز تزن نحو ٤٥ طنا مزودة أصلا بمدفع عيار ٩٠ مم ذي سرعة قذيفة عالية «High velocity» (وهذا يوفر للقذيفة قدرة أكبر على اختراق الدروع من مسافات بعيدة نسبيا وهي في حالة الباتون تقدر بنحو ٢٠٠٠ متر) وقد زودت وفقا لتقارير من المانيا الغربية التي أمدت اسرائيل بها ، بجهاز بصري جديد لتحديد المدى يتيح لها اطلاق قذائف المدفع الثقيلة مباشرة على الهدف دون ان تضطر الى اطلاق الرصاص الخطاط المحدد للمدى اولا (وهو نوع خاص من الرصاص او القذائف المجهز كيميائيا بحيث يترك وراءه ذيلا من الدخان او الضوء ليلا) .

هذا وتبلغ أقصى سرعة لهذا النوع من الدبابات نحو ٥١ كلم/ساعة على الطرق ، وهي مزودة بمنظار للاشعة تحت الحمراء .

« شيرمان م ـ ٤ » ماركات « ٥٠ ، سوبر شيرمان ، ٥١ » : وهي دبابات امريكية متوسطة من مخلفات الحرب العالمية الثانية تزن حوالي ٣٠ طنا ، وكان بعضها مزودا بمدافع عيار ٧٦ مم والبعض بمدافع ٩٠ مم والبعض الاخير زود بمدفع ١٠٥ مم وهو الاغلب على ما يعتقد ، وذلك في محاولة من جانب الاسرائيليين لجعل هذه الدبابة معادلة بشكل ما للدبابة السوفييتية الطراز « ت ٣٤ » ، ولكن هيكلها وبرجها لم يكن تصميمهما جيدا مثل الـ « ت ٣٤ » كما يشير « نادلف صافران » في كتابه « من حرب الى حرب »(١٥) . وذلك بحكم ارتفاعه وعدم انسيابيته كما في الـ « ت ٣٤ » . هذا وقد زودت هذه الدبابات بمحركات جديدة اقوى من التي كانت بها أصلا ، كما ركبت لها سلاسل اعرض لتكون اكثر قدرة على السير في الرمال مثل « ت ٣٤ » . وتصل اقصى سرعة لها الى نحو ٤٠ كلم/ساعة ، ومدى عملها قصير نسبيا لا يزيد عن ١٣٠ كلم وربما أقل من ذلك .

« **أم اكس ١٣** » : وهي دبابة خفيفة فرنسية الطراز تزن نحو ١٥ طنا مسلحة بمدفع عيار ٧٥ مم ، وتبلغ أقصى سرعة لها ٦٠ كلم/ساعة ويصل مدى عملها لنحو ٣٢٠ كلم . وهي تستخدم اساسا في الاستطلاع او العمليات التي تتطلب مطاردة سريعة نظرا لسرعتها وقدرتها على المناورة ، وذلك بحكم ان تدريعها خفيف للغاية حتى ان باطنها لا يحتمل انفجار لغم تحته ولذلك يكون سائقها معرضا بشدة لخطر الالغام . وفي لقاء لها مع دبابات «ت ٥٥» المصرية قرب «ممر جفجافة» يوم ٨ يونيو حيث فوجئت كتيبة منها بهجوم قوة من هذه الدبابات عليها حوالي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، وقد اطلقت دبابات « أم اكس » قذائف مدافعها على الدبابات المصرية من مسافة ١٠٠ متر فقط ولكنها كانت ترتد عن دروعها دون أن تؤثر فيها كما يروي مؤلف كتاب « دبابات تموز »(١٦) . وأن النار لم تشتعل في احداها الا باصابة من الجنب اطلقت من مسافة ٤٠ مترا فقط !

وعموما كانت دبابات « السنتوريون » و « الباتون » تؤلف العمود الفقري الاساسي لسلاح المدرعات الاسرائيلي . هذا وكانت جيوش كل من مصر وسوريا والاردن تمتلك عددا يتراوح بين ١٨٠٠ ـ ٢٠٠٠ دبابة وفقا لتقديرات معظم المصادر الاجنبية بخلاف نحو ٢٥٠ مدفعا ذاتي الحركة ، من بينها نحو ١٠٠٠ ـ ١١٠٠ دبابة و ٢٠٠ مدفع ذاتي الحركة كانت لدى الجيش المصري ، ٤٠٠ ـ ٥٥٠ دبابة و ٥٠ مدفعا ذاتي الحركة كانت لدى الجيش السوري ، ٢٠٠ ـ ٢٥٠ دبابة كانت بحوزة الجيش الاردني الذي كانت دباباته مؤلفة من نحو ١٧٠ دبابة باتون ، ٧٠ « سنتوريون » . أما دبابات الجيش

السوري فكانت مؤلفة من النوعين السوفييتيين « ت ٣٤ » ، « ت ٥٤ » فضلا عن المدافع « س يو ١٠٠ » . وكان سلاح المدرعات المصري تتألف كتلته الاساسية من الانواع السوفييتية « ت ٣٤ » ، « ت ٥٤ » ، « ت ٥٥ » ، « ستالين ٣ » ، « بت ٧٦ » ، « س يو ١٠٠ » ، « جي س يو ١٥٢ » ، « أس يو ٥٧ » ،« سنتوريون مارك ٣ » البريطانية ، « أم اكس ١٣ » الفرنسية ، « شيرمان م ـ ٤ » . وفيما يلي الخصائص الاساسية للمدرعات السوفييتية الطراز :

الدبابة « ت ٣٤ » : دبابة متوسطة تزن نحو ٣٢ طنا مسلحة بمدفع عيار « ٨٥ مم » ذو سرعة عالية وتبلغ أقصى سرعة لها ٥٠ كلم/ساعة على الطرق ويصل مدى عملها الى ٢٨٠ كلم وتتميز بقدرة عالية على المناورة ، وسلاسلها عريضة تساعدها على السير في الرمال بيسر ، ومحركها ديزل قوته ٥٠٠ حصان . وتصميم دروعها الانسيابي وانخفاض هيكلها نسبيا يقلل الى حد ما من اصابتها ، ومدفعها مرماه المضاد للدبابات مؤثر حتى ١٠٠٠ متر تقريبا ضد دروع الدبابات الاخرى وقد دمرت العديد من « السنتوريون » و « الباتون » في معركة « رفح » وغيرها من معارك « سيناء » ، وقد كان لدى الجيش المصري منها نحو ٤٠٠ دبابة .

الدبابة « ت ٥٤ » : دبابة متوسطة تزن نحو ٣٦ طنا مسلحة بمدفع عيار « ١٠٠ مم » يزيد مرماه المؤثر ضد الدروع عن ٢٠٠٠ متر ولها ثلاثة رشاشات أحدها ١٢٫٧ مضاد للطائرات ومحركها ديزل قوته ٥٢٠ حصانا ويصل مدى عملها الى ٣٥٠ كلم بدون خزانات وقود اضافية وتمتاز بقدرة جيدة على المناورة وقوة احتمال طويلة ، وبأن ارتفاع هيكلها كله لا يزيد عن ٢٤٠ سم بينما يبلغ ارتفاع هيكل « الباتون » نحو ٣١٠ سم وهذا يجعلها هدفا ليس من السهل أصابته في الصحراء من مسافة كبيرة ، ولمدفعها جهاز يؤمن الرمي المستقر للمدفع فوق الارض الوعرة اثناء التوقف للاطلاق . وقد كان لدى مصر نحو ٤٥٠ دبابة منها (وفقا لمعظم التقديرات الاجنبية) كما كان لدى سوريا عدد اخر منها .

الدبابة « ت ٥٥ » : وهي تطوير نوعي للدبابة السابقة « ت ٥٤ » من حيث زيادة سمك الدروع قليلا وقوة المحرك وزيادة الكفاءة القتالية عن طريق تزويد مدفع الدبابة ، وهو من عيار ١٠٠ مم ايضا ، بجهاز يؤمن التحكم الدقيق في النيران واستقرار الرمي فوق الارض الوعرة واثناء سير الدبابة ايضا . هذا فضلا عن تزويدها بجهازين للاشعة تحت الحمراء احدهما للسائق والاخر للمدفعي يسمحان لها بامكانية القتال الليلي بكفاءة . ويقدر عدد الموجود منها لدى مصر عند بدء القتال بنحو ٢٢٠ دبابة(١٧). هذا وتقول المصادر الغربية ، وفقا لتقرير نشرته « نيويورك تايمز » في ٢٧ يونيو ١٩٦٧ ، ان كلا هذين النوعين من الدبابات « ت ٥٤ » ، « ت ٥٥ » كانا مجهزين بجهاز تصويب بصري ممتاز للغاية له مجال رؤية اكثر اتساعا من الاجهزة المماثلة في الدبابات الغربية الطراز التي كانت لدى اسرائيل ، وانهما كانا يتميزان بانخفاض هيكلهما العام ، وبأن تدريعهما كان قويا للغاية وذا خطوط منحنية الامر الذي يزيد كثيرا من نسبة القذائف المنزلقة على جسم الدبابة بالنسبة للدبابات الاقدم في النوع منها التي حصلت اسرائيل عليها من الغرب(١٨) .

الدبابة « ستالين ـ ٣ » : دبابة تزن ٤٦ طنا وتتميز بسمك دروعها التي تصل الى ٢٠٠ مم في مقدمتها وهي مسلحة بمدفع عيار ١٢٢ مم يزيد مرماه المؤثر ضد الدروع عن ٢٠٠٠ متر ، فضلا عن مدفع رشاش ١٢٫٧ مضاد للطائرات (مثل ت ٥٤ ، ت ٥٥) وتبلغ سرعتها القصوى نحو ٣٥ كلم/ساعة على الطرق . وهي بطيئة المناورة نظرا لثقلها وانخفاض قوة محركها بالنسبة لوزنها . وكان يوجد منها لدى مصر نحو ٦٠ دبابة استخدمت لتعزيز فرق المشاة في « رفح » و « القسيمة » وبعض المواقع الاخرى .

الدبابة « بت ٧٦ » : دبابة خفيفة برمائية تزن نحو ١٥ طنا مسلحة بمدفع عيار « ٧٦ مم » يبلغ مرماه المؤثر ضد الدروع نحو ١٠٠٠ متر ، ويصل مدى عملها الى نحو ٢٥٠ كلم على الطرق .

المدفع ذاتي الحركة « س يو ١٠٠ » : مدفع عيار ١٠٠ مم مركب على هيكل دبابة « ت ٣٤ » ويزن نحو ٣٠ طنا وتبلغ سرعته نحو ٥٠ كلم/ساعة ويصل مدى عمله الى نحو ٢٨٠ كلم . ويسمى « مدمر الدبابات » فهو اساسا مدفع مضاد للدبابات او مدفع اقتحام ولكن يمكن استخدامه ايضا كمدفع ميدان معاون للدبابات او المشاة الميكانيكية . وكان يوجد لدى مصر نحو ١٥٠ مدفعا .

المدفع ذاتي الحركة « س يو ٥٧ » : وهو مدفع مضاد للطائرات مزدوج السبطانة عيار « ٥٧ مم » مركب على شاسيه دبابة « ت ٥٤ » وتوجه مدافعه بالرادار وتستطيع ان تطلق نحو ١٢٠ طلقة في الدقيقة لمدى مؤثر يصل الى نحو ٢٤٠٠ متر . وكان يصاحب الالوية المدرعة لتقديم دعم الدفاع الجوي المتحرك لها . ويوجد منه نوع خفيف مضاد للدبابات لا يزيد وزنه عن ٥ اطنان خاص بالقوات المحمولة جوا .

المدفع ذاتي الحركة « جي س يو ١٥٢ » : مدفع ميدان ذاتي الحركة عيار ١٥٢ مم مركب على شاسيه دبابة «ستالين» ومهمته توفير نيران المدفعية المتوسطة المتحركة للتشكيلات المدرعة .

وتوضح لنا هذه البيانات المقارنة للخصائص الفنية للدبابات التي كانت لدى الطرفين خلال حرب ١٩٦٧ ان الدبابات العربية كانت متفوقة في الجملة على الدبابات الاسرائيلية سواء من حيث حداثة الطراز بالنسبة لغالبيتها (وخاصة تلك التي كانت موزعة على الالوية المدرعة لانها كانت كلها «ت ٥٤» ، «ت ٥٥») او من حيث القدرة على المناورة،او من حيث جودة وكفاءة تصميم الهيكل وطريقة تصفيح الدروع بغض النظر عن السمك (وهو الامر الذي كانت تتفوق « السنتوريون » و « الباتون » على « ت ٥٤ » ، « ت ٥٥ ») أو من حيث بعد المدى . كما انها كانت تتعادل معها في قوة النيران والمدى المؤثر للاصابة وذلك بالنسبة للقوة الاساسية للدبابات الاسرائيلية « السنتوريون » و « الباتون » وتفوق الانواع الاخرى . هذا كما ثبت ان « ت ٥٤ » تفوق « الباتون » في عدد من النواحي الامر الذي اضطر امريكا الى انتاج الدبابة الجديدة « م ٦٠ » التي تزود بها اسرائيل حاليا . وثبت ايضا عدم وجود دبابة اسرائيلية وقتئذ تكافىء الـ «ت٥٥» من حيث قدرتها على المناورة والقتال الليلي والرمي المحكم من الحركة على أرض وعرة. أما « ت ٣٤ » فقد اثبتت كفاءة افضل من « السوبر شيرمان » واستطاعت ان تدمر عددا من « السنتوريون » و « الباتون » . وتأكد ان الدبابة « أم اكس ١٣ » ليست اكثر من مركبة استطلاع مدرع سريعة الحركة . هذا كله من حيث مقارنة نوعية السلاح المدرع لدى الطرفين ، اما من حيث اجمالي عدد المدرعات او الدبابات على وجه التحديد الذي كان متوفرا لدى كل طرف ، فالواضح انه حتى لو قلنا انه كان لدى اسرائيل ١٥٠٠ دبابة فقد كان لدى جيوش مصر وسوريا والاردن معا نحو ٢٠٠٠ دبابة .

ولكن رغم هذا فقد استفادت اسرائيل من قوة دباباتها واستطاعت ان تحصل من سلاحها المدرع على مردود اقصى يفوق ما استطاع ان يحصل عليه العرب من سلاحهم المدرع كثيرا . ويمكننا ان نقول بأن العدو الاسرائيلي افاد من سلاحه المدرع لعدة أسباب ، أولها انه دفع مدرعاته للهجوم في ظل حماية جوية كاملة أدت في الوقت نفسه الى تدمير كثير من المدرعات العربية — خاصة في جبهة سيناء الصحراوية — قبل ان يتاح لها الاشتباك مع مدرعات العدو ، وثانيها انه نظرا لاخذه المبادرة الهجومية فقد امكنه ان يحشد قواه في نقاط معينة محرزا بذلك تفوقا في الكم في معظم الحالات نظرا لان الدبابات العربية كانت موزعة توزيعا دفاعيا على مختلف مواقع المشاة وحشودها الاحتياطية

كانت بعيدة في المؤخرة العملياتية تحد سيادة العدو الجوية من حريتها في الحركة نهارا . وثالثهـا ان القيادات العربية تأخرت كثيرا سواء في الجبهـة المصرية او السورية في استخدام دباباتها ، وعندما شرعت تستخدم لواءاتها المدرعة استخدمتها جزءا جزءا ، وتحت قيادة مترددة لا تجيد (في حالات عدة) فن استخدام الدبابات وتكتيكاتها في قتال الحركة ، وذلك مثلما فعل قائد الفرقـة الثالثة مشاة بالجبهة المصرية ليلة ٦/٥ يونيو حين تقدم بلواء فرقته المدرع يعززه لواء مشاة محمول محاولا الوصول الى « العريش » عن طريق « بير الحفن » ليلا فاصطدم بكتيبة دبابات اسرائيلية وبقي في مكانه طوال الليل دون أن يهاجمها بحسم رغم ان دباباته كانت مزودة بأجهزة أشعـة تحت الحمراء(١٩) . أو كما حدث في الجبهة السورية ليلة ١٠/٩ يونيو حين لم يقم قائد اللواء المدرع السبعين بالهجوم المضاد المطلوب في القطاع الشمالي من « الجولان » باتجاه « قنيطرة ـ واسط ـ القلع » بدعوى انه في حاجة الى دعم جوي حتى اثناء الليل !(٢٠)

ورابعها ان أطقم دبابات العدو كانت بصفة عامة اكثر كفاءة في معظم الحالات بالنسبة لأطقم الدبابات العربية سواء من حيث سرعة الحركـة والتصرف او دقة التصويب او استخدام أجهزة الدبابات التي بحوزتهم . ويضاف الى ذلك ان أجهزة صيانة الدبابـات وسرعتها كانت اكثر خبرة وتدريبا (وان كانت الحماية الجوية بطبيعة الحال قـد لعبت دورها المساعد في هـذه الناحية ايضا بطريقة غير مبـاشرة) كما أن الدبابات كـانت تنقل الى مسارح العمليات فوق عربات خاصة بها وهذا جعلها اكثر قدرة على الاستمرار في القتال لفترة أطول من الدبابات العربية دون ان تتطلب صيانة عادية . هذا فضلا عن أن وحدات المهندسين المساعدة للدبابات كانت مجهزة بمعدات ميكانيكية ملائمة للصحراء (بولدوزرات مختلفة الانواع) تساعد الدبابات في شق الطرق ورفع الالغام ، وكذلك في الجبهة الاردنية ومرتفعات « الجولان » . وهكذا حقق العدو تفوقا في استخدام مدرعاته بالنسبة للجيوش العربية ، نستطيع ان نلخصه في عبارة « كفاءة العنصر البشري » على مستوى القيادة الاستراتيجيـة والعملياتية والتكتيكية ، وعـلى مستوى المهارة الفنية للاطقم وارتفاع مستوى تدريبها ، وعلى مستوى الاجهـزة المعاونة لحركة الدبابات ، وبطبيعة الحال ساعدته في هذه الحالة وفرة العربات الخاصة بنقل الدبابات والمعـدات الميكانيكية الهندسية المساعدة ، ولكننا يجب الا ننسى ايضا في هذا الصدد ان الوحدات المصرية كان لديها ايضا ورش صيانة متنقلة عالية الكفاءة من الناحية الفنية لم تستطع ان تفيد منها بسبب ظروف السيادة الجوية والفوضى المترتبة على صدور امر الانسحاب العام .

علاقات القوى في المدفعية :

لقد كانت الجيوش العربية ، خاصة الجيشين المصري والسوري ، متفوقة بوضوح في المدفعية كما ونوعا بالنسبة للجيش الاسرائيلي . اذ كان الجيش المصري مزودا بأكثر من الف مدفع من مختلف العيارات منها نوعين من مدافـع الهاوتزر عيار « ١٢٢ مم » الاول يصل مدى قذيفته التي يبلغ وزنها نحو ٨٠ رطلا الى حوالي ١٣ الف متر والثاني الى حوالي ١٨ الف متر ، ومدافع من عيار « ١٣٠ مم » الذي يزيد مداه عن ٢٨ الف متر ومدافع عيار ١٥٢ مم . هذا فضلا عن المدافع المضادة للدبابات عيار « ٥٧ مم » الذي يبلغ مداه المؤثر نحو ١٠٠٠ متر ، ومدفع « ٨٥ مم » الذي يزيد مـداه عن ١٢٠٠ متر ويخترق دروعا أقوى ، ومدفع « ١٠٠ مم » الذي يصل مداه الى ٢٥٠٠ متر تقريبـا . بالاضافة الى الصواريخ المسماة « شمل » المضادة للدبابات والتي كانت تركب عـلى مركبة في مجموعات رباعية وتستطيع عبوتها الجوفاء المثبتة على مقدماتهـا ان تخترق درعا من الصلب سمكه ٢٥٠ مم من مسافة ٢٥٠٠ متر تقريبا .

وهذا بالاضافة لاعداد كبيرة من الهاونات عيار « ٨٢ مم » و « ١٢٠ مم » و « ١٦٠ مم »

والبازوكا عيار « ٨٢ مم » والمدفع عديم الارتداد « ١٠٧ مم » . والمدافع المضادة للطائرات الخفيفة من عيارات « ٣٧ م » و « ٥٧ مم » والثقيلة من عيارات « ٨٥ مم » و « ١٠٠ مم » . فضلا عن اعداد كبيرة من الرشاشات م/ط المزدوجة او الرباعية الفوهة من عيار « ١٢،٧ مم » وغيرها . هذا بالاضافة الى عديد من بطاريات قواذف الصواريخ «كاتيوشا» المركبة على عربات من عيارات « ١٢٢ مم » ، و « ١٤٠ مم » و « ٢٤٠ مم» ، وكان بعضها يضم ٣٢ قاذفا فوق العربة الواحدة او ١٢ قاذفا بالنسبة لعيار « ٢٤٠ مم » وتصل صواريخها الى مسافات تتراوح بين نحو ٦٠٠٠ — ٨٠٠٠ متر ويمكن ان تطلق كل منها ١٢ صاروخا في الصلية الواحدة .

هذا وكان لدى الجيش السوري نحو ١٢٠٠ مدفع معظمها من الانواع السوفييتية سالفة الذكر والتي كانت تعتبر أكثر عناصر هذا الجيش قوة وفاعلية كما يقول «ادجار بالانس» في كتابه « الحرب العربية الاسرائيلية الثالثة »(٢١).

كما كان لدى الجيش الاردني نحو ٢٠٠ مدفع بعضها امريكي الطراز من عيار «١٥٥ مم» والكثرة الغالبة منها بريطانية الطراز مثل مدفع الميدان القديم « ٢٥ رطلا » ، والمدفع المضاد للدبابات « ١٧ رطلا » .

أما الجيش الاسرائيلي فقد كان لديه خليط من أنواع مختلفة من المدافع منها مدافع الميدان البريطانية القديمة عيار « ٢٥ رطلا » ومدافع « ١٧ رطلا » و « ٦ ارطال » المضادة للدبابات ، ومدافع الميدان الايطالية القديمة عيار « ٧٧ مم » ، ومدافع هاوتزر فرنسية حديثة عيار « ١٥٥ مم » ، ومدافع هاوتزر عيار « ١٥٥ مم » أمريكية ذاتية الحركة مركبة على هيكل دبابة « شيرمان » ، ومدافع هاوتزر فرنسية عيار « ١٠٥ مم » مركبة على هيكل دبابة « أم اكس ١٣ » ، ومدافع امريكية عيار « ١٠٥ مم » ميدانية مركبة على هيكل دبابة « شيرمان » . وقد كانت المدافع ذاتية الحركة سالفة الذكر (ويقدر عددها بنحو ٢٥٠ مدفعا) هي القوة الرئيسية للمدفعية الاسرائيلية بالاضافة للمدافع الهاوتزر المتطورة عيار « ١٥٥ مم » التي ظهر بعضها في الجبهة السورية . كما كانت توجد ايضا هاونات ثقيلة عيار « ١٦٠ مم » واعداد كبيرة من الهاونات « ١٢٠ مم » التي كانت تركب على عربات نصف مجنزرة وتلحق بالتشكيلات المدرعة . هذا فضلا عن الصواريخ الموجهة ضد الدبابات الفرنسية الطراز « س س ١٠ » وهي قادرة على اختراق « ٤٥٠ مم » من الصلب بمدى اقصاه ١٥٥٠ مترا(٢٢) ويمكن ان تركب على سيارة جيب او دبابة « أم اكس ١٣ » ، والصواريخ « س س ١١ » الفرنسية الطراز أيضا وهي تطوير للصواريخ السابقة واكثر قوة ودقة وبعدا في المدى ويمكن استخدامها من « الهليكوبتر »(٢٠) . وليس هناك عدد معروف بدقة لاجمالي المدفعية الاسرائيلية الا انه من الواضح خلال حرب ١٩٦٧ ، انها كانت اقل الاسلحة الاسرائيلية تطورا بالقياس الى الطيران والمدرعات اللذين أعطيا أولوية خاصة من قبل القيادة العسكرية العليا في التسليح المتطور . كما انه من الواضح ان المدفعية العربية كانت تفوقها كما وكيفا وفي فاعلية القصف ايضا في الجيوش العربية الثلاثة التي اشتركت في القتال ، وتشهد بذلك معارك « رفح » و « أبو عجيلة » في الجبهة المصرية ، وقصف المستعمرات في الجبهة السورية ، وقصف المدفعية الاردنية في معارك « القدس » و « جنين » في الجبهة الاردنية .

وقد أشاد العديد من الكتاب بكفاءة جنود المدفعية العرب ، فقد قال مثلا « ادجار بالانس » في كتابه سالف الذكر « ان رجال المدافع المضادة للدبابات والمدافع الميدانية المصريين كانوا اكفاء ، وكثيرا ما تسببوا في جعل الدبابات الاسرائيلية تحرف اتجاهها بعيدا عنهم »(٢٣) . كما قامت المدفعية م/ط المصرية بدور فعال ضد الطيران الاسرائيلي بعد زوال أثر المفاجأة الاولى .

هذا وقد استخدم الطيران الاسرائيلي قنابل خاصة في تنفيذ بعض المهام القتالية ، مثل قنبلة تدمير مدارج المطارات (الفرنسية النوع وقد أنتجتها أصلا شركة « ماترا » لكي تسقط من الميراج او الفوتور) المصممة بحيث يمكن القاءها من ارتفاع منخفض على أن تسقط عموديا مباشرة على سطح المدرج ولا تتدحرج بعيدا عنها ثم تثقبها بواسطة صاروخ مركب فيها حتى تصل لعمق نحو ٤ امتار حيث تنفجر فورا او بعد فترة محدودة وفقا لصمام توقيت موجود بداخلها ، وبذلك تضمن هذه القنبلة سهولة تدمير المدارج بشدة ومن ارتفاعات منخفضة تتفق وأسلوب تخطيط الهجوم الجوي القائم على الاقتراب من الأهداف على ارتفاع منخفض ، وبطريقة تعيق سرعة اصلاح المدارج بسبب تفاوت زمن كل قنبلة عن الاخرى عند الانفجار تبعا للخطة الموضوعة . كما استخدم السلاح الجوي الاسرائيلي قنبلة اخرى مزودة بصمام توقيت يجعلها تنفجر فوق الاهداف من ارتفاع قريب منها للغاية وقبل ان تلامس الارض مما يجعل شظاياها تنتشر بصورة أفضل وأشد تأثيرا ، وقد استخدمت هذه القنابل بالذات لتدمير مواقع المدافع المضادة للطائرات في هضبة « الجولان » . كما أن اسرائيل لجأت الى استخدام وسائل التشويش المختلفة على اجهزة الاتصال اللاسلكي في الجبهة المصرية والتي يشك في تواطؤ الولايات المتحدة معها في هذا الصدد بواسطة السفينة « ليبرتي » . الا ان هذه القنابل الخاصة او وسائل التشويش الالكتروني لا تعتبر في حد ذاتها اسلحة متفوقة كفيلة بتحقيق التفوق الاسرائيلي الذي تحقق في حرب ١٩٦٧ ، لانها كانت وسائل ثانوية مساعدة فحسب . لقد كمنت عوامل التفوق الاسرائيلي اساسا في كفاءة التخطيط الاستراتيجي والقيادة على مختلف المستويات واستخدام الاسلحة بأسلوب يضمن تحقيق مردودها الاقصى ، واختيار التكتيك الملائم لاستراتيجيتهم السياسية والعسكرية اي تكتيك حرب الحركة السريعة ، وارتفاع مستوى التنظيم والتدريب والشئون الادارية الى المتطلبات التي يفرضها هذا التكتيك واستراتيجية الحرب الخاطفة والاقتراب غير المباشر وادارة العمليات على الخطوط الداخلية . ولا شك ان وضوح هدف الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية ، او بصورة أدق وضوح هدف الاستراتيجية الشاملة الاسرائيلية ، قد ساعد بدرجة كبيرة في صحة اختيار الاستراتيجية العسكرية الملائمة ، وبالتالي أيضا صحة مخططات العمليات الاستراتيجية . وباختصار نقول ان جوهر تفوق القوة الاسرائيلية في حرب ١٩٦٧ لم يكن في حجم هذه القوة سواء من ناحية القوى البشرية او من حيث الاسلحة ، كما انه لم يكن بسبب تفوق نوعية السلاح الاسرائيلي . وانما كان متركزا أساسا في عنصر المقدرة التنظيمية والقيادية ، اي في العنصر الانساني القادر على تحويل كافة عناصر القدرة العسكرية لاي مجتمع او دولة ، وهي القوى البشرية والوضع الجغرافي — الاستراتيجي والموارد الطبيعية والاقتصادية والقيم المعنوية والعلاقات الدولية ، الى وسائل عمل وأدوات فعالة في القتال والحرب . لقد كان عنصر المقدرة البشرية التنظيمية والقيادية والتنفيذية هو مجال التفوق الاسرائيلي الحقيقي على الجيوش العربية في حرب ١٩٦٧ الذي لم يكن مرجعه ، كما شاع بين اوساط الرأي العام العربي عقب الحرب مباشرة ، هو تفوق « الميراج » على « الميج ٢١ » ، او تفوق الدبابة « السنتوريون » الحديثة على الدبابة « ت ٣٤ » القديمة مثلا ، كما انه لم يكن نتاج مجرد اهمال قائد السلاح الجوي المصري او تخلف معلومات القائد العام للقوات المسلحة العسكرية ، رغم انها كلها أسباب جزئية لعبت دورا هاما في تضخيم حجم الهزيمة العربية وزيادة بريق النصر الاسرائيلي . وان دراسة أسباب التفوق الاسرائيلي في عنصر المقدرة التنظيمية والقيادة ، وأسباب التخلف العربي في هذا الصدد ، تشكل ضرورة ملحة للقيادات العسكرية والسياسية العربية حتى تستطيع أن تواجه أساليب حرب الحركة التي يمارسها العدو بنجاح ، وحتى يمكن لها ايضا ان تختار الاستراتيجية المناسبة والاساليب القتالية الملائمة لهزيمته مستقبلا .

الحواشي :

١ — O' Ballance. Edgar, *The Third Arab-Israeli War, London,* Faber And Faber, 1972, p. 165.

٢ — **المصدر السابق** — صفحة ١٦٩ .

٣ — **المصدر السابق** — صفحة ٢٥٦ .

٤ — Dayan. David, *Strike First,* New York, Pitman, 1967, p. 217

٥ — O' Ballance. Edgar, *The Third Arab - Israeli War,* London, Faber And Faber, 1972, p. 165

٦ — Safran. Nadav, *From War To War,* New-York, Pegasus, 1969, p. 351.

٧ — **المصدر السابق** — صفحة ٤٤٣ .

٨ — نقلا عن كتاب العميد حسن مصطفى «**الحرب حزيران ١٩٦٧**» الجزء الاول — بيروت — المؤسسة العربية للنشر — صفحة ٢٩ .

٩ — Dayan. David, *Strike First,* New-York, Pitman, 1967, p. 25.

١٠ — Teveth. Shabtai, *The Tanks of Tammuz,* London, Weidenfeld and Nicolson, 1968, p. 204

١١ — O' Ballance. Edgar, *The Third Arab Israeli War,* London, Faber And Faber, 1972, p. 50.

١٢ — نقلا عن نص أورده هيثم الكيلاني في كتابه « **المذهب العسكري الاسرائيلي** » — بيروت — مركز الابحاث الفلسطينية — ١٩٦٩ — صفحة ٦٥٧ .

١٣ — Safran. Nadav, *From War to War,* New-York, Pegasus, 1969, p. 451.

١٤ — Weller. Jac. Israeli Armour, *Military Review,* Vol LI No 11, Nov. 1971, p. 46.

١٥ — Safran. Nadav, *From War to War,* New York, Pegasus, 1969, p. 452.

١٦ — Teveth. Shabtai, *The Tanks of Tammuz,* London, Weidenfeld and Nicolson, 1968, p. 239.

١٧ — O' Ballance. Edgar, *The Third Arab-Israei War,* London, Faber And Faber, 1972, p. 90.

١٨ — Safran. Nadav. *From War To War,* New-York, Pegasus, 1969, p. 450.

١٩ — مصطفى ، حسن ، العميد — **حرب حزيران ١٩٦٧** — الجزء الاول — بيروت — المؤسسة العربية للنشر — ١٩٧٣ — صفحة ٢٠٤ .

٢٠ — **المرجع السابق** — الجزء الثاني — صفحة ٢٤٩ .

٢١ — O' Ballance. Edgar, *The Third Arab-Israeli War,* London, Faber And Faber, 1972, p. 227.

٢٢ — خطاب ، اللواء محمود شيت — **العسكرية الاسرائيلية** — بيروت — دار الطليعة — ١٩٦٨ — صفحات ٢١٦ ، ٢٢٣ .

٢٣ — O' Ballance. Edgar, *The Third Arab-Israeli War,* London, Faber And Faber, 1972, p. 171.

تحيا فلسطين

مقابلات مع قادة المقاومة

(باللغة الانجليزية)

١٧٢ صفحة من القطع الكبير

٨ ل.ل. تضاف اليها أجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في البلاد العربية ،

١/٢ ٢ ل.ل. في الدول الاوروبية ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

منشورات مركز الابحاث :

ص.ب ١٦٩١ — بيروت .

اتجاهات التجارة الخارجية لاسرائيل بعد ١٩٦٧

محمد ابو الحديد

الغرض من هذه الدراسة ، ليس مجرد تناول اتجاهات التجارة الخارجية لاسرائيل بعد ١٩٦٧ ، من زاوية اقتصادية بحتة ، ولكنه يتعدى ذلك الى محاولة استكشاف الدلالات السياسية التي يمكن ان تنطوي عليها هذه الاتجاهات ، ومدى الارتباط بين اتجاهات التجارة الخارجية لاسرائيل بعد ١٩٦٧ ، وبين علاقاتها الدولية بصفة عامة منذ هذا التاريخ .

والسؤالان الاساسيان اللذان تسعى الدراسة للاجابة عنهما تحقيقا لهذا الغرض هما : **اولا** : هل كان لعدوان ١٩٦٧ ، تأثير على حجم واتجاه التجارة الخارجية لاسرائيل ام لا ، واذا كان هناك تأثير ، فما هي ابرز دلالاته وملامحه ؟ **ثانيا** : الى اي مدى يمكن اعتبار اتجاهات التجارة الخارجية لاسرائيل بعد ١٩٦٧ ، ترجمة لعلاقاتها الدولية ، وانعكاسا لمواقف دول العالم المختلفة من القضية العربية ؟

ولا أظن اننا بحاجة الى تبرير اي من العناصر الرئيسية التي ينبني عليها هذا الموضوع ، سواء في الارتباط بين اتجاهات التجارة الخارجية لاي دولة ، وبين علاقاتها السياسية ، او في اختيار عام ١٩٦٧ بالذات محورا لدراسة التغيير الذي تتعرض له هذه الاتجاهات بالنسبة لاسرائيل . فأن تكون للعلاقات الاقتصادية عامة ، والتبادل التجاري خاصة ، دلالات ومعان سياسية ، فتلك لم تعد في رأينا قضية قابلة لمزيد من النقاش والجدل ، سواء على مستوى الفكر ، او الممارسة . فحجم العلاقات الاقتصادية بين اي دولتين ، هو الواقع المادي المعبر عن حقيقة العلاقات بينهما ، وهو احد المفاتيح الهامة لفهم موقف كل منهما تجاه الاخرى . وفي نطاق العلاقات الاقتصادية ، فان التبادل التجاري يحتل المرتبة الاولى ، باعتباره اهم عناصر هذه العلاقات(١) .

ولعل في مجريات الاحداث والتطورات العالمية البارزة في الفترة الاخيرة ، ما يغني عن الاستطراد في هذا التحليل النظري . ويكفي مثلا ان نتذكر ، ان قرار الرئيس الامريكي نيكسون تخفيف قيود الحظر الجزئي على التجارة ما بين واشنطن وبكين(٢)، كان هو المقدمة الطبيعية لاول زيارة يقوم بها رئيس امريكي الى الصين منذ عام ١٩٤٩ . وأن اتفاقية القمح الامريكي للاتحاد السوفيتي ، هي الان احدى العناصر الرئيسية في اختبار تطور العلاقات بين موسكو وواشنطن ، وذلك بالطبع لا يلغي دور الايديولوجيات في تحديد وصياغة المواقف السياسية الكبرى ، بقدر ما يبرز دور العامل الاقتصادي الدولي كعنصر اساسي في التأثير والتوجيه .

وبالنسبة لاسرائيل ، فقد لا نجد ذلك منطبقا تماما على « بعض » علاقاتها التجارية ، خصوصا مع افريقيا ، حيث تحتل المعونات والمنح الدراسية التي تقدمها اسرائيل لبعض الدول الافريقية ، المقام الاول ، او مع دول امريكا اللاتينية ، التي يعتبر وقوفها الى جانب اسرائيل جزءا لا يتجزأ من ارتباطها بالولايات المتحدة الامريكية ، وتبعيتها لها ، بغض النظر عن وجود اساس مادي لعلاقات مباشرة لهذه الدول باسرائيل ، او عن

حجم هـذه العلاقات . الا ان هذه الاستثناءات لا تلغي صحة الافتراض القائـل بدور التجارة الخارجية في التأثير على العلاقات السياسية وتشكيلها . واختيار عام ١٩٦٧ ، محورا لدراسة التغيير الذي يمكن ان يكون قد طرأ على حجم او اتجاهـات التجـارة الخارجية لاسرائيل لا يحتاج الى تفسير . فمنذ شنت اسرائيل عدوانها الاستعمـاري الصهيوني التوسعي على الارض العربية في حزيران (يونيو) من ذلك العام ، وعلـى مدى ست سنوات تقريبا ، بذل العرب محاولات دبلوماسية عديدة ، وصدرت قـرارات دولية من الامم المتحدة ، لقيت تأييدا بالتصويت عليها من جانب غالبية الدول الاعضاء في المنظمة الدولية .

ومع التسليم بما يقال عن دلالة ذلك على « تحول » الرأي العام العالمي لصالح القضية العربية ، وحاجتنا نحن الى مثل هذا التحول ، الا أن الحقيقة التي تطرحها تجربتنا مع اسرائيل ، هي أن مصدر قوتها الحقيقي والمؤثر ، لم يكن في يوم من الايام نابعا من عدد « الاصوات » التي تؤيدها في المنظمة الدولية ، بقدر ما هو نابع أساسا ، وفي كل وقت، من حجم «الدعم المادي» الذي تلقاه ، ومن الاسواق التي تفتح في وجه تجارتها فتعوضها عن آثار المقاطعة الاقتصادية العربية لها ، ومن التسهيلات الاقتصادية المختلفة التـي تقدم لهـا .

وليس من شك ، في أن ما يعنينا في صراعنا مع اسرائيل ، ليس فقط مجرد الحصول على « أصوات » أكثر في الامم المتحدة لصالح قضيتنا ، فتلـك مرحلة اولى فحسب ، خاصة اذا كان هناك من يرفع يده بالتصويت لصالحنا في الامم المتحدة ، بينما يقـدم لاسرائيل باليد الاخرى — عن ادراك ، او عدم ادراك — عناصر الدعم المادي الـذي يعينها ، لا على أن تبقى وتقوى فقط ، ولكن أيضا على مواصلة تنفيذ خططهـا مـن الارهاب والتوسع بكفاءة ومقدرة أكبر . ومن هنا فان ما يعنينا بالدرجة الاولى ، هو أن نحصل مع أصوات الدول في الامم المتحدة ، على اقتناع أصحاب هذه الاصوات ، بأن وقف كافة مظاهر الدعم المادي لاسرائيل ، بما في ذلك العلاقات التجارية ، هو السبيل الوحيد لوقف استمرار توسعها وارهابها ، وتحقيق الانسجام في الموقف الدولي منها .

ولعلنا نستطيع بعد هذا التحديد للاطار السياسي للدراسة، أن ندخل في صلب الموضوع. وسوف نقسمه الى قسمين رئيسيين ، الاول عن التجـارة الخـارجية لاسرائيل قبـل ١٩٦٧ ، وسوف يتناول أرقام هذه التجارة في السنة السابقة على العدوان مباشرة ، وهي سنة ١٩٦٦ ، والثاني عن التجارة الخارجية لاسرائيل بعد ١٩٦٧ وسوف يتناول تطور هذه التجارة ، من حيث الحجم والاتجاهات حتى سنة ١٩٧١ ، وفق آخر الارقام المتاحة دوليا ، وبالمقارنة مع سنة ١٩٦٦ ، باعتبارها سنة الاساس .

أولا : التجارة الخارجية لاسرائيل قبل ١٩٦٧

في ١٩٦٦ ، بلغ اجمالي قيمة الصادرات الاسرائيلية ٥٠٣٤٠ مليون دولار(٣). واتجهت هذه الصادرات الى ٧٣ دولة من دول العالم ، على النحو التالي : ١٩ دولة من أوربا الغربية ، ١٨ دولة افريقية ، ١١ دولة من أمريكا اللاتينية ، ١٢ دولة آسيوية (بما فيها الصين واليابان)، ٨ دول من أوربا الشرقية (بما فيها الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا). وذلك بالاضافة الى كل من الولايات المتحدة وكندا ، واستراليا ، ونيوزيلنده ، وجنوب افريقيـا .

ومن ناحية اخرى ، بلغ اجمالي قيمة واردات اسرائيل في السنة نفسهـا ٨٣٨٤٢٠(٤) مليون دولار . وقد جاءت هذه الواردات لاسرائيل من ٦٠ دولة من دول العالم ، علـى النحو التالي : ١٩ دولة من اوربا الغربية ، ١٢ دولة افريقية ، ٨ دول من أمريكـا اللاتينية ، ١٠ دول آسيوية (بما فيها الصين واليابان) ، ٦ دول من أوربا الشرقيـة

(بما فيها الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا) . وذلك ايضا بالاضافة الى كل من الولايات المتحدة وكندا ، واستراليا ، ونيوزيلنده ، وجنوب افريقيا .

وكانت هناك ٢٧ دولة ، لم تتبادل معها اسرائيل أية علاقات تجارية ، سواء على شكل صادرات ، او واردات(٥)، وتوزيع هذه الدول على الشكل التالي : ١٤ دولة افريقية (هي : أنجولا — الكاميرون — جمهورية افريقيا الوسطى — تنزانيا — داهومي — غينيا — ليبيريا — مالي — توجو — النيجر — روديسيا — السنغال — الصومال — فولتا العليا) ، ٥ دول آسيوية (هي : بورما — كمبوديا — كوريا الجنوبية — لاوس — باكستان) ، ثم ٨ دول من أمريكا اللاتينية (هي : الدومينكان — اكوادور — السلفادور — جواتيمالا — هايتي — هندوراس — باراجواي — بارباروس)(٦). وقد استأثرت عشر دول بحوالي ٧٠٪ من اجمالي قيمة الصادرات الاسرائيلية . ونفس هذه الدول تقريبا ، مع تغيير بسيط ، تنفرد بنسبة ٧٧ ٪ من واردات اسرائيل ، وذلك على النحو التالي :

جدول (١) : ترتيب الدول العشر الاولى في جدول الصادرات الاسرائيلية عام ١٩٦٦(٧).

الدولة	القيمة بمليون دولار
الولايات المتحدة	٧٧٫٤٠
بريطانيا	٦٢٫٢٠
المانيا الغربية	٤٧٫١٠
هولنده	٣٧
بلجيكا	٣٢٫٣٠
سويسرا	٢٨٫٢٠
هونج كونج	٢١
فرنسا	١٨٫٩٠
اليابان	١٨٫٧٠
يوغوسلافيا	١١٫٢٠
الاجمالي	٣٥٤٫٠٠

جدول (٢) : ترتيب الدول العشر الاولى في جدول الواردات الاسرائيلية عام ١٩٦٦(٨).

الدولة	القيمة بمليون دولار
الولايات المتحدة	٢٢١٫٦٠
بريطانيا	١٥٧
المانيا الغربية	٦٨٫٧٠
هولنده	٣٧٫٨٠
فرنسا	٣٦٫٧٠
ايطاليا	٢٩٫٦٠
بلجيكا	٢٨٫٩٠
سويسرا	٢٧٫٩٠
اليابان	٢٠٫٧٠
الارجنتين	١٥٫٤٠
الاجمالي	٦٤٤٫٣٠

وفيما يتعلق بالصورة التفصيلية لاتجاهات التجارة الخارجية لاسرائيل عام ١٩٦٦ ، فانها تتضح من خلال مراجعة توزيع كل من الصادرات والواردات الاسرائيلية ، على بعض مناطق العالم الرئيسية ، وهي على وجه التحديد : السوق الاوروبية المشتركة ، وافريقيا ، وأمريكا اللاتينية ، وآسيا ، واوربا الشرقية .

ويوضح الجدول رقم (٣) اتجاه الصادرات الاسرائيلية عام ١٩٦٦،بالنسبة لهذه المناطق، ونسبتها في كل منطقة الى اجمالي الصادرات الاسرائيلية ، مع بيان اسماء وترتيب الدول الثلاث الاولى في كل منطقة .

اما بالنسبة للواردات الاسرائيلية عام ١٩٦٦ ، فيوضح الجدول رقم (٤) توزيعها على نفس المناطق .

ولعلنا نستطيع الان ان نستخلص اهم الملامح الرئيسية ، التي ميزت صورة التجارة الخارجية لاسرائيل عام ١٩٦٦ ، من واقع هذه البيانات والارقام .

جدول (٣) : اتجاه الصادرات الاسرائيلية بالنسبة لبعض مناطق العالم الرئيسية .

المنطقة	قيمة الصادرات بمليون دولار	النسبة بالمائة	الدول الثلاث الاولى
السوق الاوروبية المشتركة(٩)	١٤٣،٣٠	٢٨،٥	المانيا الغربية — هولنده — بلجيكا
افريقيا(١٠)	١٧	٣،٤	غانا — نيجيريا — اثيوبيا
امريكا اللاتينية(١١)	٥	١	كولومبيا — بيرو — البرازيل
آسيا(١٢)	٦٢،٩٠	١٢،٤	هونج كونج — اليابان — تركيا
اوروبا الشرقية(١٣)	٣٣،٦٠	٦،٦	يوغوسلافيا — بولنده — المجر

جدول (٤) : الواردات الاسرائيلية من بعض مناطق العالم الرئيسية(١٤)

المنطقة	قيمة الواردات بمليون دولار	النسبة بالمائة	الدول الثلاث الاولى
السوق الاوروبية المشتركة	٢٠١،٧٠	٢٤	المانيا الغربية — هولنده — فرنسا(١٥)
افريقيا	٢٢،٧٠	٢،٧	جابون — الكونغو برازافيل — اثيوبيا(١٦)
امريكا اللاتينية	٢١،٧٠	٢،٦	الارجنتين — اورجواي — البرازيل(١٧)
آسيا	٣٢	٣،٩	اليابان — تركيا — ايران(١٨)
اوروبا الشرقية	٢٥،٥٠	٣	يوغوسلافيا — المجر — بولنده(١٩)

ويمكن ان نحدد أبرز هذه الملامح فيما يلي :

١ — سجل الميزان التجاري لاسرائيل عام ١٩٦٦ ، عجزا واضحا ، بلغت قيمته ٣٣٤،٨٠ مليون دولار . ويعكس هذا العجز ، اعتماد اسرائيل على الواردات الاجنبية من السلع الاستهلاكية والرأسمالية ، بل والمواد الغذائية والمواد الخام التي تأتيها من الخارج(٢٠).

٢ — ان اسرائيل تصدر بمبلغ أقل ، الى دول أكثر ، وعلى العكس من ذلك ، فهي تستورد بمبلغ أكبر ، من عدد أقل من الدول . وهذه الحقيقة تعكسها ارقام الصادرات والواردات الاسرائيلية ، وتوزيعها على دول العالم المختلفة . فاجمالي الصادرات الذي تبلغ قيمته ٥٠٣،٤٠ مليون دولار ، يتوزع على ٧٣ دولة ، بينما يجيء اجمالي قيمة الواردات البالغ ٨٣٨،٢٠ مليون دولار ، من ٦٠ دولة فقط ، وهذا يشير الى ان اسرائيل تعنى بالدرجة الاولى ، بفتح أسواق أوسع من حيث عدد الدول ، أمام بضائعها .

٣ — ان ٤٧،٣ ٪ من التجارة الخارجية لاسرائيل ، تتحكم فيها ثلاث دول فقط ، هي الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، والمانيا الغربية . وتصل هذه الدول الثلاث على ٣٧ ٪ من جملة الصادرات الاسرائيلية ، كما تأتي منها وحدها ٥٣،٤ ٪ من جملة واردات اسرائيل .

٤ — بين هذه الدول الثلاث ، تنفرد الولايات المتحدة بالمركز الاول . وتحصل على النصيب الاكبر من التجارة الاسرائيلية بما يوازي ٢٢،٤ ٪ من مجموع قيمة هذه التجارة ، حيث يبلغ نصيبها من الصادرات الاسرائيلية ١٥،٥ ٪ ، ومن الواردات ٢٦ ٪ .

٥ — يلاحظ ان الدول العشر الاولى ، سواء في جدول الصادرات ، او جدول الواردات الاسرائيلية ، هي دول صناعية متقدمة . ومعنى ذلك ، ان ما يزيد على ثلاثة أرباع

التجارة الخارجية لاسرائيل يرتبط بهذه الدول، التي لا تخرج عن الولايات المتحدة، ودول غرب اوربا الصناعية ، واليابان(٢١).

٦ ــ وفي نفس الوقت ، فان التعامل التجاري لاسرائيل مع دول العالم النامي (افريقيا ــ آسيا ــ أمريكا اللاتينية) لا يمثل قيمة مؤثرة . فنصيب هــذه الدول مــن التجــارة الاسرائيلية لا يتعدى ١٢ ٪ ، حيث تحصل على ١٦،٨ ٪ من صادرات اسرائيل ، وتقدم ٩،٢ ٪ من الواردات الاسرائيلية . ويؤكد لنا هذه الحقيقة بشكل حاد ، ان جميع الدول التي لا تتاجر معها اسرائيل ، او التي تقتصر علاقة اسرائيل التجارية بها على جانب واحد ، هي من دول العالم النامي ، وليس بينها دولة واحدة ، تنتمي الى عالم الــدول الصناعية المتقدمة .

ومعنى ذلك ، اننا نواجه بظاهرة واضحة وغالبة على التجارة الخارجية لاسرائيل . فالجزء الاكبر من هذه التجارة يتجه الى الولايات المتحدة والدول الصناعية المتقدمة ، ويتركز في عدد محدود من الدول ، يدور حول المحور المثلث الذي تمثله الولايات المتحدة وبريطانيا ، والمانيا الغربية . يقابل ذلك اتجاه ضئيل من حيث القيمة الى الدول النامية، وان حرص هذا الاتجاه على التوسع والانتشار من حيث العدد .

وبوضوح أكثر ، فان نصف التجارة الخارجية لاسرائيل تقريبا ، تتحكم فيه ثلاث دول ، بينما ١٢ ٪ فقط من هذه التجارة ، يتوزع على ما يقرب من ٤٠ دولة .

واذا كان هذا يفسر لنا من جانب ، الواقع المادي للعلاقة الخاصة بين اسرائيل وكل من الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية ، فانه يكشف لنا من جانب اخر ، عن طبيعة السياسة الاسرائيلية التي تعتمد على الانتشار في دول العالم النامي ، والحرص على أن يكون لها موطىء قدم ، في اكبر عدد ممكن من دول افريقيا وآسيا ، وامريكا اللاتينية .

ثانيا : التجارة الخارجية لاسرائيل بعد ١٩٦٧

في عام ١٩٦٧ ، بلغت قيمة الصادرات الاسرائيلية ٥٥٤،٥٠ مليون دولار ، بزيــادة ٥١،١٠ مليون دولار عن عام ١٩٦٦ ، أي بنسبة ١٠ ٪ . ثم ارتفعت في عام ١٩٦٨ الى ٦٣٩،٢٠ مليون دولار ، بزيادة ١٣٥،٨٠ مليون دولار عن عام ١٩٦٦ ، أي بنسبة ٢٧ ٪ ، وفي عام ١٩٦٩ ، بلغت قيمة الصادرات الاسرائيلية ٧٢٩،٣٠ مليون دولار ، بزيــادة ٢٢٥،٩٠ مليون دولار عن عام ١٩٦٦ ، اي بنسبة ٤٥ ٪ ثم ارتفعت عام ١٩٧٠ ، الى ٧٧٥،٩٠ مليون دولار ، بزيادة قدرها ٢٧٢،٥٠ مليون دولار عن عام ١٩٦٦ ، اي بنسبة ٥٤ ٪ ، واخيرا وصلت الى ٩٥٧،٢٩ مليون دولار عام ١٩٧١ ، بزيادة قدرها ٤٥٣،٨٩ مليون دولار عن عام ١٩٦٦ ، اي بنسبة ٩٠ ٪ .

وفيما يتعلق بالواردات الاسرائيلية ، فقد هبطت قيمتها الاجمالية من ٨٣٨،٢٠ مليــون دولار عام ١٩٦٦ ، الى ٧٧٧،٩٠ مليون دولار عام ١٩٦٧ ، بنسبة نقص قدرها ٧ ٪ . الا أنها عادت فارتفعت عام ١٩٦٨ الى ١١٢٠،٨٠ مليون دولار ، بزيادة عن عام ١٩٦٦ قدرها ٢٨٢،٦٠ مليون دولار ، اي بنسبة ٣٤ ٪ . وفي عام ١٩٦٩ ، وصلت الــى ١٣٣٠،٦٠ مليون دولار ، بزيادة عن عام ١٩٦٦ قدرها ٤٩٢،٤٠ مليون دولار ، اي بنسبة ٥٩ ٪ . وفي عام ١٩٧٠ ، بلغ اجمالي قيمة الواردات الاسرائيلية ١٤٥١،٢٠ مليون دولار(٢٢)، بزيادة عن عام ١٩٦٦ قدرها ٦١٣ مليون دولار ، اي بنسبة ٧٣ ٪ ، واخيرا ، قفزت هذه القيمة الى ١٧٨٥،٨٤ مليون(٢٣) دولار عام ١٩٧١ ، بزيادة قدرها ٩٤٧،٦٤ مليون دولار عن عام ١٩٦٦ ، اي بنسبة ١١٣ ٪ .

ويوضح الجدولان التاليان ، ترتيب الدول العشر الاولى بالنسبة لكل من الصادرات والواردات الاسرائيلية خلال أعوام ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٩٧٠ ، وقيمة الصادرات او الواردات لكل منها ، ونسبة ما تحصل عليه هذه الدول العشر من الصادرات ، أو الواردات الاسرائيلية .

جدول (٥) : ترتيب الدول العشر الاولى في جدول الصادرات الاسرائيلية
للسنوات : ١٩٦٧ — ١٩٦٨ — ١٩٦٩ — ١٩٧٠(٢٥)

١٩٦٧		١٩٦٨		١٩٦٩		١٩٧٠	
الدولة	القيمة بمليون دولار	الدولة	القيمة بمليون دولار	الدولة	القيمة بمليون دولار	الدولة	القيمة بمليون دولار
الولايات المتحدة	٨٩٫٩٠	الولايات المتحدة	١١٩٫٧٠	الولايات المتحدة	١٣٥٫٧١	الولايات المتحدة	١٤٩٫٢٠
بريطانيا	٧٠٫٥٠	بريطانيا	٧٠٫٦٠	بريطانيا	٧٤٫٨٥	بريطانيا	٨١٫٧٥
المانيا الغربية	٥٩٫٤٠	المانيا الغربية	٥٧٫٩٠	المانيا الغربية	٦٣٫٤٦	المانيا الغربية	٦٦٫٧٤
بلجيكا	٣٦٫٤٠	بلجيكا	٤٠٫١٠	بلجيكا	٤٥٫١٨	هولنده	٤٦٫٠٩
هولنده	٣١٫	هولنده	٣٢٫٢٠	فرنسا	**٣٦٫٩١**	بلجيكا	٣٩٫٥٠
سويسرا	٢٧٫٣٠	فرنسا	٣٠٫٥٠	سويسرا	٣٤٫٥٦	فرنسا	٣٨٫٦١
فرنسا	٢٣٫٧٠	سويسرا	٢٩٫٩٠	هونج كونج	٣٣٫٨٩	هونج كونج	٣٦٫٩٠
اليابان	٢١٫٢٠	هونج كونج	٢٥٫١٠	هولنده	٣٠٫٩٦	سويسرا	٣٤٫٥٦
هونج كونج	٢١٫١٠	اليابان	٢٤٫٢٠	اليابان	٣٠٫٤٢	اليابان	٣٢٫٣٠
ايران	١٠٫٢٠	ايران	١٦٫٦٠	ايران	١٩٫٨٥	ايران	٢٢٫٣٠
الاجمالي	٤٠٠٫٧٠	الاجمالي	٤٤٦٫٨٠	الاجمالي	٥٠٥٫٧٩	الاجمالي	٥٤٧٫٩٥
النسبة بالمائة	٧٢	النسبة بالمائة	٧٠	النسبة بالمائة	٦٩٫٤	النسبة بالمائة	٧٠٫٥

جدول (٦) : ترتيب الدول العشر الاولى في جدول الواردات الاسرائيلية
للسنوات : ١٩٦٧ — ١٩٦٨ — ١٩٦٩ — ١٩٧٠(٢٦)

١٩٦٧		١٩٦٨		١٩٦٩		١٩٧٠	
الدولة	القيمة بمليون دولار	الدولة	القيمة بمليون دولار	الدولة	القيمة بمليون دولار	الدولة	القيمة بمليون دولار
الولايات المتحدة	١٩٥٫٧٠	الولايات المتحدة	٢٤٥٫٤٠	الولايات المتحدة	٣١٠٫٧٧	الولايات المتحدة	٣٢٢٫٨١
بريطانيا	١٤٦	بريطانيا	٢١٦	بريطانيا	٢٤٥٫٤٢	بريطانيا	٢٢٣٫٢٧
المانيا الغربية	٦١٫٨٠	المانيا الغربية	١١٤٫٢٠	المانيا الغربية	١٥٤٫٥٢	المانيا الغربية	١٧٣٫٣٣
هولنده	٣٥٫٧٠	ايطاليا	٥٤٫٩٠	هولنده	٧١٫٢١	ايطاليا	٧٦٫٠٤
فرنسا	٣٢٫٥٠	فرنسا	٥٢٫٨٠	ايطاليا	٧٠٫٢٧	هولنده	٧١٫١٦
سويسرا	٢٧٫٦٠	هولنده	٥١٫٥٠	فرنسا	٥٢٫٠٥	اليابان	٦١٫٩٨
ايطاليا	٢٧	بلجيكا	٤٣٫١٠	سويسرا	٥١٫٢٦	بلجيكا	٦١٫٩٣
بلجيكا	٢٦٫٤٠	سويسرا	٣٦٫٥٠	بلجيكا	٤٨٫٣٥	فرنسا	٦٠٫٨٤
اليابان	١٩٫٣٠	النرويج	٢٣٫٧٠	السويد	٣١٫٦٨	سويسرا	٤٩٫٠٨
يوغوسلافيا	١١٫٨٠	السويد	١٤٫٩٠	اليابان	١٨٫٩٤	السويد	٢٨٫٥٠
الاجمالي	٤٨٣٫٨٠	الاجمالي	٨٥٣٫—	الاجمالي	١٠٨٤٫٤٧	الاجمالي	١١٢٨٫٩٤
النسبة بالمائة	٦٢	النسبة بالمائة	٧٦	النسبة بالمائة	٨١	النسبة بالمائة	٧٨

وفيما يتعلق بعام ١٩٧١(٢٧)، فقد بلغ اجمالي قيمة الصادرات الاسرائيلية كما أسلفنا ٩٥٧،٢٩ مليون دولار ، توزعت على ٩٣ دولة ، على النحو التالي : ١٩ دولة من أوروبا الغربية ، ٢٤ دولة افريقية ، ٢٢ دولة من امريكا اللاتينية ، ١٧ دولة آسيوية (بما فيها الصين واليابان)، ٦ دول من اوروبا الشرقية (بما فيها الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا)، هذا بالاضافة الى كل من الولايات المتحدة وكندا ، واستراليا ، ونيوزيلنده ، وجنوب افريقيا .

ومن ناحية أخرى ، جاءت الواردات الاسرائيلية ، التي بلغت قيمتها الاجمالية ١٧٨٥،٨٤ مليون دولار ، من ٨١ دولة ، وذلك على النحو التالي(٢٨): ١٩ دولة من أوروبا الغربية ، ١٨ دولة افريقية ، ١٥ دولة من امريكا اللاتينية ، ١٧ دولة آسيوية ، ٧ دول من اوربا الشرقية ، بالاضافة الى كل من الولايات المتحدة وكندا ، واستراليا ، ونيوزيلنده ، وجنوب افريقيا .

وكانت هناك ٢٤ دولة ، اقتصرت علاقات اسرائيل التجارية بها على جانب واحد ، منها ٦ دول لم ترد في جدول الصادرات الاسرائيلية لعام ١٩٧١ ، وهي كمبوديا — غيتنام الجنوبية — جمهورية افريقيا الوسطى — الكونغو برازافيل — مالي — والاتحاد السوفياتي ، بينما ١٨ دولة صدرت لها اسرائيل دون ان تستورد منها ، وهذه الدول هي : بوليفيا — الدومينكان — السلفادور — هايتي — نيكاراجوا — باربادوس — جامايكا (في امريكا اللاتينية) ، وبورما — غيتنام الجنوبية في آسيا ، والكاميرون — تشاد — داهومي — موريشيوس — رواندا — بورندي — السنغال — سيراليون — فولتا العليا(٢٩).

وفي نفس الوقت ، كانت هناك ٦ دول تتعامل معها اسرائيل عام ١٩٦٦ ، اختفت عام ١٩٧١ من جداول التجارة الخارجية لاسرائيل تماما ، وهذه الدول هي : أنجولا — موزمبيق — النيجر — روديسيا — الصومال — بولنده(٣٠).

وبالنظر الى جدول الصادرات الاسرائيلية عام ١٩٧١ ، نجد أن عشر دول حصلت على ٧١،٤ ٪ من اجمالي قيمة هذه الصادرات ، كذلك حصلت نفس هذه الدول تقريبا ، مع بعض الفروق البسيطة ، على ٧٩،٥ ٪ من اجمالي قيمة الواردات الاسرائيلية لنفس العام ، وذلك على النحو التالي :

جدول (٧) : ترتيب الدول العشر الاولى في جدول الصادرات الاسرائيلية عام ١٩٧١(٣١).

الدولة	القيمة بمليون دولار
الولايات المتحدة	١٨٥،٧٢
بريطانيا	٩٧،٠٣
المانيا الغربية	٨٩،٥٧
هولنده	٥٧،٦٣
اليابان	٤٨،١٨
هونج كونج	٤٥،٢٧
فرنسا	٤٤،٤٥
بلجيكا	٤٣،٧٧
سويسرا	٤٢،٤٨
ايران	٣٢،٨٨
الاجمالي	**٦٨٦،٩٨**

جدول (٨) : ترتيب الدول العشر الاولى في جدول الواردات الاسرائيلية عام ١٩٧١(٣٢).

الدولة	القيمة بمليون دولار
الولايات المتحدة	٤٢٩،٢٩
بريطانيا	٢٧٣،٤٩
المانيا الغربية	٢٣٢،٩٧
ايطاليا	٨٤،٥٤
فرنسا	٨٣،٦٧
هولنده	٧٧،٢١
بلجيكا	٧٣،١٦
سويسرا	٦١،٩١
اليابان	٥٧،٣٧
اليونان	٤٣،٧٦
الاجمالي	**١٤١٧،٣٧**

اما الصورة التفصيلية للاتجاهات الرئيسية لتجارة اسرائيل عام ١٩٧١ ، فاننا نستطيع أن نحدد ملامحها من واقع توزيع صادرات اسرائيل وواردتها على مناطق العالم الرئيسية .

ويوضح الجدول التالي اتجاه الصادرات الاسرائيلية عام ١٩٧١ بالنسبة لكل من : السوق الاوروبية المشتركة ، وافريقيا ، وامريكا اللاتينية ، وآسيا ، واوربا الشرقية ، مع تحديد نسبة صادرات اسرائيل لكل منها ، قياسا على اجمالي صادراتها في العام نفسه ، وترتيب الدول الثلاث الاولى من كل منطقة .

جدول (٩) : اتجاه الصادرات الاسرائيلية بالنسبة لبعض مناطق العالم الرئيسية(٣٣)

المنطقة	قيمة الصادرات الاسرائيلية بمليون دولار	النسبة بالمائة	الدول الثلاث الاولى
السوق الاوروبية المشتركة	٢٥٧،٨٥	٢٧	المانيا الغربية — هولنده — فرنسا
افريقيا	٣٨،٠٧	٤	اوغنده — نيجيريا — كينيا
امريكا اللاتينية	١٥،٩٠	١،٦	بيرو — البرازيل — الارجنتين
آسيا	١٥٤،٠٨	١٦	اليابان — هونج كونج — ايران
اوروبا الشرقية	١٧،٢٢	١،٩	رومانيا — المجر — بلغاريا .

ويوضح الجدول التالي قيمة الواردات الاسرائيلية من نفس المناطق ، ونسبتها الى جملة واردات اسرائيل ، وترتيب الدول الثلاث الاولى من كل منطقة .

جدول (١٠) : الواردات الاسرائيلية من بعض مناطق العالم الرئيسية(٣٤)

المنطقة	قيمة الواردات بمليون دولار	النسبة بالمائة	الدول الثلاث الاولى
السوق الاوروبية المشتركة	٥٥١،٥٥	٣١	المانيا الغربية — ايطاليا — فرنسا
افريقيا	١٦،٨٧	١	افريقيا الوسطى — ليبيريا — اثيوبيا(٣٥)
امريكا اللاتينية	٢١،٠٩	١،٢	الارجنتين — البرازيل — اوروجواي
آسيا	٧٢،٩٥	٤،١	اليابان — تركيا — سنغافورة
اوروبا الشرقية	٣٢،٦١	١،٨	رومانيا — بلغاريا — المجر(٣٦)

واذا شئنا أن نستخلص أهم المؤشرات الرئيسية ، والنهائية لهذه الارقام ، بما يرسم صورة متكاملة لما طرأ على حجم وتوزيع التجارة الخارجية لاسرائيل بعد ١٩٦٧ ، من تغيرات ، فاننا نحددها فيما يلي :

١ — لقد استطاعت اسرائيل ، عبر تطور ونمو متصل في حجم تجارتها الخارجية ، ان تصل بنسبة الزيادة من حجم هذه التجارة الى ١٠٤،٥ ٪ قياسا على عام ١٩٦٦ . حيث وصلت بنسبة الزيادة في صادراتها الى ٩٠ ٪ (٣٧)، أي ما يقرب من الضعف ، بينما قفزت بنسبة الزيادة في الواردات الى ١١٣ ٪ عن عام ١٩٦٦ ، وذلك برغم هبوط هذه الواردات عام ١٩٦٧ بنسبة ٧ ٪ ، تأثرا بالعدوان ، وكانت هذه هي المرة الوحيدة خلال السنوات الخمس الماضية ، التي لا تتقدم فيها أرقام الواردات الاسرائيلية . ومع ان هذا التطور المتصل في حجم التجارة الخارجية الاسرائيلية ، لم يستطع ان يخفف من مقدار العجز المستمر في الميزان التجاري لاسرائيل ، والذي بلغت قيمته عام ١٩٧١ حوالي ٨٢٨،٥٥ مليون دولار ، الا أن هذا التطور يشير الى أن عدوان ١٩٦٧ ، لم يترك

آثارا سلبية على علاقات اسرائيل التجارية بالعالم الخارجي ، بل على العكس من ذلك ، استمرت هذه العلاقات في النمو بصورة مطردة .

٢ ــ واذا كانت هذه الحقيقة تنطبق على حجم العلاقات التجارية لاسرائيل ، من حيث القيمة ، فانها أشد انطباقا على هذه العلاقات من حيث التوسع والانتشار جغرافيا على امتداد خريطة العالم .

فصادرات اسرائيل ، التي كانت تتجه عام ١٩٦٦ ، الى ٧٣ دولة فقط ، أصبحت تتوزع عام ١٩٧١ على ٩٣ دولة ، كذلك الواردات الاسرائيلية ، التي كانت تجيء من ٦٠ دولة فقط عام ١٩٦٦ ، أصبحت تجيء عام ١٩٧١ ، أي بعد خمس سنوات من العدوان ، من ٨١ دولة ، بحيث اختفى هذا العدد الضخم من الدول التي لم تكن تقيم مع اسرائيل علاقات تجارية على الاطلاق .

٣ ــ وهذه الزيادة في عدد الدول التي تتعامل معها اسرائيل ، تحمل مؤشرا هاما وخطيرا في نفس الوقت يقتضي منا أقصى درجات التنبه . فليس مصادفة بالتأكيد ، ان تكون جميع هذه الدول التي تتعامل مع اسرائيل تجاريا لاول مرة عام ١٩٧١ ، هي من دول العالم النامي (افريقيا ــ آسيا ــ أمريكا اللاتينية) وان يقفز بعضها في علاقاته مع اسرائيل ، من الصفر ، الى مركز الصدارة بالنسبة للمنطقة التي ينتمي اليها . واذا كان هذا يشير الى شيء ، فهو أن اسرائيل قد ضاعفت جهودها بعد ١٩٦٧ ــ كرد فعل للعدوان ، وتغطية له ــ من أجل فتح أسواق جديدة لتجارتها ، واقامة علاقات مع اكبر عدد من دول العالم النامي كمنافذ لهذه التجارة ، والواضح ان هذه الجهود قد لقيت استجابة حتى الان ، برغم ما حدث مثلا من قطع بعض الدول الافريقية لعلاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل في الفترة الاخيرة .

فاسرائيل لم تكن توجه صادراتها عام ١٩٦٦ ، الا لـــ ٤٠ دولة من القارات الثلاث ، فأصبحت توجه صادراتها الان الى ٦٢ دولة . كذلك قفز عدد الدول المصدرة لاسرائيل في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية من ٣٩ دولة عام ١٩٦٦ ، الى ٤٩ دولة عام ١٩٧١ .

ومع هذا التوسع العددي ، فلا زال نصيب هذه الدول من التجارة الاسرائيلية نصيبا محدودا وغير مؤثر ، فلم تتعد نسبته عام ١٩٧١ ، ٧،٨ ٪ ، حيث كان نصيب هذه الدول من الصادرات الاسرائيلية ١٧،٧ ٪ ، ومن الواردات ٣ ٪ فقط ، وهذا يؤكد مرة ثانية ، أن اهتمام اسرائيل ينصب بالنسبة لهذه الدول على شيء واحد ، وهو ايجاد « موطىء قدم » فيها ، أو خلق نوع ما من العلاقة معها ، بما يتيح لاسرائيل التنفس ، ومحاصرة الحصار العربي المفروض عليها .

٤ ــ وتطور التجارة الاسرائيلية في السنوات الخمس الاخيرة ، يؤكد قدرا من الثبات النسبي في الهيكل الرئيسي لهذه التجـــارة . فالمراكز الثلاثة الاولى في قائمة الدول التي تتعامل معها اسرائيل ، مغلقة على الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية ، التي تحتكر نصيبا ثابتا من التجارة الاسرائيلية يقترب من نصف اجمالي قيمة هذه التجارة . وباضافة بقية دول السوق الاوربية المشتركة(٢٨)، واليابان ، وسويسرا وايران ، فان قائمة الدول العشر الاولى في التعامل التجاري مع اسرائيل تكاد تكتمل . وفي عام ١٩٧١ كان نصيب الولايات المتحدة من حجم التجارة الاسرائيلية ٢٢،٤ ٪ ، أي ما يزيد على خمس هذه التجارة ، فقد كان نصيبها من الصادرات الاسرائيلية ١٩،٤ ٪ ومن الواردات ٢٤ ٪ .

فاذا جمعنا اليها نصيب بريطانيا والمانيا الغربية ، وجدنا ان هذه الدول الثلاث قد تحكمت في ٥٠ ٪ من التجارة الاسرائيلية عام ١٩٧١ ، وكان نصيبها من صادرات اسرائيل ٣٩ ٪ ، ومن وارداتها ٥٢،٥ ٪ .

ويشير هذا في الواقع الى جانبين هامين ، فمن ناحية تفرض طبيعة صادرات اسرائيل وارداتها أن يبقى اقتصادها باستمرار جزءا من الاقتصاديات الاوربية. فأبرز صادراتها كما أسلفنا يتمثل في الماس المصقول ، وفي الموالح ، كذلك أبرز وارداتها تتمثل في الاحجار الكريمة والمعدات الميكانيكية والكهربائية وهي نوعيات من السلع ترتبط بأنماط الاقتصاد الصناعي ، أكثر مما ترتبط بالاقتصاديات النامية .

ومن ناحية أخرى ، فان هذا يشير الى أن اسرائيل تشعر بالاطمئنان ازاء تركز ما يقرب من ثلاثة أرباع تجارتها الخارجية في عدد محدود من الدول الصناعية المتقدمة ، التي تربطها بها علاقات خاصة وتقليدية تجعل هذا الجزء الضخم والمؤثر من التجارة الاسرائيلية في مأمن من التقلبات او الهزات ، ويجعل ادعاءها بأنها تمثل مركزا حضاريا وصناعيا وسط عالم متخلف ، هو العالم العربي ، يجد قابلية للتصديق لدى هذه الدول .

٥ ــ اننا نستطيع القول بأن هناك عددا من الدول في كل منطقة من مناطق العالم الرئيسية ، يمثل «ركائز» ثابتة للتجارة الاسرائيلية على مدى السنوات الخمس الاخيرة ، فهناك بريطانيا وألمانيا الغربية وهولنده وبلجيكا في أوربا الغربية ، وهناك نيجيريا واثيوبيا في افريقيا ، وهناك البرازيل والارجنتين وبيرو في امريكا اللاتينية ، وهناك اليابان وهونج كونج وتركيا وايران في آسيا ، ثم رومانيا والمجر وبلغاريا في اوروبا الشرقية .

ومع ان كل هذه الدول او بعضها ، يقدم الحد الادنى من التعاطف مع القضية العربية ، ممثلا في التصويت الى جانب العرب فيما يصدر عن الجمعية العامة للامم المتحدة من قرارات سنوية تتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي ، الا أن واقع العلاقات الاقتصادية بين هذه الدول واسرائيل يصبح مثار تساؤل ، عن طبيعة المنطق الذي يفصل به هؤلاء ما بين استعدادهم للوقوف الى جانب الحق العربي ، ومطالبتهم بانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها بعدوان ١٩٦٧ ، وما بين استمرار تدفق تيار التبادل التجاري بينهم وبين اسرائيل ، وهو يمثل في ظروف الاحتلال نوعا من تدعيم القدرة الاقتصادية لها ، ومساعدتها على استمرار هذا الاحتلال .

٦ ــ ويقودنا ذلك الى مناقشة بعض « الحالات الخاصة » لبعض الدول في علاقاتها التجارية مع اسرائيل ، وما تنطوي عليه هذه الحالات من مدلولات سياسية . فعلى سبيل المثال ، قفزت ايران الى المركز العاشر في جدول الدول التي تصدر لها اسرائيل بعد ١٩٦٧ ، ولم تكن كذلك قبل العدوان ، وبدا حجم الصادرات الاسرائيلية اليها في تزايد مستمر ، من ١٠،٢٠ مليون دولار عام ١٩٦٧ الى ١٦،٦٠ مليون عام ١٩٦٨ ثم ١٩،٨٥ عام ١٩٦٩ ، و ٢٢،٣٠ عام ١٩٧٠ ، ومرة اخرى الى ٣٢،٨٨ مليون دولار عام ١٩٧١ ، فهل كانت ايران ــ الدولة الاسلامية ــ مستفيدا رئيسيا من العدوان الاسرائيلي على العرب ؟! ومن ناحية أخرى يبرز التطور الذي طرأ على حجم التبادل التجاري بين اسرائيل ورمانيا ، من ٥،٢٠ مليون دولار عام ١٩٦٦ ، الى ٣٧،٢٣ مليون دولار عام ١٩٧١ . ويبدو واضحا أثر هذا التطور في موقف الحياد الذي تحاول رومانيا اتخاذه بين العرب واسرائيل ، حفاظا على مصالحها الاقتصادية مع اسرائيل .

الا أنه تجدر الاشارة الى موقف الاتحاد السوفياتي في هذا الصدد . فلقد كانت صادرات اسرائيل اليه ١،٩٠ مليون دولار عام ١٩٦٦ ، ووارداتها منه في نفس العام مليون دولار ، وقد أخذت هذا الارقام في التناقص بوضوح منذ العدوان ، حتى أصبحت صادرات اسرائيل له عام ١٩٧١ صفرا ، ووارداتها منه لا تتعدى ٠،٠٨ مليون دولار ، أي ٨٠ الف دولار .

خاتمة

لقد طرحنا في مقدمة هذه الدراسة سؤالين رئيسيين ، تعهدنا بأن يكون هدفها هو

السعي للاجابة عنهما . ومع الاعتراف ببعض الجفاف الذي قد يسببه هذا الحشد من الارقام والبيانات الذي حفلت به الدراسة ، فانها تكاد تكون قد شقت الطريق الى تحقيق الغرض منها .

واذا كان هناك من نتيجة نهائية نستطيع الخروج بها من الدراسة ، فهي أنه يبدو أننا لم ننجح حتى الان في وضع الصورة الحقيقية المتكاملة لاسرائيل أمام العالم، وادارة صراعنا معها باستخدام أكفأ للعناصر الاقتصادية المؤثرة في هذا الصراع .

وبوضوح أكثر ، فان نتائج الدراسة تعطينا دليلا على أنه لا تزال هناك دول كثيرة في العالم ، من بينها دول صديقة ، تتصرف ازاء العدوان الواقع على أرضنا ، من منطق الفصل ما بين الاحتلال الاسرائيلي القائم على الارض العربية ، باعتباره حالة موقوتة ، وما بين اسرائيل نفسها ككل ، باعتبارها كيانا استعماريا عنصريا، سوف يبقى باستمرار مصدر تهديد وارهاب لشعوب المنطقة ، طالما وجد الدعم المادي من العالم .

فهذه الدول التي تعطينا أصواتها في الامم المتحدة مؤيدة للحق العربي ، ومطالبة بانسحاب اسرائيل ، ثم تواصل تدعيم علاقاتها التجارية معها في نفس الوقت ، لم تستطع أن تدرك بعد مدى التناقض بين السياستين ، ولم نستطع نحن أن نصل اليها بحقيقة أن أي علاقة تقيمها هذه الدول مع اسرائيل ، انما تساعد هذا الكيان الاستعماري العنصري على مزيد من التوسع والعدوان ، وان المرحلة الحقيقية في تأييد الحق العربي تأتي ، حين تتم ترجمة هذا التأييد الى اجراءات مادية لمقاطعة اسرائيل ماديا واقتصاديا ، أي التأثير في عناصر القوة التي تستمد منها قدرتها على الاستمرار في الاحتلال والتوسع .

ولن يقتنع العالم بالطبع بهذا المنطق ما لم نتحرك نحن ، ذلك أنه حتى الدول التي تدرك هذه الحقيقة ، لا تتوقف عن دعمها المادي لاسرائيل ، طالما هي لم تتعرض لمواقف عربية مؤثرة وقوية . وفي هذا المجال ، تصبح « الحرب الاقتصادية العربية ضد اسرائيل » ضرورة حيوية لا بديل عنها . فهذه الحرب ، هي الحرب الوحيدة التي نملك نحن أسلحتها على أرضنا ، وهي الحرب التي نملك أيضا عناصر التفوق الكامل فيها ، بطريقة لا يتطرق اليها الشك .

وربما كان من حسن حظنا — لو فكرنا وخططنا — أن الولايات المتحدة واوروبا الغربية — وهما كما يبدو واضحا معقل القوة الاقتصادية لاسرائيل ، ومركز الثقل الاقتصادي في علاقاتها الدولية — هما في نفس الوقت ، أكثر مناطق العالم تعرضا اليوم لازمة الطاقة التي نملك نحن مصادرها ومنابعها الرئيسية في العالم ، وهما أيضا أكثر مناطق العالم تعرضا لاحتمالات التغلب في نظام النقد الدولي ، الذي تمثل عائدات البترول من يد الدول العربية ، عاملا يمكن أن يقلب هذا النظام رأسا على عقب، اذا ما دخلت ميزان الصراع. فهل نفكر ونخطط كأمة عربية واعية تقف كلها اليوم في مواجهة الخطر ، أم ندع الكيان الصهيوني ينمو ويترعرع في ظل حراب الاحتلال والارهاب ، بغير الوقوف في وجهه ، حتى بما في يدنا فعلا من أسلحة .

---

١ — انظر للكاتب « العرب وأمريكا في مرآة التبادل التجاري بعد ١٩٦٧ » . مجلة **الطليعة** القاهرية — العدد التاسع — السنة الثامنة — سبتمبر ١٩٧٢ — ص ٢٦ .

٢ — صدر هذا القرار في ١٠ يونيو ١٩٧١ . انظر **السياسة الدولية** ، القاهرة، العدد ٢٨ ، السنة الثامنة — المجلد الثامن — ابريل ١٩٧٢، ص ١٣٧ .

٣ — انظر *Direction of Trade, Annual 1966-70.* International Monetary Fund & International Bank for Reconstruction and Development, Washington, U.S.A., pp. 242-243.

٤ — **المرجع السابق** ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

٥ — **المرجع السابق** ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

٦ — بالاضافة الى ذلك ، كانت هناك ١٦ دولة تتخذ علاقاتها التجارية مع اسرائيل شكل العلاقات

من جانب واحد . منها ثلاث دول استوردت منها اسرائيل دون ان تصدر لها شيئا ، وهي بنما ، وسيلان ، وجابون ، و١٣ دولة تصدر لهما اسرائيل دون ان تستورد منها وهي : بوليفيا — كوستاريكا — نيكاراجوا — نيبال — الفلبين — فيتنام الجنوبية — تشاد — مالاجاش — مالاوي — موريشيوس — رواندا — سيراليون — زامبيا . [**المرجع السابق** ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣] .

٧ — تم تشكيل الجدول من الارقام الواردة بصفحتي ٢٤٢ — ٢٤٣ — **المرجع السابق** .

٨ — تم تشكيل الجدول من الارقام الواردة بصفحتي ٢٤٢ — ٢٤٣ — **المرجع السابق** .

٩ — **المرجع السابق** ، ص ٩٧ . ويلاحظ ان الدول الثلاث الاولى هي نفسها التي تحتل المركز الثالث ، والرابع والخامس في ترتيب الدول العشر الاولى بجدول الصادرات الاسرائيلية رقم (١) .

١٠ — **المرجع السابق** ، ص ٧٧ . وقد بلغت قيمة صادرات اسرائيل لغانا ٤،٩٠ مليون دولار ، ولنيجيريا ٣ ملايين دولار ، ولاثيوبيا ١،٨٠ مليون دولار .

١١ — **المرجع السابق** ، ص ٥٣ . وقد بلغت قيمة صادرات اسرائيل لكولومبيا ١،٢٠ مليون دولار ، ولبيرو ٠،٩٠ مليون دولار ، وللبرازيل ٠،٧٠ مليون دولار .

١٢ — **المرجع السابق** ، ص ٧١ . تجدر الاشارة الى ان تقرير صندوق النقد الدولي يحذف من الدول الاسيوية كلا من اليابان التي يضعها بين الدول الصناعية تحت عنوان : Industrial Countries ، والصين التي يضعها بين ما يسميه Soviet Area ، التي تضم الاتحاد السوفياتي ، ودول أوربا الاشتراكية ، كذلك يحذف التقرير تركيا ليضعها بين الدول الاوربية. ونظرا لاننا نعتمد في هذا الجدول على بيان اتجاهات الصادرات الاسرائيلية ، بالنسبة لمناطق جغرافية متكاملة ، فقد قمنا باضافة الدول الثلاث الى حساب الدول الاسيوية ، ليكون تعبير آسيا في كل مواضع الدراسة ، متضمنا اليابان والصين وتركيا .

١٣ — **المرجع السابق** ، ص ٨٥ . تم حذف الصين من بين هذه الدول ، وأضيفت يوغوسلافيا ، التي بلغت قيمة صادرات اسرائيل لها ١١،٢٠ مليون دولار ، ولبولندا ٨،٣٠ مليون ، وللمجر ٥،٤٠ مليون .

١٤ — **المرجع السابق** ، ص ٩٧ ، ٧٧ ، ٥٣ ، ٧١ ، ٨٥ على التوالي حسب ترتيب المناطق بالجدول ، ومع مراعاة الملاحظتين المدرجتين في الهامش رقم (١٢) ، (١٣) .

١٥ — يلاحظ أن هذه الدول الثلاث تحتل ايضا المركز الثالث والرابع والخامس على التوالي ، في ترتيب الدول العشر الاولى المصدرة لاسرائيل عام ١٩٦٦ (جدول رقم ٤) ، وان الاولى والثانية منها ، تحتفظ بنفس ترتيبها في جدول الصادرات الاسرائيلية لدول السوق (جدول رقم ٣) .

١٦ — بلغت قيمة واردات اسرائيل من جابون ٢،٩٠ مليون دولار ، ومن الكونغو برازافيل ١،٧٠ مليون دولار ، ومن اثيوبيا ١،٦٠ مليون دولار . ويلاحظ احتفاظ اثيوبيا بمركزها في الواردات الاسرائيلية كما في الصادرات . **المرجع السابق** ، ص ٢٤٣ .

١٧ — بلغت قيمة واردات اسرائيل من الارجنتين ١٥،٤٠ مليون دولار ، مما جعل الاخيرة تدخل ضمن الدول العشر الاولى المصدرة لاسرائيل (جدول رقم ٤) . بينما لم تزد صادرات اسرائيل لها عن ٠،٤ مليون دولار . اما اورجواي ، فقد بلغت قيمة واردات اسرائيل منها ٢ مليون دولار ، والبرازيل ١،٤٠ مليون دولار . ويلاحظ ان مركز البرازيل ظل ثابتا في الواردات كما في الصادرات ، من حيث ترتيبها بين الدول التي تتعامل معها اسرائيل في امريكا اللاتينية . **المرجع السابق** ، ص ٢٤٢ .

١٨ — بلغت قيمة واردات اسرائيل من اليابان ٢٠،٧٠ مليون دولار ، ومن تركيا ٧ ملايين دولار ، ومن ايران ١،٣٠ مليون دولار . ويلاحظ احتفاظ كل من اليابان وتركيا بالاسبقية في الواردات والصادرات . **المرجع السابق** ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

١٩ — هذه الدول هي نفسها الدول الثلاث الاولى في جدول الصادرات الاسرائيلية لاوربا الشرقية.

٢٠ — انظر :

The Middle East and North Africa, 1971, 72, A survey and reference book, Eighteenth Edition, Europa Publications Limited, London, 1971, p. 321.

٢١ — **المرجع السابق** ، ص ٣٢١ .

٢٢ — أرقام الصادرات والواردات من ١٩٦٦ حتى

١٩٧٠ مأخوذة من :
Direction of Trade, Annual 1966-70, International Monetary Fund & International Bank for Reconstruction and Development, Washington, U.S.A., pp. 242-243.

٢٤ — ارقام الصادرات والواردات الخاصة بعام ١٩٧١ مأخوذة من :
Direction of Trade, I.M.F. & I.B.R.D., September 1972, pp. 55, 56.

٢٥ — تم تشكيل هذا الجدول من الارقام الواردة بصفحتي ٢٤٢ — ٢٤٣ من :
Direction of Trade, Annual 1966-70.
السابق الاشارة اليه . وقد استخرجت النسب قياسا على ارقام الصادرات الاسرائيلية الاجمالية بالنسبة لكل سنة على حدة .

٢٦ — تم تشكيل الجدول من الارقام الواردة بصفحتي ٢٤٢ — ٢٤٣ **بالمرجع السابق** ، واستخرجت النسب قياسا على أرقام الواردات الاسرائيلية الاجمالية بالنسبة لكل سنة على حدة .

٢٧ — *Direction of Trade,* I.M.F. & I.B.R.D., Washington, U.S.A., September 1972, pp. 55, 56.

٢٨ — **المرجع السابق** ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

٢٩ — يلاحظ ان من بين الدول التي اقتصرت علاقات اسرائيل التجارية معها على جانب واحد، ١١ دولة لم تكن لاسرائيل علاقات تجارية معها على الاطلاق عام ١٩٦٦ . اي ان التجارة معها من جانب واحد يمثل عنصرا ايجابيا بالنسبة لموقف اسرائيل عام ١٩٦٦ ، خصوصا اذا عرفنا ان ثماني من هذه الدول كان الجانب الواحد معها في صالح اسرائيل، اي صادرات اسرائيلية لها ، دون ان تستورد منها اسرائيل شيئا ، وهذه الدول هي الكاميرون والسنغال وفولتا العليا في افريقيا، وبورما في آسيا، والدومينكان والسلفادور وهايتي ، وباربادوس في امريكا اللاتينية .

٣٠ — يمثل اختفاء بولنده من جدول التعامل التجاري مع اسرائيل ظاهرة هامة خصوصا وانها كانت تحتل مركزا ثابتا في التعامل معها عام ١٩٦٦ .

٣١ — تم تشكيل الجدول من الارقام الواردة بصفحتي ٥٥ ، ٥٦ من **المرجع السابق** .

٣٢ — تم تشكيل الجدول من الارقام الواردة بصفحتي ٥٥ ، ٥٦ من **المرجع السابق** . ويلاحظ درجة التركز الشديد في الواردات الاسرائيلية بالنسبة للدول الثلاث الاولى . ويبدو ذلك من مقارنة أرقام واردات اسرائيل من هذه الدول ، بأرقام وارداتها من بقية الدول العشر بنفس الجدول .

٣٣ — تم تشكيل الجدول من الارقام الواردة بصفحتي ٥٥ ، ٥٦ من **المرجع السابق** .

٣٤ — تم تشكيل الجدول من الارقام الواردة بصفحتي ٥٥ ، ٥٦ من **المرجع السابق** .

٣٥ — يلاحظ ان كلا من افريقيا الوسطى وليبريا ، لم تكن لها اية علاقات تجارية مع اسرائيل عام ١٩٦٦ ، ومع ذلك قفزت واردات اسرائيل من الاولى ، من الصفر الى ٣٠٢٩ مليون دولار ، ومن الثانية الى ٣٠١٨ مليون دولار .

٣٦ — يلاحظ ان اسرائيل ركزت تجارتها الخارجية بالنسبة لاوربا الشرقية ، في هذه الدول الثلاث.

٣٧ — بالرغم من ان ٨٥٪ تقريبا من الانتاج الصناعي لاسرائيل يذهب للاستهلاك المحلي ، الا أن الصادرات الصناعية تشكل ما يقرب من نصف اجمالي الصادرات الاسرائيلية . ويمثل الماس أهم هذه الصادرات ، حيث يتخصص الاسرائيليون في صقل خاماته التي يستوردونها من بلجيكا وهولندا ، ويعيدون تصديرها مرة اخرى . وتعد اسرائيل الان ثاني دولة بعد بلجيكا في الانتاج العالمي للماس . ولعل ذلك هو السر في ارتفاع ارقام الصادرات الاسرائيلية . انظر :
The Middle East and North Africa, 1971-72, p. 319.

٣٨ — يحتل التكامل الاقتصادي مع اوروبا الغربية مكانا هاما في الاستراتيجية الاسرائيلية ، لا يوازيه الا محاولاتها المستميتة في فرض الاندماج على العالم العربي . وفي هذا الاتجاه ، عقدت اسرائيل في يونيو ١٩٧٠ اتفاقية تفضيلية للتجارة مع دول السوق الاوروبية المشتركة مدتها ٥ سنوات تتضمن خفضا للتعريفة الجمركية على الصادرات الزراعية والصناعية الاسرائيلية لدول السوق تقدره ، ٤٥٪ ، و ٤٠٪ بالنسبة لصادرات اسرائيل من الموالح ، مقابل ان تضمن اسرائيل خفضا جمركيا على وارداتها الصناعية والزراعية من دول السوق يتراوح بين ١٠ و ٢٥٪ . **المرجع السابق** ص ٣٢١ .

المياه في اسرائيل
الوضع الراهن والتوقعات

خليل ابو رجيلي

أدركت الحركة الصهيونية منذ نشأتها وبداية استعمارها للاراضي العربية في فلسطين أهمية المياه لتحقيق سياسة استيطان متناسقة في مختلف الاراضي الفلسطينية وتثبيت أقدام الاقتصاد الصهيوني فيها ، لذلك اصر قادة الحركة الصهيونية منذ البداية على أن تشمل حدود الوطن القومي على مصادر المياه الضرورية لتطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين . ولبس سعيها هذا عدة وجوه ، اعلامية وسياسية واستيطانية .

فعلى الصعيد الاعلامي النظري الذي كان ينعكس في مجلة « فلسطين » شدد بن غوريون واسحق بن زفي ، من القادة البارزين في الحركة ومن مؤسسي دولة اسرائيل فيما بعد ، على ضرورة السيطرة على منابع المياه لضمان الاقتصاد الفلسطيني . يقول الاثنان في مقالة بعنوان «حدود فلسطين ومساحتها» ما نصه : « ان الحياة الاقتصادية في فلسطين (...) تعتمد على مصادر المياه الموجودة في شمالي فلسطين . ومن الاهمية والحيوية بمكان ان تضمن فلسطين استمرار تدفق المياه التي تروي البلاد حاليا ثم وان تتمكن ايضا من تخزينها والسيطرة عليها عند منابعها . ان جبل الشيخ هو ابو مياه فلسطين الحقيقي ولا يمكن فصله عنها دون تعريض حياتها الاقتصادية للخطر (...) يجب أن يخضع هذا الجبل خضوعا كليا لسيطرة الذين يستفيدون منه الى الحد الاقصى »(١) .

اما على الصعيد السياسي فطالبت الحركة الصهيونية ، في المحافل الدولية وباتصالاتها المباشرة مع الدول الكبرى ، وخاصة بريطانيا ، بضرورة شمول الحدود الشمالية والشمالية الشرقية على مصادر المياه لتوفير مجال اقتصادي رحب لفلسطين الصهيونية. تقول المذكرة الصهيونية التي قدمت الى مؤتمر السلم المنعقد في باريس بأن « حدود فلسطين سوف تتبع الخطوط العامة الموضوعة كما يلي : تبدأ من الشمال عند نقطة على البحر الابيض المتوسط بالقرب من صيدا وتتبع منابع المياه التي تنبع من سفوح سلسلة جبال لبنان حتى جسر القرعون ثم الى البير وتتبع الخط الفاصل بين حوض وادي القرن ووادي التيم ثم الى اتجاه جنوبي يتبع الخط الفاصل بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ »(٢). وهذا يعني ان يضم الوطن القومي الصهيوني نهر الاردن ومنابعه وروافده ، ونهر الليطاني ، والينابيع والانهار والمياه الجوفية المتوفرة في جنوبي لبنان بالاضافة الى المياه الجوفية المتوفرة في سفوح جبل الشيخ اي ما يقارب من ٣٤٥٠٠٠٠٠٠٠ متر مكعب مفصلة كما يلي : ١٦٩٦٥٠٠٠٠٠٠ متر مكعب من مياه نهر الاردن ، ١٤١٤٧٠٠٠٠٠٠ متر مكعب من مياه جنوبي لبنان ، ٣٨٧٠٠٠٠٠٠ متر مكعب من المياه الجوفية . هذا باستثناء مصادر المياه الاخرى المتوفرة في فلسطين والمقدرة بمليار ومئتي مليون متر مكعب من المياه .

اما على الصعيد الاستيطاني فقد اقام المستوطنون الصهيونيون المستعمرات في شمالي فلسطين حول منابع الاردن العليا وقرب مجرى نهر الليطاني وفي وادي الاردن الاعلى حول حوض بحيرة طبريا قرب نهر اليرموك . ففي الجليل الاعلى المتاخم للحدود اللبنانية قرب قضائي مرجعيون وحاصبيا اقام المستوطنون الصهيونيون بين سنة ١٨٨٢ و ١٨٩٦ خمس مستوطنات بلغت مساحة اراضيها في عام ١٩١٥ ٨٤٥٣٠ دونما يقع ثلثها في سهل مرجعيون وخراج قرية دير ميماس المشرفة على حوض الليطاني ، اما في الجليل الادنى، في حوض بحيرة طبريا ، فاقام المستوطنون الصهيونيون احدى عشرة مستوطنة بين سنة ١٨٩٩ و ١٩١٣ بلغت مساحتها عام ١٩١٥ ٩١٤٤٢ دونما(٣) وهذه المستعمرات تطوق بحيرة طبريا وتشرف على نهر اليرموك احد الروافد الرئيسية لنهر الاردن . وكان الهدف من انشاء هذه المستعمرات في الجليل الاعلى والادنى دعم الجهود الاعلامية والسياسية للحركة الصهيونية وفرض سياسة الامر الواقع في حال فشل تلك الجهود .

الا ان تلك المرحلة من نشاط الحركة الصهيونية لم يكتب لها النجاح لان الاتفاق البريطاني الفرنسي افقدها ، على حد زعمها ، الليطاني والاردن الاعلى وجنوبي لبنان وجبل الشيخ وحوران . لكن خلال الانتداب البريطاني على فلسطين حاولت الحركة الصهيونية باسلوب اخر السيطرة على مصادر المياه وذلك من خلال المشاريع التي قدمتها لحكومة الانتداب لاستغلال المياه في فلسطين ومن خلال العروض التي قدمت لحكومة لبنان لاستغلال الثروة المائية فيه عام ١٩٤١(٤).

اهم المشاريع التي قدمتها الحركة الصهيونية لاستغلال المصادر المائية في فلسطين كان مشروع المهندس الاميركي والتر كلاي لودر ميلك الذي وضع دراسة عام ١٩٤٤ سماها « فلسطين ارض الميعاد » استهلها بحديث عن تاريخ فلسطين وجغرافيتها فاشاد بتفوق الشعب اليهودي وتغنى بمنجزاته الضخمة ودعا الى تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين لاستعمار اراضيها التي لا تزال صحراء على حد زعمه . وبالمقابل صور الشعب الفلسطيني شعبا خاملا ومتخلفا ودعا الى نقله الى وادي دجلة والفرات وتوطينه هناك لافساح المجال في فلسطين لاستقبال عدد اكبر من المهاجرين الصهيونيين(٥). يرتكز مشروع هذا المهندس الصهيوني الميول ، على استعمال كافة مياه نهر الاردن لري وادي الاردن الغربي وصحراء النقب لذلك رفض العرب المشروع في حينه لانه يشجع على زيادة هجرة الصهيونيين الى فلسطين ويتجاهل حقوق البلدان العربية المجاورة بمياه نهر الاردن وطالب العرب بان تستفيد من مياه نهر الاردن البلدان العربية المجاورة للنهر وان تستعمل مياه هذا النهر لري حوض الاردن فقط ورفضوا رفضا باتا جر مياهه لري صحراء النقب البعيد . وازاء الرفض العربي طوت حكومة الانتداب المشروع مؤقتا(٦)، فعادت الحركة الصهيونية بعد اربع سنوات وقدمت مشروعا اخر عام ١٩٤٨ وضعه المهندس هايز . وهذا المشروع هو في الواقع تطبيق عملي للاقتراحات الاساسية التي وردت سابقا في مشروع لودر ميلك لان الحركة الصهيونية كانت مصممة على الحفاظ على الخطوط الاساسية لمشروع المهندس الاميركي . وقد رفض هذا المشروع ايضا من قبل العرب لنفس الاسباب التي ادت الى رفض مشروع لودر ميلك ، لانه لا يراعي سوى مصالح الحركة الصهيونية(٧).

وهكذا تكون الحركة الصهيونية قد فشلت عام ١٩١٩ وعام ١٩٤٨ بتأمين السيطرة على منابع المياه ومصادرها في شمالي وشرقي فلسطين . وقامت دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ولم تكن الحركة الصهيونية قد حققت بعد السيطرة على المياه الكافية لسد حاجات الدولة الجديدة وتوسيع رقعة الاستيطان لاستيعاب اعداد كبيرة من المهاجرين الجدد . فاضطرت الدولة الجديدة تحت ضغط المهاجرين الجدد الذين توافدوا عليها لبذل « جهود مستميتة »(٨) للتعجيل في استغلال مصادر المياه المتوفرة لديها ، فانشأت الاطر الادارية

والفنية للاشراف على استثمار المياه وتنظيم توزيعها واستهلاكها اجتنابا لهدرها . وسندرس فيما يلي الاطر الادارية والفنية التي تشرف على استثمار المياه ثم نبحث عن الخطط التي وضعت لاستغلال المياه والاموال التي انفقت على هذه الخطط . وسندرس اخيرا تطور استهلاك المياه في اسرائيل وحاجاتها اليه في المستقبل .

اولا ــ الاطر الادارية والفنية التي تشرف على استثمار المياه :

تشرف على استثمار المياه في اسرائيل وزارة الزراعة الاسرائيلية والاجهزة المتعاونة معها وفيما يلي شرح مفصل للدور الذي تقوم به هذه المؤسسات في عملية استثمار الموارد المائية في اسرائيل .

١ ــ وزارة الزراعة : تقوم وزارة الزراعة بتنظيم توزيع المياه على المستهلكين فتخصص حصة سنوية من المياه لكل المستهلكين لها في الزراعة والصناعة والمدن . وهي التي تمنح الاجازات لحفر ابار جديدة واستغلال المصادر المائية المتوفرة كما تجري الابحاث والاختبارات الضرورية لترشد المزارعين على افضل طرق الري لتجنب هدر المياه .

٢ ــ مجلس المياه : انشيء هذا المجلس عام ١٩٥٩ بموجب قانون المياه الذي اقره الكنيست خلال تلك السنة . يراس المجلس وزير الزراعة ويتألف من مختلف الهيئات المرتبطة بتنمية مصادر المياه واستهلاكها . يتولى المجلس وضع سياسة لاسعار المياه لدى مختلف المستهلكين لها في الزراعة والصناعة والمدن ويتولى ايضا الاشراف على مختلف الاجهزة العاملة في المياه لتنسيق اعمالها .

٣ ــ شركة تاحال : شركة اسرائيلية مساهمة ، تملك الحكومة الاسرائيلية ٥٢ ٪ من اسهمها ويملك القسم الباقي بالتساوي الوكالة اليهودية والصندوق القومي اليهودي . تتولى هذه الشركة وضع الخطط لاستثمار الموارد المائية المتوفرة في البلاد . يقتصر دورها على اجراء الدراسات لانماء وتطوير مصادر المياه وتحسين طرق استثمارها .

٤ ــ شركة ميكوروت : شركة اسرائيلية مساهمة تتقاسم ملكيتها بالتساوي الحكومة الاسرائيلية والهستدروت والوكالة اليهودية بالاشتراك مع الصندوق القومي اليهودي . تنفذ هذه الشركة خطط استثمار المصادر المائية التي تضعها شركة تاحال وتؤمن ايصال المياه الى المدن والمستوطنات الصهيونية في فلسطين المحتلة . تستخدم هذه الشركة اكثر من ١٢٠٠ عامل وفني بصورة دائمة وتتراوح ميزانيتها السنوية لتسيير الاعمال الجارية، باستثناء ميزانية المشاريع الانشائية ، بين ٢٠ و ٣٠ مليون دولار(٨).

٥ ــ الوكالة اليهودية ، دائرة المياه : تأخذ الوكالة اليهودية على عاتقها تأمين المياه للمستوطنات الصهيونية الجديدة التي انشئت بعد عام ١٩٤٨ لانها هي المسؤولة المباشرة عن توطين المهاجرين اليهود الجدد في الاراضي الفلسطينية المحتلة .

٦ ــ السلطة المحلية : تتولى ادارة المستوطنة او المدينة القيام ، على نفقتها الخاصة ، بمد الشبكات اللازمة من القنوات والانابيب لايصال المياه اليها من المشاريع الاقليمية او الوطنية .

ثانيا ــ استغلال المياه :

هذه هي مختلف الاجهزة الفنية والادارية التي تخطط لاستثمار الموارد المائية في فلسطين المحتلة والتي تشرف في نفس الوقت على تنفيذ هذه الخطط وتوزيع المياه الى مختلف المستهلكين . لكن مهمتها صعبة للغاية لان الموارد المائية المتوفرة في فلسطين تقع في شمالها حيث تكثر الامطار والينابيع بينما تقع الاراضي التي يجب استصلاحها وريها لتوطين المهاجرين في الجنوب حيث تنخفض كميات الامطار السنوية وتندر الينابيع . لذلك كانت معظم المشاريع المائية الاسرائيلية تنطلق من الشمال الى الجنوب . وقد وضعت

هذه الاجهزة حتى الان ثلاث خطط لاستثمار الموارد المائية في فلسطين . وضعت الخطة الاولى في شهر تشرين الاول عام ١٩٥٣ وكانت مدتها سبع سنوات هدفها زيادة كمية المياه المستعملة في اسرائيل من ٨١٠ ملايين متر مكعب عام ١٩٥٣ الى ١٧٣٠ مليون متر مكعب في نهاية مدة الخطة ، وزيادة مساحة الاراضي المروية من ٦٠٠ الف دونم الى مليون وثمانمئة الف دونم(١٠) . لكن هذه الخطة عدلت عام ١٩٥٦ بعد ان فشلت مساعي اريك جونستون ، المبعوث الخاص للرئيس الاميركي ايزنهاور الذي كان مكلفا بالتوسط بين العرب واسرائيل لاستثمار مياه حوض الاردن وفق المشروع الذي وضعه المهندس تشارلز ماين عام ١٩٥٣ لتقاسم مياه نهر الاردن بين العرب واسرائيل .

اما الخطة الثانية فوضعتها شركة تاحال بالتعاون الوثيق مع فريق من خبراء المياه الامريكيين يرأسه الدكتور ابيل ولمان استاذ الهدرولوجيا في جامعة بلتيمور . مدة الخطة عشر سنوات ترتفع خلالها كمية المياه من ٩٠٠ مليون متر مكعب عام ١٩٥٦ الى ١٨٠٠ مليون متر مكعب عام ١٩٦٥ وترتفع في المقابل مساحة الاراضي المروية من ٨٨٠ الف دونم الى ثلاثة ملايين دونم . وكان المحور الرئيسي لهذه الخطة تحويل مياه نهر الاردن قرب جسر بنات يعقوب وتخزينه في سهل البطوف وجر مياهه الى النقب لريه بغية تسهيل استيطانه(١١) . وعدلت هذه الخطة عام ١٩٦١ بحيث اصبحت بحيرة طبريا خزانا رئيسيا للمياه بدل سهل البطوف الذي تبين انه يسرب المياه ، واصبح اسم المشروع بحيرة طبريا ــ النقب ، وهذا المشروع هو العمود الفقري والاطار الرئيسي لجميع المشاريع المائية في اسرائيل ويجسد الى حد بعيد التحدي الاسرائيلي للمشاعر العربية واغتصاب حقوقهم في مياه نهر الاردن .

وضعت الخطة الثالثة شركة تاحال بالتعاون مع مجلس المياه . مدة الخطة سبع سنوات تمتد من عسام ٦٧/١٩٦٦ الى عام ٧٤/١٩٧٣ وتهدف الى زيادة الفعالية الاقتصادية والاجتماعية للمياه المستهلكة . وتنفذ على مرحلتين ، المرحلة الاولى امتدت من سنة ٦٧/١٩٦٦ الى ٦٩/١٩٦٨ وتوظف فيها ١٩٧ مليون ليرة اسرائيلية لزيادة كمية المياه ٩٢ مليون متر مكعب اما المرحلة الثانية التي تنتهي عام ٧٤/١٩٧٣ فيوظف فيها ٤٥٠ مليون ليرة اسرائيلية لزيادة كمية المياه ٢٠٠ مليون متر مكعب(١٢) .

هذه هي الخطوط الكبرى التي وضعت خلال ربع القرن الذي مضى منذ انشاء دولة اسرائيل في الاراضي العربية المحتلة من فلسطين . اما على الصعيد العملي فقد تجسدت هذه الخطط بمشاريع على مستوى المستوطنات والمناطق والبلاد ، فكانت هناك مشاريع محلية ومشاريع اقليمية ومشاريع وطنية للمياه . والمشاريع المحلية هي المشاريع الصغيرة التي تستثمر مياه الينابيع الصغيرة او مجموعة من الابار المتوفرة في المناطق الغنية بالمياه الجوفية لري مستوطنة او مجموعة من المستوطنات المجاورة . اما المشاريع الاقليمية فهي المشاريع التي نفذت على مستوى المناطق لتوفير المياه لها كمشروع ري الحولة ومشروع طبريا بيسان لري وادي بيسان ومشروع الجليل الغربي ومشروع قناة اليركون الغربية والشرقية ، وقد كانت هذه المشاريع في الاساس مستقلة ، الا انها ابتداء من عام ١٩٦٤ ربطت بالمشروع الوطني ، مشروع بحيرة طبريا ــ النقب . ومن المتوقع ان تنقل هذه المشاريع المختلفة ما يقارب من ١٦٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا موزعة كما يلي :(١٣) .

مشاريع الري المحلية	٦٥٠ مليون متر مكعب
مشروع ري وادي الحولة	١٠٠ مليون متر مكعب
مشروع ري طبريا ــ بيسان	١٠٠ مليون متر مكعب
مشروع ري الجليل الغربي	١٥٠ مليون متر مكعب
مشروع طبريا ــ اليركون ــ النقب	٦٠٠ مليون متر مكعب

وهذه الكمية هي الكمية القصوى التي يمكن استهلاكها سنويا دون تعريض ثروة البلاد المائية الى النفاد او زيادة درجة الملوحة فيها الى حد لا تعود معه صالحة للاستهلاك ، وهي موزعة حسب مصادر المياه كما يلي :(١٤) .

المياه الجوفية في السهل الساحلي	٢٣٠ مليون متر مكعب
المياه الجوفية في المرتفعات والجبال	٥٩٢ مليون متر مكعب
البحيرات الاصطناعية لضبط الامطار	٨٢ مليون متر مكعب
حوض نهر الاردن	٤٦٩ مليون متر مكعب
مياه المجارير المكررة	١٤١ مليون متر مكعب

أ ــ رؤوس الاموال الموظفة في المشاريع المائية :

بلغت قيمة رؤوس الاموال التي وظفت في مختلف مشاريع الري بين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٧٠ ١٫٥٥٧٫٦٠٠٫٠٠٠ ليرة اسرائيلية منها ١٫٣٤٨٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة اسرائيلية باسعار سنة ١٩٦٦ لليرة الاسرائيلية و ٢١٩٫٦٠٠٫٠٠٠ ليرة اسرائيلية باسعار سنة ١٩٧٠ لليرة الاسرائيلية(١٥) اي ما يوازي ٥٠٠ مليون دولار امريكي وهي موزعة حسب السنين في الجدول التالي :

جدول رقم (١) رؤوس الاموال الموظفة في مشاريع المياه :

السنة	القيمة بملايين الليرات الاسرائيلية
١٩٥٠ ــ ١٩٥٢	٢٠٦
١٩٥٣ ــ ١٩٥٥	٢٥٩
١٩٥٦ ــ ١٩٦٤	٧٣٣
١٩٦٥ ــ ١٩٦٦	١٥٠
١٩٦٧	٦٨٫٣
١٩٦٨	٥٨٫٤
١٩٦٩	٤٣٫٣
١٩٧٠	٤٩٫٦
المجموع	١٥٦٧٫٦

المصدر : من سنة ١٩٥٠ الى ١٩٦٦ من Economic Planning Authority
من سنة ١٩٦٧ الى ١٩٧٠ من التقارير السنوية لبنك اسرائيل .

وقد تراوحت قيمة رؤوس الاموال الموظفة بين سنة ١٩٥٠ و ١٩٦٥ بين ٧٥ و ١٠٠ مليون ليرة اسرائيلية في السنة ، وهذه الفترة هي فترة تنفيذ المشاريع المائية في مختلف انحاء اسرائيل وقد انتهت بانجاز المشروع الوطني بحيرة طبريا ــ النقب الذي بدأ العمل به عام ١٩٥٦ وانتهى في سنة ١٩٦٤ . وقد هبطت قيمة رؤوس الاموال الموظفة في السنوات اللاحقة الى ما يقارب من ٥٠ مليون ليرة اسرائيلية في السنة صرفت لتحسين المشاريع القائمة وزيادة كمية المياه التي تنقلها وذلك عن طريق حفر الابار العميقة في الجبال وربطها بالمشاريع وانشاء البحيرات الاصطناعية لضبط مياه الامطار وتطوير محطات التكرير لتنقية مياه المجارير لاعادة استعمالها في الري .

اما المصدر الرئيسي لرؤوس الاموال الموظفة فقد تأمن من الاعتمادات الحكومية للانماء والتطور ومن الوكالة اليهودية وكانت مساهمة المستوطنات ضئيلة جدا وصرفت الاموال التي وفرتها على مد شبكات الري في المزارع التابعة لها . وتجدر الاشارة الى ان شركة ميكوروت هي التي نفذت جميع الاعمال في مختلف المشاريع .

ب ــ كلفة المياه واسعارها :

الاحصاءات الوحيدة المتوفرة عن كلفة المياه تتناول فقط كميات المياه التي توزعها شركة ميكوروت . كانت كلفة المتر المكعب من الميـــاه في المشاريع القديمة التي انشأتها هـــذه الشركة قبل قيام دولة اسرائيل تتراوح بين ٩ و ١١ أغوره (الليرة الاسرائيلية تساوي ١٠٠ أغوره)(١٦). اما في المشاريـــع الحديثة فالكلفـــة مختلفة وهي ، حسب دراسة اجريت عام ١٩٦٦ عن كمية المياه المستهلكة عام ٦٥/١٩٦٤ ، تتراوح بين ٣٫٦ أغوره في سهل الحولة و ٦١٫٩ أغوره في هارهانيغف في النقب(١٧). ويبين الجدول التالي كلفة المياه حسب المناطق لسنة ٦٥/١٩٦٤ وذلك باسعار سنة ٦٣/١٩٦٢ :(١٨).

جدول رقم (٢) :

المنطقـــة	كلفة المتر المكعب بالأغوره	كمية المياه بملايين الامتار
وادي الحولة	٣٫٦	١١١٫٧
وادي الاردن ، بيسان ، جلبوع	٣٫٨	١٩٤٫ــ
السهل الساحلي ، مرج ابن عامر ، اللد	٤٫٨	٤٠٢٫٧
مجدل لاهات	٦٫٩	١٥٫٩
يفنـــه	٨٫٦	١٩٫ــ
الجليل الغربي ، كيشون	٩٫٩	١٢٤٫١
جبال افرائيم ، نحال اورون	١٢٫٤	١٩٫٥
نس تسيونا (وادي حنين)	١٣٫٥	٤١٫١
غات أو جت	١٤٫١	٣٢
الجليل الادنى	١٤٫٣	١٠٫٤
نيرعام ، سعـــد	١٩٫٤	١١٫٥
كفار مناحيم	١٩٫٦	٣٠
دان ، حولون (المنطقة الجنوبية)	٢٣٫٩	١٤٢٫٨
اغور	٢٦٫٣	٤٫ــ
المرتفعات الشمالية	٣٤٫٣	١٠٫٦
لاخيش	٣٧٫٤	٦٢٫ــ
نقومـــاه	٤١٫٢	٤٠٫ــ
هارهنيغيف (مرتفعات النقب الشمالي)	٦١٫٩	٨٫٥

اما سعر المتر المكعب الذي يدفعه المستهلكون فيختلف من مستهلك لاخر حسب القطاع الذي ينتمي اليه فهو متدن في القطاع الزراعي ووسط في القطـــاع الصناعي ومرتفع في المدن . وفي ما يلي عرض لأسعار المياه حسب المستهلكين :(١٩)

١ ــ الزراعة : عندما تكون كلفة المتر المكعب من المياه اقـــل من ٦ أغوراه يكون سعر المتر المكعب من المياه الذي يدفعه المزارع مساويا للكلفة الحقيقية مضافا اليها ضريبة مقدارها ١٠٪ شرط ان لا يتجـــاوز هـــذا السعر ٦ أغوراه ، امـــا اذا تعدت الكلفة ٦ أغوراه يكون الحـــد الاعلى لسعر المتر المكعب من المياه الـــذي يدفعه المـــزارع ٦٫٧٥ أغوراه باستثناء المزارعين المقيمين في الجبال الذين يدفعون ٩٫٧٥ أغوراه بالمتر المكعب من المياه .

٢ ــ الصناعة : يدفع المستهلكون في الصناعة ٨ أغوراه ثمنا للمتر المكعب من المياه عندما تكون كلفته اقل من ٦ أغوراه ، و ١٣ أغوراه عندما تتعدى كلفة المتر المكعب من المياه ٦ أغوراه .

٣ ــ المدن : يدفع المستهلكون في المدن ١٥ أغوراه ثمنا للمتر المكعب من المياه عندما تكون كلفته اقل من ٦ اغوراه و ٢٥ أغوراه عندما تتعدى كلفة المتر المكعب من المياه ٦ أغوراه ، يضاف الى هذا السعر كلفة شبكة التوزيع وصيانتها التي تكون غالبا مرتفعة مما يزيد الاعباء على المستهلكين فيرغمون على الاقتصاد في استهلاك المياه .

ترمي هذه السياسة ، التي وضعها مجلس المياه ، الى تحميل المستهلكين في المدن والصناعة أعباء اضافية من الاموال حتى تتمكن الحكومة من دفع علاوات الى قسم من المستهلكين في الزراعة الذين يدفعون اسعارا مرتفعة نسبيا . وقد انشىء صندوق خاص بادارة مجلس المياه للاشراف على جمع المبالغ الاضافية ودفع العلاوات الى المزارعين . يمول هذا الصندوق من المبالغ الاضافية المذكورة اعلاه بالاضافة الى مساهمة سنوية تدفعها الحكومة الاسرائيلية . فبالرغم من ان الزيادة في استهلاك المياه في الزراعة لم تتعد ٦ ٪ بين سنة ٦٦/١٩٦٥ و ١٩٦٩ ١ ٪ (٢٠) فان الزيادة في العلاوات المدفوعة للمزارعين بلغت ٢٨ ٪ خلال نفس الفترة فارتفعت من ١٥ مليون ليرة اسرائيلية الى ٢١ مليون ليرة اسرائيلية(٢١) مما يدل بان التوسع في المساحات المروية كان في المناطق الجبلية والنقب حيث اسعار المياه مرتفعة نسبيا . لا تشكل هذه المبالغ الا العلاوات الظاهرة التي تدفعها الدولة للمزارعين اما العلاوة الفعلية فهي أكبر بكثير . فاذا اعتبرنا بان متوسط كلفة المتر المكعب للمياه في مختلف انحاء اسرائيل هو ١٠ أغوراه وان متوسط السعر الذي يدفعه المزارعون هو ٦ أغوراه تكون قيمة كميات المياه المستهلكة في الزراعة عام ٧٠/١٩٦٩ ١٢٥ مليون ليرة اسرائيلية دفع منها المزارعون ٥٤ مليون ليرة اسرائيلية ــ بعد طرح العلاوات التي دفعت لهم وقدرها ٢١ مليون ليرة اسرائيلية ــ أي ٤٢ ٪ بينما تحملت الدولة عبء ٧١ مليون ليرة اسرائيلية ، أي ٥٨ ٪ ، فتكون اذن العلاوة الفعلية المدفوعة لكل دونم من الاراضي المروية توازي ٤٣ ليرة اسرائيلية .

ثالثا ــ تطور استهلاك المياه في اسرائيل :

ارتفعت كمية المياه المستهلكة في اسرائيل من ٢٣٠ مليون متر مكعب من المياه عام ٤٩/١٩٤٨ الى ١٥٤٦ مليون متر مكعب من المياه عام ٧٠/١٩٦٩ . يبين الجدول رقم ٣ تطور استهلاك المياه في اسرائيل بين عام ٤٩/١٩٤٨ وعام ٧٠/١٩٦٩ ، كان معدل التزايد السنوي بين عام ٤٩/١٩٤٨ و ٥٩/١٩٥٨ ١٨،٧ ٪ سنويا اما بعد ذلك التاريخ فقد هبط الى ١،٢ ٪ .

تستهلك الزراعة بين ٨٠ الى ٨٥ ٪ من مجموع الكميات المستهلكة ، وقد زاد استهلاكها للمياه ست مرات تقريبا بين ٤٩/١٩٤٨ و ٥٩/١٩٥٨ وارتفعت مساحة الاراضي المروية من ٢٩٢ الف دونم الى ١،٢٣٠،٠٠٠ دونم خلال نفس الفترة ، لكن بعد هذا التاريخ لم تزد كمية المياه المستهلكة في الزراعة الا ٢٠ ٪ بين ٥٩/١٩٥٨ و ٧٠/١٩٦٩ بينما زادت المساحات المروية خلال نفس المدة ٤٠ ٪ فارتفعت من ١،٢٣٠،٠٠٠ دونم الى ١،٧٢٤،٠٠٠ دونم وسبب ذلك عائد الى انخفاض معدل استهلاك الدونم من المياه الذي انخفض من ٨٠٥ امتار مكعبة الى ٦٩٨ مترا مكعبا عام ٦٥/١٩٦٤ . ويرتبط اجمالا معدل استهلاك الدونم من المياه بكميات الامطار التي تتساقط سنويا فهو مرتفع في سنوات الجفاف ومنخفض في السنوات الغزيرة المطر وتراوح بين سنة ٥٩/١٩٥٨ و ٧٠/١٩٦٩ بين ٨٠٥ امتار مكعبة في سنوات الجفاف و ٦٨٠ مترا مكعبا في السنوات الغزيرة المطر(٢٢) .

تعتبر المياه في الزراعة عنصرا اساسيا للانتاج ، ويحدد توفرهـــا التوسع في سياسة الاستيطان ونمو المستوطنـــات الصهيونية الجديدة في الاراضي المحتلة لذلـــك يخضع استعمال المياه في الزراعة الى تنظيـــم دقيق تشرف عليه وزارة الزراعة مع الوكالـــة اليهودية المسؤولة مباشرة عن انشاء المستوطنات الجديدة . فكلما توفرت كمية اضافية من المياه انشئت مستوطنة جديدة ولم يحدث ، الا فيما ندر ، ان انشئت مستوطنة قبل توفر كمية المياه لها لانه يخصص لكل واحدة منها حسب نوعية المزارع فيها ، كمية من المياه تستهلكها تحت اشراف المرشدين الزراعيين لاجتناب اي هدر في استعمالها . لكن غالبا لا تصل الى المستوطنة ، خاصة في جنوبي اسرائيل وفي الجبال ، الكمية المحددة لها من المياه بينما تنعم المستوطنات القديمة التي انشئت قبل قيام الدولة بكميات وافرة من المياه تمكنها من التوسع تدريجيا في المساحات المروية حتى تزداد غنى وتبقى متفوقة على المستوطنات الجديدة .

المياه اذن نادرة وثمينة وتقضي الضرورة حسن استعمالهـــا لبلوغ اقصى درجـــة من الانتاجية ، لذلك تركزت جهود الخبراء الصهيونيين على تحديد حاجة كل نوع من التربة في فلسطين المحتلة الى المياه واختيار الزراعات الملائمة لكل نوع من التربة وتعيين وسائل الري الاكثر فعالية لها وعمليات الري التي يحتاج اليها كل نوع من الزراعات مع تحديد كمية المياه التي تستهلكها كـــل عملية ري والبعد الزمني بين عمليات الري . وكـــانت النتيجة ان اعتمدت المستوطنات الزراعية الصهيونية طريقة الري الرذاذي لانهـــا تلائم اوضاع البلاد الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية فهناك ٩٠٪ من مساحـــة الاراضي المروية في اسرائيل تروى بطريقة الري الرذاذي(٢٣) . وهذه الطريقة تساعد كثيرا على ضبط المياه ومنع هدرها لكنها تتطلب توظيف رؤوس امـــوال كبيرة لمد شبكـــات الري الخاصة بها في المزارع . ويرضى المسؤولون الصهيونيون بها رغم ارتفاع كلفتها نظـــرا لفوائدها خاصة من ناحية توفير المياه ليتسنى لهم انشاء مستوطنات جديـــدة تستوعب مهاجرين جددا الى اسرائيل .

اما المستهلكون الاخرون للمياه ، المدن والصناعة ، فتتراوح نسبة استهلاكهم السنوي بين ١٥ و ٢٠٪ من كمية المياه المستهلكة في اسرائيـــل . يشمل استهـــلاك المدن المياه المستهلكة في المنازل والمؤسسات التجارية والصناعات الصغيرة وورش الاشغال العامة والمؤسسات الحكومية . وقد كان معدل التزايد السنوي في استهلاك المدن ٢٫٨٪ سنويا بين عام ٤٩/١٩٤٨ وعام ٥٩/١٩٥٨ اي ما يعادل تقريبا التزايد الطبيعي للسكان ، لكن بعد هـــذا التاريخ اتخذت اجـــراءات لحمل سكان المدن على توفـــير المياه فانخفـــض الاستهلاك انخفاضا ملموسا بشكل ان كمية المياه التي استهلكت عام ٦٧/١٩٦٦ اي بعد تسع سنوات كانت تقارب كمية المياه المستهلكة عام ٥٩/١٩٥٨ . وتبلغ نسبة استهلاك المدن من الميـــاه نحو ١٤٪ من مجموع كمية الميـــاه المستهلكة في اسرائيـــل ولا يتعدى استهلاك الفرد ٨٠ مترا مكعبا من المياه سنويا(٢٤) . اما استهلاك الصناعة فيشمل على المياه التي تستهلكها المصانع(٢٥) وبعض المؤسسات التجارية التي يزيـــد استهلاكهـــا السنوي علـــى ٥٠٠٠ متر مكعب من المياه . ولا تتعدى نسبة استهـــلاك الصناعة ٥٪ سنويا من كمية المياه المستهلكة. وتختلف هذه من مصنع لاخر ، فمصانع الاغذية والورق تحتاج الى كمية كبيرة من المياه اما الصناعات الاخرى فتستهلك كمية ضئيلة من المياه . وكان معدل التزايد السنوي للاستهلاك قبل عام ١٩٦٤ بطيئا اذا قيس بمعدل تزايـــد الانتاج الصناعي ، وهبط هذا المعدل في السنة التالية بنسبة ٦٪ ثم عاد وارتفع في السنة التالية لها بمعدل ٩٪ ولم تتعد زيادته ١٫٥٪ في عـــام ٦٧/١٩٦٦ لكن ارتفع في عـــام ٦٨/١٩٦٧ الى ١٠٪ فالى ٦٪ و ٧٪ في السنتين التاليتين(٢٦) ويعود ذلك الى انطلاقة الصناعات الاسرائيلية بعد حرب الخـــامس من حزيران لتلبية الحاجـــات العسكريـــة وحاجات استهلاك سكان الأراضي المحتلة حيث تصرف المنتجات الصناعية الاسرائيلية.

ومن الجدير بالذكر ان نسبة ٤٠٪ من المياه التي تستهلكها الصناعة هي من المياه المالحة التي تزيد فيها نسبة الملوحة على ٢٥٠ ملغ في اللتر(٢٧).

جدول رقم (٣) تطور استهلاك المياه في اسرائيل بملايين الامتار المكعبة :

السنة	المجموع	الصناعة	الاستهلاك المدني	الزراعة — المياه المستهلكة	الزراعة — الاراضي المروية(١)	الزراعة — معدل المياه بالدونم الواحد
٤٩/١٩٤٨	٢٣٠	(٢)	٥٠	(٣)١٨٠	٢٩٢	—
٥٤/١٩٥٣	٨٥٠	(٢)	١٩٠	(٣)٦٦٠	—	—
٥٩/١٩٥٨	١٢٧٤	٤٦	١٩٦	(٣)١٠٣٢	١٢٣٠	٨٠٥
٦٤/١٩٦٣	١٢٨٨	٥٧	١٧٥	(٣)١٠٥٦	١٥٠٠	٦٨٠
٦٥/١٩٦٤	١٣٢٨	٥٤	١٧٩	(٣)١٠٩٥	١٥٤٠	٦٩٨
٦٦/١٩٦٥	١٤١٨	٥٩	١٨٤	(٣)١١٧٥	—	٧٨٥
٦٧/١٩٦٦	١٤٧١	٦٠	١٩٠	(٣)١٢٢١	١٦٢٠	٦٩٠
٦٨/١٩٦٧	١٤١١	٦٦	٢١٢	١١٣٣	١٦١٦	٧٧٠
٦٩/١٩٦٨	١٥٣٧	٧٠	٢٣١	١٢٣٦	١٦٦٢	٧٢٤
٧٠/١٩٦٩	١٥٦٤	٧٥	٢٤١	١٢٤٨	١٧٢٤	٧٧٧

(١) بالاف الدونمات .

(٢) محسوب ضمن الاستهلاك المدني .

(٣) بما فيه المياه المستهلكة لحاجات منزلية في المستوطنات الزراعية .

المصدر : حتى سنة ٥٩/١٩٥٨ ، دائرة الاحصاءات المركزية الاسرائيلية. ومن سنة ٦٤/٦٣ حتى سنة ٦٧/٦٦:

Israel Water Consumption Survey, 1966/67, Ministry of Agriculture. Water Commission, Water Allocation Department.
Statistical Abstract of Israel, 1971, pp. 315 and 354

رابعا ــ حاجات اسرائيل الى المياه :

كانت المياه ولا تزال المحور الرئيسي التي تدور حولــه اهتمامات الحركــة الصهيونية لتأمينه للكيان الصهيوني القائم في فلسطين المحتلة . ففي بداية الخمسينات ، اي بعد قيام الدولة مباشرة ، قدرت كمية المياه الممكن استهلاكها بين ٢٤٠٠ و ٢٨٠٠ مليون متر مكعب سنويا ، لذلك باشرت اسرائيل بالتوسع في انشاء المستوطنات وزرعها في مختلف انحاء البلاد(٢٨). لكن سرعان ما تبين لها في بداية الستينات ، قبيل الانتهاء من المشروع الوطني ، طبريا ــ النقب ، بان الافراط في استعمال المياه سيؤدي الى نفاد الثروة المائية من جهة وزيادة الملوحة في المياه من جهة اخرى . وكــان النقص في الثروة المــائية في السهل الساحلي الناتج عن الافراط في ضخ مياه الابار خير دليل على هــذه النظرية . ومنذ ذلك التاريخ اتخذت الحكومة اجراءات صارمة لمراقبة ضخ الابار واحتكرت لنفسها حق الترخيص بالتنقيب عن المياه وحفر الابار الجديــدة ، وتشير معظم تقديرات خبراء المياه الاسرائيليين ان كمية المياه الممكن استهلاكها سنويا دون تعريض الثروة المائية في البلاد الى النفاد ، لا يمكن ان تتعدى في أحسن الحالات ١٦٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا كما ذكرنا سابقا . هذه هي كمية المياه المتوفرة للاستهلاك في السنوات العشر القادمة اما الطلب على المياه خلال تلك الفترة فسيكون اكثر من ذلك وهو موزع عــلى مختلف المستهلكين ، الزراعة والمدن والصناعة ، كما يلي :

١ ــ **الزراعة** : كانت وزارة الزراعة حتى الان تحدد سنويا معدل زيادة استهلاك المياه

في الزراعة عن طريق تحديد كميات المياه للمستوطنات ، وقد كان معدل الزيادة في السنوات الخمس الاخيرة من الستينات ١٠٧٪ سنويا . هل يستمر هذا المعدل على حاله في السبعينات ام سينخفض ؟ تأمل وزارة الزراعة خفضه نحو ١٩٪ ما بين سنة ١٩٦٩/٧٠ و ١٩٧٥ وذلك عن طريق تخفيض معدل استهلاك الدونم من المياه او عن طريق اختيار زراعات جديدة لا تستهلك كثيرا من المياه والاستغناء في نفس الوقت عن الزراعات التي تتطلب ماء كثيرا بحيث تكون كمية المياه المستهلكة في الزراعة عام ١٩٧٥ ١٠٣٨ مليون متر مكعب و ١٠٧٥ مليون متر مكعب عام ١٩٨٠ . ما هو حجم المساحة المروية التي ستروبها هذه الكمية من المياه ؟ لا تذكرها وزارة الزراعة بل تتجاهلها عن عمد ربما لتبرر فشلها في تحقيق هذه الغاية ، لانه من المرجح ، اذا ارادت اسرائيل ان تحافظ على معدل نمو الزراعة الحالي لتتجاوب مع حاجات السكان المتزايدة ومع مخططاتها لزيادة الصادرات الزراعية بمعدل ١٤٪ سنويا حتى تصل قيمتها الى ٢٥٠ مليون دولار عام ١٩٧٥ كما ورد في خطتها عام ١٩٧٠ ؛ فان هذه الكمية من المياه المخصصة للزراعة لن تكفي لتحقيق هذه الاهداف ، لان هذه الكمية لن تروي باحسن الحالات اكثر من ١٬٧٠٠٬٠٠٠ دونم من الاراضي ، وهذا معناه تراجع في سياسة الاستيطان الصهيوني للاراضي العربية المحتلة وتجميد لاوضاع الزراعة ، بينما تشير كل الدلائل الى ان اسرائيل مصممة اكثر من الماضي على المضي قدما باستعمار المزيد من الاراضي المحتلة خاصة في النقب ، بزيادة انتاجها الزراعي خاصة الصادرات الزراعية لسد العجز في ميزان المدفوعات .

٢ ــ **المدن والصناعة** : يبلغ حاليا معدل استهلاك الفرد الواحد ٨٠ مترا مكعبا من المياه وسيكون سكان اسرائيل عام ١٩٧٥ بحدود ٤٬٥٠٠٬٠٠٠ نسمة و ٥٬٠٠٠٬٠٠٠ نسمة عام ١٩٨٠ ، وهذا يعني بأن كمية المياه التي تحتاجها المدن للاستهلاك ستكون ٣٦٠ مليون متر مكعب عام ١٩٧٥ و ٤٠٠ مليون متر مكعب عام ١٩٨٠ ، هذا اذا اعتبرنا بان معدل استهلاك الفرد سيبقى ثابتا ومن المرجح ان يرتفع هذا المعدل الى ١٠٠ متر مكعب من المياه اذا ارتفع عدد المستوطنين في النقب حيث يحتاج الفرد الى كمية اكبر من المياه بسبب الحرارة المرتفعة والجفاف .

اما معدل زيادة الاستهلاك في الصناعة فكان في السنوات الخمس الاخيرة ٦٠٥٪ سنويا فاذا ظل هذا المعدل ثابتا ستكون حاجة الصناعة ١٠٠ مليون متر مكعب من المياه عام ١٩٧٥ و ١٥٠ مليون متر مكعب من المياه عام ١٩٨٠ .

سيكون اذن الحد الادنى لكمية استهلاك المياه في اسرائيل ، اذا نجحت سياسة وزارة الزراعة واذا ظل معدل استهلاك المدن والصناعة ثابتا ، ١٤٩٥ مليون متر مكعب من المياه عام ١٩٧٥ و ١٦٢٥ مليون متر مكعب من المياه عام ١٩٨٠ . لكن من المرجح ان تكون الحاجة الفعلية اكثر من التوقعات لانه في عام ١٩٦٩/٧٠ كانت كمية المياه المستهلكة ١٥٦٤ مليون متر مكعب اي اكبر من توقعات الاستهلاك لعام ١٩٧٥ وقريبة من توقعات عام ١٩٨٠ ، وسيكون النقص في احسن الحالات بحدود ٢٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا ابتداء من عام ١٩٧٥ حين تبدأ الازمة الحقيقية للمياه كما يقول الخبراء(٢٩) لان الطلب على المياه سيفوق الكميات المتوفرة . فمن المتوقع اذن ان تكون اسرائيل مهتمة بشكل جدي بتأمين مصادر مياه جديدة قبل ذلك التاريخ . ولا تجد امامها في الوقت الحاضر سوى احتمالين : الاحتفاظ بالاراضي العربية المحتلة في حرب الخامس من حزيران واحتلال المزيد من الاراضي العربية في جنوبي لبنان وجنوبي مرتفعات الجولان السورية المحتلة .

ان الاحتفاظ بالاراضي العربية المحتلة يؤمن لاسرائيل كميات وافية من المياه تستعملها لسد حاجاتها والتوسع في الاستيطان . والاحتفاظ بمرتفعات الجولان السورية يؤمن لها

السيطرة على منابع الاردن العليا خاصة نهر بانياس السوري ونهر الحاصباني اللبناني الذي يبلغ مقدار تصريفهما السنوي مـــا يقارب من ٣٢٠ مليون متر مكعب(٣٠) من المياه بالاضافة الى المياه الجوفية ، كما ان الاحتفاظ بالضفة الغربية سيؤمن لهـــا ايضا ما يقارب من ٣٦٠(٣١) مليون متر مكعب من المياه وسيؤمن لها وجودها في سيناء السيطرة عـــلى ثروة مائية جوفية كبيرة جـــدا(٣٢) تستطيـــع استغلالهـــا لري النقب او لانشاء المستوطنات في سيناء او لتموين جيوشهـــا المتمركزة في سيناء وتسهيل مهمتها في حال عبور قناة السويس .

وأمام اسرائيل مصدر اخر للمياه تتوق الى الاستيلاء عليه منذ زمن بعيد لان استخدامه سهل اذ يكفيها القليـــل من الانشاءات لتربطه بالشبكـــات القائمة لديها ، وهي بأمس الحاجة اليه لانه يحل لها مشكلة ملوحة المياه المتزايدة في بحيرة طبريا الناتجة عن ضخ مياهها عبر مشروع بحيرة طبريا ــ النقب ، ولـــم يخف ليفي اشكول نية اسرائيل هذه بالاستيلاء على مصدر المياه هـــذا اذ صرح عشية الحـــرب الخامس من حزيران الى مندوب جريدة « لوموند » الفرنسية بقوله : « ان اسرائيل العطشانة لا يمكنها ان تقف مكتوفة اليدين وهي تشاهـــد مياه نهر الليطـــاني اللبناني تذهب هدرا الى البحر ، ان القنوات باتت جاهزة في اسرائيل لاستقبال مياه هذا النهر المحولة اليها »(٣٣) . ستكون اذن خطوة اسرائيل المقبلة الاستيلاء على مياه هذا النهر حتى تحل ازمة المياه لديها(٣٤) .

---

١ ــ راجع مجلة **فلسطين** ، الجـــزء الثالث ، عدد ١٧ .

٢ ــ راجع عبد الوهـــاب كيالي ، **المطامـــع الصهيونية التوسعية** ، م ت ف ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٨٣ .

٣ ــ راجع
Dr A. Rupin, *Syrien Als Wirtschafsgebiet, 1916,* traduit en français par Georges Shaïb, Beyrouth, p. 108.
اسماء المستعمـــرات في الجليل الاعلى قـــرب قضائي مرجعيون وحاصبيا : روش بناه ١٨٨٢ ؛ مشمر هيردن ١٨٩٠ ، يسود همعلاه ١٨٨٣ ، المطلة ١٨٩٦ ، عين زيتيم ١٨٩٠ .
اسماء المستعمرات في الجليل الادنى حول حوض بحيرة طبريا واليرموك : سده شارا ١٨٩٩ ، ميشا ١٩٠٢ ، جمامة ، ١٩٠٢ ، راماه ١٩١٣ ؛ بيسان ١٩٠٤ ، عين كاتـــب ١٩٠٨ ، كينيرت ١٩٠٨ ، داجانيـــا ١٩٠٩ ، مجدال ١٩١٠ ، بيتان ١٩١٣ ، منحميا ١٩٠٢ .

٤ ــ قدمت بعض المؤسسات الصهيونية عروضا الى الحكومة اللبنانية عام ١٩٤١ في عهد رئاسة الفرد نقـــاش للحصول علـــى امتياز لاستثمار المصادر المائية في لبنان بغية تزويد القرى والمدن بالماء والكهرباء ، لكن هذه العروض رفضت بعد ان كشفت الحكومة اللبنانية النوايا المتسترة وراءها .

٥ ــ راجع **مشروع لودر ميلك** ، ص ١٨٧ .

٦ ــ *La Palestine, Mémento économique* INSEE, PUF, 1948, p. 52-54

٧ ــ راجـــع ، انيس صايـــغ ، **فلسطينيات** ، م ت ف ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ ص ٢١١ و ٢١٢ .

٨ ــ *L'Agriculture en Israël,* édité par le centre israélien de documentation pour les pays de langue française, Ambassade d'Israël, Paris, 1963, p. 5.

٩ ــ *Israël, Faits et Chiffres,* 1964/65, p. 96.

١٠ ــ راجع انيس صايغ ، **المصدر السابـــق** ، ص ٢٢٢ .

١١ ــ *The Master Plan for Israel irrigation development,* Tel-Aviv, June 1957.

١٢ ــ *Israel Economic Development,* State of Israël, Prime Minister's Office, Jerusalem, March 1968, p. 387-392.

١٣ ــ Le rôle de l'irrigation dans le développement agricole européen FAO Rome 1968, p. 117.

ثم راجع *The Master Plan* ص ١٢ .

١٤ ــ راجع
Israel Economic Development
المصدر السابق ص ٣٧٧ .

١٥ ــ عام ١٩٦٦ كان الدولار الامريكي يســـاوي ٣ ليرات اسرائيلية ، عام ١٩٧٠ اصبح يساوي ٣٫٦٠ ليرة اسرائيلية .

١٦ ــ الاغوراه وحدة العملة الاسرائيلية ، وتساوي كل ١٠٠ اغوراه ليرة اسرائيلية واحدة.

١٧ ــ باسعار الليرة الاسرائيلية لعام ١٩٦٢/٦٣ حيث كان الدولار الامريكي يساوي ١٤٨ ليرة اسرائيلية ، بعد انخفاض قيمة الليرة الاسرائيلية الى ٣٤٦٠ بالنسبة للدولار فمن المنتظر ان تكون الكلفة قد ارتفعت ايضا .

١٨ ــ *Water Works in Israel,* Forecast and Implication, Publication No 3, Ministry of Agriculture, Water Commissioner, Economic Section, June 1966.

١٩ ــ راجع
Israel Economic Development
المصدر السابق ص ٣٨٢ و ٣٨٣ .

٢٠ ــ حسبت هذه النسبة من المعطيات الواردة في كتاب الاحصاءات السنوية الاسرائيلية عام ١٩٧١ ، ص ٣١٥ و ٣٥٤ .

٢١ ــ تقارير بنك اسرائيل السنوية ١٩٦٧ ، ص ٢٩٣ ، ١٩٦٩ ، ص ١٩٧ و ١٩٧٠ ، ص ٢١٨

٢٢ ــ **المصدر السابق .**

٢٣ ــ *FAO* **المصدر السابق** ص ٦٠ .

٢٤ ــ حسبت النسب من المعطيات الواردة في الجدول رقم ٣ .

٢٥ ــ باستثناء المؤسسات الصناعية الصغيرة المحسوبة ضمن استهلاك المدن .

٢٦ ــ حسبت النسب من المعطيات الواردة ، في الجدول رقم ٣ .

٢٧ ــ راجع
Israel Economic Development
المصدر السابق ، ص ٣٨٠ .

٢٨ ــ راجع
Atlas of Israel, Agriculture XII/2

٢٩ ــ النشرة الاقتصادية المختصرة ، شعبة الابحاث الفلسطينية ، دمشق ، تموز ، ١٩٦٨.

٣٠ ــ انيس صايغ ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣١.

٣١ ــ *Atlas of Israel* **المصدر السابق .**

٣٢ ــ راجع
Eliyahu Kanovsky, *The Economic Impact of the Six-Day War,* New York, 1970, p. 60 and 196.

٣٣ ــ راجع جريدة **لوموند** ، ٧ تموز ، ١٩٦٧ .

٣٤ ــ خليل ابو رجيلي ، المطامع الاسرائيلية في الاراضي اللبنانية ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٤ ، ١٩٧٢ ، ص ٨٣ ــ ٩٠ .

صدر عن مركز الابحاث للاستاذ

خليل ابو رجيلي

الكتب الاربعة التالية

ــ الزراعة اليهودية في فلسطين المحتلة

ــ الحمضيات في فلسطين المحتلة

ــ الثروة الحيوانية في فلسطين المحتلة

ــ الميــاه في فلسطين المحتلة

سعر كل نسخة من الكتب الثلاثة الاولى ليرتان لبنانيتان ، تضاف اليها اجور البريد : ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١٠٠ ق.ل. في اوروبة ، ٢٥٠ ق.ل. في سائر الدول . اما الكتاب الرابع فللتوزيع الخاص والمحدود .

تطلب النسخ من : قسم التوزيع في مركز الابحاث ، ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت .

ندى البيشرطي
وحدها في الليلة الراجفة ...
كانت الشهيدة

بيان نويهض

ويبقى الموت سر الحياة ... يبقى اعظم الاسرار
ويبقى لكل موت حكاية
يكون الموت أحيانا أكبر من الحكاية
وتكون الحكاية احيانا اكبر من الموت
وهنا تختفي ظلال الموت تحت أجنحة الحكاية
ينهزم الموت أمام ميلاد الحكاية
يلملم الموت تجارته ... بعض رصاصات فارغة .. بعض بقايـــا ..
يلملمها ويرحل ...
مهزوما يرحل ... من غضب الناس ولعنتهم يرحل
هو في هذه المهمة ما كان سيدا ... وما كان قدرا
وكل ما كان ليس قدرا ... لا يهابه الناس ... ينساه الناس
ويذكرون الحكاية

كانت المدينة ساهرة
وهل تعرف مدينة الى النوم سبيلا
وهي تحصي في ليلها شهداء النهار
وكيف تنام مدينة ... وهي تخاف من رصاصة
تخترق النوافذ .. او الحواجز .. او الارواح الجريحة
الناس في البيوت يهربون من حائط الى حائط ...
يهدئون من روع الصغار
وخارج البيوت صمت رهيب
طرقات المدينة ليس فيها صدى خطو لاحد

بساتين المدينة مقابر
بيوت المدينة معتقلات وسجون
سلطان المدينة هو الخوف من الموت ... هو السيد الاكبر
من يتحدى الخوف ؟ من يتحدى السلطان ؟
ومن هنا تبدأ الحكاية
صوت جريء تحدى الخوف
وجه شجاع تصدى لصدفة الموت في كل لفتة ...
كصدفة الريح يعبث باوراق الشجر ...
فتسقط الاوراق التي يختارها الريح .. ولا مرد لعبث الريح
ومشى الوجه الشجاع يتحدى
وما كان اكبر من التحدي ... ما كان أعظم
أن يكون الصوت الذي ارتفع ... صوت امرأة
كثير على الرجال في بلادنا ان يعرفوا التحدي ...
فكيف يجوز هذا لامرأة
كثير على الرجال في بلادنا ان يمارسوا الشجاعة ...
فكيف يجوز هذا لامرأة
وكيف يجوز بعد هذا السؤال
لماذا وحدها في المدينة الساهرة ... لماذا وحدها في الليلة الراجفة
كانت الشهيـــدة

أنت ؟ انت بين الرفيقات والرفاق
انت في فجر هذه الثورة العظيمة
لم تعرفي اليأس يوما .. لم تعرفي غير الامل ...
غير الكبرياء والصمود
وبعض الناس يعشق الكبرياء
وبعض الناس تدهشه الكبرياء ... يدهشه الصمود من عيني امرأة
وهنا ـ كانت ندى ـ وحدها تعرف طريقها
ان عملت شاركت من حولها عشرات في العمل
ان سهرت .. طوال الليل تسهر .. تطالع تدرس كتلميذة لا هم سوى
الدرس لهـــا
ان رعت طفليها .. كانت أكثر الامهات حنانا
وان حزنت ندى .. ان حزنت ... لم تدع احدا يشاركها الحزن
وان بكت ندى ... لم تدع احدا يشاركها البكاء

الابتسامة للناس ... لكل الناس .. والحزن لها
كانت هي والكبرياء والصمود توائم
وكيف لا تحزن ندى .. كيف لا تبكي ...
وندى قد فقدت أغلى واحلى ما عرفته حياتها
فقدت رجلا .. علما بين الرجال
ويوم اختارته ندى .. ويوم اختارها
كانت فلسطين بينهما حديثا لا ينتهي
كانت فلسطين بينهما خريطة لعكا .. شوارع عكا وحاراتها وبيوتها
هو يحكي .. وهي تستمع
أمل خالد كان في العودة الى عكا
ومات خالد ... وبقيت ندى ترعى الامل
وماتت ندى..ولنا جميعا نحن الرفاق من بعدها .. من بعد كل شهيد..
وصية الثورة العظيمة ... الامل

تلك كانت ندى
الوجه باسم ضاحك .. يطل سريعا .. يختفي سريعا .. كطلات الندى
والعمر .. جميل قصير ... كعمر الندى
مع الفجر يطل الندى على البراعم والازهار ...
ثم يحرقه وهج الشمس
لم يخلق الندى للصراع مع الشمس
لم يخلق الندى للبقاء ولا للحياة
سر الكون في الندى زيارات وطلات سريعة .. موعدها مع كل فجر
ورحيلها مع المجد كلما ارتفعت شمس
وبين الرفاق ستبقى ندى هي الندى
ذكرها أريج وردة .. كانت هنا ... كانت هناك ...
كانت في الحديقة .. كانت في المعركة ..
كانت ... ندى

مراجعـــات

محمد علي العويني ، **سياسة اسرائيل الخارجية في افريقيا** ، (القاهرة ، المطبعة الفنية الحديثة ، ١٩٧٢)

الاهمية الاستثنائية لهذا الكتاب تنبع من كونه يعلن عن « التزامه باستخدام المنهج العلمي المقرر عالميا في ميدان المعرفة والدراسات » وباعتباره نموذجا متقدما بين الدراسات والبحوث الجامعية الاكاديمية العربية كما يشير تقديم الدكتور عبدالله عـوده استاذ الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعـة القاهرة . الا ان ما يخرج به القارىء الذي يحترم العلم والبحث العلمي هو : رغم ان الدراسة هي نتاج جهد طويل وصبور ، ربما استغرق اكثر من ثلاث سنوات ــ كما هو في الرسائل الجامعية ــ ورغم احتواءها على مجموعة كبيرة من البيانـات والتصريحات والاحصاءات والوثائق ، فانها تتميز ايضا بغياب المنهج الذي ينظم التحليـل ويشـد الوقائع العينية والمواد والمعلومات التي اعتمدها في وحدة تحليلية متماسكة والتي تمكن مـن تكوين النظرة الشمولية في ربط وتفسير ما توصل اليه من حقائق ومؤشرات . وهذا ما جعل المؤلف يسير في معالجات مجزأة مستقلة لكل ظاهرة واداة درسها. وبالتالي ما تسبب في وقوعه في النظرة الاحاديـة الجانب احيانا ، والتبسيـط ، والاستنتاجـات المهزوزة والمرتبكة احيانا اخرى .

يحدد المؤلف في مقدمته الطويلة العوامل التي تؤثر في السياسة الخارجية الاسرائيلية بشكل عـام والافريقية بشكل خاص . وفي الباب الاول يبحث في المؤسسات التي تصنع السياسة الخارجية ، مجلس الوزراء ، الخارجية ، الادارة الافريقيـة والمؤسسات المؤثرة فيها كالكنيست، والهستدروت، ومؤسسات التعليم . ويناقش في المبحث الثـاني أهداف السياسة الخارجية ووسائـل تدعيمهـا الاقتصادية والبشرية ويدرس في البحث الرابـع العوامل المختلفة التي تساعد على نجاحها وزيادة فاعليتها . ويختتم البحث في فصل عـن تمويـل السياسة الخارجية ومستقبلها في افريقيا .

يبتدىء المؤلف بتعريف السياسة الخارجية «النشاط السياسي الذي تمارسه الدولة من الميدان الدولي عن طريق مؤسسات معينـة بغية تحقيق اهداف معينة » ، ومن ثم ينتقل لتحديد العوامل التي تؤثر في السياسة الخارجية « الوضع الجيوبولتيكي ، التاريخ ، المؤثرات الداخلية والخارجية » ، ولكن كيف يمكن تطبيق التعريف على دولة اسرائيل؟ وهل هي كأي دولة اخرى . هذا ما كان يجب بحثه قبل تطبيق تعريفه . وبدلا من ذلك يقرر «فاسرائيل كيان مكون من اليهود الذين هاجروا الى فلسطين قبل وبعد قيام اسرائيل ...» ويواصل « والمهم في هذا الصدد امام المقاطعة العربية لاسرائيل ... جعـل اسرائيل تهتـم بخليج العقبة » ، وايضا « وضع اسرائيل الجيوبولتيكي أثر على اهتمامها بخليـج العقبة وبالتالي افريقيا » ويضيف « وسائل اسرائيل .. سيما الاقتصادية تتوقف على مدى قوة هـذا الاقتصاد ــ اي الاسرائيلي » (النصوص مـن المقدمة) .

هكذا بدأ من حيث كان يجب ان ينتهي . مـن المظاهر والمضاعفات التي تنجم عن وتترتب علـى الاصل والجوهر وليس من المعرفة العميقة لذلـك الاصل والجوهر . لا يقول لنا بعد التعريف ما هي خصوصيات دولة اسرائيل عند قيامها ؟ ماذا كانت تمثل الايديولوجية الصهيونية ؟ وما هي طبيعـة تداخلها في الصراعات الاستعمارية العالمية فـي نهاية القرن التاسع عشر واوائل العشرين ؟ ان عدم تحديده لتلك الخصوصية وبدقة جعله يبتعد عن ارساء القاعدة الفكرية الصلبة في البحث والتحليل. لكن رودنسون يحدد لنا البداية « تشكيل اسرائيل في حد ذاته نتيجة لتطور يمكن ادراجه تماما فـي حركة التوسع الاوروبية الكبرى في القرنين التاسع عشر والعشرين للاسكان والسيطـرة اقتصاديـا وسياسية على الشعوب الاخرى » وتقرير كامبل

باترمان هو الاخر يوضح هذه الحقيقة « التقرير الذي اوصى باقامة حاجز بشري قوي وغريب لاجل استعمار واستغلال شعوب وثروات الشرق الاوسط » [السياسة الدولية، عدد ١٠ — ٧٢]. ان هذه هي الخلفية الفكرية لقيام اسرائيل وتطور وتداخل الفكر الصهيوني عبر مراحل تطور ظاهرة الاستعمار ، كفكرة في مؤتمر بال ، ومشروع رسمي في وعد بلفور ، ودولة بعد التقسيم ، اضافة لما تميزت به من ولادة دموية اجلائية لتشكل العارضة الاساسية المتينة لاي بحث جاد في سياسة اسرائيل الخارجية والعوامل المؤثرة فيها .

حينما يناقش المؤلف ظاهرة التخلف في افريقيا كعامل مؤثر في السياسة الخارجية الاسرائيلية ودور الاستثمار الاجنبي في تحقيق التنمية الاقتصادية نجده بسبب من عدم تميزه لمظاهر السياسة عن اهدافها الحقيقية ، واغفاله خصوصيات دولة اسرائيل ، يستخلص مقتبسا « وهذا يؤثر على السياسة الاسرائيلية التي تستغل هذا الوضع ... الخ للمساهمة في القضاء على ظاهرة الفقر التي سببها الحكم الاستعماري والاستغلال الطبقي وعدم كفاية رأس المال !! » ص ٢٧ ، بينما تكتب الشؤون السوفياتية الدولية « ولما كانت اسرائيل تعاني عجزا في مواردها المالية فانها تمنح القروض استثناء وتعتمد على الدول الغربية لتمويل المشاريع الافريقية الاسرائيلية المشتركة » [عن دراسات عربية عدد ١٠ — ٧١] . وهنا تتوضح أهداف سياسة اسرائيل وحقيقة مساهمتها في التنمية الاقتصادية لبلدان افريقيا ولمصلحة من ؟ وفي مكان اخر يقتبس ايضا « وتقدر بعض المصادر ان المعونة التي تقدمها اسرائيل لافريقيا لا تمثل سوى ٥ ٪ من المعونات الخارجية للقارة » ، ويستخلص « وهذا يدل على ضعف المساهمة الاسرائيلية في مجال التنمية الاقتصادية في افريقيا التي تقوم أساسا على التصنيع الثقيل والقروض والمعونات الضخمة » . لا يكتفي بالتناقض بين الاقتباسين بل يضيف « الامر الذي لا تقدر عليه اسرائيل » .. ترى هل يوحي المؤلف بان اسرائيل لو كانت تقدر على تحقيق التصنيع الثقيل لحققته ! ولو صح ذلك كيف وبأي آفاق ... ان التنمية والتصنيع الثقيل تتطلبان تكوينا ابتدائيا لرأس المال وتخطيطا شاملا لموارد البلاد . وسيطرة كلية عليها كما في البلدان المتخلفة التي تنشد النمو وهذا ما لم تستطع ان تنجزه أية دولة في العالم خارج حلقات التطور الرأسمالي، الا عبر تخطيط اشتراكي علمي والذي يفصم جميع الحلقات التي تربط البلد بالاقتصاد الرأسمالي ، وتحت قيادة وطنية تقدمية. فهل تريد ذلك اسرائيل او تقدر عليه حكومات افريقيا خاصة المتعاونة منها مع اسرائيل .

ان المرتكزات الحقيقية للسياسة الاسرائيلية الخارجية تكمن في العلاقة العضوية بينها وبين الامبريالية خاصة الامريكية منها ، لتمثل عبر تقسيم العمل الدولي وضرورات السوق الرأسمالية اليومية قاعدة اقتصادية سياسية للولايات المتحدة، وبشكل اكثر وضوحا « والسياسة الاسرائيلية تجاه المناطق التي بدأ الاستعمار الامريكي يحتل له مراكز فيها بعد الحرب العالمية الثانية قائمة بالدرجة الاولى على تأمين الشروط اللازمة لاستمرار هذا النفوذ » [السياسة الدولية عدد ١٠ — ٧٢] . وهذا بالضبط ما يفسر دور اسرائيل تجاه اقتصاديات افريقيا . الابقاء عليها او تطويرها ضمن الاشكال الاقتصادية التي تشكل ارضية للاستعمار الامريكي الجديد .

وعندما ينتقل الكاتب للحديث عن المؤسسات المؤثرة في السياسة الخارجية وقراراتها يؤكد « وعندما تعرض القرارات على الكنيست فيكون ذلك بمثابة التغطية الديمقراطية لان تأثيره محدود في المجال الخارجي » ص ٤٩ . ليكشف بذلك عن عجز الكنيست في تقرير السياسة الخارجية بل يحصر دوره في التأييد الشكلي للقرارات . بينما يستخلص مرة اخرى « ولا يخفى ان درجة التعليم المرتفعة في الكنيست وكذلك عامل السن قد أضفى نضجا نسبيا واضحا في مناقشات الكنيست في الشؤون المختلفة » ص ٧٢ . اي مناقشات يقصد وقد اخبرنا ان القرارات تعرض للتغطية الديمقراطية فحسب . ثم ماذا يقصد بالنضج ووضوحه ؟ اذا كان يقصد ان تقدم السن هو سمة للنضوج ، فان الانسان يكون بكامل توقده الفكري في الثلاثين من عمره . ان مثل الاسكندر ونابليون ، وماركس ، ولينين تتبين قدراتهم غير المحدودة وتوقدهم في فترة الشباب — اما اذا كان يقصد بالنضج هو الخبرة المكتسبة لدى شيوخ الكنيست وشيخاته فان [مراجعة جـ. جانسن في شؤون فلسطينية عدد ١٥، ٧٢] تكشف عكس هذا الاستنتاج « واذا اعترف بن غوريون بهذه الحقائق لما بقي هناك سبب لمجيء اسرائيل الى الوجود ما دامت مثل سائر الدول ،

بل هي اكثر وحشية وقسوة من غيرها لان ذلك يتعلق بـ « تفوق الامة العبرية » وان تبيان الحقيقة قد يلحق العار بالدعائي العادي ، ولكنه يقضي على الصهيوني » وايضا « ان القول بأن لاسرائيل عيوبها المعنوية لا يعتبر نقدا غير اخلاقي فقط بل خيانة عظمى بالنسبة لشخص مثل بن غوريون » . كيف تكون المناقشات ، غير الموجودة ، ناضجة وكيف يكون عامل السن قد اضفى نضجا نسبيا الخ .. حينما يكون موقف شيوخ الكنيست محكوم بعظمة اسرائيل وتفوقها وهي ما تعمي من اي نضج او موضوعية مزعومة .

المؤلف يذهب ابعد من ذلك « ايا كان الامر فان الكنيست باعتباره هيئة للتعبير عن الراي العام قد سار على نحو لا بأس به » ص ١٧ . ايهما صحيح في الرأيين السابقين للمؤلف . ما هو اكيد في صحته فهو لدى المؤسسة العسكرية التي تقرر كل شيء . فكيف تناولها المؤلف ...

في مناقشته للمؤسسة العسكرية ودورها يذكر عدد الكولونيلات المتقاعدين في وزارات الدولة . كولونيل فما فوق ٦،٩ ٪ الدفاع ٥،٢ ٪ الضباط الذين يشغلون مناصب عليا في الخدمة المدنية ٢٨ في الخارجية الخ ... وحين ينتقل الى الحديث عن الناحال والجدناع وهي المنظمات العسكرية للشباب المحارب يقول مقتبسا « ان هناك قاسما مشتركا يجمع العسكريين وبالذات الغلاة منهم مع القادة في السلطة السياسية وهو الايمان بالعقيدة الصهيونية والفكر العسكري الصهيوني ، وبالذات الغلاة منهم ... وان مشكلة الامن تبرز اهمية القوة العسكرية وان القادة العسكريين يكون لهم الثقل الاكبر عند دراسة الامن القومي » ص ٨٧ . هنا يريد المؤلف ان يبرز مسألة الامن القومي على انها هي ما يبرر فعالية دور المؤسسة العسكرية كما يقول . ان هذا الرأي الذي أورده المؤلف مقتبسا ومقتنعا يغطي نصف الحقيقة ، بمعنى ، ان المؤسسة العسكرية تؤثر في القرارات السياسية بل تصوغها في حالات التوتر والتي هي دائمة — كما تريدها المؤسسة العسكرية . اما الحقيقة الكاملة فهي ان دور المؤسسة العسكرية لم يكن مرتبطا بقضية الامن القومي كدولة مهددة بالاجتياح ! ان هذا الرأي يرتبط بالصدع الاساسي في رأي المؤلف الذي أغفل طبيعة قيام اسرائيل العدوانية المتميزة. فالمؤسسة العسكرية وما يرتبط بها من منظمات الشبيبة المسلحة المحاربة تحت وصايتها تشكل جهازا تنظيميا دائما « لامة اسرائيل » حيث تحاول تذويب الطبقات والفئات الاجتماعية في وحدة تضامنية قتالية ، يغذي وينمي الفكر الصهيوني فيها العداء للعرب الفلسطينيين في الداخل والعرب في الخارج من اجل التوسع و« اسرائيل الكبرى » وهذا بالطبع ما يشكل محور تماسكهم الداخلي وقدرتهم الهجومية . وهذا يعني انها ليست جهازا للامن والدفاع بل وبالدرجة الاولى لبلورة الطابع الشوفيني العدائي والهجومي للدولة الاسرائيلية وهو ما يجسد جوهر الايديولوجية الصهيونية .

أما في تناوله لطبيعة الهستدروت باعتباره اداة من الادوات السياسية الاسرائيلية فهو يقرر « تشترك الهستدروت في ملكية بعض الشركات بالاشتراك مع الحكومة او الوكالة اليهودية مثل شركة ميكورث وشركة زيم للملاحة وهي اكبر شركة للملاحة في اسرائيل وشركة العال الخ ... كما ان هناك شركات يملكها الهستدروت باكملها مثل سوليل بوانيه » ص ٩١ . وايضا « كما قام بانشاء المعهد الافرو اسيوي للدراسات العمالية والتعاون . في ١٨ اكتوبر ١٩٦٠ ، كما يعمل على تمويله بمؤازرة الاتحاد الامريكي للهستدروت » ص ٩٢ ليستخلص لنا في مكان آخر : « يتضح مما سبق اهمية الدور الذي يقوم به الهستدروت في السياسة الخارجية » الخ ... ويستمر « أصبحت الدبلوماسية الشعبية تقوم بدور كبير في العلاقات الدولية نتيجة لازدياد الدور الذي تقوم به الجماهير في التأثير على القرارات السياسية » !؟ ص ٩١ . أية دبلوماسية شعبية يعني ؟ واي دور للجماهير ؟

ان مجلة الشؤون السوفياتية توضح هذه القضية عن دور الجماهير: « وتقوم المؤسسات الاقتصادية التالية « للهستدروت » بدور أساسي في ميدان الاقتصاد ولها شعب منتشرة في البلدان الافريقية، وهي مرتبطة بالاحتكارات الاستعمارية وتغلب على الاعمال الاقتصادية صبغة الاعمال المشتركة التي تساهم بها اسرائيل بأقل من ٥٠ ٪ » .

في الباب الذي يبحث فيه المؤلف اهداف السياسة الخارجية يحدد «قضية الوجود الاسرائيلي، الامن، الخروج من العزلة ، التأييد الدولي » ويسير في معالجات مستقلة لكل هدف دون رؤية ما يربط بينها الاهداف الاستعمارية في المنطقة . ان ربطا وثيقا بين الطبيعة الاستيطانية الاستعمارية ومخططات

واهداف الامبريالية والامريكية خصوصا وتعيين الاهداف المشتركة والمتداخلة بينهما ، هو الذي يحدد الاساس الذي لا يمكن بدون معرفته اي هدف رئيسي او عامل مساعد في السياسة الخارجية .

ان ابا ايبان لا يخفي تلك الحقيقة « ان السياسة الخارجية لا تتكون من مجموعة ابحاث ومناظرات مدرسية وانما تنجم من ضغط الواقع والحاح المقاصد الاساسية ، ولو امكن تحويل اسرائيل من وتد الى رأس جسر لكان هذا التحويل عظيم البركات على اسرائيل في الشرق الاوسط ورقعة اسيا والعالم » ص ١١٣ . وواضح ما يريده ايبان برأس الجسر هذا ؟ ضمن وحدة المصالح الاسرائيلية الامبريالية . والمؤلف لا يبحث في الخلفية الفكرية للتصريحات والمواقف التي تحكم سياسة اسرائيل بل يجتهد « المهم هنا هو أن اسرائيل أصبحت تسير الان ويقصد بعد ٦٧) ... تسير في اطار الدول الغربية على وجه العموم » ص ٢٥ ويقول مقتبسا « فهناك من يرى انها اداة الامبريالية الامريكية في افريقيا » « كما لها علاقة بالاستعمار الجديد في هذه القارة ...» ويكمل « اما المؤثرات الخارجية فاثرت على حركة اسرائيل في افريقيا حيث تعدد مراكز القوى في العالم ولجوء اسرائيل أخيرا لتدعيم علاقاتها بالولايات المتحدة » ص ٢٥ — ٣٠ — وهكذا يأتي اجتهاد المؤلف بصيغ يتيمة كالقطرات المائية الساقطة من السماء . اصبحت تسير الان ؟ هناك من يرى ؟ واخيرا لتدعيم ؟. كيف يمكن ان تكون هذه الاستنتاجات اساسا لتحليل علمي مترابط رصين ..؟ وباصرار يكتب مستنتجا « يستنتج مما سبق ان أهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية في افريقيا مشتقة من صميم المصادر الاسرائيلية كما تكشف عن الطبيعة الاستعمارية لاسرائيل » ص ١٣٣ . دون ان يقول لنا بعلاقة تلك الطبيعة بالامبريالية العالمية .

ولكن بعد ان يعرض جداول التمويل الامريكية ، والالمانية الغربية في فصل اعتبره خاتمة للبحث وليس من صلب ابوابه ، يقرر « يمتاز الاقتصاد الاسرائيلي بالصفة الاصطناعية ورغم انجازاتها واستثماراتها فان اسرائيل ما زالت بعيدة عن الاعتماد على نفسها كدولة معاصرة » ونحن نتساءل ما هي درجة بعدها عن الاعتماد على نفسها ؟ وهل هي تسير في هذا الطريق ؟ وهل بامكانها ذلك ؟ اخيرا يستنتج لنا المؤلف « وكأن من يمول الاقتصاد الاسرائيلي هو الذي يحرك الوسائل الاسرائيلية في افريقيا ولو لم يوجد هذا التمويل لما استطاعت ان تطبق وسائلها المختلفة في افريقيا» ص ٣٥٣. وهذا الاستنتاج لاهم فصول الكتاب اطلاقا — تمويل السياسة الاسرائيلية — غير واضح ابدا « وكأن من يمول ؟ ولما استطاعت ان تطبق وسائلها ..؟ اذا كانت مصادر التمويل معروفة فالاهداف محددة..فما معنى فلماذا وكأن ؟ وماذا تعني عبارة « ولولا مصادر التمويل .. بالطبع لولا مصادر التمويل ليس فقط لما استمرت وسائلها ، بل لما قامت اسرائيل ، ولما استمرت لحد الان ؟ والغريب ان جميع المواد والاحصاءات التي بذل المؤلف مجهودا كبيرا لتجميعها لم تعنه على معرفة حقيقة العلاقة الامريكية الاسرائيلية .

وفي مناقشته للعوامل الافريقية التي ساعدت على نجاح السياسة الاسرائيلية يستشهد المؤلف بقضية الميراث الاستعماري ومشاكل الاستقلال السياسي، أي التخلف الاقتصادي،فيقرر «وهكذا عندماحصلت الدول الافريقية على استقلالها وجدت نفسها مثقلة بميراث استعماري تمثل في خلفية ثقافية تتمشى مع وجهة النظر الاسرائيلية ... الامر الذي مهد للسياسة الاسرائيلية في افريقيا » ص ١٤٢ . لم يذكر لنا المؤلف طبيعة الانظمة الافريقية وعلاقاتها بالسياسة الاستعمارية في افريقيا ، الامريكية خاصة ، واخضاع اقتصادياتها لعملية التقسيم الدولي للعمل لخدمة آلية النظام الرأسمالي العالمي بتعيين دور افريقيا المزدوج التمويلي والتصريفي التمويل للمواد الاولية والتصريفي للسلع المصنعة في الدول الرأسمالية واسرائيل .

أما ظاهرة الفقر خلص كما في مقدمته الى استغلال اسرائيل للتخلف ... « للمساهمة في القضاء على ظاهرة الفقر » الخ . وهذا التبسيط وأكاديميته التي جزأت الظواهر .. تتنافى مع اعلانه بالالتزام باسلوب البحث العلمي في مقدمته ان احادية الظواهر هي التي جعلت نظرته احادية الجانب . « الميراث الاستعماري » ظاهرة التخلف .. الخ . نيويورك تايمز كانت واضحة لمن يريد البحث والاستنتاج « تعتبر اسرائيل من اهم الدعائم التي يستند عليها الاستعمار الغربي في احكام سيطرته على الدول الافريقية التي نالت استقلالها حديثا وتبنت مواقفه السياسية والاقتصادية » [حول زيارة اشكول لافريقيا — السياسة الدولية]

واضح جدا ما تعنيه هذه الصحيفة الامريكية بـ « تثبت مواقفه السياسية والاقتصادية » وهنا أيضا ورغم جزالة مصادر المؤلف لم يركز لنا البحث ويوازنه في علاقة اسرائيل بالامبريالية . ما يوازن البحث حقا هو تصريح بن غوريون « ان اسرائيل كانت الحاجز الرئيسي للغرب في افريقيا » [نفس المصدر] او تقرير وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٥٩ «دور اسرائيل كقوة ثالثة ينبغي ان يدعم عن طريق استعمال التقدم التقني اذا ارادت دول العالم الحر ان توسع مساعدتها لافريقيا بامكانها تقديم جزء من هذه المساعدة عن طريق اسرائيل بسبب الميزات الخاصة التي تجعلها — اي اسرائيل — مقبولة من عدد كبير من الدول الافريقية » [الحرية ٦٠٤ — ٧٢] ويكمل التقرير « وجود اسرائيل في افريقيا بمثابة القوة الثالثة لتثبت الاستعمار الكولونيالي الجديد » .

اما في دراسته للوسائل التي ساعدت اسرائيل على تنفيذ سياستها وهي « عضوية المباي في الاشتراكية الدولية المقابلات، المعاهدات، التمثيل الدبلوماسي. استغلال الاضطرابات » يستخلص المؤلف « ان اسرائيل لجأت الى ابرام معاهدات صداقة تنص على ايجاد سلام دائم وصداقة وفض المنازعات بالطرق السلمية»!؟ ويضيف«مع ان هذه المعاهدات غالبا ما تبرمها الدول الكبرى مع الاقل منها » ص ١٧٦ . ويواصل اي ان اسرائيل تقلد الدول الكبرى ؟! ويضغط الاكاديمية عليه يغفل المؤلف النقطة الجوهرية التي تحاول اسرائيل ابرازها لتحول قضية وجودها غير الشرعي القائم على العدوان الى وجود شرعي ينشد السلام . والعقدة الاساسية التي تعانيها في رفض وجودها كليا تحاول ان تحوله الى موضوع نزاع بينها وبين العرب يمكن الاتفاق عليه بالمفاوضات . والمؤلف كان احد الذين استطاعت المعاهدات وصياغاتها ان تحول اهتمامه الى مسألة عرضية وثانوية ، هي مسألة تقليد الدول الكبرى وبالطبع فالتقليد مظهر للسياسة وليس جوهر لها .

في معالجة البيانات المشتركة بين اسرائيل وافريقيا، وبالضبط مجموع العلاقة بينهما وطبيعتها ونتائجها والتذبذب والتناقض اللذين اتسمت به طيلة السنوات العشر من عمرها . يكشف المؤلف مرة اخرى عن عدم وضوح في الرؤيا لديه ، وعدم تمكنه من ربط عناصر تحليله وشدها الى وحدة تحليلية .

في مناقشته لتصريح هيلاسي لاسي في الكويت عن قوله « ان اثيوبيا لم تخلق اسرائيل ولكن الامم المتحدة هي التي خلقتها وان اثيوبيا تحترم هذه المنظمة الدولية وميثاقها !.. ولا يعني ذلك انها « لا تعطف » على اللاجئين الفلسطينيين ، فتأييد اللاجئين مسألة انسانية » ويأتي الباحث ليكمل ويفسر التصريح « أي ان هيلاسي لاسي ينظر الى قضية اللاجئين من الجانب الانساني فقط » ؟! ص ١٨٣ . ان قول هيلاسي لاسي عن الشعب الفلسطيني « لاجئين » ويبدي عطفه الانساني عليهم هو ما ترفضه اسرائيل وامريكا ، بل ما تعبر عن انسانية اعمق من انسانية هيلاسي لاسي في صياغة التصريحات والبيانات عندما تتحول المسألة الى مسألة « لاجئين » ان مقاصد ومدلولات هذا التصريح تعبر عن اعلى درجات الاعتداء على كرامة الانسان وحقه في الوطن وتكريس صفة لاجيء تسحق وتشوه الانسان العربي والفلسطيني ، اكثر من اعتداء واستلاب تمارسه اية قوة استعمارية او عنصرية. وبعد ان يشارك المؤلف هيلاسي لاسي في عواطفه كما تبدو من صياغته يكتشف لنا « مما سبق يستنتج مدى قوة التأييد الاثيوبي لاسرائيل » ص ١٨٥ . لماذا قوة التأييد ؟ وكيف ؟ لا يجيب الكاتب ، وكأن الدراسات الجامعية الاكاديمية غير معنية بذلك . ثم يستمر مقتبسا عن محاولة اثيوبيا لكي تحافظ على علاقاتها بافريقيا العربية والمنظمة الافريقية بعدم ظهورها دولة متحالفة مع اسرائيل « ويمكن القول ان ذلك التفسير مقبول بدرجة كبيرة »؟! لماذا يقول ؟ ومن اي وجهة نظر ؟ ولمن ؟ لا أحد يدري .

هكذا يدرس المؤلف موقف اثيوبيا والدول الرجعية الافريقية . ولكي نضع امام المؤلف ماذا تعنيه الاستنتاجات التي توصل اليها نقتبس « وفي اثيوبيا اقامت اسرائيل مدرسة عسكرية في مدينة « ديفي امحري » لتدريب الجنود على حرب العصابات المضادة ، ويشرف على ادارة هذه المدرسة مجموعة من الخبراء الاسرائيليين ، وبنت اسرائيل قواعد عسكرية عدة لحكومة اثيوبيا في الجزء الغربي من اريتريا ويقوم ضباط من اثيوبيا بدورات تدريبية في اسرائيل ، وتحاول اسرائيل بمساعدة الانظمة المؤيدة للغرب في مجال حرب العصابات المضادة ، توطيد دعائم هذه الانظمة وهي تهتم بشكل خاص بتدعيم الجيش في اثيوبيا ما يمكنها من حماية مداخل البحر الاحمر » [دراسة النهار ١٨ ك ٢ ٧٢]

هذا الاقتباس يفسر معنى عطف هيلاسي لاسي ويوضح للمؤلف شدة التأييد الاثيوبي الاسرائيلي الذي لم يجد له تفسيرا !

اما حينما يناقش موقف دول مثل غينيا والكونغو برازافيل . من خلال التصريحات والبيانات . لا يعنيه طبيعة اختلاف الانظمة الافريقية الوطنية ذات السمات التقدمية ، ولا يهتم بالتغير الذي طرأ من عهد ديبا الى عهد الجمهورية الديمقراطية الشعبية في الكونغو وصعود حزب العمل الكونغولي الى الحكم في كانون الاول ١٩٦٩ . وتبني المبادىء الماركسية — اللينينية في تطوير الحكم والاقتصاد ، او التطورات التي حصلت على نظام غينيا سيكوتوري بعد سقوط نكروما — غانا واشتداد مؤامرات الغزو ضدها .. تلك التغيرات عكست نفسها في موقفها من حركات التحرر الافريقية والعالمية وقضية فلسطين . بالنسبة للموقف الكونغولي يقول « اعلن نجوابي امام مؤتمر القمة الافريقي انه قرر سحب ممثل بلاده من تل ابيب فورا ، كما استنكر اعتداءات اسرائيل » ثم يخلص الى القول « اي ان الكونغو برازافيل لا تؤيد التوسع الاسرائيلي » وحول الموقف الغيني ورد موقف غينيا على الشكل التالي عند المؤلف « لم يتم تمثيل دبلوماسي او قنصلي لها في اسرائيل ، طلب ممثل غينيا في مؤتمر التضامن الاسيوي الافريقي من سفير اسرائيل ان يترك قاعة المؤتمر » ، اكد سفير غينيا في القاهرة « تأييد الشعب الغيني للشعب الفلسطيني من اجل استعادة حقوقه » بعد حزيران ٦٧ اغلقت سفارة اسرائيل في كوناكري . واعلن سيكوتوري « ان الاستعمار قد اعد خطة خلال الحرب العالمية الثانية لاقامة دولة لليهود في غينيا الوسطى الخ ... ما يجعلنا نحن شعب غينيا اعمق فهما وادراكا لقضية فلسطين وحق شعبها في استعادة اراضيه » يستخلص اخيرا « اي ان غينيا تؤيد العرب لاسترداد حقوقهم في فلسطين ولكنها تعترف بوجود اسرائيل ؟ بدليل قبول علاقات دبلوماسية معها وان كانت من جانب واحد » . (المؤلف نفسه ذكر قبل اسطر انهما اغلقت السفارة الاسرائيلية بعد حزيران) .

لقد تمسك المؤلف طوال بحث هذا الفصل بصيغة معادلة واحدة غير حروفها وبعض كلماتها في وصفه لمواقف دولة عن أخرى وهي : تؤيد اسرائيل ، لا تؤيد اسرائيل ، تعترف بوجودها تؤيد ولكنها تعترف، تؤيد التوسع ، لا تؤيد ، تؤيد بقوة كما في اثيوبيا ! وهذا ما جعله لا يميز بين طبيعة وتكوين الانظمة الرجعية العميلة كاثيوبيا والملاوي ، والانظمة الوطنية التي اكتسبت مواقفها تبلورا باشتداد مناهضتها للرجعية وتصديها للمؤامرات الامبريالية وقطعها اشواطا في قطع الحلقات الاستعمارية كما في الكونغو الديمقراطية الشعبية في عهد حزب العمل الكونغولي ونظام غينيا ، خاصة بعد تصديه لمؤامرات الغزو المستمرة وزيادة اعتماده على الجماهير . ان تطور موقف الكونغو الشعبية وغينيا يعكس تطور انظمتها وتعميق مناهضتها للاستعمار ومخططاته في افريقيا وبالتالي فان معادلة الكاتب الاحصائية لا تصلح لتفسير تلك التغيرات ومداها في السياسة الافريقية والدولية . ان الارضية التي تحدد سياسات الانظمة الافريقية هي ليست قدرة وعدم قدرة الدبلوماسية العربية او كفاءة الدبلوماسية الاسرائيلية وان كانت الكفاءة أو العجز تساعد في بلورة المواقف نسبيا . الا ان الطبيعة الطبقية للانظمة وقدرتها على فك ارتباطها بالحلقات الاقتصادية الاستعمارية وموقفها من حركات التحرر الافريقية والعالمية هي المؤشرات الحاسمة في تحديد سياستها تجاه القضايا العربية وفلسطين .

وبعد ان ينتهي من بيانات وتصريحات حكام افريقيا يكتب مستنتجا « هكذا كسبت اسرائيل الرأي العام الى جانبها » اي رأي عام يعني ؟ وايضا « وهذا يدل على نجاح اسرائيل في كسب الرأي العام الافريقي الى جانبها في وجودها وامنها وخروجها من عزلتها السياسية كما يدل على نجاح اسرائيل في اقامة علاقات قوية بالمؤسسات المختلفة الافريقية الرسمية » ص ٢٢٠ — ٢٢١ . وعن الوسائل التي تنفذها اسرائيل بالنسبة لنقل تجربة الجدناع والناحال ونجاحها يكتشف « كما ان محاولة تطبيق الجدناع والناحال ... تؤدي الى تعظيم دور اسرائيل بالنسبة لهذه الدول ... مما يساعد على تجديد ايمان الاجيال الافريقية باسرائيل ومنجزاتها واهدافها » ص ٣٢٥ . وايضا عن الزيارات العسكرية « وهذه الزيارات تساعد على تحقيق اهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية لانها عادة ما تقترن بمحاولة عرض تجربتها .. مما يؤدي الى تقوية الروابط بين اسرائيل وهذه الدول وعلى الخصوص التي تحاول تقوية مؤسساتها العسكرية

الخ ... وبالتالي يتقبلون في أغلب الاحيان دور المؤسسة العسكرية الاسرائيلية » ص ٢٢٤ .
لماذا يتقبلون دور المؤسسة العسكرية ؟ ولمصلحة من ؟ وبتنسيق من كتب في مكان اخر عن عدم ملائمة التجربة الاسرائيلية العسكرية لافريقيا يقرر « ولا يمكن تشبيه دور المؤسسة العسكرية في السياسة بدور اي جيش من دول العالم الثالث عامة حيث ان سيطرتهم محكمة على الشؤون المختلفة » ص ١٧ . لا يفسر لنا هنا اذن كيف امكن عن طريق المؤسسة « تجديد ايمان الاجيال الجديدة باسرائيل » ؟ ! نستطيع نحن ان نوضح كيف نقلت التجربة وكيف طبقت .. وماذا عن نجاحاتها « وبين كل الادوار التي تمثلها اسرائيل في افريقيا يمثل الاهتمام بالجانب العسكري جزءا كبيرا في البرامج الاسرائيلية ازاء افريقيا . ويتضح المخطط الرامي الى غرس ركائز الاستعمار الجديد في القارة الافريقية وتثبت اقدامه وضمان حمايته بواسطة جيوش الدول المضيفة نفسها التي تلقت معظمها تدريبات عسكرية في اسرائيل ، او تدربت بواسطة الخبراء الاسرائيليين في بلادهم ، وبنفس الوقت وبواسطة نفس القوات يتم اجهاض حركات التحرر الافريقية ، وقمع اية منظمات شعبية مناهضة للاستعمار ومعارضة لسياسة الدول المحلية . وبالطبع فان كافة البرامج العسكرية توضع بالتشاور مع المخابرات المركزية الامريكية » [تقرير الحرية عدد ٦٠٤] هذه الحقائق تفسر الالغاز التي بقيت دون تفسير لدى المؤلف .

بصدد تحليله لاهداف اسرائيل كما هي في البيانات المشتركة مع حكومات افريقيا يورد المؤلف استنتاجا لا يخلو من الغرابة والطرافة « البيانات المشتركة تدل على ان اسرائيل تركز على المفاوضات المباشرة حتى قبل حزيران .. دون الاخذ بنظر الاعتبار قواعد القانون الدولي التي تنص على ان هناك عدة وسائل لفض المنازعات بالطرق السلمية، لا تقتصر على المفاوضات المباشرة فهناك الوساطة او التوفيق والمساعي الحميدة ؟ والتحكيم والقضاء » ص ١٨٠ . هكذا تتحول الاكاديمية لدى المؤلف حتمية اما القوانين فلماذا غاب عن المؤلف حتى كيفية صياغة القوانين والانظمة . باعتبار القانون كائن حي في المجتمع يستجيب لضرورات موضوعية وعند تطبيقه على ظروف مماثلة يكتسب قوة القياس في التطبيق . كيف قفز المؤلف فوق كل الظروف الخاصة والمتميزة لاسرائيل وحاول قر القانون الدولي لتطبقه على عدوان وجودها . وهل كانت نية المشرع في صياغته « للمساعي الحميدة ، والتوفيق » الى معالجة القضية الفلسطينية واسرائيل . لا نضيف اكثر حسبنا ان نذكر ان الاستاذ المشرف عبدالله عودة نائب رئيس تحرير الاهرام واللجنة المشرفة على مناقشة الرسالة وآرائها عن « المساعي الحميدة » قد كافأوا المؤلف بدرجة جيد جدا بعد اكمال المناقشة احتراما منهم لاكاديمية البحث .

الفصل الخاص بقياس فاعلية السياسة الاسرائيلية عبر المؤتمرات الدولية يقرر مستنتجا « يمكن القول بصفة عامة ان هذه المؤتمرات لا تنفي الوجود الاسرائيلي ولكن تنادي بحقوق شعب فلسطين والانسحاب من الاراضي العربية المحتلة » (ص ٢٣٨) . لم يكلف المؤلف نفسه عناء تحليل الوزن السياسي للقوى الفاعلة والمؤثرة في صياغة القرارات ، وما تعكسه تلك الصياغات من تغيير دائم في موازين القوى المؤيدة او المعارضة لوجهة النظر العربية . وهو ما نجم عن افتضاح حقيقة اسرائيل وارتباطها بالاستراتيجية الاستعمارية من جهة وضغط حركات التحرر الافريقية والعالمية على مواقف الحكومات في المنظمة الدولية ومنظمة الوحدة الافريقية . وما كان واضحا في مؤتمرات بلغراد ، والدار البيضاء ولوساكا .

بعد عرضه لسير المؤتمرات الدولية ، وتنظيم جداول الاصوات وعرض المشاريع المختلفة ، يستغرب المؤلف تردد الدول الافريقية وعدم تأييدها الحاسم للعرب بادانة اسرائيل ، مستخلصا من ذلك نجاح السياسة الاسرائيلية في افريقيا في تحقيق اهدافها خاصة منذ حزيران ٦٧ . يقرر « كما ظهر في قرار الجمعية العامة .. وان دل على شيء فانما يدل على نجاح السياسة الاسرائيلية في افريقيا التي وصلت الى درجة جعلت من الصعب على هذه الدول ككل ان تؤيد انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي التي احتلتها بعد حرب حزيران ٦٧ » (ص ٢٥١) . هكذا وكأن المؤلف لم يبدأ اطروحته في عام حرب حزيران وهو من اكثر الاعوام نشاطا للدبلوماسية الاسرائيلية والتي عملت بعد العدوان وبواسطة ممثلها الصهيوني الشهير (غولدنبرغ) في دورة الجمعية العامة كل جهدها ، ووضعت وزنها الدولي اقتصاديا وسياسة في خدمة الاهداف

الاسرائيلية في التشبث بالاحتلال ، وكان الضغط على الوفود الافريقية خاصة من ابرز النشاطات التي ميزت الموقف الامريكي في الترغيب والترهيب ولا يزال موقفها يشكل الغطاء السياسي للموقف الاسرائيلي المتعجرف والمتصلب . الفصل الخاص عن المؤتمرات الدولية لم نجد فيه اي ذكر لدور الولايات المتحدة في افريقيا .

اما عند التدقيق في موقف المؤلف في بحثه عن دور الجماهير وجبهات الشعوب وحركات التحرر والعالم التقدمي والاشتراكي يستخلص « وهكذا كسبت اسرائيل الرأي العام الافريقي الى جانبها » (ص ٢٢١) ويقصد بالطبع رأي الحكومات العميلة والرجعية ، وبعض الحكومات الوطنية التي تتذبذب في مواقفها ، لان الرأي العام ، رأي الشعوب الافريقية لا يمكن ان تكسبه السياسة الاسرائيلية . ويمكننا قياس بعض من صبواته من الكتاب نفسه «تم تأسيس منظمة مناهضة لاسرائيل تدعى الشبان المسلمين في افريقيا الوسطى والشرقية ، وتطالب بأن يغادر الاسرائيليون المقيمون في تنزانيا البلاد .. واكدت المنظمة تأييدها لحركة فتح الفلسطينية » (ص ١٨٨) . وبالطبع لا يمكن ان يكون اسم المنظمة دليلا لطائفيتها .. لان ما يؤكد اصالتها هو تأييدها لحركة المقاومة المسلحة . اضافة الى وقوف جميع الحركات الثورية المسلحة في افريقيا الى جانب فلسطين وضد اسرائيل . ومرة اخرى عند زيارة مائير للنيجر عام ٦٤ « واجهتها مظاهرات ضخمة احتجاجا على الزيارة » ؟ هنا لا بد ان نسأل ايهما الرأي العام في رأي المؤلف ؟.. اما بالنسبة لقياس الرأي العام المؤيد لاسرائيل فلم يحدثنا الكتاب عن مظاهرة مؤيدة لاسرائيل او معادية للعرب في افريقيا .

ولو دققنا اكثر في رأي الشعوب الافريقية نقرأ في تقرير الحرية « من بداية محاولات التدخل الاسرائيلي واجهت اسرائيل فشلها في عدم القدرة على اقامة علاقة مع السكان المحليين رغم كافة الجهود الاعلامية المبذولة في هذا الصدد » وبالطبع تكشفت امام الشعوب الافريقية تلك السياسة التي ارتبطت في اذهان الجماهير ، ومهما قدمت اسرائيل من تبريرات ، في وقوفها الى جانب الحكومات الرجعية والعميلة وفي مقاتلتها لحركات التحرر الافريقية المسلحة .

المؤتمرات الدولية غير الحكومية ، هكذا ناقش المؤلف فاعلية مؤتمرات الشعوب . المؤتمر الاول لتضامن الشعوب الافريقية ـ الاسيوية ـ اللاتينية اعلن « ان اسرائيل قاعدة استعمارية تهدد تقدم الشرق الاوسط وسلامته . واكد حقوق شعب فلسطين » [هافانا ك٢ ٦٢] . وايضا « يعتبر المؤتمر اسرائيل قاعدة من قواعد الاستعمار .. واستبعد اشراك اي هيئة اسرائيلية ، ورفض طلب الاحزاب اليسارية للحضور » . ان رفض المؤتمر لاي هيئة سياسية وحتى « يسارية » للاشتراك في المؤتمر سابقة ذات ابعد الاثار المترتبة على رفض الشعوب لدولة اسرائيل بل وحتى منظماتها اليسارية ما دامت تدافع عن وجود اسرائيل . وهذا الرفض من قبل مؤتمر شعوب ثلاث قارات هو نصر كبير لشعب فلسطين واندحار اكبر لاسرائيل .

هذا هو موقف الرأي العام الحقيقي ، موقف الشعوب العالمية والافريقية . الجماهير ضد مائير وجبهات مقاتلي الشعوب تدين اسرائيل ، ومؤتمراتهم ترفض شرعية وجودها . أما آخر عطاء قدمته شعوب العالم فهو انخراط افواج من الثوريين في صفوف حركة المقاومة المسلحة ومن قارات العالم الست لتقف في خط كفاحي واحد في مواجهة جبهة الاعداء الواحدة .

في خاتمة الكتاب تأكيد على نجاح السياسة الاسرائيلية في افريقيا . هآرتس لا ترى ذلك ؟ بل تشير بمرارة ظاهرة عن اخفاقات قائمة ومزيد منها مستقبلة « لم تعد مكانتنا في بلاد افريقيا كما كانت قائمة منذ عشر سنوات ، وليس ثمة ما يضمن اننا سنكون بمعزل عن تطورات سلبية في أماكن أخرى » [هآرتس عدد ٧٢/٣/٢٦ عن الحرية] . اما الموجة الحالية المعادية لاسرائيل في افريقيا فهي بسبب انكشاف بعض من جوانب السياسة الاسرائيلية الاستعمارية ليس لشعوب افريقيا التي تدرك ذلك منذ زمن بعيد بل لبعض من الحكام الخاضعين بدرجات متفاوتة لعجلة الرأسمالية العالمية عبر معوناتها الاقتصادية . من هنا فان تمردهم لا يمكن المراهنة عليها او تحميلها اكثر من حقيقتها مستقبلا . ان الانحسار التام والحقيقي للسياسة الاسرائيلية والاستعمارية لا يكون الا على يد حركة التحرر الافريقية المكافحة .

ان القانون الذي يحكم مستقبل السياسة

الاسرائيلية في كل مكان ، هو قانون صعود حركة المقاومة الفلسطينية ، واشتداد حركة التحرر العربية ــ الافريقية ــ العالمية ، وتشديد ضرباتها لمواقع الامبريالية ومحاصرتها . وهذا ما يقطع شريان الحياة الاسرائيلية ، ويطبق عزلتها ، ويفجر تناقضاتها ... عندها فحسب يمكن لشعب فلسطين الذي شارك الشعوب مسيرتها ان يقرر مصيره على ارضه لبناء فلسطين الديمقراطية المسالمة .

لقد ورد عند المؤلف كثير من التعبيرات التي تتناقض مع طبيعة البحث وموقف الباحث العام المعلن في الاراء والاستنتاجات . وكان يمكن اهمالها لاهميتها الثانوية بالنسبة للافكار الرئيسية في البحث لولا ان المؤلف قد عالج اهمية صياغة التعبير ودرجة الاختلاف الكبيرة في تفسير التعابير الغامضة وأورد مثلا للتلاعب في صياغة قرار مجلس الامن ٢٤٢ لسنة ٦٧ ، اذ يقول « القرارات تتسم بالغموض فيقول القرار بالانسحاب من«اراض»احتلت: From territories occupied in the recent conflict ولم يقل القرار كل الاراضي او الاراضي All territories or the territories حقا لقد كانت مسألة الصياغة بالغة الاهمية وعلى هذا الغموض والتلاعب راهنت اسرائيل والامبريالية على اقناع العرب بقبوله ، واعطاء اسرائيل فرصة قبوله لرفضه ، طبقا لاهدافها . ولقد كانت الصياغة امريكية بريطانية وليست اسرائيلية .

لذلك وانطلاقا من اهمية « دقة التعبير » سوف نناقش بعضا من دقة تعابير الكتاب . يذكر المؤلف « الوضع الجيوبولتيكي لاسرائيل » ! لماذا لاسرائيل ؟ الوضع الجيوبولتيكي هو وضع خاص بالوطن والتراب الفلسطيني ، بتضاريسه وانهاره ومواقعه وكل ما هو متميز فيه وهو قائم قبل قيام اسرائيل وباق بعد زوالها. فلماذا لم تكن الصياغة دقيقة . وايضا « عندما قامت اسرائيل على انقاض فلسطين » (ص ١٥) . وتكررت العبارة عدة مرات في الكتاب . لماذا انقاض ؟ ان الوطن والشعب الفلسطيني المرتبط به كان وطنا وشعبا مقاتلا ابدا ، ومنذ بداية موجات الغزو الصهيوني حتى اليوم في تاريخه المعاصر . اما الانقاض اذا صح التعبير فهي الادارة البريطانية المحتلة . وحرصا على الدقة ينبغي القول ان اسرائيل قامت على انقاض الانتداب البريطاني بعد ان شنت المنظمات الصهيونية المسلحة حرب ابادة واجلاء وبمساعدة القوات البريطانية وتواطئها لتطرد شعبا من ارضه .

بعد العرض الخاص بمناقشة فاعلية الامم المتحدة وقراراتها وموقف الحكومات الافريقية ، يستخلص « ان المجتمع الدولي لم يتمكن من اصدار قرار صريح ... يدعو الى انسحاب القوات الغازية ولا يتعرض لوجود تلك الدولة التي قامت على انقاض فلسطين بالقوة وبتأييد الدول الكبرى » .

هذه الصيغة « الدول الكبرى » غير دقيقة ، غير علمية ، بل ومشبوهة ! البحث العلمي يستلزم معرفة موقف كل دولة لوحده والتدقيق فيه ، طبيعته ، اهدافه ، مؤشرات اتجاهه الخ ... الاتحاد السوفياتي الذي يقصده المؤلف كدولة كبرى رغم خطأ قراره في تأييد التقسيم فان طبيعة موقفه واهدافه ومؤشرات سياساته تتناقض مع اهداف ومؤشرات وطبيعة سياسات اسرائيل والامبريالية التي صنعتها ، وتلتقي مع مصالح واهداف الشعب العربي والفلسطيني في نضاله ضد اسرائيل والامبريالية ، وموقفه من المقاومة الفلسطينية رغم الاجتهادات بين موقفه وموقفها كحركة مقاومة مسلحة .. يبقى الاتحاد السوفياتي الى جانب العرب وضد الامبريالية . وهذا ما ينبع من طبيعة النظام واهدافه وسياسته . أما الولايات المتحدة وبريطانيا (الدول الكبرى الاستعمارية) فهي تسير بخط معاكس ضد العرب، ضد شعب فلسطين ، مع اسرائيل ، مع اعداء العرب . وهذا بالطبع ايضا بحكم الطبيعة الاستعمارية لانظمتها واهداف سياساتها .

ان النهج العلمي مرة اخرى يتعاكس كليا مع صيغة « الدول الكبرى » التي ترصف الدول كما يرصف البلاط وعلب السجائر المتشابهة . اخيرا لا احد ينكر على المؤلف جهوده ومتابعته لجمع الاحصاءات والبيانات والتصريحات التي يمكن ان تشكل ركنا هاما من المعلومات لمشروع دراسة علمية حقا عن سياسة اسرائيل الخارجية في افريقيا . بل لاكثر من رسالة ... ومن هنا فالامانة واحترام الجامعات تقضي ان يعيد المؤلف النظر في جميع الصياغات والاراء والاستنتاجات حسب مستلزمات النهج الشمولي في التحليل لتقديمها الى القارىء المواطن لزيادة معلوماته عن العدو لترسيخ ما صح منها وهز كل ما هو غير علمي وغير صحيح يحتويها .

سعيد جواد

Nicholas Balabkin, **West German Reparations to Israel,**
(Rutgers University Press, New Brunswick, New Jersey, 1971).

نصت اتفاقية لوكسمبرغ او اتفاقية المدفوعات (شيلوميم) التي تم ابرامها بين المانية الغربية واسرائيل في ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ على تعهد المانية بتقديم ما قيمته ٣٤٤٥ بليون مارك الى حكومة دولة اسرائيل خلال فترة تتراوح بين ١٢ عاما و١٤ عاما . وكانت المفاوضات التي ادت الى هذه الاتفاقية قد انطلقت بحيث طالبت اسرائيل بمدفوعات اعتبرت رسميا على أنها تعويضات من جانب المانية لاسرائيل لتغطية تكاليف استيعاب اعداد المهاجرين اليهود (نصف مليون ؟) الذين جيء بهم من البلدان الاوروبية الى فلسطين خلال فترة الحرب العالمية الثانية وما بعد ذلك حتى عام ١٩٥٢ . لكن الشكل الرسمي هذا لتبرير هذه المدفوعاتلا يؤخذ جديا في اوساط الرأي العام ، فثمة اليوم (في اوساط الصهيونية عادة) ممن يعتبرون المدفوعات على انها بمثابة تعويضات تتم عن « تكفير ذنب » عن المآثم والجرائم التي ارتكبتها النازية باسم الشعب الالماني خلال الحرب ضد اليهود ، وثمة (في اوساط التقدميين العرب عادة) ممن يعتبرون انها مساعدات امبريالية تقدمت بها الولايات المتحدة الاميركية عن طريق المانيه كطرف ثالث لانتشال اسرائيل من الازمة الاقتصادية التي كانت تواجهها من حيث عجز ميزانها التجاري . والمؤلف بالابكين ينطلق من منطلق صهيوني اعتذاري فيأخذ بوجهة النظر الاولى ، لكن كتابه الذي يشكل دراسة اكاديمية شاملة ومدعمة بالوثائق والارقام يحتوي على الكثير من الادلة التي تشير الى صدق وجهة النظر الثانية .

ليس للفصلين الاولين علاقة مباشرة بموضوع المدفوعات اذ انهما عالجا بمعظمهما اوضاع المانيه خلال فترة ما بين الحربين فأظهرا اطلاع المؤلف على تطورات الوضع الاقتصادي الالماني خلال القرن الحالي دون ان يظهرا اي علاقة واضحة فيما بين هذه المسألة ومسألة المدفوعات . وعلى ذلك ، فلم يدخل المؤلف في معالجة الامور المتعلقة بموضوع المدفوعات الالمانية لاسرائيل حتى الفصل الثالث حيث عولجت الاوضاع الاقتصادية في المانيه الغربية في الفترة السابقة مباشرة لبدء المدفوعات — في الواقع فترة ما بين نهاية الحرب (١٩٤٥) حتى عقد اتفاقية المدفوعات (١٩٥٢).

ويبدو من عرض المؤلف المفصل لهذا الموضوع ان المانيه الغربية (او بالاحرى المناطق تحت الادارة الاميركية والبريطانية والفرنسية من المانيه) مرت بطورين اساسيين ومختلفين خلال هذه الفترة . الطور الاول ، ١٩٤٥ — ١٩٤٨ ، بدأ في ظروف الحوار الذي خلفته الحرب بما في ذلك من نقص في توفر المساكن والمواد الغذائية وسلع الضرورات اليومية وارتفاع مستوى البطالة وخاصة في اوساط اللاجئين المتضررين من جراء الحرب . وشهد هذا الطور السياسة التي اتبعتها ادارات الحلفاء التي سعت الى اقتلاع الصناعات الثقيلة مما ادى الى انخفاض في القيمة الاجمالية للرأسمال الصناعي ، وواجهت البلاد ازمة اقتصادية ومعيشية حادة وخاصة في منطقة وادي الروهر الصناعية والمناطق التي تشكلت فيها مراكز تجمع اللاجئين . وانتهى هذا الطور في منتصف عام ١٩٤٨ ضمن ظروف الازمة الاقتصادية التي نشبت في كل من ايطاليه وفرنسه ونشأت عنها تحركات سياسية ادت الى مخاوف اميركية من الا تنتشر الشيوعية في غربي اوروبه وفي منطقة الروهر بشكل خاص حيث مركز الثقل الصناعي لاوروبه الغربية ، الامر الذي حدا بالولايات المتحدة الى اقامة برنامج مارشال لتقديم المساعدات المالية لبلدان غربي اوروبه لتنشيط اقتصادها . وهكذا شهد الطور الثاني ، ١٩٤٨ — ١٩٥٢ ، انطلاقة واسعة في الاقتصاد الالماني ، وتم دمج القطاعات الاميركية والبريطانية والفرنسية ، وتمت ازالة القيود تدريجيا عن معظم الصناعات الثقيلة ، وحظيت المانيه الغربية بحصة وافرة من أموال برنامج مارشال بحيث انها تسلمت ما لا يقل عن ١٤٥ بليون دولار (٥٤٨ بليون مارك آنذاك) في الفترة التي سبقت توقيع اتفاقية المدفوعات عام ١٩٥٢ . وقد ادى هذا الوضع الى خلق جو من الثقة والازدهار المطردين في الاقتصاد الالماني ، فنشط الانتاج الصناعي وارتفع حجم الصادرات وتراكم لدى المانيه الغربية مبلغ ١٦٠ مليون دولار من الفائض في ميزان المدفوعات عام ١٩٥١ ومبلغ ٥٨٠ مليون دولار عام ١٩٥٢ .

بعد معالجة ضبابية الطابع لاراء فئات الصهيونيين

والاسرائيليين حول الابعاد الاخلاقية لمطالبة اسرائيل بتعويضات من المانيه (في الفصل الرابع) عاد المؤلف الى صلب الموضوع في الفصل الخامس حيث عالج اوضاع اسرائيل الاقتصادية قبيل بدء المدفوعات واظهر مدى تفاقم الازمة التي كانت تمر بها البلاد خلال الفترة ١٩٤٩ — ١٩٥١. فالسنوات الثلاث الاولى من حياة الدولة الاسرائيلية شهدت موجة من الهجرة جاءت بما لا يقل عن ٧٠٠ الف مهاجر نصفهم جاء من بلدان اوروبه الشرقية والنصف الاخر من بلدان الشرق الاوسط وشمالي افريقيه . ورغم ان حجم هذه الهجرة لم يتعد عدد السكان العرب الذين تم اجلاؤهم (أو ذهابهم ، بتعبير المؤلف البريء) عن البلاد قبل ذلك الحين ، فان الاقتصاد الاسرائيلي بامكاناته المحلية لم يستطع (لاسباب آثر المؤلف الا يشيرها بالتحديد) ان يستوعبهم فانتشرت البطالة في اوساطهم ولم يستطع الاقتصاد ان يفي الطلب الاجمالي على المواد والسلع الاستهلاكية ، بما في ذلك المواد الغذائية والمساكن والمواد الخام ، مما ادى الى تضخم في حجم المستوردات فاق بكثير قيمة الموارد المالية من الصادرات والمعونات والتبرعات من الخارج . واعتمدت الحكومة آنذاك سياسة تقشفية (استعرضها المؤلف بالتفصيل) سعت للحفاظ على العملة بتخفيض مستوى استهلاك السلع المستوردة ومن خلال مراقبة الاسعار والاجور والايجارات والتبادل الخارجي وتحديد مخصصات السلع والمواد الخام . ولكن نظرا لتفشي السوق السوداء وقيام السبل الملتوية لتخطي القيود الاقتصادية المفروضة ، فان هذه السياسة لم تفعل فعلها ، فتفاقم العجز في الميزان التجاري وارتفع من ٢٢٠ مليون دولار عام ١٩٤٩ الى ٢٨٢ مليونا عام ١٩٥٠ وبلغ مبلغ ٣٩٥ مليون دولار عام ١٩٥١ . واعتمدت القروض ، طويلة الامد وقصيرة الامد منها ، لتغطية العجز ، الامر الذي ادى الى وقوع الدولة تحت ديون بالغة ، وانخفض الاحتياطي من العملات الصعبة بحيث بات يقارب الصفر عام ١٩٥٢ ، واصبحت الحكومة تواجه صعوبات في تغطية تكاليف المستوردات الاساسية اذ ان الاحتياطي لم يعد يكفي لتحويل سوى حاجات نصف شهر من الحاجات المستوردة الاساسية للبلاد ، فباتت اسرائيل تعيش من « الباخرة للفم » على حد تعبير المؤلف .

في هذه الظروف (ظروف الازدهار وتوفر الفائض في ميزان المدفوعات في المانيه الغربية يقابلها ظروف الازمة وتفاقم العجز في الميزان التجاري الاسرائيلي) جاءت اتفاقية المدفوعات بمثابة « معجزة ثانية » بعد « معجزة اقامة دولة اسرائيل » ، على حد قول بن غوريون آنذاك (اورده المؤلف ص ١٣٩). والجولة الاولى من المفاوضات التي ادت الى هذه الاتفاقية عقدت في شهر اذار — مارس ، في الوقت الذي كانت تجري المفاوضات الالمانية الغربية مع الدول الغربية في « مؤتمر الديون في لندن » الذي كان متوقعا منه ان يسوي ديون المانية العائدة لفترة ما قبل الحرب (ص ١٢٦) وان « يعيد الثقة الى وضع بون المالي » (ص ٤٥) . وقد اورد المؤلف تأكيدات مسؤولي المانية الغربية خطابيا وكتابيا حول الارتباط بين المفاوضات مع اسرائيل والمفاوضات مع مؤتمر الديون . ويبدو من ذلك ان مسؤولي المانية الغربية كانوا يأملون ان يؤدي تعهدهم بتقديم مدفوعات كبيرة على شكل بضائع المانية لاسرائيل الى تخفيض مماثل في المبالغ المطلوبة من الديون وفق التسوية المالية المرتقبة في مؤتمر لندن . ورغم ان المؤلف يفضل الا يأخذ بهذا الاستنتاج على شكله الواضح ، هذا ، الا انه اخبرنا ان ممثلي المانية الغربية رفضوا ان يتقدموا باي عروض رسمية ومحددة رغم اصرار ممثلي اسرائيل طوال الجولة الاولى من المفاوضات ، هذه الجولة التي سرعان ما انتهت عندما تقرر تأجيل مؤتمر لندن في نيسان ابريل . ولم تستأنف المفاوضات بشكل جدي الا بعد انتهاء التسوية في لندن ، فوافقت المانية على تقديم ٣٤٤٥ بليون مارك بحيث يتشكل ثلثاها من البضائع الالمانية التي تنقل الى اسرائيل والثلث الاخر من العملة الصعبة التي تدفع مقابل مشتريات اسرائيل من النفط من شركة شل البريطانية ، وبحيث يتم ذلك في دفعات سنوية خلال اربعة عشر عاما .

وصف المؤلف توقيع الاتفاقية وردود الفعل عليها كما اورد بنودها الاساسية في الفصل السابع . وانتقل المؤلف في الفصل الثامن الى معالجة سبل تنفيذ الاتفاقية من الجانب الالماني وتطرق الى التفاصيل المختلفة للترتيبات اللازمة والتعديلات التي طرأت على ذلك خلال فترة تنفيذ الاتفاقية الذي تم فعليا بمعظمه عام ١٩٦٣ ورسميا عام ١٩٦٥ . وفي الفصل التاسع عالج المؤلف اثر المدفوعات على المانية الغربية ، فاظهر ان الاثر

الاكبر في الميدان الاقتصادي انطبق على صناعة السفن اذ ان اسرائيل انفقت ربع قيمة المدفوعات المخصصة للبضائع على استيراد السفن . وقد كان لذلك اثر ايجابي من حيث المساهمة في تنشيط هذا القطاع الهام من الاقتصاد الالماني اذ ان معظم الطلبات للسفن جاءت خلال السنوات الاولى من تنفيذ الاتفاقية حين كانت احواض بناء السفن الالمانية عاطلة عن العمل نسبيا (حوالي ٢٥ ٪ من قدرتها كان عاطلا عام ١٩٥٣) وحين كان انتاجها غير قادر على التنافس من حيث الاسعار مع انتاج الاحواض البريطانية .

اما في الجانب الاسرائيلي فان اثر استيراد السفن على الاقتصاد لم يكن ايجابيا بالقدر الذي كان يؤمل له . فان شركة شيلوميم (شركة المدفوعات الحكومية) التي اقيمت لطلب البضائع واستلامها وتصريفها في اسرائيل بدأت (تحت رئاسة هيلل دان الذي كان رئيس شركة سوليل بونيه الهستدروتية في الوقت نفسه) بطلب اعداد السفن بالتتالي بشكل غير مدروس ، في معظم الاحيان لصالح شركة تسيم الملاحية التي يملك الهستدروت نصف اسهمها . وقد حصلت اسرائيل على ٤٩ باخرة مختلفة (للشحن والنقل والركاب) نتيجة لرغبة المسؤولين في تحقيق تنفيذ الاتفاقية باقرب وقت ممكن وبسبب عدم وجود سياسة استثمارية معتمدة ومناسبة . ولذلك فان السفن التي امتصت حوالي ٢٥ ٪ من قيمة البضائع الالمانية ، لم تسهم باي شكل هام في تنمية الاقتصاد كما انها لم تسهم كثيرا في توسيع فرص العمالة اذ ان مجمل العاملين في السفن لم يشكلوا اكثر من ١ ٪ من القوة العاملة . وقد انطبق ذلك اكثر ما انطبق على بواخر الركاب الباهظة الاسعار بـ (اسرائيل ، صهيون ، هرتزل وجيروزالم) التي سرعان ما اضطرت الى العمل بخسارة فكانت بمثابة مجموعة من « الفيلة البيضاء العائمة ، انيقة وجميلة ، تكلف الخزينة الملايين من المخصصات سنويا ». هذا ما قاله المؤلف في الفصل الحادي عشر حيث عالج اثر المدفوعات على الاقتصاد الاسرائيلي . ولعل هذا الفصل اهم ما في الكتاب اذ يظهر مدى انتفاع اسرائيل من المدفوعات الالمانية . والمؤلف لم يعالج بالتفصيل اثر المدفوعات (وخاصة ثلثها — اكثر من بليون مارك — الذي ذهب لتمويل مشتريات البترول) في تخفيف حدة العجز في الميزان التجاري وفي الاحتياطي من العملات الصعبة ، ومن ثمة اثرها في انتشال اسرائيل من خطر الانهيار الاقتصادي الذي كان يتهددها عام ١٩٥٢ — ١٩٥٣ . الا انه نظر فيما اذا أسهمت المدفوعات في تدعيم البناء التحتي لاقتصاد البلاد ، وجاءت استنتاجاته في هذا المضمار ، رغم فشل السفن ، تقول ان الاثر لم يكن ايجابيا فحسب بل وباهرا . فالمدفوعات ساهمت (بمبلغ ١٤ مليون مارك) في تحديث ميناء حيفا وتجهيزه وترقيته من الدرجة الرابعة الى الثانية حسب المقاييس العالمية مما أدى الى تخفيض اجور الشحن وتوفير مبالغ ضخمة من العملات الصعبة . كما ان أجهزة توليد الكهرباء والاجهزة المرافقة والتي استحوذت على ١٠٪ من قيمة المدفوعات حققت ارتفاع القدرة الكهربائية من البلاد من ١٧٥ الف كيلواط عام ١٩٥٣ الى ٧٢٠ الف كيلواط عام ١٩٦٤ ، مما ساهم مساهمة فعالة في تنشيط الصناعة والقطاعات الاقتصادية الاخرى كافة . اما الاجهزة الالمانية التي جيء بها لتطوير شبكة الخطوط الحديدية والمركبات والقاطرات (بقيمة ٥٠ مليون مارك) ، فقد حققت ربط جنوب البلاد بشماليها ، مما ساهم في تطوير الجنوب ، وضاعفت حركة النقل الحديدي بحيث ازدادت قدرة الحمولة بنسبة ضعفي ما كانت عليه . كما ان جزءا لا يستهان به من قيمة المدفوعات (٢٥ مليون مارك) ذهب لاستيراد اجهزة التلفون والتلغراف والتلكس مما دعم هذا القطاع الحساس من المواصلات الداخلية والخارجية واخرج خدمة التلفون من الازمة التي كانت تواجهها عند بدء المدفوعات . وربما كان اهم ما ساهمت فيه المدفوعات هو تطوير استغلال الموارد الطبيعية . فقد انفق مبلغ ٣٠ مليون مارك لمد وتجهيز انابيب الري ، بما في ذلك مشروع الانابيب الضخمة (قطرها ٢،٢٥ مترا) التي امتدت لمسافة ١٣٠ كليو مترا من نهر يركون (العوجا) الى النقب . وتم انفاق ٤٢ مليون مارك من المدفوعات لاستغلال موارد النقب فذهب جزء صغير من المدفوعات (مليوني مارك) لتجهيز صناعة استخراج البوتاس في البحر الميت ، وجزء هام منها (١٥ مليون مارك) لتجهيز ميناء مصانع استخراج النحاس في «تيمناع» التي اصبحت من اهم المصالح التي تحصل العملة الصعبة في البلاد. أما مصانع استخراج الفوسفات في اورون فقد حصلت على أجهزة المانية مختلفة ، كما أن المصانع التي يتم فيها تكرير الفوسفات في حيفا حصلت

على اجهزة حساسة من المدفوعات . وقد حظيت صناعة الاقمشة على نسبة هامة من قيمةالمدفوعات (٥٦ مليون مارك) من البضاعة التي استعملت لتجهيز ١٦٦ مصنعا من المصانع التي كانت سابقا مجهزة باجهزة قديمة وغير صالحة . ويقول المؤلف ان المدفوعات ساهمت في زيادة انتاج صناعة الاقمشة بنسبة ثلاثة او اربعة اضعاف ما كانت عليه . وصناعة المواد الكيمائية استفادت بقيمة ٢٢ مليون مارك من الاجهزة التي وفرتهاالمدفوعات. أما صناعة المأكولات فقد حصلت على أجهزة بقيمة ٤٠ مليون مارك توزعت على ٩٣ مصنعا مختلفا بما في ذلك مصنعي السكر في العفولة وكيريات غات اللذين تم بناؤهما بفضل المدفوعات. وعلى ذلك ، فان المدفوعات حققت انجازات اقتصادية ضخمة بالنسبة لاسرائيل ، وقد شكلت قيمتها ٢٥ ٪ من ميزانية الانماء للعام المالي الحساس ١٩٥٣ — ١٩٥٤ و ٤٧ ٪ خلال العام المالي ١٩٥٤ — ١٩٥٥ الذي شهد بداية انحسار الازمة الاقتصادية في اسرائيل . وشكلت المدفوعات ٤٠ ٪ من الواردات المالية الى اسرائيل عام ١٩٥٥ ، و ٢٦ ٪ خلال الفترة ١٩٥٣ — ١٩٦٤ . وعلى ذلك فقد كانت المدفوعات طوال هذه الفترة موردا مؤكدا من العملات الصعبة والبضائع الاجنبية ، مما جعلها تشكل اساسا هاما من الاسس التي انطلق منها الاقتصاد الاسرائيلي . لو حاولنا تلخيص قصة المدفوعات التي قدمتها المانية الغربية الى دولة اسرائيل بالذات (هذا بغض النظر عن التعويضات التي قدمتها المانية الغربية للافراد من اليهود الاسرائيليين والتي لم تكن موضوع المعالجة في الدراسة التي نحن بصددها) ، لوجدنا انها تتألف من اربعة فصول اساسية . الفصل الاول شهد ازدهار الاقتصاد الالماني بفضل اموال برنامج مارشال (بقيمة ٥٫٨ بليون مارك) خلال الفترة ١٩٤٨ — ١٩٥١ التي انتهت بالمسعى لتحقيق استقلال اقتصادي لالمانية الغربية انعكس في عقد مؤتمر لندن حول الديون . الفصل الثاني شهد ازمة الاقتصاد الاسرائيلي التي تفاقمت خلال الفترة نفسها ووصلت الى اقصى خطورتها عام ١٩٥٢ . الفصل الثالث شهد المفاوضات التي عقدت خلال انعقاد مؤتمر لندن عام ١٩٥٢ والتي ادت الى اتفاقية المدفوعات من البضائع الالمانية والبترول لاسرائيل بقيمة ٣٫٤٥ بليون مارك . والفصل الرابع شهد خروج اسرائيل التدريجي من ازمتها الاقتصادية وخاصة خلال الاعوام الاولى (١٩٥٣ — ١٩٥٥) كما شهد بناء الاساس التحتي للاقتصاد الاسرائيلي خلال فترة المدفوعات (١٩٥٣ — ١٩٦٣) . وتسلسل هذه الفصول لا بد وان يشعر القارىء بترابطها بحيث تبدو المدفوعات على انها كانت بمثابة مساعدات خارجية مصدرها غير المباشر الموارد المالية الاميركية التي كانت تمول برنامج مارشال وتسيطر على ديون المانية الغربية . الا ان المؤلف يعتبرها « تعويضات » (على غرار التعويضات التي قدمت للافراد) ويقول عنها انها فريدة من نوعها في التاريخ لانها تناولت مدفوعات كل هذا الشكل من دولة الى دولة . ولكن لو اخذنا بالاساس الرسمي لاتفاقية المدفوعات ، اي باعتبارها تغطية لتكاليف استيعاب المهاجرين ، لوجدنا انها شبيهة الى حد ما باتفاقية هعافرا (نقل) التي كانت الوكالة اليهودية قد عقدتها مع السلطات النازية خلال الثلاثينات بحيث شجع تهجير اليهود (او بالاحرى ابعادهم وفق المخطط النازي) الى فلسطين مقابل نقل أموال المهاجرين على شكل بضائع المانية تستلمها وتصرفها شركة هعافرا التي اقيمت خصيصا لذلك في فلسطين . والسؤال الذي يطرحه الناقد العربي في هذا المضمار هو : اذا كانت المدفوعات ليست تعويضات بالمعنى الاعتيادي للكلمة ، وليست مساعدات مباشرة ، فهل هي استمرار لوضع موروث عن تلك الايام التي شهدت تلاحم المصالح بين النازية والصهيونية . واذا كان الامر كذلك ، فان المؤلف لم يحاول ان يعالج مغزى هذا الواقع، بل فعل كل ما بوسعه لتجنب اثارة مثل هذا السؤال .

أ. ن. سعد

رجاء النقاش ، **محمود درويش شاعر الارض المحتلة**
(المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢)

يطرح علينا كتاب رجاء النقاش ، « محمود درويش شاعر الارض المحتلة » ، العديد من الاسئلة المنهجية . فالكتاب هو محاولة نقدية لشعر محمود درويش ضمن رؤية فكرية محددة . هدفها الاساسي التعريف بالشاعر وعرض قصائده ونقدها ، ومن ثم وضعها في اطار الحركة الشعرية العربية المعاصرة . والكتاب في محاولته هذه يسقط في التقليدية النقدية التي تستخدم التصنيف التقليدي للشعر ، ولا تحاول ان تواكبه في المغامرة التي بدات الحركة الشعرية المعاصرة تشقها لنفسها منذ الخمسينات . فالشعر المعاصر بحاجة الى نقد جديد ، الى روحية جديدة ومنهجية تنبثق من قلب العملية الابداعية ولا تسقط عليها اسقاطا . لا سيما وان الحركة الشعرية المعاصرة، رغم انجازاتها الفنية ، لا تزال تشق طريقا مجهولا وجديدا . والكتاب هو دراسة لشاعر لا يزال في بدايات مغامراته الفنية. من هنا فان النقد يجب ان يتصف بالحركية التي تهدف الى كشف اتجاه تطور الشاعر وآفاقه من خلال قراءة شعره المنشور .

ان الذي يهمنا من كتاب رجاء النقاش امران اساسيان : ١ — نقاش منهجي هدفه المساهمة في البحث عن منهجية جديدة لدراسة الشعر المعاصر ، ٢ — دراسة اثر المنهج النقدي التقليدي في افراغ الشعر من طموحاته الثورية ، وتحويله الى جزء هامشي في حياتنا الفكرية .

من هنا ، فاننا سوف نبدي سبع ملاحظات تتمحور بالدرجة الاولى حسول منهجية الكتاب ورؤيته النقدية .

أ — ما هي العلاقة بين النقد الادبي والريبورتاج الصحفي ؟ الحقيقة ان الكتاب لا يعطي جوابا على هذا السؤال ، فهو في مجمله مزيج من الامرين معا . انه يريد التعريف بالشاعر وينظر الى شعره نظرة الصحفي الذي يتوجه الى قراء من مختلف الاهتمامات . لذلك فهو يريد جذب انتباه الجميع . ومن ناحية اخرى فالكتاب هو في الحقيقة سلسلة مقالات لا تربطها ببعضها وحدة السياق او وحدة الرؤية . اي ان الكتاب ليس بناء منهجيا يضيء الجوانب الغامضة من شعر درويش ، ثم يقوم بعملية نقدها ووضعها في اطاراتها التاريخية والفنية . بل هدف الكاتب يقترب من هدف الصحفي الذي يقول اشياء كثيرة دون ان يصنفها او يكتشف علاقاتها الخفية . هكذا تضيع الحدود بين نوعين مختلفين من الكتابة . فنحن امام ريبورتاج صحفي عنده طموح النقد الادبي . والناقد لا يشرح لنا منهجيته ، هل هي منهجية تاريخية اجتماعية ، او انه يقرأ النص قراءة جديدة ليكتشف ابعاده من خلال اللغة الشعرية وحدها . وعدم تحديد المنهجية ينعكس على سياق التحليل ، الذي يفقد تماسكه من البداية ، ليصبح رصفا لمعلومات كثيرة بحاجة الى التبويب ، وليصبح رصدا خارجيا لواقع تاريخي ، دون الدخول الى معاناة علاقاته الداخلية . فالمدرسة النقدية الاجتماعية لا تكتفي بعرض الواقع الاجتماعي الذي نبت فيه الشعر كما يفعل رجاء النقاش في القسم الاول من كتابه، بل تغوص في تحليل البنية الاجتماعية وعلاقاتها بسائر البنى الايديولوجية والاقتصادية والسياسية، لتصل الى نتائج نهائية او شبه نهائية في تفسير ظاهرة فنية محددة . هكذا يبقى من كتاب النقاش الجانب التقريري الذي يعرفنا بمحمود درويش الانسان . والحقيقة ان هذا الجانب لا يضيف اشياء جديدة الى معرفتنا بالشاعر التي يمكن ان نستقيها من كتابه « شيء عن الوطن » او من العدد الخاص الذي اصدرته مجلة « الطريق » اللبنانية عن أدب الارض المحتلة . ان النقطة الخطيرة التي يشير اليها هذا الكتاب هي الفراغ النقدي الكبير الذي يصاحب العملية الابداعية في بلادنا . حيث يكتفي اغلب النقد ، بالوقوف من الخارج امام الاعمال الادبية ويكتفي بتسجيل واقعها دون المساهمة في الكشف عن بنيتها الداخلية واستشراف آفاقها .

ب — ينقسم الكتاب الى تسعة عشر فصلا . الفصول السبعة الاولى هي بمثابة مقدمات يعرض فيها المؤلف لواقع العرب في اسرائيل ، ثم ينتقل ليستعرض تطور الشعر الفلسطيني من ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وابي سلمى مرورا ببوسف الخطيب وفدوى طوقان حتى يصل الى درويش والقاسم وزياد . وهذا القسم هو معالجة سريعة للحركة الشعرية الفلسطينية يغلب عليها

الطابع التعريفي . ثم ينتقل الناقد الى صلب الموضوع فيبدأ باعطائنا ملامح شخصية لمحمود درويش ثم ينتقل الى ملامحه الفنية فيعرض لتطور الشاعر من التأثر بنزار قباني في ديوانه الاول — عصافير بلا اجنحة — الى مرحلته الرومانسية في ديوانه — اوراق الزيتون — ثم الى التأثر بالحركة الشعرية الجديدة في دواوينه الاخيرة الثلاثة — عاشق من فلسطين ، اخر الليل والعصافير تموت في الجليل — . ويفرد فصلا خاصا لمناقشة ديوان — العصافير تموت في الجليل — حيث يكتشف فيه بعدا صوفيا لشعر درويش . ولا نعلم — والطبعة الثالثة ظهرت في تشرين الثاني ١٩٧٢ لماذا لم يكتب الاستاذ نقاش فصلا جديدا لمناقشة ديوان — أحبك أو لا أحبك — ثم ينتقل الكتاب الى التقسيم الكلاسيكي فهناك فصل اسمه — مع الطبيعة — ثم فصل عن — الحب والمرأة — ثم فصل عن — مفهوم الصليب ثم فصل عن — الدين والثورة — لينتهي في الفصول الاخيرة الى نقد بعض الظواهر في شعر درويش وابراز تأثره ببعض الشعراء العرب المعاصرين السياب وعبد الصبور ، ثم ينتقل للدفاع عن الشاعر ورد تهمة الشيوعية عنه !

ان نقدنا الرئيسي هو على هذا الهيكل النقدي بأسره . فالتعامل مع الشعر يجب ان ينطلق في رأينا من نقطتين : **الاولى** هي دراسته كظاهرة ادبية مستقلة ، بمعنى عزل البنية الفنية ودراستها من الداخل واكتشاف علاقاتها **والثانية** هي ربط هذه البنية ببقية البنى لنرى قدرة الادب على التعبير عن واقع حضاري واجتماعي بشكل ديناميكي ، اي التعبير عن صيرورة هذا الواقع وليس عن جوانبه الجامدة .

من هنا فنحن لا نوافق على التقسيم الذي خرج به الكاتب . فشعر درويش ليس شعرا تقليديا ، الشاعر يصبح نقطة التقاطع بين مختلف العوامل الفاعلة في واقع شعبه . فالطبيعة والمرأة والاطفال والصليب ، تصبح كلها وحدة عضوية ، يحاول الشاعر ان يجسدها في موقف شامل هو القصيدة . فالتقسيم القديم « شعر الغزل » او « شعر الحماسة » لم يعد الان واردا في شعرنا العربي المعاصر ، لان الحياة العربية تنتقل هي الاخرى الى عصر جديد . الحقيقة ان الكاتب نفسه لم يكن مقتنعا بهذا التقسيم ، لانه في القسم الذي يتحدث عن — الحب والمرأة — مثلا نراه يمزج الارض بالمرأة والقمر بالواقع الاجتماعي . اي ان التقسيم لا ينطبق على شعر محمود درويش كما ان الناقد لم يستطع ان يقيم هذا الفصل بين مختلف الموضوعات التي عالجها الشاعر . ربما كانت السهولة هي وراء دافع الكاتب الى هذا ، لكن رغم كل شيء فانها تعبر في رأينا عن عدم قدرة الناقد على مواكبة الواقع ، اي عدم قدرته على صياغة اشكال نقدية تواكب الاشكال الفنية الجديدة .

ج — ان هذا التقسيم الكلاسيكي ، انعكس على دراسة القصيدة . فالقصيدة الشعرية هي عالم متكامل ، يدرس من الداخل ، حتى نستطيع ان نكتشف فيه القيم الجمالية الجديدة . فالعلاقات المركبة داخل القصيدة العربية المعاصرة هي تعبير عن قدرة الشاعر العربي اليوم على الاحاطة بالواقع الشامل لمختلف جوانب الحياة العربية . واذا كان هذا التحديد لا ينطبق على شعر محمود درويش الا في قصائده الاخيرة ابتداء من ديوان — العصافير تموت في الجليل — ، فان دراسة شعره هي بالضبط في سبيل القدرة على استقراء مراحل التطور التي اوصلت الشاعر الى التعبير عن هذا الواقع المركب . لكن الناقد لا يصل الى هنا . انه يكتفي بأن يسجل لنا آراء ومواقف محمود درويش من خلال فهمه لثقافته الفنية . والحقيقة ان الجانب الخلفي الذي استند الناقد اليه — تكون ثقافة درويش الشعرية — يبقى رغم نقصانه الفادح حيث يهمل اثر الادب العالمي لا سيما ادب لوركا في الشاعر — ارضية صالحة تسمح لنا بتتبع تطور الشاعر واثر المدرسة الواقعية في الشعر العربي والعالمي على تطور شعره ووصوله الى مرحلة القصيدة — الرؤيا . لكن الناقد يقفز عن مقدمته نفسها ليعود سالما الى القواعد القديمة ولينسج بحثا سريعا يهمل ظاهرة القصيدة ويلتفت الى جزئيات الواقع الاجتماعي . اي ان التركيب المعقد للظاهرة الفنية في الارض المحتلة بعيد عن هموم الناقد . انه لا يزال في مواقع الدهشة التي صاحبت الجميع بعد الهزيمة من وجود حركة رفض عربي للقمع الاسرائيلي داخل اسرائيل نفسها . هذه الدهشة التي نبه محمود درويش الى خطرها ، تنعكس في الكتاب في فصل « بدلا من الحسب القاسي » حيث تصبح نقدا هامشيا لشعر درويش عبر كشف مناطق تأثره بالسياب وعبد الصبور

بشكل خارجي ، دون الدخول الى عملية اعادة تقييم لشعر درويش والنظر اليه من خلال التطور نحو القصيدة — الرؤيا ، التي هي نسيج واقعي يعيد تركيب الواقع بجزئياته عبر طموح الشاعر العربي المعاصر الى تحويل الشعر من مجرد صوت يصف الحدث ، الى صوت فاعل داخل حركة المسار التاريخي للحركة الثورية العربية .

د — اين يقع الشعر الفلسطيني ضمن الحركة الشعرية العربية المعاصرة ؟ واذا كان محمود درويش هو احد ابرز ممثلي هذا الشعر فاين موقعه الفني ؟ على هذا السؤال لا يجيب الناقد الا في الفصل الاخير من كتابه — ماذا نتعلم منه ومن رفاقه — فاذا به يكتشف ضرورة تعلم الصمود وروح التفاؤل . وليدلل على قوله وعلى الاثر الذي احدثه شعراء الارض المحتلة فانه يستشهد بالتطور الذي حصل في شعر فدوى طوقان وابو سلمى ونزار قباني . فطوقان تتخلى عن رومانسيتها وابو سلمى يتخلى عن حزنه وقباني يوقظه صوت الهزيمة من احلامه الناعمةوالهادئة. واذا بشعر الارض المحتلة يعيد «الامل الى النفس العربية ... وانتقل بالشعر والشعراء الى عالم جديد وموقف جديد من الحياة ، ليس فيه يأس ولا بكاء بل فيه امل وتفاؤل ونظرة الى الامام » . بهذا يعطي رجاء النقاش بديلا عن الحب القاسي حبا اقسى واشد مرارة . فالشعر الفلسطيني في الارض المحتلة لعب دورا كبيرا في حياتنا الثقافية والنضالية ، لا سيما في فترة صعود المقاومة ، فكان ان واكبها وغنى جراحاتها انطلاقا من مواقعه النضالية الخاصة . لكن هذا الشعر لم يستطع ان يتطور كي يصل الى مستوى القدرة على الرؤية التاريخية حتى الان . اي انه في مستوى رد الفعل على القمع والسحق وليس في مستوى الفعل التاريخي الثوري . اما الاثر الايجابي على فدوى طوقان او نزار قباني فانه ليس بالمستوى الذي يكلمنا الناقد عنه . ففدوى طوقان لا تزال اسيرة لرومانسيتها وان جرت الكثير من التطورات في شعرها ونزار قباني عاد الى سيرته القديمة شاعرا للبرجوازية المرفهة .

ان شعر الارض المحتلة شكل رديفا للحركة الشعرية العربية المعاصرة ، بأن استطاع ان يضيف اليها بعد التعلق الشديد بالارض والنسج حولها نسجا رومانسيا ومن ثم واقعيا حاد النبرات عميق القسمات . لكن الشعر العربي بأسره وشعر درويش من ضمنه لا يزال ضمن عملية البحث عن القدرة على التعبير الفني عن جراحات الانسان العربي . هذا البحث وان كان خافتا في الارض المحتلة ، فانه خارجها يأخذ كل زخمه حيث يجد الادب نفسه مواجها بالهزيمة ومواجها بالبحث عن رده عليها ضمن حركة البحث الشاملة والنضالات التي تجري على الارض العربية .

هـ — ان هذا البحث الذي يجري على المستوى الشعري يطرح قضية علاقة الشعر بالمعركة . ما هو الشعر الثوري وما هو الشعر المقاوم ؟ الكتاب لا يجيب على هذا السؤال بل يأخذ ظاهر شعر محمود درويش الذي يدعو الى المقاومة والى التمسك بالارض ، دون ان يربطه بالثورة على مستوى الشكل الشعري والايقاع الموسيقي في القصيدة . من هنا يبدو ان السؤال حول ثورية شعر محمود درويش يبقى معلقا دون الاجابة . والواقع ان هذه القضية النظرية هي القضية المركزية لاي بحث في الشعر الفلسطيني المعاصر. فهذا الشعر هو وليد بيئة تتفجر بالانتفاضات الثورية . من هنا فمعالجة قدرة هذا الادب على الوصول الى افق الادب الثوري — بمعنى قدرته على ان يجمع في ذاته الافق الثوري وقضايا الطبقات الثورية مبلورا اياهما في نسيج فني جديد يتصدى للذوق السائد الذي يشرطه فكر الطبقات السائدة . فهو يتعامل مع التراث بشكل جديد . استيعاب وتجاوز — ثم يخط لنفسه طريقا جديدا في المخاطبة والحرية .

لكن كتاب رجاء النقاش يقف عند حدود مرسومة سلفا . هذه الحدود هي حدود النشوة التي تحدثها غينا قصائد درويش وقدرتها على تعبئتنا في سبيل المعركة . هذه النشوة بدأنا نفتقدها مع المحاولات الشعرية الجديدة للشاعر التي يريد بها القدرة على التعبير عن موقف شامل . القدرة على الصياغة الواقعية التي تجاور الحلم . حيث يصبح للاشياء منطقها الجديد . المنطق الثوري الخاص بها ، حيث التداعي يأخذ مداه والحلم يصير لباس الشاعر والموسقة تتخذ لها طريقا جديدا . فمرة يموسق النثر ومرة يجعل الموسيقى الداخلية التي تنفجر من العلاقة النغمية التي للحروف بعضها بالبعض الاخر مادة لموسيقاه . هكذا يكون الاطار الذي رسمه الناقد ليس هو اطار الشاعر وهنا تحدث اهم مفارقات الكتاب . انه كتاب مرحلة تنتهي . فالمرحلة الجديدة لا يصفها

الشعر الجامد ولا النقد التقليدي . انهـا مرحلة التجربة الى اقصى الحـدود في زمان الانهيارات والولادات العظيمة .

و — حين يطرح رجاء النقاش رأيه في قومية شعر درويش ، وفي أن هـذا الشعـر ليس شعـرا بروليتاريا فانه يستشهد برأي للشاعر الفلسطيني توفيق زياد « الذي يطلب من درويش التأكيد على المحتوى وعلى تعميـق العناصر البروليتارية في شعره » ليخلص الى ان شعر درويش يدور في فلك آخر « فلك التمسك بالارض والانتماء العربي» ومحمود درويش « اقـرب في نظـر الكاتب الى القوميين منه الى الشيوعيين » والحقيقة اننا لم نكن نريد الاشارة الى هذه القضية لولا المنطلق الايديولوجي الذي تستند اليه ولولا انها تعبر عن الشكل الذي تحـاول فيه الايديولوجيـة العربية السائدة امتصاص الاعمال الابداعية وتحويلها الى هامش راكد .

فنحن لا يهمنا كثيرا اذا كان درويش عضـوا في الحزب الشيوعي الاسرائيلي او لم يكن. الذي يهمنا هو الموقع الذي نظر منه الى الصراع . والواقع ان الشعراء في الارض المحتلـة كانوا في اندفاعهم نحو تأكيـد الانتماء القومـي للشعب الفلسطيني يؤكدون على النواحي القومية ويبدون تعاطفا واضحا مع الانظمـة العربية التي كانت تخوض المعارك ضد الاستعمار. ولان شعرهم كان خطابيا وتحريضيا في سمته الغالبة فانهم لم يرفعوا راية النقد للواقع العربي كما انهم لم يستطيعوا ولنفس السبب ان يبلـوروا من خـلال افقهم الاشتراكي الثوري تجربة تشكيلية جديدة وهذا ما سمح للانظمة العربية ولمنظريها بمحاولة استيعاب اشعارهم . لكن الافق الذي يظهر بعد مذبحة ايلول هو افق مختلف . فالمرحلة الرومانسية في الحركة الثورية الفلسطينية تعمدت بالدم وتصلبت اظافرها الادبية فاذا بها تتمايز عن الواقع العربي الراكد وتشارك في عملية الهدم والنقد كما يظهر من قصائد درويش الاخيرة .

ان الايديولوجيا السائدة تملك الكثـير من خطوط الدفاع . وهي تلتف حول التحرك الثوري محاولة استيعابه وتجييره لخدمتهـا . وهذا بالضبـط هو ما يجـري للشعر الفلسطينـي القادم مـن اسرائيـل . اما محاولـة رجاء النقاش اقامـة التعارض بين الانتماء الماركسي والانتماء القومـي فان الف باء الماركسية يدلنا على عكس تصور الناقد عدا ان هذا ليس مجال بحثنا الان .

ز — ان الشعر العربي ، شأنه شأن جميع مظاهر حياتنا الفكريةالعربية يمر فيأزمة النمو والصيرورة. فاذا لم يستطع الوعي الثوري العربي ان ينغرس عميقا في حركة الجماهير الواقعية ويقود هـذه الحركة فعبثا نبحث عن فن ثوري . واذا كانـت المغامرة اللغوية والتشكيلية في قصائد ادونيـس ودرويش والبياتي وغيرهم لم تستطع ان تصبـح جزءا من حركة واقعية شاملة ، فانها سوف تختنق في ركام طبول الخمول الذي يجرنا الى الموت في عربات الفكر التقليدي الجامد والممارسةالسياسية الرجعية المسيطرة . واذا كان الشعر الفلسطيني قد شكل علامة مضيئة في حركتنا الشعرية المعاصرة فلانه بالضبط استطاع ان يبلور العديد من منجزات الحركة الشعرية المعاصرة حول الارض من مواقع الجماهير المناضلة . من هنا يصبح دور النقـد شديد الخطر وتصبح مسؤوليتـه اعظم . انهـا مسؤولية الوعي للاخطار التي تواجه والقدرة على الالتحام بالواقع وتجاوزه في سبيل ان تشق المسيرة الثورية لنفسها طريقا .

الياس خوري

كميل منصور ، أوري أفنيري أو الصهيونيـــة المستحدثة
(مركز الابحاث في م. ت. ف. ، بيروت ١٩٧١)

اذا كان الرهان على تحـرير فلسطين بانتظار تفاعلات القوى الاجتماعية داخل اسرائيل هـو رهان خاسر سلفا ، وساذج ، بل ومشبوه في بعض الاحيان ، فان ذلك لا يبرر اي تقاعس في دراسة التفاعلات الاجتماعية والسياسية داخـل اسرائيل لا لنعتمد عليها كما نعتمد على القدر ، بل لنكون — ونحن نلاحق تطوراتها — قادرين على رسم خريطة دقيقة للعدو الذي نواجهه ، بنقاط قوته ونقاط ضعفه . غير ان من اشد نواحي هذا الاتجاه حساسية ، دراسة الفئات السياسية المعارضة في اسرائيل ، لان هذه الدراسة تحتاج الى مواصفات دقيقة في أسلوب تناولها ، حتى لا تكون تصويرا مبالغا في التفاؤل : أما في قياس نسبة ابتعـاد القوة المعارضة عـن المؤسسة الصهيونية ، او في قياس نسبة اقتراب هذه القوة من اهداف النضال العربي، وهدف تحرير فلسطين بالذات .

ودراسة كميل منصور لحـركة « هعولام هزه » ولافكار مؤسسها وزعيمها اوري افنيري ، هي من الدراسات التي توفرت لهـا نسبة عالية مـن المواصفات الدقيقة التي اشرنا اليها ، لان كاتب الدراسة تجنب الاوهام التفاؤلية قدر تجنبه الاحكام السطحية المبنية على المعلومـات السريعة او المبتورة او المقطوعة عن اصولها .

واهمية هذه الدراسة لا تقتصر فقـط على القاء الضوء الكاشف واعطاء المعلومات الدقيقة والصورة الشاملة لاحـدى حركات المعارضـة المهمـة في اسرائيل ، والمشهورة في خارج اسرائيل ، بل تتجاوز ذلك الى كونها دراسة نموذجية تفتـح العيون العربية على المزالق التي يجب تجنبها عند دراسة اية ظاهرة معارضة في اسرائيل ، لانهـا تظهر لنا انه حتى لو ذهبت الحركة المعارضة في اسرائيل الى حد رفع شعار العداء للصهيونية ، فان ذلك لا يكفي لتصنيف هذه الحركة نهائيا في صف العداء للصهيونية ، بل علينا ملاحقة المواقف الاساسية لهذه الحركة في الاحداث المصيريـة ولحظات الانعطاف ، حتى نحدد بدقة مدى علاقتها بالصهيونية .

ان منهج ملاحقة رافـع الشعارات في مواقفـه التفصيلية قد اثبت فعالية كبرى في كتاب كميـل منصور لدرجة ان ملاحقة مواقف اوري افنيري ، رافع شعار العداء للصهيونية ، قد انتهت بكاتب الدراسة الى رسـم خريطـة دقيقـة للمواقف السياسية لافنيري لم يستطع ان يضع لها عنوانا غير « الصهيونية المستحدثة » .

واوري افنيري هو احد المساهمين في الكتابة لعدد مجلة الازمنة الحديثـة الشهير حول القضيـة الفلسطينية (حزيران ١٩٦٧) ، والذي ضم قسما عربيا وقسما اسرائيليـا . وقد اعتبر انصـار اسرائيل في غرنسما مقال افنيري في ذلك العدد من احسن المقالات التي تظهر ان الافكار المعقولة في الجانب الاسرائيلي اكثر مما تصـور الدعايـة العربية ... واعتبروا افنيري من الدعاة الاذكياء والمعقولين لاسرائيل . فاذا اضفنا الى هذا ما يذهب اليه بعض العرب من أن افنيري هو قوة مناصرة للعرب داخل اسرائيل (كما اشار المؤلف في احدى صفحات كتابه — صفحة ١٦٧) فان ذلك يضيف الى ما اسلفنا من اهمية هذا الكتاب ، اهمية اخرى .

ومع ان الكاتب قد اصدر حكمه السياسي على اوري افنيري وحركة هعولام هزه في عنوان الكتاب (الصهيونية المستحدثة) فان الكتاب الذي يحتوي سبعة فصول ، يعطي افنيري كل حقه في عرض وجهات نظره ، برحابة صدر قد لا يتمتع بهـا اعداء افنيري السياسيون داخل اسرائيل فيما لو ارادوا كتابة بحث عنه وعـن افكاره . ولا يسمح الكاتب لنفسه باصدار اي حكم على اي شعار يطلقه افنيري ، الا بعـد ان يقارن هذا الشعار بممارسات افنيري ازاء هذا الشعار على صعيد الواقع ... ومع ان افنيري كان عضوا في عصابة ارجون الارهابية قبيل انشاء اسرائيل ، فان المؤلف يتجاوز هذه النقطة ايضا ، ولا يحاسب افنيري الا على مواقفه بعد انشاء اسرائيل ، ومنذ ان رفع لواء معارضة الصهيونية ، والدعـوة « لاسرائيل غير صهيونية ، تكون جزءا طبيعيا من المنطقة » .

في الفصل الاول ، يعرض المؤلف لنبذة من حياة افنيري ، نضع يدنا فيه علـى جذور افكـاره

واتجاهاته ، حيث يتبين ان اوري المهاجر مع ابيه من المانيا (وهو في العاشرة من عمره) قد شعر منذ صغره بالامتنان للصهيونية لان دعوتها يهود المانيا بالهجرة قبل تفاقم موجة الاضطهاد النازي لليهود قد انقذت اسرة افنيري . وقد ولد في نفسه تطابق الدعوة الصهيونية مع تصرفات هتلر بعد ذلك « ثقة تامة بشرعية وجوده في « ارض الاجداد » وبعدم شرعية حقوق الفلسطينيين » .

الفصل الثاني يروي « نضال افنيري في المجتمع الاسرائيلي » . ويبدو لنا في هذا الفصل ان تمسك افنيري بالنضال ضمن المجتمع الاسرائيلي ، يتوازى مع تمسكه بتصنيف نفسه في صفوف المعارضة ، « حتى انه لا يخشى ان يعلن في بعض مقالاته انه المعارض الوحيد في الكنيست لسياسة الحكم القائم » .

ثم يضع هذا الفصل بعض الخطوط العامة لاتجاه النشاط السياسي لافنيري، ومن اهمها : — الدفاع عن حقوق عرب المنطقة المحتلة سنة ١٩٤٨ ، وعرب المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، وذلك بالمفهوم الليبرالي العام لكلمة حقوق ، والتنديد العام بسياسة العنف ، — ثم التحديد الجديد للامة اليهودية (وهو الخلاف الرئيسي لافنيري مع الفلسفة الصهيونية) حيث يسخر افنيري من اعتبار كل يهود العالم امة واحدة يجب أن تتجمع في اسرائيل ، — ثم تحديد مهمة « الانتماء للمنطقة كمهمة اساسية لتحقيق السلام ، وذلك بالاعتراف بشرعية تطلعات العرب القومية » .

واذا كان في الفصلين الاولين عرض لكل ما يفرق بين افنيري والحركة الصهيونية ... من حيث المبادىء العامة والشعارات ، فان الفصول الباقية (من الثالث حتى السابع) مخصصة للاحقة ما يذهب اليه افنيري عندما تنزل مبادؤه العامة الى ميدان النضال السياسي العملي .

الفصل الثالث ، مخصص لتفحص مواقف افنيري ومفاهيمه فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، حيث يضع افنيري حل هذه القضية ضمن اطار « الامة العبرية والامة الفلسطينية » وعلى أساس ان « مصالح اسرائيل لا تتناقض مع مصالح فلسطين». ولكن الملاحقة التفصيلية لمواقف افنيري «الايجابية» من الشعب الفلسطيني ، تثبت ان افنيري انما يعترف ببعض الحقوق الجغرافية لهذا الشعب ، لا بحقوقه السياسية والقومية في ارضه ، حتى ان تطبيق مشروع تحالف الامة العبرية والامة الفلسطينية كما يقترحه افنيري داخل « الوحدة السامية » انما ينظر الى الفلسطينيين كيد عاملة رخيصة ضمن اطار اقتصاد اسرائيلي مزدهر .

وقد خصص المؤلف الفصل الرابع للاحقة مفهوم « التعاون » الذي يطرحه افنيري . ويسجل المؤلف في مطلع هذا الفصل تحليل افنيري للعلاقة بين الصهيونية والامبريالية : « ان الصهيونية ما كانت فقط ثمرة القوميات الاوروبية ، انما كانت ايضا جزءا من الموجة الاخيرة للامتداد الامبريالي». غير ان افنيري ينكر على القارىء الاستنتاج من هذا التحليل بأن اسرائيل هي ثمرة الامبريالية : كل ما يقصده افنيري هو شرح سبب عداء الحركة الصهيونية للقومية العربية وعدم اعترافها بها اصلا : « ان الصهيونية اوهمت الرأي العام الاستيطاني بأن القومية العربية اختراع بريطاني قصد منه مجابهة الصهيونية » .

وبعد ان يستعرض الجزء الثاني من هذا الفصل جذور « القومية العبرية » كما يعرفها افنيري ، ينتقل الى مشروع الاتحاد السامي الذي يقترحه افنيري بين القوميتين يضم العبريين والفلسطينيين كنواة اساسية ، ثم يتسع ليشمل المنطقة العربية بأسرها ، حيث يلخص المؤلف عرضه لتفاصيل المشروع بأن « افنيري يقترح علينا حلفا مركزيا آخر تكون اسرائيل عموده الفقري » .

وينتقل الفصل الخامس الى استعراض مواقف افنيري بين الحرب والسلام ، بين العنف والاقناع. فنصل بهذا الفصل الى ذروة التناقض بين شعارات افنيري ومواقفه ، فبينما هو يعبر عن قلقه ازاء الحرب و« تمزقه » امام هذه « المأساة التاريخية » ، فانه يحدد قراره الاخير بعبارات واضحة : « في ساعة الخطر ، كان مكاننا في وحدات القتال ، حتى وان كان السلام هدفنا » . ويتجاوز افنيري مجرد اختبار الحرب الى « التلذذ بوصف دوره البطولي خلال فترة الحرب » .

ومع ان افنيري يقول في كتابه « اسرائيل دون صهيونية » انه احتج بقوة ضد حرب سيناء ، الا ان المؤلف يسجل له عبارة في مقال افتتاحي لهاعولام هزه (١٩٥٥/١٢/١٢) يقول فيها : « ان الحرب تواجهنا وعيونها حمراء وحامية ، ان من واجبنا ابادة القوى المقاتلة لعدونا الاكثر

قوة ، مصر ، قبل ان يفوت الاوان » . كذلك يذكر المؤلف بمطالبة افنيري بضم قطاع غزة .

ولم يختلف موقف افنيري من حرب ١٩٦٧ عن موقفه من حرب ١٩٤٨ و١٩٥٦ . ففي الصفحة ١٠٩ من الكتاب ، يورد المؤلف حديثا لحاييم هانجبي عن موقف افنيري قبيل الحرب على النحو التالي : « عندما تألفت حكومة الوحدة الوطنية الائتلافية ، بعد الحصول على الضوء الاخضر من واشنطن لقصف مصر ومباشرة « حرب البقاء » ، ايد افنيري الحرب وناضل من اجلها » .

وفي تحديد افنيري لموقفه ، يضع مسؤولية الحرب على العرب ، لان عبدالناصر قد اخطأ بمساندة سوريا ، « معتقدا اننا نخضع لمخطط اميركي ، ولم يكن يفهم ان هدفنا الوحيد هو التخلص من العمل التخريبي » .

ثم يتعمق المؤلف في رصد وسائل الاقناع التي يقترحها افنيري (اقناع العرب طبعا) ، فاذا بهذه الوسائل تستعجل التعامل مع الفلسطينيين في الاراضي المحتلة ، قبل اندلاع نار ثورة التحرير في صفوفهم ، اي انه يريد فلسطينيين مجردين من تطلعاتهم القومية ، ومن طليعتهم النضالية .

وهنا يصل الكتاب الى فضح نوايا افنيري في المطالبة بليونة المعاملة مع عرب الارض المحتلة ، لان اقامة المعتقلات ، في رأيه ، تساعد على اذكاء نار الثورة .

وتصل آراء افنيري الى نهاية المطاف في التناقض حول الموقف من الحرب والسلام ، عندما يبدي رأيه في المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، فبينما هو يتهم هذه المؤسسة بتشجيع فكرة تهجير العرب من الاراضي التي احتلت سنة ١٩٦٧ ، اذا به يقول : « ان الجيش الاسرائيلي ، خلافا لاكثرية الجيوش ، يشكل المحيط الاقل شوفينية ، والاكثر تعقلا في المجتمع الاسرائيلي » .

ويكرس المؤلف الفصل السادس من كتابه لمراجعة المقارنة البالغة الاهمية التي يعقدها افنيري بين الصليبية والصهيونية . فبينما لا يستطيع افنيري ان يخفي دهشته لشدة التطابق بين تفاصيل الغزو الصليبي والغزو الصهيوني لفلسطين . ولكنه يبدأ محاولة الوقف القسري لهذا التشابه عندما يصل الى مصير الغزو الصليبي . فنرى ان كل ما يهمه من عبر الغزو الصليبي هو استفادة اسرائيل من هذه العبر ، حتى لا تقع في نفس المصير .

وهنا يعود افنيري ليؤكد ان مهمة اسرائيل الاولى هي الانتماء الى المنطقة ، لان القوة العسكرية الهائلة للصليبيين لم تنفعهم كبديل عن الانتماء للمنطقة ، ولم تستطع وضع الاحتلال في موضع الانتماء .

وهكذا ، وقبل الفصل السابع والاخير ، يصل المؤلف الى استنتاجه النهائي ، وهو ان افنيري صهيوني في حقيقة مواقفه ، ولكنه صهيوني حديث ، يريد ان يستبدل نظرية الامة اليهودية التي تشمل كل يهود العالم ، بنظرية الامة العبرية التي تنتمي الى المنطقة ، وتسيطر عليها .

اما الفصل السابع لتحليل دور افنيري في اسرائيل ، فيفرق بين موقفه وموقف الصهيونيين التقليديين . ويؤكد ان الطريق المسدود الذي تقف امامه اسرائيل برغم انتصاراتها العسكرية قد « ادى الى نشوء اقلية من الاشخاص الذين يعون المأزق التاريخي في وضع اسرائيل اذا استمرت في السير على طريق الصهيونيين التقليديين » .

ويستعين المؤلف بنائان فاينشتوك ليحدد الانتماء الاجتماعي لهؤلاء الاشخاص الذي يقول « انهم الاجزاء السفلى للطبقات الوسطى ، الذين بدأوا يشكلون ملامح قومية جديدة على ارض جديدة ». وينهي المؤلف الفصل السابع « بضبط » افنيري في مواقف العداء لمنظمات مثل راكاح وماتزبن ، لان آراءها (وخاصة ماتزبن) في حرب ١٩٦٧ والمقاومة الفلسطينية تجعل افنيري يضعها في صفوف « الخونة » .

ويضم الكتاب في القسم الاخير النص الكامل لوثيقتين اساسيتين من وثائق حركة هعولام هزه عنوان الاولى « هذه مبادئنا » ، وعنوان الثانية « خطة السلام » ، كما ان الكتاب بأسره يستند بالاضافة لهاتين الوثيقتين الاساسيتين الى كتاب افنيري « اسرائيل دون صهيونية » ومقاله الشهير في مجلة « الازمنة الحديثة » (حزيران ١٩٦٧) ثم الى ترجمات لنصوص من مجلة هاعولام هزه . وهكذا فان الكتاب يعتبر جولة في المعالم الرئيسية لفكر اوري افنيري ، وضوءا كاشفا على نموذج من المعارضة الاسرائيلية التي تحاول كسب العرب ، مع الاحتفاظ بولائها العميق لجوهر المبادىء الصهيونية ، وان اختلفت مع الصهيونيين التقليديين في بعض الامور .

الياس سحاب

تقـــارير

السكان في الاراضي المحتلة بعد حرب ١٩٦٧
تحليل احصائي وتقديرات

الدكتور محمد فريد البستاني

تهدف هذه الدراسة الى اعطاء صورة سكانية واضحة عن المجتمع في الاراضي المحتلة من قبل اسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . وتشمل هذه الدراسة : (١) الضفة الغربية وتتضمن نابلس ، جنين ، طولكرم ، اريحا ، رام الله ، بيت لحم والخليل . (٢) قطاع غزة وشمال سيناء ويتضمن غزة ، خان يونس ، العريش ، شرم الشيخ وشمال سيناء . اما منطقة الجولان فلا تدخل في نطاق هذه الدراسة لعدم توفر المعلومات الاحصائية الضرورية .

ان الارقام والجداول الواردة في هذه الدراسة ، مستقاة من النشرات الاحصائية الشهرية للمناطق المحتلة ومنشورات مكتب الاحصاء الاسرائيلي بالاضافة الى النشرات الاحصائية السنوية الاسرائيلية .

السكان في الضفة الغربية :

لا بد لنا من الاشارة الى طبيعة الاحصاءات المنشورة من قبل مكتب الاحصاء الاسرائيلي وذلك قبل البدء بتحليلها احصائيا — اذا صح لنا القول وذلك نظرا لقلتها وعدم تنوعها .

جدول رقم (١)
السكان في الاراضي العربية المحتلة
بعـد ١٩٦٧ (بالالف)

السنوات / المناطق	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢
الضفة الغربية	٥٨٤،١	٥٩٩،٦	٦١٠،٣	٦٢٥،٦	٦٤٢،٩
قطاع غزة وشمال سيناء	٣٥٧،٨	٣٦٥،٥	٣٧٢،٤	٣٨١،٨	٣٩٠،٩
المجموع	٩٤١،٩	٩٦٥،١	٩٨٢،٧	١٠٠٧،٤	١٠٣٣،٨

ان الارقام الاحصائية التي تعبر عن عدد السكان تتضمن كل الاشخاص الذين وجدوا ساعة التعداد في منطقة العد اي تتضمن السياح والاجانب غير المقيمين . اما بالنسبة لعدد السكان في قطاع غزة وشمال سيناء فالارقام لا تشمل البدو .

١) **التطور الزمني لعدد السكان :** يشكل سكان الضفة الغربية حوالي ٦٢ ٪ من سكان الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ — أي مجموع الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء . ولم تخضع هذه النسبة الى أي تغيير خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٦٨ و ١٩٧٢ . وهذا يدل دلالة واضحة على خضوع كل من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء الى نفس العوامل السكانية الطبيعية من جهة والى نفس الارهاب الجماعي من تقتيل وتشريد وتهجير تمارسه السلطات المحتلة على العرب الفلسطينيين .

تزايد عدد السكان العرب في الضفة الغربية من ٥٨٤،١ الفا في عام ١٩٦٨ الى ٦٤٢،٩ الفا في عام ١٩٧٢ أي بمعدل زيادة سنوية قدرها ٢،٣ ٪ وهي نسبة ضئيلة اذا قورنت بالزيادة الطبيعية

مخطط رقم (١)

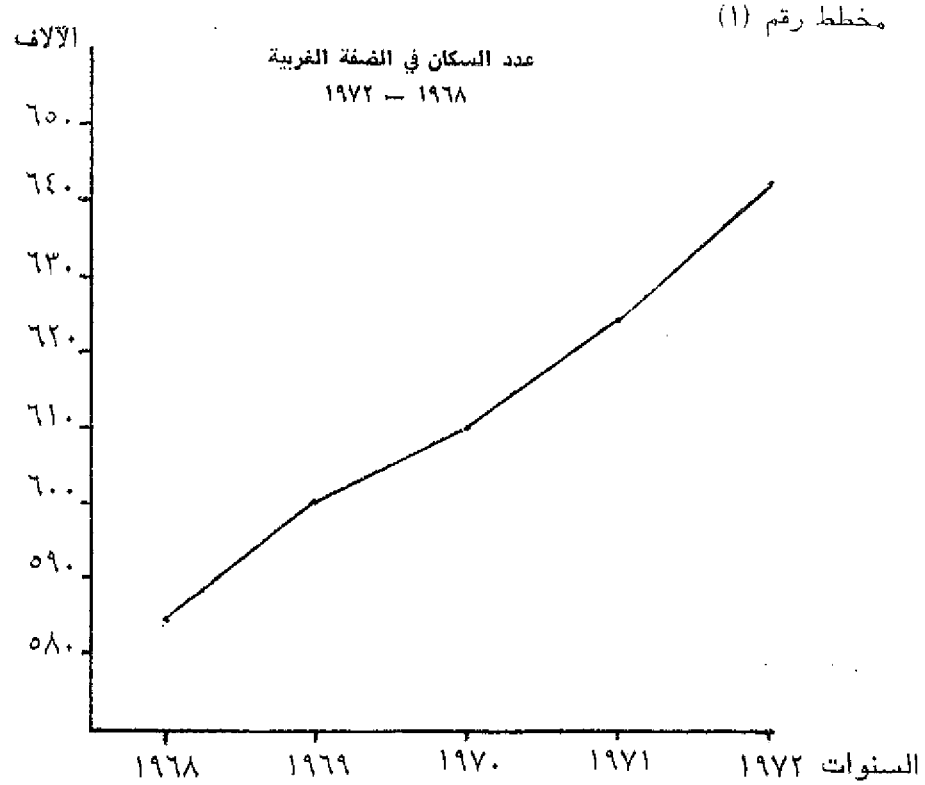

للسكان العرب في الاراضي المحتلة منذ ١٩٤٨ اذ تبلغ حوالي ٣،٤٪ وباعتقادنا ان انخفاض هذه النسبة عائد الى سياسة التهجير الاجبارية للسكان العرب الى خارج الضفة الغربية والهادفة الى تهويد هذه المنطقة . ومن الملاحظ ان منحني التطور السكاني رقم (١) يعبر عن تطور منتظم لعدد السكان في الضفة الغربية مع تغير بسيط في سرعة التزايد . كما انه من المستحسن التنويه الى ان طبيعة هذا المنحني (الخطية) لا تنسجم مع المفاهيم النظرية للمنحني النظري الامثل للتطور السكاني والسبب كما ذكرنا هو عامل تهجير العرب من المنطقة المحتلة وهذا ما نسعى الى اظهاره عن طريق تحليل الولادات والوفيات .

٢) **الولادات والوفيات والزيادة الطبيعية للسكان :** ان دراسة الزيادة الطبيعية للسكان والناتجة عن الفرق بين الولادات والوفيات ومقارنتها بالزيادة الناتجة عن التطور الفعلي لعدد السكان في الضفة الغربية ، تظهر بما لا يدعو للشك سياسة اسرائيل

جدول رقم (٢)

الولادات والوفيات والزيادة الطبيعية

في الضفة الغربية بالآلاف

السنوات	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢
١ — الولادات	٢٥،٦٥١	٢٥،٥٥١	٢٦،٤٥٥	٢٨،٢٦٣	٢٨،٨٣٨
٢ — الوفيات	١١،٥٥٥	١١،٢٠٠	١٠،٨٥٠	١٠،٥٠٠	١١،٠٢٠
٣ — الزيادة الطبيعية	١٤،٠٩٦	١٤،٣٥١	١٥،٦٠٥	١٧،٧٦٣	١٧،٨١٨
(١ — ٢)					
٤ — الزيادة الناتجة من					
الجدول رقم (١)	—	١٥،٥٠٠	١٠،٧٠٠	١٥،٣٠٠	١٧،٣٠٠

الهادفة الى تهجير الفلسطينيين العرب . فالارقام الماثلة للسنوات ١٩٧٠ ، ١٩٧١ و١٩٧٢ تظهر الفرق بين الزيادة الطبيعية للسكان والزيادة الناتجة عن التطور الزمني لعدد السكان . عادة ، الزيادة الطبيعية للسكان تعادل الزيادة الناتجة عن تطور عدد السكان او بصورة اخرى ان ازدياد عدد السكان ينتج عن تغلب الولادات على الوفيات او (الولادات ــ الوفيات) ، اذا ابعدنا فكرة الهجرة .

فالزيادات ٤٩٠٥ ، ٢٤٦٣ و ٥١٨ والعائدة للسنوات ١٩٧٠ ، ١٩٧١ و ١٩٧٢ والتي تعبر عن الفرق بين الزيادة الطبيعية للسكان والزيادة الناتجة عن التطور الزمني للسكان يمكن ان تنتج عن ثلاث فرضيات هي التالية :

١ ــ وجود وفيات غير مصرح عنها : أي ان ارقام الوفيات الفعلية هي أعلى من الواردة في الجدول (٢) وان الفروق ٤٩٠٥ ، ٢٤٦٣ ، ٥١٨ مبالغ فيها وليس لها دلالة علمية . ان هذه الفرضية بعيدة عن الواقع وذلك لان ارقام الوفيات هي عالية نسبيا اذ ان نسبة الوفيات هي حوالي ١٨ بالالف وهي نسبة مرتفعة اذا قورنت بمثيلاتها في المنطقة .

٢ ــ هجرة الفلسطينيين العرب من الضفة الغربية الى الارض المحتلة منذ ١٩٤٨ وهي فرضية مرفوضة أصلا فحكومة العدو لا تسمح لاي مواطن فلسطيني بالدخول الى الارض المحتلة منذ ١٩٤٨ .

٣ ــ هجرة الفلسطينيين في الضفة الغربية الى البلاد العربية المجاورة والى بقية البلدان الاخرى هذه الفرضية جديرة بالاهتمام وهي تعكس السياسة الاسرائيلية المتبعة لتهجير العرب الفلسطينيين عن ديارهم ووطنهم .

لا بد لنا من الاشارة الى ان الاعداد ٤٩٠٥ ، ٢٤٦٣ ، ٥١٨ لا يمكن اعتبارها تحديدا مطلقا للعرب الفلسطينيين الذين غادروا الضفة الغربية ، وانما تعتبر كمؤشرات دامغة لسياسة التهجير التي تتبعها اسرائيل اما الارقام الفعلية فهي أكبر بكثير وهذا ما تدل عليه مقتطفات من مقال نشره عزرا زوهر في مجلة معرخوت ــ العدد ٢١٧ ــ ٢١٨ ايلول ١٩٧١ ، ص ٢٩ ــ ٣٩ . « بعد حرب الايام الستة على الفور وحتى نهاية ايلول ١٩٦٧ هاجر من الضفة الغربية ١٨٠٠٠٠ شخص ومن ايلول ١٩٦٧ وحتى نهاية ١٩٧٠ هاجر من فلسطين بأسرها ٨٨٥٠٠ شخص ، وفق بيانات المكتب المركزي للاحصاء . ولكن ، بحسب ما هو مذكور ، يعتبر هذا تقديرا متواضعا جدا ، ويمكننا الافتراض انه قد هاجر خلال هذه الفترة نحو مائة الف شخص ، اي بمعدل نحو ٣٠٤٠٠٠ شخص في السنة ... ». (ملحق نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية رقم ١٧ ــ ١ كانون الاول ١٩٧١) . أما بالنسبة لعام ١٩٦٩ حيث كانت الزيادة الطبيعية للسكان أقل من الزيادة الناتجة عن التطور الزمني للسكان وبمعدل ١٤١٤٩ شخص فاننا نعتقد ان هذه الزيادة كانت ناتجة عن سماح اسرائيل لبعض العائلات الفلسطينية التي غادرت الضفة الغربية ، اثر حرب ١٩٦٧ ، بالعودة الى منازلها وذلك ، بالطبع ، تحت تأثير الرأي العام العالمي ولتغطية مخططات التهجير التي تسعى لتنفيذها .

السكان في قطاع غزة وشمال سيناء :

١) **التطور الزمني لعدد السكان** : يشكل سكان قطاع غزة وشمال سيناء ٣٨ ٪ من سكان الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ــ أي مجموع الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء ــ . ومن الجدير بالذكر ، ان هذه النسبة بقيت ثابتة نسبيا خلال الفترة الواقعة بين ١٩٦٨ و١٩٧٢ ، مشيرة بوضوح الى التكامل البشري والاقتصادي لكل من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء تقارب في الزيادة الطبيعية للسكان ، تقارب في نسب الولادات والوفيات ، وخضوع كل منهما لنفس عمليات الارهاب الهادفة الى التهجير .

تزايد عدد السكان العرب في قطاع غزة وشمال سيناء من ٣٥٧٠٨ الفا في عام ١٩٦٨ الى ٩٩٠٤٩ الفا في عام ١٩٧٢ أي بمعدل زيادة سنوية قدرها ٢٠٤٪ وهي نسبة قريبة لمثيلتها في الضفة الغربية ولكنها اقل بكثير من نسبة تزايد السكان غير اليهود « العرب » في « اسرائيل » والبالغة حوالي ٣٠٤ ٪ . وبالطبع ان انخفاض هذه النسبة ناتج عن تهجير الفلسطينيين عن قطاع غزة وسيناء . من الصعب جدا استنتاج اتجاه لتزايد السكان في قطاع غزة وشمال سيناء وذلك نظرا لقصر الفترة الزمنية المدروسة ولكنه يمكننا القول ان سرعة تزايد السكان بعد عام ١٩٧٠ هي اكبر منها قبل ١٩٧٠ ــ نجد نفس الظاهرة بالنسبة للضفة الغربية ــ .

نعود فنؤكد ــ كما فعلناه في الضفة الغربية ــ

مخطط رقم (٢)

عدد السكان في قطاع غزة وشمال سيناء
١٩٦٨ — ١٩٧٢

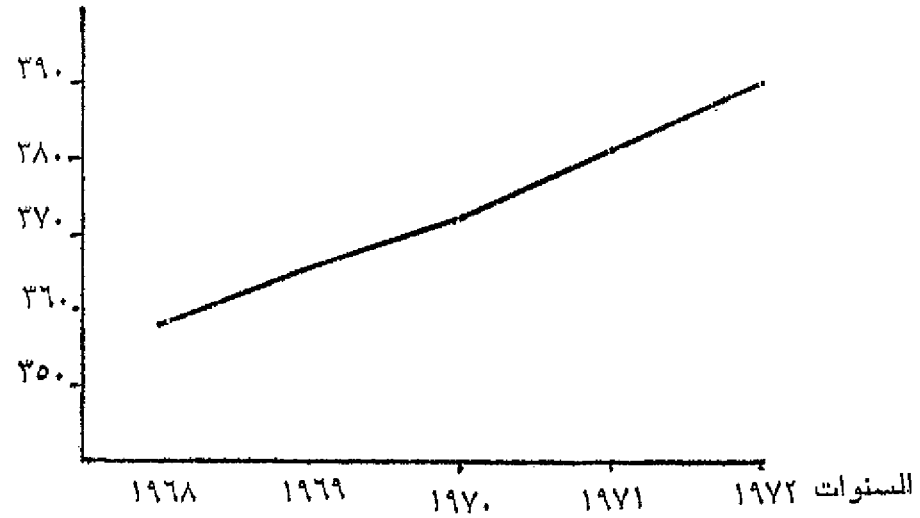

ان خطية منحني التطور الزمني للسكان في قطاع غزة وشمال سيناء تشير بوضوح الى واقع التهجير الذي تمارسه سلطات الاحتلال على الشعب الفلسطيني . وهذا ما يدعونا الى دراسة الولادات والوفيات .

٢) الولادات ، الوفيات والزيادة الطبيعية للسكان:

ان الزيادة الطبيعية لعدد السكان في بلد ما تحدث عن طريق تغلب الولادات على الوفيات وعن طريق الهجرة ان وجدت . ولهذا سنعمد الى دراسة الفرق بين الزيادة الطبيعية للسكان (الولادات — الوفيات) وبين الزيادة الناتجة عن التطور الزمني لعدد السكان هادفين الى اظهار الدلائل المشيرة الى تهجير الفلسطينيين عن قطاع غزة وشمال سيناء .

ان الجدول رقم (٣) يظهر الفرق الحادث بين الزيادة الطبيعية للسكان وبين الزيادة الناتجة عن التطور الزمني لعدد السكان .

فالزيادات ٢٩٠٧ ، ٣٣٣٥ ، ٢٣٥٥ و ٢٤٧٠ والتي تعبر عن الفرق بين الزيادة الطبيعية للسكان والزيادة الناتجة عن التطور الزمني لعدد السكان ، خلال الاعوام ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ و ١٩٧٢ على الترتيب ، يمكن ان تنتج عن ثلاث فرضيات هي:

١ — وجود وفيات غير مصرح عنها في قطاع غزة وشمال سيناء : ان هذه الفرضية تعني ان واقع الوفيات هو أعلى بكثير مما تظهره الارقام في الجدول رقم (٣) وبالتالي ان الفروق ٢٩٠٧ ، ٣٣٣٥ ، ٢٣٥٥ و ٢٤٧٠ مبالغ فيها وليس لها دلالة علمية . ان هذه الفرضية بعيدة عن الواقع وذلك لان ارقام الوفيات هي عالية نسبيا ، اذ انها تعبر عن نسبة وفاة بمعدل ١٦ بالالف وهي نسبة تعتبر مرتفعة اذا قورنت بمثيلاتها في المنطقة . « يتوقع الاستاذ بركامي في مقاله « هذه الجغرافيا هي ديموغرافيا » والذي نشر في صحيفة الجامعة العبرية في القدس — الجزء الاول من العدد ١٨ — ان نسبة الوفيات عند غير اليهود ستهبط الى حوالي ٦ بالالف خلال الثمانينات » .

٢ — هجرة الفلسطينيين من قطاع غزة وشمال سيناء الى الارض المحتلة منذ ١٩٤٨ : فرضية مرفوضة اصلا لان سلطات العدو لا تسمح لاي فلسطيني من الارض العربية المحتلة بعد حزيران ١٩٦٧ بالدخول الى الارض المحتلة قبل ١٩٦٧ .

٣ — هجرة الفلسطينيين من قطاع غزة وشمال سيناء الى البلاد العربية المجاورة والى بقية بلدان العالم : هذه الفرضية تنسجم مع سياسة التهجير الاسرائيلية للمواطنين العرب في الاراضي المحتلة واكثر من ذلك فهي تنسجم مع أفكار وآمال

جدول رقم (٣)
الولادات والوفيات والزيادة الطبيعية
في قطاع غزة وشمال سيناء

السنوات	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢
١ ــ الولادات	١٥٬٥٠٢	١٦٬٧٢٧	١٥٬٩٨٥	١٧٬٥٠٥	١٧٬٩٢٤
٢ ــ الوفيات	٧٬٠٩٠	٦٬١٢٠	٥٬٧٥٠	٥٬٧٥٠	٨٬٣٥٤
٣ ــ الزيادة الطبيعية (١ــ٢)	٨٬٤١٢	١٠٬٦٠٧	١٠٬٢٣٥	١١٬٧٥٥	١١٬٥٧٠
٤ ــ الزيادة الناتجة من الجدول رقم (١)	ــ	٧٬٧٠٠	٦٬٩٠٠	٩٬٤٠٠	٩٬١٠٠
(٣) ــ (٤)		٢٬٩٠٧	٣٬٣٣٥	٢٬٣٥٥	٢٬٤٧٠

الاسرائيليين حول عدد السكان العرب في اسرائيل والاراضي المحتلة بعد حزيران ١٩٦٧ « يفترض الاستاذ بركامي في تقديره لعدد السكان العرب ــ غير اليهود ــ في مقاله « هذه الجغرافيا هي ديموغرافيا» والذي نشر في صحيفة الجامعة العبرية في القدس ــ الجزء الاول من العدد ١٨ . انه ستكون هناك هجرة ، في الثمانينات ، من عرب قطاع غزة تقدر بحوالي ٣٠ الفا سنويا » . في جميع الاحوال ان الارقام ٢٩٠٧ ، ٣٣٣٥ ، ٢٣٥٥ و ٢٤٧٠ والمستنتجة من احصاءات مكتب الاحصاء المركزي الاسرائيلي للاراضي المحتلة بعد ١٩٦٧ ، لا تعبر عن مقدار الهجرة من قطاع غزة الى خارج فلسطين وانما هي مؤشرات دامغة لسياسة التهجير الاسرائيلية .

سكان الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ (ما عدا الجولان)

١) **التطور الزمني للسكان** : تزايد عدد سكان الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ من ٩٤٩٬٩ الفا في عام ١٩٦٨ الى ١٠٣٣٨٠٠ في عام ١٩٧٢ أي بمعدل زيادة سنوية قدرها ٢٬٣ ٪ وكما هو واضح من المخطط رقم (٣) ان سرعة تزايد عدد السكان بعد عام ١٩٧٠ هي أكبر منها قبل عام ١٩٧٠ .

وكما ذكرنا في تحليلنا لتطور السكان في الضفة الغربية من جهة ولقطاع غزة وشمال سيناء من جهة ثانية ، فان سياسة تهجير الفلسطينيين عن الاراضي المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ بصورة خاصة ، اثرت على منحني التطور السكاني وجعلته خطيا مخالفا بذلك علم تطور السكاني النظري والذي يعطي لتطور السكان طبيعة أسية .

٢) **الوفيات والولادات والزيادة الطبيعية للسكان** : ان الجدول رقم (٤) يظهر الفرق الحادث بين الزيادة الطبيعية للسكان وهي (الولادات ــ الوفيات) وبين الزيادة الناتجة عن التطور الزمني لعدد السكان ، بدون العودة للفرضيات الثلاث التي عالجناها من أجل كل من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء فان الارقام ١٧٥٨ ، ٨٢٤٠ ، ٤٨١٨ و ٩٨٨ (جدول رقم ٤) يمكن ان تعتبر تقديرات متواضعة لعدد الفلسطينيين العرب الذين اجبروا على مغادرة اراضيهم خلال الاعوام التالية ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ و ١٩٧٢ على الترتيب . أي يمكننا القول ان اسرائيل هجرت من الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ، وخلال الفترة الواقعة بين ١٩٦٩ و ١٩٧٢ ما لا يقل عن ١٦٠٠٠ فلسطيني .

تقدير عدد السكان في الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ (ما عدا الجولان) وذلك حتى ١٩٩٠ :

في الحقيقة انه من الصعب جدا اعطاء تقديرات دقيقة لعدد السكان في الاراضي العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ ومن أجل السنوات المقبلة ، والسبب في ذلك ان الاحداث التي يعيشها الشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة بصورة خاصة والامة العربية في العالم العربي بصورة عامة ، تقضي عدم قبول واقع الاحتلال والعمل على تغيير هذا الواقع بالدم والحديد ومهما كانت تضحيات الارواح والاموال . أما التقديرات بحد ذاتها والتي تقوم على أساس فرضيات تعتبر ثابتة خلال السنوات المقبلة ، فغايتها اعطاء صورة عن القوة الكامنة للشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة وذلك من أجل تحديد

مخطط رقم (٣)

تطور عدد السكان في الاراضي المحتلة
بعد حرب حزيران ١٩٦٧ (ما عدا الجولان)

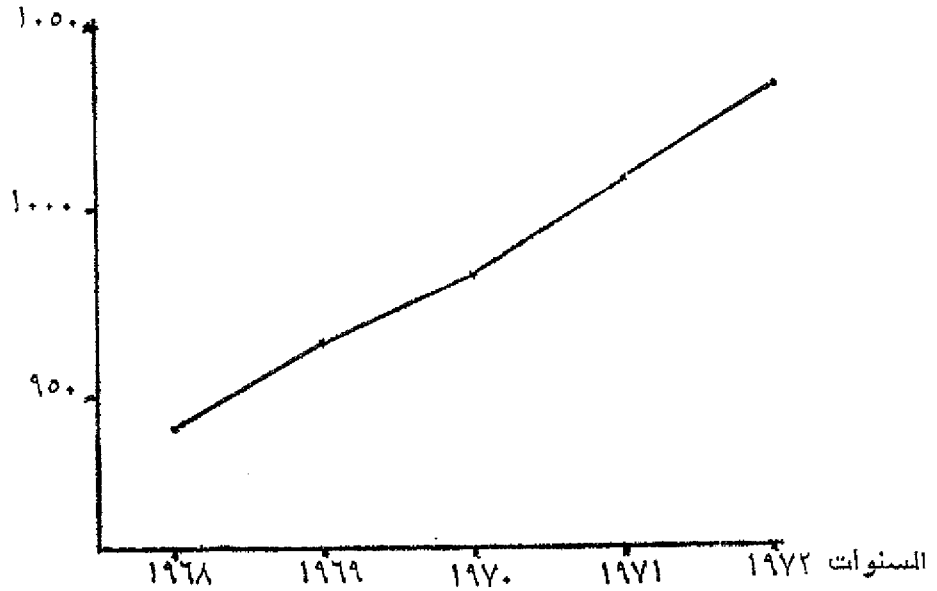

جدول رقم (٤)
الولادات والوفيات والزيادة الطبيعية
في الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧
(ما عدا الجولان)

السنوات	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢
١ ـ الولادات	٤١٬١٥٣	٤٢٬٢٧٨	٤٢٬٤٤٠	٤٥٬٧٦٨	٤٦٬٧٦٢
٢ ـ الوفيات	١٨٬٦٤٥	١٧٬٣٢٠	١٦٬٦٠٠	١٦٬٢٥٠	١٩٬٣٧٤
٣ ـ الزيادة الطبيعية					
(١)—(٢)	٢٢٬٥٠٨	٢٤٬٩٥٨	٢٥٬٨٤٠	٢٩٬٥١٨	٢٧٬٣٨٨
٤ ـ الزيادة الناتجة من					
الجدول رقم (١)		٢٣٬٢٠٠	١٧٬٦٠٠	٢٤٬٧٠٠	٢٦٬٤٠٠
(٣) ـ (٤)		١٬٧٥٨	٨٬٢٤٠	٤٬٨١٨	٩٨٨

المهام الواقعة على عاتقنا من أجل تعبئة هـذه القوة قوميا وعسكريا . اذن ليس الاعتماد على فرضيات معينة هو قبول لواقع معين وانما للعمل من اجل تغيير هذا الواقع .

الفرضيات : حسب الاحصاءات الاردنية ، كانت نسبة الزيادة الطبيعية لعام ١٩٦٤ ، في الضفة الغربية حوالي ٢٧ في الالف وفي القدس القديمة حوالي ٢٢ في الالف . اما بالنسبة لقطاع غزة وشمال سيناء فقد قدرت النسبة بحدود ٢٤ بالالف. واستنادا الى واقع التهجير الذي تمارسه السلطات الاسرائيلية المحتلة على الشعب الفلسطيني فاننا نتبنى نسبة زيادة سكانية بحدود ٢٤ (بالالف) لكل من قطاع غزة وشمال سيناء والضفة الغربية كما نعتبر بقاء الاهمية النسبية لسكان الضفـة

الغربية بحدود ٦٢ ٪ بالنسبة للمجموع العام . انظر الجدول رقم (٥) .

اتجاهات حول الزيادة الطبيعية للسكان في الاراضي المحتلة وتقديرات السكان : من الملاحظ ان هناك اتجاه لتناقص نسبة الزيادة الطبيعية للسكان العرب في فلسطين المحتلة والسبب في ذلك على ما يبدو هو الرقابة على الانجاب بالنسبة للنساء المتعلمات ، تلك الرقابة التي سببتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها الاسرة العربية في الاراضي المحتلة . ونجد انه من المفيد ذكر بعض البيانات التي اوردها غاد زيلبرمان « حول عدد اطفال المرأة العربية في اسرائيل في فترة اخصابها » — دائرة المعارف العبرية ، مجلد الملاحق ،ص ٤٢١ . وهي التالية « ان المعدل هو ٧ اطفال لكل امرأة عربية ، والنسبة في القرى هي ٨ وفي المدن المختلطة هي ٥ ولدى النساء اللاتي درسن تسع سنوات او اكثر ٣ — معدل المرأة اليهودية هو ٣،٣٦ — » .

ان كل الدراسات الاحصائية التي قام بها الاسرائيليون لتحليل الاوضاع السكانية في فلسطين المحتلة ، تظهر تخوف اليهود من ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية للسكان العرب التي تؤدي على مدى طويل الى تساوي نسبة سكان اليهود من جهة ونسبة السكان غير اليهود — العرب — من جهة ثانية .

أما بالنسبة للشعب الفلسطيني الذي يعيش قضية وجود ونضال من اجل هذا الوجود ، ويقدم باستمرار خيرة شبابه شهداء الواجب والقضية ، فاننا نرغب وندعو ان لا يكون تعلم المرأة الفلسطينية سببا في تقلص نسبة الزيادة الطبيعية للسكان وانما ان يكون مصدرا لاعداد طاقات بشرية جديرة بحمل راية الكفاح حتى النصر .

الواقع ان اسرائيل تعيش خوف التضخم السكاني للشعب الفلسطيني وتسعى جاهدة عن طريق التهجير في انقاص الزيادة الطبيعية للسكان العرب في فلسطين . فبالرغم من الحث على هجرة اليهود الى اسرائيل والى ارتفاع الزيادة الطبيعية لليهود في اسرائيل من جهة والى تهجير السكان العرب من اسرائيل من جهة ثانية فان نسبة غير اليهود سترتفع الى ١٥،٩ ٪ وذلك حسب تقديرات المكتب المركزي للاحصاء في اسرائيل وضمن فرضية ٢٥ الف مهاجر يهودي الى اسرائيل في السنة .

جدول رقم (٥)
تقدير عدد السكان الفلسطينيين في الاراضي المحتلة
بعد حرب حزيران ١٩٦٧ (ما عدا الجولان)
١٩٧٣ حتى ١٩٩٠ بالآلاف

السنوات	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٥	١٩٩٠
المناطق						
الضفة الغربية	٦٥٦،٣	٦٧٢	٦٨٨،٢	٧٦٨	٨٥٧،١	٩٥٦،٥
قطاع غزة وشمال سيناء	٤٠٢،٣	٤١٢	٤٢١،٨	٤٧٠،٧	٥٢٥،٣	٥٨٦،٣
المجموع	١٠٥٨،٦	١٠٨٤	١١١٠	١٢٣٨،٧	١٣٨٢،٤	١٥٤٢،٨

من الجهة الاقتصادية ، ان التركيب السكاني او البنية السكانية للشعب الفلسطيني ، هي بنية فتية وتشكل عبئا اقتصاديا على اسرائيل وخاصة اذا فكر الصهاينة بصهر هذه الفئة في المجتمع الاسرائيلي — ٥٢ ٪ من السكان العرب في اسرائيل دون سن الـ ١٤ و٨ ٪ فوق الـ ٦٥ أي ان ٦٠٪ من السكان هم خارج قاعدة اساس اختيار القوة العاملة ، أما بالنسبة لليهود فـ ٣٢ ٪ فوق الـ ١٤ ، و٦ ٪ فوق الـ ٦٥ اي ٣٨ ٪ هم خارج قاعدة اساس اختيار القوة العاملة . اما بالنسبة لسكان الاراضي المحتلة بعد حرب ٦٧ فالتركيب السكاني يختلف جذريا وذلك بسبب الظروف التي عاشتها المنطقة وبالاخص عامل التهجير ، وقد دلت الاحصاءات الاخيرة ان ٥٢ ٪ من سكان الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ هم فوق الـ ١٤ سنة وهذا ما يعطي المجتمع الفلسطيني في الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران طابعا انتاجيا اكثر منه استهلاكيا . اذن فبالاضافة الى المشاكل الاقتصادية الناتجة عن وجود مجتمع اسرائيلي غير متجانس (اليهود المهاجرون من بلدان متقدمة ، اليهود المهاجرون من البلاد النامية ، اليهود الذين ولدوا

في اسرائيل واخيرا غير اليهود) ، هنالك الازدياد السكاني لغير اليهود والذي يسبق ببعيد نسبة الزيادة السكانية لليهود والتي تسعى اسرائيل عن طريق التهجير التخفيف من عواقبه الاجتماعية والاقتصادية . اذن هناك مشاكل اقتصادية واجتماعية تعيشها اسرائيل واحتلالها للاراضي العربية بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وتهجيرها للسكان العرب الفلسطينيين يعكس سياستها التوسعية واحتلالها لهذه الاراضي هو ردة فعل لاعادة ثقة يهود العالم بها وللبحث عن ثروات جديدة في سيناء واكتساب اراضي خصبة في الضفة الغربية ومواقع عسكرية استراتيجية في الجولان وهي تعد العدة للقضاء على الفلسطينيين عن طريق القتل ، الترهيب والتهجير لانها تعلم حجم مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية وتعمل على التهجير كحل لهذه المشاكل ولكن لن تصل ! .

جدول رقم (٦)
امكانيات ونشاط المستشفيات الحكومية وغير الحكومية
الضفة الغربية ــ قطاع غزة وشمال سيناء
١٩٧٠ ــ ١٩٧١

السنوات	١٩٧٠			١٩٧١		
		غزة			غزة	
	الضفة	وشمال سيناء	المجموع	الضفة	وشمال سيناء	المجموع
عدد المستشفيات	٩	٧	١٦	٨	٧	١٥
عدد الاسرة	١٠٣٥	٩٧١	٢٠٠٦	١٠٤٢	٩٦٧	٢٠٠٩
نسبة الاسرة المشغولة	٧٢٫٩	٧١	٧١٫٩	٧٤٫١	٦٦	٧٠٫١
عدد الزيارات الطبية بدون المعالجة في المستشفى	٥٩٢٥٠	٩٢٧١٤٨	٩٨٦٣٩٨	٧٠٠١١	٨٠٣٢٦٧	٨٧٣٢٧٨
عدد أيام المعالجة في المستشفى	٢٧٢٨٦١	٢٥٥٣١٠	٥٢٨١٧١	٢٧٩٢٨٥	٢٣٣٦٢٥	٥١٢٩٠٠
الولادات	٣٤١٠	٢٥٤٦	٥٩٥٦	٤٥٧٣	٢٧٦١	٧٣٣٤
العمليات الجراحية	٨٢٩٣	٧٩٠٥	١٦١٩٨	٨١١١	٨٥٩٠	١٦٧٠١
عدد السكان	٦١٠٤٣	٣٧٢٤٤	٩٨٢٤٧	٦٢٥٤٦	٣٨١٤٨	١٠٠٧٤٤

مؤشرات حول الاوضاع الصحية في الاراضي المحتلة بعد حزيران ١٩٦٧ (ما عدا الجولان) :

الهدف من هذه الدراسة هو تقديم صورة واضحة عن المستشفيات وامكانياتها في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء .

ان المعلومات الواردة في الجدول المذكور اعلاه تساعدنا على تحديد الامكانيات الصحية في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة واكثر من ذلك في اظهار نسبة الاستفادة من الخدمات الصحية العامة المقدمة من قبل المستشفيات الحكومية وغير الحكومية :

١ ــ **المستشفيات** : في الضفة الغربية يبلغ عدد المستشفيات ٨ في عام ١٩٧١ مقابل ٩ في عام ١٩٧٠ والسبب في ذلك النقص هو أن اسرائيل قامت في شهر شباط ١٩٧١ بدمج مستشفيين حكوميين . وفي الحقيقة ان المستشفيات الاهلية تشكل الغالبية العظمى فهناك في عام ١٩٧١ ، ٧ مستشفيات أهلية مقابل مستشفى واحد حكومي . أما بالنسبة لقطاع غزة وشمال سيناء فهناك ٧ مستشفيات : خمسة منها حكومية ، واحد مشترك بين القطاعين والاخر اهلي . يظن القارىء لاول وهلة ان الضفة الغربية تعتمد على القطاع الخاص في تأمين خدماتها الصحية بعكس ما هو وارد في قطاع غزة وشمال سيناء والواقع انه بالرغم من وجود سبعة مستشفيات اهلية في الضفة الغربية فان امكانية استيعاب هذه المستشفيات هي ضئيلة اذ تحتوي على ٢٧٠ سريرا فقط ــ عام ١٩٧١ ــ مقابل ٧٧٢ سريرا في المستشفى الحكومي الوحيد . ومع ذلك وبالرغم من ضآلة استيعاب المستشفيات

الخاصة فان الضفة الغربية تتميز عن قطاع غزة وشمال سيناء بأهمية مشاركة قطاعها الخاص في تأمين الخدمات الصحية . من جهة ثانية فان قطاع غزة وشمال سيناء يتمتع تقريبا بنفس الامكانيات الصحية من ناحية استيعاب المستشفيات . كما هي في الضفة الغربية بالرغم من ان عدد السكان فيه هو حوالي ٦١ ٪ من سكان الضفة الغربية . في جميع الاحوال نجد انه في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة ، لا يوجد استخدام كامل للامكانيات الصحية المتوفرة ومن ناحية معالجة المرضى في المستشفيات . فمعدل نسبة الاسرة المشغولة في عام ١٩٧٠ كان ٧٢،٩٪ في الضفة الغربية و ٧١ ٪ في قطاع غزة وشمال سيناء مقابل ٥٤،١ ٪ في الضفة الغربية و ٦٦ ٪ في قطاع غزة وشمال سيناء في عام ١٩٧١ .

٢ ــ **عدد الزيارات الطبية بدون المعالجة في المستشفى** : يقصد بالزيارة الطبية دون المعالجة في المستشفى هو قيام المريض باستشارة الطبيب في المستشفى دون بقاء المريض في المستشفى لمعالجته . ان هذا المؤشر يمكن ان يعكس وجود أو عدم وجود العيادات الطبية الخاصة في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء .

في الضفة الغربية بلغ عدد الزيارات الطبية بدون المعالجة في المستشفى ٥٩٢٥٠ زيارة في عام ١٩٧٠ مقابل ٧٠٠١١ زيارة في عام ١٩٧١ اما بالنسبة لقطاع غزة وشمال سيناء فكان عدد الزيارات في عام ١٩٧٠ حوالي ٩٢٧١٤٨ مقابل ٨٠٣٢٦٧ زيارة في عام ١٩٧١ . المهم في الموضوع هو ذلك الفارق الكبير بين الرقمين العائدين للضفة الغربية ومثيلهما في قطاع غزة وشمال سيناء . ذلك انه بالرغم من أن عدد سكان الضفة الغربية هو أكبر بكثير من عدد السكان في قطاع غزة وشمال سيناء فان عدد الزيارات الطبية بدون المعالجة في المستشفى في قطاع غزة وشمال سيناء هو اكثر من عشرة أمثال عدد الزيارات في الضفة الغربية والسبب عائد الى ثلاث حقائق : أ ــ وجود عدد قليل جدا من العيادات الخاصة او بصورة اخرى عدم وجود العيادات الطبية الخاصة الفردية وهذا ما يدعو الافراد الى الاتجاه نحو المستشفيات العامة والخاصة . ب ــ ارتفاع نسبة الامراض في قطاع غزة وشمال سيناء ، هذه الامراض الناتجة عن سوء التغذية بصورة عامة والتي تؤدي بالطبع الى ازدياد عدد الزيارات الطبية بصورة ملحوظة . ج ــ سوء الاحوال المادية للعرب الفلسطينيين هناك مما يؤدي الى عدم استطاعتهم استشارة طبيب في عيادته الخاصة ، ان وجدت مثل هذه العيادات ؟ .

أما عدد ايام المعالجة في المستشفى فهو ، كمؤشر، يؤكد الحقيقة (ب) . فعدد أيام المعالجة في المستشفيات متقارب في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء بالرغم من الفارق الكبير الموجود بين عدد السكان وهذا بالطبع سببه الامراض المستعصية التي تتطلب معالجة ومراقبة طبية في المستشفى .

٣ ــ **الولادات** : بالنسبة للضفة الغربية بلغ عدد الولادات الواقعة في المستشفيات حوالي ٣٤١٠ ولادات في عام ١٩٧٠ مقابل ٤٥٧٣ ولادة عام ١٩٧١ اي بما يعادل ١٣ ٪ من مجموع الولادات في عام ١٩٧٠ مقابل ١٦ ٪ في عام ١٩٧١ . في قطاع غزة وشمال سيناء ، كان عدد الولادات الحادثة في المستشفيات حوالي ٢٥٤٦ في عام ١٩٧٠ مقابل ٢٧٦١ في عام ١٩٧١ اي بمعدل ١٦ ٪ من مجموع الولادات في عام ١٩٧٠ مقابل ١٥ ٪ في عام ١٩٧١. يلاحظ من تقارب النسبة السابقة من جهة ومن صغرها من جهة ثانية ان حوالي ٨٥ ٪ من الولادات ، في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة، تتم عن طريق القابلات القانونيات وغير القانونيات. اما بالنسبة لعدد العمليات الجراحية المجراة في المستشفيات في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء ، فان تقارب الارقام الدالة لعدد العمليات في الضفة الغربية وقطاع غزة من اصل سنة ١٩٧٠ ، واكثر من ذلك تغلب عدد العمليات في قطاع غزة على العدد المثيل في الضفة الغربية في سنة ١٩٧١ بالرغم من أن عدد سكان قطاع غزة وشمال سيناء اقل بكثير من عدد سكان الضفة الغربية ، كل هذه المؤشرات تدل على سوء الاوضاع الصحية في قطاع غزة ووجود حالات مرضية عديدة تطلبت معالجة جراحية .

ان هذه الصورة الاحصائية لامكانيات قطاع الخدمات الصحية في الاراضي المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ تساعدنا على تقييم هذه الامكانيات وتحديد طرق الاستفادة منها في المستقبل القريب .

مذكرة مقدمة الى مؤتمر العمال الزراعيين لدول البحر الابيض المتوسط : اوضاع العمال الزراعيين الفلسطينيين

اننا اذ نتقدم بمذكرتنا* هذه الى مؤتمركم الكريم نتوجه بأحر التحيات الى اعضاء المؤتمر وبشكرنا الى الهيئة التحضيرية ...

ان المدخل الاساسي لفهم اوضاع ومشاكل العمال الزراعيين الفلسطينيين ، هو بوضعها في الاطار العام لوضع الطبقة العاملة الفلسطينية والشعب الفلسطيني عموما ، من حيث كونه شعبا يعاني من مأساة مستمرة متفاقمة منذ اكثر من نصف قرن متعلقة بحرمانه من حق تقرير مصيره بمحض ارادته وحريته والعيش في أرضه ووطنه . فلقد تكالبت قوى الاستعمار الاوروبي بانواعها لتحول الشعب الفلسطيني من شعب له كيانه الاجتماعي — الاقتصادي — السياسي الواحد الى شعب يتواجد نصفه تحت الاحتلال المباشر ، ويعاني نصفه الاخر من التشرد واللجوء . والواقع أن مسار وضع الفلاحين والعمال الزراعيين الفلسطينيين منذ نصف القرن الماضي وحتى يومنا هذا يشكل الصورة المصغرة والمقدمات الاولية لمسار وضع كل الشعب الفلسطيني ، فقضيتهم هي قضية الارض ، وان قضية الارض هي بالذات قضية الشعب الفلسطيني كله .

وهكذا ، فان مشاكل عمال الزراعة الفلسطينيين لا تعالج في الوقت الراهن من خلال معالجة مشاكل وقضايا طبقة معينة من السكان لها علاقاتها وتناقضاتها المختلفة مع الطبقات الاخرى ضمن حدود البلد الواحد السياسية والاقتصادية . فأوضاع العمال الزراعيين الفلسطينيين لا تناقش ولا يتم فهمها فهما معمقا — كما هو الحال في البلدان الاخرى — عن طريق تبيان وكشف علاقات القطاع الزراعي بالاقتصاد الوطني في البلد المعني واوضاع شرائح هذا القطاع ومختلف العوامل المحيطة به (درجة تطور وسائل الانتاج الزراعي، الملكية الزراعية وتوزيعها ، وسائل وطرق رفع انتاجية العامل الزراعي ، مشاكل تصريف وتسويق المنتوجات الزراعية ، متطلبات العمل النقابي لعمال الزراعة ، الاصلاح الزراعي والجمعيات التعاونية الريفية ، رفع مستوى حياة العامل بما يتناسب مع مستوى معيشة الطبقات الاخرى في المجتمع ، حل التناقض بين الريف والمدينة ، صهر الزراعة صهرا عصريا ، اشتراكيا ... الخ) . ذلك لان النتيجة المباشرة الاولى لاحداث نصف القرن الماضي في فلسطين تجسدت في سلب الشعب الفلسطيني من الارض ، وسيلة الانتاج الاولى واجلائه عنها ، بما في ذلك اجلاء العمال الزراعيين الفلسطينيين ، وهذا جانب يتميز به الاستعمار الاستيطاني الصهيوني عن مثيليه في افريقيا مثلا . واذن ، فدراسة وضع العمال الزراعيين الفلسطينيين ومتابعته مع الزمن يتطلب ليس فقط رؤية الخلفية التي نشأوا فيها وهي خلفية تتشابه مع معظم بلدان العالم الثالث التي ربطت عنوة بالسوق الرأسمالية العالمية منذ اواخر القرن الماضي ، وجرى تغيير اساليب الانتاج في اريافها وزراعتها وعلاقاتها الزراعية ، بل يتطلب ايضا رؤية السمات الخاصة لفلسطين والمتمثلة بسلب شعب كامل من أرضه واجلائه عنها . وقد بدأت عملية السلب هذه بسياسة استعمارية مزدوجة ادخلها الاستعمار البريطاني بعد الحرب العالمية الاولى ، فاتحا الباب في الوقت نفسه امام المستعمرين المستوطنين الصهاينة ، ثم تتوج عام ١٩٤٨ بقيام دولة اسرائيل المتوسعة دائما والتي تكرس حتى يومنا هذا سلب اراضي شعب فلسطين العربي .

التحولات في الزراعة الفلسطينية قبل الاحتلال البريطاني :

كان الطابع العام الغالب في الزراعة العربية الفلسطينية حتى اوائل هذا القرن هو الانتاج الطبيعي او الانتاج للاستهلاك الذاتي ، وكانت وسائل الانتاج الزراعي بدائية تعتمد بشكل رئيسي على القوى الحيوانية وليس على القوى الميكانيكية (الآلية) . اما علاقات الانتاج فكانت في غالبها علاقات بين منتجين صغار احرار مع بعض ملامح

---

* مذكرة اعدها جميل هلال ، الباحث في قسم الدراسات الفلسطينية في مركز الابحاث ، وقدمها للاتحاد العام لعمال فلسطين في مؤتمر العمال الزراعيين لدول البحر الابيض المتوسط الذي عقد في نوفمبر ١٩٧٢ .

العلاقات الاقطاعية الكلاسيكية . كما كان جزء كبير من الارض يقع خارج نطاق السيطرة الفردية وعملية البيع والشراء اذ كانت هذه الاراضي « مشاعا » او ملكا جماعيا **للقبيلة** او القرية او « الحامولة » او « العيلة » . غير ان هذا النظام الاقتصادي السياسي بدأ في التفكك في اواخر القرن الماضي نتيجة للتغيرات المتمثلة في التنظيمات الجديدة ، التي فرضتها السلطات التركية على سكان الامبراطورية ومنهم اهالي فلسطين العرب. فبناء على نظام « الالتزام » الجديد اصبحت الضرائب تجبى نقديا من المحاصيل بعد ان كانت تقتسم عينا . كما استفادت الطبقات العليا في المجتمع من قانون الضرائب الجديد الذي ألغى نظام الملكية الجماعية (المشاع) ونص بتسجيل الاملاك الارضية على اساس فردي . فبدأ افراد الطبقات والفئات العليا بتسجيل الاراضي باسمائهم معتمدين في هذا على خوف الفلاح العادي من زيادة الضرائب ومن التجنيد الاجباري . كما قامت السلطات وكبار التجار والمرابين بالاستيلاء على اراضي الفلاحين اللذين عجزوا او تأخروا عن تسديد ديونهم وفوائدها الباهظة . ولما كانت عمليات الفرز والتسجيل هذه تكلف مبلغا يفوق طاقات قسم كبير من الفلاحين فقد لجأ بعض هؤلاء الملاكين الى بيع اراضيهم او جزء منها الى التجار والوجهاء . وهكذا بأت نظام الالتزام وسيلة لتجريد الفلاح من أرضه في حين ساعد قانون الاراضي الجديد على بلورة طبقة من ملاك الاراضي الكبار . لقد كان لهذه التطورات وغيرها من التحولات وقع هام على حياة الفلاح الفلسطيني . فتطور الملكية الفردية ادى الى تغلل نمط جديد من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية داخل الريف الفلسطيني بحيث تغيرت نوعية العلاقة القائمة بين الفلاح والارض واجبر المزارع على العمل ضمن سوق تجارية رأسمالية. كما وعملت هذه التحولات على خلق طبقة جديدة من العمال الزراعيين لانها جعلت من الفلاح المستملك اجيرا عند اصحاب الارض الجدد ، فالارض التي كانت تربط الفلاح بقريته وتحدد له اسلوب حياته سلبت منه لتصبح ملكا لطبقة ضيقة من الوجهاء والتجار واصحاب رؤوس الاموال الاخرين . وقد رافقت هذه الظاهرة بدايات ظاهرة اخرى وهي هجرة الفلاحين المعوزين الى المدن التي بدأت تنمو في فلسطين في ذلك الوقت ، كما توجه عدد اخر الى شرق الاردن للعمل في اراضي شيوخ القبائل هناك . وبدخول فلسطين في نطاق السوق الرأسمالية العالمية نشطت عملية التصدير الى الخارج وخاصة زراعة الحمضيات التي كانت متطورة في فلسطين (وخاصة مدينة يافا العربية) منذ بداية العقد الثامن من القرن الماضي (كان في يافا آنذاك حوالي ٤٠٠ بستان مساحتها ٣٦٨ هكتارا) . وقد سارعت هذه الحركة في تحسين وسائل الانتاج وادخال الالات الحديثة في الزراعة كالمضخات الآلية التي اصبح تعدادها بالالاف عام ١٩٠٧ . وبهذا يمكننا القول ان الفترة الواقعة ما بين بداية الربع الاخير من القرن الماضي حتى نهاية الحرب العالمية الاولى شكلت بداية لتحولات هامة في اوضاع الزراعة والفلاحين في فلسطين العربية.

الاستعمار المزدوج : البريطاني ــ الصهيوني :

وفي هذه الفترة بالذات بدأت الحركة الصهيونية العالمية بالاهتمام بشكل جدي وعملي بتنفيذ مشروعها الاستعماري ــ الاستيطاني الهادف الى تهويد فلسطين بخلق دولة صهيونية فيها . ولما كانت الصهيونية غير قادرة على الاعتماد على قواها الذاتية لتنفيذ مشروعها الاستيطاني هذا كان لا بد لها من البحث عن قوة استعمارية كبرى تتعهده . فقد كان واضحا ان الهجرة الصهيونية وعملية الاستيلاء على الاراضي لن تتما الا بالقوة وضد ارادة سكان البلاد العرب . ولهذا نجد ان هرتزل، مؤسس الصهيونية السياسية الحديثة كان قد اتصل منذ عام ١٨٩٦ وحتى وفاته في ١٩٠٤ بسبع دول اوروبية عارضا على كل منها تحالف الحركة الصهيونية معها بما يخدم مصالحها الاستعمارية ، واقترح هرتزل ان تشكل الدولة اليهودية في فلسطين بقعة من اوروبا ضد اسيا تكون حسب تعبيره « مركزا اماميا للحضارة ضد البربرية » . فبعد محاولة التقارب الصهيوني ــ الالماني كثفت الصهيونية اتصالاتها مع بريطانيا وخاصة بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى لسبب واحد وهو كون بريطانيا ، بحكم كونها قائدة حركة الاستعمار العالمي وبحكم حجم مصالحها في المنطقة العربية ، القوة المؤهلة لرعاية مشروع الدولة الصهيونية في فلسطين . فكان صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ والذي تعهدت بموجبه بريطانيا انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وبصدور هذا الوعد وباحتلال القوات البريطانية لفلسطين بدأ تنفيذ المشروع الاستيطاني الصهيوني بالقوة وتحت حراسة الاستعمار

البريطاني . وتنتهي هذه الحقبة بقيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ .

باحتلال بريطانيا لفلسطين يكون الشعب الفلسطيني العربي قد دخل تحت سيطرة استعمار مزدوج . فقد جاء الاستعمار البريطاني ليقوي ويعمق التطورات التي برزت بعض ملامحها الاولية في اواخر فترة الحكم العثماني ، وليبني تطورات اخرى ، فعمل على ربط الاقتصاد المحلي (وخاصة القطاع الزراعي) بعجلة الاقتصاد الرأسمالي العالمي لخدمة الاخير . فشق شبكة واسعة من خطوط المواصلات، وطور طرق الاتصال بالعالم الخارجي، كما أدى تعسكر قوات بريطانية في البلاد الى نشوء احتياجات وسعت من نطاق العمالة عبر مشاريع حكومة الانتداب . كما شجع كل هذا على اتساع قطاع الخدمات والادارة وازدياد اهمية المدن وتبلور طبقة برجوازية متوسطة جديدة ، في حين اخذت الطبقات المسيطرة في المجتمع (ذات الجذور الوجاهية وشبه الاقطاعية) تتوجه نحو الاستثمار التجاري والصناعي البسيط ، وازداد حجم الحيازات المتركزة في ايدي حفنة من الملاك الزراعيين خاصة في زراعة الحمضيات . وبتعبير اخر فان تطور الاقتصاد الوطني في فلسطين كان يشبه التطورات التي جرت في البلدان الاخرى التي تعرضت في هذا العصر للاستعمار الاوروبي ، فقد اتجه الاقتصاد الوطني نحو الرأسمالية ولكن في اطار العلاقات الكولونيالية والامبريالية . وبهذا تم تشويه وعجن الاقتصاد الوطني بشكل يجعله صالحا لخدمة الاقتصاد الكولونيالي . وكان من الممكن ان ينتهي ذلك كله بنفس الطريقة التي انتهى اليها الاستعمار البريطاني في الدول العربية الاخرى وبدون ان يسلب الشعب الفلسطيني تراب ارضه ووطنه ، لو لم يكن هذا الاستعمار الكلاسيكي مصحوبا باستعمار اخر من نوع مختلف . ذلك لان الاستعمار البريطاني دخل فلسطين لغرض اساسي وهو تنفيذ المشروع الصهيوني لخلق دولة صهيونية على الاراضي العربية . ولخلق هذه الدولة كان لا بد من توفر شروط معينة حددتها الطبيعة الخاصة للاستعمار الصهيوني في فلسطين. فحتى تصبح « فلسطين في النهاية يهودية كما انجلترا انجليزية » كان لا بد من شحن السكان اليهود الى فلسطين ، اي ان الهجرة الاستيطانية هي سمة اساسية من سمات حركة الاستعمار الصهيوني . وهكذا تميزت فترة الانتداب البريطاني في فلسطين بالهجرة الاستيطانية المكثفة . فمن المعروف ان عدد اليهود في فلسطين وقت الاحتلال البريطاني عام ١٩١٨ كانوا (٥٦) الف نسمة يشكلون ٨٪ من مجموع السكان العرب ، وقد ارتفع هذا العدد في غضون اربع سنوات فقط (سنة ١٩٢٢) الى ٧٣،٠١٤ نسمة بشكل ١٢٪ تقريبا من مجموع السكان ، ثم ١٧٤،٩٨٠ نسمة سنة ١٩٣١ يشكل حوالي خمس السكان العرب واستمرت هذه النسبة في الارتفاع الى ان وصلت الى ٣٣٪ من مجموع سكان البلاد سنة ١٩٤٨ . هذا في حين كانت نسبة تزايد السكان العرب الطبيعية تضاهي اكثر من ضعفي نسبتها عند اليهود مما يعطي فكرة واضحة عن ضخامة حجم الهجرة الصهيونية الى فلسطين في فترة الاستعمار البريطاني . ولكن الاستعمار الصهيوني لم يكن من النوع الاستيطاني العادي : فالفرض الاساسي وراء هذا الاستيطان كان تحقيق الهدف الصهيوني الذي كان شعاره « ارض بلا شعب (فلسطين) لشعب بلا ارض » . فالاستيلاء على الارض واجلاء سكانها الاصليين سمة اساسية اخرى من سمات الاستعمار الصهيوني حين احتلت بريطانيا فلسطين عام ١٩١٨ كان اليهود (بموجب المعطيات الرسمية للانتداب البريطاني) يملكون (٢،٥٪) من اراضي فلسطين ارتفعت هذه الى ٥،٦٪ في منتصف ١٩٤٨ ، اما عدد المستوطنات الصهيونية فقد ارتفع من ٧١ عام ١٩١٩ الى ٢٥٩ عام ١٩٤٤ . اذن لم يكن لدى الحركة الصهيونية سوى وسيلة واحدة لتحقيق هدفها في انشاء الدولة اليهودية في فلسطين، الا وهي الاستيلاء على **الارض** في فلسطين. فلم يكن بمقدور الحركة الاستعمارية الصهيونية من انشاء دولتها بدون الاستيلاء على الارض ولم يكن هناك من وسيلة لتحقيق هذا وايجاد الاغلبية اليهودية المنشودة بدون طرد السكان الاصليين او تحويلهم الى اقلية صغيرة . ومن هنا اكتسب الاستعمار الاستيطاني الصهيوني سمته الاجلائية المتميزة . فلم تهدف الصهيونية كحركة استعمارية الى استغلال الموارد الطبيعية والبشرية في فلسطين بل كانت تريد **الارض** الفلسطينية نفسها . واضح ان الصهيونية ادركت اولوية الارض منذ البداية. وقد كتب خبير الاراضي الصهيونية «اغرنوفسكي» يقول « ان مسألة الاراضي هي في الواقع مسألة حياة او موت للصهيونية والوطن القومي ، فاذا

بقيت الاراضي بعيدة المنال فلا يمكن تحقيق هدف الصهيونية » .

ولهذا سعت الحركة الصهيونية منذ سنة ١٨٧٥ للحصول على الاراضي العربية في فلسطين فحصلت على مساحات متفرقة كهبة من الحكومة التركية بحجة انشاء مدارس ومختبرات زراعية واشترت من اقطاعي الاراضي في دمشق وبيروت وفلسطين مساحات اخرى بأثمان مغرية . كما حصلت الصهيونية بموجب صك الانتداب على تسهيلات واسعة للاستيلاء على الاراضي ومنحتها الحكومة البريطانية ٣٠٠،٠٠٠ دونم من اراضي الدولة ، وأجرت للصهاينة ١٠٠،٠٠٠ دونم اخرى بايجار اسمي .

كان اليهود يملكون عند الاحتلال البريطاني ٦٥٠،٠٠٠ دونم فقط من الاراضي ارتفعت هذه لتصبح ١،٧٤٨،٥٠٠ دونم عند انتهاء الانتداب . وقد تملكوا هذه الاراضي بالطرق التالية :

— هبة من الحكومة التركية وشراء من الملاكين غير الفلسطينيين من ١٨٧٨ — ١٩١٨	٦٥٠،٠٠٠ دونم
— هبة من الحكومة البريطانية	٣٠٠،٠٠٠ دونم
— شراء من اقطاعيين غير فلسطينيين في فترة الانتداب	٤٢٠،٠٠٠ دونم
— شراء من اقطاعيين فلسطينيين	١٨٦،٠٠٠ دونم
— شراء من الاديرة والمؤسسات الاجنبية	١٢٠،٠٠٠ دونم
— شراء من صغار الملاكين الفلسطينيين	٧٢،٥٠٠ دونم
المجموع	١،٧٤٨،٥٠٠

فبالرغم من ان ٨٠٪ من المهاجرين اليهود الى فلسطين انتقلوا اليها مباشرة من المدن الاوروبية نجد ان الاطماع الصهيونية كانت تتجه بشكل اساسي الى الريف الفلسطيني وامتلاك الاراضي الزراعية . ان هذه المفارقة تزداد حدة ان تذكرنا بأن الريف الفلسطيني كان — في ذلك الوقت — المجتمع الفلسطيني : مجتمع يعيش في الدرجة الاولى — على نتاج عمل المعول والفأس والمحراث. فمسألة الارض هي صميم المشكلة الفلسطينية . وقد اعترفت اللجان المختلفة التي كانت ترسلها الحكومة البريطانية للتحقيق في اسباب الانتفاضات المتتالية في تقاريرها من ان اهم دوافع هذه الانتفاضات هو تشريد المزارعين العرب عن ارضهم التي فلحوها لعشرات السنين واغلاق مجالات العمل والاستخدام امام العمال الزراعيين والفلاحين المعدمين وازدياد عددهم باستمرار وحرمان العرب من مساحات كبيرة من اخصب الاراضي . يقول سمبسون في تقريره الرسمي للحكومة البريطانية عن أسباب اضطرابات عام ١٩٢٩ بأن « النتيجة التي اسفر عنها شراء الصندوق القومي اليهودي للاراضي بفلسطين هي اخراج تلك الاراضي عن اقليم البلاد . فيبطل اذاك كونها ارضا يستطيع العربي ان يجني منها اية منفعة ، الان وفي المستقبل ، وليس فقط انه لا يستطيع ابدا تعليل النفس باستئجارها او حراثتها ، بل هو محروم الى الابد ، بموجب احكام الايجار الصارمة لدى الصندوق القومي ، من الاستخدام في تلك الارض » .

أما قانون الصندوق القومي اليهودي فقد نص على تجريم المزارعين اليهود من مستأجريه بدفع غرامات او طردهم من الارض متى ما خرقوا قانون عدم استخدام اليد العاملة العربية . وكان دستور الوكالة اليهودية قد نص عام ١٩٢٩ على ان « تعمل الوكالة على انجاح الاستيطان الزراعي القائم على العمل اليهودي ، كما تعتبر من المسائل المبدئية ضرورة استخدام اليد العاملة اليهودية في جميع المشاريع والاعمال التي تتعهد الوكالة تنفيذها او تنميتها » .

وبهذا تتضح مجموعة العوامل التي تضافرت لتحويل الكثير من الفلاحين الصغار والمستأجرين الى طبقة مسحوقة معدمة تعاني من قوانين عنصرية تحرمها ليس من الارض فحسب بل من حق العمل نفسه . كان من اهم هذه العوامل الاستيطان الصهيوني واستلاب الاراضي العربية من جهة واعتماد المؤسسات الصهيونية سياسة « العمل العبري » وسياسة « غزو العمل » التي حددتها الهستدروت والتي سعت باستمرار الى تبديل العمال العرب بالعمال اليهود من جهة اخرى . وهذا يعني ان يتغلغل العمل اليهودي في جميع مجالات العمل الاساسية وخاصة في مجال العمل الزراعي . ان المطالبة بمنع تشغيل العمال الزراعيين العرب كانت وراء انشاء الهستدروت وسرعان ما اتجهت هذه وخاصة بعد عام ١٩٢٨ الى طرد العمال العرب بالقوة . والواقع انه لم

يكن بامكان الصهيونية الاستمرار يوما واحدا بدون مساعدة ودعم الاستعمار البريطاني . فالضرائب المباشرة التي كانت تجبيها السلطات البريطانية (وصلت باعتراف التقارير البريطانية الرسمية الى معدل ١٦،٥٪ من دخل الفلاح المالك و ٢٨٪ من دخل الفلاح المستأجر) شكلت ولا ريب عبئا اضافيا على كاهل الفلاح الفلسطيني .

وفيما عدا ذلك كان الفلاح الفلسطيني الصغير (والذي يمكن تعريفه بأنه العامل الزراعي الذي يعمل على أرضه وبدون استخدام العمل المأجور) يقع تحت وطأة دين دائم بحيث اضحى بحكم التراكم ومعدل الفائدة الفاحش ، غير قادر في اكثر الحالات على تسديد ديونه من دخله من الارض مما أجبره على العمل المأجور في مزارع الآخرين او في مجالات العمل الاخرى . وقد قدرت لجنة جونسون البريطانية ديون الفلاحين بمليوني جنيه فلسطيني اي بمعدل ٢٧ ليرة للعائلة الواحدة ولما كان معدل الدخل السنوي الصافي لعائلة فلاحية متوسطة سنة ١٩٢٩ يتراوح بين ٢٥ — ٣٠ جنيها فلسطينيا تبين مدى الاستغلال الذي كان يتعرض له الفلاح الفقير وحتى المتوسط في فلسطين في فترة الانتداب البريطاني .

مأساة الفلاحين والعمال الزراعيين الفلسطينيين في الثلاثينات والاربعينات كصورة مصغرة لنكبة الشعب الفلسطيني كله :

لم يمض وقت طويل حتى تحققت مخاوف العرب من أن تؤدي حرية الاستيطان وانتزاع الاراضي الى فقدانهم وسائل معيشتهم : فحسب مصادر لجنة جونسون — جروسبي الرسمية والتي قامت سنة ١٩٣٠ ، بدراسة ١٠٤ قرى عربية في فلسطين شكل العمال الزراعيون ما يقارب من ٣٠ ٪ من مختلف فئات الفلاحين او العاملين في الزراعة . وترتفع هذه النسبة الى ٧٠ ٪ ان أضفنا الى العمال الزراعيين فئة الفلاحين الفقراء الذين يعيشون من مدخول أراضيهم وما يتلقونه من أجور لقاء دخولهم الى سوق العمل المأجور بين الحين والآخر .

يبين الجدول التالي توزيع المشتغلين بالاعمال الزراعية الرئيسية في فلسطين عام ١٩٣١ :

نوع العمل	المجموع	عرب	يهود	غيرهم
— المزارعون الاعتياديون (يعملون في زراعة الحبوب بشكل أساسي)	٧٠٫٥٢٦	٦٥٫٥٦٦	٣٫٦٦٩	١٫٢٩١
— منتجو محاصيل خاصة (كالاثمار والخضروات)	١٢٫٢٠٠	٨٫٢٤٢	١٫٦٢١	٣
— منتجو البرتقال	٣٫٨١٠	٢٨٦	٣٫٧٥٤	٢٠٤
— أجراء في المزارع	٣٢٫٥٣٩	٢٩٫٥٨٩	٢٫٥٨٢	٣٦٨
المجموع	١١٩٫٠٧٥	١٠٣٫٦٨٣	١١٫٦٢٦	١٫٨٦٦

ويظهر الجدول ان نسبة عمال الزراعة العرب تعادل ٢٨ ٪ من مجموع العاملين في الزراعة العربية . وهي تقارب النسبة المستخرجة من الاحصاء السابق لـ ١٠٤ قرى فلسطينية .

ان السبب الاساسي الذي أدى الى ظهور هذا الوضع هو الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي خلق اقتصادا ثنائيا مغلقا يقوم على « العمل العبري » واستثناء العمال العرب كلية ، وعلى « شراء منتجات الارض » اليهودية وعلى سياسة « افتداء الارض » اي شراء الارض من ملاك الاراضي الغائبين في الغالب وطرد العمال والمستأجرين العرب منها وتوطين المهاجرين اليهود عليها بدلا منهم . وقد أدى ازدياد اوضاع العمال الزراعيين العرب بؤسا الى هجرة عدد كبير منهم الى المدن وعرض انفسهم في أسوأ شروط لسوق العمل . وفي بعض المواسم الزراعية وخاصة موسم الحمضيات كان يهاجر الى مدينة يافا لوحدها ما بين ١٠ — ١٥ الف عامل زراعي فلسطيني يسكنون في مزارب من التنك ويعيشون في أسوأ الاحوال السكنية والصحية .

عانى العامل الزراعي الفلسطيني طوال فترة الانتداب البريطاني من جميع انواع البطالة (الموسمية والدائمة والمقنعة) مما أجبره على هجرة قريته الى ضواحي المدن ليعيش في مناطق سكنية مزرية (قدر عدد سكان الاحياء الفقيرة ومدن الصفيح من العرب في يافا ، القدس وحيفا بـ ١٢١،٠٠٠ نسمة). ويقترن هذا الوضع المتردي للعامل الفلسطيني (الذي تربطه بالريف الفلسطيني علاقات متشعبة) بظروف عمل قاسية متميزة . فالاجور التي كان يتقاضاها العامل العربي الفلسطيني أسوأ بكثير من أجور العامل الزراعي اليهودي كما تشير الارقام التالية (بالمليمات الفلسطينية) :

	أجور العمال العرب (مليم)			أجور العمال اليهود (مليم)		
	١٩٣٩		١٩٤٤/١٩٤٥	١٩٣٩		١٩٤٤/١٩٤٥
	ذكور	أناث	ذكور	أناث	ذكور	أناث
عمال						
البيارات	١١٠	٦٠	٤٥٠	٣٠٠	٣٦٣	١٧٥	١٠١٠	٦٢٥
الحراثون	٢٠٠	—	١٠٠٠	—	٢٢٥	—	١٠٠٠	—

بقي العمل الزراعي اساس الاقتصاد الفلسطيني رغم كل التغيرات التي ادخلت على خارطة فلسطين الاقتصادية والسياسية والديموغرافية خلال فترة الاستعمار البريطاني ، وبقي المجتمع الفلسطيني مجتمعا ريفيا حتى حلول نكبة ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل . وقد شكل سكان القرى حوالي ٧١ ٪ من مجموع السكان العرب سنة ١٩٢٢ وانخفضت هذه الى ٦٦ ٪ سنة ١٩٤٤ . اي ان حوالي ثلثي السكان العرب كانوا قبيل قيام دولة اسرائيل من سكان الريف موزعين على حوالي (٨٥٠) قرية .

كان عدد سكان فلسطين العرب سنة ١٩٤٨ حوالي ١،٣٨٠،٠٠٠ نسمة يملكون ٩٤،٦ ٪ من اراضي فلسطين . ولكن حرب ١٩٤٨ التي شنتها القوات الصهيونية المسلحة والمدربة جيدا من قبل السلطات البريطانية على الشعب العربي الفلسطيني الذي حرم من حق الدفاع عن النفس ، مكنت القوات الصهيونية من الاستيلاء على ٧٧،٤ ٪ من مساحة ارض فلسطين بعد أن طردت وأجلت منها جميع سكانها العرب ما عدا أقلية صغيرة لم تتجاوز ١٧٠،٠٠٠ نسمة ، وبهذا تم طرد وتشريد ٥٧٪ من السكان العرب وتحويلهم الى لاجئين بعد أن فقدوا أراضيهم وأسباب معيشتهم وأملاكهم . وهكذا يكون الاستعمار البريطاني والصهيوني قد نجحا في تمزيق أوصال المجتمع الفلسطيني القائم وحرمانه من وسيلته الانتاجية الاولى — الارض . هذا بعد ان نجحا في خلق وبلورة طبقة من العمال الزراعيين والفلاحين المعدمين عانت من ظروف معيشية وعملية قاسية جدا ، عدا التمييز العنصري الذي مارسته ضدها مؤسسات الاستعمار الصهيوني الاستيطاني.

الوضع الزراعي بعد قيام الدولة الاسرائيلية :

بقيام اسرائيل فقد الشعب الفلسطيني الجزء الاكبر من أرضه وتحول نصفه الاخر الى لاجئين معدمين يعيشون في الشتات . أما النصف المتبقي من هذا الشعب فقد تحول قسم منه الى اقلية عربية محاصرة داخل اسرائيل نفسها وبقي القسم الاخر في الجزء غير المحتل من فلسطين اي في الجزء الذي اصبح يعرف بعد التحاقه بالاردن بالضفة الغربية ، وكذلك في قطاع غزة .

تعرضت (ولا تزال) الاقلية العربية في اسرائيل الى الاضطهاد القومي والتمييز العنصري . وهذه هي الظروف المميزة الخاصة بها ، والتي تنعكس ايضا في ظروف خاصة بالعمال الزراعيين العرب هناك . فمنذ انشاء الدولة الصهيونية وحتى عام ١٩٦٦ فرض على العرب الحكم العسكري الذي تبيح قوانينه حرمان الخاضعين له من كل حقوق المواطنة الاساسية (الاعلان عن مناطق معينة كمناطق مغلقة وتحديد الدخول اليها والخروج منها، وضع اي شخص تحت رقابة الشرطة ، وفرض الاعتقال الاداري لفترة غير محددة ... الخ) . وعند الغاء الحكم العسكري لم تلغ هذه القوانين ولكن الصلاحيات التي يمنحها الحكم العسكري اعطيت لاجهزة مختلفة في الادارة . وقد لجأت اسرائيل الى اتخاذ شتى الاجراءات الرامية الى

مصادرة ما يمتلكه العرب من الاراضي في البلاد سواء منهم المقيم أو الموجود خارج اسرائيل . ففي فترة حرب ١٩٤٨ تم الاستيلاء على مساحات ضخمة من الاراضي العربية ، واستمرت عملية الاستيلاء على الاراضي بسرعة اكبر وبصورة تعسفية فاشية بعد انتهاء المعارك في اواخر ١٩٤٨ . فقامت اسرائيل بطرد السكان العرب الى ما وراء خطوط الهدنة أو نقلتهم من قراهم الى اماكن أخرى داخل الدولة — وما مأساة اهالي اقرت وكفر برعم التي ظهر شبحها مؤخرا الا صورة مصغرة لمأساة مئات الالاف من الشعب الفلسطيني . كما سنت اسرائيل مختلف القوانين بهدف الاستيلاء على ما تبقى من الاراضي العربية ، مثل قانون أملاك الغائبين الذي يمنح الدوائر المعنية سلطة ان تقرر « خطيا ان انسانا او جماعة من الناس هم غائبون » وبهذا يسري عليهم القانون ، اي تسلب اراضيهم وممتلكاتهم وتوضع تحت تصرف السلطة الصهيونية . وبهذا تمكنت الحكومة الاسرائيلية من تشريد سكان عشرات القرى العربية من قراهم ومصادرة أرضها وبيوتها وتحريم سكانها من العودة اليها . وقد بلغت الاراضي المصادرة اكثر من مليون دونم تشكل أكثر من نصف الاراضي التي كانت تملكها الاقلية العربية عند قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ . ولا تزال سياسة الاستيلاء على الارض على حدتها فهناك قضية اراضي بدو النقب التي تبلغ مساحتها ٢ مليون دونم .

وفرضت السياسة الاسرائيلية تغيرات وتشويهات متنوعة على الزراعة العربية في اسرائيل أدت الى بقاء الزراعة في وضع متخلف ، كما خلقت بسبب الافتقار الى الارض جيشا من الايدي العاملة الرخيصة . ففي القطاع الزراعي العربي يوجد جرار زراعي واحد لكل ٢٠٠٠ دونم بينما ترتفع هذه النسبة في القطاع اليهودي الى ٥ جرارات لكل ٢٠٠٠ دونم (أي خمسة أضعاف ما يوجد في القطاع العربي) . وتشكل الاراضي العربية المروية حاليا ٤٫٦ ٪ من مجموع المساحة التي لا زالت تسيطر عليها الاقلية العربية . بينما تشكل الاراضي « اليهودية » المروية حوالي ٤٧ ٪ من مجموع المساحة المزروعة . ان تنمية الزراعة في المناطق الجبلية الوعرة التي تبقت للعرب بعد ان استولت اسرائيل على الاراضي السهلية يحتاج الى الالات الزراعية الحديثة لتطويرها وهذه تحتاج بدورها الى رؤوس الاموال التي لا يملكها المزارع العربي والتي ترفض السلطات الاسرائيلية او البنوك تقديمها اليه بشكل تسليفات وقروض . كما تضع السلطات الاسرائيلية أمام الفلاح العربي عدة عراقيل كالاسعار المنخفضة والخضوع لرقابة وزارة الزراعة مما يقيد حرية المزارع في انتقاء المحاصيل التي تتناسب مع امكانياته ومتطلبات السوق ، وتسليط الشركات الاحتكارية على انتاجه ، كما ويجد الفلاح العربي صعوبات بالغة في تسويق انتاجه (التبغ مثلا) ، كما ان السعر الذي يتقاضاه الفلاح العربي أقل بكثير مما يحصل عليه الفلاح اليهودي وهذا يعني ان اجور العامل الزراعي العربي تبقى بالضرورة ادنى بكثير من اجور العامل الزراعي اليهودي ، ويعود السبب الى كون الانتاج الزراعي العربي أرخص من الانتاج اليهودي ولكون انتاجية العامل الزراعي العربي أقل من انتاجية العامل اليهودي بسبب جودة الارض التي تستغلها اسرائيل من جهة وبسبب وضع التخلف الذي تكرسه هذه في المناطق العربية (غياب أدوات الزراعة الحديثة ، حرمان العامل العربي من التدريب على استعمال هذه الالات والصعوبات الهائلة التي يلاقيها الفلاح العربي في اقتناء واستخدام ادوات الانتاج المتطورة ...) . كما ويعاني الفلاح العربي من عدم وجود جمعيات تعاونية تسلفه الاموال وتساعد في تسويق محاصيله ليتمكن من الصمود .

ولهذا كله بقيت الزراعة العربية في اسرائيل تواجه جملة من الظروف الاقتصادية والعملية الصعبة والتي تعود جذورها واسبابها الى عوامل سياسية مختلفة ، يرتبط بعضها بقيام الدولة الصهيونية ذاتها ، والبعض الاخر يعود الى سياسة التمييز العنصري الصهيوني والسياسة الاسرائيلية المتعمدة تجاه الزراعة العربية والعاملين فيها . واذا ما نظرنا الى الحاجات والمتطلبات الآنية لوقف تدهور الزراعة العربية في اسرائيل ومن ثم تنميتها ، فانها تتركز قبل كل شيء بالنضال من اجل الغاء مجموعة القوانين الاسرائيلية التي تميز ضد الاقتصاد الزراعي العربي وضد الاقلية العربية والمطالبة كذلك بارجاع أهالي القرى (مثل أهالي قريتي اقرت وكفربرعم وغيرهما) الى قراهم ، وازالة العراقيل القانونية والسياسية التي تقف في وجه انشاء تعاونيات عربية تساعد الفلاح العربي على تطوير وتنمية الزراعة وازالة الفروق بين الفلاح العربي والفلاح اليهودي . ان التمييز ضد الفلاح العربي

يتجلى في مجالات متعددة . فدخل الفلاح العربي مثلا يقل بكثير من نصف دخل الفلاح اليهودي . فقد نشرت اللجنة الشعبية للتفتيش الزراعي عام ١٩٦٠ بعض الحقائق التي تدعم هذا القول : لقد ذكرت هذه اللجنة ان متوسط دخل الفلاح العربي كان ما بين (١٥٠٠ و ١٧٠٠) ليرة اسرائيلية ، بينما كان متوسط دخل الفلاح اليهودي من انتاجه الزراعي يساوي ٣١٢٢ ليرة اسرائيلية ، واذا أخذنا بعين الاعتبار ان متوسط عدد افراد عائلة الفلاح العربي يفوق بكثير متوسط عدد أفراد عائلة الفلاح اليهودي يتضح لنا ان دخل الفلاح العربي يتراوح ما بين ٢٥ ٪ و٤٠ ٪ من دخل الفلاح اليهودي . هذا عدا عن المساعدات المالية التي تقدمها الحكومة والمؤسسات الاسرائيلية للفلاح اليهودي وتحجم عن تقديمها الى الفلاح العربي . وما يقال عن الفلاح العربي بشكل عام يقال ايضا عن العامل الزراعي العربي اذ يتقاضى العامل اليهودي اكثر بكثير من العامل العربي .

يعمل ما بين ٣٠ ٪ و٤٠ ٪ من الشغيلة العرب في قطاع الزراعة (ويشكلون اكثر من خمس مجموع العاملين الزراعيين في اسرائيل ، وتجدر الملاحظة هنا الى ان عدد الشغيلة الزراعيين العرب ظل ثابتا تقريبا منذ الخمسينات وان نسبتهم الى مجموع الشغيلة تنخفض تدريجيا) . لقد كان عدد العاملين العرب في الزراعة سنة ١٩٦٧ يساوي (٢٥٫٠٠٠) من مجموع العاملين العرب البالغ عددهم ٦٧٫٦٠٠ ألف يشكلون بهذا حوالي ٤١٫٢٪ من القوة العاملة العربية . ويشكل هذا الرقم حوالي ٢٢٪ من مجموع العاملين في الزراعة في اسرائيل . وتتضح حقيقة هذا الرقم اذا تذكرنا ان الاقلية العربية في اسرائيل تشكل حوالي ١٢ ٪ من مجموع السكان (كان عدد ما تبقى من العرب في اسرائيل عام ١٩٤٩ لا يزيد عن ١٧٠ الفا ، وصل الى ٢٩٧ ألفا سنة ١٩٦٧ ويبلغ عددهم الان حوالي ٤٠٠ الف نسمة) . ويعيش حوالي ٦٢ ٪ من العرب في اسرائيل في القرى يشكلون بهذا حوالي ٤٠ ٪ من مجموع سكان الريف في اسرائيل . وقد اشتغل في الزراعة ، وفقا لاحصاءات قوة العمل الاسرائيلية سنة ١٩٧٠ ما يعادل ٢٥٫٣ الف عربي ، منهم ١٤٫٨ الف ، اشتغلوا في أماكن سكنهم (أي في القرى العربية) و١٠٫٥ الف خارج قراهم . وتفيد الارقام المتوفرة ان عدد العمال الزراعيين العرب بلغ في نفس السنة ١٢٫٤ الف عامل . وبهذا يكون عدد العمال الزراعيين الذين اشتغلوا كمأجورين في القرى العربية نفسها حوالي الالفي شخص فقط . وهذا يعني ان مشاكلهم مرتبطة بشكل عضوي بمشاكل واوضاع الزراعة العربية المتخلفة (التي لا تستطيع توظيف الا نسبة صغيرة من العمال الزراعيين) من جهة ، ومرتبطة أيضا بأوضاعهم كعمال زراعيين مأجورين يعملون في قطاع الزراعة الاسرائيلي المتطور اقتصاديا ورأسماليا .

ان تخلف عمال الزراعة العرب عن الالتحاق بنقابة العمال الزراعيين التابعة للهستدروت ظاهرة تستوجب الانتباه ، فأقل من خمس عمال الزراعة العرب ، كانوا منظمين في الهستدروت عام ١٩٦٨ . ويعود السبب الى الدور الذي تلعبه هذه المؤسسة التي أوجدت لترعى المصالح الصهيونية ، والتي تشكل جزءا لا يتجزأ من المؤسسة الحاكمة الاسرائيلية وانشئت أصلا لمحاربة العمل العربي والمنتوجات العربية الزراعية . ولهذا فالوضع اليومي المباشر يستدعي السعي الجدي لايجاد وضع نقابي فعال للعمال العرب عموما وعمال الزراعة العرب بشكل خاص اما عن طريق خلق الظروف القانونية والسياسية التي تسمح لهم بانشاء نقابات خاصة بهم او طريق انشاء تنظيمات من نوع آخر كالتعاونيات والجمعيات والاتحادات التي تقوم في ظل غياب تنظيم نقابي عمالي مستقل برعاية مصالحهم النقابية وتحسين ظروفهم المعيشية والعمالية والغاء القوانين والاجراءات العنصرية التي تميز ضدهم . وان وضع حد لتدهور الزراعة العربية في اسرائيل ومن ثم تطويرها وتنميتها ورفع مستوى وسائل الانتاج فيها مرهون بتحسين اوضاع ومستوى العمال الزراعيين العرب ومحاربة الاضطهاد والقهر القومي الموجه ضدهم . ان نجاح هذه المهمات يعتمد — في النهاية — على انتزاع الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره وعلى مدى قدرة القوى الثورية والتقدمية في المنطقة على تحرير الاسرائيليين من الصهيونية .

اللاجئون الفلسطينيون والعمل الزراعي :

بينما كانت اغلبية سكان فلسطين العرب قبل قيام اسرائيل (١٩٤٨) من اهالي الريف ، كانت الاغلبية العظمى (حوالي ٨٠ ٪) من المهاجرين اليهود الى فلسطين من سكان المدن الاوروبية . وبهذا يكون الريف الفلسطيني قد تعرض الى اضطهاد مزدوج :

الاضطهاد الذي تم عن طريق مدنه المحلية (حيث تتواجد الطبقات المسيطرة) والاضطهاد الاشد والذي امتد من مدن اوروبا ليلغي هذا الريف بشكل حاسم وشبه كلي . وكما بينا سابقا لم ينحصر هدف الحركة الصهيونية كحركة استعمارية على سلب الارض وتحويل سكانها الى جيش من العمال المحترفين بل رمت منذ البداية الى سلب الارض واجلاء سكانها الى خارج حدود الدولة اليهودية . وهكذا تحول القسم الاكبر من الشعب الفلسطيني الى لاجئين معدمين تمركز اغلبهم في الدول العربية المجاورة كالاردن ولبنان وسوريا . وهكذا ظهرت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين على جيز الساحة الدولية . وفي كانون الاول لعام ١٩٤٩ وضعت بعثة المسح الاقتصادي التابعة للامم المتحدة تقريرا ذكرت فيه أن نحو (٧٢٦ر٠٠٠) فلسطيني ، وهم الذين طردوا عنوة من ديارهم اثناء ١٩٤٨ ، قد أصبحوا لاجئين لان اسرائيل سدت عليهم سبل العودة الى ديارهم . ان تعريف الانروا للاجيء كان منذ البدء تعريفا ضيقا استثنى اكثر من ٢٠٠ الف شخص من بين المقيمين في قطاع غزة وقرى الحدود على الاردن وبعض القبائل الرحل . ومع ان الامم المتحدة ، باجماع اعضائها ، تؤكد سنة بعد اخرى على ضرورة اعادة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم او تعويضهم الا ان ايا من الامرين لم يتم حتى الان بسبب رفض اسرائيل لهذه القرارات . كان مجموع عدد اللاجئين في الانروا في أيلول ١٩٧٠ يساوي ٤٣٦ر٨٤٠ر١ موزعين على الشكل التالي :

شرق الاردن	٥١٧ر١٥٥
الضفةالغربية	٢٦٩ر٩٩٥
غزة	٣١٢ر٩٢١
لبنان	١٧٦ر٨٩٣
سوريا	١٥٩ر٨٧٧

اما عدد الفلسطينيين في تلك السنة فكان يقدر بثلاثة ملايين نسمة وبهذا يشكل اللاجئون اكثر من نصف الشعب الفلسطيني اذا اخذنا بعين الاعتبار الفلسطينيين الذين لم يدخلوا في سجلات الانروا . اي ان حوالي نصف الشعب الفلسطيني اصبح محروما من الدخول في علاقات انتاجية زراعية على ارض الوطن . ان هذه حقيقة مهمة جدا وخاصة وان ٧٠ ٪ من اللاجئين الفلسطينيين كانوا من سكان الريف .

من المعتقدات الشائعة في الغرب ان اللاجئين لم يستوطنوا وظلوا بلا عمل لان الحكومات العربية منعتهم من الاستيطان او احتفظت بهم رهائن بمنعهم من الاستيطان او السعي طلبا للعمل على افتراض ان الحكومات العربية تريد ابقاء القضيةالفلسطينية حية في نظر العالم . غير ان الواقع يؤكد العكس تماما . يقول جون ديفز الذي عمل خمس سنوات في بيروت مفوضا عاما لوكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في كتابه « السلام المراوغ » ، ردا على هذا المعتقد :

« عقب احداث ١٩٤٨ وجد كافة الرجال القادرين من اللاجئين والذين يمتلكون مهارات لازمة في البلدان العربية او غيرها ، اعمالا واصبحوا يعيلون انفسهم فورا تقريبا ولم يعتمدوا قط على الصدقة والاحسان الدوليين ، وهذه الفئة تشكل حوالي ٢٠٪ من مجموع القوى التي غادرت ديارها في فلسطين في عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، ومعظم هؤلاء من القطاع المدني الفلسطيني ... وعلى النقيض من ذلك لم يصب القطاع الفلاحي من اللاجئين والذي يشكل ٧٠٪ من مجموع عددهم في سنة ١٩٤٨ ، هذا النجاح ، فمشكلة هذا القطاع كانت ولا تزال ان لاجئيه اصبحوا فائض عمال زراعيين في حقبة اصبح في العالم عموما ، وفي البلدان العربية بوجه خاص ، فائض من الناس في قطاعاتهم الريفية . وفي الواقع ان الشباب الريفيين في الاقطار العربية يصلون الى سن البلوغ بمعدل في الجيل الواحد يزيد ثلاثة اضعاف ما هو مطلوب للحلول محل الكهول والشيوخ وهو وضع يفاقمه ويزيده سوءا ان الاملاك الزراعية النموذجية هي اصغر من ان تعيل اسرة مؤلفة من ثمانية او عشرة افراد او ان تستخدم التجهيزات العصرية استخداما وافيا ... » (ص ٧٧) . وفي وضع كهذا ، وضع زراعي متخلف يرافقه ضغط سكاني هائل ومتفاقم على الارض الزراعية وجد اللاجئون الفلسطينيون الريفيون انفسهم في ظروف عمل لا تساعدهم على المزاحمة والمنافسة في سوق العمل . اضف الى ظروف العمل الموضوعية هذه ما حل بالفلسطينيين بعد ربع قرن من اللجوء والتشرد وتتضح اسباب البطالة وقلة العاملين الزراعيين بين صفوف اللاجئين . يضيف جون ديفز قائلا :

« لكن مشكلة اللاجئين الاوائل كانت البداية فقط ،

فمنذ عام ١٩٤٨ يصل نحو ٣٠ الف فتى الى سن البلوغ كل عام من الاسر المعالة على وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين . وهذا يعني ان ما يزيد على نصف مليون فرد قد بلغوا سن النضج في العقدين الماضيين ... ولما كان آباء اللاجئين الفلسطينيين الريفيين بلا عمل فالابناء تنفتح امامهم فرص محدودة ، اذا تفتحت ، لتعلم حتى ضبط النفس في العمل او مهارات الاباء ، لذلك فاللاجئون البالغون هؤلاء ، بتنافسهم مع الشباب الاخرين ولا سيما الفتيان الريفيين ابناء البلاد ، يكونون في الوضع الخاسر تماما ... ان هؤلاء اللاجئين الشباب الذين بلغوا سن الرشد في العقد الماضي لن يكونوا مزاحمين اقوياء في حقل العمل الفلاحي لانهم لم يشبوا وهم يعملون في الارض ولم يتلقوا من ناحية اخرى تدريبا زراعيا (ولما كانت الارض غير متوفرة لهم فتدريبهم الزراعي يعطي اثرا ضئيلا) ، وعلاوة على ذلك فالسكان الريفيون المحليون في البلدان العربية جميعها ، وفي العالم اجمع ، يقدمون من المرشحين ، ذوي الخبرة الزراعية ، للعمل الزراعي اكثر بكثير مما تستطيع الاراضي الصالحة للزراعة استيعابه » . (ص ٧٨)

وبهذا فان تطوير وتنمية الزراعة في البلدان العربية لن يحل مشكلة اللاجئين ، فهذه البلدان لا تملك الارض الكافية لتشغيل ابناء البلاد المحليين في القطاع الريفي . وسيبقى ابناء البلاد المحليين المرشحون الاقرب من اللاجئين الشباب للعمل في الزراعة لسببين : الاول لان الحكومات العربية ترى ان للاجئين الحق في العودة الى فلسطين المحتلة ، والثاني لان ابناء البلاد المحليين شبوا وهم يعملون في الارض بعكس ابناء اللاجئين الذين شبوا بعيدا عن جو الريف والزراعة وليست لديهم المهارة في هذا المجال لمنافسة ابناء البلاد المحليين .

ان كل هذه العوامل مجتمعة جعلت وضع اللاجئين الفلسطينيين يختلف عن اوضاع ابناء الشعوب العربية المتواجدين بينها . ويظهر هذا جليا في انخفاض نسبة العاملين في الزراعة من الفلسطينيين اللاجئين . وتعطي الارقام التالية فكرة سريعة عن حجم ونسب العاملين في الزراعة والعمال الزراعيين في البلدان العربية المضيفة .

دلت احصاءات الاردن (الضفتين الشرقيةوالغربية) لعام ١٩٦١ ان عدد العاملين في الزراعة كان ١٣٨،٠٠٠ شخص يشكلون ٣٥٪ من مجموع العاملين اقتصاديا في البلد . اما عدد العمال الزراعيين فكان حوالي ٥٠ الف عامل ، يشكلون حوالي ١٣٪ من مجموع القوة العاملة فعليا . اما في الضفة الشرقية لوحدها فقد شكل العمال الزراعيون حوالي ٣٠٪ من مجموع العاملين في الزراعة ، بينما ارتفعت هذه النسبة الى ٤٢٪ في الضفة الغربية . ويجدر بالذكر هنا ان الضفة الشرقية من الاردن تضم اكبر تجمع للفلسطينيين خارج فلسطين نفسها.من هنا تتضح ضحالة مشاركة اللاجيء الفلسطيني في العمل الزراعي المأجور . وقدرت احصاءات الاردن الرسمية لعام ١٩٦٧ بأن عدد العاملين في الزراعة في الاردن ككل يعادل ٢٤٤،٠٠٠ شخص يستخدم ٧٩،٠٠٠ منهم كعمال زراعيين اي ما يعادل ٣٢٪ من مجموع العاملين في الزراعة وهي تقارب نسبة عام ١٩٦١ . واما توزيعهم على الضفتين فقد اخذ الشكل التالي : ٦٤،٠٠٠ عامل زراعي في الضفة الغربية . و ١٥،٠٠٠ عامل زراعي في الضفة الشرقية . وتظهر هذه الارقام بوضوح ان العمل الزراعي المأجور يتمركز بشكل مكثف في الضفة الغربية وهي المنطقة التي يتواجد فيها اكبر عدد من الفلسطينيين غير اللاجئين . وتشير الاحصاءات الرسمية الاسرائيلية الى وجود تباين في الضفة الغربية في مجال العمل ، بين السكان اللاجئين وسكان المنطقة الاصليين . فقد كانت نسبة العاملين من اللاجئين في القطاع الزراعي في ايلول ١٩٦٧ تساوي ١٩،٩٪ من مجموع العاملين اقتصاديا . بينما تتضاعف هذه النسبة لتصل الى ٣٨،٩٪ عند السكان المحليين . وفي غزة حيث يشكل اللاجئون حوالي ثلثي السكان فقد كانت نسبة العاملين في القطاع الزراعي لعام ١٩٦٩ تعادل ٣٢،٨٪ من مجموع العاملين اقتصاديا في الزراعة ، وهي بهذا تعادل النسبة الاجمالية للعاملين في هذا المجال في الضفة الغربية .

اما في البلاد العربية الاخرى فان عمال الزراعة الفلسطينيين يشكلون نسبة ضئيلة من القوى العاملة الفلسطينية . ففي سوريا مثلا شكل عمال الزراعة الفلسطينيون بموجب احصاء ١٩٦١ حوالي ١٠٪ من مجموع القوة العاملة الفلسطينية . وفي لبنان كان عدد العمال الزراعيين من سكان المخيمات لعام ١٩٧١ حوالي (٤٠٠٠) شكلوا حوالي ٢٣٪ من مجموع العاملين اقتصاديا من اللاجئين والغالبية العظمى من هؤلاء كانوا من العمال المياومين . ويشير التحقيق الاحصائي حول القوى العاملة في

مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الى ان عدد الذين يمارسون عملا لا يتجاوز ١٧،٥٠٠ شخص بينما يصل عدد الافراد العاطلين عن العمل (عدا المتقاعدين) الى قرابة (٣٤،٥٠٠) . اما في البلاد العربية الاخرى التي يعمل فيها فلسطينيون فان نسبة ضئيلة جدا منهم تتعاطى العمل الزراعي المأجور . ان عمال الزراعة الفلسطينيين خارج الاراضي المحتلة يجابهون نفس المشاكل المتعلقة بالزراعة والعمل الزراعي التي يجابهها اهالي هذه الاقطار العرب : البطالة والمزاحمة في سوق العمل ، التذبذب في الانتاج الزراعي وبالتالي فرص العمل الزراعي وغياب العمل النقابي كما هو الحال في الاردن حيث يستثني قانون العمل والعمال الزراعيين من جميع الحقوق والتعويضات التي رتبها للعمال في القطاعات الاخرى . كما ويعاني هؤلاء العمال من بطالة مقنعة عدا عن البطالة التركيبية المزمنة . وتشير الدراسات الرسمية ان العاملين الدائمين في الزراعة في الاردن شغلوا ٤٠ ـ ٤٤٪ فقط من الايام التي كان يمكن ان يعملوا بها بينما شغل العمال غير الدائمين اقل من ٢٥٪ من مجمل الايام المتوفرة للعمل . وتشير نفس الدراسة الى ان نسبة العمال غير الدائمين الى العمال الدائمين كانت (١٩٦٧) ١ : ٣ في الضفة الشرقية و ١ : ٢ في الضفة الغربية .

ان تحسين اوضاع العمال الزراعيين الفلسطينيين الراهنة في البلاد العربية المضيفة مرتبط ارتباطا اساسيا بتحسين اوضاع العمال الزراعيين المحليين وهذا يتطلب العمل من ضمن الحركات والنقابات والمؤسسات الوطنية والثورية في كل قطر على حدة حسب متطلبات الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في ذلك القطر .

العمال العرب في ظل الاحتلال :

لعل تغيرا نوعيا قد طرأ على الوضع الاسرائيلي بعد حرب حزيران فقد قامت اسرائيل ببلع اراضي عربية واسعة بدون ان تنجح في اجلاء وتهجير اغلبية سكانها . ومن هنا تحتم على اسرائيل ان تضع مخططا خاصا لهضم هذه الاراضي الجديدة والاستفادة من امكانياتها البشرية والطبيعية . ان هدف النقاش الذي يدور بين الساسة الاسرائيليين حول مستقبل الاراضي المحتلة هو ايجاد افضل صيغة مقبولة (داخليا وخارجيا) تمكن اسرائيل من استيعاب وهضم مليون عربي جديد بدون ان يؤدي هذا الى « تلويث » نقاء الدولة الصهيونية العنصري . ان الطريقة التي تواجه اسرائيل بها هذا الوضع هي نفس الطريقة التي واجهت بها الوضع في السابق ، الا وهو اتباع سياسة خلق الحقائق وفرضها على المنطقة العربية ضمن استراتيجيتها التوسعية ومصالحها المرتبطة بمصالح الامبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة . وترتكز سياسة اسرائيل في الاراضي المحتلة على عدة عوامل تهدف في مجملها الى استيعاب وضم هذه المناطق نهائيا الى اسرائيل او ابقاءها تحت السيطرة الاقتصادية والعسكرية الاسرائيلية . ويمكن تحديد اهم عناصر السياسة الاسرائيلية تجاه هذه الاراضي كالتالي :

أ ـ ربط اقتصاد هذه المناطق بالاقتصاد الاسرائيلي بشكل تبعي يخدم الاقتصاد الاسرائيلي .

ب ـ اتباع سياسة الجسور المفتوحة عبر نهر الاردن لفرض واقع اقتصادي وسياسي معين على المنطقة العربية .

ج ـ استغلال الايدي العاملة الفلسطينية لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي .

د ـ الاستمرار في تعزيز وبناء المستوطنات الاسرائيلية داخل الاراضي المحتلة بما يخدم سياسة اسرائيل التوسعية لخلق الحقائق الجديدة وفرضها من ثم على المنطقة .

هـ ـ تصفية قضية اللاجئين الفلسطينيين .

يتجلى الوضع التبعي الكولونيالي للمناطق المحتلة في اعتماد هذه بالدرجة الاولى على الصادرات الاسرائيلية والتي شكلت سنة ١٩٧٠ (٨٢٪) من مجمل واردات المناطق المحتلة . كما وان العجز الذي تعانيه هذه المناطق في الميزان التجاري تجاه اسرائيل قد ازداد من ١٣٢ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٦٨ الى ٢١١ مليون ليرة عام ١٩٧٠ . وتنعكس هذه العلاقة الكولونيالية ايضا في نوعية العلاقات التجارية مع المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ : تتصدر هذه المناطق منتوجات زراعية او صناعية خفيفة الى اسرائيل وتستورد بالمقابل منتوجات صناعية اسرائيلية . وقد تضاعفت قيمة الصادرات الاسرائيلية الصناعية الى المناطق المحتلة في فترة ما بين ١٩٦٨ الى ١٩٧١ . وفي الفترة نفسها نجد ان الصادرات الصناعية لهذه المناطق عبر الاردن قد تضاعفت في حين ان وارداتها من المنتوجات

الزراعية عبر الاردن قد تدنت في نفس الفترة الى اقل من النصف وبهذا تتضح التبعية الاقتصادية التي تنميها اسرائيل تحت شعارات « التكامل والتناسق الاقتصادي وتنمية المناطق المدارة » . ان تحويل اقتصاد الضفة الى اقتصاد تبعي يخدم الاقتصاد الاسرائيلي واعتماد سياسة الجسور المفتوحة يهدف الى تحويل المناطق المحتلة الى مستعمرة وسيطة تساعد على ربط جزء من الاقتصاد العربي المتخلف بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي الصناعي . فقد اصبحت المناطق المحتلة والضفة الغربية بشكل خاص تشكل بفضل التحولات التي اجرتها اسرائيل فيها ونتيجة لسياسة الجسور المفتوحة ، محطة مرور للاستيراد والتصدير بين اسرائيل والعالم العربي . كل هذا ، طبعا لصالح الاقتصاد الاسرائيلي .

وبالفعل فان الاحتلال الاسرائيلي قد ادى الى تفريغ المناطق المحتلة من جزء كبير من الايدي العاملة وذلك عن طريق توفير فرص العمل لها داخل اسرائيل وباجور مرتفعة نسبيا ومؤقتا . وقد ادى هذا الى تدني الانتاج الزراعي في الضفة الغربية بسبب نقص اليد العاملة من جهة وبسبب تقليص رقعة الارض الزراعية من جهة اخرى نتيجة الاستيلاء العسكري على الاراضي العربية وتحويلها الى مستوطنات ومستعمرات اسرائيلية . فقد قامت سلطات الاحتلال منذ انتهاء حرب حزيران ولا تزال بمصادرة واستملاك الكثير من الاراضي العربية وخاصة في منطقة القدس ، كما صادرت اسرائيل املاك عربية متعددة غاب عنها اصحابها . هذا عدا المستوطنات الاسرائيلية التي اصبح عددها يزيد عن ٤٣ مستوطنة وعدا الاستيطان المديني في القدس واريحا . من الصعب ايجاد احصائية دقيقة تماما عن مجمل الاراضي العربية المصادرة ولكنها تقدر بعشرات الالاف من الدونمات ، ويساعد سلطات الاحتلال في عمليات الاستملاك هذه شركات اجنبية وعدد من السماسرة العرب المأجورين .

وفي نفس الوقت تعمل اسرائيل وتخطط لتحويل اقتصاد المناطق المحتلة الى اقتصاد خدمات قادر على لعب دور الوسيط بين اسرائيل والمنطقة العربية . وتتوقع دراسة قام بها بعض الباحثين الاسرائيليين العاملين لحساب مؤسسة راند الاميركية وبتمويل من صندوق فورد بان يصل عدد العاملين من المناطق المحتلة في قطاع الخدمات الى ٦٨ الف سنة ١٩٧٣ والى ٩٢ الف سنة ١٩٧٨ اي ما يعادل ٢٥،٩٪ و ٢٨،٣٪ على الترتيب من مجمل القوى العاملة في المناطق المحتلة . وترتفع هذه النسب الى ٣٧٪ و ٤٢٪ على التوالي اذا استثنينا العاملين داخل اسرائيل من عرب هذه المناطق . وتفوق هذه الارقام المتوقعة ارقام العاملين في قطاع الزراعة والتي قدرتها الدراسة في حدود ٧٠ الفا لعام ١٩٧٣ وبحدود ٧٦ الفا لعام ١٩٧٨ اي ما يشكل ٢٦،٦٪ و ٢٣،٤٪ من مجمل القوى العاملة لهذه السنوات . وهكذا تسعى اسرائيل الى خلق وتنمية قطاع واسع يعتمد اساسا على الخدمات غير الضرورية (السياحة ، والترفيه .. الخ) ترتبط مصالحه الطبقية بالوضع القائم تحت الاحتلال .

ان عملية النهب التي تقوم بها اسرائيل تتم عبر قنوات متنوعة : استغلال الموارد الطبيعية وخاصة الارض ، عملية التبادل التجاري تتم عبر الجسور المفتوحة وعبر العلاقة التجارية القائمة بين المناطق المحتلة واسرائيل . وتتم كذلك عبر العملية الاستغلالية لليد العاملة العربية التي تسخرها اسرائيل في خدمة اقتصادها . وينتقل كل يوم من الضفة الغربية وغزة حوالي ٦٠ الف عامل للعمل في اسرائيل يشكلون اكثر من ربع قوة العمل في المناطق المحتلة (والتي يقدر عددها حاليا بحوالي ٢٠٠ الف شخص) وما يقارب نصف القوة البشرية التي تمارس العمل المأجور (والتي يقدر عددها بحوالي ١٢٠ الف عامل) . ان الدافع الحقيقي وراء السماح للعمال العرب بالعمل داخل اسرائيل هو نفس الدافع الذي حرك الصهيونية منذ البداية اي الدافع الاستعماري — الاستيطاني التوسعي ، ان ادعاءات اسرائيل بأن هدفها هو تنمية وتطوير المناطق المحتلة وادعاءاتها الديمقراطية والانسانية تفضحها عشرات الالاف من المنازل المهدمة ، والالاف الاشخاص الذين طردتهم سلطات الاحتلال الى خارج الحدود او وضعتهم داخل زنزانات سجونها . اما حرية التعبير التي تتغنى اسرائيل بتطبيقها في المناطق المحتلة فهي حرية شكلية فقط تبقى محصورة ضمن حدود ضيقة جدا لا تسمح السلطات الاسرائيلية بتجاوزها وخاصة في نطاق التنظيم السياسي او العمل النقابي .

كما ان العمل العربي داخل اسرائيل يخدم دولة اسرائيل في المجالين الاقتصادي والسياسي . فمن

الناحية الاقتصادية احدث الانفاق الواسع على الاغراض العسكرية وتوسيع الصناعات الحربية والتعبئة العسكرية لقسم كبير (حوالي ٣٠٪) من القوة القادرة على العمل نقصا في الايدي العاملة الاسرائيلية . ان وجود عدد كبير من القادرين على العمل تحت وطأة البطالة الدائمة والبطالة المقنعة وحاجة العامل العربي لتأمين حد ادنى لمعيشته وتوفر فرص العمل داخل اسرائيل هي الدوافع الحقيقية وراء هذه الظاهرة . ولهذا فان التفسير القائل بان الدافع وراء هذه الظاهرة هو الاغراءات المادية الاسرائيلية يبقى تفسيرا سطحيا فجا . ان « الانتعاش » الاقتصادي الحاصل الان في المناطق المحتلة ناجم بالاساس عن انخفاض نسبة البطالة انخفاضا جديا وعن زيادة القوة الشرائية (وهي قوة اخذة في الانكماش السريع نتيجة للارتفاع المستمر في الاسعار وتكاليف المعيشة) لدى السكان نتيجة للعمل العربي داخل اسرائيل . ولكن هذا الانتعاش يبقى انتعاشا هشا لانه لا يرتكز على خلفية اقتصادية انتاجية . كما ان الجزء الاكبر من هذه المقدرة الشرائية يصرف على سلع مستوردة من اسرائيل ويساهم في المحصلة في زيادة قوة الاقتصاد الكولونيالي الاسرائيلي .

ان العامل الفلسطيني في الاراضي المحتلة يعي ، وقادر على ان يعي ، ان عملية الاستغلال الطبقي التي يتعرض لها داخل اسرائيل تساعد على تنفيذ سياسة ترتيب وبلورة اقتصاد المناطق المحتلة بشكل يسمح لاسرائيل باستيعابه بسهولة ويساعدها ايضا على امتصاص النقمة ضد الوجود الاسرائيلي ، مما قد يؤدي الى التخفيف من حدة مقاومة الاحتلال . ولكن العامل العربي الفلسطيني ، كغيره من العمال ، مرغم على بيع قوة عمله ليعيل نفسه وعائلته . وفي ظل الواقع الموضوعي الذي يعيشه فهو مرغم على بيع قواه العملية داخل اسرائيل .

ان اسلوب مخاطبة وتحريك العامل العربي الواقع تحت الاحتلال يجب ان يتم من خلال الفهم الوافي لظروفه المعيشية والعملية وعن طريق فهمنا لمشاكله الحياتية اليومية . ان هذا هو المدخل الواقعي الذي ينبغي ان يتم من خلاله طرح قضية العامل العربي الفلسطيني ، اي قضية الشعب الفلسطيني بأكمله — الاساسية . وهي قضية كانت ولا تزال وستبقى قضية سياسية في اساسها .

يتعرض العمال العرب داخل اسرائيل الى عملية استغلالية منظمة يرافقها تمييز عنصري صارخ . يتوفر للعامل العربي ثلاث طرق للعمل في اسرائيل : الاولى عن طريق مكاتب العمل التابعة للهستدروت والتي افتتحتها اسرائيل في الاراضي المحتلة . فلكي تحافظ اسرائيل على مظهر الديمقراطية والعدالة اتخذت مبدأ مساواة اجور العمال العرب من المناطق المحتلة باجور الاسرائيليين وقامت في نفس الوقت بانشاء صندوق خاص تحول اليه الحسومات التي تنقص من اجور العامل العربي (والتي تشبه الحسومات التي تخصم من اجور العامل الاسرائيلي) . وتقدر هذه الحسومات بحوالي ٤٠٪ من اجر العامل الاصلي تعود على العامل الاسرائيلي على شكل عطل سنوية مدفوعة ، واجازات ، وعلاوات عائلية وتعويضات ، بينما لا يعود شيء من هذه الامور الى العامل العربي الذي يدفع له فقط عن يوم عمله . علاوة على هذا تحسم من معاش العامل العربي اجور النقل من مكان عمله . وهكذا فان اجر العامل العربي هو في واقع الامر ، اقل بكثير من اجر العامل اليهودي . وتقول مذكرة للرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية « ان اجر العامل العربي في الاراضي المحتلة ، الذي يستخدم في اسرائيل يخفض تخفيضا مريعا بواسطة اجراءات ادارية . فاجر العامل العربي والعامل الاسرائيلي هو ذاته اسميا، غير ان العرب لا يتلقون اجورهم مباشرة بل من خلال الحاكم العسكري للمنطقة التي يعيشون فيها، ويقوم هذا بحسم ما يربو على نصف الاجر ... فالاجر الاسمي للعامل الزراعي في اسرائيل هو ١٥،٧٥ ليرة اسرائيلية يحسم منها ٤،٥ ليرة اسرائيلية للضمان الاجتماعي والتأمين الصحي ، و ٢،٢٠ ليرة للنقل ، ثم يحسم ٢،٢٠ ليرة للتنظيم وبذلك يصبح الاجر الفعلي للعامل العربي ٧،٢٥ ليرة اسرائيلية فقط في اليوم الواحد ، وهو لا يتمتع بأي شكل بالتأمين الصحي والضمانات الاجتماعية » . وهروبا من عملية النهب هذه يلجأ العامل العربي الى طريقين اخرين للعمل في اسرائيل . الاول يتم بواسطة المتعهدين العرب الذين يؤمنون له العمل مقابل مبلغ معين ، بعد ان يتفق هؤلاء المتعهدون مع صاحب المشروع او المزارع الاسرائيلي . ويدفع هؤلاء العمال حصة من اجورهم الى المتعهدين العرب قد تصل الى النصف. كما انهم يعيشون في اوضاع سيئة ويتعرضون لمطاردة السلطات الاسرائيلية وتقول بعض

التحقيقات الاسرائيلية ان معظم هؤلاء العمال (تقدر السلطات الاسرائيلية عددهم بحوالي ٦ الاف عامل) من الصغار الذين لم يتجاوزا سن الخامسة عشرة . وتتغاضى السلطات الاسرائيلية عن هذه الاوضاع « اللاشرعية » الاستغلالية لان هذه الاوضاع تخدم بالاساس مصالح الرأسمالية الاسرائيلية ولانها تنمي ايضا فئة من المستغلين العرب تربطها مصالح مشتركة مع سلطات الاحتلال. اما الطريقة الثالثة فتعتمد على المبادرة الفردية، اي دون التجاء الى مكاتب العمل مما يجعل هذه الفئة تعاني من وطأة الخوف من السلطات .

ان الاعمال التي يقوم بها العمال العرب هي من النوع الذي يحتاج الى جهود شاقة مثل اعمال البناء (والتي يقوم بها حوالي ٥٥٪ من العمال العرب داخل اسرائيل) وقد اصبح العمال العرب يشكلون ٦٠٪ من العاملين في هذا النوع من الاعمال . ويشكل العمال الزراعيون حوالي ربع القوى العاملة المستخدمة في اسرائيل . لقد ادى اعتماد اسرائيل سياسة التفرقة في الاجور بين اسرائيل والمناطق المحتلة وخاصة في غزة (والتي تصل الى النصف) الى دفع الكثيرين من ابناء المناطق للعمل داخل اسرائيل . وقد اثر هذا بشكل خاص وخطير على وضع الزراعة في المناطق المحتلة. فقد تحول قطاع من صغار المزارعين الذين اضطرتهم ظروف ارتفاع اجور العمال وعدم قدرتهم على منافسة منتوجات اسرائيل الزراعية الى هجر مزارعهم والعمل في اسرائيل سعيا وراء لقمة العيش . وتشير الارقام المتوفرة ان حوالي ٢٣٨،٠٠٠ دونم لم تستثمر في الضفة الغربية في سنة ١٩٦٨/١٩٦٩ اما لعدم الصمود في منافسة المنتوجات الاسرائيلية او لانتقال الايدي العاملة الى اسرائيل . وقد بلغت هذه المساحة غير المزروعة في عام ١٩٧٠ ٣٥٤،٠٠٠ دونم ، وهذه المساحة تزداد من سنة الى سنة لان العمال الزراعيين واصحاب الارض الذين كسدت زراعتهم راحوا يبحثون عن عمل في اسرائيل او تحولوا للعمل في المشاريع الاسرائيلية داخل المناطق المحتلة نفسها. ان ظاهرة ترك المزارعين اراضيهم واقتلاعهم منها وتفريغ سكانها للعمل في اسرائيل ومناطق اخرى ظاهرة سياسية خطيرة لما ستلحقه هذه وسياسة اسرائيل في استلاب الاراضي وتطويرها قطاع الخدمات في المناطق المحتلة وربطها لاقتصاد هذه المناطق بالاقتصاد الاسرائيلي ، من انهيار في القطاع الزراعي .

هنالك ترابط وثيق بين تفريغ الاراضي الزراعية من الفلاحين العرب والذي يتجلى في تشجيع العمل العربي داخل اسرائيل وتنمية قطاع الخدمات داخل المنطقة المحتلة وبين سياسة تهويد هذه المناطق ببناء المستعمرات والمستوطنات الاسرائيلية فيها . والى جانب هذا اخذت السلطات الاسرائيلية تنفذ مخططا متشعبا لتصفية قضية اللاجئين . لقد اكدت الدراسات التي قدمت الى الحكومة الاسرائيلية من قبل مجموعات من الخبراء الاسرائيليين على اهمية تغير اوضاع هذه المخيمات والغاء طابعها كمخيمات لاجئين عن طريق دمج اهاليها اقتصاديا واداريا مع باقي السكان . وتحدثت بعض التقارير الاسرائيلية عن مشاريع لافراغ المخيمات تدريجيا عن طريق تقديم حوافز اقتصادية كتقديم السكن بسعر اسمي في مناطق بلدية قريبة من اماكن التشغيل الجديدة التي سيعمل على اقامتها ، وتحسين الظروف العامة في المدن (الصحة ، التعليم ، المساعدة الاجتماعية) وبذلك تنشأ هنالك دوافع للخروج من المخيمات . وقد اظهرت اوساط دولية استعدادها لتمويل مثل هذه المشاريع . وبالفعل فقد شرعت اسرائيل في تنفيذ هذا المشروع في قطاع غزة حيث يتجمع ما يقيف على ٢٢٠ الف لاجيء . فبدأت بهدم البيوت وشق الطرق « الامنية » ونقل السكان . وبدأت بتصفية وضع مخيم رفح (اكبر مخيمات القطاع) وفق مشروع اعده طاقم كبير من الاخصائيين يعتمد على اخلاء ٤٠٪ من سكان المخيم واسكانها في وحدات سكنية جديدة وضم الباقي الى مدينة رفح كجزء من بلدية واحدة . وبهذا تكون اسرائيل قد استكملت مشاريعها لدمج اقتصاد الاراضي المحتلة بالاقتصاد الاسرائيلي . وبهذا ايضا تكون اسرائيل قد غيرت جذريا خارطة فلسطين الاقتصادية والسياسية والسكانية .

وهكذا وفي خلال فترة ربع قرن فقط نجحت اسرائيل (بمساعدة الامبريالية العالمية) في تحويل الشعب العربي الفلسطيني من شعب شكلت القرية نواة حياته الاجتماعية وشكلت الفلاحة والعمل الزراعي عصب اقتصاده ، الى شعب اصبح المخيم نواة حياته الاجتماعية واصبح العمل الثانوي البعيد عن علاقات الانتاج الاساسية من صناعة وزراعة شكلا رئيسيا من علاقاته الانتاجية . ان المجموعة الوحيدة من الفلسطينيين التي بقيت ، تحتفظ بشريحة من

ارض الوطن هي الفلاحون والعمال الزراعيون الذين بقوا في الضفة الغربية وقطاع غزة . وفي هذه المناطق بالذات تسير اسرائيل بخطى حثيثة وبحزم نحو تدمير الزراعة العربية فيها وتحويل فلاحيها وعمالها الزراعيين الى جيش من الايدي العاملة الرخيصة الرثة تسخرها سلطات الاحتلال لتعزيز قدرتها على الاستغلال والقهر القومي . ان مجابهة هذا المخطط يتم عن طريق فضح اهدافه للعمال والفلاحين وعن طريق تنظيمهم واستقطابهم بالعمل الدؤوب لتحقيق مطالبهم المعاشية الآنية . هذا هو المدخل لتحويلهم الى جيش عمالي مقاوم .

المصادر

Sami Hadawi, *Palestine: Loss of A Heritage.* Texas, 1963.

محمد يونس الحسيني : **التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية** ، القدس ١٩٤٦ .

A. Granoff, *The Land System in Palestine:* London 1952

Government of Palestine, Department of Statistics, Special Bulletin No. 21 «*Survey of Social and Economic Conditions in Arab Villages, 1944* ».

Horowitz, David, *Economic Survey of Palestine:* Tel-Aviv Government of Palestine, *Report of a Committee on The Economic Conditions of Agriculturalists in Palestine and the Fiscal Measures of Government in Relation Thereto* . 1930.

سعيد حماده ، **النظام الاقتصادي في فلسطين** ، بيروت ١٩٣٩ .

George Mansur, *The Arab Worker under The Palestine Mandate.* Jerusalem 1936.

F. Trabulsi, «The Palestine Problem: Zionism and Imperialism in The Middle East ».
New Left Review, Sept.-October 1969.

محمد جوهر ، **الحركة العمالية في الاردن**، القاهرة، (بدون تاريخ) .

المملكة الاردنية الهاشمية ، دائرة الاحصاء العامة، **السكان والعمالة في القطاع الزراعي ١٩٦٧** ، عمان ١٩٦٨ .

المملكة الاردنية الهاشمية ، دائرة الاحصاء العامة، **التعداد الاول للسكان والمساكن** ، تشرين الثاني ١٩٦١ ، المجلد رقم ٢٠١ .

جون ديفز ، **السلام المراوغ** ، دمشق ١٩٧٠ .

Rand Report: *Economic Structure and Development Prospects of The West Bank and Gaza Strip.* Sep. 1971.

وزارة التصميم اللبنانية، **مديرية الاحصاء المركزي، التحقيق الاحصائي بالعينة حول القوى العاملة في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان** ، حزيران ١٩٧١ .

Central Bureau of Statistics *Statistical Abstract of Israel.* Jerusalem 1971.

Israeli Defence Forces, *Census of Population 1967.* Publications No 1-5.

مكتب الاحصاء الاسرائيلي المركزي ، **النشرة الشهرية** ، حزيران ١٩٧١ .

الجمهورية العربية السورية ، وزارة التخطيط ، **التعداد العام لعمال فلسطين الى المؤتمر النقابي العالمي للتضامن مع عمال وشعب فلسطين ، صوفيا ١٠—١٩٧١/٩/١٣** ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧١ .

UNRWA - UNESCO, Department of Education, *Statistical Yearbook 1970-71.* Beirut 1971.

حبيب قهوجي ، **العرب في ظل الاحتلال الاسرائيلي منذ ١٩٤٨** ، مركز الابحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٧٢ .

حقيقة القدرة الاسرائيلية على ضرب اهداف عربية بعيدة

هشام عبدالله

بعد حصول اسرائيل على طائرات من طراز فانتوم الامريكية ، في اعقاب حرب حزيران ، ودخول تشكيلات من هذه الطائرات الخدمة الفعلية في ايلول ١٩٦٩ ، وتجهيز طائرات نقل ضخمة من طراز ستراتوكروزر كمحطات وقود طائرة* والتي عرضت لاول مرة في يوم الطيران الاسرائيلي يوم ١٦ تموز ١٩٧٠ . قالت جريدة هآرتس (ملحق ١٩٧٢/٤/١٤) نقلا عن مجلة القوات المسلحة في الولايات المتحدة « ان باستطاعة اسرائيل مهاجمة اهداف مثل قاعدة ويلس في ليبيا وكذلك المناطق الداخلية من السودان والعراق وسوريا »، واعتمادا على هذه القدرة التي تحدثت عنها المجلة الامريكية كثرت التهديدات الاسرائيلية الرسمية وغير الرسمية في المناسبات المختلفة بضرب اهداف في ليبيا ، وتدمير منابع البترول في الجزيرة العربية . ففي اعقاب عملية ميونيخ قالت صحيفة معاريف (١٩٧٢/٩/٦) « انه حساب الدم مع المخربين ومرسليهم كما أننا لن نفعل مثلهم بل سننقل الميدان الى أماكن بعيدة ونضربهم » . وفي أعقاب تحرير فدائيي ميونيخ الثلاثة قال رئيس حزب الاحرار عضو الكنيست اليميلخ ريملط « ان على اسرائيل البدء بليبيا لتسديد حساباتها مع الذين يدفعون المخربين » وقال « ان ليبيا اخرجت نفسها من المجتمع البشري لذلك فان ضربها وضرب ممثليها أمر قانوني » (رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٢/١١/٣). وبعد اعلان الوحدة بين اليمنين والتخوف من ان تقوم الدولة الجديدة بشن حرب لا هوادة فيها ضد الملاحة الاسرائيلية في البحر الاحمر ، قال دوف يئون : « ان هناك اهدافا في تلك الدول ، في حال تجرؤها (الدول) على الاستفزاز ، من الممكن ان يكون ضربها مؤلما ... » ، « ... اننا سنعرف كيف نتصرف وكيف نجد جوابا للدفاع عن ملاحتنا » (رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٢/١١/٣٠). ومن جهة اخرى اعتبر ادوارد لوتراك (ملحق جيروزاليم بوست ١٩٧١/٩/٢٤) مدى طائرات الفانتوم والسكاي هوك القادرة على التزود بالوقود ، وسيلة لتحقيق تفوق اسرائيلي في البحر الاحمر ، — وقياسا على كلامه ، فانها تملك تفوقا مماثلا في البحر المتوسط — حين قال « ... مما يبعد قيام المصريين بشن حملة بحرية ناجحة، فطائرات الفانتوم والسكاي هوك التي يمكن تزويدها بالوقود من الجو ، ملائمة بصورة خاصة للقيام بعمليات بعيدة المدى فوق البحر الاحمر » .

وبالرغم من كثرة التهديدات الاسرائيلية فلم تسجل اية عملية في هذا المجال ، وهذا ما يدفعنا الى تقييم القدرات الحقيقية ، لتحاشي الاستهانة بالتهديدات الاسرائيلية ، او اعطائها قيمة زائدة . فعملية بعيدة المدى من النوع الذي تهدد به اسرائيل تخضع لعوامل تقنية وعسكرية واحيانا سياسية — حسب طبيعة الهدف — لا يمكن تجاهلها . فمن الوجهة التقنية يبلغ مدى طائرة الفانتوم ١٦٠٠ كيلو متر ، اي انها قادرة على الوصول الى اهداف تبعد ١٦٠٠ كيلو متر عن قاعدة انطلاقها ، ولكن امكانية ضرب اهداف تبعد كل هذه المسافة تخضع لاعتبارات عسكرية تجعل من مدى الطائرة اعتبارا ثانويا . بالاضافة الى ان مدى الطائرات ينخفض عادة كلما ازدادت حمولة الطائرة ، وينخفض بنسبة تصل الى النصف تقريبا عند الطيران المنخفض ، وبنسبة تزيد عن النصف عند القتال الجوي . اي انه لا يمكن لطائرات الفانتوم الوصول الى هذه الاهداف بحمولتها الحربية الكاملة ، او الوصول اليها محلقة على ارتفاعات منخفضة . ومن جهة اخرى تستثنى طائرات السكاي هوك من القيام بعمليات بعيدة المدى بسبب مداها المتواضع نسبيا (٥٤٧ كيلو مترا للنموذج A-4M) ولان ما ينطبق على الطائرات مما ذكر سابقا ينطبق عليها .

ولا بد من النظر الى كل تهديد بعملية على انفراد، لان لكل عملية اعتباراتها التقنية والعسكرية والسياسية الخاصة ، فظروف عملية تستهدف ليبيا تختلف عن ظروف عملية تستهدف اليمنين او الكويت ، او المناطق الداخلية من العراق . كما ان هناك اختلافا متشابها بالنسبة لطبيعة الهدف

---

* تمتلك اسرائيل طائرتي صهريج من طراز ستراتوكروزر لتزويد الطائرات بالوقود من الجو . Military Balance 1972-73

فقصف مطار حربي له نتائج تختلف عن قصف ابار النفط .

ونظرا لان غالبية التهديدات الاسرائيلية تستهدف ليبيا في المقام الاول بسبب مواقفها ودعمها للمقاومة ، فسنبدأ ببحث احتمال قيام اسرائيل بعملية ضد ليبيا . والحقيقة ان هناك عدة محاذير تجعل من الصعب جدا ، ان لم تمنع القيام بعملية ضدها ، محاذير تتعلق بالاعداد للعملية ، والهدف المقصود ، والغرض من العملية ، والنتائج السياسية المحتملة للعملية ، فقدرة الطائرات على الوصول الى مناطق بعيدة قد تكون احد عوامل النجاح لضرب اهداف بعيدة ، الا انها لا تكفي لعملية ناجحة . والقيام بعمليات بعيدة المدى كالعملية المذكورة هي مهمة معقدة وخطرة ، خاصة في الوضع الاسرائيلي ، حيث يتوجب على المقاتلات الاسرائيلية قطع كل المسافة فوق مناطق معادية او مجاورة لهذه المناطق . بالاضافة الى ترابط كل عناصر العملية بشكل قوي بحيث ان فشلا لاحد هذه العناصر ، مهما كان ثانويا ، كفيل بافشال العملية . ولا بد من اعداد ناجح للعملية الناجحة ، ويتم هذا اولا بتحديد الهدف على ضوء الاستخبارات المتوفرة ، ونبالغ اذا قلنا بان لدى اسرائيل معلومات دقيقة او شبه دقيقة ، عن كل الدول العربية على مدى ١٦٠٠ كم ، لان هذا يعني توزيعا لجهد الاستخبارات الاسرائيلية على مناطق تعتبر ثانوية بالنسبة للمتطلبات العسكرية الاسرائيلية ، وليست من ضمن دول المواجهة . كما ان الحصول على معلومات لا يكفي ، خاصة اذا كان الهدف عسكريا ، فلا بد من استطلاع جوي ، او استطلاع قريب لاخذ معلومات حول وسائل الدفاع والانذار الموجودة في القاعدة او المعسكر ، والاماكن الحيوية في المنطقة ، واماكن تواجد المعدات العسكرية ، وغيرها، والقيام باستطلاع جوي اذا ما تم كفيل بافقاد العملية عنصر المفاجأة كما انه بحد ذاته عملية صعبة بسبب بعد المسافة*. فاذا ما فشلت اسرائيل في الحصول على المعلومات الضرورية لضرب اهداف عسكرية ، واعتقدت ان من الضروري القيام بعملية ما ضد ليبيا ، فانها قد تلجأ الى ضرب مرافق عامة بشكل عشوائي ، وهذا قد يخلق مضاعفات سياسية ، بالاضافة الى ان الصعوبة العسكرية تبقى قائمة ، فكما سبق وقلنا يتوجب على الطائرات الاسرائيلية التي تنوي ضرب ليبيا ان تمر اما فوق الاراضي المصرية ، وهذا احتمال غير وارد بسبب الدفاع الجوي المصري ، وضرورة عدم الاصطدام معه ، او فوق البحر المتوسط ، اي فوق مياه تقع ضمن مدى اجهزة الرادار المصرية وقرب حدودها . وتحتاج الفانتوم الاسرائيلية الى ٩٠ دقيقة تقريبا للوصول الى اهداف ليبية ، وبالطبع لن تتضح نية المقاتلات الاسرائيلية فور انطلاقها ، بل ربما قبل ٢٠ دقيقة او اقل من وصولها الى الهدف . وهذا وقت كاف لاستنفار المقاتلات الليبية ، فاذا ما نجحت الفانتوم الاسرائيلية في الوصول الى هدف ليبي ، وسواء تمكنت المقاتلات الليبية او المصرية من اعتراضها ام لا ، فانها تكون قد وقعت في مأزق حقيقي . فما الذي يحدث مثلا لو هاجمت المقاتلات المصرية طائرات التزويد بالوقود واسقطتها او هي اضطرتها الى الفرار داخل الارض المحتلة ، او على اسوأ الفروض ، وبسبب وجود حماية لطائرات الوقود هذه ، حرمتها من الحركة الهادئة الضرورية لتزويد المقاتلات بالوقود في الجو ، وما الذي يحدث لو ان المقاتلات الليبية الحديثة من طراز ميراج ٥ ومداها ١٣٠٠ كيلو متر ، والمصرية من بعدها من طراز ميغ ٢١ مف ومداها ١١٠٠ كيلو متر ، هاجمت المقاتلات الاسرائيلية وعلى دفعات متتالية اثناء العودة ، ليس بغرض الاشتباك معها ، بقدر ما هو لتأخيرها ، واجبارها على استهلاك اكبر كمية من الوقود في اقل مدة ممكنة ، خاصة وان هم الطيارين الاسرائيليين سيتركز على محاولة الهرب والوصول الى قواعدهم البعيدة جدا ، اكثر من القيام بمناورات ومحاولات لاسقاط الطائرات العربية . وبالطبع فان هناك احتمالات عديدة ، سيكون التصرف فيها لمبادرات الطيارين العرب وتقديرهم للموقف .

وعلى فرض ان اسرائيل تمكنت من تجاوز كل ما ذكرنا ، وانها قد ذللت كل العقبات التي تحول دون قيامها بالعملية ، فما هو الهدف منها ؟ هل هو ضربة لاضعاف ليبيا ، وردعها عن مناصرة الفدائيين ؟ وهذا غير معقول فضربة من هذا النوع

---

* قد تتمكن اسرائيل من الحصول على هذه المعلومات من مصادر اخرى مثل الاسطول الامريكي في المتوسط ، ولكن هذا لا يخفف من تعقيدات العملية ، لانها ستخضع في هذه الحالة لموافقة طرف اخر .

لن تضعف ليبيا ، ولن تردعها عن مساندة الفدائيين ، بل على العكس ، فانها ستزيد من مناصرة ليبيا للعمل الفدائي . ام سيكون مجرد عملية استعراضية للبرهنة على يد اسرائيل الطويلة ، وفي هذه الحالة فان الاخطار التي تحيط بالعملية لا تتناسب مع النتائج التي قد تجنيها . خاصة اذا ما ذكرت المضاعفات السياسية التي قد تنتج والتي تتعلق بطبيعة الهدف « فالولايات المتحدة ودول اوروبا لا يمكنها ان تسمح لنفسها بخسارة صداقة ليبيا . ان كنوز النفط تحرك عجلات اوروبا وكل ضرب لهذه الكنوز هو بمثابة كسارثة حقيقية لدول الغرب » . (يديعوت احرنوت ١٩٧٢/١١/٥) .

ويقدم الشق الشرقي لنشاطات اسرائيل المحتملة تعقيدات مختلفة ، فمن جهة يبدو من السهل ضرب اهداف في اليمنين ، خاصة وانهما لا تملكان اجهزة انذار فعالة ، او لضعف الدفاع الجوي عامة ، بالاضافة الى انعدام التنسيق مع مصر والتي تستطيع ان تقوم بنفس الدور الذي تلعبه مع ليبيا ، في امكانية اعتراضها للطائرات الاسرائيلية اثناء عودتها فوق البحر الاحمر ، كما انه من الممكن ان لا يكون لضرب اهداف في اليمنين ردود فعل سياسية قوية ، بسبب ضآلة المصالح الاجنبية هناك ، ولكن امرا واحدا يعزز وضع اليمنين في هذا المجال ، وهو حاجة اسرائيل الى المرور بسلام من مضيق باب المندب ودون ان تخلق لنفسها تعقيدات ليست في صالحها .

وتتشابه كل من الكويت والعربية السعودية من ناحية قوة موقفهما السياسي مع ليبيا ، هذا ان لم يكن موقفهما اقوى ، ولكن وضعهما يختلف من وجهة النظر العسكرية البحتة . فليس لدى هاتين الدولتين في الوقت الحاضر على الاقل، ولا للاردن المتاخم لهما نظام دفاع جوي متكامل ، قادر على اعتراض للطائرات الاسرائيلية حتى في ظرفها الدقيق حين تكون بعيدة مئات الكيلومترات عن قاعدتها ، وان كان بامكان الكويت الحصول على نتائج ايجابية بالتنسيق مع العراق .

أما الصعوبة العسكرية البحتة فتتمثل في ضرب المناطق الداخلية من مصر والعراق ، بسبب الاستعدادات الجيدة في البلدين ، بالاضافة الى ان ضرب اهداف بعيدة في العمق لا يمكن أن يتم دون الاصطدام مع الجبهة واجهزة الدفاع الامامية — على الاقل حين العودة — وفي مجال حديثنا لا تعتبر القاهرة مثلا هدفا بعيدا على الرغم من أنه جرت العادة على اعتبارها هدف عمق . ولا يمكن الوصول الى المناطق الداخلية في العراق دون المرور فوق سوريا والاصطدام بالقوات الجوية السورية . وتنطبق على عمليات من هذا النوع كل الصعوبات العسكرية التي سبق ذكرها ، بالاضافة الى أنه من الواضح انه لن يكون لضرب هدف بعيد في مصر نتيجة عسكرية حقيقية تختلف اختلافا ذا قيمة عن ضرب اهداف قريبة ، كما أن القدرة الجوية الاسرائيلية لن تكون افضل حالا في العراق منها على الحدود السورية ، بل العكس هو الصحيح ، وينطبق القول نفسه على السفن الحربية العربية المبحرة او الراسية في مياه قريبة او بعيدة .

ويجب ان لا يفهم مما سبق وذكرنا ان اسرائيل غير قادرة على ضرب اهداف بعيدة ، بسبب المخاطر التي تحيط بالعملية ، لان تقرير ذلك يخضع لاعتبارات ظرفية ، حيث تخضع العملية لحوار ارادات يتمثل في اقامة العقبات من جهة العرب ، وتذليلها من قبل اسرائيل . كما ان هناك اوقات يصبح فيها الردع السياسي ثانويا تتفوق عليه الضرورات العسكرية ، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فلا بأس ان نذكر ان الانجازات العسكرية الاسرائيلية ما كانت لتتم لولا انعدام التنسيق والتعاون العربيين . كما أن ضرب اهداف عربية بعيدة — رغم ان الامر ليس بالسهولة او الخطورة التي يتصورها البعض — لا يمكن ان يتم بوجود هذا التنسيق والتعاون .

انشباكات ايار الدامية في لبنان وردود الفعل في الضفة الغربية

عيسى الشعيبي

احتفظت الضفة الغربية والمناطق المحتلة عام ١٩٦٧ عموما ، بحالة من النهوض الجماهيري العام منذ حادث اغتيال ثلاثة من قادة الثورة الفلسطينية يوم ١٩٧٣/٤/١٠ . وقد جاء العرض العسكري الاسرائيلي في القدس يوم ١٩٧٣/٥/٧ مناسبة اخرى لتجديد جماهير الضفة الغربية حالة النهوض هذه بمختلف ادوات واشكال النضال الثوري ، بدءا من المنشورات التي تحرض على مقاطعة العرض العسكري ومقاومته ، ومرورا باعلان الاضراب واغلاق المحلات يوم العرض ، وانتهاء بجملة من العمليات العسكرية سبقت ورافقت العرض العسكري . وجاءت احداث لبنان الاخيرة في هذا الوقت وما رافقها من عمليات قصف وتدمير ضد مخيمات الفلسطينيين في ضواحي بيروت لتزيد من تفاعل جماهير الضفة الغربية مع الاحداث الفلسطينية داخل الوطن المحتل وخارجه . ولقد كان لهذا التحرك الذي عبر عن نفسه باشكال عدة ايضا دلالة هامة من حيث كونه : **اولا** انه جاء كتعبير حقيقي عن وحدة المصاب الفلسطيني داخل الوطن وخارجه ونفيا قويا لما تشيعه الدوائر الامبريالية عن هوة نفسية وسياسية بين فلسطينيي الداخل وفلسطينيي الخارج . **ثانيا** انه قد جاء بعد حالة من الركود العام الذي شهدته الضفة الغربية اثر تعرض المقاومة الفلسطينية لسلسلة المجازر الشهيرة في الاردن منذ خريف العام ١٩٧٠ وحتى صيف العام ١٩٧١ . **وثالثا** ان هذا التفاعل الفلسطيني بالاحداث الوطنية الفلسطينية قد جاء استمرارا لحالة النهوض الجماهيري التي بدأت في الضفة الغربية منذ حادث الاغتيال لثلاثة من قادة الثورة كما ذكرنا .

ولقد تميزت ردود الفعل في الضفة الغربية على احداث شهر ايار (مايو) الماضي في لبنان ، بشمولها اوسع القطاعات الجماهيرية ومختلف المؤسسات العربية في سائر المدن والمناطق . كما تعدت ردود الفعل هذه نطاق ارسال البرقيات الى زعماء الدول العربية لتترجم في مواقف عملية مثل جمع التبرعات المالية والعينية لارسالها الى الجرحى والمنكوبين في لبنان عن طريق جمعية الصليب الاحمر الدولية . واستنادا الى ما نشرته صحف الضفة الغربية ، التي ساهمت في الدعوة لجمع التبرعات ، فقد بلغت حصيلة اليوم الاول اكثر من عشرة آلاف ليرة اسرائيلية « بالاضافة الى المبالغ الموجودة حاليا مع بعض اللجان والتي لم تستكمل بعد عملية الجمع » (القدس ١٠/٥/ ١٩٧٣) . وكانت جمعية الهلال الاحمر في القدس قد وجهت نداء الى المواطنين في الضفة الغربية تحثهم فيه بعبارات مؤثرة على التبرع للفلسطينيين في لبنان . فقد جاء في هذا النداء الذي نشرته جميع صحف الضفة الغربية : « ايها المواطن العربي الفلسطيني. ابناء شعبك في لبنان يذبحون. اطفالهم يعانون الخوف والجوع والموت وبيوتهم تتحول الى انقاض . فماذا انت فاعل ؟ نظرا للظروف التي تعيشها فانك مطالب بأقل قسط ممكن من الواجب الملقى عليك كفلسطيني . ان تمد يدك الى اخونك ، تمسح دموعهم ، وتداوي جراحهم ، وتخفف من آلامهم . ان لجنة الاغاثة التابعة لجمعية الهلال الاحمر بالقدس ، استجابة منها لنداء الواجب ، تدعوك لان تسارع الى تقديم ما يمليه عليك الواجب الانساني والوطني من مساعدات نقدية لتساهم في اسعاف الجرحى والمنكوبين وتخفيف ويلاتهم ... **اننا نهيب بكم ايها الفلسطينيون ان تهبوا لتلبية نداء الواجب ، نداء وحدة الدم والمصير** » (القدس ١٩٧٣/٥/٩). كما ابتدع المواطنون اشكالا اخرى لتقديم التبرعات وزيادة حصيلتها ، منها ما اقدم عليه « مطعم رمسيس » الذي اعلن في الصحف عن تخصيص مبلغ ٥٠ بالمئة من مبيعاته طيلة ايام حملة جمع التبرعات ـ ثلاثة ايام ـ وذلك « لمساعدة اخواننا ضحايا الحوادث التي وقعت في لبنان » (البشير ١٩٧٣/٥/١٢) .

أما على صعيد التحرك السياسي فقد وجهت عدة بلديات وهيئات ومؤسسات عربية في سائر مدن الضفة الغربية برقيات ورسائل الى ملوك ورؤساء الدول العربية تدعوهم فيها الى التدخل السريع لصد الهجمات التي يتعرض لها الفلسطينيون بالمدافع والطائرات . فقد جاء في برقية وجهتها بلديات طولكرم وقلقيلية وسلفيت ، والغرف التجارية ، والهيئات النسائية ، والنقابات ، والاتحادات في نابلس ، وجمعية الهلال الاحمر بطولكرم نداء الى الرؤساء جاء فيه : « ان

الصمت على المؤامرة الاستعمارية الكبرى ضد الشعب الفلسطيني وابادته بقصف مخيماته واهله — ليستسلم — بالمدافع والطائرات ، الشعب الذي يقف صامدا حاميا لحق وطنه ، ومصير امة، لمسؤولية عظمى ... انها المسؤولية الحتمية التاريخية التي تدعوكم مجتمعين للوقوف صفا واحدا بكافة قدراتكم وثرواتكم السياسية والعسكرية والبترولية لصون الكيان العربي رجالا وارضا ، تراثا وتاريخا ، لحقن دماء الشعب العربي الواحد ، حماية لقضيته ووجوده. وليبق علم فلسطين وشعب فلسطين ، شعب التضحيات والايمان والقيم ، شامخا حيا » (القدس ١٩٧٣/٥/٩) . كما وجهت هذه البلديات والهيئات والمؤسسات نداء الى جماهير الامة العربية جاء فيه : « من قلب الارض المحتلة المقدسة ومن أعماق الافئدة — والنصال فيها تتكسر على النصال ، والجراح على الجراح — نناديك للتحرك في كل ارض عربية لايقاف سفك دماء الشعب الفلسطيني في لبنان ، الشعب الذي تساق له كل المآسي والمكائد ليستسلم ويفرط في وطنه وحقه ، وما يظل صامدا للدفاع عن حق امة ، وطن وتاريخ ... » (القدس ١٩٧٣/٥/٩). ومن الجدير بالذكر انه جرت يوم الجمعة ١٩٧٣/٥/١١ صلاة الغائب على أرواح الشهداء الذين سقطوا في لبنان ، كما تناولت خطبة الجمعة الحالة التي كانت قائمة في لبنان في ذلك التاريخ ، ودعا خطيب الجمعة المصلين التبرع لاسر الشهداء في لبنان (البشير ١٩٧٣/٥/١٢) .

وكان رئيسا بلديتي البيره ورام الله قد وجها نداء من الضفة الغربية حملا فيه مسؤولية المجازر في لبنان جميع رؤساء وملوك الدول العربية « التي تتفرج على نجاح السلطة اللبنانية في ابادة شعبنا » وناشدا الشعب اللبناني الوقوف الى جانب الشعب الفلسطيني في النضال من اجل كرامته وحريته وتحقيق امانيه . (الشعب ١٩٧٣/٥/٤) . كذلك وسمت برقية وجهها مجلس بلدية نابلس والغرفة التجارية ونقابات العمال والهيئات والمؤسسات النسائية والمهنية والجمعيات الخيرية وكافة فئات المواطنين في المدينة ، الى الرؤساء العرب ، ما يجري على ارض لبنان « من استباحة لدماء شعب ضحى من أجل حقوقه ، ما هو الا حلقة من حلقات مؤامرة مريرة ضد الامة العربية » (الشعب ١٩٧٣/٥/٤) . وجاء في برقية من الهيئات النسائية في نابلس وجهت الى الامة العربية شعوبا وحكومات « ان ما يجري في لبنان العربي ليس هو مؤامرة ضد الشعب الفلسطيني ونضاله لحقه ، قدر ما هو مؤامرة لطعن الامة في وحدتها وكفاحها لتحرير قدسها واجزائها المحتلة الاخرى ومستقبلها ومصيرها . لقد شرد الشعب الفلسطيني من أرضه ودياره ، ولكنه ظل مؤمنا بحقه في العودة الى وطنه مهما كانت التضحيات والثمن ، ولكن لا — وانه لشديد الحق — لتستباح دماؤه وتتكرر محنه ومآسيه في أرض عربية وبأيد عربية . الانسان الفلسطيني ، القيم والمبادىء التي يحملها ، بل الامة التي يموت من اجلها ، مسؤولة اليوم — في كافة اقطارها — عن حق دماء صغاره ونسائه وشيوخه في مخيمات ومواطن الذلة والتشرد والمنافي ، وليقف بمثله العليا وعظمة تضحياته امام كل طامع في ثرواتها وأرضه وتحويل تاريخها واخضاعها » (الشعب ١٩٧٣/٥/٤) .

وفي مجال استعراض وتناول الصحف العربية في الضفة الغربية لتلك الاحداث التي وقعت في شهر ايار (مايو) الماضي في لبنان ، ذهبت بعض تعليقات هذه الصحف الى تحميل مسؤولية سفك الدم الفلسطيني والعربي في غير مواقعه الحقيقي، الى جهات خارجية وايدي خفية لها مصلحة مباشرة في كل ذلك . وذهبت بعض التعليقات الى تحميل الوضع العربي العام مسؤولية ما جرى ، بينما رات بعضها ان السلطة اللبنانية والحكم العسكري هما اللذان يتحملان المسؤولية المباشرة عن سفك الدم اللبناني الفلسطيني الواحد . وقد تحدثت هذه الصحف في أكثر من تعليق لها باسهاب عن موضوعة « جيش الاحتلال » الفلسطيني في لبنان ومعالجتها بكثير من المرارة والالم . ففي مجال تحميل مسؤولية الاحداث لجهات اجنبية ، قالت صحيفة القدس مع بداية الاشتباكات : « ما كنا لنتسرع فنتحدث عما يجري في لبنان منذ يومين ذلك لانها ليست المرة الاولى التي تقوم فيها العناصر المشبوهة والايدي الخفية في لبنان بلعبة (جس النبض) للفتك بالمنظمات الفلسطينية ... [و] لان تلك الايدي وذلك الجهاز ما زالا اضعف من ان يفقدا ارزة لبنان خلودها ولا عروبة لبنان الاشم اصالتها واصولها ... » (الشعب ١٩٧٣/٥/٤) . وفي تعليق اخر قالت القدس وهي تشير الى جهات

اجنبية تذكي نار النزاع : « وما دام الطرف الظاهر والمقابل للجيش اللبناني في الصراع ، هو المنظمات الفلسطينية ، فان الاصابع التي تلعب من وراء الستار تتوقع ان يوجه الجيش اللبناني اسلحته نحو المنظمات ، والاخيرة لا بد ان تدافع عن نفسها بالضرورة ... وهكذا تزداد النار اشتعالا ... » (القدس ١٠/٥/١٩٧٣) . غير ان هذا الاتجاه الذي يحمل الجهات الاجنبية مسؤولية الاحداث ، وجد له نقيضا في تعليق اخر لصحيفة الشعب التي حملت السلطة اللبنانية وحدها مسؤولية ذلك كله . فقد قالت الشعب في تعليق لها بعنوان « سنظل نضيء لهذه الامة درب خلاصها : هل يملك هذا الطابور طائرات تقصف المخيمات ، ومدفعية ثقيلة تدك قواعد المنظمات ؟ انها السلطات » (الشعب ٩/٥/١٩٧٣) . وعززت صحيفة البشير هذا الاتجاه الداعي الى تحميل السلطة اللبنانية مسؤولية الاحداث بقولها: « ... اننا لا نبرىء لبنان الذي يقوم جيشه بعمليات عسكرية مركزة تستهدف المنظمات الفلسطينية ومخيمات اللاجئين من انه لا ينفذ مؤامرة مدبرة لتصفية العمل الفلسطيني والقضية الفلسطينية ، وهو بذلك ينضم الى قافلة القوى الظالمة التي لا تريد خيرا لا للفلسطينيين ولا للبنان ولا للعرب » (البشير ١٢/٥/١٩٧٣) .

أما في مجال تحميل مسؤولية تلك الاحداث الى الواقع العربي برمته فقد اسهبت صحف الضفة الغربية في شرح وتعليل ذلك . فقد وجدت هذه الصحف في الوضع الفلسطيني الثائر تمردا حقيقيا على أوضاع التردي والهزيمة التي تلف الجسد العربي باسره ، ونتيجة طبيعية لذلك ان يجد الواقع الفلسطيني نفسه متصادما مع الواقع العربي الرسمي . فقد وصف تعليق نشرته صحيفة القدس على صفحة داخلية لها الوضع الفلسطيني بانه « الجزء الشاذ المتحرك في جسم الامة العربية الخامل ، النائم ، المسترخي ، البليد » وقالت : « ان الجسم العربي النائم لا يثور اذا اعتدى احد على كرامته او كبريائه او استباح دياره وارضه وبيته .. لا يتضايق .. ويتحول هذا الجسم الى نمر كاسح اذا حاول جزء منه ان يوقظه من النوم ويخلصه من الخمول .. يبطش ، تخرج طائراته من عنابرها ودباباته عن سكونها .. قوة استعمارية هو الفلسطيني اذا بدأ يتحرك. عميل لما شئت من مخابرات الدنيا اذا رفض النوم كبقية النائمين .. وممنوع على الفلسطيني ان يخرج عن الاجماع العربي لو كان الاجماع نوما وكسلا وخمولا ... بدأ العذاب قبل ربع قرن .. ويكفي .. قرر « فريسيونا وكتبتنا » في الحكم انه يكفي .. لا بد ان يوضع حد لهذا العذاب .. وبدأ وضع الحد في عمان .. فهل يريدون نهايته في لبنان ؟. قد يفكرون . وقد يخططون .. لكن الفلسطيني بارادته فقط يضع نهاية لعذابه » (القدس ٩/٥/١٩٧٣) .

لقد كان عرض الوضع العربي وتحميله مسؤولية الاحداث الاخيرة في لبنان كما جاء في صحيفة القدس علما وغير محدد ويغلب عليه طابع المرارة والالم الشديد في تصديه لمعالجة هذا الموضوع . الا ان صحيفة الشعب في تناولها الموضوع نفسه ومن وجهة النظر نفسها رأت بصورة محددة ان مشروع روجرز الذي قضى بوقف اطلاق النار على الجبهات العربية مع اسرائيل هو لب المشكلة الحقيقية التي تواجه الفلسطينيين الذين نذروا انفسهم فداء الوطن . فقالت الشعب : « ولم تلبث مؤامرة وقف اطلاق النار على مختلف الجبهات ، ان استبدلت بفتح النار على المنظمات، وجاءت من بعد سنوات الهزيمة الامبريالية — الاسرائيلية — الرجعية ، المسماة بسنوات اللاسلم واللاحرب ، لتجعل من تجميد الحدود وتبريدها ، سخونة مشتركة بين اسرائيل وبعض العرب في ضرب المخيمات ومطاردة المنظمات **بوصفها العائق الرئيسي لاي حل استسلامي** ، ولم تجد بعض الانظمة العربية وقد فرض عليها الخيار بين ثلاث حالات هي : الغاء حالة الركود بلا سلم ولا حرب ، او الاستسلام الانهزامي حسبما تريد اميركا واسرائيل ، او التخلص من الشعب الفلسطيني كعدو بديل ومعوق كبير .. وكان الاختيار الثالث اسهلها واقربها ، ذلك لانهم لن يحاربوا ابدا ، ولن يتمكنوا من توقيع صكوك الذل والمهانة المسماة بالصلح والسلام طالما ظل الشعب الفلسطيني قائما وقادرا وفاعلا . بيد ان المخططين جميعهم ، اعرابا واغرابا ، نسوا حقيقة **اكبر من ضلالهم وتضليلهم وهي ان هذا** الشعب لن يموت لا هنا ولا هناك .. وانه سيظل في حلوق المستسلمين الانهزاميين شوكة **لا يمر عبرها الحل المفروض** ، بل ان الوجود المتواطىء والمتخاذل سيكون خوفه على نفسه اشد من حرصه على شعبه وامته ... » (الشعب ١٠/٥/١٩٧٣).

واضافت البشير في تعليق اخر تقول « ... ان ما يجري الان في لبنان يعني ان الفلسطينيين اصبحوا مع الاسف الشديد ضيوفا وغرباء في قلب الوطن العربي ، وهم عالة على الاخرين الذين اخذوا يشعرون بالضيق من هذا الشعب المشرد المنكوب، الذي يجمع كل القادة العرب على ان الشعب الفلسطيني جزء من الامة العربية ، ولكنه في اغلب الاحيان يعامل معاملة الاجانب الغرباء بل ان الاجانب والغرباء يلاقون معاملة افضل واكثر انسانية » (البشير ١٩٧٣/٥/٥) .

اما في مجال معالجة الصحف العربية في الضفة الغربية لموضوعة « جيش الاحتلال » الفلسطيني في لبنان كما اوردتها المراجع العليا في السلطة اللبنانية اثناء حديثها الى مجلس الوزراء اللبناني في بداية الازمة ، فقد عالجتها هذه الصحف من خلال فهمها للسيادة القومية على المستوى العربي الشامل وليس على منطلق مفهوم السيادةالاقليمية الضيقة . وقد رات هذه الصحف — بحق — ان الاحتلال الاسرائيلي في حد ذاته هو تعرض يومي سافر للسيادة الاقليمية والقومية على المستوى العربي برمته ، وانه لا يجوز بالنتيجة التحدث عن سيادة هي اصلا مهدورة وعن كرامة هي بالاساس مستباحة منذ خمس وعشرين سنة على يد اسرائيل . فقالت الشعب في هذا المجال : « ... وتزعم السلطة والجيش ان همهما هو سيادة لبنان ، ولا ندري اين هي تلك السيادة التي يخرق كرامتها الاسرائيليون يوميا ، وترفع شعارها مخابرات اميركا والرجعية العربية حتى اصبحت بيروت وكرا للعصابات، والجواسيس ، والعملاء. واذا كان ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل يقول وهو يغادر مطار اللد الى البيت الكبير .. الابيض ، يقول وعينه على لبنان : ان ما يجري هناك يدفع اسرائيل الى الاستعداد ذلك انه يعرض امن اسرائيل الى الخطر .. وفي هذا التصريح وحده ما يكفي لبنان الحكم لان يتوقف او يرعوي ، ذلك انه ينتظر من اسرائيل ان تستغل هذا الوضع لمصالحها ، خاصة وان وزير خارجيتها يطير الى واشنطن مسترشدا ومشاركا ، بعد ان قام الحكم الخفي في لبنان باداء الدور الاول من المؤامرة ، نيابة عن اسرائيل واميركا ، بل انه استعمل (الميراج) اللبنانية لضرب مخيمات الفلسطينيين تماما كما ضرب الميراج الاسرائيلي تلك المخيمات من قبل ..! » (الشعب ١٩٧٣/٥/٩) . وقالت الشعب في تعليق اخر لها : « ... ونسأل : اين هي مهابة اي حاكم عربي في هذه الدنيا واهله في الاسر والهوان ، بل اين هي كرامة الدولة ، اية دولة ، وارضها تحت الاحتلال الاسرائيلي السافر، او الاحتلال الامبريالي الاستعماري المخفي ؟؟. اوليس من حقنا ان نقول عن بعض العرب المستعربين: ليست هذه الملايين امة العرب ...» (الشعب ١٩٧٣/٥/١٠) . وكانت نفس هذه الصحيفة قد تصدت منذ بداية الاشتباكات الى طرح تساؤل صريح عمن هو الذي يحتل لبنان فعلا واجابت : « ... لبنان يفهم ، والعرب يعلمون من هو الذي خرج من الباب الفرنسي الانتدابي ليعود من نافذة الامبريالية الجديدة في شخص اميركا ، عدوة لبنان وفلسطين . بل عدوة كل عربي في مشارق الارض ومغاربها . ... ونحن نحرص على لبنان العربي اكثر من حرص بعض اللبنانيين الاميركان على وطنهم لبنان، كنا نود لو ان الدبابات ، والمدفعية ، والحذر ، كانت جميعها يوم ان استباحت اسرائيل بيروت وشوارعها تسرح وتمرح ، وتقتل وتدمر ... » واضافت الصحيفة تدحض الزعم القائل بان الوجود الفلسطيني في لبنان يهدد سيادة دولته فقالت ان الفلسطينيين لا « يريدون حكما في لبنان، ولا انتقاصا من سلطة لبنان ، او غير لبنان ، انهم يريدون وطنا سليبا نذروا انفسهم ان يعودوا اليه ، وكل ارض العروبة هي دربهم وطريقهم ... ان لبنان لاهله الوطنيين والفلسطينيين والعرب اجمعين ، لانهم عدا انهم اهله فهو خير وابقى من الاخرين » (الشعب ١٩٧٣/٥/٤) .

وبقي ان نذكر ان الصحف العربية في الضفة الغربية قد عالجت في تعليقاتها المختلفة طوال ايام الاحداث الدامية الاخيرة في لبنان وخلال الايام التي تلتها ، موضوع العلاقات الفلسطينية — اللبنانية في ضوء المعطيات الجديدة على الساحة اللبنانية، في اطار من الالتزام الواضح — رغم الممنوعات والقيود الاسرائيلية — بالهموم الوطنيةالفلسطينية. واذا كان قانون المطبوعات والنشر الاسرائيلي لا يتيح لهذه الصحف التحدث بكل صراحة عن حقيقة تعاطفها وتعاطف الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية مع حركة المقاومة الفلسطينية ، فانها تحدثت بكل وضوح وصراحة عن الوجود الفلسطيني خارج الوطن المحتل في لبنان وفي غير

لبنان مبينة المكائد والمؤامرات التي يتعرض لها . وقد وجدت هذه الصحف مبررا قويا وحقيقيا لها في التحدث عن الوجود الفلسطيني خارج الوطن بتفصيل ووضوح دون ان يكون حديثها عن حركة المقاومة وما تعلقه جماهيرنا عليها من امال ، بنفس الدرجة من الوضوح والصراحة . فقد قالت صحيفة القدس في افتتاحية لها عقب وقف مسلسل الاشتباكات في لبنان : « واذا كنا نتحدث عن الوجود الفلسطيني ككل ، ولا نخص به المنظمات، فذلك لان سلامة الاهل سلامة للبعض الذي يستمد مقومات حياته وبقائه من ذلك الاصل...». واشادت الصحيفة في تعليقها هذا باهمية الاتفاق الذي توصلت له حركة المقاومة مع السلطة اللبنانية كونه يحافظ على اهمية الوجود الفلسطيني الفاعل والمؤثر في مسرح الاحداث ، قائلة : « ان الوجود الفلسطيني على الارض اللبنانية يختلف عن مثله في أية بقعة عربية اخرى، وعلى الرغم من ان اطارات هذا الوجود ، من حيث الزمن المستغرق ، وتغيير المكان والبيئة ، عوامل كانت كافية لصهره ، او تفاعله وذوبانه في المجتمع اللبناني ، الا انه ظل بكل مفاعلاته ومقوماته ذا وجه فلسطيني بقيمه وولائه وتطلعاته .. ومن اجل ان يستمر هذا الوجود ، بكل قيمه ومقوماته ، كان لا بد من التوصل الى اتفاق » (القدس ١٨/٥/١٩٧٣) .

صدر حديثا عن مركز الابحاث

أسمـــاء

المواقع والمعالم الجغرافية الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين المحتلة حتى العام ١٩٤٨

بقلـــم

قسطنطين خمّـــار

كتاب يحوي نحو ستة آلاف اسم محرك لجميع المعالم الجغرافيـــة التي عرفت حتى تاريخ اغتصاب فلسطين مع ايضاح من موقع هذا الاسم ونوعه والمنطقة التي يقع فيها وتهجئته بالحروف اللاتينية أيضا والاسم العبري المستحدث له .

عدد محدود من النسخ

اطلبه من مركز الابحاث ــ قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت

٢٤٠ صفحة من القطع الكبير
سعر النسخة ١٠ ل.ل. يضاف اليها اجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ، ١/٢ ٢ ل.ل. في اوروبه ، ٥ ل.ل. في سائر الدول الاخرى

شـــهريات

(١) المقاومـــة الفلسطينية

لخص الاخ ابو عمار الموقف من احداث ايار كما يلي: « من جانبنا، فقد استطعنا بمزيد من الضبط والربط والسيطـــرة الثورية بين كوادرنا وبـــين جماهير شعبنا ان نوقف تطور الاحداث الى الحد الذي وصلت اليه رغـــم عنف الهجوم علينـــا وقساوته ، بحيث استعملت ضدنـــا الطائـــرات والدبابات والمدفعية والرشاشات . استطيع ان اقول اننا والمخلصـــين والشرفاء اللبنانيين قـــد استطعنا ايقاف الازمة عند هذا الحد ، وللحق فان ايقاف هذه الازمة عند هذا الحد ليس نهاية كل شيء ، ولكننا نحتاج لفتح حوار مستمر بيننا وبين الاخوة اللبنانيين لتفادي كل ما يمكن ان يحدث بيننا وبينهم » . (حديث الى التلفزيون الفرنسي ، نشرته « فلسطين الثورة » ٥/٢١) . وفي هذا التوجه نحو الحوار الذي أشار اليه الاخ ابو عمار معطيات لا بد من تسجيلها : ١ ـــ ان حوار المقاومة الفلسطينية مع السلطة اللبنانية (بالاضافة الى اطراف اخرى داخـــل لبنان لا تشـــارك في السلطة عمليا ولكنها تهيىء الاجواء لاتخاذ اي قرار يتعلق بالمقاومـــة الفلسطينيـــة) تقبله المقاومـــة الفلسطينية وتدعو اليه وخلفها « رصيد ايار » الذي تتمثل اكثر حقائقه صلابة في ان المقاومة استطاعت ان تدافع عن نفسها وتتصدى للهجمة بشجاعة تمكنت من « ايقاف الازمة عند هذا الحد » الذي لم يستطع عنف الهجـــوم وقساوته مـــن تصعيدها الى مرحلة التصفية . وحقيقة اخرى كشفها « رصيد ايار » صلبـــة بصلابة الحقيقة الاولى ان المقاومة لم تكن وحدها المعنية بالدفاع عن وجودها والنضال مـــن اجل استمرار هذا الوجود وبالتالي بالتصدي بشجاعة ايضا لابطال كل هجمة تتعرض لها المقاومة . فالدور المشرف الذي قامت به القوى الوطنية في لبنان بالدفاع عن حق المقاومة في الوجود اكسب المقاومة مواقع اكثر منعة وأشد ترسخا . وهاتان الحقيقتان اللتـــان هما في الواقع وجهان لحقيقـــة واحدة : احباط الهجمة وابطال مراميها الهادفة الى وضع المقاومة في « موقع المنهزم » تشكلان ضمانة اكيدة في أي حوار وعلى أي مستوى . ٢ ـــ مع هذه الضمانة المشار اليها في البند السابق هناك اتجاه مترسخ في المقاومة نحو عدم تقديم اي تنازل عن اي حق مكتسب في الساحة اللبنانية . وقـــد تجلى هذا الاتجاه علنا في الندوات الجماهيرية التي عقدها بعض قادة المقاومة في عدد من المخيمات الفلسطينية يوم ٥/٢٠ . فقد اكد الاخ ابو اياد في مخيم شاتيلا « ان الثورة الفلسطينيـــة والشعب الفلسطيني يرفضان ان تعود المخيمات الى سابق عهدها ، وان يعود الشعب الفلسطيني في هذه المخيمات للوقوع تحت رحمة رجال المخابرات او غيرها... واكد أن تجربة الثورة في الاردن علمتها كيف تتلافى أخطاءها وهي لذلك ترفض التنازل عن حقها في حمل السلاح . اذ ان موضوع تنظيم السلاح ومن ثم تخزينه ومن ثم الانتقال الى الاحراج الخ ، كلها لا تزال احداثا طرية في الذاكرة » (« فلسطين الثورة » ٥/٢٢) . كما اكد الاخ ابو ماهر في مخيم برج البراجنة « انه لا يمكن ولا بأي حال مـــن الاحوال ان يتم سحب قطعة سلاح من مخيم ، واقول لكم كما قلنا للسلطة لن نتنازل عن اي مكتسب من مكتسباتنا في تسليح الجماهير وتدريبها وحقها في حمل السلاح والدفاع عـــن نفسها » (« فلسطين الثورة » ٥/٢٣) . وكذلك قال الاخ ياسر عبد ربه في مخيم تل الزعتر « نحن كنا ندافع عن مواقعنا ، عن مخيماتنا ، عن اهلنا ، وهذه هي حقوقنا ولن نتنازل عنها شعرة واحدة ... كل ما جرى خلال الايام الماضية كان على اساس الالتزام بحقوق شعبنا في العمـــل ، في التواجد الفدائي والمسلح وعلى اساس انه لن يتم اي تنازل او تراجع عن هذه الحقوق وهذا مـــا تم فعلا » (« فلسطين الثورة » ٥/٢٤) . ٣ ـــ ان

فهم النظرة الفلسطينية الى الواقع اللبناني يقود الى فهم ضرورات الحوار ، وهذه النظرة حددها الاخ ابو اياد بدقة بقوله « ان الثورة لا تريد ان تصل الى السلطة في لبنان وانها لا تريد ولا تطلب ان تصل الى الحكم في لبنان وليس لها اية اهداف بالتدخل في شؤون لبنان... ان الشعب الفلسطيني يريد سلطة له على ارض فلسطين الحرة وليس على ارض لبنان » (« الاخبار » اللبنانية ٥/٢٦). ومن الواضح ان ثمة اجماعا في صفوف حركة المقاومة على هذه النظرة ففي مقارنة اجراها الاخ نايف حواتمة (« الصياد » ٦/٧) بين اوضاع الاردن والاوضاع في لبنان قال « في لبنان ان كل ما نناضل من اجله المقاومة هو حق شعبنا في الصراع ضد العدو الصهيوني وحماية حقوقه الوطنية في التدريب والتنظيم والتي تمكنه من القيام بهذه المهمة المقدسة . اما في الاردن فالوضع مختلف جذريا [يحدد حواتمة مظاهر هذا الاختلاف ثم يقول :] من هنا يصبح مشروعا للشعبين الفلسطيني والاردني النضال من اجل اقامة حكم وطني ديموقراطي يشكل قاعدة وضمانة للثورة ... ان مهام المقاومة في لبنان تختلف نوعيا عنها في الاردن » .

في ضوء هذه المعطيات اجرت المقاومة الفلسطينية بعد توقف القتال اشكالا من الحوار في الساحة اللبنانية نستعرض هنا مثالين منها واحدا على صعيد رسمي والاخر على صعيد حزبي .

ان حوار المقاومة الفلسطينية مع السلطة اللبنانية كان يحكمه اتفاق القاهرة وقد أوضح الاخ ابو عمار انه لم يتم اي اتفاق جديد بين السلطة والمقاومة ورفض ان يسمي المحادثات التي دارت بين السلطة والمقاومة بين ١٥ — ١٧ ايار اتفاقا : « ان هذه ليست باتفاقية ، انها ليست اكثر من حوار بين الفلسطينيين واللبنانيين . كل ما حدث هو اننا دفعنا بهذا الحوار انطلاقا من اتفاقية القاهرة » (« فلسطين الثورة » ٥/٢١) كما اكد الاخ نايف حواتمه ان « ما يختص بالنقطة المتعلقة بالاتفاقات فان الكتاب الذي يجمعنا هو اتفاق القاهرة وبروتوكولاته . وما تم من تفاهم من اجل وقف الحملة الاخيرة يستند بمجموعه الى هذا الاتفاق . فنحن لا نطمح الى اتفاقات مضافة الى اتفاق القاهرة . وتطبيق اتفاق القاهرة بأمانة واخلاص كفيل بحل جميع الاشكالات التي يمكن ان تنشأ بيننا » (« الصياد » ٦/٧) .

وقد سعى الاعلام الفلسطيني بعد توقف القتال الى تعميق الدعوة الى الحوار بين المقاومة الفلسطينية والسلطة اللبنانية فكتبت « فلسطين الثورة » (٥/٢٠) ما يلي : « نحن نؤمن بالحوار لان ما بين السلطة اللبنانية والمقاومة لا يمكن حله بغير الحوار . فقد اثبتت التجربة ، والمعرفة والحكمة قبل ذلك ، ان القوة هي الحل المستحيل للعلاقات اللبنانية الفلسطينية . وكما ان التعايش والفهم والتفاعل هو جوهر الوجود اللبناني ، فهو ايضا ، في الوقت نفسه ، جوهر العلاقات اللبنانية الفلسطينية » .

وقد اتخذ هذا الحوار شكلين : الاول في اطار لجنة التنسيق الفلسطينية اللبنانية التي عقدت بعض اجتماعاتها برئاسة الدكتور امين الحافظ ، رئيس الحكومة السابق ، وقد صدر اثر اول اجتماع لها يوم ٥/٢٦ بيان جاء فيه « ترأس رئيس الحكومة الدكتور امين الحافظ اجتماعا حضره رئيس مركز الارتباط ، ممثل قيادة الجيش وممثلون عن منظمة التحرير الفلسطينية ، عرضت فيه المراحل التي تم تنفيذها منذ التفاهم الذي تم بين السلطة اللبنانية والفلسطينيين واتفق على ان يستتبع هذا الاجتماع التمهيدي اجتماعات دورية لاحقة يعقدها الجانبان اللبناني والفلسطيني لمعالجة القضايا المشتركة وايجاد الحلول المناسبة لها » (« المحرر » ٥/٢٧) . كما واصلت اجتماعاتها يوم ٥/٢٩ دون اصدار اي بيان (« الحياة » ٥/٣٠) . كذلك عقدت اجتماعا برئاسة الدكتور الحافظ يوم ٦/٤ وقالت «الانوار» (٦/٥) انه تم في هذا الاجتماع الاتفاق « على ازالة جميع المظاهر الناتجة عن الحوادث الاخيرة تدريجيا على ان يبدأ ذلك بازالة الارتباط المشترك من الشوارع فورا [كانت خيام الارتباط المشترك مقامة في مستديرات المطار والكولا وبئر حسن منذ ١٠ ايار الماضي وتحتلها عناصر من الجيش والمقاومة] ثم ازالة الحواجز » وقد صرح الاخ ياسر عبد ربه عضو الجانب الفلسطيني للصحافيين اثر انتهاء الاجتماع بأن هذا الاجتماع « تم بشأن بعض القضايا والمشاكل العالقة وقد تم التوصل لحل معظم هذه القضايا . كما اتفق على ازالة بقايا مظاهر الاحداث الاخيرة مثل خيام الارتباط المشترك للمزيد من اشاعة الاطمئنان الكامل والنهائي في البلد . اما على صعيد قضايا المقاومة فقد اتفق على الافراج عن بقية المعتقلين وعددهم

حوالي ٤٢ معتقلا خلال الساعات المقبلة وقد وعدنا بتخفيف الحواجز تدريجيا خلال ايام والانتهاء من كافة المظاهر القائمة الان » (« الحياة » ٦/٥) . وفي الاجتماع الذي جرى يوم ٦/١٢ ذكرت « النهار » (٦/١٢) انه عرضت الاوضاع في البلاد خصوصا الاعمال الفردية التي يقوم بها بعض العناصر غير المنضبطة وان الجانب الفلسطيني اعلن ان المخالفات التي صدرت عن بعض العناصر الفدائية اتخذت في حق مرتكبيها اجراءات صارمة لمنع تكرارها وان الجانب الفلسطيني شكا من تصرفات بعض رجال الامن فرد الجانب اللبناني بأن الحوادث الفردية التي وقعت جرى تطويقها فورا واعطيت الى عناصر قوى الامن تعليمات بوجوب معاملة الجميع معاملة لائقة وكريمة .

هذا الشكل من الحوار مع السلطة رافقه شكل آخر تمثل في لقاء القمة الذي عقد بين الاخ ابو عمار والرئيس فرنجيه يوم ٦/١ والذي جرى التمهيد له من جانب الشيخ صباح الاحمد الصباح وزير خارجية الكويت الذي وصل الى لبنان يوم ٥/٢٨ حاملا رسالتين الى الاخ ابو عمار والرئيس فرنجية من الشيخ صباح السالم الصباح ، امير دولة الكويت (« المحرر » ٥/٢٩) .

وقد أوردت « النهار » (٦/٣) معلومات عن لقاء القمة هذا فقالت ان الرئيس فرنجية وعد الاخ ابو عمار بأن المعتقلين من الفلسطينيين سيتم الافراج عنهم ونقلت عن « مصادر عربية مطلعة » تفاصيل اللقاء فذكرت ان النصف الاول منه خصص لمناقشة « المخالفات والتجاوزات التي ارتكبتها عناصر فدائية » وقد أوضح الاخ ابو عمار بعض هذه المخالفات والتجاوزات ورد على البعض الاخر ثم أثار قضية المعتقلين الفلسطينيين وقضية معاملة الفلسطينيين عند الحواجز التي تقام في مختلف المناطق وقال ان هناك شكاوى يومية ترد الى قيادة المقاومة من فلسطينيين لبسوا بالضرورة من العناصر الفدائية تعرضوا للمضايقات ولسوء المعاملة عند الحواجز . وأوضح ان هذه الامور تخلق لدى الفلسطينيين أجواء انفعالية مشحونة وقد تدفع البعض منهم الى القيام بأعمال فردية وغير مسؤولة تسيء الى العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية . ووعد الرئيس فرنجية بمعالجة القضيتين . وذكرت « النهار » ان قيادة المقاومة حرصت على ابلاغ بعض الجهات العربية ان اجتماع الرئيس فرنجية وابو عمار كان ايجابيا وخطوة اساسية في طريق ازالة كل رواسب الازمة الاخيرة .

لقد كان موضوع الاعتقالات واساءة معاملة الفلسطينيين احدى العثرات الكبيرة التي تقف في وجه اعادة الاوضاع الى طبيعتها في لبنان . ونستعرض هنا امثلة حدثت بعد أن ألغى مجلس الوزراء حالة الطوارىء يوم ٥/٢٣ ليلا . أوردت « المحرر » (٥/٢٥) قائمة بأسماء عدد من المعتقلين اللبنانيين والفلسطينيين في مناطق عدة من لبنان . وأوردت يوم ٥/٢٦ انباء عن لقاء تم في اليوم السابق بين الاخ ابو عمار والسفراء العرب في لبنان تصادف فيه قدوم عشرة مواطنين فلسطينيين وسوريين كانوا معتقلين لدى السلطة وعرضوا فيه على السفراء العرب حقيقة المعاملة السيئة التي تعرضوا لها اثناء اعتقالهم . وصرح مصدر مسؤول في منظمة حزب البعث العربي الاشتراكي في لبنان (٥/٢٦) بأن السلطة اللبنانية تقوم بمداهمة منازل بعض الاشخاص من القوى الوطنية والاحزاب التقدمية . كما أوردت « النداء » (٥/٢٧) نقلا عن « وفا » قائمة بأسماء عدد من الفلسطينيين عذبوا على ايدي رجال السلطة في السجون . وذكرت الصحيفة نفسها ان الجانب الفلسطيني في اجتماع لجنة التنسيق الذي عقد يوم ٥/٢٦ اثار قضية المعتقلين من الفلسطينيين والحملة التي تستهدف اعتقال اللبنانيين من انصار الثورة كما اثار الشكاوى المتعلقة بالمعاملة السيئة على حواجز الجيش واعمال الاهانات والاعتقالات الدائرة . وذكرت « وفا » (٥/٢٨) ان حواجز الامن اعتقلت في اليوم ذاته ثلاثة مناضلين فلسطينيين في منطقة البقاع . وقد أوردت «المحرر» (٦/١) قائمة بأسماء عدد من المعتقلين الذين عذبوا ردا على تصريح كان قد ادلى به وزير الداخلية اللبناني ، بشير الاعور ، يوم ٥/٢٩ نفى فيه ان تكون السلطة قد لجأت الى « توقيفات تعسفية » (« النهار » ٥/٣٠) . كما نقلت « النداء » (٦/١) عن « وفا » عدة حوادث اعتقالات حدثت في اليومين السابقين . كما أوردت « الهدف » (٦/٢) قائمة مطولة بمثل هذه الحوادث . وعلى الرغم من انه تم الاتفاق في اجتماع لجنة التنسيق (٦/٤) على اطلاق جميع المعتقلين من عناصر المقاومة الا ان سلطات الامن قامت يوم ٦/٥ باعتقال اثنين من مسؤولي المقاومة

(ابو صلاح — من مسؤولي فتح ، وابو عباس — من مسؤولي الصاعقة) . وقد ذكرت « النهار » (٦/٧) ان الرئيس فرنجيه اصدر تعليماته يوم ٦/٦ « باطلاق كل موقوف فلسطيني غير ملاحق باحدى الجرائم العادية » . ومع هذا ففي اليوم نفسه قام رجال الامن باعتقال ثلاثة اشخاص ينتمون الى احدى فصائل المقاومة كما قاموا باعتقال السيد علي نادي عضو قيادة منظمة حزب البعث العربي في لبنان وثلاثة من رفاقه . كما أوردت « النداء » (٦/٧) اسماء عدد من الفلسطينيين تم اعتقالهم وآخرين تعرضوا للاهانة عند حواجز الجيش في اليوم نفسه كذلك . وقد أوردت « وفا » (٦/٧) ان حاجزا للجيش في المديرج اعترض الاخ خالد الفاهوم ، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني ، في اثناء مغادرته بيروت متوجها الى دمشق حيث قام الحاجز بتفتيش سيارته بشكل استفزازي ، كما أوردت ان الاخ زهير محسن ، رئيس الدائرة العسكرية في منظمة التحرير الفلسطينية اوقف عند حاجز المديرج واحتجز مع مرافقه مدة ثلاث ساعات كاملة واحتجزت الاسلحة الفردية العائدة له ولمن معه . وقد سمح للسيارة ومن فيها بعد ذلك بالعودة الى بيروت بعد توقيع سندات اقامة وطلب اليهم مراجعة المحكمة العسكرية بحجة ان المراجع المختصة تقضي بذلك .

على الرغم من جميع هذه الاستفزازات كانت قيادة المقاومة حريصة على معالجة الامور باكبر كمية من ضبط الاعصاب ، خاصة وانها كانت تجري شكلا آخر من الحوار تمثل في اللقاءات التي تمت بينها وبين حزب الكتائب اللبنانية . وقد بدأت سلسلة اللقاءات هذه مساء ٥/٣١ في منزل نائب رئيس حزب الكتائب السيد جوزيف شادر وقد ضم وفد المقاومة الاخوة ابو اياد وياسر عبد ربه وصلاح صلاح وتوفيق الصفدي ، بينما كان وفد الكتائب مؤلفا من السادة جوزيف شادر وجورج سعادة وامين الجميل وكريم بقرادوني . وقد وصفت صحيفة « العمل » الكتائبية (٦/١) هذا الاجتماع بأنه « حوار ايجابي بين الكتائب والمقاومة » . كما عقد اجتماع آخر يوم ٦/٣ في منزل النائب امين الجميل . وقد ذكرت « النهار » (٦/٤) ان المجتمعين تباحثوا في صدى الاجتماع الاول واثره ونتائجه وفي مقابلة السيد ياسر عرفات للرئيس سليمان فرنجية واتفقوا على تشكيل لجنة مصغرة من الفريقين لوضع وثيقة عمل مشتركة . وقد اذاع الاخ ابو اياد اثر الاجتماع بيانا ذكر فيه ان الاجتماع توصل الى الاتي :
١ — درس الوسائل الكفيلة بتعميق الثقة بين الشعبين اللبناني والفلسطيني . ٢ — اقرار تشكيل لجان العمل المشتركة الآتية : أ — لجنة لحل بعض المشكلات الانية . ب — لجنة طالبية . ج — لجنة اعلامية . د — لجنة لصياغة وثيقة عمل مشتركة على ضوء الحوار الذي جرى خلال الاجتماعين المتتاليين . ٣ — تقرر عقد اجتماع يوم الخميس المقبل لاقرار صيغة التعاون الدائم ووضع برنامج عمل يكفل استمرارية هذا التعاون. وقد تم اجتماع لجنة الاعلام يوم ٦/٥ . وقد تمثل الجانب الفلسطيني بممثلين عن مؤسسات الثورة الثقافية والاعلامية : مجلس الاعلام الموحد ، مركز الابحاث ، مركز التخطيط ، مجلة فلسطين الثورة. وقد ذكرت « العمل » (٦/٦) ان كلا الجانبين ابديا استعدادا مخلصا للتعاون وقد يتخذ هذا التعاون في المستقبل القريب تبادلا في نشر بعض المقالات بين محرري « العمل » ومحرري « فلسطين الثورة » . وكان الاجتماع الثالث في سلسلة اللقاءات يوم ٦/٧ وبعد انتهاء الاجتماع صدر بيان جاء فيه ان المجتمعين توصلوا الى النتائج التالية: ١ — اقرار مشروع وثيقة عمل مشتركة . ٢ — تشكيل لجنة متابعة دائمة للاحقة كل القضايا الطارئة والمتفق عليها .

ما هو تفسير قيادة المقاومة لهذه اللقاءات ؟ يرد الاخ ابو اياد (في تصريح له لمجلة « البلاغ » ٦/١١) على ذلك بقوله « ان اجتماع المقاومة مع الكتائب خطوة كان يجب ان تتم فعلا منذ مدة طويلة ، فهناك خطأ تقع فيه احيانا الحركات الثورية ، عندما تحاور أصدقاءها فقط . فهي كأنها تحاور نفسها . بينما هناك مجموعات واحزاب قد يكون لها موقف معاد للثورة من خلال الرؤية البعيدة ، ولكن يتضح من خلال اللقاءات معها ان تلك النظرة خاطئة ... ان حوارنا واتصالاتنا الدائمة سوف تؤكد لكامل الفئات ان الثورة الفلسطينية تطمح لكسب تأييد كل لبناني ، وبشكل خاص الفئات اللبنانية الحزبية بغض النظر عن تفكير وايديولوجية كل فئة » .

ع. ص.

(٢) القضية الفلسطينية عربيا

توقف اطلاق النار بين السلطة والمقاومة ، منذ حوالي شهر ، ولكن الازمة تبدو قائمة . وعلى الرغم من أن المواطنين العاديين ، من غير الفلسطينيين خاصة ، عادوا الى حياتهم اليومية، فان عودتهم لا تدل على أن الامور عادت الى مجاريها . واذا كان هنالك من يحاول ان يوحي بأن ما حدث لا يمكن ان يتكرر ، كما فعل الشيخ امين الجميل (صدى لبنان ٦/٥) ، فان هنالك من يؤكد أن الازمة لم تنته .

لقد عالجت الاخبار ، مجلة الحزب الشيوعي اللبناني هذه القضية (٦/٩) فأكدت « ... ان اسباب اندلاع الازمة ما زالت قائمة ، او على الاقل ، الاسباب الرئيسية . وما زالت قائمة كذلك المظاهر الاساسية لعواقب الازمة». وأشارت الاخبار الى أن الحواجز ترفع من مكان لتقام في مكان اخر . والى أن هنالك « تعزيزات وحفريات في أماكن عديدة ، خاصة حول المخيمات » . كما أشارت الاخبار الى « الشائعات التي تقوم اوساط السلطة وصنائعها بنشرها في مختلف مناطق لبنان ، وفي بيروت ، عن انذارات محددة جديدة توجه الى المقاومة ، لتنفيذ كذا وكذا من « الشروط المتفق عليها » — وهي شروط لم يجر البحث فيها بالاساس — » وقالت أن هذه الشائعات « لا تساهم الا في شحن النفوس باسوأ انواع المشاعر في هذا الظرف المتوتر » . وختمت الاخبار مقالها قائلة : « الازمة اذن لم تنته ، بل اننا نشهد الان مرحلة جديدة منها . ومرحلة خطيرة . وستحاول قوى عديدة ، داخلية وخارجية ان تعطيها طابعا طائفيا ، ولا يستبعد ان تحاول هذه القوى نفسها دفع الامور الى الشكل من الصراع تتعدى الصراع السياسي التقليدي » .

وما تطرحه الاخبار ، ليس بعيدا عن الصورة الحقيقية . ان اطلاق النار توقف ، ولكن الازمة لم تنته ، والسبب ان الازمة كانت قائمة قبل اطلاق النار ، ولم تنشأ يوم تكلمت البنادق والمدافع والطائرات . وحين تم وقف اطلاق النار لم يتغير شيء . لقد ظلت المقاومة مقاومة والسلطة سلطة . وما جرى التفاهم حوله لا ينهي المشكلة القائمة . اما الجديد في الامر فهو الجرح العميق الذي خلفته الاحداث والشك الذي راكمته بين الطرفين . ومن هنا فان ما نقل عن الشيخ امين الجميل من أن ما حدث لن يتكرر لا ينسجم مع حقيقة الامور ، ولا يتفق مع « توجسات » حزب الكتائب نفسه .

كيف يمكن ألا يتكرر ما حدث ؟ يمكن عندما تتحول الدولة اللبنانية والجيش اللبناني والجماهير اللبنانية الى قوى مقاتلة ضد العدو غير هيابة . وما دام هذا لم يحدث ، وما دام الضغط العسكري « الاسرائيلي » والضغط السياسي الاميركي قائمين ، وما دامت السلطة في لبنان مقتنعة بجوار السلاح ، فان ما حدث سوف يتكرر .

وهنالك ما يؤكد ان الازمة لم تنته . ولن نتحدث هنا عن الحواجز والاعتقالات ، ولا عن الاستعدادات التي تجريها السلطة . بل سنتحدث عن بعض قضايا اخرى . وهذه القضايا هي :

١ — التركيز المستمر على أن وجود الثورة الفلسطينية على الاراضي اللبنانية يمس سيادة لبنان . وان وجود عناصر مسلحة ، غير خاضعة للقوانين اللبنانية انتهاك لهذه السيادة . ولبنان حريص على سيادته . وحرصه يفرض عليه ان يخضع كل الذين على أراضيه لقوانينه . وقوانينه تمنع حمل السلاح الا بترخيص ، كما تمنع نشوء الجمعيات السرية المسلحة وغير المسلحة . وهذا يعني ان حل المنظمات المسلحة وتجريدها من أسلحتها عمل من أعمال السيادة . من يستطيع أن يقول غير ذلك ما دامت القضية تناقش من هذه الزاوية ؟ ولكن لماذا لا تناقش المسألة من زاوية ان الخطر الصهيوني هو التحدي الاكبر لسيادة الامة العربية ، ولسيادة كل قطر من اقطارها ، وان التصدي لهذا التحدي هو أنبل اعمال السيادة ؟ ان مناقشة القضية من هذه الزاوية هي التي ستضع حجر الاساس لحل التناقضات التي يمكن ان تنشأ بين الثورة والانظمة العربية ، ومنها السلطة في لبنان . ولكن منطق السلطة لا يقبل هذا المنطلق ، ان سيادة لبنان هي سيادته على اراضيه ، ضمن حدوده الجغرافية . أما التحدي على الحدود فلا يبدو محسوبا من الاخطار الكبيرة التي تهدد السيادة . واذا اعتبر فقولا لا فعلا . ولذلك فان مضمون السيادة الان

يعني ضرب المقاومة لا ضرب العدو . ومحاولة اثناء التحدي الخارجي بقمع التحدي الداخلي له.

٢ — التركيز المستمر ، ومن منطلق السيادة عينه، على أن لبنان لا يقبل ان يتحمل مسؤولية اعمال لا يشارك في التخطيط لها . ومن هنا بدأ الحديث عن « سيادة لبنان وشرعية المقاومة » . وخرج علينا من يقول : « ان اعتراف اللبنانيين بشرعية المقاومة او الثورة ، وبمبدأها في الاساس ، لا يعني على الاطلاق أن يتحمل لبنان مسؤولية اعمال وتصرفات لم يخطط لها، ولم يكن له رأي في اعدادها» (لسان الحال ٦/٨) ومن هنا لا بد من اعادة النظر في استراتيجية الثورة ، ولا بد من استراتيجية عربية موحدة ، كما اقترح الرئيس شارل حلو (النهار ٥/٢٨) . وحاولت العمل ان تحدد ملامح هذه الاستراتيجية على أنها تستوجب « ... التضامن في التخطيط ... وتستوجب كذلك تقاسما للاعباء والادوار بين الشعبين . بل بين الشعوب العربية قاطبة ، لان قضية فلسطين هي أكبر من الشعبين (اللبناني والفلسطيني) .. بل ربما بدت أحيانا اكبر من الشعوب العربية كلها » (٦/٨) .

ونحن نوافق على ذلك كله شريطة ان ينطلق من أن القتال هو الحل الوحيد ومن أن استمرار المقاومة هو الاساس . واذا ارادت الانظمة الا تكون اخر من يعلم في القضايا المصيرية ، فان عليها أن تعمل ما يجعلها أهلا للثقة . وهذا لا يكون بالاعتقالات وشن الحملات السياسية والعسكرية ومحاربة المقاتلين ومهادنة العدو . ان الثورة الفلسطينية تعتبر توسيع الجبهة ضد العدو نصرا لاستراتيجيتها ، وتعبيرا عن مطامح الامة العربية . ولذلك فانها تدعو كل القوى الى خوض المعركة . ولكن بعض الانظمة العربية تعتبر دولة الاحتلال الصهيوني عدوها قولا ، وتعتبر الثورة الفلسطينية عدوها فعلا . ان حكومة الاردن التي لم تقرر خوض معركة واحدة ضد العدو الصهيوني ، قررت ان تخوض معارك ، بعضها ضار وشرس ودموي ضد الثورة الفلسطينية . ولذلك كله سوف يبقى لبنان وغير لبنان يتحمل ما لا يخطط له ، حتى يشارك لبنان وغير لبنان في القتال ، ويشارك في التخطيط له . ولم يحدث يوما ان خطط الذين لا يقاتلون للذين يقاتلون .

٣ — التركيز المستمر على أن هناك اتفاقا ، وان الثورة لا تطبقه . ومن هنا يأتي حديث الاخطاء والتجاوزات.ولقد ساهمت «العمل» في هذه الحملة مساهمة كبيرة . وتحاول هذه الحملة ان تصور كل ما تم التفاهم عليه ليس الا حبرا على ورق ، لان الاجراءات التي « اتفق عليها مع ممثلي المقاومة ، ضرورية للامن والسلامة العامة ... وضرورية أيضا لكي تبقى السيادة مصونة ... » (العمل ٥/٣٠) .

وبما أن ما تم الاتفاق عليه لم ينفذ فقد استمرت المخالفات والتجاوزات : « فحظر التجول باللباس المرقط والسلاح جوبه أمس بالذات بتظاهرة مسلحة ، وتوريد السلاح لم ينقطع ، بعضه يقع حسدقة في أيدي رجال الامن ، وبعضه الاخر يستقر في اماكن ، من المتفق عليه الا تكون مسلحة .

وكذلك اختطاف الجنود والافراج عنهم دون الافراج عن حق السلطة اللبنانية في معاقبة الفاعلين ... » (العمل ٥/٣٠) . وبادرت (لسان الحال (٦/٢) الى مصارحة الاخوان الفلسطينيين «... ان لبنان متضايق من التجاوزات والمخالفات التي حصلت بعد وقف اطلاق النار » .

ولم تبق الحملة عند هذه الحدود . ذلك ان الذين بدأوا بها تجاوزوا حد الحديث عن الاخطاء والتجاوزات الى الحديث عن عجز الطرف الفلسطيني على ضبط جميع اطرافه وعناصره . ووصل الامر ان كتبت (لسان الحال ٦/٢) : « فاذا كانت القيادات الفلسطينية غير قادرة على ضبط الامور بحيث يمتنع كل تجاوز ، فان من واجبها أن تصارح المسؤولين اللبنانيين وتطلب المساعدة في ذلك » . وهذا يعني ان على قيادة المقاومة ، او قسم منها أن يستعين بالجيش ضد عناصر في المقاومة . أو أن تستنيد السلطة من التعبئة ضد الاخطاء والتجاوزات فتوجه ضربة حديدة الى الجميع وفي الحالتين تكون السلطة تتجه نحو المعركة .

ان هذا كله لا يدل على أن الازمة انتهت . ذلك أن انتهاءها يتطلب ١ — ان تقتنع السلطة في لبنان وكل ما شابهها او والاها ان وجود المقاومة وتنظيماتها السرية والعلنية واخطاءها وتجاوزاتها ليس متناقضا مع السيادة اللبنانية ٢ — ان يقتنع كل لبنان بأن القتال ضد العدو الصهيوني هو قتال من أجل سيادة لبنان الحقيقية ، وسيادة العرب أجمعين ، وان هذه القوى التي تقاتل هي للبنان كله لاستقلاله وكرامته وحريته ، وليست

لطرف فيه ضد طرف اخر . وان القوى السياسية اللبنانية كلها مطالبة بأن تتصرف على هذا الاساس، اذا أرادت ان تكون المقاومة للكل . أما الذين يناصبون المقاومة العداء ، ويرون سيادة لبنان في الوقوف متفرجا على الصراع مع الاحتلال ، فانهم لا يريدون أن تكون المقاومة للبنان كله . ونحن نرحب ان يكون « لبنان كله مع المقاومة ، مع مبدأ المقاومة ، مع فلسطين الحبيبة ، التي ضيعتها الاهواء والاخطاء الفادحة، مع الشعب الفلسطيني المظلوم والمضطهد والمعتدى عليه » (لسان الحال ٦/٢) . واذا كان لبنان يرفض « ان يجر جرا وراء مخططات غامضة ، مرتجلة ، لا يشترك هو في وضعها ، ووراء أعمال وتصرفات في الداخل والخارج ، لا تفيد فلسطين ولا قضيتها ولا شعبها وتلحق بالعرب جميعا خسائر فادحة » فانه يسرنا أيضا الا « يكتفي لبنان بهذا الرفض » وان يناضل معنا « الى اكتشاف سبيل شريف يسير فيه العرب نحو النصر » (لسان الحال ٦/٢) . ولكننا سنظل نقاتل ، معتبرين القتال افضل الوسائل لاكتشاف السبيل الشريف وسبيل النصر .

— ٢ —

حين أخذت أصوات القنابل والرصاص تتضاءل في بيروت ، كانت معركة اخرى تدور حول القضية ذاتها في اروقة الامم المتحدة . لقد انتهت هذه المعركة لتبدأ تلك هناك . فهل هناك علاقة بين انتهاء هذه وابتداء تلك ؟ نعم هنالك علاقة .ولو استطاعت السلطات فيلبنان ان تحصل على تنازلات جديدة في أيار ، كتلك التي حصلت بعد أزمة أيلول سنة ١٩٧٢ ، لاختلفت المعركة التي تدور اليوم هناك ، في اروقة الامم المتحدة .

لماذا ؟ هنالك عدد من الاسباب : اولا : لو استطاعت السلطة في لبنان ان تنتزع تنازلات أساسية جديدة من الثورة ، لاعطى ذلك الولايات المتحدة ودولة الاحتلال الصهيوني فرصة اكبر للمناورة، وللدفع باتجاه الحلول الجزئية والجلوس على مائدة المفاوضات . وكانت الولايات المتحدة ودولة الاحتلال تعملان على هذا الاساس . ولكن « العتمة لم تؤات الحرامي » .

ثانيا : لو استطاعت السلطة في لبنان ان تنتزع مثل هذه التنازلات لاتيح مجال اكبر للدول العربية المندفعة على طريق الحل الجزئي والمنفرد ، مثل الاردن .

ثالثا : ولو حصلت مثل هذه التنازلات لضعف موقف الدول العربية الضاغطة من اجل حل سلمي عادل في الامم المتحدة ، مثل جمهورية مصر العربية. ولذلك لم يكن مخطئا ذلك السفير العربي «الرجعي» الذي قال لاحد ممثلي المقاومة ، بعد احداث ايار، لقد ارتفعت اسهمكم في ميزان السياسة الدولية . ونحن نرى أن أسهم الشعب الفلسطيني قد ارتفعت ، ولكن بمعنى اخر . فاذا كانت القوى المعادية على أية تسوية ، جزئية او غير جزئية ، الشعب الفلسطيني ومحافظته على قدرته القتالية واحباط مناورات تحطيم ارادته يحد من قدرة القوى المعادية على أية تسوية جزئية ، او غير جزئية ، مؤقتة او غير مؤقتة . كما أن صمود الشعب الفلسطيني يفسح المجال واسعا امام دفع الامة العربية نحو القتال ، ويغلق أبواب الاستسلام واحدا فواحدا .

كما أن صمود الشعب الفلسطيني ، يعرقل أية محاولة للتسوية المنفردة ، او الجماعية ، ويبقي القضية قضية نضال وقتال ، لا قضية مفاوضات ومناقشات . واذا كان صمود الشعب الفلسطيني لا يعني التفريط بالقضية ، فانه لا يجوز أن يعني ايضا المشاركة في اقتسام « قرص الجبن » ، ولا الجلوس على مائدة الكبار لاخذ « حصة الفأر » . وهكذا بدأت مناقشات مجلس الامن ، والطرف الفلسطيني ، ليس في حالة هزيمة او تراجع . ولقد انتهت فصول من المسرحية هناك . وعلى الرغم من أن الخاتمة ليست واضحة بعد ، فان الفصول التي مثلت كافية لاعطاء صورة عما يدور .

وواضح ان جمهورية مصر العربية ، هي التي تقود التحرك العربي في الامم المتحدة . وواضح ايضا ان هذا التحرك ، وفي هذا العام بالذات ، تحرك ديناميكي ، وانه جاء بتجديدات في الطرح . ولقد لخص محمد حسن الزيات ما تطلبه مصر ، في مأدبة اقيمت للمندوبين العرب ، المشاركين في المناقشات ، بما يلي : ١ — ان مصر لا تعترف بحق الدول في الاستيلاء على الاراضي بواسطة القوة . ٢ — ان مصر ترفض التسليم بمبدأ الامر الواقع الذي تعتمده اسرائيل كسياسة لها . وهذا يعني ان مصر لا تفرط بشبر من اراضيها . ٣ — يجب الاخذ بالاعتبار حقوق الشعب الفلسطيني المتمثلة في حق هذا الشعب في فلسطين على اساس قرار التقسيم عام ١٩٤٧ . ٤ — ترى مصر ان المطلوب من الامم المتحدة ، وخصوصا

مجلس الامن هو مساعدة المعتدى عليه لا المعتدي.

٥ — مصر تطلب من مجلس الامن تقديم مبادىء لحل النزاع شرط ان يتحقق الحل خلال فترة معينة (النهار ٦/١٢) وان الجديد في الطرح المصري يتلخص في امرين : اولهما : الاعتراف بالشعب الفلسطيني ، ضمن حدود آمنة ومعترف بها . وثانيهما : العودة الى قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ، وليس الى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . وأهمية هذا الهجوم السياسي ، الذي يجيء ضمن خطة تحرك دولي ، ينشد السلام أساسا ، انه يظهر تصلبا امام التصلب الاسرائيلي ، وانه يطرح الاعتراف بشعب فلسطين وحقوقه والعودة الى قرار التقسيم. ويلاحظ ان قضية الاعتراف بالشعب الفلسطيني قد اتخذت مجرى محددا على صفحات الاهرام . وجاء في اقتراح انشاء دولة فلسطينية : « ان منظمة التحرير الفلسطينية ، دون غيرها ، ممن يدعي لنفسه صفة تمثيل شعب فلسطين ، هي وحدها القادرة (الى حين توافر الظروف لاستفتاء الشعب بعيدا عن شبهة تدخل المحتل) على ان تجعل من فكرة الدولة الفلسطينية حقيقة قائمة في التطبيق ، وان تجمع حولها كل من هو مؤهل فعلا، داخل الارض المحتلة وخارجها ، بتمثيل تطلعات شعب فلسطين ، في كيان قومي له مقوماته الثابتة. (النهار ٦/١٢) .

ان هذه الدعوة « الجريئة » ظلت مدة تعيش حيرتها وترددها ، ولقد حاولت بعض الجهات العربية ان تدفع اطرافا فلسطينية الى تبني هذه الدعوة . لكن منظمة التحرير الفلسطينية رفضت هذه الدعوة في حينها .

وتحاول هذه الجهات العربية الان ان تدفع بهذا الاتجاه . وليس الهدف من ذلك ابراز شخصية الشعب الفلسطيني ، فالشعب الفلسطيني الان ، ذو شخصية بارزة ، ومحددة ، وطابعها المعروف طابع قتالي ثوري . ولكن الهدف الباس الشعب الفلسطيني سموكن المفاوضات واخراج ممثليه على المسرح ، طالبين دخول عالم الديبلوماسية الدولية . وتعتقد بعض الجهات العربية ، وجمهورية مصر العربية بالذات ، ان ظهور الفلسطيني المفاوض على المسرح ، سيهز اللعبة الدولية ، وسيحرج الطرف الامبريالي — الاسرائيلي .

ولكن النجاح في هذا المجال ، سيقود من الناحية الفلسطينية الى كارثة محققة ، لا لان الذين يقاتلون لا يذهبون الى موائد المفاوضات ، ولكن لان دخول اللعبة الدولية من هذا الباب ، سيجعل الطرف الفلسطيني جزءا من التحرك العربي الرسمي ، غير المقاتل . وبما ان معظم الانظمة العربية الان تبحث عن حل ، اي حل ، فان النتيجة ستكون دفع الطرف الفلسطيني الى القناعة بدولة على جزء من ارضه ، وانتظار الفرصة المناسبة للتحرير الكامل . ويلاقي هذا التوجه العربي الرسمي « تنظيرا دوليا » يتحدث عن « الواقعية » ، وعن التوازن الدولي ، وعدم القدرة على تجاوز معادلات الواقع الدولي. وهكذا تبدو الامور واضحة : انهم يريدون منا ان نقبل معادلات التوازن الدولي ومعادلات العجز الرسمي العربي . من هنا تأتي خطورة هذا الطرح . انها تصفية من نوع آخر . واذا كانت الحملات العسكرية تستهدف تحطيم ارادة القتال ودفع الجماهير الى الشعور بالعجز والاستسلام ، فان حملات الاغراء تستهدف لفت النظر عن الاهداف الحقيقية الى أهداف سرابية والتلويح بالجزء من اجل اضاعة الكل .

ويحيط بهذه الدعوة « المغرية » حماسة عربية رسمية للحل عن طريق الامم المتحدة . فلقد أبرق الملك الحسن ، ملك المغرب الى كورت فالدهايم الامين العام للامم المتحدة طالبا « اتخاذ اجراءات محسوسة وفعالة لاجبار اسرائيل على تنفيذ قرارات الامم المتحدة ، بشأن أزمة الشرق الاوسط » . وبعد ان اعرب عن قلقه بسبب تدهور الوضع ، اشار الى ان تطبيق « قرارات الامم المتحدة تطبيقا حازما يعني انسحاب القوات المسلحة واحترام ضمان الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني » . واضاف الى ذلك : « ان اتخاذ اي موقف غير الحزم ، من جانب مجلس الامن سيؤدي الى تقويض الثقة بالامم المتحدة ، ويؤدي بالضرورة الى حرب جديدة في المنطقة » (اللواء ٦/٧) . وكان الرئيس بو رقيبه ، في هذا الوقت يعلن استعداده للاجتماع بأبا ايبان شريطة ان يتوافر شرطان : الاول : الاعتراف بحق الفلسطينيين في ارض فلسطين . الثاني : الموافقة على قرار الامم المتحدة بشأن التقسيم .

ولقد جاء البيان الذي صدر عن لقاء الحبيب بورقيبه — فيصل منسجما مع هذا الخط ، اذ جاء في البيان : « ويوجه الرئيس بورقيبه والملك فيصل

نداء ملحا الى مجلس الامن المنعقد في نيويورك لكي يصدر قرارا حاسما يرغم اسرائيل على الامتثال لقرار الامم المتحدة ووضع حد لسياستها العدوانية » (الحياة ٦/١٤) .

يرافق هذه الهجمة على الامم المتحدة ، وهذا الالحاح والضغط هجمة اخرى على الولايات المتحدة الاميركية .

ولقد عبر الرئيس السادات عن هذا الموقف في مقابلة أجرتها معه صحيفة يوغسلافية (٥/٢٨ الحياة) ، قال الرئيس السادات : « ان اميركا شريكة مع اسرائيل في كل ما يقع بمنطقة الشرق الاوسط » . وقال الرئيس السادات تعليقا على زيارة حافظ اسماعيل لواشنطن : « السلبيات التي جدت في الموقف الاميركي انه بعد زيارة اسماعيل وضح لنا تماما ان ضمانات الامن مطلوبة لاسرائيل » . واضاف : « لو ان حافظ اسماعيل جلس مع غولدا مئير لكان الامر اقل سخافة مما سمعه في واشنطن » . وأنهى الرئيس السادات كلامه مؤكدا : « ان اسرائيل لا تستطيع ان تحمي مصالح اميركا ، كما تعتقد اميركا ، او كما تضع سياستها الان ، لن تكون اسرائيل هي الحامية لمصالح اميركا في المنطقة ، بل ستتعلم اميركا اعنف درس في مصالحها اذا استمرت في هذا الموقف المؤيد لاسرائيل بالكامل » . وكان الرئيس معمر القذافي قد هاجم الولايات المتحدة ايضا في خطابه يوم ٦/١٢ . قال القذافي : « ان اميركا ... واقولها بصوت عال ... تحتاج الى صفعة كبيرة ... الى صفعة قاسية على وجهها البارد الصفيق في المنطقة العربية » . واضاف القذافي : « ان السياسة الاميركية ايها الاخوة ... هي التي سوف تؤدي الى كارثة محققة للمصالح الاميركية في المنطقة العربية بالذات » . واعلن القذافي في هذا الخطاب تأميم الشركة الاميركية بنكر — هنت .

وتستهدف هذه الحملة الضغط على الولايات المتحدة واشعارها ان « تحيزها » غير المحدود لدولة الاحتلال الصهيوني سوف يدفع العرب لاتخاذ موقف مضاد لها ، ولمصالحها . ولكن الولايات المتحدة استهترت حتى الان بالدول العربية واستخفت بتهديداتها لانها تعرف مدى عجز هذه الانظمة وعدم جديتها . الا ان خطوات مثل خطوات القذافي بتأميم الشركات ستدفع العلاقات الى مزيد من التأزم ، وستدفع الولايات المتحدة خطوات على طريق الكشف عن وجهها الصفيق المعادي للامة العربية ومطامحها . ان الولايات المتحدة قد التزمت جانب دولة الاحتلال ، لان المحافظة على مصالحها الاستراتيجية يقتضي ذلك . ولذلك فمعركة العرب مع دولة الاحتلال هي معركتهم مع الولايات المتحدة الاميركية . وعلى هذا الاساس يجب ان تخاض . ولا يجوز ان نتوهم ولو للحظة ان بالامكان تحييد الولايات المتحدة او جعل موقفها من العرب اكثر اعتدالا .

لقد كانت المعركة مع السلطة في لبنان ، احدى المعارك الصغيرة ، مع الولايات المتحدة ودولة الاحتلال الصهيوني . أما المعارك الاكبر فلم نخضها بعد . انها آتية .

ناجي علوش

(٣) القضية الفلسطينية دوليا

واجهت المقاومة الفلسطينية خلال شهر أيار تحديا جديدا — على أرض لبنان هذه المرة . وطغى هذا الحدث وما رافقه من مضاعفات وما يحمله من توقعات على الصعيدين العربي والدولي على أي حدث آخر. ومرت الذكرى الخامسة والعشرون لقيام الدولة الصهيونية على انقاض الوجود البشري والسياسي للشعب الفلسطيني فوق أرضه ، وهذا الشعب يواجه استمرارا للمؤامرات الدولية والمحلية التي تستهدف محوه عن الخريطة. واحتفلت اسرائيل بالكثير من الصخب بهذه المناسبة في الارض المحتلة وفي انحاء العالم ، واكتفى الشعب الفلسطيني مرة اخرى بالاحتفال وراء المتاريس وبين الانقاض ، واكتفى اصدقاؤه بمظاهرات هنا وهناك للتعبير عن تضامنهم واستمرار دعمهم في جو من التحركات الدولية الدائبة لتصفية هذه « البؤرة الخطرة » كما يسمون منطقتنا .

وبعد ست سنوات من حرب الايام الستة — كما يسميها عدونا — لا تظهر في الافق اية بوادر لتوجه واضح لاي من الاطراف على الامد القصير. فالدول العربية — ومصر بشكل رئيسي — ما زالت تطرق ابواب « الحل السلمي » سواء في مجلس الامن او من خلال التحركات الدبلوماسية وخاصة في اوروبا الغربية ، في الوقت الذي يتزايد فيه ايضا الكلام عن الدخول في حرب محدودة ضد اسرائيل . والسعودية — التي يصعد نجمها في الشرق العربي أكثر فأكثر بفعل مواردها النفطية المتزايدة ومجمل التراجعات في المنطقة — اصبحت عنصرا هاما في هذا التحرك الرسمي العربي ابرزته زيارات الملك فيصل الاوروبية والعربية وصفقات السلاح الضخمة والحديث عن ازمة الطاقة في الولايات المتحدة والتخوف من استعمال النفط الخليجي كأداة ضغط على الدول الغربية. واسرائيل بالمقابل لا تشعر بأي تهديد مباشر لهيمنتها العسكرية وقدراتها الردعية ، فتركن الى المحافظة على الوضع القائم وتعزيزه . والولايات المتحدة ما زالت على دعمها المطلق لهذا « السلام الاسرائيلي » ، رغم ان بعض الاصوات بدأت تعبر عن التخوف من عزلة متزايدة في الامم المتحدة ومن خطر توقف النفط العربي عن التدفق غربا .

واوروبا الغربية التي أصبحت منذ مطلع هذا العام سوقا مشتركة واسعة تضم تسع دول بينها الدول الاوروبية الاغنى والاقوى (المانيا الاتحادية ، بريطانيا ، فرنسا ، ايطاليا) ، تحاول جاهدة ان تفرض وجودا لها في المنطقة العربية يسمح لها بالتأثير على مجرى الاحداث ، هذا بالطبع بالاضافة الى تأمين مصادر الطاقة وتعديل الميزان التجاري بتشجيع تسويق بضائعها . وقد كان التحرك الالماني ابرز التحركات خلال الاسابيع الماضية .

وتبرز هنا مرة اخرى الاهمية المتزايدة « للمسألة النفطية » في الموقف الدولي من القضايا العربية ، ومن جانب آخر ، ما زالت السياسة السوفياتية في المنطقة تتأثر بالخط المزدوج لقيادة الكرملين : متابعة الجهود من اجل تهدئة اكبر في العلاقات الدولية بما في ذلك مع الولايات المتحدة (لقاء نيكسون — برجنيف) ومع اوروبا الغربية (مؤتمر الامن الاوروبي) من جهة ، ومن جهة اخرى مواصلة الدعم لبعض الدول والقوى التي تتصدى بشكل من الاشكال للنفوذ الامريكي (في منطقتنا لسوريا والعراق والمقاومة الفلسطينية ، مع استمرار الاهتمام بنقطة الثقة الرئيسية التي تشكلها مصر) .

وقد برز على صعيد العالم الثالث خلال الاسابيع الثلاثة ، مؤتمر القمة الافريقي الذي حاولت خلاله بعض الدول العربية دفع دول جنوب الصحراء الكبرى الى اتخاذ مواقف اكثر حدة تجاه استمرار الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية .

مؤتمر القمة الافريقي

سجلت اسرائيل خلال العام الماضي سلسلة من الهزائم الدبلوماسية في افريقيا ، اذ قطعت خمس دول افريقية علاقاتها معها ، وتبعتها في ٥/١٦ دولة سادسة (او سابعة اذا اخذنا بعين الاعتبار غينيا التي قطعت علاقاتها ابان حرب ١٩٦٧) هي بوروندي التي كانت مستعمرة بلجيكية حتى عام ١٩٦٢ ويقطنها ما يقارب اربعة ملايين نسمة . وهذه الهزائم تدفع اسرائيل منذ اشهر الى اعادة النظر في سياستها الافريقية التي كانت من انجح سياساتها في العالم الثالث قبل ١٩٦٧ . وعلى سبيل المثال ، اذاعت رويتر بتاريخ ٥/١٤ نبأ عن

مصادر في وزارة المالية الاسرائيلية يفيد أن الدولة الصهيونية ستخفض استثماراتها في عدد من دول افريقيا ، وستركز جهودها على عدد ضئيل من البلدان حدد النبأ منها اثيوبيا وكينيا وايران (!). والمعروف ان الاستثمارات الاسرائيلية في افريقيا تجاوزت عام ١٩٧٢ خمسين مليون الدولار ، وبلغت صادرات اسرائيل ٣٦٫٧ مليون دولار مقابل ٢٠٫٢ مليونا من الواردات التي تصل اسرائيل من افريقيا الوسطى وليبيريا وغابون واثيوبيا وكينيا بشكل خاص . اي ان الميزان التجاري لصالح اسرائيل بنسبة تكاد تبلغ المئة بالمئة .

وازاء هذه السياسة الاسرائيلية الجديدة ، تقوم الدول العربية شمال الافريقية بهجوم مكثف بقصد عزل اكبر للدولة الصهيونية . وتقوم كل من الجزائر ومصر وليبيا بنشاط خاص في هذا المجال . وفي شهر ايار جاء التحرك الليبي تهديدا واضحا للدول الافريقية بضرورة قطع العلاقات مع اسرائيل تحت طائلة مقاطعة ليبيا لمؤتمر منظمة الوحدة الافريقية ، وركزت ليبيا بشكل خاص على العلاقات الاسرائيلية — الاثيوبية الحميمة التي تبرر بنظرها نقل مقر المنظمة الى عاصمة اخرى غير اديس ابابا .

« وعند انعقاد مؤتمر القمة (من ٢٤ الى ٥/٢٩) الذي واكب الذكرى العاشرة لتأسيس منظمة الوحدة ، عاد الممثل الليبي — بعد ان تراجع بلده عن المقاطعة واكتفى بامتناع رئيس الدولة عن الحضور — عاد الى اثارة الموضوع بشكل حاد موجها اتهامات عنيفة للدولة الحبشية التي اعتبرها حليفة لاسرائيل والامريكيين وتمارس احتلالا لاريتريا تفرض عليها من خلاله تعصبها الديني » .

وكان هيلاسيلاسي قد افتتح المؤتمر باتخاذ موقف اعتبره المراقبون اقرب الى المواقف العربية من مواقفه السابقة اذ طالب بانسحاب اسرائيل من كل الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ كشرط مسبق لحل دائم ، متنادیا الاشارة الى العلاقات مع اسرائيل . الا ان هذا التنازل الظاهر لم يمنع الوفود العربية وبعض الوفود الاخرى من اثارة الموضوع بشكل صريح . وكان الرئيس بومدين اكثرهم صراحة في انتقاده للموقف الحبشي ، ومطالبته بدعم افريقي ملموس للدول العربية يتجلى في قطع العلاقات او على الاقل تعليقها طالما تحتل اسرائيل اراضي عربية . وتكلم الرئيس السادات في نفس الاتجاه ولكن بلهجة اكثر اعتدالا على حد تعبير جريدة لوموند ، بينما اثار الوفد الصومالي مشاكل الحدود مع اثيوبيا واطماع الاخيرة في الاراضي الصومالية بحدة لا تقل عن اللهجة الليبية . وكان الحبشيون يردون بانفعال واضح على هذه التهم التي وجهت لحكومتهم في عاصمتها وفي مناسبة ارادها هيلاسيلاسي تكريسا لهيبته في افريقيا . ورغم ان معظم الوفود الافريقية عارضت نقل مقر المنظمة من اديس ابابا ، الا ان جملة هذه التحركات لم تكن دون جدوى . اذ اصبحت القضية الفلسطينية الموضوع الرئيسي للنقاش في المؤتمر — على حد تعبير بعض الصحف الغربية — وانتهى المؤتمرون لاتخاذ قرار اعتبرته « لوموند » انتصارا كبيرا للدول العربية (٥/٣٠) . وكانت بعض هذه الصحف قد اثارت في هذه الاثناء تضايق الوفود « السوداء » من الالحاح العربي في دفعها لاتخاذ مواقف « تتعارض وقناعاتها » ، مركزة بشكل خبيث على التناقض العرقي بين ما تسميه افريقيا البيضاء (أي العربية) وافريقيا السوداء . وربما كان هذا الضيق حقيقيا لدى بعض الدول ذات الصلات الحميمة بالغرب واسرائيل — كساحل العاج مثلا — الا ان عددا كبيرا من الوفود الافريقية — حتى من الدول التي ما زالت تقيم علاقات مع اسرائيل — عبرت عن انتقادها للتعنت الاسرائيلي والاحتقار الذي واجهت به اسرائيل مقترحات « الحكماء الافريقيين » بعد زيارتهم لها وللدول العربية في العام الماضي. وبين هؤلاء الذين عددوا بقطع العلاقات مع اسرائيل الجنرال ياكوبو غوون ، رئيس جمهورية نيجيريا (اكثف الدول الافريقية بشريا) ، والذي انتخب اثناء المؤتمر رئيسا للمنظمة خلال العام المقبل خلفا للملك الحسن الثاني وناطقا رسميا باسمها في الدورة المقبلة للجمعية العمومية للامم المتحدة .

وكان المؤتمر قد اختار وفدا من وزراء خارجية نيجيريا وتانزانيا وتشاد وغينيا والجزائر لتمثيل المنظمة (التي تضم ٤١ دولة) في اجتماعات مجلس الامن التي بحثت مشكلة شرق المتوسط ابتداء من ٦ حزيران .

ومن القرار الافريقي المذكور اعلاه نسجل مطالبة المؤتمر « بالنظر في اتخاذ قرارات اجماعية او انفرادية ، سياسية واقتصادية ضد اسرائيل اذا لم تنسحب من الدول التي تعرضت لعدوانها »

وكذلك تركيزه على « ان احترام الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني هو عنصر اساسي في كل حل منصف وعادل ومن اجل اقامة سلم دائم في المنطقة » .

ورغم ما يعبر عنه هذا القرار من انتصار ديبلوماسي للدول العربية — كما ذكرنا اعلاه على لسان احدى الصحف الغربية — الا اننا لا يمكن ان نتغافل عن ان عددا لا يستهان به من دول افريقيا ما زال تحت هيمنة الاستعمار الجديد (الامريكي او الفرنسي او البريطاني) وعلى علاقات وثيقة باسرائيل ، مما يفرض على حركة التحرر العربية مجهودا اكبر في كسب الجماهير الافريقية واحداث تحول حقيقي في القارة السوداء باتجاه عزل العدو الاسرائيلي .

التحرك الالماني الغربي

منذ عام ١٩٦٧ ودول اوروبا الغربية — ابتداء من فرنسا — تحاول ان تصبح ذات شأن في المنطقة العربية سياسيا واقتصاديا . وقد برز في الاونة الاخيرة الدور الجديد الذي تطمح للعبه المانيا الاتحادية بعد انقطاع طويل عن المنطقة (منذ قطع العلاقات العربية بعد اعترافها باسرائيل عام ١٩٦٥ ، علما بأن هذا الانقطاع لم يشمل الجانب الاقتصادي اذ ان التبادل التجاري مع الدول العربية بالاتجاهين استمر بحجمه الكبير) . وكانت بوادر التقارب الالماني — العربي قد ظهرت في الصيف الماضي ، الا ان عملية ميونيخ أخرت هذا التطور وأزمت الى حد ما العلاقات اثر الاجراءات الالمانية العدائية بحق المواطنين العرب عامة والفلسطينيين خاصة. وعادت المانيا برانت للتحرك من جديد بعد انتصار التحالف الاشتراكي — الليبرالي في انتخابات تشرين الثاني الماضي، وأدت هذه التحركات اخيرا الى الزيارات التي قام بها زعيما الحزبين الاول لاسرائيل والثاني لمصر والاردن ولبنان .

وبالفعل فقد وصل شيل وزير الخارجية ورئيس الحزب الديموقراطي الحر الى القاهرة في ٢٠/٥ حيث اجرى محادثات على اعلى المستويات . وكان قد وضح قبل زيارته ان المانيا الغربية التي تسعى الى الابقاء على علاقات جيدة مع طرفي النزاع ، لها مصلحة في تحقيق « تسوية سلمية واعادة فتح قناة السويس » . وقد رحبت الاوساط الرسمية المصرية بهذه المبادرة قائلة بلسان جريدة «الاخبار» القاهرية ان « المانيا الغربية وهي احدى الدول الرئيسية في اوروبا تستطيع بل ويجب ان تلعب مع دول اوروبا الغربية الاخرى دورا مهما لاقامة سلام عادل في الشرق الاوسط » ، وهو دور تراه مصر دور الضاغط على الولايات المتحدة بشكل اساسي .

وبعد جولته في البلدان الثلاثة قال شيل الذي تعتبره اذاعة اسرائيل (٢٠/٥) زعيم الحزب الاقل تأييدا لاسرائيل بين احزاب المانيا الغربية الرئيسية : « ان في الجانب العربي تطلعا عميقا لاتخاذ خطوات ملموسة من اجل حل للصراع في الشرق الادنى » مضيفا ان « اجتماع مجلس الامن قد يكسر الجمود ويساعد في ايجاد حل عادل ودائم لكل شعوب المنطقة بما فيها الشعب الفلسطيني » (لوموند ٢٧/٥) . واشار شيل الى المشكلة **الفلسطينية** اكثر من مرة . ففي مؤتمره الصحفي الذي عقده في بيروت (٢٤/٥) قال « ان من المهم جدا ان تجد مشكلة الفلسطينيين التي تعد موضوعا اساسيا في أزمة الشرق الاوسط حلا واقعيا ... وهنا يفرض العمل الجدي نفسه على العالم اجمع بما في ذلك اوروبا . ونحن مستعدون للمشاركة في حل هذه المشكلة » . وقد تكون هذه الكلمات اشارة الى المشروع الذي تدرسه دول السوق المشتركة للمساهمة في اعانة واسكان اللاجئين في حال التوصل الى ما يسمى بالحل السلمي ، هذا الحل الذي نفى الوزير الالماني ان تكون لبلده مبادرة باتجاهه علما بأنها على حد تعبيره « ستساعد على تسهيل الطريق امام مثل هذه المبادرة » . واكد شيل تلخيصا لكلامه « ان العلاقات الالمانية — العربية لم تكن في اي وقت افضل مما هي الان » .

وبعد ايام من مغادرة شيل لبيروت ، كان برانت مستشار المانيا الاتحادية وزعيم الحزب الاشتراكي الديموقراطي يصل الى مطار اللد (٧/٦) في اول زيارة له كمستشار واول زيارة لرئيس حكومة دولة اوروبية كبيرة لاسرائيل . وحاول برانت ان يؤكد ان موقف حكومته في الصراع العربي الاسرائيلي « **غير منحاز** » اكثر منه « **محايد** » في رأيه ، علما بأنه وصف العلاقات الالمانية الاسرائيلية بأنها « ذات طابع مميز » نظرا لما جرى لليهود على ايدي النازيين الالمان في الحرب العالمية الاخيرة . ورغم التخوفات من بعض المظاهرات المعادية من قبل بعض الاوساط الدينية ويهود « معسكرات

الاعتقال النازية » ، استقبل برانت استقبالا حارا في اسرائيل لما عرف عنه من مواقف معادية للنازية خلال الحرب ومتعاطفة مع الدولة الصهيونية منذ ذلك الحين . والتقى برانت بكافة المسؤولين الاسرائيليين بمن فيهم المسؤولين السابقين كبن غوريون ، كما التقى في آخر ايام اقامته بموشي دايان رغم ما اشيع في مطلع الزيارة من انه سيتفادى هذا اللقاء لئلا يعطي زيارته طابعا « عسكريا » . وقد علم فيما بعد ان الحديث بين برانت ودايان (الذي لم يشارك في أي من الاحتفالات الرسمية اثناء الزيارة) دار حول موضوع « اللاجئين الفلسطينيين » وان الطرفين اتفقا على عدم اذاعة اية معلومات عما دار خلال الحديث .

ولم تعط الزيارة الجانب الاسرائيلي كل ما توقعه ، على حد تعبير « بديعوت احرونوت ». وبل بالعكس بدا على عدد من المسؤولين الاسرائيليين شيء من الامتعاض من بعض تصريحات برانت [لوموند ٦/١٢] . فجاء على لسان « داغار » القريبة من الاوساط الحكومية ان برانت لم يبد مقتنعا باستعداد الاسرائيليين لتقديم تنازلات من أجل تحقيق سلام مع الدول العربية . وفي وداع المستشار الالماني ، قالت غولدا مئير « **انه بشكل عام** ، نستطيع اعتبار هذه الرحلة ناجحة » في سياق كلمات تبادلها الطرفان في المطار عوضا عن البيان المشترك الذي لم يتمكنا من الاتفاق حوله . وأثارت جريدة « معاريف » رفض برانت لزيارة اي من الاراضي التي احتلت في حرب ١٩٦٧ معتبرة هذا الموقف تأييدا للمطالب العربية الرسمية بالانسحاب وراء الحدود السابقة . وكان برانت بالفعل قد علق على طلب اسرائيلي بالدعوة الى اعتراف عربي بتعديل الحدود على نمط الاعتراف الالماني بحدود « اودر — نايسه » مع بولندا ، مشيرا الى عدم تطابق الحالتين [لوموند ٦/١٣] وقد لفت انتباه المسؤولين الاسرائيليين تشديد برانت على ضرورة اتخاذ المجموعة الاوروبية موقفا موحدا وخطوات ملموسة من اجل ما اسماه « بحل بناء » ، واعتبروا هذا التشديد تهربا من اتخاذ موقف تأييد لاسرائيل متميز عن مواقف الدول الاوروبية الاخرى .

وهذه التحفظات التي ضخمتها الصحافة الاسرائيلية نظرا لما كانت تتوقعه من كسب سياسي من زيارة ومواقف « الحائز على جائزة نوبل للسلام » ، لا تلغي بالطبع المكاسب الاسرائيلية ، على الصعيد الاقتصادي بشكل خاص ، فقد اكدت المانيا الغربية استمرار مساعداتها واجراءات تسهيل الاستثمارات الالمانية في اسرائيل ، كما وعدت بدعم محاولات اسرائيل لعقد اتفاقية تجارية مع السوق الاوروبية المشتركة في نهاية العام .

وباختصار فان المانيا الغربية ، كما قال شيل في القاهرة تريد ان يستتب الهدوء في شرق المتوسط كي تؤمن حاجاتها من النفط الذي تستورده بشكل اساسي من المنطقة العربية . وهي لهذا تعمل على تحسين علاقاتها مع الدول العربية ، في الوقت الذي تضغط فيه القطاعات التقليدية في حزب برانت والطبقات الوسطى الالمانية باتجاه اتخاذ موقف مؤيد لاسرائيل تحد من حرارته القطاعات الشابة في الحزب التي اتخذت في مؤتمرها الاخير موقف ادانة واضح « للسياسة التوسعية الاسرائيلية » .

السعودية بين فرنسا والولايات المتحدة

تنشط الدبلوماسية السعودية في الاونة الاخيرة نشاطا واسعا على الصعيدين العربي والدولي . ومن الواضح ان الحكم السعودي يطرح نفسه اليوم كقوة عربية ذات شأن وتأثير في المنطقة بحكم قدراته النفطية (ثالث دولة منتجة في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي و٣٠ بالمئة من الاحتياطي المعروف من البترول) وعلاقاته الوثيقة بالدول الغربية — وبالذات الولايات المتحدة — .

وقد قام الرسميون السعوديون بتحركات واسعة خلال الاسابيع الاخيرة . فأجرى الملك فيصل نفسه زيارات لعدة دول عربية (شمال افريقية) واوروبية (فرنسا وايطاليا) . وكانت الزيارة الفرنسية بعد زيارة مصر اهم هذه التحركات لما حملت من احتمالات لتزويد السعودية بكميات ضخمة من السلاح الفرنسي (من طائرات الميراج الى الاسلحة الخفيفة) . وقد جرت هذه الزيارة بين ١٤ و ١٨ ايار ، ولقي فيصل أثناءها ترحابا غير عادي من قبل الحكم الفرنسي واستعمل الرئيس بومبيدو كلمات مديح بالغ لوصف الملك السعودي والعلاقات الفرنسية السعودية (« ان عاهلكم يحظى بمكانة فذة وعظيمة في فرنسا وفي العالم اجمع » نقلا عن وكالة الانباء السعودية ٥/١٣) .

والواقع ان فرنسا التي تستورد ٢٢ مليون طن من

النفط الخام من السعودية التي تعتبر لذلك أول مورد لها ، تعاني من عجز واسع في ميزان التبادل التجاري معها . ففي عام ١٩٦٨ استوردت فرنسا ما قيمته ٢٧١١ مليون فرنك من السعودية بينما لم تصدر لها الا بمقدار ٩٥ مليون فرنك (لوموند ٥/١٥) . وهذا ما دفع المراقبين الى تفسير هذا الترحاب بانه رغبة من الفرنسيين بمحاولة كسر الاحتكار الانكلو سكسوني للسوق السعودية (وبالذات في ميدان التسليح) . وترددت انباء هكذا عن عقد صفقة ضخمة تبلغ ملايين الدولارات وتشمل اساسا طائرات ميراج حديثة ودبابات وصواريخ (الوكالات ٥/١٨) . وسارعت بعض الصحف الاسرائيلية (جيروزالم بوست ٥/١٧) الى اعتبار هذه الصفقة بعد الصفة الليبية مدخلا جديدا لزيادة النفوذ الفرنسي في العالم العربي . ولم تمض ايام الا واعلنت الولايات المتحدة عن صفقة امريكية بأكثر من نصف مليار دولار (وصفقة موازية مع الكويت) . وقد تداركت اذاعة اسرائيل (٥/١٨) الامر حين فسرت « الغزل السعودي الفرنسي » على انه يستهدف اصلا استمالة امريكا التي ركزت في الاونة الاخيرة على حليفتها الاخرى شرق الخليج (ايران) . ونقلت الاذاعة نفسها والصحف الاسرائيلية تأكيدات عديدة على لسان المسؤولين الامريكيين بان هذا السلاح ليس موجها ضد اسرائيل [دافار ٥/٢٨] وانه يستهدف اساسا حماية دول النفط من « خطر سوفياتي قد يتأتى من العراق » (!) [هآرتس ٥/٣٠].وذهب السناتور جاكسون عضو مجلس الشيوخ الامريكي المعروف بحماسه الصهيوني الى حد القول بان « **الثالوث اسرائيل ــ السعودية ــ ايران يشكل** حجر عثرة امام العناصر الراديكالية التي تحاول دفن آبار النفط التي تحرك عجلات امريكا » [رصد اذاعة اسرائيل ٥/٢٢] علما بان الولايات المتحدة تستورد اليوم ١٠ بالمئة من حاجاتها النفطية من دول الخليج [اسوشيتدبرس ٥/٢٤] وقد تضطر في السنوات المقبلة الى استيراد نسبة متزايدة .

وبعد القرار الامريكي ببيع طائرات فانتوم للسعودية [النهار ٦/١] يبدو ان الكفة الامريكية رجحت في التنافس الامريكي ــ الفرنسي، رغم ما اشيع عن ضغط مصري باتجاه اعتماد طائرات الميراج الجديدة . ولم يبق على ما يبدو الكثير من الامل بعقد صفقات كبيرة مع فرنسا . ولا بد من الاشارة الى ان الجانب السياسي من التحرك السعودي باتجاه فرنسا لم يأت بأي جديد ، خاصة وان الوزن الفرنسي والاوروبي ــ كما ذكرنا اعلاه ــ ما زال محدودا في منطقة الصراع . ويلفت الانتباه ، رغم تأكيدات الخطب المتبادلة بين فيصل وبومبيدو وتصريحات حافظ اسماعيل بعد زيارته لفرنسا في نفس الفترة ، تصريح لروجرز (٦/٢) بعد لقاء بومبيدو ــ نيكسون جاء فيه « **ان الفرنسيين اصبحوا اكثر اقترابا من الرأي الامريكي** بان تسوية الوضع في الشرق الاوسط تعتمد على المفاوضات بين الاطراف المعنية وليس على تدخل الدول الكبرى » .

وهذا التصريح يعيدنا الى ما ذكرناه سابقا بأن « الحل السلمي » ــ كما يدعى ــ لم يكن في يوم من الايام اكثر منه اليوم في يد الولايات المتحدة . وان تغيير هذا المعطى السياسي في المنطقة رهن بنضال فلسطيني وعربي دؤوب لمواجهة عصر الامبراطورية الامريكية ــ الاسرائيلية الذي يهدد شرق المتوسط .

داود تلحمي

(٤) المناطق المحتلة

حركة الاستيطان : تواصل سلطات الاحتلال تعزيز المستوطنات في المناطق المحتلة ، ففي هضبة الجولان يجري العمل لاقامة مستوطنتين جديدتين في جنوب الهضبة خلال هذا الصيف ، كما وستقام مستوطنة جديدة مكان مستوطنة « العال » التي هجرها مستوطنوها ، وستحمل المستوطنة اسم « ايلي كوهين » . وقد اشار رئيس مصلحة التطوير في الكيرن كاييمت مئير شمير الى ان خطة تهويد الجولان تعتمد على استيعاب ١٥ الف نسمة في ٢٤ مستوطنة زراعية ، وعشرة الاف نسمة في مستوطنات مدينية . وفي غور الاردن تم الاحتفال في المدة الاخيرة بتحويل مستوطنة جلجال الى مستوطنة مدنية ، اما في مدينة القدس ، فقد استوعبت ضاحية « نفي يعقوب » الواقعة شمال شرق القدس الدفعة الاولى من العائلات اليهودية (٢٥٠ عائلة) ومن المقرر ان ينقل اليها شهريا ٣٠٠ عائلة . وفي قطاع غزة اقيمت في ٧٣/٥/٢٩ مستوطنة ناحال جديدة ، تدعى ناحال جديش على شاطىء البحر بين دير البلح وخانيونس ،وسيعمل المستوطنون بفلاحة الارض وزرع مزروعات في مستنبتات زجاجية . اما فيما يتعلق بشرم الشيخ حيث تقيم السلطات الاسرائيلية هناك مدينة « اوفيرا » فانها تعمل على اقامة ٢٥٠ وحدة سكن اضافية هذا العام ، كما وسيجري التمهيد — كما جاء على لسان وزير الاسكان شيرف — لاقامة الف وحدة سكنية بالاضافة الى انشاء مركز تجاري ، ومؤسسات تعليمية ومؤسسات للخدمات. وفيما يتعلق بمشارف رفح فانه من المقرر ان تكون هذه المنطقة هدفا لمجموعة من المهاجرين اليهود القادمين من الاتحاد السوفييتي عند اواخر شهر حزيران ، وسيقيم هؤلاء المستوطنون في مبان مؤقتة الى ان يستكمل بناء المركز الاقليمي هناك . ومن الجدير بالذكر ان هذا المركز يقع في المنطقة التي اقترحت لانشاء مدينة « يميت » عليها ، تتسع لربع مليون شخص وليس من المستبعد ان تكون مجموعة اليهود السوفييت هذه ، النواة الاولى التي تستقطب حولها مجموعات اخرى من يهود الاتحاد السوفييتي لاقامة مدينة « يميت » . وفي غضون ذلك اقدمت محكمة « العدل » العليا الاسرائيلية على رفض شكوى قدمها سكان مشارف رفح الذين اجلوا عن اراضيهم في اوائل عام ١٩٧٢ ، طالبوا فيها محكمة « العدل » انصافهم واعادتهم الى اراضيهم . فقد اصدرت المحكمة في ٧٣/٥/٢٤ حكمها ، بعد ان بقيت الشكوى مدة طويلة في ملفات المحكمة تزيد على العام ، برد الشكوى ورفضها ، بحجة ان طرد السكان العرب من اراضيهم جاء لمتطلبات الامن . ومن الجدير بالذكر هنا ان المحكمة ابرزت خلال تداولها للقضية، انه قد تم خلال الفترة الواقعة بين يناير ١٩٧٠ واذار ١٩٧٢ مقتل ٢٧ اسرائيليا وجرح ١٩٥ اخر في هذه المنطقة . والحقيقة ان حجة الامن التي تذرعت بها محكمة « العدل » العليا ، حجة واهية ، لان السبب الحقيقي لعملية تفريغ مشارف رفح من السكان وطردهم من اراضيهم يعود الى رغبة سلطات الاحتلال في تهويد تلك المنطقة حيث شيد عليها عدة مستوطنات ، ومن المحتمل أن تبنى هناك مدينة « يميت » .

مقاومة سكان الهضبة : ارتفع عدد المعتقلين من سكان هضبة الجولان بتهمة الانتماء الى شبكات « التخريب والتجسس » ، ووصل العدد الاخير الى ٦٣ معتقلا ، ويقف على رأس الفوج الجديد من المعتقلين محمد حامد صفدي المدعو « ابو عدنان » . وقد اعترفت الصحف الاسرائيلية ان « ابو عدنان » يعتبر من المعارضين للسياسة الاسرائيلية الرامية الى دمج السكان الدروز في اسرائيل ، كما وانه وقف ضد اقامة مجالس محلية في قرى الهضبة تحت ظلال الاحتلال ، واقامة محكمة شرعية للطائفة الدرزية وترتيبات جبي الضرائب .

ومن الجدير بالذكر هنا ان السياسة الاسرائيلية واجهت فشلا ذريعا في الهضبة ، فقد ارتكزت السياسة الاسرائيلية هناك على ضخامة الروح الوطنية بين صفوف السكان ، بواسطة التركيز على العامل الطائفي ، وفتح بعض ابواب العمل وحرية الحركة امام السكان في الهضبة ، وبالرغم من ان السكان هناك وخاصة الجيل الشاب ، كانوا يفصحون عن هويتهم الوطنية والقومية من خلال التظاهرات المعادية للاحتلال ، والتي تخللتها اشتباكات مع قوات الاحتلال ، فان السياسة الاسرائيلية لم تيأس وركزت ثقلها على الزعامة التقليدية في الهضبة مستغلة التنافس

التقليدي بين العائلتين الكبيرتين ال كنج وال صفدي ، فتقربت الى عائلة كنج ، الا انها فوجئت بعد مدة ان رئيس العائلة الشيخ كمال كنج الذي كانت سلطات الاحتلال تفرش امامه « البساط الحمراء » كان يعمل لخدمة وطنه سوريا ، فاودعته السجن ، ولم يبق امامها بعد ان اتضح لها انها فقدت الشباب في الهضبة وزعيم ال كنج ، الا بذل محاولة اخرى للتقرب من عائلة صفدي ، ولكن نتيجة هذا التقرب لم تكن بافضل من محاولة التقرب الى ال كنج ، اذ فوجئت سلطات الاحتلال بأن احد زعماء آل صفدي المدعو « ابو عدنان » كان على رأس تنظيم للمقاومة في الهضبة ، حينئذ وجدت السلطات ان سياسة اللين والمراوغة لم تجد نفعا ، ولذا ، اقدمت على انتهاج سياسة اليد القوية ، حيث اخذت تتبع سياسة اشد تجاه السكان واساليب مشينة في تعذيب المعتقلين . ولا بد من الاشارة هنا الى حدث وقع في الاونة الاخيرة يعتبر سابقة ، فقد رضخت سلطات الاحتلال اثناء المفاوضات على تبادل الاسرى بين سوريا واسرائيل ، على ضم اسم كمال كنج بين قائمة الاسرى السوريين ، وبالفعل اطلق سراحه وتوجه الى بيته في الهضبة.

لقد مارست سلطات الاحتلال اساليب تعذيب ضد المعتقلين سواء اساليب التعذيب النفسية او الجسدية. وقد كشفت المحامية الاسرائيلية « لانغر » أساليب التعذيب هذه على لسان المعتقل فايز نعمان ابو جبل الذي ذكر لها كيف اعتدى عليه اربعة من المحققين بالضرب المبرح اثناء التحقيق معه ، وذكر لها انه كان يسمع صراخ رفاقه المعتقلين وهم يتعرضون للضرب والتعذيب ، وهنالك اسلوب تعذيب اصبح بمثابة ظاهرة ، يتمثل في توجيه الضربات على الاماكن الحساسة في الجسم ، ومن بينها الاعضاء التناسلية ، فقد ذكر انه اغمى عليه عدة مرات اثناء الضربات الشديدة ، وبالرغم من ان المحققين يعرفون انه مريض ، استمروا في تعذيبه وضربوه على اعضائه التناسلية وكذلك ذكر فؤاد قاسم « في سجن صرفند » ان المحققين اعتدوا عليه وضربوه على اعضائه التناسلية وارغموه على شرب « ملح انجليزي » .

وهناك اسلوب اخر يتمثل في الحط من كرامة الانسان ، مثل وضع الحذاء في فم المعتقل ، كما حدث لفؤاد قاسم « وخلعوا ملابسه وقالوا له ان قسما للزانيات موجود في السجن وانهن سيفترسنه ، وسيحضرون زوجته الى السجن ليضاجعوها » وذكرت المحامية « لانغر » انه عندما احتج على الاهانات الموجهة اليه بقوله : « اين ديموقراطيتكم ؟ » اجابوه : « ذهبت الى الحدود، وانفجر فيها لغم ، ولا قيمة لله او الدين او اي احد كان » . ويبدو ان فؤاد قاسم لم يكن يتصور بأن الفظائع الاسرائيلية تصل الى هذا الحد ، فقد قال لمحاميته : « لم اتصور ابدا ان في مقدورهم ان يرتكبوا مثل هذه الفظاعات الوحشية » . ولم تكن هذه « الفظاعات الوحشية » من نصيب فؤاد قاسم ، بل ايضا كانت من نصيب الكثيرين غيره مثل عبد الله حسن الذي واجه اعتى انواع التعذيب ، « فقد اعتدوا عليه بالضرب وبطحوه على الارض وكادوا يخنقونه ، حتى احس انه لم يقدر على التنفس ورشوا الملح في عينيه ، وخلعوا ملابسه وامروه بالدخول الى قسم الزانيات ولما رفض قالوا له انهم سيعتدون على زوجته على مرأى منه ، وقالوا له نستطيع ان نقطعك قطعا ونقول بعدها انك قتلت اثناء محاولتك الهرب ، او انفجر فيك لغم » (الاتحاد ١٩٧٣/٣/١٦) .

اوضاع العمال العرب وظروفهم : تحدثنا في شهريات المناطق المحتلة اكثر من مرة حول اوضاع العمال العرب وظروفهم ، هذه الاوضاع التي هي اشبه باوضاع الرق والعبودية منها بالاوضاع الاستغلالية المحضة ، فهنالك « اسواق » للعمال العرب شبيهة الى حد كبير باسواق النخاسة في القرون الوسطى وهنالك السادة « البيسس » الذين يأتون الى هذه الاسواق لينقوا منها اصحاب العضلات القوية ، كما وهنالك البراعم الصغيرة من الفتيان العرب الذين تحولوا تحت الاحتلال الاسرائيلي الى عمال بعد ان هجروا دراستهم بالرغم من القوانين المعمول بها في الدول المتقدمة منها او المتخلفة التي تمنع تشغيل الاطفال، كما وهنالك نساء عربيات غدون بفضل الاحتلال الاسرائيلي يخدمن في المستعمرات الاسرائيلية ، وقسم منهن يقضين شهورا طويلة هناك حيث اصبحن بفضل هذا الواقع اقرب الى « الجاريات » منهن الى العاملات .

وسنتطرق في هذا العدد الى العلاقة القائمة بين العامل العربي من جهة وبين رب العمل والعمال اليهود من جهة اخرى ، كما يراها عامل يهودي يدعى « روني ايشل » في مقال له تحت عنوان

« من الصعب على العربي ان يكون بين اليهود » (معاريف ٧٣/٤/٣) ، واسباب هذا الواقع الكولونيالي كما اعترف البروفسور الاسرائيلي المشهور شمعون شمير .

يعتقد « ايشل » انه من الصعب خلق حالة تفاهم بين العرب واليهود بسبب العلاقة القائمة بين صاحب العمل من جهة وبين العمال العرب من جهة اخرى ، ويفند بذلك الرأي المنبعث من قبل الاوساط الرسمية القائل بأن العمل المشترك والحياة المشتركة من شأنهما ان يؤديا الى خلق حالة تفاهم بين الشعبين ، بسبب طبيعة العلاقات القائمة بين صاحب العمل والعمال العرب ، فالعامل العربي يعيش تحت وطأة التلويح بالطرد من العمل في كل لحظة ، ولذا فانه مرغم على « تكييف نفسه مع نوع من التملق والخنوع » . ويسرد روني ايشل بعض الاحداث التي غدت مميزة للعلاقة بين العامل العربي ومستخدميه .

التحقير المشفوع بالعنصرية : يذكر العامل اليهودي انه طلب منه مع عامل عربي نقل عشرات القطع من القرميد الى طوابق المبنى المختلفة ، وعند قيامهما بالعمل ، كادت قطع من البلاط موضوعة بالقرب من القرميد ان تقع ، فما كان من صاحب العمل الا ان صب جام غضبه على العامل العربي واخذ يصرخ في وجهه : « وبعد ذلك توجه نحوي بصوت أهدأ وقال : حسنا **انه عربي ، انه احمق** ، ولكن انت لك عقل » .

استغلال الجهد باقصى حد ممكن : ان الاعمال الشاقة تكون عادة من نصيب العامل العربي ، فبينما يكون العامل العربي ، كما يقول ايشل ، منهمكا في تمهيد اكوام ضخمة من الرمل يطلب منه رب العمل فجأة نقل ١٨ كيسا من الاسمنت زنة كل واحد ٥٠ كغم ، وبعد ذلك يعود الى اكوام الرمل الضخمة ، ترافقه صيحات رب العمل : « هذا كل ما فعلته ؟ اسمع يا محمد ، اننا هنا لا نلعب » ، ولا تقتصر النظرة الاستعلائية الاستغلالية على رب العمل فقط بل تشمل ايضا بعض الاسرائيليين الذين يعملون تحت امرة رب العمل فقد ذكر احد العمال اليهود لعامل اسرائيلي اراد بحكم عمله مساعدة العامل العربي في نقل اكياس الاسمنت : « **دعه يكسر ظهره لوحده** » .

احاطة العامل العربي بجو من الاغتراب : ان الشعور بالاغتراب يراقق العامل العربي بشكل رهيب ، خاصة اذا شعر نفسه محاطا بكثرة من العمال اليهود ومما يزيد من حدة الشعور بالاغتراب كراهية الغير ، وخاصة اذا كان «الغير» عربيا ، ويقول العامل اليهودي في مقاله : « ففي اثناء تناولنا وجبة الافطار جلست بالقرب من عربي كان يحدثني عن بيته ، وفجأة ناداني صاحب العمل « اتركه ، تعال عندنا » . ويذكر روني ايشل انه « لا يحب ولا يكره » العامل العربي ، ولكنه يرى ان الشراكة في العمل تتطلب الشراكة في تبادل الاحاديث ، الا ان العمال اليهود كما يقول ايشل يعترضون على تبادل اطراف الحديث « وعندما حاولت تفسير شيء بهذه الروح لهذا العامل الاسرائيلي او ذاك ، قالوا لي بانه ينبغي علي ان أكف عن كوني محبا للعرب ، لان العرب سيغرسون في الفرصة الاولى سكينا في ظهري » .

« تهمة الدم » تطارد العربي : من المعروف ان الحركات اللاسامية — كانت تكيل لليهود سيلا من التهم ، ومن بينها « تهمة الدم » ، وقد سار الكيان الصهيوني على منوال الحركات اللاسامية في كيله التهم للعرب ، ومن بينها تهمة السرقة التي تلصق عادة بالعربي ، فقد ذكر ايشل الحادثة التالية التي تعبر عن الافكار المسبقة الخاطئة التي تعتمل في صدور الكثيرين من المستوطنين اليهود « لقد اضاع ابن مدير العمل المطرقة ، وكان قد استخدمها قبل ذلك بيوم واحد عامل عربي ، فتوجهوا الى العامل العربي وسألوه اين المطرقة؟ وبعد ان نفى علمه بها ، هددوه باقالته من العمل اذا لم يحضر في الغد المطرقة ، وقد تعهد بأن يقوم بذلك بعد تيقنه من ان ادعاءاته رفضت بشكل تعسفي . ولم يحضر العربي في الغد الى العمل ، وذات يوم عاد وهو يحمل مطرقة ، الا انه في غضون ذلك كان قد تم العثور على المطرقة الاصلية ، بعد ان تذكر ابن مدير العمل المكان الذي وضعها فيه » !؟

ان اوضاع العمال العرب وظروفهم والعلاقة القائمة بينهم وبين مستخدميهم ليست مستغربة ، فهي ناجمة بالاساس عن الطبيعة الكولونيالية للمجتمع الاسرائيلي ، هذه الطبيعة التي اخذت تتكشف بشكل اوضح عقب حرب حزيران ، لدرجة غدا معها بعض الباحثة في اسرائيل يعترفون ضمنيا او تلميحا بها ، وعلى سبيل المثال اعترف البروفسور شمعون شمير رئيس معهد شيلوح

والخبير بتاريخ الشرق الاوسط ، بهذه الطبيعة حين قال في ندوة نشرتها مجلة حوتام ٧٢/١٠/٢٠، خصصت للحديث عن كتاب « أرض الغزال » لاريه الياف انه يعتقد بان المجتمع الفلسطيني هو بمثابة امة « واذا كان المجتمع الفلسطيني ليس أمـــة ، فانني اعتقـــد بانه يمكـــن الغاء امم كثيرة مـــن القاموس » ليصل بعد ذلك للتحدث عن الطبيعة الكولونيالية للمجتمـــع الاسرائيلي بقوله : « ان وضعا كهذا يعيش فيه مجتمعان في دولة واحدة ، لا يتمتع احدهما بحقوق سياسية ، او يقال انه يتمتع بالحقوق ، ولكن الحقيقة هي انه لا يتمتـــع بحقوق سياسية متساوية بينما المجتمع الاخر يقوم بخلق اعمال يدوية للمجتمع الاخر ، ان هذا الوضع هو وضـع كولونيالي ... » .

عبد الحفيظ محارب

صدر حديثا عن مركز الابحاث

النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه

١٩٠٨ — ١٩١٨

بقلم

الدكتورة خيرية قاسمية

والكتاب عبارة عن اطروحة نالت عليها الكاتبة درجة دكتوراه . وينشرها مركز الابحاث ليلقي الضوء على النشاط الصهيوني بالتفصيل وردود الفعل العربية عامة والفلسطينية بشكل خاص على هذا النشاط ، في اوسع وادق التفاصيل حول الموضوع . والكتاب يتضمن مجموعة ضخمة من الوثائق المتعلقة بالموضوع تنشر لاول مرة .

اطلبه من مركز الابحاث — قسم التوزيع
ص.ب ١٦٩١ — بيروت
سعر النسخة ٨ ليرات لبنـــانية
تضاف اليها اجور البريد : ١٠٠ ق. ل. في العالم العربي
٢٥٠ ق. ل. في اوروبة ، ٥٠٠ ق. ل. في سائر الدول .

(٥) اسرائيليـــات

مؤتمر بولونيا ... « لاضعاف الجناح المقاتل » !

بنداء ووفق عليه بالاجماع ، ومكون من ٣٠٠ كلمة تقريبا ، انتهى في الثالث عشر من ايار (مايو) الماضي ، مؤتمر بولونيا في ايطاليا ، او — كما هو اسمه رسميا — « المؤتمر الدولي من اجل السلام والعدل في الشرق الاوسط » ، هذا المؤتمر الذي ظل على مدى ثلاث سنوات وثلاثة اشهر ، شغل العديد من لجان السلام في الدول العربية واسرائيل وغيرها ، والعديد من القيادات على كافة المستويات ومن شتى الاتجاهات ، والعديد من الصحافيين والصحف في دول كثيرة ، وفي اسرائيل بشكل خاص .

فماذا عن هذا المؤتمر ؟ وعن الداعين والدعوة والمدعوين اليه ؟ وعن اهدافه ؟ وماذا — اخيرا — عن نتائجه ؟

ان اول ملاحظة يجب تسجيلها على هامـــش التعرض للمؤتمر ، هي تلك التي اوردها الاستاذ احمد خليفة في تقرير له حول هذا الموضوع ، نشر في العدد العاشر — عدد حزيران ١٩٧٢ — من مجلة « شؤون فلسطينية » ، ولخصها بالتساؤل عن سبب عدم سماع العالم العربي الا القليل عن هذا المؤتمر ، رغم الاهمية « التاريخية » المنسوبة له . ولعله من الغريب فعلا ان هذا التساؤل ما زال مطروحا — وعن جدارة — رغم مرور سنة كاملة على طرحه ، وشهر على عقد المؤتمر ذاته ، الذي شكل سابقة جعلت منه مؤتمرا فريدا متميزا وهاما ، سواء في ذلك اية زاوية ينظر منها اليه ، بل وبعد ان ادخل الى قاموس التعابير السياسية تعبيرا جديدا هـــو « روح بولونيا » الـــذي كان اول من استعمله صاحب فكرة المؤتمر ذاته الاستاذ خالد محيي‌الدين، حين قال في صباح اليوم الثالث والاخير للمؤتمر انه لا طعم للتعنت زيادة عن اللزوم عند كل كلمة وكلمة لان « الكلمات ليست هي المهم ، المهم هو الروح التي خلقناها هنا — روح بولونيـــا » (هعولام هزي ١٩٧٣/٥/١٦) .

ولدت الفكرة لعقد المؤتمر في روما في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ ، اثناء انعقاد اللجنة الدولية لنصرة الشعـــوب العربية التـــي يشغـــل محيي الدين منصب السكرتير العام فيها . واتفق لدى قبول الفكرة على عقد اجتماع تحضيري في روما يومي ١٩ و٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٧١ ، ووجه محيي الدين الدعوات الى مختلف المنظمات العالمية والاحزاب السياسية والاتحادات ومنظمات السلام والى شخصيات لها مكانتها العلميـــة والادبية والفنية .

في هذا الاجتمـــاع الذي حضره مندوبون من مصر وسوريا ولبنـــان وكذلك مندوبـــون من السودان وفلسطين — ولكن بصفتهم اعضاء في وفد منظمة التضامن الاسيوي الافريقي — والعديد مـــن مندوبي دول العالم من كلا المعسكرين ، ولم يحضره أي مندوب من اسرائيل ، اقرت الدعوة الى مؤتمر تحضيري ثان في تشرين الثاني (اكتوبر) ١٩٧١ ، لكن موعد المؤتمر قد أجل (لسبب ما) وكونت لجنة دعوة ايطالية ، قررت القيام بتوجيه الدعوات لحضور اجتماع تحضيري ثان في شباط (فبراير) ١٩٧٢ ، لكنه عقد في اذار (مارس) وشارك فيه ثمانية مندوبين اسرائيليين هم : اوري افنيري من هعولام هزي — قوة جديدة . عوزي بورشتاين واميل حبيبي من الحزب الشيوعي راكاح . زئيف ساديه من « التحالف اليساري ». ناتان يلين مور ، قائد منظمة ليحي سابقا وعضو حركة « السلام والامن » وقد دعي بصفة شخصية. امنون كابليوك عضو في حركة « السلام والامن » وفي حزب مابام ، وقد دعي هو الاخر بصفة شخصية . عاموس كينان كاتب مستقل ومعارض لسياسة ضم المناطق ، وفكتور تسيغلمان صحافي معارض لسياسة الضم . (« شؤون فلسطينية » العدد ١٠ ص ٧٢) . الا انه في هذا الاجتماع لم يلتق المندوبون العرب والمندوبون الاسرائيليون وجها لوجه لكنه صدر عن اللجنة التحضيرية بيان أعلنت فيه انها « بموافقة كافة المشتركين تأخذ على عاتقها مهمة الدعوة لمؤتمر العدل والسلام في الشرق الاوسط على ان يعقد المؤتمر في سياق العام الراهن (١٩٧٢) ويشترك فيه الاسرائيليون والعرب وممثلو الهيئات والاحزاب التي يرتـــأى دعوتها ... » (المصدر السابق) .

وفي حين ان عام ١٩٧٢ انتهى دون ان يعقـــد المؤتمر ، فانه عقدت اجتماعات عديدة للجنـــة

التحضيرية كانت في كل مرة تؤجل موعد انعقاد المؤتمر حتى في الاجتماع الاخير للجنة ، في مطلع ايار (مايو) الماضي ، ارتفعت اصوات مطالبة بتأجيل جديد ، الا ان « ضغطا اسرائيليا عربيا مشتركا فقط ، وانذاريا تقريبا نجح في اعطاء الدفعة الحاسمة للمبادرة » . (هعولام هزي ١٩٧٣/٥/١٦) .

في هذه الاثناء تشكلت في اسرائيل « اللجنة العامة الاسرائيلية للمؤتمر » ، وضمت اكثر من ٥٠ عضوا ممن وقعوا على بيان نصه :

« ● ان اللجنة الاسرائيلية ستعمل من اجل سلام مستقر وعادل ، ومن اجل الاعتراف باستقلال وسلامة اراضي دولة اسرائيل والدول العربية ، والاعتراف بالحقوق القومية للشعب الفلسطيني ومن ضمنها حقه في تقرير مصيره .

● ان اللجنة الاسرائيلية ستعمل من اجل تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بجميع بنوده ، بما في ذلك الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي التي احتلت في حرب حزيران ١٩٦٧ ، في اطار اتفاقية سلام تضمن الحدود الآمنة والمعترف بها بين دولة اسرائيل والدول العربية .

● ان اللجنة الاسرائيلية تعارض سياسة حكومة اسرائيل المتمثلة في الاستيطان بالضم ، الاستيطان وخلق حقائق منتهية في الاراضي المحتلة ، هذه السياسات التي تتعارض مع مصالح شعب اسرائيل » .

وكان من بين موقعي هذا البيان ممثلون عن الحزب الشيوعي — راكاح — وحركة هعولام هزي — حركة جديدة ، وتحالف اليسار ، وسياح (اليسار الاسرائيلي الجديد) ، وغيرهم بالاضافة الى عدد من الشخصيات اليسارية المعروفة ، واثنان من قادة المعارضة في الحزب الشيوعي — ماكي — هما عضوا اللجنة المركزية للحزب استر فيلنسكا واليعيزر فيلر . ومن بين هؤلاء تم اختيار اعضاء الوفد الاسرائيلي الستة وهم : عضو الكنيست توفيق طوبي — راكاح — وعوزي بورشتاين الناطق الرسمي باسم راكاح ، وعضو الكنيست اوري افنيري ، وزئيف ساديه ونتان يلين مور وكذلك يوسي اميتي من زعماء « سياح » . (يديعوت احرونوت ١٩٧٣/٥/٤) .

« ولم يوقع ممثلون رسميون عن الحزب الشيوعي — ماكي — (الجناح اليهودي) على البيان ، ولم يشارك في الوفد لان الحزب ، كما قال سكرتير لجنته المركزية يأير تسبان « لا يستطيع ان يوقع على بيان يتحدث عن انسحاب من جميع الاراضي التي احتلت في حرب حزيران ١٩٦٧ » . ولم يشارك في اللجنة وفي الوفد مندوبون عن « الديمقراطيين الاسرائيليين — الفهود السود » الذين يتزعمهم عضو الكنيست شالوم كوهين (مستقل وسابقا عضو « هعولام هزي — قوة جديدة) » لاننا — كما قال شالوم كوهين — فور توحدنا (توحد حركته مع الفهود السود) « أعلنا باننا لا نرى انفسنا تابعين لمعسكر اليسار في الدولة » . (المصدر السابق) .

اما عن الجانب العربي فقد حضر المؤتمر « من مصر خالد محيي الدين ، وحسين فهمي محرر صحيفة الاخبار ، وفوزي العمدة عضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي ورئيس لجنة الشؤون العربية في مجلس الامة . ومن سوريا محمد الريماوي عضو حزب البعث ومراد القوتلي عضو الحزب الشيوعي . ومن العراق الوزير عزيز شريف ، ودارا توفيق عضو المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكردستاني وعزيز جاسم عضو حزب البعث والسيدة بشرى برطو مندوبة الحزب الشيوعي . ومن الاردن الدكتور يعقوب زيادين ونعيم الاشهب عن الحزب الشيوعي » (معاريف ١٩٧٣/٥/١٣) .

« ... ثم وفود من اليمن والمغرب ، وذلك بخلاف العديد من العرب الذين اشتركوا ضمن وفود التنظيمات العالمية . اما الوفد الفلسطيني والوفد اللبناني فلم يتمكنا من الحضور بسبب احداث لبنان المؤسفة ، التي ادت الى اغلاق ميناء بيروت الجوي » . (الاهرام ١٩٧٣/٥/٢١) . وما لم تقله « الاهرام » قالته « معاريف » (١٩٧٣/٥/١٣) ، الاسرائيلية ، وهو ان الوفد الفلسطيني هو وفد « لجنة السلام الفلسطينية ». كل ذلك يمكن اعتباره تاريخ الاعداد للمؤتمر والعضوية فيه ، نصل بعد استعراضه الى استعراض اهداف المؤتمر .

ليس هناك شيء محدد تماما يمكن الاشارة اليه على انه اهداف المؤتمر . ذلك لانه — مثل كل ما عداه من مؤتمرات — ضم وفودا عديدة لكل واحد منها تقريبا هدفه الخاص ، بل احيانا لكل عضو

في الوفد الواحد اهداف خاصة . لكن اكثر ما يعنينا هو ما ذكره الجانب العربي على انه أهدافه ، وما اعتبره الوفد الاسرائيلي هدفا له . يقول محيي الدين في مقال كتبه في جريدة «الاهرام» (١٩٧٣/٥/٢١) تحت عنوان مؤتمر بولونيا للعدل والسلام في الشرق الاوسط ، خطوة ثالثة ... لدعم التأييد العالمي للحق العربي » ، يقول : « وعند البحث عن الخطوة التالية ، اوضح اصدقاؤنا الاوروبيون ان تكرار عقد مؤتمر آخر يضم المتضامنين مع العرب لم يعد له جدوى بعد ان تبلورت النواة المؤيدة للحق العربي ، ولهذا لا بد من ان نصل الى اقناع القوى العديدة من الرأي العام العالمي التي لم تقتنع بعد بهذا الحق ... سواء كانت هذه القوى في اوروبا او امريكا او آسيا او في داخل بلد الخصم نفسه . فالاعلام السياسي سيظل دائما محاصرا وضعيف التأثير اذا لم ينجح في التأثير على قوى جديدة ، بل واذا لم ينجح في التأثير على اقسام من الرأي العام داخل بلد الخصم نفسه لخلق قوة ضاغطة لصالح التقدم والتحرر والسلام والامن في الشرق الاوسط » .

ويبدو واضحا من كلمات الاستاذ خالد محيي الدين ليس مدى تواضع اهدافه فقط — قوة ضاغطة — بل مدى « اللطف » في تسمية دولة العدو « بلد الخصم » .

ثم ينتقل محيي الدين من التركيز على هدف المؤتمر الى التوضيح « ... فهو ليس مؤتمرا للمتضامنين مع العرب تضامنا كاملا ، انما هو مؤتمر مفتوح لكل من ينشد السلام والعدل في المنطقة » ، من هنا فانه تم وضع شرط واحد فقط لقبول اشتراك الوفود هو ما يسميه محيي الدين « الاساس السياسي » الذي يتلخص في « ضرورة الجلاء عن كل الاراضي التي احتلت عقب حرب يونيو عام ١٩٦٧ وتنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وقرار الجمعية العمومية الصادر في نوفمبر سنة ١٩٧٠ وكل القرارات التي تضمن الاستقلال والسلام لجميع شعوب ودول المنطقة ، ثم التطبيق الكامل للحقوق المشروعة لشعب فلسطين » .

وتفسيرا لهذا التمسك الشديد بقرار مجلس الامن يقول محيي الدين « ان مصر لم تقبل قرار مجلس الامن باعتباره الحل الامثل للمشكلة ، ولكن حسب ما جاء في كلمتي (في مؤتمر بولونيا) ... لانه الحل الممكن والمقبول وفقا لعلاقات القوى في المنطقة والعالم ، وحتى نجنب الشرق الاوسط ويلات حرب جديدة » .

وفي مقابل هذه الاهداف من المؤتمر التي وضعها السيد محيي الدين ، حدد اوري افنيري اهدافا مختلفة تماما وجذريا : « لقد اردنا ان ننفذ مهمة مستحيلة هي اصدار وثيقة يقرها جميع المشتركين: اسرائيليون ومصريون ، وسوريون وعراقيون ، وايضا الفلسطينيان اللذان حضرا الى المؤتمر من اوروبا ... كانت مهمتنا ان نصل بالمندوبين الرسميين للحزبين الحاكمين في العراق وسوريا الى التوقيع على القبول بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، وعلى الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود وفي الامن ، بكلمات لا تحمل اكثر من تفسير . لقد كان هذا هو الاساس ». (هعولام هزي ١٦/ ١٩٧٣/٥) .

وفي مقابلة اجرتها اذاعة العدو مع افنيري يوم ١٩٧٣/٥/١١ قال « ان احدى مهامنا الاساسية في المؤتمر هي ان نطلب من الفلسطينيين ان يعلنوا بصورة قاطعة ان حقوق الشعب الفلسطيني لن تكون على حساب وجود اسرائيل واستقلالها . ومن المعلوم ايضا ان الفلسطينيين في منظمة التحرير ليسوا هيئة واحدة ، بل هم ائتلاف بين عدد كبير من القوى ، ابتداء من المتطرفين جدا حتى القوى المعتدلة من النوع الذي نقابله في المناطق المحتفظ بها ... وآمل ان يتوصل الفلسطينيون الى الاستنتاج انه يمكنهم الوصول الى حقوقهم الوطنية ، او على الاقل جزء من حقوقهم الوطنية ، من خلال اتفاق مع اسرائيل . وبهذا نضعف الجناح المقاتل ، الذي يتبع اساليب متطرفة ». (رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٣/٥/١٥). والسؤال المنطقي هو ما اذا كان اضعاف الجناح المقاتل — وهو الاسم المخفف للثورة الفلسطينية — هو الهدف الاول والاخير ، ان لم يكن للوفد الاسرائيلي ، فعلى الاقل لقسم منه ، من وراء المشاركة في مؤتمر بولونيا .

وكما ذكرنا في مطلع هذا الكلام ، انه صدر عن المؤتمر بيان ، ولم تصدر عنه أية قرارات او توصيات . وقد اعرب السيد محيي الدين عن اعتقاده « انه لنجاح ان يصدر مؤتمر له هذا التركيب نداء الى كل الشعوب يحدد فيه الحل العادل لنزاع الشرق الاوسط في الكلمات التالية :

التنفيذ الكامل لقرارات الامم المتحدة الصادرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ و٤ نوفمبر ١٩٧٠ والتي تستلزم اول ما تستلزم سحب دولة اسرائيل لقواتها المسلحة من الاراضي العربية التي احتلتها منذ يونيو ١٩٦٧ ، والاعتراف بالحقوق المشروعة لشعب فلسطين ، وحقه في تقرير مصيره ، وكذلك الاعتراف بحق كل الشعوب وكل دول الشرق الاوسط في الوجود والاستقلال والسيادة والامن».

والى جانب هذا الارتياح العربي لنتائج المؤتمر جاء الارتياح الاسرائيلي منطلقا من ان قبول وفد اسرائيلي في مؤتمر خاص بالسلام في الشرق الاوسط ، وجلوس هذا الوفد وجها لوجه مع الوفود العربية ، هو امر يشكل مكسبا بحد ذاته ، وكما قال افنيري « لان الدلالة العملية للاعتراف بقوى سلام في اسرائيل ، هي الاعتراف باسرائيل. ولقاء مع اسرائيليين وجها لوجه هو مقدمة للقاءات اخرى وعلى مستويات اخرى » .

اما الجهات الاسرائيلية الاخرى ، التي لم تشارك في المؤتمر ، فقد كان لبعض منها وجهات نظر مختلفة ، مثل حزب مبام الذي انتقدت افتتاحية الصحيفة الناطقة باسمه « عل همشمار » يوم ١٩٧٣/٥/١١ تشكيل الوفد الاسرائيلي اذ « لا يعقل ان يعقد مؤتمر اسرائيلي عربي يبحث عن السبل « من اجل السلام والعدل » يعين الطرف الآخر، أي العرب، المندوبين الاسرائيليين، وليس هذا فقط ، بل ان هؤلاء المندوبين يقبلون مسبقا بالشروط التي يضعها العرب » ، واعربت صحيفة المبام ايضا عن اعتقادها ان المندوبين هم«اشخاص يمثلون جماعات هامشية في المجتمع الاسرائيلي » وهذه الجماعات هي راكاح ، سياح ، تحالف اليسار وهعولام هزي . وكان افنيري قد قال لمراسل اذاعة العدو ان المندوبين الاسرائيليين يمثلون احزابا حصلت معا على ١٥ ٪ من مجموع الاصوات في الانتخابات البرلمانية (رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٣/٥/١٥) .

اما جريدة « دافار » الناطقة شبه الرسمية بلسان حزب العمل الحاكم ، فقد انتقدت يوم ١٩٧٣/٥/١٤ « عدم ذكر الارهاب العربي » في القرارات التي اصدرها المؤتمر « علما بأن ما صدر عن المؤتمر بيان وليس قرارات » ، واعتقدت « دافار » ان المندوبين الاسرائيليين اقتنعوا اخيرا بالانضمام الى موقعي الوثيقة الختامية « لانها جاءت على ذكرهم كـ « قوى السلام في اسرائيل » والتي يجب تشجيعها » .

وفي اعتقاد مراسلة جريدة هآرتس (١٩٧٣/٥/١٥) « ان مناقشات المؤتمر اتسمت بروح الاعتدال ازاء اسرائيل اكثر من النداء الختامي » .

احداث لبنان : سبقها الاستعداء ، وتلاها الاستعداء

عمليات الجيش اللبناني ضد مواقع الفدائيين ، وقصف طيرانه ودباباته ومدفعيته للمخيمات الفلسطينية في لبنان ، **توبلت لدى العدو — وكما** هو متوقع — بارتياح شديد عكسته تصريحات مسؤوليه وصحفه ووسائل اعلامه ، التي استمرت في استعداء السلطة اللبنانية على حركة المقاومة طيلة اسبوعي القصف اللذين بدأ في الثاني من ايار (مايو) الماضي ، ، **وما تلاهما من ذيول** ، ولقد دأبت جميع صحف العدو وتعليقاته على اعتبار الضربة التي وجهت للمقاومة هي نتيجة لضرب القوات الاسرائيلية اهدافا للمقاومة داخل لبنان ، وبشكل خاص للعملية الاجرامية في العاشر من نيسان (ابريل) الماضي ضد ثلاثة من قادة الحركة الفلسطينية ، وان ما تشهده الساحات العربية يجيء مصداقا للسياسة الاسرائيلية . وقالت جريدة « دافار » شبه الرسمية في عددها يوم ١٩٧٣/٥/٣ « ان هذه المرحلة من المواجهة بين سلطات لبنان والمخربين ، كان من بين الدوافع لها الغارة التي قام به جيش الدفاع الاسرائيلي ضد قيادات المخربين في العاصمة اللبنانية ، والتي اوضحت للحكم في لبنان ولرؤساء منظمات المخربين ، المخاطر التي يتعرضون لها في حال استمرار النشاط الارهابي من اراضي هذه الدولة » .

اما يغال الون فقد اكد نفس هذا المعنى ، ولكن بنظرة اشمل ، عبر عنها يوم ٧٣/٥/٢٢ في لقاء مع تلامذة احدى المدارس الثانوية في حيفا ، حيث جمع بين اعمال السلطة في لبنان والسلطة في الاردن ، وقال انه « لولا العمليات التي قمنا بها ، فانه من المشكوك فيه ان يتجرأ النظامان في الاردن ولبنان على القيام بالخطوات التي قاما بها . ومن هنا فانني اسمح لنفسي بان ارجع فضل هذه العمليات الى السياسة الاسرائيلية » .

ولدى مقارنة اعمال السلطة في لبنان بمجازر السلطة في الاردن شبه المعلقون الاسرائيليون احداث شهر ايار الماضي ، باحداث شهر حزيران

١٩٧٠ في الاردن حيث « ان فرنجية قد فكر بمعايير حـزيران ١٩٧٠ (تاريـخ المعركة ضد قواعـد الفدائيين في عمان) ولم تكن وجهته نحو ايلول ١٩٧٠ . وهو يعرف انه ليس تحت تصرفه جيش على غرار الجيش الاردني ، ولا يشكل الملك حسين مثلا له » ، ومن هنا فانه « يتحدث عن تحـول المخربين الى « جيش احتلال » ، لكنه يعمل من اجل الغاء علامات « الاحتلال » ، والظواهـر المرافقة له ، وليس من اجل الغاء « الجيش » ذاته » . (اهود يعاري ، دافار ٧٣/٥/٩) .

ومع كل يوم من ايام الصدام ، كان يتطور الموقف الاسرائيلي ، والتعليقات الاسرائيلية ، لكي تتلائم الكلمات مع ما يحدث « على الطبيعة » . ويمكن تقسيـم تطور الموقف الاسرائيلي الى المراحـل التالية :

١ — مرحلة الشرح والتفسير .
٢ — مرحلة الاستعداء والتشجيع .
٣ — مرحلة التهديد والتضايق .
٤ — مرحلة الاستعداء من جديد .

في أولى هذه المراحل كان التركيز الاسرائيلـي منصبا علـى التعرف على اهـداف السلطـة اللبنانية ، وعلى ملاحظة الجديد في هذه المرحلة. وقد لخص البروفسور موشي ماعوز رئيس المعهد الاغرو — اسيوي في الجامعة العبرية في القـدس اهداف السلطـة بانهـا « كبح جمـاح نشاط المخربين وتقليصه الى الحد الادنى الممكن ، هذا اذا لم تكن ترمي الى تصفيته نهائيا . وفي هـذه السياسة امر جديد ، خاصة وان المبادرة حتـى الان في لبنان كانت في ايدي المخربين اما الحكومة فقد كانت ، في معظم الاحيان ، تبادر للعمل تحت ضغط الاحداث ، او نتيجة للتهديدات الاسرائيلية. وكان الجيش اللبناني حتى الان يعمل باسلـوب شبيه بعمل فرق الاطفاء اكثر من عمله كجيـش لدولة ذات سيادة » . (رصد اذاعة اسرائيـل ١٩٧٣/٥/٧) .

وفي تفسير دوافع فرض حالة الطوارىء في لبنان، قال المعلق الاسرائيلي دوف ينون يـوم ٧٣/٥/٨ « ... واعلنت حالة الطوارىء ، التي تعطـي للجيش في لبنان ، لاول مرة ، فرصة لاستغـلال بضعة ايام في محاولة لفرض النظام . اما بـدون فرض حالة الطوارىء فان جميع الاحزاب وجميع الاجنحة القومية والاسلامية تقيد ايدي الحكومة ». (رصد اذاعة اسرائيل ٧٣/٥/١٥) .

ثم جاءت ، متداخلة مع سابقتها ، مرحلة استعداء السلطة في لبنان وتشجيعها ضد المقاومة ، وكانت ابرز علامات هذه المرحلة :

١ — قال يهو شواع حلميش العنصري الاسرائيلي المعروف ومراسل جريدة « يديعوت احرونـوت » للشؤون العربية في عدد الجريدة يوم ٧٣/٥/٤ : « انه يمكن للهدوء ان يعود الى الدولة (لبنان) فقط حين تتمسك السلطات بكامل حقوق السيادة في بلادهـا ، وتضـع حـدا لنشاط المخربـين الفلسطينيين من داخلها ... » .

٢ — وقال موشي كارمل عضو لجنة الخـارجية والامن في الكنيست في مقابلة اذاعية يوم ٧٣/٥/١٢ : « ... واخشى جدا ان تتوقف حكومـة لبنان في منتصف العمل ، وتكتفي بنصف الجهود ، وهذا الوضع الذي شاهدناه في الاعوام الاخيرة ، حيث جعلت منظمات المخربين بيروت مكانا ومركزا لتجمعها ، تقوم منها بالتخطيط والاعداد للعمليات ضد اسرائيـل ، وضد اهـداف اسرائيليـة في الخارج ، وهذا الوضع لن ينتهي نتيجة للنشاط الذي قام به جيش لبنان ، ولا نتيجة للاتفاقية . والعبرة الاولى من التطورات الاخيرة في لبنان ، هي ان المسؤولية التي نلقيها على الدول العربيـة المحيطة بنا ، بأن تضمن الهدوء على الحـدود وخلف الحدود ، بدأت تعطي بعض الثمار ، ومن الواضح ان حكومة لبنان لـم تكن ملزمة بهـذا النشاط لولا اننا قمنا بالقاء المسؤولية عليهـا ، ولولا اننا قمنا بالاثبات لها ، انها اذا لم تقم بذلك العمل ، لاسكنت المنطقة القريبة منا فسوف نقوم بهذا العمل بانفسنا » . (رصد اذاعة اسرائيـل ٧٣/٥/١٥) .

ومع التوصل الى الصيغة التي اوقف القصـف بموجبها ، ازداد تضايق الاسرائيليين ، وكـان افضل من عبر عن هذا التضايق هاييم تسادوك عضو الكنيست ، ورئيس لجنة الخارجية والامن فيها ، الذي قال يوم ٧٣/٥/١٨ : « اننا في حربنا ضد المخربين سنستمر حتى النهاية ، وطالما انه سيكون هناك نشاطات ضدنا من جانب المخربين مصدرها لبنان ، فاننا نعتبر انفسنا ملزمين بالعمل ضد المخربين ، حتى لو ادى ذلك الى الحـاق الضرر بلبنان » . (رصد اذاعة اسرائيل ٧٣/٥/١٩) .

وبعد تسادوك جاءت « جوقة » الصحف ، التي رأت في الاتفاقية التي تم التوصل اليها امرا ازعجها ، فعادت اسطوانة التهديدات من جديد. واعتقدت صحيفة هآرتس (٧٣/٥/٢١) « ان السماح للمخربين بالنشاط ضد اسرائيل من الاراضي اللبنانية ، يضع الاتفاقية موضع الشك، لانه ينبغي على سلطات لبنان ان تدرك انها لن تحظى بالهدوء في عقر دارها ، ما دام عدم الهدوء على الحدود الاسرائيلية قائما » . والاتفاقية في نظر جريدة « عل همشمار » الناطقة بلسان حزب مبام (٧٣/٥/٢١) « ليست كافية بالنسبة للجيش اللبناني » ، اما جريدة « هتسوفيه » الناطقة بلسان الحزب الوطني المتدين فقد اعربت عن اعتقادها في عددها يوم ٧٣/٥/٢١ « انه يحتمل ان تقضي الاتفاقية على الوضع الشاذ الذي ساد لبنان ، ولكنها لا تحل مشكلة النشاط التخريبي من الاراضي اللبنانية » وعليه « فان اسرائيل سترد بشدة على اي نشاط كهذا ، وستتحمل بيروت المسؤولية » .

اما عن ردود الفعل على عمليات القصف في لبنان، داخل الاراضي العربية المحتلة ، فقد ذكرت جريدة « دافار » (٧٣/٥/٣) انها — اي ردود الفعل — كانت في غزة خليط من « اللامبالاة واليأس والغضب » وكانت في الضفة الغربية — وفي نابلس بشكل خاص — اكثر حدة ، حيث « اجتمع زعماء نابلس في مبنى البلدية ، وارسلوا بيانا يطالبون الزعماء العرب فيه بوضع حد للمؤامرات ضد الشعب الفلسطيني » .

ويظل اكثر ما يعبر عن حقيقة مشاعر الاسرائيليين ازاء احداث لبنان ، وما وصلت اليه من نتائج ، ذلك التساؤل الذي طرحه مراسل اذاعة العدو حول ما اذا كان بالامكان « ان يخوض طرف اخر حرب اسرائيل — ضد الفدائيين — نيابة عنها » .

● وفيما يلي تسجيل لاهم ما شهدته الساحة الاسرائيلية من احداث خلال شهر ايار (مايو) الماضي .

اقتصاد

* افتتح في القدس ، في السابع والعشرين من شهر ايار (مايو) الماضي مؤتمر «الالف مليونير»، وكان بذلك المؤتمر الثالث لاصحاب رؤوس الاموال. حيث عقد المؤتمر الاول في الاول من نيسان (ابريل) ١٩٦٨ ، والثاني في الخامس والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٦٩ .

وحول ما تريده اسرائيل من هذه المؤتمرات الاقتصادية ، ومن المؤتمر الثالث الاخير ، قال بنحاس سابير وزير مالية العدو ان ما يريده من هذا المؤتمر هو « اولا المزيد من العطف على القطاع الاقتصادي الاسرائيلي ، وثانيا المزيد من الخبرة ، وثالثا المزيد من الاستثمارات والمبادرين. ولا تستغرب ان يكون المال هو مطلبي الاخير ». (رصد اذاعة اسرائيل ٧٣/٥/٢٤) .

هجرة

قال يغال الون في فينا يوم ١٩٧٣/٥/١٩ ، لدى استقباله مجموعة من المهاجرين اليهود السوفيات الذين وصلوا الى فينا بالقطار : « ان اسرائيل لن تهدأ حتى يهاجر اليها آخر يهودي » .

وقال حاييم غنكلشتاين عضو الادارة الصهيونية في ندوة صحافية في القدس يوم ١٩٧٣/٥/١٨ « ان جاليات يهودية صغيرة عديدة قد فقدت في كل من الولايات المتحدة واميركا الجنوبية وغيرها من البلدان نتيجة الاندماج والزواج المختلط ونقص الثقافة اليهودية ، وان نسبة الزيجات المختلطة في بلدان الشتات تتراوح ما بين ٣٠ — ٦٠ ٪ ، وان ٨٠ ٪ من المولودين نتيجة هذه الزيجات يظلون غير يهود » (رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٣/٥/٢١) .

اما البروفسور يغال يدين ، ثاني رئيس اركان عامة لجيش الاحتلال فقد اعرب عن اعتقاده في مقابلة نشرتها « معاريف » في عدد يوم «الاستقلال» « ان حرب استقلالنا لم تنته وان دولة اسرائيل لم تقم بعد » ، وفسر كلامه بأنه ما لم يصبح في اسرائيل اكثر من نصف يهود العالم ، فان دولة اسرائيل تكون ما قامت بعد .

عرب الارض المحتلة

كشف بحث اجرته جامعة حيفا عن افراد الطائفة الدرزية في الارض المحتلة « ان ثلثي افراد الطائفة غير راضين عن زعامتها ويأملون باجراء تغيير ، وقال حوالي ٨٠ ٪ من الذين اجريت معهم المقابلة في البحث ان هناك فارقا بين افكارهم وافكار شيوخ الطائفة » . كذلك كشف البحث عن ان الطائفة الدرزية هي اكثر طائفة فتية في اسرائيل حيث ان « ٨٦ ٪ من افرادها هم دون الرابعة

والاربعين من عمرهم » . (رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٣/٥/٢١) .

واذا اخذنا في الاعتبار ان قرار الزام الشباب الدروز بالخدمة في جيش الاحتلال ، قد صدر في حينه عن طبقة الشيوخ المرفوضة التي يتحدث عنها البحث ، تبدو واضحة أهمية الحقيقة التي كشفها ، ومدى احتمال تأثيرها وقدرتهـا على افشال سياسة اسرائيل في دق اسفين بين الطائفة الدرزية والطوائف العربية الاخـرى في الارض المحتلة .

عماد شقور

(٦) ثقافـة

لم يتغير شيء كثير

لم تكن هزيمة حزيران مجرد نقطـة تحول على مستوى الواقع السياسي العربي الراهن . بل حملت معها قدرة على رسم اكثر من لوحة على خريطة الحركة الثقافيـة العربية المعـاصرة . والاستمرار الظاهري في حياتنا الثقافية ، ليس في الواقع سوى علامة من علامات الازمة . فالثقافة العربية لم تستطع الى الان استيعاب الهزيمـة ليس لعجز فيها فقط ، بل لان دورة الهزيمة لا تزال ترسم خطوطها . وفي ظل هذه العملية انتـابت الحركة الثقافية العديد من التيارات . فمن جهة ظهر من الشعر الفلسطيني القادم مـن الارض المحتلة ، الذي استطاع ان يشحن الحياة العربية بصوت الصمود الممتزج بشهوة عارمة الى الارض. كما ارتفع في المقابل صوت نزار قباني حاملا بيده سوطا داميا ، محاولا ان يجلد الحياة العربية وهو جالس على حافتها معريا اياها دون ان يتعرى في داخلها . وحاول ادونيس عبر قصيدتين « هذا هو اسمي » و« ملوك الطوائف » ان يكتب وثيقة انسانية شاملة هي بحجم الشهادة ، ويدخل الحياة العربية دخولا مأساويا استطاع فيـه ان يكون شاهدا حقيقيا دون ان يمد جسرا يعبره الى داخل البحر .

هذه النماذج السريعة لاهم تيارات الحركة الشعرية بعد حزيران ليست بالطبع شاملة . لكنها تحاول ان ترسم ملامح مرحلة تميـزت على المستـوى الشعري بالاستمرار ولو اخذ الاستمرار لنفسه مجاري جديدة . فالرومانسية الثورية التي طبعت الستينات استمرت على يد الشعر الفلسطيني وان اخذت شكلا جـديدا وامتلأت برائحة الصمـود الدموي . والجلوس على حافة الحياة العربية في محاولة لالتقاط اللحظة دون المساس بالجـذور بقي مستمرا في شعر قباني وان اتخذ لنفسه بعد الاشهر الاولى من الهزيمة مسارا مختلفا . وتابع ادونيس في شعره البحث عـن علاقة الاشياء ببعضـها ، متوغلا في تجربته التي يدخل فيها رحم العلاقة بين اللغة والابداع . وشعره بعد حزيران

هو استمرار لهذا المشروع الشعري ، عبر نزوح متوتر الى التاريخ ولكن من باب المثقف الذي لا يجد موطئا ثابتا لقدميه . لذلك فهو يقتحم ولا يدخل .

اما القصة والرواية ، فانها هي الاخرى حافظت على استمرارها ولو بشكل لا واقعي كما عند نجيب محفوظ ، او بمحاولة للتجاوز عبر علاقة اللغة بالواقع . وحين يتابع محفوظ واقعيته في روايته الجديدة « حب تحت المطر » فانه يعود الى الواقع المتكلس ليكشف في احشائه عن حركته الى الامام .

في الذكرى السادسة للهزيمة ، لا توجد علامات تدل على تغييرات اساسية في هذه الخريطة . ولقد حاول نزار قباني في قصيدته الجديدة « جريمة شرف امام المحاكم العربية » — الاسبوع العربي — ٤ حزيران ٧٣ — ان يعيد طرح الموضوع عبر معاناته للهزيمة ، ولجريمة فردان. لكن صوته وان اكتسب حرارة المعاناة الداخلية فانه لا يزال يفتقد العمود الفقري الذي يحول معاناته الى اندراج في حركة واقعية . فبقي شاهدا على الازمة وان حاول ان يدخل هذه المرة عبر لغته الشعرية الى دائرتها :

« .. وغدت يا وطني البكارة
لم يكترث أحد ..
وسجلت الجريمة ضد مجهول . وارخيت
الستارة . »

● حاولت ثلاث مجلات ثقافية تصدر في بيروت ان تعيد تقييم موضوع هزيمة حزيران ، او على الاقل ان تعيد طرح الاسئلة .

١ — تحاول مجلة « الثقافة العربية » — نيسان ٧٣ — ان تطرح الموضوع من زاوية فكرية . فأمام موضوع « الانسان العربي بين تراثه وثقافة الاستعمار » حاول كميل حوا واحسان عباس وانور عبد الملك وصادق العظم ومعن زيادة ومنح الصلح ووليد خدوري والهادي العلوي ان يرسموا لوحة متكاملة تقوم بعملية اعادة تقييم عامة للواقع الثقافي العربي بعد الهزيمة . فكميل حوا يحاول في مقاله « نقطة الانطلاق » ان يطرح مسألتين هامتين : ١ — بيروت وثقافة الاستعمار ، ٢ — سلبيات اعلام المقاومة . لكنه في المسألة الاولى وبعد ان يحلل دور بيروت الثقافي كوسيط من درجة منخفضة ويرسم دورها التخريبي ثقافيا في الوطن العربي ، لم يستطع ان يرسم العلاقة بين البنى ، بمعنى انه لم يضع العلاقة الاستعمارية ضمن القاعدة التي يقف عليها دور الوساطة الذي تقوم به بيروت . كما انه في طرحه للمسألة الثانية ضخم كثيرا دور الاعلام في مسار حركة المقاومة رغم انه كشف العديد من السلبيات الهامة التي يعيشها اعلام المقاومة . اما احسان عباس فانه في بحثه « العربي الجديد وتراثه القديم » حاول ان يضع مسألة العلاقة بالتراث في موضعها الحقيقي . اي ان نأخذ من التراث ايجابياته لحياتنا الحاضرة . غير ان الطابع الاكاديمي لبحثه جعله يضع عبء عادة النظر في التراث على الجامعات دون ان يربط هذه القضية بالعملية الثورية التي لا يمكن ان يعاد تقييم التراث تقييما صحيحا خارجها . وفي المقابلة التي اجرتها المجلة مع صادق العظم تحت عنوان « حول ثقافة الاستعمار وثقافة التخلف » ، يضع العظم المسألة في موضعها المبدئي الصحيح « اما الاصالة بالنسبة الي فهي بكل بساطة الانتماء في النهاية الى الوقت الحاضر والى المصالح الملحة والجذرية للجماهير وللقضايا الوطنية » . لكن العظم وبعد ان يضع يده على الكثير من النقاط الاساسية خاصة قضية العلاقة بين ثقافة الاستعمار والطبقات السائدة في المجتمع العربي ، لم يطرح تقييما فعليا للتراث الثقافي العربي وللعلاقة التي تشدنا اليه . وعند بحث موضوعة « الهزائم العسكرية والطريق الى الغربنة » يحاول معن زيادة ان يعيد قراءة تاريخ الغربنة في الحياة العربية من خلال الهزائم العسكرية التي مني بها المسلمون على يد الغرب . وهو هنا يعيد طرح السؤال الذي طرحه عبدالله العروي في كتابه « الايديولوجية العربية المعاصرة » . لكن زيادة يبقي الموضوع في اطار ثلاثة اسئلة جذرية : « ١ — القومية لم تحل ازمتها مع الدين والتراث بعد ، وما زال امامها مهمة كبرى . ٢ — المسلمون والعرب لم يأخذوا من الغرب من موقع قوة بل من موقع ضعف وسيظل هذا الاخذ تقليدا الى ان يتمكنوا من الاخذ من موقع الند للند . ٣ — اوجه الشبه بين تطلع المسلمين والعرب الى الغرب بعد التفوق العسكري الغربي وبين الحديث عن التكنولوجيا بعد هزيمة حزيران متعددة وكثيرة الدروس واوسع من ان تعدد في هذه العجالة » . ويطرح انور عبد الملك الموضوع من زاوية اخرى في المقابلة معه بعنوان «نحو استراتيجية حضارية»

واصفا الحضارة العربية ضمن دائرة الحضارة الشرقية عبر محاولته لرسم استراتيجية حضارية تضع ضمن مفاهيمها الاسلام بوصفه جزءا من الايجابية التاريخية . والواقع ان كلام عبد الملك في هذا العدد هو اغنى ما في العدد من البحوث ، لان عبد الملك يطرح المسألة من زاوية التحدي الذي يواجه الامة العربية . وهو وان لم يتطرق الى القوى الاجتماعية التي ستحمل هذا التحدي فانه الح لها في دعوته الى بناء الجبهة الوطنية الشعبية المتحدة . لكن عبد الملك يبقى في المقابل ضمن اطار البحث عن حل جذري دون ان يكشف الية التحدي الصهيوني وانعكاساته على الواقع العربي الراهن . اما منح الصلح فانه يغرق في مقالته « الاسلام وحركة التحرر العربية » في عمومية مفرطة . المقالة لا تقوم بتحليل تاريخي لدور الاسلام ، ولا تستطيع اقناعنا بفرضيات مذهلة في عموميتها كقوله : « ذلك انه بعد الهزيمة خفت قدرة الانظمة على استخدام الاسلام . فالاسلام يدفع بالضرورة باتجاه فلسطين والرجعيات لا تريد التوجه الى فلسطين . لقد ابرزت مرحلة ما بعد الخامس من حزيران كل ايجابيات الاسلام الثورية ، واصبح عدم قدرة الحاكمين على الصدق في الاسلام احد الاضواء الكاشفة لارتباطهم ورجعيتهم » هذا الكلام الذي لا يدعمه اي اثبات سوى اثبات انهيار الباكستان لانها لم تتوجه صوب فلسطين ؟؟ يرسم العديد من علامات الاستفهام . غير ان الهادي العلوي في بحثه « الاسلام ، الدين والتراث » يحاول وبلهجة علمية ان يضع حدا فاصلا بين الدين والتراث منتسبا الى التراث . لكن الطابع السريع لبحثه ابقاه ضمن العموميات . وقد حاول وليد خدوري بعلمية جادة ان يكشف الدور العسكري والتخريبي لمعاهد البحوث الاميركية . يضاف الى هذه الابحاث بحثان جادان الاول لحركة العمل الجامعي عن الارسالية اليسوعية والثاني لمنظمة كفاح الطلبة عن الجامعة الاميركية في بيروت ، حيث يتكشف لنا الدور الاستعماري لهاتين المؤسستين وشبكة العلاقات الاقتصادية والسياسية التي لها علاقة بهما .

يحاول هذا العدد ان يطرح العديد من الاسئلة الجدية . لكن « الثقافة العربية » لا تطرح الاسئلة حول اسئلتها . والواقع ان السؤال الاساسي الذي يخرج به قارىء هذا العدد هو التساؤل لماذا لم تطرح المسألة من خلال العملية الثورية نفسها . وهذا يقتضي دراسة الحركة الثورية العربية من خلال دراستنا للتراث وثقافة الاستعمار . اي ان عزل السؤال عن التحرك الثوري يؤدي الى استنتاجات لا علاقة لها بالواقع . ان تخصيص طريقة طرح الاسئلة لم تسمح للعدد ان يبحث عن علاقة البنى الاجتماعية التقليدية بثقافة الاستعمار . أي ان يطرح السؤال من زاوية مختلفة ، حيث توضع البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية تحت المجهر للكشف عن علاقتها بثقافة الاستعمار . والعدد ينفتر من ناحية ثانية الى قضية عامة جدا ، الى دراسة الادب العربي المعاصر من خلال العلاقة بالتراث وثقافة الاستعمار .

٢ — في عددها الممتاز عن القصة العربية القصيرة تطرح مجلة الاداب — نيسان ٧٣ — موضوعة الهزيمة من زاوية مختلفة . فحزيران ينزف من خلال خمسين قصة قصيرة ضمها هذا العدد . والهزيمة تطرح من زوايا عديدة تلتقي عبر ثلاثة جداول رئيسية :

أ — من جهة اولى يبرز منطق الفجيعة التامة التي تحاول الدخول عبر ثنايا الهزيمة الحزيرانية، لتحترق في سبيل الوصول الى مبدأ التحول . ينفذ يوسف ادريس في قصته « البراءة » الى اللحظة التاريخية الراهنة مدينا موقف التفرج على الواقع المهزوم ، واصفا الادانة في فوهة مسدس يحمله الطفل الذي يوجه الرصاص الى والده النظيف والمتفرج . ويحاول حيدر حيدر في قصته الرمزية « الفيضان » ان يرسم عدة خطوط متوازية تؤدي في النهاية الى الموت دون الوصول الى مضارب القبيلة التي تستطيع ان تنتصر . والاشكالية التي تطرحها هذه القصة هي اشكالية الرمز الكبير — مشكلة الوجود — التي يضعها الكاتب في النهاية امام خاتمة مرتجلة في سرعتها . ويرسم يحيى حقي في قصته « امرأة مسكينة » اطار علاقة الموت وعلاقة الصعود البرجوازي الصغير ضمن اجواء حزيران التي ترشح عرقا وموتا . وينقلنا اديب نحوي في قصته « حفلة نهاية السنة » الى مقطع درامي متصل الانفاس يرسم قضية الشعب الفلسطيني الذي يذبح تحت الاعلام العربية . اما فؤاد التكرلي فانه يرسم لنا في قصته « التنور » صورة فنية بالغة الدلالة تدخل عميقا في احشاء العلاقات الاجتماعية العربية

وتحاول ان ترسمها عبر مجموعة متماسكة من الاطارات الفنية .

ب — من جهة ثانية — تأتي الرؤيا الرومانسية في قصص احمد سويدي وليلى عسيران وجورج شامي ورشاد ابو شادر وجبرا ابراهيم جبرا . غير ان هذه الرؤيا تتلون بلون محكم البناء كما في قصة ابراهيم ابو ناب « اشواق الى الابتسام » . وتأخذ اطارا شديد التوتر في قصة يوسف شرور « حين يذوب الليل » رغم المباشرة التي تلغم الكثير من توتر ابعاد القصة . والفدائي الحاضر في قصص ليلى عسيران واحمد سويد هو غير الفدائي الحاضر في قصة رشاد ابو شادر او قصة علي زين العابدين الحسيني . عند عسيران وسويد يخرج الفدائي ملوثا ببيروت وبرجوازيتها ، ورغم ان خروجه هو محاولة للتمرد على قيم بيروت غير انها تلوثه وتخرجه من احشائها . اما عند ابو شادر والحسيني فهناك محاولة للوصول الى الادب الشعبي من خلال التراث والممارسة . لكن هذا الوصول يصطدم بضيق النفس وبالسرعة التي لا تضبطها ضوابط حقيقية .

ج — من جهة ثالثة تأتي القصص العراقية في غالبيتها الساحقة لترسم لنا اطارات واقعية تلتصق بواقع الحياة في الريف . هذه الصور الواقعية مليئة بالقتامة والسواد . غير انها تنقل من خلال حياة الناس اليومية الكثير من المشاكل الاجتماعية . وضمن هذا السياق تحاول غادة السمان في قصتها « الساعتان والعذاب » ان تقنعنا بواقعيتها . فهي تلتقط مشكلة اجتماعية بعين امرأة مزدوجة الشخصية وتحاول ان تسقط ذاتها على الواقع . فتأتي قصتها شديدة الافتعال وتفتقد الى الحرارة التي تأتي من الصدق الفني.

خارج هذه الجداول الثلاثة ، تأتي قصة زكريا تامر « الاعداء » لتصيغ توقيعات بالغة الدلالة عن الهزيمة . فاذا بالواقع العربي يستحيل على يدي تامر الى مجموعة من المواقف العارية الساخرة . يصل فيها الى المأساة ولا يبقى خارجها . فتامر يدين الواقع العربي ايديولوجيا واجتماعيا وسياسيا ، لكنه يبقي الاطفال حاملين امل المستقبل . استطاع زكريا تامر وحده من ضمن هذه المجموعة الكبيرة من القصص ان يدخل الى حزيران دون ان يخاف على ثيابه من الاحتراق .

والملاحظ خلو العدد من القصص اللبنانية الجيدة فيما عدا قصة سهيل ادريس التي تعرف التقنية الفنية جيدا وان كانت تنتسب الى جيل سابق . ومحاولة يوسف حبشي الاشقر تصوير الاشياء الصغيرة واليومية .

ان عدد « الاداب » يطرح موضوع قدرة الادب على مراجعة الواقع العربي فيما هو يراجع نفسه تحت مظلة حزيران .

اما مجلة « مواقف » فانها في عددها المزدوج ٢٤/٢٥ المخصص للشعر تطرح الموضوع من زاوية جديدة . يطرح ادونيس في مقدمة هذا العدد « عشر نقاط لفهم الشعر العربي الجديد » . فالشعر العربي الجديد : « تجريبي في طرائقه ، هجومي في دلالاته » . « والشاعر الجديد ، انما هو بالضرورة ، في صف المسحوقين ، المشردين ، الجائعين ، في صف العمال والفلاحين » . وهو يرجع ظاهرة بروز شعر طليعي في مجتمع متخلف الى التفاوت في التطور بين البنية الفوقية والبنية التحتية . ثم ينتقل الى وظيفة اللغة التي هي « جوهريا الابداع لا الايصال » واللغة ليست طبقية . « واذا كانت اللغة غير طبقية فان الشعر بالتالي ليس طبقيا . الطبقة مفهوم من طبيعة اقتصادية . اما الشعر ، وان تأثر بالاقتصاد فهو من طبيعة غير اقتصادية . هذا يعني انه لا يمكن ان يكون الشعر برجوازيا ولا رأسماليا ولا بروليتاريا ، كذلك لا يمكن ان تكون اللغة برجوازية او رأسمالية او بروليتارية » . ثم يبسط ادونيس هذه المفاهيم عمليا ، فاذا بها تؤدي الى شعر طليعي تجاوزي . « فاعلية الشعر من طبيعة تخالف فاعلية العيد ، العيد احتفال يخرج الانسان مما هو خاص ويدخله فيما هو عام . العيد اولا جماعة . اما الشعر فهو اولا فرد » . ويضم العدد٣١ قصيدة لشعراء شباب كما يضم دراستين هامتين الاولى لاندريه بريتون بعنوان « الشعر والسياسة » والثانية لريفردي ، بريتون ، وبونج بعنوان « امثولة ابادة القيم غور اكتشافها » . يطرح عدد « مواقف » الازمة دون لف او دوران. فمعظم القصائد تتميز بالتجريبية الاصيلة التي تحاول ان تكتشف مكان الدخول . اما بيان ادونيس الشعري فانه يحمل جميع مؤشرات الازمة . ازمة عدم القدرة على الانتماء الىالواقع الفعلي ، والبقاء بالتالي خارج مجاريه الرئيسية. هذا البقاء بحاجة الى ان ينظر نفسه ، وان يحاول البحث عن جوهر ميتافيزيكي ثابت للشعر .فالشعر عند ادونيس هو وجود لا يربطه بالواقع سوى خيط

سريع العطب . وبالتالي فالثورية تأتي من هذا الجوهر الثابت ، ولا علاقة لها بالممارسة السياسية الثورية او بدخول الطبقات المسحوقة ميدان الممارسة التاريخية المباشرة . من هنا يضع حدا بين الايصال والابداع دون ان يكتشف علاقة الايصال بالابداع وتداخلهما ، ولا يبحث عن منهجية ثورية لقراءة الشعر ودراسته . ان الخلاف مع ادونيس هو خلاف منهجي في اساسه . الانتقائية التي نرى بصماتها على معظم مؤلفاته النثرية ومحاولة تبرير الذات موضوعيا ، في وقت هو فيه اقل الشعراء حاجة الى التبرير الموضوعي ، تجعل من الشعر كائنا علويا هابطا علينا من سماء بعيدة . ان الازمة التي تعيشها الحركة الثورية العربية حرية ان تدفعنا الى البحث عن المخارج لا الى نسج صدفة جديدة ولو باسم قدسية الفن. ان اي عزل للتجريبية التي يخوضها الشعراء الشباب عن الممارسة السياسية للجماهير المسحوقة يؤدي حتما الى افراغ التجربة الشعرية من مضمونها الثوري .

● يلجأ حمد عبد المعطي حجازي في ديوانه الجديد « مدينة العمر الجميل » الى المرأة ليصور واقع الحياة العربية امام الهجمة الصهيونية . وكما ينتظر القاسم في نهاية مرائيه الميلاد ، فان حجازي يرى الميلاد على جبين الفدائي الفلسطيني . في ديوان حجازي الاخير يأخذ الشعر رصانته وشكله على أرض ثابتة . فلا مجال هنا للعبة لغوية او للعبة تشكيلية . حجازي يدخل كلاسيك الشعر العربي المعاصر في باب الحزن والفجيعة . يأتي حزيران اليه على كفن العمر الجميل الذي يرثيه. فاذا بالرثاء يتحول الى عملية نقد ذاتي فيها الكثير من الام جيل كامل من المثقفين في مصر ، الذين فاجأتهم الهزيمة ونقلتهم هذه المفاجأة الى المفاجأة بأنفسهم حيث العجز الكامل يمتزج بظاهرتين :

١ — الارتباط العميق بالارض والشعب . ويأخذ هذا الارتباط علاقة متوترة بالتراث ، بالمدن القديمة غرناطة وانطاكية . واستلهام للبساطة الشعبية الحية .

٢ — البحث ضمن علاقة الذات بالواقع عن ارض تستطيع ان تحمل الحركة المتصاعدة التي نشأت بعد الهزيمة ، فاذا كانت الفجيعة بالماضي هي المدخل ، فان الرؤية التراجيدية للمستقبل هي مدخل جديد . في ديوان حجازي مدخلان . انه استمرار ميزته الصدق . وهذا ما يجعله ديوانا بحجم الشهادة .

« انا لا !

لم اكن شاهدا ابدا

انني قاتل او قتيل

مت عشرين موتا

واهلكت عشرين عمرا

وآخيت روح الفصول »

● اما صلاح عبد الصبور ، فانه في مسرحيته الشعرية الجديدة « بعد ان يموت الملك » يرسم صورة شاملة لمصر بعد الهزيمة . فالمسرحية هي رؤيا لبقاء مصر الدائم رغم المحن ، ولقدرتها على تجاوز جميع المصاعب . وعبد الصبور يلجأ في سبيل الافصاح عن فكرته الى اسلوب تمتزج فيه السخرية بالحزن . تدور الحركة الداخلية في المسرحية حول عدة رموز ، لكنها حركة بطيئة . انها ديكور خارجي للموقف الشعري . وتتمحور الرؤيا من خلال شبكة علاقات شبه شاملة . خياط ، قاض ، ملك ، شاعر ، مؤرخ ، ملكة وجلاد . غير ان الحركة تبقى مثلثة الاطراف : الملكة (الارض) الشاعر (الرؤيا) النهر (البقاء الازلي) هذه الحركة المثلثة مغلقة وان كانت غنية بالفواصل ، لانها تحاول ان تمسك باللحظة التاريخية فلا تمسك سوى بأحد اطرافها . انها ادب حزيراني (انتقادي اذا شئنا) لكنها تبقى ضمن خط الادب الحزيراني الغالب ، الذي يتمحور بين طرفي الامل الرومانسي واليأس ، لكن لا علاقة لعبد الصبور بالامل الرومانسي . ان امله تاريخي متجذر في مصر التي لا تهزم . تتميز هذه المسرحية بثلاث ميزات هامة :

١ — الحركة المسرحية (النثر) التي تلعب دور المسمار في ربط العمل المسرحي البطيء ، وفي ارساء قاعدته .

٢ — رصانة عبد الصبور وصوته الشعري الهادىء .

٣ — اللجوء الى الامل الحضاري الذي تمثله مصر . والذي يحمل بذور انقاذها .

● في روايته الجديدة « طواحين بيروت » يعود توفيق يوسف عواد الى الرواية بعد انقطاع طويل.

يعود اليها حاملا كلاسيكيته المتقنة وارادة لكتابة رواية « لبنانية » تؤرخ للمرحلة الوطنية التي بدأت مع دخول المقاومة لبنان . وعواد يسلط عدسته على المجتمع اللبناني من خلال الانتفاضة الطلابية التي جرت في بيروت عقب ضرب المطار ٦٨ . ويحاول ان ينقل رؤية متكاملة للجيل اللبناني الجديد . لكن عواد يسلط عدسته على التيار الاصلاحي في الحركة الطلابية اللبنانية وهذا يحجب عنه الكثير من الحقائق . كما انه في محاولته لبناء عمارة روائية كلاسيكية على قاعدة لبنانية صرفة ، يصطدم بعجز الواقع الموضوعي عن فوز رؤيته الغنية . فهل يستطيع مجتمع الخدمات ان ينتج رواية كلاسيكية ؟ وهل هذا هو السبب الذي جعل من رواية « طواحين بيروت » محملة بالاوهام الذاتية وبعدم القدرة على الامتداد خارج المساحة اللبنانية ؟

● اما نجيب محفوظ فانه يعود في روايته الجديدة « حب تحت المطر » الى الواقعية . ويصور لنا المجتمع المصري بعد توقف اطلاق النار على جبهة السويس . ولعل الشخصية الاكثر واقعية في هذه الرواية هي شخصية عشماوي الذي يمثل الكادحين . فعشماوي يحمل هموم المعركة بشكل حقيقي . الكادحون وحدهم الذين يتحملون اعباء المعركة ويريدون الحرب والثأر للكرامة الوطنية . وهم يطرحون العديد من التساؤلات المشروعة :

« وعند ذلك تساءل عشماوي

— وهل اولاد الاغنياء يقتلون ايضا ؟

فلم يتمالك حسني نفسه من الضحك وقال :

— ولكن التجنيد لا يفرق بين غني وفقير ياعشماوي.

فهز رأسه في ارتياب وعاد يسأل :

— وهل يرسلونهم حقا الى الجبهة ؟ قلبي يحدثني بغير ذلك !

— لا تصدق قلبك يا عشماوي » .

يلخص هذا المقطع واقع الطبقات المسحوقة التي تطالها ريشة نجيب محفوظ وهي ترسم صورة متكاملة للمجتمع المصري . غير ان رواية محفوظ تعاني خللا . فالقدر هو هو البطل الرئيسي في الرواية . احداث الرواية تتقاطع عند تدخله . انه العامل الاساسي في آلية تطور الرواية . والقدر ليس بطلا جديدا في أدب محفوظ لكنه لم يكن في رواياته السابقة هو الذي يحدد مسار تطور ابطالها . بل كان عاملا مساعدا . اما هنا فنحن لا نستطيع تصور الرواية بلا هذا البطل الذي يتدخل ليرسم مصير الشخصيات الرئيسية . غير ان محفوظ لا يفقد خيط الرؤيا . فهذا الخيط يتجه نحو هدف واضح نحو الالتحام بالمقاومة التي تشق طريقها . وهو عبر تصويره لانهيار الطبقات الطفيلية في المجتمع المصري يشير الى آفاق التحول . الى المستقبل الذي يرسمه عشماوي وابو النصر .

● في اخر قصيدة لمحمود درويش « طوبى لشيء لم يصل » يرسم لنا درويش من خلال مرثيته للقادة الشهداء الثلاثة صورة مأساوية ومتحركة للواقع العربي الراهن . وهو رغم انه لا يكتب القصيدة وسط الدماء فانه عندما يصف العرس الفلسطيني يشير الى علامة هامة :

« كل شيء ينتهي من اجل هذا العرس

مرحلة بأكملها .. زمان ينتهي »

فالزمن الجديد الذي تكتبه الدماء . لا بد وان يرسم ثقافته الجديدة .

أ. خ.

(٧) القضية الفلسطينية عسكريا

صفقة الاسلحة السعودية والكويتية :

منذ ان بدأت زيارة الملك فيصل وزيارة حافظ اسماعيل مستشار الرئيس انور السادات لباريس في شهر ايار الماضي تناقلت وكالات الانباء العالمية انباء حول احتمال قيام العاهل السعودي بتقديم طلبات لشراء اسلحة فرنسية تستهدف تدعيم القوات السعودية الضاربة بالدبابات آ. ام. اكس ـ ٣٠ وطائرات الميراج ، بغية الضغط على الولايات المتحدة الامريكية التي تتجه سياستها الخارجية بشكل ملحوظ نحو تعزيز القوةالعسكرية الايرانية المستعدة لحماية مصالحها البترولية في منطقة الخليج العربي،ونحو تعزيز القوة العسكرية الاسرائيلية لتكون قادرة على تنفيذ خططها الاستراتيجية والاقتصادية في شرق البحر الابيض المتوسط .

ولقد رافق هذه الانباء اخبار تقول بأن المملكة العربية السعودية طلبت من الولايات المتحدة من قبل بيعها اسلحة بقيمة ٥٠٠ مليون دولار تضم طائرات الفانتوم والدبابات وطائرات الهليكوبتر بالاضافة الى ١٩ سفينة حربية (مدمرات وبوارج صغيرة قديمة) وأن قيمة هذه الصفقة ستصل في حالة الموافقة عليها الى ١٠٠٠ مليون دولار . وان محاولة طلب الاسلحة من فرنسا ستكون عاملا ضافطا يجبر الحكومة الامريكية على الاسراع بتلبية الطلبات السعودية العسكرية السابقة .

وفي ٢٢ ايار ظهر في صحيفة **لوموند** نبأ يقول بأن « الكويت ستتقدم بطلبات كبيرة لشراء معدات عسكرية من الولايات المتحدة الامريكية وان قيمة الصفقة ستبلغ حوالي ٦٠٠ مليون دولار ، ستشمل طائرات نفاثة وصواريخ ودبابات » (لوموند ٧٣/٥/٢٢) . ولقد اكدت **الديلي تلغراف** هذا النبأ ، كما اكدت اهتمام الكويت بشراء اسلحة انكليزية وفرنسية ، ونقلت عن **الواشنطن بوست** « ان الصفقة الامريكية ستشمل ١٦٠ دبابة م ـ ٦٠ و ٣٢ طائرة ف ـ ١ كروسيدر النفاثة المقاتلة ، و ١٨٠٠ صاروخ Tow الموجه المضاد للدبابات ، و ١٥٠ صاروخا مضادا للطائرات من طراز هوك، وعددا من طائرات الهليكوبتر الخفيفة» (ديلي تلغراف ٧٣/٥/٢٤) . ولقد اكد السيد جاسم المرزوق وزير الدولة الكويتي بالوكالة هذه الانباء امام الصحفيين في يوم ٥/٢٧ ، واشار الى ان الكويت تريد من زمن بعيد تزويد قواتها المسلحة باسلحة حديثة لحماية نفسها وللمشاركة في معركة المصير ضد اسرائيل . (المحرر ٧٣/٥/٢٨) . ولم يقدم الوزير الكويتي تفصيلات عن حجم هذه الصفقة وانواع الاسلحة التي تتضمنها . ولكن **الكويت تايمز** اكدت عدم رغبة الكويت بشراء طائرات « كروسيدر » المذكورة في خبر **الديلي تلغراف** وذكرت ان هناك مباحثات تجري الان بين الحكومتين الامريكية والكويتية لشراء ١٦ طائرة فانتوم .

وكانت الحكومة الامريكية قد عرضت على الكويت « كروسيدر » وبعثت طائرة من هذا النوع الى الكويت لاجراء عروض جوية امام المسؤولين. بيد ان الحكومة الكويتية رفضت هذا العرض واصرت على ضرورة الحصول على الفانتوم ، وهددت بشراء طائرات فرنسية « ميراج » او بريطانية ـ فرنسية « جاغوار » اذا ما اصرت واشنطن على موقفها (الكويت تايمز ٧٣/٦/١١). والموقف الكويتي في هذا المجال صحيح الى ابعد حد ، فطائرة « كروسيدر » المعروضة طائرة معدة أصلا لدعم العمليات البحرية وعمليات المشاة البحرية ، وهي اضعف من الفانتوم بالنسبة للسرعة (كروسيدر = ١٤٧ ماك ، فانتوم = ٢،٢٧ ماك) ، ومدى العمل (كروسيدر = ٩٦٥ كم ، فانتوم = ١٦٠٠ كم) ، والحمولة الحربية (كروسيدر = ٢٢٧٠ كغ ، فانتوم = ٧٢٦٠ كغ) كما انها اضعف في مجالات المناورة واجهزة التصويب والملاحة ... الخ . ويمكن القول ان « كروسيدر » التي كانت من طائرات الستينات غدت اليوم طائرة من الصف الثاني بالمقارنة مع الفانتوم والميراج والميغ ٢١ وهي الطائرات المطورة حاليا والتي ستصبح خلال سنتين او ثلاث سنوات من طائرات الصف الثاني بالنسبة لطائرات النصف الثاني من السبعينات مثل ميغ ٢٥ وميغ ٢٣ ، وسوخوي ١١ ، وف ١٥ ، والتومكات ف ١٤ ـ آ ، وميراج ج ـ ٨ ، ونورثروب كوبرا ... الخ . ويكشف عرض « كروسيدر » من قبل الامريكيين على ان المخططين في البنتاغون يريدونها طائرة « خليجية » لا « شرق اوسطية » لان مدى عملها ٩٦٥ كم الذي يسمح لها بالعمل ضد اهداف

ايرانية وعراقية وبحرينية وقطرية ... الخ لا يسمح لها بالعمل ضد اهداف اسرائيلية الا اذا انتقلت الى مطارات عراقية او سورية او اردنية وهذه مسألة سياسية اخرى تدخل فيها كثير من العوامل الدولية والعربية .

ولم تقتصر انباء صفقات الاسلحة الغربية على السعودية والكويت بل شملت امارات الخليج التي قيل ان فيها بعثات عسكرية امريكية وفرنسية وبريطانية تحاول طرح عروض لبيع مجموعة من الاسلحة الجوية والبرية والبحرية . ولقد اعلنت الولايات المتحدة انها وافقت « من حيث المبدأ » على بيع نفاثات سرعتها سرعة الصوت الى السعودية مع احتمال بيع طائرات مماثلة الى الكويت ايضا « وأن الصفقة ستتضمن المثال الذي لا يضارع للقوة الضاربة في الشرق الاوسط ، اي المقاتلة القاذفة فانتوم ف ـ ٤ » (نيوزويك ١٩٧٣/٦/١٨) .

ومع ظهور هذه الانباء تحرك الاسرائيليون سياسيا ودبلوماسيا واعلنوا عن قلقهم ازاء احتمالات تدعيم القوات العربية . فلقد اذاعت محطة الاذاعة الاسرائيلية بأن تل ابيب تنظر بقلق بالغ الى احتمالات تبدل سياسة فرنسا في المنطقة خاصة وان حظر الاسلحة الذي فرضه ديغول في عام ١٩٦٧ يضع العراقيل امام الافاق السياسية الفرنسية الجديدة في الشرق الاوسط . واشارت الى ان اكثر ما يشغل بال الساسة الاسرائيليين هو ان « الرئيس بومبيدو قرر قبل الانتخابات وجوب التخلص من الحظر » « وان في الجمعية الوطنية الفرنسية [البرلمان] اغلبية ديغولية ـ شيوعية تبارك سياسة التأييد للعرب » (نشرة رصد اذاعة اسرائيل (ر . ا . ا .) عدد ٢٢١) .

وفي بيان حول السياسة الخارجية اعرب ابا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية امام الكنيست في جلسة ٧٣/٥/٢٨ عن قلقه من الطلبات التي قدمتها المملكة العربية السعودية والكويت الى الولايات المتحدة لشراء اسلحة حديثة وقال : « ان من الضروري بالنسبة لاسرائيل ان تحصل على منفذ أكيد على البحر الاحمر ، وان يتحقق توازن معقول في امن الخليج الفارسي [العربي] . واذا كانت الدول العربية منقسمة على نفسها فيما يتعلق بخط السياسة الداخلية والعالمية الذي تتبعه ، فانها متحدة على العكس اتحادا كاملا في عدائها ضد اسرائيل . » ... « ان حادثة طائرات الميراج الفرنسية المسلمة الى ليبيا والتي نقلت الى مصر* . وحادثة الطائرات الانكليزية الصنع المسلمة الى العراق والسعودية والموجودة أيضا في مصر ، تؤكدان انه يوجد بالنسبة للمعدات العسكرية نوع من « السوق المشتركة » بين البلدان العربية » (لوموند ١٩٧٣/٥/٣٠) .

وذكرت الدوائر السياسية في القدس (٥/٢٩) أن اسرائيل ستطلب من الولايات المتحدة ضمانات قاطعة بأن الكميات الضخمة من الاسلحة التي سيزودون بها السعودية والكويت لن تستخدم ضد اسرائيل . وفي ٥/٣٠ كشف النقاب في تل ابيب عن ان اسرائيل ستتقدم بطلبات جديدة للحصول على أسلحة من الولايات المتحدة في أعقاب صفقة الاسلحة الامريكية مع السعودية والكويت . وانها ستطالب بالتعجيل بتسليم الاسلحة المتعاقد عليها. وقدرت صحيفة هآرتس نقلا عن مصادر عليا في تل ابيب ان قيمة صفقة المملكة العربية السعودية تصل الى ٦٢٥ مليون دولار، وان صفقة الكويت تبلغ ٥٠٠ مليون دولار. واشارت الى ان اسرائيل فهمت ان تزود الولايات المتحدة هاتين الدولتين « الخليجيتين » بالاسلحة لمواجهة النفوذ السوفياتي المتزايد في المنطقة الا انها ستطالب بضمانات مقنعة بأن هذه الاسلحة لن تستخدم ضدها (الديلي ستار ٧٣/٥/٣١) .

وابلغ السفير الاسرائيلي في واشنطن سيمحا دينتس قلق حكومته الى سيسكو في ٢٤ و٢٩ ايار والى مستشار الرئيس الامريكي هنري كيسنغر في ٢ حزيران . ولم يقتصر الامر على ذلك بل وصل الى حد قيام ابا ايبان في ٧٣/٥/٣١ بشجب سياسة الولايات المتحدة لموافقتها على تزويد السعودية والكويت بأسلحة متطورة وقال « ان مثل هذه الشحنات من الاسلحة ستؤثر على ميزان القوى في المنطقة » (المحرر ٧٣/٥/١) .

ولقد تركزت ردود الفعل الاسرائيلية على عدة نقاط هي : موازين القوى ، والامن ، واحتمالات انتقال هذه الاسلحة الى طرف ثالث (مصر او الاردن) ، وهي نقاط مترابطة ببعضها . اذ أن أمن اسرائيل مرتبط بتفوقها وميل موازين القوى

---

* انظر القضية الفلسطينية عسكريا ـ شهريات العدد ٢٢ من مجلة شؤون فلسطينية .

لصالحها ، كما أن انتقال الاسلحة لطرف ثالث من دول المجابهة قد يبدل الموازين لصالح **القوى العربية الفعالة** في النزاع .

وكان رد الفعل الاسرائيلي من نوع الانذار بالخطر فلقد حذر موشى دايان وزير الدفاع الاسرائيلي من الخطر بقوله « خلال بضع سنوات سيكون حولنا بنيات عسكرية مختلفة ومحسنة » ثم أضاف « ان العرب سيتسلحون بأسلحة جديدة ممتازة من الشرق والغرب » (نيوزويك ٧٣/٦/١٨) . وفي ٥/٢١ ذكر اسحاق رابين امام مجلس اعضاء «ايحود هكيبوتسوت فهكيبوتسيم» في حزب العمل : « كل سلاح يرسل الى الدول العربية يحمل معه القلق بالنسبة لاسرائيل » (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٣٨) ثم اكد على النقاط التالية : ١ ــ ان تزويد العرب بالسلاح مرتبط بأزمة الطاقة ورغبة واشنطن في تعزيز علاقاتها مع الدول المنتجة للنفط ، ٢ ــ ان للامريكيين في المنطقة مصالح قد تتعارض مع مصالح اسرائيل ، ٣ ــ الخوف من انتقال الاسلحة من السعودية والكويت الى الدول العربية الاخرى حتى لو كانت شروط البيع تمنع ذلك ، ٤ ــ ضرورة اليقظة تجاه هذا الموضوع .

ولقد ساد في اسرائيل راي يقول بأن حصول السعودية على طائرات الفانتوم يدفع الى اعادة النظر في مفهوم حدود الامن ، ويجعل من الضروري ــ حسب تعبير آرييه مايكل ــ « التمسك بمناطق معينة في سيناء خاصة تلك المناطق المحاذية للسعودية » (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٣٨) . ولقد ربط آلون مسألة الامن بمسألة التسليح عندما قال في لقاء مع الطلاب في كريات أونو بتاريخ ٥/٣١ « من الواضح جدا أنه اذا وصلت فعلا طائرات من هذا النوع [فانتوم] الى السلاح الجوي السعودي فسوف تزداد قوة الطيران لدى القوات السعودية على الاقل . ان اسرائيل بحاجة الى حدود قابلة للدفاع الذاتي أي يمكن ان ندافع عنها بقوانا الذاتية في جميع الاتجاهات . ولكن عندما نتحدث عن الحدود الشرقية ينبغي ان نذكر انها لا تفصل بيننا وبين الاردن فحسب ، وانما تفصل في الواقع بيننا وبين قارة كبيرة تمتد الى الخليج الفارسي [العربي] والمحيط الهندي . لذلك طالبت دائما وأطالب اليوم كذلك بأن يشكل نهر الاردن ، والبحر الميت ، وغور الاردن ، وسفوح الجبال غربي الغور الحدود الآمنة لاسرائيل في نطاق تسوية سلمية او في حالة اقرار السلام . واذا كانت هنالك حاجة لاثبات أهمية هذه الحدود فان التطورات الاخيرة تثبت حقيقة هذا الراي الاستراتيجي » (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٣٨) . وأكد العميد الاحتياطي شلومو لاهط ان الاسلحة الجديدة تتطلب « تبديل وجهة النظر حيال الحدود الآمنة » (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٣٨) . أما العميد الاحتياطي شلومو هرائيل فيأمل ان تكون وجهة نظر الحكومة بالنسبة لمسالة الامن هي : « الاحتفاظ بسيناء وأن تكون لاسرائيل اكبر قوة في البحر الاحمر » (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٣٨) . وعكست اجهزة الاعلام الاسرائيلية تخوفها من وصول الاسلحة الجديدة الى العرب واحتمال انتقالها الى دول المواجهة وانقلاب موازين القوى بشكل يشجع زعماء العرب على تحطيم حالة اللاحرب واللاسلم ، والاندفاع بعمل عسكري يبدل الوضع الراهن الذي يضمنه التفوق العسكري الاسرائيلي بفضل الدعم الامريكي المطلق . فكتبت **دافار** ان الولايات المتحدة تبرر صفقات الاسلحة بمقتضيات الصراع للسيطرة على منطقة الخليج ولكن بما ان هاتين الدولتين تشكلان جزءا من الجبهة العربية المقاتلة ضد اسرائيل « فان هناك خطرا من ان يتم نقل جزء من الاسلحة الى مصر . ومن واجب الولايات المتحدة التي تعهدت بالحفاظ على ميزان القوى في المنطقة ان تضمن عدم المس بهذا الميزان عن طريق صفقات الاسلحة مع السعودية والكويت » (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٣٤) . وذكرت **هاتسوفيه** « بأن هنالك خطرا من اختلال ميزان التسلح في المنطقة بسبب صفقات الاسلحة ... وتجدر مطالبة الولايات المتحدة بأن تدخل بندا على اتفاقات بيع الاسلحة لدول النفط يمنعها من نقل الاسلحة الى الدول المشتركة في حرب مع اسرائيل » (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٣٤) ورأت **أومر** ان على الولايات المتحدة بيع الاسلحة الى ايران فقط، أما اذا ما باعت السلاح الى السعودية والكويت فان على اسرائيل « ان تطلب الحصول على مزيد من الاسلحة لكي لا يتم الاخلال بميزان القوى » (ر. ا. ا. ملحق عدد ٢٣٤) . وناقشت صحيفة **معاريف** مسألة بيع الاسلحة الحديثة المتطورة الى السعودية والكويت وذكرت ان « الموضوع الذي يقلق اسرائيل ليس فقط كمية الاسلحة ولكن بصورة خاصة نوعيتها وطرازها » ... « ومن شأن تدفق الاسلحة

الامريكية في المدى البعيد ان يزعزع ميزان القوى الحساس في المنطقة ويتسبب باشتعال المنطقة من جديد » (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٢٧) . أما آرييه مايكل مراسل الاذاعة الاسرائيلية فيقول بأن « سبب القلق هو حجم هذه الصفقة . فالانطباع يسود بأن هاتين الدولتين ستشتريان اسلحة بكميات تفيض عن قدرتها على الاستيعاب. وتتخوف الاوساط القلقة من أن جزءا من هذه الاسلحة سيصل الى أيد لا نرغب في وصوله اليها . أي الى أيدي مصر » (ر. ا. ا. عدد ٢٣١) .

وفي حديث اذاعي أجراه دوف ينون معلق الاذاعة الاسرائيلية للشؤون العربية ، مع العميدين الاحتياطيين شلومو لاهط وشلومو هرائيل ، قال دوف ينون بأن السعودية والكويت بحاجة لتدعيم قواهما العسكرية لمجابهة الدول العربية العسكرية المؤيدة للشيوعيين « وهي العراق ، واليمن الجنوبي ، والجبهة الشعبية لتحرير عمان » ولكنه يبدي قلقه من حصول هذين البلدين على أسلحة « متحركة جدا من الناحية الاستراتيجية » . أما العميد الاحتياطي شلومو لاهط فهو يؤيد حصول السعودية والكويت على أسلحة « من اجل الدفاع الذاتي » اي من النوع « الذي لا يشكل خطرا على اسرائيل » وينظر بعين القلق الى حصولهما على طائرات الفانتوم . ويرى العميد الاحتياطي شلومو هرائيل ان حصول السعودية على سفن حربية قد يؤثر على مشكلة الملاحة في البحر الاحمر ، وهي مشكلة قائمة أصلا بسبب وجود الاسطول المصري . (ر. ا. ا. ملحق العدد ٢٣٨) .

وكان الرد الامريكي لتهدئة قلق الاسرائيليين مبنيا على أربع نقاط هي : ١ ــ قلة عدد طائرات الفانتوم (الضاربة) التي يمكن ان تسلم للدولتين العربيتين وعدم قدرة هذا العدد الصغير على تبديل موازين القوى ، ٢ ــ ارفاق الصفقات بشروط تضمن عدم نقل الاسلحة الى دولة ثالثة ، ٣ ــ عدم احتمال التسليم الفوري وتوقع مرور أكثر من سنتين قبل بدء التسليم ، ٤ ــ ضرورة تدعيم قوة دول الخليج لمجابهة التغلغل الشيوعي وتهديدات الدول التقدمية التي تتلقى اسلحة سوفييتية . علما بأن دول الخليج غنية جدا من جراء دخلها من النفط ، ولكنها ضعيفة عسكريا بشكل يعرضها للغزو أو الاستغلال .

ففي منتصف ايار اعلن ناطق باسم وزارة الخارجية الامريكية ما يلي : « بعد ان انهت بريطانيا دور الحماية في المنطقة [الخليج العربي] أصبحت دول الخليج تتحمل مسؤولية اكبر بالنسبة لامنها » ... « ان سياستنا تقوم على مساعدة تلك الدول عن طريق بيعها كميات معقولة من المعدات العسكرية » . وفي ٧٣/٦/١ قال ناطق بلسان وزارة الخارجية الامريكية ان بلاده « لن تقوم ببيع اسلحة الى الدول العربية في منطقة الخليج الا بما لا يتناقض مع أمن اسرائيل » ... « ان اية معدات عسكرية تبيعها الولايات المتحدة الى اية دولة سترفق بشروط تتضمن عدم نقلها الى دولة ثالثة » (النهار ٧٣/٦/٢) . ثم تحدث عن قلق اسرائيل بقوله : « لسنا على علم باية شكاوى معينة غير اننا على علم بقلق اسرائيل . ومن الواضح اننا لن نعقد صفقات قد تخرج أمن اسرائيل » (المحرر ٧٣/٦/٢) . وكانت صحيفة **هآرتس** قد كشفت في ٧٣/٥/٢٩ بأن الدبلوماسيين الامريكيين اكدوا بأن الهدف من صفقات الاسلحة للسعودية والكويت هو حماية هذين البلدين من الخطر السوفييتي « ان زيادة النفوذ السوفييتي يشكل خطرا على امارات البترول ، ولهذا تسرع الولايات المتحدة في تقويتها » .

وعندما اجتمع مساعد وزير الخارجية الامريكية لشؤون الشرق الاوسط جوزيف سيسكو مع سفير اسرائيل في واشنطن سيمحا دينتس اوضح له ان شحنات الاسلحة الامريكية الى الكويت « جزء من سياسة الحد من التدخل السوفييتي في الخليج » (ر. ا. ا. عدد ٢٣١) .

وفي ٧٣/٦/٥ حصلت اسرائيل على الضمانات التي تبحث عنها عندما اكد وزير الخارجية الامريكية وليم روجرز امام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ « على ضرورة حماية الحكومات الصديقة في منطقة الخليج ودعمها» (لوربان لوجور ٧٣/٦/٦) . ثم اكد ان طائرات الفانتوم « لن تؤثر على ميزان القوى العسكري في الشرق الاوسط » وانه لا يعتقد بأن هذه الطائرات « ستنتقل لاستخدامها من قبل الاقطار العربية المشتركة في نزاع الشرق الاوسط » (ديلي ستار ٧٣/٦/٦) .

ولقد قبلت اسرائيل هذه التبريرات والتطمينات واعتبرتها ضمانة كافية لامنها رغم بعض الاختلافات

الجزئية حول عدد من وجهات النظر الخاصة بالامن. ويقول المحرر السياسي لصحيفة يديعوت احرونوت (٥/٢٩) ان اسرائيل لن تقف ضد قيام الولايات المتحدة بعقد هذه الصفقات ، وانها تتفهم سياسة الولايات المتحدة وزيادة نشاطاتها في المنطقة « وان الحجة الامريكية عن الخطر السوفييتي في الخليج الفارسي [العربي] مقبولة في القدس» .وتشير بعض المصادر الاسرائيلية الى « انها غير مذعورة » من صفقة الاسلحة وان بامكانها ان تفهم رغبة الولايات المتحدة « بضمان أمن الخليج » ومحاولة ايجاد توازن مع شحنات الاسلحة السوفييتية التي ترسل الى دول عربية على خصام مع السعودية والكويت وايران . وانه « لا يوجد تناقض اساسي » بين الموقفين الامريكي والاسرائيلي بالنسبة لمسألة امن الخليج واستقراره . وان الخلاف يدور حول « اعتبار طائرة الفانتوم القاذفة المقاتلة الوسيلة الصالحة للحصول على الامن المنشود » (المحرر ٧٣/٦/٦) .

والان ، وبعد طرح معطيات المسألة كلها ، لا بد لنا من تقييم هذه الصفقات وتحديد بواعثها ، واهميتها ، واثرها المقبل ، والملابسات الدولية التي سترافقها .

البواعث : ان جميع المعلومات المتوفرة لدينا تؤكد ان الدافع الكامن وراء هذه الصفقات هو رغبة الولايات المتحدة الامريكية في ايجاد أسواق لاسلحتها المكدسة بعد انتهاء الحرب الفيتنامية ومحاولة تحريك الصناعة الحربية المهددة بالركود في السنوات المقبلة . واستخدام السلاح والذخائر كبضاعة غالية سريعة الاحتراء — بسبب الاستخدام او بسبب القدم وفقدان الاهمية — لامتصاص عائدات النفط المتزايدة ، والمدخرات المالية التي تملكها الدول البترولية والتي ستأخذ في السنوات المقبلة حجما هائلا . ويكفي ان نعرف ان عائدات النفط السعودي وحده تعادل اليوم ٢ر٧٠٠ مليار دولار وسترتفع في عام ١٩٨٠ الى ٢٥ر٦٠٠ مليار دولار . وان رؤوس الاموال السعودية المتراكمة المدخرة ستكون في نهاية هذا العام ٥ مليارات من الدولارات وسترتفع في عام ١٩٨٠ الى ٧٥ مليارا. وهكذا تستطيع الولايات المتحدة عن طريق « تجارة المدافع » امتصاص مدخرات الدول البترولية ، وتحريك صناعتها الحربية ، وتعديل العجز في ميزان المدفوعات الامريكي . وتذكر **الواشنطن بوست** ان ثمن صفقات الاسلحة الامريكية المنتظرة لايران والكويت والسعودية ستصل الى ٤ مليارات من الدولارات . ولا شك ان هذا المبلغ الضخم سيساعد ميزان المدفوعات الامريكي ، ويخفض العجز الكبير فيه ، وسيدعم الصناعة العسكرية الامريكية ويؤمن استمرار ازدهارها بعد احتمالات كسادها بسبب توقف الحرب الفيتنامية ، وسيزيد تاثير الولايات المتحدة وسيطرتها على ثلاث من اكبر الدول المنتجة للبترول . ولقد فضح النائب الكويتي عبدالله النيباري داخل المجلس النيابي حقيقة صفقات الاسلحة الغربية بقوله : « ان امريكا تقوم ببرامج للدول الصغيرة وخاصة في الخليج لشراء اسلحتها القديمة التي استخدمت في فيتنام . وهي اسلحة اصبحت بائرة، وذلك لتحقيق هدفين : اولا الاستمرار في انتاج البترول وزيادة معدلاته وحل أزمتها من الطاقة . ثم امتصاص الاموال التي يدفعونها لنا مقابل صادراتنا من البترول » (البلاغ ٧٣/٦/٤) . ولا أدل على عدم تناسب التسليح في البلدان النامية مع امكانات هذه البلدان من تقرير مؤسسة الابحاث الوطنية الفرنسية حول السلم والذي يشير الى « ان شراء الاسلحة من قبل البلدان النامية يزيد بسرعة تعادل ضعف سرعة زيادة انتاجها القومي العام » ويشير في هذا الصدد الى المملكة العربية السعودية واسرائيل (لوموند ٧٣/٥/٢٣) .

الوسيلة : ولتحقيق هذا الغرض في المنطقة العربية تلجأ واشنطن الى تسليح اسرائيل بشكل يجبر دول المواجهة على ايقاف مشاريعها الانمائية في سبيل التسليح، الامر الذي يبقيها في حالة تخلف اقتصادي مستمر . كما تلجأ الى استغلال العداء العربي — الايراني القديم وطموحات الامبراطورية الفارسية لتسليح ايران بشكل يجر الدول العربية البترولية الى سباق التسلح حتى لا تبقى **القوة الاضعف** في الخليج ، الامر الذي يستنزف المدخرات المالية المتراكمة . وكلنا يعرف حجم التسليح الاسرائيلي وعدم تناسبه مع حجم اسرائيل الاقتصادي والسياسي . اما حجم التسليح الايراني فيمكننا أن نأخذ صورة عنه اذا عرفنا ان قيمة الصفقات الايرانية الاخيرة وصلت الى ٢ر٥ مليار من الدولارات وشملت ١٠٨ طائرات فانتوم ، و١٠٠ طائرة ف — ١٤ ، و٧٠٠ طائرة هليكوبتر ، و٣ طائرات وقود ك س ١٣٥ ، [من الولايات

المتحدة] ، و٨٠٠ دبابة تشيفتين ، و٢٦ مركبا حربيا ، و١٤ مركبة حوامة [من بريطانيا] . (الانباء ٧٣/٥/٢٥ نقلا عن نيوزويك) .

واذا كان سبب اختيار واشنطن لاسرائيل كقوة تقف في مجابهة دول المشرق العربي المجاورة لها أمرا معروفا للجميع ، فان من الضروري تسليط الاضواء على سبب اختيارها لايران بغية مجابهة الدول العربية البترولية التقليدية الصديقة للغرب . ان ازمة الطاقة وحاجة الولايات المتحدة المتزايدة لها تجعل واشنطن تبذل اهتماما خاصا بدول الخليج. واكبر دولتين في المنطقة هما ايران والسعودية وهما اليوم من الدول السائرة في ركاب الغرب . ولكن الامريكيين يرون ان ايران « مضمونة » اكثر من السعودية او من دول الخليج الاخرى لان الدعم الامريكي المستمر لاسرائيل وعسف تل ابيب وغطرستها تخلق جوا من النقمة على امريكا داخل دول الخليج وبين اوساط الجماهير العربية في كل مكان، وتضع الحكام العرب اصدقاء الغرب فيموقف حرج متناقض مع تطلعات جماهيرهم ، وتخلق مناخا ضاغطا قد يؤدي الى انقلاب هذه الدول من دول **تقليدية** الى دول **راديكالية** معادية للاستعمار ومصالحه في المنطقة . ولهذا فان رجل الشرطي المقبل في الخليج هو ايران لا السعودية خاصة وان الحجم البشري الايراني (٣١ مليون نسمة) يتلاءم مع هذا الدور اكثر من الحجم البشري السعودي (٨ ملايين نسمة) . وايران مستعدة للعب هذا الدور ففي مقابلة مع صحيفة **لوبوان** نشر في باريس بتاريخ ٥/١٣ قال الشاه « لقد ابلغت كل الدول الكبرى انني سأهتم بالامن في هذا الجزء من العالم » . وفي حديث صحفي مع مجلة **نيوزويك** رسم شاه ايران دور بلاده في المستقبل بقوله « ليست لدينا مسؤوليات وطنية واقليمية فحسب ، بل ان لنا دورا عالميا ايضا بصفتنا الضامنين والحامين لنحو ٦٠ بالمئة من احتياطي العالم من الزيت ... ان ما نشتريه (من اسلحة) هو رادع سيصدقه جميع جيراننا » . ثم اكد موقفه العدائي لحركة التحرر العربي ورغبته في حراسة المصالح النفطية الغربية من ضربات هذه الحركة فقال ردا على سؤال حول الاخطار الرئيسية التي يمكن ان تهدد امدادات النفط للغرب في المستقبل : « هناك احتمال ان يطاح ببعض الانظمة الواقعة على الجانب الاخر من الخليج نتيجة للاعمال التي يقوم بها المتطرفون المخربون الان . خذ ثورة ظفار في عمان مثلا ، وحاول ان تتصور ماذا سنجابه في حالة نجاحها » . وعندما سئل عن الدور الذي يمكن ان يلعبه اذا ما استؤنف القتال بين العرب واسرائيل وأدى ذلك الى انقطاع وصول النفط الى الغرب اجاب : « باستطاعتي أن أؤكد ان الطرق والممرات البحرية ستظل مفتوحة » (نيوزويك ٧٣/٥/٢١) .

التنافس الامريكي — الفرنسي : تشير الانباء الواردة من مصادر غربية متعددة الى ان المملكة العربية السعودية والكويت لا تزالان تبحثان احتمالات شراء الاسلحة من فرنسا رغم الموافقة الامريكية « المبدئية » على بيعهما اسلحة متطورة. وتذكر هذه الانباء ان هناك ضغوطا مصرية على السعودية لشراء ميراج — ٥ او ميراج ف — ١ التي تعتبر نسخة متطورة من ميراج — ٣ بدل الفانتوم (انترناشونال هيرالد تريبيون ٩ — ١٠/ ٧٣/٦) . وليس هناك تأكيدات عربية قاطعة بهذا الصدد . ولكن الموقف الامريكي المتحيز في الخليج، وفي شرق البحر الابيض المتوسط يجعل من الطبيعي توجه بعض الدول العربية الى فرنسا لتعزيز قدرتها العسكرية . وكل توجه عربي الى فرنسا يعني ضغطا سياسيا جديدا على واشنطن ، واستغلالا للتناقضات الجزئية — التي قد لا تبقى جزئية — داخل المعسكر الرأسمالي مع محاولة الافادة من هذه التناقضات في الصراع ضد اسرائيل حاليا ، وايران مستقبلا .

وبالاضافة الى الضغط الموجه الى واشنطن فان الاتجاه نحو السلاح الفرنسي يقدم للدول العربية — غير الراغبة في شراء اسلحة سوفييتية — اكثر من ميزة : ١ — فهو يؤكد على الصعيد السياسي العالمي وبشكل ملموس « ان عداءنا يضر وان صداقتنا تنفع » وهو مبدأ طالما تحدث عنه العرب دون ان يطبقوه — ان لم يطبقوا بالفعل عكسه (تزايد الاستثمارات الامريكية في البلدان العربية وتزايد حجم المبادلات التجارية الامريكية — العربية بعد حرب ١٩٦٧) . ويمكننا ان نتصور المدى الحسن الذي ستلاقيه صفقة اسلحة سعودية ضخمة من فرنسا وانعكاس ذلك على القوى الفرنسية المؤيدة للعرب داخل فرنسا اذا عرفنا ان في ميزان المدفوعات الفرنسي — السعودي عدم تناسب صارخ بين الصادرات والواردات . اذ يبلغ حجم واردات فرنسا من السعودية ٦٩٢ مليون

ريال*، على حين تعادل صادراتها الى السعودية ٨٢ مليون ريال فقط ، ٢ — ان شراء طائرات ميراج مثلا بدلا من طائرات الفانتوم سيساعد في المستقبل على توحيد عمل وخدمات وادارة الطيرانين السعودي والليبي ، ويخفض الصعوبات التقنية المنتظرة ، وينقص الى حد بعيد مدة اعداد الطيارين السعوديين بعد ان يقدم لهم خبرة الطيارين الليبيين والمصريين الذين تدربوا على الميراج منذ اكثر من سنتين ، ٣ — ان صفقة اسلحة ضخمة قد تدفع الفرنسيين الى الغاء قيود الحظر ، وهذا أمر قابل اليوم للنقاش في فرنسا . واحتمالات نجاح الضغط على فرنسا لالغاء القيود والتحديدات الخاصة بالنقل الى طرف ثالث او بالنسبة للاستخدام في الصراع العربي — الاسرائيلي اكبر من احتمالات نجاح الضغط على الولايات المتحدة التي ترتبط أمن المنطقة واستقرارها بفكرة «خلق اسرائيل اقوى». ويمكن تليين الموقف الفرنسي بالنسبة للتحديدات اذا عرفنا كيف نستفيد من التنافس الدولي القائم اليوم بين الدول المنتجة للاسلحة والذي يعتبر جزءا من التنافس داخل المعسكر الرأسمالي ، وبصورة أدق تعبيرا عن التنافس بين الرأسمالية الاوروبية والرأسمالية الامريكية .

ويأخذ التنافس الدولي احد اشكاله في حقل بيع الطائرات (العسكرية والمدنية) ، وتشترك فيه عدة دول وعلى رأسها الولايات المتحدة ، وفرنسا، وانكلترا ، والسويد . وكانت الولايات المتحدة بعيدة نسبيا عن هذا التنافس منذ عام ١٩٦٢ حتى عام ١٩٧٠ نظرا لضخامة تكاليف طائراتها . ولكنها عادت الى حقل المنافسة في عام ١٩٧٠ كما يقول الجنرال بيار غالوا المستشار العسكري لشركة مارسيل داسو الذي اكد « ان التنافس سيتخذ طابعا شديد الضراوة بين الدول المنتجة للسلاح ». خاصة بعد أن بدأت الولايات المتحدة انتاج طائرات لاستخدام الطيارين غير الامريكيين و« انتهاء حرب فيتنام الذي ادى الى تحرير عشرات الالوف من الطائرات الامريكية وطائرات الهليكوبتر التي ستعرض للبيع في الاسواق العالمية حتما ، والا تحولت الى حديد خردة في الترسانات الامريكية » (المحرر ٧٣/٥/١ عن نيوزويك) .

ولقد اشارت **هيرالد تريبيون** الى ان واشنطن اتخذت — تحت ضغط عوامل سياسية وعسكرية واقتصادية — قرارا بالتنافس الحاد مع فرنسا وغيرها من الاقطار في بيع السلاح للدول النامية خاصة وان العسكريين يلعبون دورا حاسما في سياسات هذه الدول . ومن مصلحة الولايات المتحدة التأثير على صانعي السياسة ومخططيها في هذه الدول عن طريق جعل الولايات المتحدة المصدر الرئيسي لتسلحها . (المحرر ٧٣/٥/١٢). ومن المؤكد ان التنافس سيأخذ شكلا شبه وحشي بسبب وجود مخلفات حرب فيتنام ، وحاجة صناعة السلاح الامريكية الضخمة لاسواق مستمرة سواء عن طريق بيع الاسلحة الى مناطق التوتر في العالم مع الحفاظ على موازين قوى محسوبة تؤمن مصالحها ، او عن طريق اثارة حروب محلية محدودة — عن طريق شخص ثالث — شريطة ضبط حدودها ضمن اطار اقليمي ، وعدم تصعيدها الى مستوى المجابهة المباشرة بين العمالقة .

أهمية الصفقات : لا يمكن تقييم اية صفقة اسلحة تعقدها الدول العربية [التي تخطط استراتيجيتها على اساس المجابهة التقليدية] وتدفع ثمن سلاحها من عرق الجماهير العربية ودمائها وعلى حساب رفاهيتها الا اذا كانت هذه الاسلحة قادرة على المشاركة في المعركة المصيرية ضد اسرائيل — عدو العرب الاول — وهذا يعني ان من الضروري ان يكون هذا السلاح : ١ — **حديثا** قادرا على مواجهة اسلحة اسرائيل المتطورة ، ٢ — **بعيد المدى** حتى تستطيع الدول العربية توزيع قواعدها على اوسع رقعة والاستفادة من مجالها الاستراتيجي الواسع مع القدرة على ضرب العدو من القواعد البعيدة ، ٣ — **لا يخضع لحدود النقل والاعارة والبيع** الى طرف ثالث حتى تستطيع الدول العربية البترولية الغنية تدعيم ترسانات دول المواجهة التي شاء قدرها ان تكون من اضعف شقيقاتها العربية اقتصاديا ، وجاء الوجود الاسرائيلي الى جوارها وما يفرضه من مصروفات تسليح ليزيد من بؤسها الاقتصادي ، ٤ — **ان لا يخضع لشروط الاستخدام** حتى تتمكن الدول العربية من استخدامه بحرية تامة ضد عدوها الاول اسرائيل ، ٥ — ان يكون **متلائما**

* ان الواردات الفرنسية من السعودية عبارة عن مواد بترولية اساسا رغم ان البترول السعودي لا يشكل سوى ٢٠ — ٢٥ ٪ من واردات فرنسا البترولية .

مع الاستراتيجية البرية والجوية والبحرية التي تتبناها الدولة المشترية ، ومع دورها العسكري ضمن خطة التحرير العربية الشاملة ، ٦ — ان يرافقه بالضرورة **اعداد كوادر** تقنية رفيعة المستوى قادرة على صيانته واستخدامه بفاعلية قصوى ، ٧ — **ان لا تخضع قطع الغيار** والذخائر المتطورة لاي تحديد مرتبط بالصراع العربي — الاسرائيلي ، ٨ — ان يكون في الدول العربية المشترية او اية دولة عربية اخرى (الافضل ان تكون مجاورة) مصانع لصنع الذخائر العادية وقطع الغيار اللازمة ، ٩ — ان **تحقق التفوق** في مسرح العمليات المتوقع ، ١٠ — ان يكون **تسليمها سريعا** بحيث يتم التدريب عليها ووضعها في الخدمة قبل زوال قيمتها **بمرور الزمن** وظهور اسلحة احدث تفوقها وتجعلها من اسلحة الصف الثاني . وكل سلاح لا يتوفر فيه شرط او اكثر من هذه الشروط سيكون عبئا على **اقتصاد** البلاد دون ان يكون له اي تأثير في اي صراع مقبل .

فاذا ما حللنا المعلومات المتوفرة لدينا تبين لنا ان الاسلحة الحديثة بعيدة المدى التي تود الولايات المتحدة بيعها محدودة العدد [٢٤ — ٣٠ طائرة فانتوم للسعودية و١٥ — ٢٠ طائرة للكويت] . وهذا العدد المحدود عاجز عن تبديل موازين القوى مع اسرائيل او مع ايران التي تملك حاليا سربين من المقاتلات القاذفة فانتوم ف — ٤ و٦ اسراب مقاتلة قاذفة اخرى Military Balance 1972 - 1973. بالاضافة الى الطائرات المطلوبة بالصفقة الجديدة. كما ان السفن الحربية الـ ١٩ المطلوبة قديمة ولا تستطيع مجابهة الاسطول البحري الايراني القوي الذي يملك الان مدمرة ، وفرقاطتين ، و٤ سفن حربية ، و٢٤ زورق دورية ، و٤ كاسحات الغام ، وكاسحتي الغام للشواطىء الداخلية ، و٤ سفن انزال ، و٨ زوارق اقل من ١٠٠ طن . Military Balance 1972 - 1973. ولن نتحدث هنا عن الدبابات والمدفعية والاسلحة البرية الاخرى رغم تفوق ايران الساحق بها بالنسبة لجيوش دول الخليج ، وذلك لاننا نتصور ان اي صدام بين الدول الخليجية (باستثناء الصدام الايراني — العراقي ، او العراقي — الكويتي) سيكون بالاساس صداما بحريا جويا ، مع عمليات **انزال جوية وبحرية** .

وتشير تعليقات المسؤولين الامريكيين انه سيكون من المتعذر نقل هذه الاسلحة الى طرف ثالث (دول المجابهة) . وسيكون استخدامها خاضعا لشرط عدم زجها في الصراع العربي — الاسرائيلي، وان هذه التحديدات ستطبق على السلاح وقطع الغيار ايضا .

اما بالنسبة لسرعة التسليم فمن الواضح ان المعدات الاهم (طائرات الفانتوم) ستسلم بعد فترة طويلة من الزمن . ولن ينتهي تسليمها الا في مطلع النصف الثاني من السبعينات اي عندما ستصبح من طائرات الصف الثاني . ولقد نقلت صحيفة **لوريان لوجور** عن وكالة الصحافة الفرنسية في واشنطن بأن الولايات المتحدة ستبدأ تسليم الطائرات بعد سنتين من توقيع العقد **وبمعدل** طائرتين شهريا . وهكذا فان المملكة العربية السعودية لن تملك سربيها كاملين الا بعد ٤ سنوات من توقيع العقد [!] (لوريان لوجور ٧٣/٦/٦) . وفي ٦/١ نقلت محطة اذاعة اسرائيل على لسان موظف كبير في واشنطن « ان ارسال الطائرات الى دول الخليج الفارسي [العربي] لا يزعزع ميزان القوى في الشرق الاوسط . وانه ما زالت اسرائيل تتفوق تفوقا حاسما حتى الان . وان المصادقة على صفقة طائرات الفانتوم مع السعودية ستستغرق سنة اخرى . وقد تمر سنة اخرى او سنتان قبل البدء بتسليم الطائرات للسعودية » (ر . ا . ا . عدد ٢٣٨) . فاذا صحت كل هذه الافتراضات ، واضفنا اليها صعوبة استيعاب **الاسلحة المتطورة** في البلدان المتخلفة فهمنا ان هذه الصفقات التي سيبلغ ثمنها ١ر٠٠٠ — ١ر٥٠٠ مليار من الدولارات ستكون — اذا ما اصرت الولايات المتحدة على شروطها — مجرد عملية تجارية امريكية رابحة لا تبدل موازين القوى في صراعنا المصيري المقبل او اي صراع يتم في منطقة الخليج العربي . وتأكد لنا من جديد ان تبديل موازين القوى في اي صراع تقليدي لن يتم الا عن طريق التسليح من دول الكتلة الشرقية .

حول تعيين قائد جديد لسلاح الجو الاسرائيلي :

يعتبر تعيين الجنرال بنيامين بيليد خلفا للجنرال مردخاي هود كقائد لسلاح الطيران الاسرائيلي تبديلا من جملة التبديلات التي تجري داخل القيادات العسكرية الاسرائيلية باستمرار في سبيل اكتساب الدماء الجديدة ، ومنع التكلس في الصفوف القيادية العليا .

والجنرال بيليد (٤٧ سنة) طيار مقاتل قديم . فلقد بدأ دراسة الهندسة في التخنيون في عام ١٩٤٧ ، ثم عمل ميكانيكيا في سلاح الطيران ابان حرب ١٩٤٨ ، والتحق بعد الحرب بدورة طيران استمرت حتى كانون الثاني عام ١٩٥٠ ، وبقي طيارا في اسراب الطائرات المروحية حتى نيسان ١٩٥٢ حيث ارسل بدوره للتدريب على الطائرات النفاثة . اشترك في حرب ١٩٥٦ ، واسقط المصريون طائرته فجرح والقى بنفسه بالمظلة ، ثم انقذته طائرة مروحية اسرائيلية . اشترك في حرب ١٩٦٧ كقائد قاعدة جوية ، وشارك في وضع خطة ضرب الطيران العربي ، ثم شارك بعد ذلك في حرب الاستنزاف .

ويتمتع هذا التغيير — رغم بقائه ضمن اطار التغييرات المألوفة — بأهمية خاصة نظرا للاسباب التالية :

— يتم التغيير في فترة انتهاء مرحلة انتقال سلاح الطيران الاسرائيلي من التسليح الفرنسي (ميراج، مستير ، ... الخ) الى التسليح الامريكي (فانتوم ، سكاي هوك ... الخ) .

— يتم التغيير ضمن عناصر من الجيل نفسه لا ضمن اطار « نزع جيل حرب ١٩٤٨ الذي كان يمثله مردخاي هود لاحلال جيل مكانه أكثر شبابا واكثر عصرية » كما يقول حاتم صادق من مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية في مؤسسة الاهرام عند تحليل اسباب التغيير (السياسة اللبنانية ١٩٧٣/٥/٢٦) ... فالجنرال هود والجنرال بيليد من عمر واحد (٤٧ سنة) وتكوين عسكري متقارب، والفرق الوحيد بينهما هو ان الاول قاد سلاح الطيران مدة ٦ سنوات ، واعطى كل ما عنده ، وحقق انتصارا كبيرا يمكنه ان ينام على امجاده وان يجتر ذكرياته طوال مدة بقائه في قيادة السلاح ، على حين ان الثاني متشوق لان يثبت امكاناته ويبني مجده عن طريق تحقيق انتصارات جديدة .

— يتم التغيير في فترة نمو سلاح الطيران الاسرائيلي وزيادة مهماته ضمن اطار استراتيجية الردع التي تستغلها اسرائيل الى ابعد مدى وسط جمود اللاحرب واللاسلم .

— يتم التغيير مع بداية احتمالات حصول عدد من الدول العربية على طائرات فانتوم امريكية . واحتمالات اصطدام الطائرات الاسرائيلية [الامريكية] بطائرات سعودية او كويتية [امريكية] عندما تحاول الحكومة الاسرائيلية توسيع حدود ضرباتها الرادعة الى الاهداف البعيدة (أهداف بترولية لتأمين الشلل الاستراتيجي او اهداف في البحر الاحمر لمنع الخنق الاستراتيجي) .

— ان انتقال الجنرال هود الى منصب المسؤول عن الصناعات الحربية بعد عمله ٦ سنوات كقائد لسلاح الطيران دليل على اهتمام اسرائيل المتزايد بتطوير هذه الصناعة .

المقدم الهيثم الايوبي

« الجديد في التسليح الاسرائيلي »

اعلنت الحكومة الاسرائيلية مؤخرا عن وجود عدد من الاسلحة الجديدة العاملة في جيشها . وهي اسلحة اشترتها لاستخدامها بدون تعديلات ، أو ادخلت عليها عددا من التعديلات بعد شرائها او بعد الاستيلاء عليها في حرب ١٩٦٧ :

في مجال الدبابات

أ) الدبابة المتوسطة م ــ ٦٠ امريكية

النوع ــ دبابة ميدان رئيسية .

الوزن ــ ٥٣ طنا .

الطاقم ــ ٤ (قائد ، مدفعي ، ملقم ، سائق) .

السرعة والمدى ــ ٤٨ كم/ساعة ، ٥٠٠ كيلومتر.

التسليح ــ مدفع ١٠٥ ملم بريطاني + رشاش ٥٠٠ يمكن استخدامه ضد الطائرات + رشاش ٧،٦٢ ملم .

الذخيرة ــ ٦٣ قذيفة من مختلف الانواع .

تجتاز عقبات حتى ارتفاع ٠،٩١ متر . درجة الانحدار القصوى ٦٠ ٪ ، القدرة القصوى لقطع الخنادق ٢،٥٨ متر ، تستطيع عبور حواجز مائية عمقها ١،٢٢ متر بدون تجهيزات اضافية ، ٢،٤٠ مع تجهيزات خاصة .

معدات الرؤية الليلية ــ أجهزة أشعة تحت الحمراء للقائد والمدفعي + ضوء كشاف ابيض يمكن تركيبه في المقدمة فوق المدفع .

ب) تعديلات على الدبابات « ت ٥٤ » و« ت ٥٥ ».

ــ استبدلت مدافعها عيار ١٠٠ ملم بمدافع انكليزية عيار ١٠٥ ملم .

ــ استبدلت أجهزة التصويب والرؤية الليلية التي تعمل بالاشعة تحت الحمراء .

ج) تعديلات على الدبابة سونتوريون مارك ٥ .

ــ استبدل مدفعها عيار ٢٠ رطل بمدافع انجليزية عيار ١٠٥ ملم .

ــ استبدل محركها القديم من طراز « ميتيور » قوة ٦٥٠ حصان ، بمحرك امريكي « كونتيننتال » قوة ٧٥٠ حصان ، ويعمل بالمازوت .

ــ زودت برشاشين ٣٠٠ بدلا من الرشاش القديم ٧،٦٢ .

ــ سرعتها ٤٢ كم/ساعة على الطرقات . ١٧ كم/ساعة في الاراضي الوعرة .

ــ مداها : الاصلي ١٨٥ كم ، يقول الاسرائيليون بانه تضاعف نتيجة زيادة كمية الوقود المحمولة ، وانخفاض معدل استهلاك الوقود .

د) ناقلات جنود مدرعة M. 113 امريكية .

الوزن ــ ١٠ اطنان

الطاقم ــ ١٢ رجلا ، (قائد ، سائق ، ١١ جندي مشاة) .

السرعة على الطرقات ــ ٦٤ كم/ساعة .

التدريع ــ المنيوم .

تجتاز عقبات حتى ٠،٦١ مترا . وخنادق حتى ١،٦٧ مترا .

التسليح ــ رشاش ٥٠٠ مع ٣٠٠٠ طلقة .

المدى ــ ٣٢٠ كم (مدى M. 113 A1 ٤٨٠ كم)

هـ) عربة مدرعة حاملة جسر M. 60 امريكية .

الوزن ــ ٥٥ طن .

الطاقم ــ رجلان .

طول الجسر الذي تستطيع مده ــ ١٨ مترا .

الوقت اللازم لمده ــ دقيقتان .

ملاحظة ــ مواصفاتها العامة الاخرى شبيهة بالدبابة م ــ ٦٠ .

في مجال المدفعية

أ) المدافع M. 110 امريكية .

النوع ــ مدفع هاوتزر ذاتي الحركة .

العيار ــ ٢٠٣ ملم .

المدى ــ ١٦،٨٠٠ متر ويصل الى ٣٠،٠٠٠ متر بواسطة سبطانة مطولة وحشوة دافعة اضافية ويسمى هذا الطراز M. 110 E 2 .

الاعداد ــ ١٣ رجلا .

معدل اطلاق النار المستمر ــ طلقة كل دقيقتين .
الذخيرة ــ تحمل في شاحنة منفصلة .

سرعة ناقلته ــ ٥٤ كم/ساعة على الطرقات ــ ١٤ كم/ساعة في الاراضي الوعرة .

الشاحنة ــ M. 55 .

وزن القذيفة ــ ٩٠ كغم .

ب) المدافع M. 107 امريكية .

النوع ــ مدفع هاوتزر ذاتي الحركة .

العيار ــ ١٧٥ ملم .

المدى ــ ٣٢،٧٠٠ متر ــ اقصى مدى ــ.

الاعداد ــ ١٣ رجلا (٥ على شاحنة المدفع ١٠٧ و٨ على شاحنة مرافقة) .

الذخيرة ــ تحمل في شاحنة M. 548 منفصلة .

السرعة ــ ٥٤ كم/ساعة على الطرقات .

وزن القذيفة ــ ٦٦،٦ كغم .

ج) المدافع M. 109 امريكية .

النوع ــ مدفع هاوتزر ذاتي الحركة .

العيار ــ ١٥٥ ملم .

المدى ــ ١٤،٦٠٠ متر ، يصل الى ١٨،٢٠٠ متر بسبطانة أطول وحشوة زائدة ، ويسمى في هذه الحال M. 109 A 1

الاعداد ــ ١١ رجلا .

السرعة القصوى ــ ٥٥كم/ساعة .

ملاحظة ــ أصغر مدفع امريكي يستطيع اطلاق قذائف نووية .

د) المدافع الاسرائيلية الجديدة (تجمع في اسرائيل).

النوع ــ مدفع ذاتي الحركة ، مركب على قاعدة دبابة شيرمان .

العيار ــ ١٥٥ ملم .

المدى ــ ٢٠ كيلومترا .

الاعداد ــ ٧ رجال .

معدل اطلاق النار المستمر ــ ٣ طلقات في الدقيقة، بفضل جهاز تلقيم نصف آلي .

سرعة الناقلة ــ ٥٨ كم/ساعة على الطرقات .
الذخيرة ــ ٦٠ قذيفة .

في مجال الطيران

أ) الصاروخ « شفرير » .

النوع ــ صاروخ جو ــ جو يوجد منه نموذجان الاول يوجه بالاشعة تحت الحمراء ، والثاني بالرادار .

المدى ــ ٥ كم .

الاطوال ــ الطول ٢،٥ متر .

الوزن ــ ٩٣ كغم .

العبوة الناسفة ــ ١١ كغم .

في مجال البحرية

أ) الزورق « رشاف » .

النوع ــ زورق سريع حامل صواريخ .

الوزن ــ ٤١٥ طنا .

الطاقم ــ ٤٥ جنديا وضابطا .

السرعة ــ ٣٢ عقدة/الساعة .

المدى ــ ٢٠٠٠ كيلومتر .

التسليح ــ سبعة صواريخ سطح ــ سطح غابرئيل + مدفع عدد ٢ عيار ٧٦ ملم + اربع قاذفات قنابل اعماق + رشاشات ومدافع خفيفة.
قوة الدفع ــ ٤ محركات ديزل ، قوة المحرك الواحد ٢٦٧٠ حصان .

الاطوال ــ الطول ٥٨،١٠ متر ، العرض ٧،٦٢ متر .

ب) الزورق « دفور » .

النوع ــ زورق دورية نهري لاسناد الاقتحام ، ويمكن استخدامه في مهمات الحراسة ، والدورية في الانهار ، وكاسحة الغام .

الوزن ــ ٣٦،٢٥ طنا .

الطاقم ــ ٦ رجال .

السرعة القصوى ــ ٢٥ عقدة ، سرعة الملاحة ١٤ عقدة .

التسليح ــ مدفع عدد ١ ــ ٢ عيار ٢٠ ملم + رشاش مزدوج عيار ٥٠٠ + قاذف قنابل عيار ٤٠ ملم عدد ٢ .

ملاحظات ــ مرابض الرشاشات محمية بابراج مدرعة . موجود في البحر الميت .

هـ . ع .

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٥/١٤ — ١٩٧٣/٦/١٢

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	٥/١٧	—	يافا	تفجير	عبوات ناسفة	عدةاصابات	تدمير مطعم يرتاده ضباط وجنود العدو	—	—	—	تصريح عسكري رقم٧٣٤	٥/١٧
٢	٥/١٨	—	كفاريونا/تاتانيا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تفجير محطة لتجميع السيارات العسكرية	—	—	—	تصريح عسكري رقم٧٣٥	٥/١٨
٣	٥/١٩	١٣٠٠	اريحا	تفجير	قنابل حارقة	غيرمحدد	احداث اضرار مادية كبيرة في مركز التسويق الزراعي نتيجة لاحتراقه	—	—	—	تصريح عسكري رقم٧٣٦	٥/٢١
٤	٥/٢٤	٢٢٠٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	عدةاصابات	نسف مبنى مركز للمخابرات واصابة بنايات مجاورة باضرار	—	—	—	تصريح عسكري رقم٧٣٧	٥/٢٥
٥	٥/٢٤	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير مجمع خطوط الهاتف	—	—	—	تصريح عسكري رقم٧٣٨	٥/٢٥
٦	٥/٢٢	—	مناحيما/طبريا	تفجير	عبوات ناسفة	عدةاصابات	تدمير عدة مبان ومنشآت	—	—	—	تصريح عسكري رقم٧٣٩	٥/٢٥
٧	٥/٢٩	—	كريات حاييم/حيفا	كمين	اسلحة مختلفة	١(١)	—	—	—	—	تصريح عسكري رقم٧٤٠	٥/٣٠
٨	٦/ ١	١٢٠٣٠	بين تل ابيب والخضيرة	تفجير	عبوات ناسفة	عدةاصابات	تدمير باص تدميرا كاملا	—	—	—	تصريح عسكري رقم٧٤١	٦/ ٢
٩	٥/١٨	١٥٠٣٠	بين بيت ليد وبتاح تكفا*	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اصابة باص لنقل الجنود	—	—	—	ف. ث. عدد٤٦ ص٦	٦/ ٦

١٠ — ٥/٢٩	—	طولكرم(٢)*	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	—	—	—	اصابة مكتب العمل وتخريب شبكات التلفون واحراق مختبر لدراسة احوال البيئة والمياه	ت.ث. عدد٤٦ ص٦	٦/ ٦
١١ — ٤/١٩	٧٤٠٠	الناصرة*	تفجير	عبوات ناسفة	٣	—	—	—	تفجير مبنى سكن ضابط المخابرات «يوسف حاييم»	هـ. عدد٢٠٥ ص٥	٦/ ٩
١٢ — ٤/٢٨	١٦٤٠٠	بئر السبع*	تفجير	عبوات ناسفة	٤	—	—	—	تفجير مصنع للادوات الصحية	هـ. عدد٢٠٥ ص٥	٦/ ٩
١٣ — ٥/ ٢	—	القدس*	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	١	—	—	اصابة مبنى بنك هيو عليم	هـ. عدد٢٠٥ ص٤	٦/ ٩
١٤ — ٥/ ٧	—	تل ابيب*	تفجير	قنبلة موقوتة	غيرمحدد	—	—	—	اصابة حديقة روتشيلد باضرار	هـ. عدد٢٠٥ ص٤	٦/ ٩
١٥ — ٥/ ٧	—	طبريا*	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	—	—	—	وضعت العبوة عند بركة السباحة	هـ. عدد٢٠٥ ص٤	٦/ ٩
١٦ — ٥/١٠	—	تل ابيب*	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	—	—	—	حريق في مصنع «جنوكا» لمعلبات البويا	هـ. عدد٢٠٥ ص٤	٦/ ٩
١٧ — ٥/١٠	—	وادي اليازان/نابلس*	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد (افراد دورية)					هـ. عدد٢٠٥ ص٤٠٤	٦/ ٩
١٨ — ٥/١١	—	تل ابيب*	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	—	—	—	تدمير جزء من مصنع شركة لحوم النقانق	هـ. عدد٢٠٥ ص٤	٦/ ٩

١ — قتل رجل المخابرات الصهيوني ايستون ابو طبول وذلك امام نادي الهستدروت .

* — اخذت هذه العمليات من مصادر المقاومة وسيجري تحديد ارقام البلاغات العسكرية الصادرة عن القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية في الجدول القادم .

٢ — اعترف العدو بهذه العمليات ، راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل عدد ٢٣٦ ، تاريخ ١٩٧٣/٥/٣٠ .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٥/١٤ — ١٩٧٣/٦/١٣

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	٥/١٦	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	يزعم البيان بانه جرى ابطال مفعول العبوة	—	—	—	ن. عدد٢٢٤ ص٧	٥/١٦
٢	٥/١٧	—	يافا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اصابة مطعم باضرار	—	—	—	ن. عدد٢٢٥ ص٨	٥/١٧
٣	٥/٢١	—	طبعون/بين الناصرة وحيفا	غيرمحدد	غير محدد	—	—	تحطم طائرة عسكرية	—	—	—	ن. عدد٢٢٩ ص١	٥/٢٢
٤	٦/ ١	١٢،١٠	بين تل ابيب والخضيرة	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير باص	—	—	—	ن. عدد٢٣٩ ص١٣	٦/ ٢

تعريف بالمصطلحات الوارد ذكرها :

— تصدر التصاريح العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .
— ف. ث. : فلسطين الثورة ، مجلة اسبوعية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي في منظمة التحرير الفلسطينية .
— هـ. : الهدف ، مجلة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .
— ن. : نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

نشرة رصد اذاعة اسرائيل

باللغتين العبرية والعربية

اصدر مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية اعتبارا من ١٩٧٢/٨/١ نشرة استماع يومية للاذاعة الاسرائيلية التي تبث برامجها باللغة العبرية، واعتبارا من اول تموز١٩٧٢نشرة اسبوعية ترصد الاخبار والتعليقات التي تبثها اسرائيل باللغة العربية . وذلك بغية تزويد الجهات المعنية والمسؤولة والمختصة في البلاد العربية (العسكريون ، السياسيون ، الاعلاميون ، الصحافيون ، الاقتصاديون ، مكاتب المقاطعة ، الباحثون الخ ...) باخبار العدو ومواقف قادته واتجاهات سياسته والتطورات التي تطرأ عليه في مختلف الميادين ، واخبار المناطق المحتلة حديثا بحيث يسهل على ذوي الشان ، حين يطلعون على حقيقة ما يجري ويقال في اسرائيل ، اتخاذ الاجراءات اللازمة .

تتميز نشرة مركز الابحاث بانها تتضمن تسجيلا كاملا ودقيقا للتعليقات السياسية والندوات والمقابلات واقوال الصحف التي تبث من الاذاعة يوميا ، بالاضافة الى تسجيل جميع نشرات الاخبار . وتتميز النشرة الاسبوعية بقيمة كبيرة تكتسبها من دراسة الحرب النفسية التي توجهها اسرائيل للعرب، ولدراسة التباين بين ما تذيعه اسرائيل بالعبرية لمواطنيها وما تذيعه بالعربية للعرب الى جانب جميع الاخبار المتعلقة بعرب المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ .

وتطبع النشرة على « الاوفست » لضمان اخراجها بشكل جيد ومريح للقارىء .

يقوم المركز بتوزيع النشرة يوميا على المشتركين في بيروت . اما المشتركون خارج بيروت فترسل لهم النشرات بالبريد الجوي ، او باية وسائل اسرع .

يتوجه مركز الابحاث اليكم على أمل ان تشتركوا بنسخة أو اكثر من هذه النشرة . وبالنظر الى التكاليف الباهظة نسبيا للنشرة (الاستماع ، الترجمة ، السحب ، التوضيب ، التوزيع ، الورق وخلافه) فقد تقرر ان تكون قيمة الاشتراك خمسماية ليرة لبنانية للحكومات والمؤسسات العامة ، وثلاثماية ليرة للمؤسسات الخاصة والصحافة ، او ما يعادل ذلك بالعملات الاخرى ، يضاف اليها اجور البريد : في البلاد العربية ١١٠ ل. ل. ، في اوروبه ١٥٠ ل. ل. ، في الاميركتين ٤٠٠ ل. ل. ، وفي آسيه وافريقيه ٣٥٠ ل.ل.

ان مساهمتكم بالاشتراك باكبر عدد ممكن من النسخ هو الذي سيمكن النشرة من الصدور والاستمرار والنمو (خاصة واننا ننوي أن نبدا بعد فترة وجيزة بنقل البرامج الاذاعية الاسرائيلية التي تبث باللغات الانكليزية والفرنسية) .

ترسل الاشتراكات الى :

مركز الابحاث ، نشرة الاستماع

ص. ب ١٦٩١ ، بيروت .

اليوميات الفلسطينية

أول وأدق سجل علمي شامل للقضية الفلسطينية

في تطوراتها وأحداثهـا واخبارهـا

مـدة سبع سنـوات

(من ١٩٦٥/١/١ الى ١٩٧١/١٢/٣١)

اربعة عشر جزءا كل جزء يغطي نصف عـام

٨٠٠٠ صفحة من القطع الكبـير

سعر المجموعة ١٦٠ ل. ل.

(عدا اجور البريد)

اطلبها من قسم التوزيع في مركز الابحاث ـ م. ت. ف.

ص. ب ١٦٩١ ـ بيروت

صدر حديثا عن مركز الابحاث

النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه

١٩٠٨ — ١٩١٨

بقلم

الدكتورة خيرية قاسمية

والكتاب عبارة عن اطروحة نالت عليها الكاتبة درجة دكتوراه . وينشرها مركز الابحاث ليلقي الضوء على النشاط الصهيوني بالتفصيل وردود الفعل العربية عامة والفلسطينية بشكل خاص على هذا النشاط ، في اوسع وأدق التفاصيل حول الموضوع . والكتاب يتضمن مجموعة ضخمة من الوثائق المتعلقة بالموضوع تنشر لاول مرة .

اطلبه من مركز الابحاث — قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

سعر النسخة ٨ ليرات لبنانية

تضاف اليها اجور البريد : ١٠٠ ق. ل. في العالم العربي

٢٥٠ ق. ل. في اوروبة ، ٥٠٠ ق. ل. في سائر الدول .

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب بالانجليزية بعنوان

THE LEGAL STATUTS OF ISRAELI - ZIONIST FUNDRAISING IN THE U.S.A. : A LAWSUIT

بقلم

عابدين جبـــارة

والكتاب مرافعة قضائية اعدها الكاتب ضـــد سكرتارية وزارة المـــالية الاميركية وجهات حكومية اخرى لاعفائها الوكالة اليهودية مـــن ضرائب الدخل وموضحا فيها الطبيعة الاستيطانية ــ الاستعمارية التي تنفذهـــا اسرائيل والوكالة اليهودية من هذه الاموال المجباة .

اطلب نسختك من قسم التوزيع في مركز الابحاث ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت

سعر النسخة ٢ ل.ل يضاف اليها اجور البريد : ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ١٠٠ ق. ل. فـي اوروبـا ، ٢٥٠ ق. ل. فـي سـائر الـدول .

مسابقة في القصة

١) تدعو دار الطفل العربي الكتاب والقصاصين العرب الى المساهمة في مشروع مكتبة الطفل العربي . وتتألف هذه المكتبة من قصص تناسب العمر ما بين ٧ ــ ١٤ سنة . ويراعى في القصص ان تكون ايجابية هادفة تصور حقيقة الصراع العربي ــ الصهيوني ، وتمثل النضال ضد الاستسلام ، وتغذي روح المقاومة العربية ضد الاحتلال والاستعمار .

٢) تخصص الدار للقصة الواحدة مكافأة مالية تتراوح بين ٥٠ ــ ٢٠٠ ل.ل على الا يقل عدد كلمات القصة عن ٥٠٠ كلمة ولا تزيد على ثلاثة الاف كلمة .

٣) يراعى في تقدير الجائزة التزام القصة بالمبادىء التي ورد ذكرها في البند الاول ، ويؤخذ ايضا حجمها بعين الاعتبار .

٤) تصبح القصة بعد اختيارها ملكا لدار الطفل العربي ويحق للدار ان تجري فيها التعديلات ما تراه مناسبا، دون الرجوع الى كاتب القصة.

٥) يستطيع الكاتب ان يتقدم بقصة واحدة او بعدد من القصص .

٦) تتقبل الدار القصص المقدمة اليها حتى اخر شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٧٣ .

٢) لا تعد الدار ملزمة بأي شيء تجاه القصص التي لا تقع ضمن الاختيار ولا تعد نفسها مسؤولة عن ردها لاصحابها .

٨) تجري اللجنة تقييم القصص التي تردها وترد على مرسليها خلال اسبوعين من تاريخ استلامها .

٩) ترسل القصص على العنوان التالي :

مكتبة الطفل العربي

ص. ب: (٧٣٠٦) بيروت

لبنان

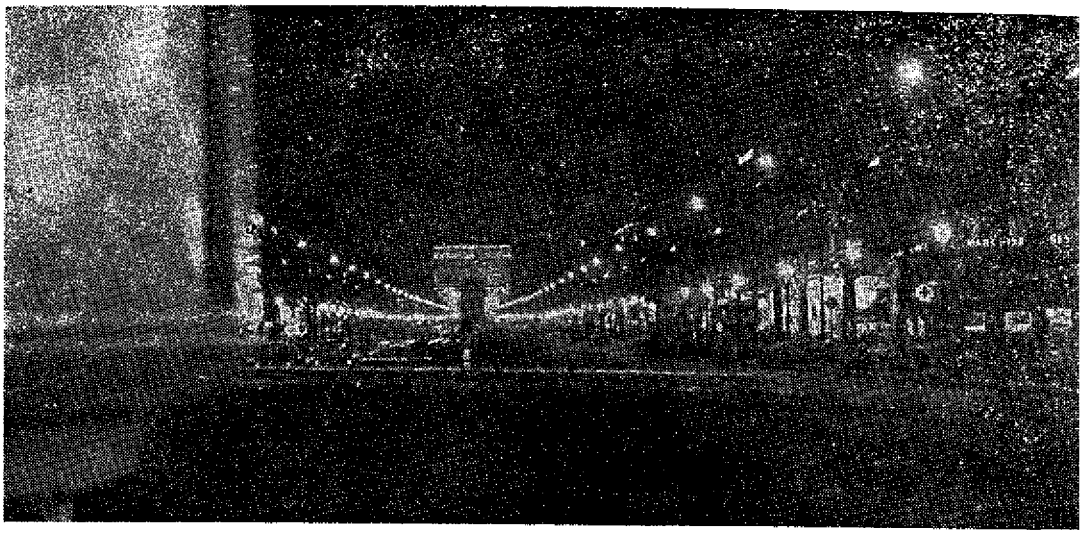

رحلات يومية من الكويت والخليج العربي إلى عواصم أوروبا الرئيسية

الثلاثاء: الكويت - اثينا - جنيف - لندن الساعة ١١,٣٠
الأربعاء: الكويت - لندن بدون توقف الساعة ١٥,٠٠
الخميس: الكويت - روما - فرنكفورت - لندن الساعة ١١,٣٠
الجمعة: الكويت - روما - باريس - لندن الساعة ١١,٣٠
السبت: الكويت - اثينا - فرنكفورت - لندن الساعة ١١,٣٠
الأحد: الكويت - روما - باريس - لندن الساعة ١١,٣٠

سافروا بطائرات الخطوط الجوية الكويتية واجعلوا رحلاتكم سهلة ممتعة بمشاهدة العروض السينمائية التي أصبحت تقدم خلال جميع الرحلات، وذلك علاوة على الموسيقى المنوعة التي يمكنكم الاستماع إليها على ٦ أقنية مختلفة.

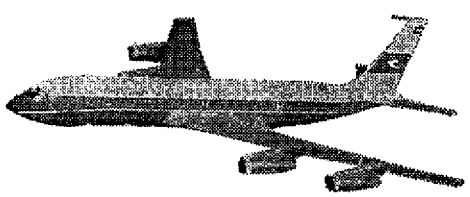

الخطوط الجوية الكويتية

صدر حديثا كتاب

في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية

ومن وحي النكبة ولاجل معالجتها

رسائل ومقالات وبحوث وتعقيبـــات

١٩٤٨ — ١٩٧٢

الجزء الاول

تأليف

محمد عزة دروزة

كتاب من خمسمائة صفحة يحتوي مجموعة كبيرة من المراسلات والتعقيبات المتبـــادلة بين المؤلف وبين عدد من المسؤولين العرب وقادة المقـــاومة الفلسطينيةفي مناسبات قوية هامة، بالاضافة لطائفة من المقالات والبحوث.

منشورات : المطبعة العصرية — صيدا